وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



حسيب كيالي

الأعمال القصصية

(الجزء الأول)

الأعمال القصصية

حسيب كيالي

(الجزء الأول)

تصميم الغلاف

فراس نعوف

الأعمـال القصيـة

حسيب كيالي

(١٩٢١-١٩٩٣م)

(الجزء الأول)

مع الناس * أخبار من البلد * رحلة جدارية

حكاية بسيطة * الحضور في أكثر من مكان

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٢م

صدرت الطبعة الأولى

عـام ٢٠٠٧م

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافـة

(سلسلة الأعمال الكاملة؛ ٨)

الأعمال القصصية: مع الناس - أخبار من البلد - رحلة جدارية ... / حسيب كيالي .- ط٢ .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ج١ (٦٠٨ ص)؛ ٢٤سم.

(الأعمال الكاملة ؛ ٨)

١- ٨١٣,٠٠٨ ك ي ا أ ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ك ي ا أ

٣- العنوان ٤- كيالي ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

تقديم

عن اللغة وقصص وروايات حسيب كيّالي

- ١ -

يعتمد الأدب كنشاط اجتماعي – جمالي على اللغة أساساً في تشكيله وبنائه وفي إيصاله، يعتمد على اللغة لا كقواعد ونحو ومعجمات بل بما هي – اللغة – فكر، أو شكل من أشكال الفكر من ناحية، وإحدى وسائل الفكر في إبراز وتوصيل مضمونه ونوعيته، بل وانتمائه من جهة ثانية، وبمقدار وضوح اللغة وبيانها وجمالها يكون وضوح الفكر وبيانه أيضاً، والعكس صحيح.

الأدب - الجمالي عموماً - هو مساهمة في النشاط - الاجتماعي - الإنساني، وليس شهادة حسن سلوك على انتماء معين، إن الأدب «حسن السلوك» ليس تقصيراً أدبياً - جمالياً فقط، بل هو أيضاً، قصور معرفي، وفي بعض الحالات، عندما يتحول إلى مدائح أو اتهامات أو تسويغات، يصبح قصوراً أخلاقياً كذلك.

من هنا تأتي أهمية التجريب في اللغة، التجريب في الأدب عموماً، فالتجريب اللغوي طريق للتطور الفكري، والتطور الفكري هو إسهام في التطوير الاجتماعي - الإنساني، إن لغة جامدة إن هي إلا فكر كاتب – مجتمع جامد، واللغة الحيوية الجديدة هي لغة الكاتب - المجتمع الجديد الحيوي. اللغة ميدان نشاط الأديب، وصراعه معها هو بعد من أبعاد الصراع الفكري، بعد

من أبعاد الصراع الاجتماعي وشكل من أشكاله. مثلما هي – اللغة – مرآة روح الكاتب.

- ٢ -

إذا كانت اللغة أداة الكاتب وأنبوبة اختباره ومرآته، فمسؤوليته تجاهها هي مسؤولية العامل تجاه أداة يمتلكها، أنتجها وتنتج حياته، إن التجريب والتجديد في اللغة والأدب عموماً، هو الصقل الدائم لهذه الأداة حتى تكون أفضل وأبهى، حتى تكون أسهل استعمالاً وأفضل مردوداً، والتخلي عن الاهتمام باللغة شكل من أشكال الانسحاب، التخلي، الإحجام، عن النشاط في الميدان الذي أختاره الأديب مجالاً وممارسته، ميدان الكتابة والثقافة عموماً.

- ٣ -

في التجربة الاجتماعية - اللغوية العربية المعاصرة اتضح مفهومان للتجريب الأدبي - اللغوي؛ تجريب لمزيد من التعقيد، وهو المفهوم الشائع عن التجريب، والذي بمقتضاه تدور اللغة ضمن جدلها الذاتي، وتصبح مقصودة لذاتها، وتجريب لمزيد من السهولة العذبة وتطوير قدرة الاتصال، وبمقتضى هذا المفهوم للتجريب اللغوي فإن اللغة تتحرك وتتقدم عبر جدلها الاجتماعي والفني، عبر علاقة الخاص بالعام، أي علاقة اللغة - الأدب - بالمجتمع – الإنساني. إن التجريب هنا لا يأتي مقصوداً لذاته، لكنه متقصد لغاية وهدف اللغة نفسها: الإيصال والجمال. الفهم والبهاء. الامتلاك والتمثل المعرفي_ الجمالي للواقع، للوجود.

في اللغة، كما في الفكر، ثمة موقفان تجريبيان، تجريب يعامل اللغة كموجود معزول مستقل لا علاقة له بمن حوله، أو بمن أنتجه، وبمن يتوجه إليه، وتجريب يعامل اللغة كنشاط ذي علاقة وثيقة بالإنسان وتجربته الإنسانية - الاجتماعية - الجمالية. وعندما يتحدث بعض النقاد غالباً ما يذكرون الأول

ويتناسون الثاني، يذكرون تجريب جمس جويس وينسون تجريب تشيخوف، يذكرون تجريب أدوار الخراط اللغوي وينسون تجريب إميل حبيبي وحسيب كيالي. لنتذكر اللغة التي كانت تكتب بها القصة القصيرة قبل مجموعة «أخبار من البلد» لحسيب كيالي، ولنتذكر لغة إميل حبيبي في روايته «الوقائع الغريبة لاختفاء سعيد أبي النحس المتشائل»، ولنتذكر التجارب الجديدة والجادة لمجموعة من الشعراء الجدد في سورية مثل بندر عبد الحميد ومنذر مصري ورياض الصالح حسين، وقبلهم تجربتي محمد الماغوط ونزيه أبي عفش، لنتذكر كل هذه التجارب، وعندها نرى كيف يكون التجريب اللغوي محاولة في مزيد من الوصول والإيصال والجمال.

«على الكاتب أن يكلف نفسه مشقة الإفهام، وليس على القارئ أن يكلف نفسه مشقة حل الرموز والأحاجي. فالأدب كاللغة وسيلة من وسائل الاتصال بين الناس» هكذا قال **إلياس أبو شبكة** منذ الثلاثينيات من القرن العشرين، وربما حتى الآن، والمهمة ما تزال المهمة ماثلة كيف الوصول إلى مزيد من قدرة الاتصال بالناس، وأي تجريب أدبي - لغوي يمكن أن يؤدي هذا الهدف؟!

السؤال ما يزال مطروحاً والإجابة عليه بمزيد من محاولات التجريب.

حسيب كيالي (١٩٢١- ١٩٩٣) مثال لهذا التجريب، أو التجديد، فقد كانت لغة الناس اليومية، وبكل «فصاحتها» وكل طرق بيانها، وكل ما فيها من ظلال وعفوية وبراءة وخبث وسخرية وألم وتلميحات ذكية هو ما أضافه حسيب كبالي إلى القصة السورية القصيرة ولغتها تحديداً.

خلص حسيب كيالي السرد القصصي من بلاغته القديمة، والمشهد القصصي «دراميته» وجديته وعبوسه، واللغة من معاطفها البالية المترهلة، مثلما أدخل القصة القصيرة رحابة الحياة اليومية بناسها البسطاء، لكن الأذكياء على طريقتهم، والساخرين، لكن بلغتهم ولهجاتهم ومشكلاتهم، بعفوية

وضحكهم النقي، بتحايلاتهم ومكرهم اللماح في السلوك والحديث، ولهذا فلا عجب أن يكون عنوانا مجموعتي حسيب كيالي الأوليتين «مع الناس - ١٩٥٢» و«أخبار من البلد - ١٩٥٥» فهكذا تصبح القصة عيشاً مع الناس، وإخباراً عن البلد الذين يحتاج إلى قلم، أو لسان، يخبر عنه.

إضافة إلى اللغة «الشعبية» ومعها، وربما من خلالها، قدم حسيب كيالي «السخرية» عيناً ينظر من خلالها إلى الواقع، والسخرية هي الجانب المرح من الإنسان، الجانب الذي يدرك الوجه الآخر للحياة، الوجه الذي يقول إن الحياة ليست مأساة فقط، بل ثمة جانب مرح لطيف يستحق الحياة والابتسام، السخرية والضحك يخففان من غلوائنا ومن عبوسنا، ويهدآن من مخاوفنا، مثلما يطامنان من غرورنا، وربما يكون هذا الجانب «السخرية» إلى جانب اللغة من أهم إضافات حسيب كيالي إلى الأدب القصصي العربي.

* * *

تحية وتقديراً لهذا الرائد القصصي السوري الكبير، تقدم وزارة الثقافة الأعمال القصصية(*) والروائية الكاملة لهذا الكاتب، ضمن مشروعها لإعادة طبع الأعمال الكاملة، أو مختارات منها للكتاب السوريين المؤسسين.

دمشق ٢٠٠٦

محمد كامل الخطيب

(*) لأسباب لا مجال لذكرها استثنينا من هذه النشرة لأعمال حسيب كيالي القصصية الكاملة مجموعته «حكايات لابن العم – ١٩٩٢» فعذراً. م. خ.

مــع النــاس

مقدمة

بقلم: مواهب الكيالي

هذه الرابطة.. أو لنقل هذه الحزمة الشابة من الأقلام.

إنها لم تتناد على طريقة رقاع الدعوة لكي تتثاءب في حديث خاطف عن الأدب في هذا البلد، ثم تفترق بعد عدة اجتماعات، على اسم برّاق، وندوة أنيقة، تضم أعضاءها في بعض الليالي، على سهر وسمر؛ بل اجتمعت، لأن استجابة صميمية جمعت فيما بين أفرادها، وربطت قلوبهم...

ربطتها حول قضية تستمد عناصرها من قضية بلادنا: الحرية. ومن قضية الإنسانية: السلام. فكان مولدها استجابة لا تنادياً..

استجابة لكل ما في صدور قومنا من أشواق تنضفر حول أدب قاطع، في صف الشعب..

وقد بلغ أدب الرابطة، فيما قدمه إلى اليوم من آثار في القصة والأقصوصة والشعر والمقالة، أن يأخذ سبيله، يوماً بعد يوم، إلى الكشف عن الوجه الحقيقي الرائع لشعبنا، ويوضح صلته بشعوب العالم وقضاياه. فما تقرأ من إنتاجنا أن قرأت: كلاماً مسطوراً يقف عند اللفظة المنتقاة، والصورة المصنوعة، بل ترى الإنسان، وتشم رائحة الأرض، وتحس لهب الحياة.

إن أدبنا هو التعبير المتطور عن الإنسان المتطور في حركته الصاعدة لتحرير الأرض من العابثين، وتنقية الحياة من أنصار الموت.

وبديهي أن يكون لهذه المثل التي ننشد، سبيلان، أحدهما ذو وجه إيجابي يرسم الطريق الصاعدة للصاعدين، والثاني: ذو وجه سلبي، يكون انعكاساً لنضالنا الفكري، الذي يستقي قوته وعناده من قضيتنا، ويتصدى بقسوة تستهدف الصميم من كل أدب يرمي إلى تمييع القوى التي تتميز في صدورنا.

من هنا انبثقت قضية الإلزام في أدبنا، وهذا طبيعي بالنسبة إلى جماعة ترى في الأديب صانعاً، مثله مثل جميع الصناع.

ولما كانت الصناعة - كل صناعة - قضية اجتماعية، تنطوي في أعماقها على المسؤولية، فقد وجدنا أنفسنا، من حيث ندري ولا ندري، أمام مطلب رفيع شاق، هو تطوير الحياة الفكرية في بلادنا، وتمزيق الأستار عن كل ما يعادي شعبنا، وتحمل مسؤولية كل ذلك...

وليس عجيباً أن يتخذ معظم أعضاء الرابطة القصة سبيلاً إلى هذه الغاية، فهي - بصرف النظر عن ميل الإنسان إلى الحكاية منذ الأزل، بديل ميل الطفل الغريزي إليها - شيء غير دخيل على عبقريتنا العربية. فثمة تراث عظيم للقصة في تاريخنا. ولعل في قصص القرآن، دليلاً على أن الجاهلية، كانت تربة صالحة للأساطير والقصص. وآية ذلك، ما كان يحاك حول النصاب والأصنام، وما كان يتداول من أيام العرب في الجاهلية، ثم في الإسلام.

ومع تعاقب العصور في التاريخ الإسلامي، تعاقبت محاولات القصة، إلى أن انتهت رسالتها إلى الرواة الذين لا يزال محلهم عامراً في بعض قرانا..

ولئن تساءلنا، في حدود الآثار الباقية: هل كان للقصة في تاريخنا رسالة؟.

فإن الجواب - في اعتقادي - لا يمكن أن يكون سلباً.

نعم.. لقد رأينا أن هذه الرسالة، انحرفت في بعض الأحايين، عن مقصدنا الكريم في تطوير الجماهير، ولكن السبب كان من القاصين لا من القصة، إذ وضعوا كفاياتهم في خدمة الطبقات الحاكمة كما فعل صاحب أو أصحاب قصص عنترة حين باعوا أنفسهم من الحاكم بأمر الله الفاطمي..

ولكن يجب ألا ننسى أن أدب القصة الموجه لم يبدأ، ولم ينته عند خرافات كليلة ودمنة، التي بث فيها ابن المقفع، ما يطلبه من الحاكمين. فهناك مثلاً: قصص سيف بن ذي يزن الحميري وأبي زيد الهلالي، وتغريبة بني هلال، بل وعنترة أيضاً.. كانت كلها ملاحم، تنفخ روح البطولة في الرماد الذي خلفه الغلمان الأتراك والتتر والعثمانيون. وحتى الأبطال الفسقة، في ألف ليلة وليلة، وعلي الزيبق، وحمزة البهلوان، وفي قصص الشطار والعيارين في الأدوار العباسية الأخيرة، كانوا، على ما فيهم من خروج عن جادة الأخلاق القويمة، جماعة متميزة من الناس، يستهدف مكرها رؤوس الظالمين، فتنهال عليها حيناً، وتحتال حيناً آخر، وهي في هذا وذاك، عظيمة التقديس لمكارم الأخلاق.

ولئن بلغت هذه القصص أن تثقف الجيل الماضي، وتنسق الحياة الداخلية للفرد، بإبراز خطوط واضحة لها متمنطقة مع ذاتها، فقد حق للجيل الحاضر أن يجد ذاته في إنتاج معاصر، يبلغ في تأثيره أن يهيئ القارئ العربي، لمرحلة النضال، يمر بها اليوم، ويثب بها وبه، إلى مرحلة منتظرة قريبة.

ولست أزعم أن قصص أخي حسيب أوفت على الغاية من رسالة أدبنا، ولكنها أوفت على أقصى الغاية من خلق النموذج المحلي عندنا، مأخوذاً عن إنسان الجيل الماضي.

وهذا النموذج في مجمل سماته: رجل طيب القلب، محب للناس، غيور، لدن، قد ينثني أمام العاصفة، ولكنه لا ينكسر أبداً، وهو إلى ذلك أسوان

السخرية يقيم ضلوعه على نوع من الإشفاق المتأمل، وعلى لون من الترقب لما سيكون، وهذا الـ «سيكون» يشير من طرف خفي، إلى أنه يجب أن يكون من صنع يديه، لا أن يأتيه من عل..

هذا النموذج الواضح هو الذي انتفضت فيه بطولات سيف بن ذي يزن وعنترة، في المعارك التي خاضها ضد الاستعمار طوال الثلاثين السنة الماضية..

إذن فهي مهمة شاقة، كثيرة الأشواك، أن تكشف عن حقيقة بسطاء الناس عندنا، عن حقيقة جماهيرنا، قام بها حسيب على أكمل وجه، برشاقة عذبة، أما اللغة التي تناول بها هذا الموضع الزخار، فقد جهد فيها، أن يقرب الشقة بين الفصحى القابعة بكل جلال في بطون الكتب، وبين الدارجة التي تحيا في كل مكان، وبذلك أغنى لغة الكتابة بذخيرة من الألفاظ، بلغت بأبسط وصف أن تنقل أفكاره واضحة إلى القارئ..

وبعد...

لعل زملائي أعضاء الرابطة، قد أرادوا امتحان أعصابي فطلبوا - بما لهم من دالة عليّ - أن أقدم أخي حسيباً إلى القراء.. فأنسى أنه اليوم نازح، تفصلنا مسافة ما بين دمشق وباريس، وأنسى أن كل جارحة بي تنطق شوقاً إلى لقياه، فلا أكتب إلا ما يقال في أدب غريب، لم يعيش صاحبه في قلبي كما عاش حسيب..

ولست أرجو إلا أن أكون خرجت من الامتحان، وأنا العصب الصليب الذي أرادوا والقلم الذي يقول الحق ولو على حبة قلبه.. يقوله على أخيه الشقيق ويمشي..

دمشق

مواهب الكيالي

زبون واحد!

كانت الدابة موقرة بالأحمال، تسير في الطريق الصاعدة الظليلة، والشمس تتسلل من بين الأغصان، وعلى جذوع الأشجار العتيقة، يمرق بين حين وآخر حردون، بلون اللحاء، ذنبه مشرع إلى أعلى، وعلى وجهه معنى من التوجس والتطلع.. ومن بين الأدغال تصدر أصوات حادة لطيور أو حيوانات، وفي الفضاء ترنق رائحة الصيف!

وكان يسير خلف الدابة فتى أصهب، حليق الشاربين، يلبس بنطالاً وسترة رسمية، وصدرية لها جيبتان صغيرتان تصل بينهما سلسلة ذهبية، وهو زي غريب على أهل الجيل المتفرد في أقصى الشمال! كان الفتى يقول في نفسه: « ترى هل يذكر أهل الضيعة عبد الغفور بن آمنه، الولد اليتيم الضئيل الذي نزح منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً عن ضيعته الحبيبة في طلب الرزق؟..» وأحس قلبه يزداد خفقانه لما ذكر الضيعة.. وتساءل في لهفة: «ألا تزال كعهدي بها تختبئ بين الأدغال الملونة؟ والركية الغزيرة عند بستان أبي سعيد؟ ومزارع الأربعين! أما يزال الطحلب ينبت على صخوره النديانة وتثيره الشموع في الليل؟ وماذا يقول أهل الضيعة، إذا رأوا صبيهم، أجير الحلاق، حلاقاً كبيراً، يملأ العين ويلبس السترة والبنطال؟ وماذا تقول أمه؟ بل ماذا يقول معلمه الأول أبو إبراهيم؟».

ولما ذكر أبا إبراهيم انفرجت شفتاه عن ابتسامة فرحة، لأنه تذكر سوق الضيعة التي لم تكن أكثر من دكانين اثنين، أحدهما لمحمد الصباغ، يبيع فيه الدخان فضلاً عن صنعة الصباغة التي يزعم أنه توارثها عن آبائه منذ القديم،

ومنها جاءت كنيته. أما الدكان الآخر فكان لمعلمه أبي إبراهيم. وهو رجل، متين البنيان، صبيح الوجه، في عينيه الواسعتين السوادوين بريق أبوة حنون. وكان لدكانه شأن عظيم في حياة الضيعة فهو ناد للكهول، ما إن تتخبأ الشمس في الأيام الصاحية وراء الجبل، حتى يهرعوا إلى الدكة الحجرية أمامها، يقعدون، ركبهم إلى الأعلى، يدخنون في خمول ويتحدثون في ملال.. فإذا دخلت الدكان لفت نظرك ستارة سوداء تمتد من الحائط إلى الحائط معلقة بحبل طويل، تشطر المكان إلى شطرين، أحدهما للعطارة والخضرة وبيع النسيج، وأما الآخر ففيه مقعد كبير، على أحد مرفقيه فوطة، وأمامه مرآة كبيرة غبشاء، تحتها رف خشبي نثرت عليه أدوات الحلاقة: موس ومقص، ومشط طار بعض أسنانه، ومكنة كبيرة لحلق الشعر، شديدة الشبه بما يتخذ لجز صوف الخرفان.. في وسط هذه الأدوات كلها ينتصب مصباح بترولي أغبش، كالمرآة، زجاجته مفلطحة تحمل أثر السخام.. وفي زوايا المرآة الكبيرة، كان العنكبوت قد شغل مكوكه فنسج تزيينات تظهر من بعيد كأنها دانتيلا ناعمة، حالكة اللون، وسخة تهرأت بفعل الأيام!

وكان أبو إبراهيم يحلق لجميع أهل الضيعة حلاقة واحدة لا تتغير! كان يضع الفوطة على صدر الزبون ويربطها عند العنق بتكة من القنب ثم يروح يعمل ماكنته الكبيرة في الغرة والعذارين والقذال على حد سواء. حتى يصبح الرأس كالقنفذ الخائف.. فإذا تم له كل هذا جاء دور «الهندسة» وهي عملية خفيفة بالمشط والمقص في السالفين، هدفها جعلهما مستقيمين كالمسطرة.. ولكن أحداً من أهل الضيعة لم يعن يوماً من الأيام بالتحقيق عما إذا كانت الهندسة تجعل السالفين كالمسطرة أو كأسنان المنشار.. غير أن معلم المدرسة خاطب أبا إبراهيم ذات مرة ممازحاً: «يجب عليك أن تتعلم القص على الفن الحديث يا أبا إبراهيم!» فاندهش أبو إبراهيم وقال: «غريبة، أنا والله حلاقتي ما لها نظير. أنا لست ابن اليوم في هذه الضيعة يا أستاذ منذ عشرين سنة أحلق للناس، وكلهم فوق الرضا رضا!»..

ومن ناحية الجرة، كان أبو إبراهيم يرى من العار النظر فيما يدفع إليه: كان يمد يده على استحياء وراحتها إلى أسفل، فإذا أحس بالدراهم أسرع في إخفائها خجلان شاكراً..

وكان كل مخلوق في الضيعة يجد حاجته عند أبي إبراهيم، وفي مطلع كل سنة دراسية، كان ينطلق عدد عديد من الكائنات الصغيرة إلى دكان أبي إبراهيم فيسدون بابه ويتصايحون بأصواتهم الحادة المتنافرة يعددون طلباتهم.. فيستمع أبو إبراهيم إليهم بكثير من الجد والاهتمام، ويقيد طلباتهم في دفتر صغير، ثم يغلق الدكان ويسافر إلى المدينة! فإذا عاد، وعلم الأطفال بعودته، تراكضوا إليه، وازدحموا أمام الحاجز الخشبي، وأعينهم الجذلى المترقبة مسمرة في يديه، وهو - وراء الحاجز - يصيح عليهم:

- أحمد محمد جمعة!

فيجيب ولد من إحدى الزوايا:

- الله!!

فيقول أبو إبراهيم، وعيناه في دفتر الصغير ويده على أكوام الرزم:

- لوح أسود، وقلم حجر، وكتاب التهجي. عبد الحليم سيفو: فيصرخ ولد آخر:

- اللهّ

فيقول أبو إبراهيم:

- كتاب القراءة الثاني، دفتر مسودة، علبة طباشير.. العملة يا أولاد، طالعوا عملةّ..

غير أن الأولاد لا يحملون عملة في جيوبهم، فيبدأ أبو إبراهيم عملية جديدة في قيد الديون على الآباء والأمهات، ديون لا تستحق قبل وقت الحصاد..

كان عبد الغفور يستعيد كل هذا ويضحك في سره، ويقول في نفسه: «ترى هل بقي كل ذلك على حاله؟».. وطفر ذهنه إلى دمشق، حيث كان

يشتغل، وتصور محلات الحلاقة، التي تضع التعرفة في صدر المكان، مكتوبة بخط كبير واضح، وفيها تفصيل لأسعار الحلاقة والقص وغسل الرأس، حتى تمشيط الشعر كان له في التعرفة سعر. قال عبد الغفور مفكراً: «يجب أن يتعلم أهل ضيعتنا كل هذا. فأنا لم أحصل العدة مجاناً عن روح أبي.. لقد جلبت لهم عدة ليس لها مثيل في الشام ذاتها!»

ووصلت الدابة الموقرة بالأحمال إلى ركية الضيعة، كان حولها فتيات على رؤوسهن جرار، فلم يتوقف عبد الغفور بل عرج على السوق في طريقه إلى داره. وعند دكان أبي إبراهيم تريث قليلاً وصاح:

- عمي أبو إبراهيم.

فبرز رأس أبي إبراهيم من خلف الستارة السوداء.. كانت ما تزال إياها، وحدق بالفتى الأصهب، فلم يبد عليه أن عرفه ولكنه قال:

- أهلاً وسهلاً؛ أمر؟

لم يكن قد تغير فيه شيء كبير.

قال الفتى:

- أنا عبد الغفور بن آمنة.

فأزاح أبو إبراهيم الستارة ووثب خارج الدكان وهو يقول:

- عبد الغفور! ولك مرحباً! يا شيخ أطلت علينا الغياب. الله الله، أصبحت شاباً جميلاً. لقد تركتنا صغيراً كالقط الفرنجي! وتعانقا. قال عبد الغفور:

أردت أن أراك قبل رؤية أمي. أنت متفضل علي يا عمي أبا إبراهيم.

قال أبو إبراهيم:

- إن أمك تجيء إلى هنا كلما وصل منك مكتوب. كنت انبسط لسماع أخبارك ونجاحك كيف حال تلك البلاد؟

قال الفتى:

- والله بلاد عظيمة يا عم. فكر أن الحارة هناك قد ضيعتنا عشر مرات!»

فصفر أبو إبراهيم وقال متعجباً:

- الحارة الواحدة:

قال الفتى مؤكداً:

أي والله العظيم، الحارة الواحدة!

* * *

في الأيام التالية، استأجر عبد الغفور دكاناً في سوق الضيعة وشرع في تنسيقها وتزيينها وإعدادها.. ركب واجهة بلورية، ورشق في داخلها علب الكريم والبودرة وشفرات الحلاقة ومواسير معجون الأسنان. ودهن خشبها بلون أزهر ومفرح، وفي الداخل تدلى لوكس لامع من النيكل، وعلى الجدران صور لممثلات في أوضاع فاتنة، وفي الصدر مرآة بلجيكية يحسبها الناظر إليها جزءاً من الحائط نفسه، وتحتها رف من الزجاج الشفاف، عليه مضخة صغيرة للعطر، وقناني طيوب وعلبة قطن معقم، ومن السقف تدلت مروحة يدوية بيضاء لها ذيل مكشكش، يحركها حبل متصل بمرفق المقعد، إذا أنت شددته تأرجحت المروحة، وهفهف منها نسيم وهو معطر يفتر الجفون ويسلم الزبون إلى تنويمه لطيفة عذبة. ولا عجب من كل هذا أن مقعد الحلاقة شديد الشبه ببهلوان لدن الأعضاء فجذعه ينفتل في كل جانب، ورقبته تطول وتقصر، وفي أسفله مداس يرفع القدمين رفعاً هيناً مريحاً!

كان عبد الغفور ينسق دكانه بحماسة واندفاع، وكانت تخطر في باله خواطر ضاحكة: «سيطير عقل الضيعة كلها غداً، وستضحك كلها من مرآة أبي إبراهيم، وعدة أبي إبراهيم، وحلاقة أبي إبراهيم!» وكان يفرح عبد الغفور أن يرى الناس يتحلقون أمام الدكان في غدوهم ورواحهم ويتفرجون ببدائعها. وهو منهمك في ترتيباته يتظاهر بأنه لا يعيرهم انتباهاً.. كان إذا جاء المساء ينصرف أولاد المدرسة فيزدحمون أمام الواجهة البلورية، يلصقون أنوفهم على زجاجها حتى تلتوي وتترك آثارها عليه.

وفرغ عبد الغفور من إعداد محله حتى صار زينة وفرجة. ولم ينس أن يعلق على الحائط تعرفة مثل تعرفة بيروت، عليها ختم نقابة الحلاقين..

وأخذت الأيام تمضي والناس ما يزالون كلما مروا بالدكان تريثوا طويلاً، وجعلوا يثقبون الواجهة بنظرات مدهوشة مأخوذة ثم... ثم يمضون، والعجب يظل ينداح على وجوههم حتى يغيب.. وكان عبد الغفور يرمي بصره إلى دكان أبي إبراهيم. فيرى الناس فيها بين داخل وخارج، تعج عجيجاً من الصباح حتى المساء. وكان يحس بأسى يكاد يجرح قلبه على أن أساه لم يكن قائماً قانطاً، بل كان مزيجاً من الإشفاق والرثاء على هذه الضيعة التي لم تغيرها ثلاثة عشر عاماً كاملاً.. على أن أملاً خفيفاً بعيداً كان يضيء مشكلته، وكان يقول في نفسه: لن يدوم ذلك، أن زبوناً واحداً يحل المسألة، زبون واحد يجر الضيعة كلها إلى هذه الدكان!».

وذات يوم. فتح باب الدكان شيخ أشيب نحيف، منحن قليلاً، في يده غليون من خشب الزيتون. فتح الباب متردداً وتلبث قليلاً في المدخل، ثم توكل على الله ودخل قال:

- الله يمسيك بالخير يا عين عمك!

فخفق قلب عبد الغفور، وفتحت في شفتيه ابتسامة صارخة ووثب من كرسيه إلى الباب وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، تفضل..

بدا على الشيخ أنه متحير، فقدم له عبد الغفور كرسياً وساعده على الجلوس.. ورأى من الخير ألا يدعوه فوراً إلى الحلاقة بل يؤنسه ويتلطف به.. وقام إلى رف وراءه، فأنزل علبة لامعة قدم للشيخ منها قطعة من السكر ملفوفة بورق فضي.. فانبسطت أسارير الشيخ، وأخرج من جيبه كيساً كبيراً، ففك عنه البزيم وجعل يحشو غليونه بتبغ أسود مفروم فرماً خشناً. وتموجت سحب رمادية في فضاء المكان. قال الشيخ:

- الله يعطيك العافية. سمعت من أبي إبراهيم أنك جئت من بلاد الشام.

قال عبد الغفور:

- نعم وإن شاء الله أستطيع خدمة الضيعة!

قال الشيخ وهو يسحب الكلام سحباً:

أي، على خير..

ومرت فترة صمت، كان عبد الغفور خلالها يقول في نفسه:

«سيلحق لا بد أنه سيحلق. إن شعره طويل!»

وقال الشيخ:

أنت يا ابني مثل ولدي وأعز.. قد تكون نسيتني، أنا عمك جاسم العلوان، نحن بيننا حقوق قديمة..

وبعد فترة صمت تابع:

- كان المرحوم والدك مثل أخي.. أنا أمسكت يده يوم التلبيسة، يوم تزوج أمك. الله الله شي لله هاتيك الأيام.. كان هو، رحمة الله عليه، يريد أن يتزوج من أريحا، ولكننا تكاثرنا عليه وزوجناه من الضيعة.. معلومك زيوان البلد ولا حنطة جلب!

وراح الشيخ يمعن في ذكرياته ويذهب في خواطر كل مذهب وعبد الغفور يتصنع الانتباه والأدب، والمشاركة في الضحك والعبوس والتحسر.. إلى أن تنحنح الشيخ في مجلسه، فخفق قلب عبد الغفور من جديد، وهب واقفاً فوقف الشيخ أيضاً، ولكنه مد يده إلى الحلاق الفتى وقال له:

- أي خاطرك! كان علينا أن نحلق عندك ولكن معلومك أبو إبراهيم يغضب علينا.

ودار ظهره وقصد الباب!

* * *

معيد الكلية !

رقد آخر تلميذ في المهجع الواسع، وأطفئت الأنوار، غير ذبالات خافتة كانت تنسل من الرواق الطويل إلى الغرف، يرتعش نورها الأصفر، كما ترتعش خيوط الصباح الطفل في عيني أرمد أعمش وفي الظلام والصمت المخيم على الرواق، كانت تعس خطوات المعيد الوانية، كما لو كانت تتقلع من البلاط قلعاً فإذا ما سقط ضوء أحد هذه المصابيح المريضة على عابر الرواق رأيت وجهاً شاحباً منهوكاً ويدين معروقتين وقامة مهزولة تكاد تتقصف..

وفتح المعيد باب المهجع، ثم أوصده بتؤدة ورفق كان يخشى أن يزعج هؤلاء الصبية النائمين، أو يعكر عليهم نومهم الهنيء العميق وكان يفكر وهو في طريقه إلى مرقده، بغير قليل من المرارة: «ولم لا ينامون ملء الأجفان وقد قضوا نهارهم كله وهزيعاً من ليلهم في تعذيبي ومداعبتي، ألأم مداعبة!».. وغاص في نفسه يتقرى عواطفه نحو هؤلاء الشياطين الصغار! وتساءل «أأبغضهم؟» ولكن صوتاً صادراً من تخت قريب قطع عليه تساؤله، فأدنى أذنه فأصغى، فسمع يونس ناجي، الطالب في الصف السادس يتكلم في نومه.. كانت كلماته متقطعة، يغيب أكثرها، يسمع منها قوله: «لا يا سيدي.. كل شيء إلا المعيد! لا تجادلني فأنا أحبه..» وينقطع الصوت فترة ثم يعود: «معلوم، لأنني أحبه، نعم أعذبه لأنني أحبه!»

ومضى المعيد في طريقه، والأحاسيس تصطرع في جوانحه.. متباينة، أكثرها ملتاع أسوان. كان يهمس: «هه يعذبني لأنه يحبني، ظريفة والله العظيم! كلهم يحبونني، يحبونني كثيراً حتى أكاد أبكي من شدة الحب،

يحبونني إلى درجة يهددونني معها في لقمتي الشقية. أمس قال لي المدير: أنت تأخذ الأولاد باللين يا أستاذ صبحي ذقنك رخوة يجب عليك أن تقسوا عليهم.. سمعت أنك لا تحضهم على الصلاة، وأنت تعلم أن سمعة معهدنا تقوم على إقامة الشعائر الدينية في أوقاتها!

قال هذا بلهجة مزيج من التهديد والتهكم والنصح، أضفت على وجهه صفرة شنيعة فوق صفرته وشفته العليا قد فنّشت كقطعة من المحار قلبت على قفاها. ولكن ما حيلتي يا أبا شفة، وأنا أنفر من القسوة حتى في الحض على الصلاة بأوقاتها! أأعاملهم بمثل ما تعاملني به الأقدار، وقلبي ليس قطعة من الصوان الأطرش!...»

ودلف الأستاذ صبحي إلى غرفته داخل المهجع.. كان يسميها الخم، وهي غرفة خشبية قصيرة الحيطان، فيها تخت مدهون بالأبيض ومنشفة متهرئة وطاولة صغيرة عليها فرشاة ثياب ومشط فقد أكثر أسنانه.. وبدأ المعيد يخلع ثيابه في أناة وعناية على الرغم من البرد القارس الذي جمعه على نفسه.. ولما خلع بنطاله أمسك به من كمه بكلتا يديه، وجعل يضعه على وجهه ويعرضه على النور الخافت كي يتأكد من سلامته.. كان يشعر أن البنطال في أيامه الأخيرة، يكاد يصبح خيطاناً متباعدة يظهر منها الضوء، أيضاً.. فطواه بحرص كبير، ورفع الفراش ودسه تحته ثم نسل منامته القطنية العتيقة من تحت اللحاف ولبسها، ولف رأسه، على شكل العمامة، بالمنشفة البيضاء التي وصفناها، وانزلق تحت اللحاف وقد تكوم حتى التزق فخذاه بصدره، وانطمر كله، جاعلاً ذقنه بين ركبتيه ينفخ في لحمه بقصد جلب الدفء..

ومضت ربع الساعة على هذه الحال فهمس المعيد في صدر نفسه بسخرية وقال: «أظن أنه آن أوان الكشاف» والكشاف عند المعيد، أن يمد إحدى قدميه تتحسس فتراً أو بعض الفتر من الفراش، فإذا وجده دافئاً انمدت

فتراً آخر، وهكذا.. حتى يمد ساقيه إلى آخر السرير.. أرسل المعيد كشافه فعلاً، فوجد الطريق أمامه دافئة، فتابع زحفه.. ولم تمض قرابة ساعة حتى أحس الفتى الدفء، ولم يعد قلبه يرقص وينط من البرد!..

ولبث في السرير، رغم دفئه، لا ينام.. أخذ يستعرض يومه المكدود ويربطه بماضيه القريب.. إن رفاقه، الآن يتابعون دروسهم في الجامعة.. أما هو فقد اضطر إلى الانقطاع عنها، لأن عائل الأسرة، أباه، قد مات وخلف العبء عليه.. وقبلته هذه المدرسة الدينية معيداً، بعد وساطة وشفاعة من أحد أساتذته في الثانوي، على أن يقوم، فوق وظيفته كمعيد، بتدريس التاريخ والجغرافيا في الصف السادس. والصف السادس هذا، مجموعة متنافرة من طلاب لم تربط بينهم وحدة. كل واحد من مدرسة، أكثرهم من المترفين الأغنياء الذين يرون في المدرسة ألهية وتزجيه فراغ.. والأنكى من هذا أنه في سن كثير منهم، لأنه لم يكن ناهز التاسعة عشرة من عمره في تلك الأيام..

وضحك ضحكة كالعلقم حين تذكر وضعيته في الدرس، ولا سيما الدرس الثاني.. فقد حضّره وافتن في تحضيره، وأعد نفسه لإلقائه بهدوء الشيوخ، وتصور الطلاب مرهفي الآذان مأخوذين بهذا السحر المبرقش الذي يتناثر من فم هذا المعلم الفتى، هذه الفلتة من فلتات الزمان..

ودخل القاعة. كانت تحوي أكثر من ستين طالباً، فاستقبله الصياح والسباب والشتائم وكان أحد الطلاب المدللين جالساً على كرسي المعلم، وراء المنبر، يقلد أحد الأساتذة.. وآخر يتأرجح بين صفين من المقاعد، ويرفس رفيقاً له بمقدم حذائه.. وطارت طراحة في الهواء استقرت على المنبر، أمام الولد المدلل، فزمجر هذا محتجاً، فتبعتها عشرون طراحة أخرى.. وثارت عاصفة من الضحك.. وأخيراً انتبه أحد التلاميذ، ولعله كان مؤدباً من باب الصدفة، فصاح بأعلى صوته، بلهجة عسكرية: «قيام!»

فقام بعض الطلاب، وتلكأ آخرون، ولم يقم بعض آخر! فتظاهر المعيد المعلم بأنه لم يلق بالاً إلى ذلك، واستعان بابتسامة مجروحة، ودعاهم إلى الهدوء بنقرة لطيفة من قلمه على المقعد الأمامي، وشرع يلقي درسه!

كان قد هيأ نفسه للإتيان بمقدمة من علم التاريخ تبدأ بالحديث عن هيرودوت وتاريخه، ونقد طيب لطريقته، يخلص منها إلى الطريقة العلمية في تاريخ التاريخ!

وبدأ الأستاذ صبحي حديثه قائلاً: «سأحدثكم أيها الأخوان عن منشأ كتابة التاريخ، في شخص المؤرخ اليوناني هيرودوت..» ولكنه لم يكمل، لأن تلميذين في أقصى الصف اشتبكا، فجأة في ملاكمة، ما لبث أن انضم إليها طلاب آخرون واغتنم الولد المدلل، الذي كان جالساً على المنبر حين دخول المعيد، اغتنم الفرصة فصاح: «انتبهوا لهيرودوت!» فأجابه آخر: «له يا عكروت!» واشتعل الصياح من جديد.. وبدأ الصف كأنه ملعب! وهو، مدرس التاريخ والباحث في هيرودوت اليوناني، أحس كأنه على بعد مئة كيلو متر من الصف قائداً انهزم جنوده.. وازدادت الضجة حتى جلبت المدير ورئيس المعيدين اللذين دخلا الصف عدواً.. فخرس الضوضاء كما لو قطعته بسكين لحام، وعاد كل طالب إلى مقعده كأنك ألصقته به لصقاً.. وحدق المدير ملياً في الأستاذ صبحي الذي نكس بصره إلى الأرض، مثل تلميذ مذنب، ثم التفت – المدير – إلى الطلاب وصاح بهم وهو يرتجف من الغضب، بصوت شديد الشبه بالعواء:

- هذه مدرسة لتعليم الفضيلة وطاعة الله وخفض جناح الذل للمدرسين و.. المعيدين، هذه مدرسة هذه وليست إسطبلاً ولا خاناً ولا مربط حمير.. أفهمتم؟.

همس المعيد في نفس: «آه، من أين أجيء بمثل هذه السلطة؟ آه يا أولاد لماذا لا تهدأون أمام لطفي وإيناسي.. آه، لو عطفتم على فقري وخصاصتي.. آه، لو دريتم بحبي ووجدي، وأمنياتي التي أنسجها حولكم!

أحتم أن يكون وجهي أصفر كالجثة المخنوقة، وصوتي كالعواء، وشفتي كالمحار المقلوب حتى تطيعوني!»

وقطع عليه المدير نجواه صائحاً به:

- أستاذ صبحي، أريد عقوبات، حرمانات عاقبهم. معك صلاحيات معاقبتهم حتى الطرد، هؤلاء الأوباش الخنازير!.

وغمغم الأستاذ صبحي:

- أمركم أستاذ!

- ماذا أقول لك؟

- أمركم أستاذ!

- آ؟

- أمركم أستاذ!

وخرج المدير، يهرول وراءه رئيس المعيدين بساقيه القصيرين وجذعه الطويل، ونظراته الزائغة كشاش الحمام، وقبل أن يتوارى خلف الباب، رمى الأولاد بنظرة جارحة كالموس!

وساد الصمت على الصف، غير همسات خافتة.. وتهافت المعيد على الكرسي خلف المنبر، ورأسه منكبس إلى الأسفل.. وأطلق زفرة من أعماق كبده..

* * *

ذكر صبحي كل هذا وهو لا يزال مطموراً تحت اللحاف وقد استشعر الدفء يسري في جسده كالخدر اللذيذ. فتمنى لو أن الصبح لا يطلع وانقلب على جنبه الأيسر، وخطرت أمه على باله، بوجهها الأبلج النقي، وتلك المسحة الرقيقة من أسى تتلألأ في عينيها، وهي تعطف على أختيه وتلبسهما صدريتهما وتودعهما إلى المدرسة بأرق الدعوات. وتذكر أشياء أخرى: العصافير والأعشاش.. كروم العنب والكرز التي كان يغزوها هو

ورفاقه.. الدانون الذي كان يصطاده.. أباه يضمه إلى صدره ويغمغم: «لم أترك لأمك وأختيك شيئاً، لا كنزاً ولا عقاراً..لقد تركتك أنت لهن.. أنت كنزهن!»

ثم إن هذه الصور والذكريات، ما لبثت أن أخذت تختلط بعضها ببعض تغيب وتحضر، وتتدرج في ضباب معتم كالسحب الحبلى بالمطر، ثم تطوى وتنشر وتطويه معها.. حتى أدركه سبات عميق..

في اليوم التالي أفاق مع الفجر، أيقظه الخادم المسن ذو الذقن البيضاء والوجه المستدير، وهمس في أذنه بأبهة وفخامة:

- سعادة المدير في غرفته يا سيد!.

فقفز من سريره واقفاً، وتناول منشفته وركض إلى المغسلة ركضاً، فتوضأ وارتدى ثيابه، ثم أوقظ التلاميذ بمفتاح صغير كان يدق به على أسرتهم،حتى إذا فرغ من كل هذا ذهب إلى غرفة المدير، وهو يقول في نفسه: «يا صباح الزفت، العمى في قلبك، أحالم أنت بالمدرسة حتى تأتي قبل طلوع الضوء!»

وكان يعلم أن عليه اليوم أن يصلي مع المدير، ولولاه لكان استرخى مع الأولاد، وقال لهم من قبيل فض العتب: «الصلاة يا إخوان!» ثم دخل غرفته وأوصد الباب وغرق في كتاب يظل يقرأ فيه حتى موعد الدروس.. أما الآن، فهو مصل الفرض والسنة، قارئ الأدعية والأوراد جميعاً!

وحيا المدير الذي نظر إليه من فوق نظاريته الواسعتين، وقال له:

- تأخرتم يا أستاذ!

فقال الأستاذ صبحي بأدب وخشية:

- الأولاد جاهزون يا سيدي!

فقال المدير:

- إذن، أذن بهم للصلاة..

وانطلق صوت المعيد يقرع بهو الكلية، صوت برود مسكين كأنه ينتزع من الحنجرة انتزاعاً بكماشة وكان المعيد خلال الأذان يسر في نفسه: «مرحى يا سيد صبحي، لم يعد ينقصك شيء: إمام ومؤذن ومعيد ومعلم تاريخ وجغرافيا ونفاق مرحى، مئة صنعة ما شاء الله وكان!»

وهرع الطلاب إلى الردهة التي اتخذت مسجداً.. كانوا على علم بأن المدير في المدرسة.. وشرف المدير وأقام الصلاة، وراح يقرأ بصوت باك لم يدر المعيد من أين جاءه..

وكان موقفه في الصف الأخير من المصلين. صاح المدير: «الله أكبر» وانحنى معلناً انتهاء الركعة الأولى، فركع المعيد على حذر، نصف ركعة واعتدل، ثم انحدر إلى السجود انحداراً هيناً.. وإذا هو يسمع صوتاً غريباً ينبعث منه، من بنطاله على الضبط: «شش!» فهبط قلبه ولبث برهة لا يجرؤ على تحسس البطال.. ثم إنه أقدم أخيراً ومد يده.. فرأي ويالهول ما رأى لقد تفزر البنطال!

تفزر وما من معطف يستره!

* * *

كاتب العرائض

انحسر الظل أمام بناء البريد، وانفتحت طاقة من وهج الشمس تنصب منها الأشعة، كرؤوس الإبر، على جميل العربي كاتب الاستدعاءات؛ ففرش مظلته السوداء، وركزها على المنضدة العتيقة المتخلعة، وحمى بها جمجمته الصلعاء اللامعة ثم ركى مرفقيه على المنضدة، وسند ذقنه بكفه، وجعل ينظر إلى المارة نظرات شاردة لا معنى لها..

كانت الساعة تركض نحو الواحدة والنصف، وما من استدعاء أو رسالة أو ما يحزنون..

آه لولا السمعة، ولولا البدلة والعقادة والمظلة، وكلمة أفندي ينادينى بها الناس.. إذن لاشتغلت دون سؤال أو جواب، بائع عرق سوس، مثل هذا الذي قدامي!.

وكان بائع عرق السوس هذا واقفاً وراء عربته المنقشة يرتدي ثياباً بيضاء نظيفة، صحيحاً، مورد الخدين، قرب أذنه اليسرى خال مفتول، فاحم، مشمراً عن ساعدين ضخمين. يصيح صياحاً متلاحقاً، فيه اعتزاز ومرح: «دمعة باردة يا عطشان، دمعة باردة!» ولا يكل عن ملء الطاسات وتقديمها للمارة وقبض الثمن... وكان الثمن هزيلاً، كل إنسان يستطيع أن يدفعه وهو ضاحك، حتى الشحاذون أنفسهم.. فرنك! ما قيمة فرنك لعطشان محروق؟. ولكن شعرة وراء شعرة تصنع ذقناً.. ومن يدري، لعله قد بنى بناية من وراء هذه «الدمعة الباردة»!

أما نحن، الكتاب بلا قافية، فلا نتنازل لقبض أقل من نصف ليرة! نصف ليرة لا ننقص بارة الفرد.. كأن الناس يسكون العملة، أو يجدونها

لقية في برية الله! أنت لا تتنازل لأقل من نصف الليرة؟ إذن تفضل وانتشر هكذا يا حضرة جميل أفندي العريبي، في هذه الشمس الرقيقة، وتسلّ بكش الذباب!

وكان غير بعيد من جميل أفندي زميل له، كاتب استدعاءات أيضاً، شارباه بعيدان من شفته العليا، ومصبوغان بالحناء صباغاً تختلف كثافته في السبلة عنها في الطرفين، وعلى قبته منديل يمكن أن يقال انه أبيض إلا في الموضع الذي يمس القذال فهو منشّا بالزفت...

كان اسمه منيب أفندي، ومنضدته شديدة أشبه بمنضدة جاره جميل أفندي قوائمها، قدميها، محمولها، كما لو كانتا توأمين... وكان وقتئذ في الفيء، لم تنصب عليه إبر الشمس بعد، ونظر إلى جميل أفندي السادر في أفكاره الكاسفة وصاح به في مرح مصطنع:

- خير إن شاء الله جميل أفندي نصف الألف خمسمئة يا هو!

فالتفت جميل إليه واغتصب ابتسامة مرة.. ولم يجب، فتابع منيب كلامه قائلاً:

- هل تسبب اليوم؟

قال جميل أفندي في سهوم:

- ولا بفلس!

- ولا أنا! كأن الديب صار يرعى مع الغنم في هذه الدنيا.. كأن لم تبق في البلد مشاكل أو أن الناس أصبحوا كلهم قراء كتّاباً! أتذكر من زمان كيف كانت صنعتنا؟ حمل نزل، كل ساعة درهم جديد. ألف زبون في النهار استغفر الله العظيم!

فتنهد جميل أفندي وأمعن في صمته وأطرق الزميل، بدوره، كأنما لحقته من جميل العدوى، ولاذ بالصمت أيضاً!

وارتفعت ضجة من مبنى البريد فقطعت عليهما أفكارهما: اثنان يتشاتمان.. صاح صوت بلهجة آمرة:

- أنت هنا لست للشرف، يجب أن تحمل الأكياس.. فأجابه صوت أجش حانق:

- إذا كنت صامتاً لا أفتح فمي، يعني أن يركبني كل عباد الله ويدلوا أرجلهم؟ من الفجر حتى الآن وأنا مثل مكوك الحايك، لم أحك رأسي، لم أتنفس!

فقال الصوت الآمر وقد خفف من لهجته وبدأ متلطفاً:

- هذا الكيس فقط.. الله يرضى عليك يا حمد!

وانفتح باب البريد، فاندفعت منه شتائم وسباب أخرى أعقبها رأس كث أشعث ينحني إلى الأرض وعلى ظهر صاحب الرأس كيس كبير وسخ من القنب أحكم سد فمه..

كان الحمال يصيح محنقاً:

يلعن عمري من الفجر للآن مثل حمير الحجارين.. قال ابن الحكومة، يلعن أبي، ابن حكومة في نقل الأكياس فقط. ابن حكومة، ابن قطران!

وكانت نظراته تقذف الرصيف أمامه كأنها تثقبه، وعنقه نافر العروق، أحمر كالشوندر المسلوق كأنك شددت جلده إلى ناحية الظهر شداً قوياً.. وكان يدب تحت وقر حمله مسرعاً لا يلتفت يمنة ولا يسرة.. والعرق يتصبب من جبينه وذقنه، والعدل منتفخ كالحبلى، يضغط على ظهره، كأنما يريد أن يلزقه بالأرض..

والتفت منيب إلى جميل العريبي، وقصده أن يعلق على الحادثة.. فلم يكد يفتح فمه حتى دحم الحمال بعدله منضدة الكتابة الخربة المتهافتة، فطارت المنقلة، تسابق الدواة النحاسية، ولحقتهما المرمرة ساندة الورق.. وتناثرت الوراق ههنا وهنا.. ولكن الحمال في حنقه، لم يعن حتى بالالتفاف إلى ما ارتكب عدله من أمر فظيع!

وأفلت جميل أفندي ضحكته المخنوقة ذاتها، وهمهم قائلاً:

أما زبون، آخر ما حرر!

على حين أن كاتب الاستدعاءات المصاب بهت برهة من الزمن كأنك فاجأته بكسر حق من الماء البارد على يافوخه، وفتح فمه مدهوشاً، لا يمد يده للمشعث، رأسماله المبدد، بينما انطرحت منضدته الباهتة أمامه، ورفعت الأربع كأنها دجاجة ميتة!

*   *   *

وبدا أن الانتظار قد بات عبثاً فالساعة تقارب الثانية بعد الظهر، يعني أن المأمورين في السراي أخذوا يلبسون ستراتهم ويتهيأون للرحيل، ويعني أيضاً أن الأمل قد انقطع من زبون يريد كتابة استدعاء أو مضروب يود أن يشتكي على ضاربه، أو امرأة مطلقة تطلب من القاضي أن يُعَيّن لها نفقة..

وطوى جميل أفندي مظلته السوداء، وعكف على أوراقه يرتبها بتثاقل وهو لا يزال جالساً.. وإذا امرأة تقبل من أقصى الشارع، الذي بدأ يقفر بعض الشيء، جسيمة برزة، ملفوفة، من رأسها حتى كعبيها، بملاءة سوداء مزمومة عند البطن، وعلى وجهها منديل سميك لا يظهر منه إلا بريق باهت لعينيها.. كانت تدنو من منضدة منيب أفندي، على تردد وحذاؤها، أبو الكعب العالي، يرن على أسفلت الشارع رنيناً رتيباً. فلما وجدت المنضدة لما تزل مشعثة ومنيب منهمكاً بها، تابعت سيرها إلى أن توقفت عند جميل أفندي..

قالت بصوت جهم:

- مساء الخير!

فتهلل وجهه جميل أفندي وفتح عينيه وقال:

- مساء النور، تفضلي.. في أمر؟ خدمة؟

وسحب من قربه كرسياً متخلعاً من القش البلدي، ودعاها إلى الجلوس، فقربت الكرسي منه حتى لامست كتفها كتفه، ومالت عليه وهمست:

- أريد أن تكتب لي مكتوباً..

فأمسك كاتب الاستدعاءات ريشته وغمسها في المحبرة، والتفت إليها، جم الانتباه، عظيم الإصغاء كمن ينتظر أن تشرح له ما تريد.

ولكنها أشاحت عنه وهي تقول له بلهجة حاولت أن تصب فيها كل الخفر الذي تملكه. ونفرت قائلة:

- ما بدي، أخجل!

أي! الله يخزيك يا شيطان يا رجيم. كبري على إبليس يا حرمة! أهذا وقتها؟ أنا عندي وقت للدلالة يا فيلة؟ أي والله العظيم فاطمة المغربية ليست في عيني.. وقال بصوت مسموع:

- يا أختي، مالك؟ نحن هنا لو قتلت قدامنا مئة قتيل لا ينفتح لنا فم.. هذه الكف لا تدري ما تفعل هذه.. جب أغم، وحبل مهتري.. قولي، لا تخافي!

فازداد خفر الحرمة وتغيرها وقالت:

- اي كيف يعني بدي أقول؟ بي!

ثم سألته فجأة:

- هل أنت متزوج!

فدهش الكهل وفتح فمه مدهوشاً وقال: - نعم، لماذا؟

- وهل عندك أولاد؟

- أربعة.. بس قولي لي لماذا؟

- أقسم لي بأولادك الأربعة ألا تفتحها لمخلوق!

فأقسم الرجل، وهو يزداد عجباً ودهشة، فلزت المرأة به مرة أخرى وقالت له:

- الخطيئة في رقبتك، ها!

- خلص قلت لك، حلفت بأولادي.

- إذن أحكي لك القصة من أولها إلى آخرها.

وصمتت لحظة، ثم بدأت تحكي قصتها.. قصة وجدها جميل أفندي سخيفة، تطلع الروح، فهم منها أن الحرمة عاشقة، وأن حبيبها الغائب قد كتب لها مكتوباً لطيفاً يدعو الله فيه أن يرزقه في غربته حتى يستطيع العيش لها، ولها وحدها.. وهي تريد الآن أن تكتب له جواباً ظريفاً «دق له يرقص»، على حد قولها!

وقد استغرقت رواية هذه المأساة الغرامية وقتاً طويلاً، إذ كانت العاشقة تعني بإيراد التفاصيل الدقيقة والأحاديث الحارة التي كانا يتبادلانها، أثناء المقابلات المخطوفة، وما كان أقلها.. ولم تنس أن تبوح لجميل أفندي بمخاوفها من نظرة أمه الحمراء لها، وجفاف وجهها حين تلقاها، وجهها الذي لا يضحك للرغيف السخن.. وكانت تسميها «القرمة»، وتنعتها بأقبح النعوت.. وختمت حديثها بهذا السر الذي دسته في أذن كاتب الاستدعاءات همساً حين قالت:

- واحدة داهية يا أستاذ. أبشع من إبليس، بفرد كريمة، عورا، وشعرها قطنة بيضا، ولا ترفع البودرة والحمرة عن وجهها.. يبقى وبا!

وخفضت من صوتها ثم تابعت قائلة:

- والكلام بيني وبينك، كانت في زمانها رقاصة! قال جميل أفندي مجاملاً:

- يا لطيف!

وسكتت لحظة!

قال جميل:

- نعم. والآن ما اسمه الله يحفظه؟

قالت في حياء:

- حسون.

- اكرمت.

وسحب طبقاً من الورق وأخذ يكتب بصوت مرتفع:

«حضرة الأمجد ابن الأماجد السيد حسون أفندي حفظه الله وخلاه آمين يا رب العاملين. حبيبي!»

فقاطعته المرأة محتجة:

- لا، لا تكتب له حبيبي!

ولكنّ الرجل تابع الكتابة قائلاً:

«بعد السؤال عن عزيز شريف خاطركم، وإبداء الأشواق التي تركتنا على مثل جمر الغضى إلى رؤية أنوار أضواء وجهكم الطاهر وبعد فإننا من يوم فراقكم، لا ليلنا بليل ولا نهارنا بنهار..

فعادت المرأة إلى مقاطعته قائلة:

- يوه ما شاء الله عليك، ماذا يقول عني غداً إذا سمع هذا الكلام. يقول إني ميتة، في حال التلف في حبه. وهات يا دلال.. لا سيدي، دخيلك!

وكان جميل قد بدأ يتسرب إليه التعب. أرهقته هذه العاشقة، والساعة جاوزت الثانية بعد الظهر وجاره منيب أفندي قد لملم عدته وانصرف، والشمس ما تنفك تصب إبرها الواخزة على صلعته.. فتململ وقال للمرأة بلهجة لم تخل من خشونة هذه المرة:

- ولك أختي، كلمة ورد غطاها، أتحبين هذا الرجل أم لا؟

فانتفضت كما لو لسعتها حية، وأبعدت كرسيها منه وقالت:

- وأنت ما دخلك في هذه المسألة؟ مثل ما أقول لك اكتب. لك، والله العظيم حكاية.. قال تحبينه أو لا. قل لي، جنابك مستنطق! تحري؟.

فحوقل جميل أفندي وقال لها بهدوء:

- ولك أختي، إنتي تريدين مكتوب غرام أم عريضة؟ من عشرين سنة وأنا أكتب مكاتيب .. ما أنا ابن البارحة في هذه الصنعة. أتريدين أن تعلميني إنشاء المكاتيب في هذه السن؟ خذي انظري...

وأخرج من جيبه كتيباً صغيراً عنوانه «بلوغ المرام في أصول إنشاء مكاتيب الغرام!» ووضعه أمام عينيها وقال:

كل شيء مكتوب فيه: العاشق الغائب كيف يخاطب، الحبيب داخل البلد كيف يكون الحديث معه؛ العتاب، الاستعطاف، التذكير بوعد الزواج؛ كل شيء.. انظري!

قالت، وغضبها لم ينطفِ:

- شي نفش، لا يهمني وأقول لك كلمة واحدة: كتابتك ما أعجبتني... «بعد السؤال عن شريف خاطركم!.. من قال لك إنه شريف؟ قد يكون مثل أمه. إلحق الكذاب لوراء الباب.

ونهضت وهي لا تنقطع عن الثرثرة:

- كاتب! إنت كاتب! إنت بياع أواعي عتيقة! إنت مخلوق للفرجة! رح انظر وجهك في المرآة وهذه العدة! تفو.. رح كنسها نظفها، اعمل لها طريقة...

وتنحت عليه وهي تهم بالذهاب وقالت:

- زيك بطل، بطل من زمان، بطل من عشرين سنة!

وحزمت نفسها بملاءتها جيداً وابتعدت، يرن حذاؤها على أسفلت الشارع رنيناً رتيباً فيه غنج وتدلع!.

* * *

آه يا مسافر

كم أحبّ الناس! إن الوجوه تكلمني وتطيل نجواي، وتحاورني، وتروي لي قصصاً بديعة وأحاديث ملونة.. وقد أكون ذاهباً في طريق، مسرعاً، مشغولاً، ولكنّ شغلي لا يحسبني أن أتفحص الوجوه وأتملى ملامحها أو عبّ قسماتها من صميم جوارحي.. فآسي وأطرب وأهمد وأحن، وأنسج الأخيلة حول هذا الوجه المنتفض اليابس، أو ذاك الوداع الرهو.. وقد ينسرق في تساؤل مهموس: «ماذا وراء هاتين العينين الضاحكتين المضيئتين كأنهما زمردتان! أو هاتين المنطفئتين كثقبين في جلدهما موس بلله اسكافي؟» وكثيراً ما أدفع في هذه النزوة «لو أنني أفتح جمجمة هذا الفتى يلاحق هذه الفتاة، واقرأ في تلافيف مخه، واعرف أدق الدقائق عن دنياه العميقة المتوارية، الدقائق التي لا يبوح بها حتى لنفسه.. إذن لعدت بكنز منه عظيم!».. وقد أقف قدام شباك أسدلت ستائره، وشفت خلفها الأنوار الناعمة، فيجتاحني، حتى العظام، حنين ملحاح عذب، وخبث أحياناً، إلى معرفة ما يدور وراء الشباك، إلى المزيد من المعرفة..

أيرجع ذلك إلى كوني قروياً قطن المدينة، فوجد نفسه أمام أكوام من الجديد الطريف، عليه أن يتقراها ويكشف عنها، ويسعد منها وينهل؟ لست أدري، ولكنني أذكر أن محبة الوجوه وتأملها وحياكة الأخيلة حولها، ولدت معي حين ولدت وما تزال تنمو.. وأذكر تلك الأيام الحلوة التي قضيتها في بيت جارتي ماري، يوم جئت دمشق طالباً في كلية الحقوق، فدلني واحد من ضيعتنا عليها، ونصحني أن أستأجر غرفة عندها، قال:

تعال معي يا رسلان، أدلك على بيت تدعو لي من أجله، عند امرأة تنسيك غربتك وعطف أمك!.

وكانت ماري امرأة برزة، سمينة، دقيقة الفم والأذنين ما تزال تحمل آثار جمال من الطراز القديم. كان في عيناها الصغيرتين وشفتيها، المنفرجتين غالباً بساطة الأطفال وعبثهم.. قال مرحبة، والخطاب لرفيقي:

- إذا كان شيطاناً مثلك فلا تورطني!

قال رفيقي ضاحكاً:

- لا تخافي، حليب أمه على فمه.. نصف أبله، ساذج مثل البنت، قروي يرى المدينة لأول مرة..

قالت:

- أنا لا أخاف إلا من القرويين.. ألم يكن حليب أمك على فمك أنت أيضاً، يوم شرفت هذا البيت! وماذا أصبحت؟ عفريت، جني، جني مقلوب! وأظن رفيقك الأبله هذا سيسبقك.. انظر إلى عينيه، ألا تشبهان شرطة التحدي؟

كنت خلال الحديث أنهب وجه المرأة، وأروح أتخيل أماً مشغولة في المطبخ وأولادها الصغار يتعلقون بأذيالها ويزقزقون.. وتمحي أذيال الأم، وينبت محلها جناحا دجاجة يتراكض حواليها فراخها.. كان وجهاً أليفاً كأنني أعرفه من زمان..

* * *

ونشأت بيننا صداقة تشبه الأمومة والبنوة. كنت أستشعر، في ظلال الليل، خطواتها الخفيفة تدلف من سريري وتحكم الأغطية فوقي.. وكثيراً ما كنت أهرب من الكلية وأجيئها، فتضع لي كرسياً من القش صغيراً في المطبخ النظيف المرتب، أعاونها في تقشير البطاطا وفرم الفاصولياء والثرثرة. وأجمل من هذا كله صوتها وأغانيها. كانت تجيد هاتيك الأغنيات البلدية القديمة، أغنيات الجيل الماضي، بكل ما فيها من حنان وأشواق خجلانة، تجنح إلى الإفصاح حيناً، وتغمز بحياء عريق أحياناً كثيرة، أغنيات ترسم في ذهنك صورة أنثى خلف أبواب مغلقة، تنصب في نور الشمس ودغدغة نسيم غزل

ممراح.. وما كان أجمل قصصها وأحاديثها. وكنت أنا القروي الظمآن، لا أنفك أسالها، ملحاً، عن ماضيها وحاضرها وأمانيها، لا أغادر شيئاً ولا ألهو عن ناحية، ولا أقنع بظل أو شبه ظل، فكانت تحاورني مازحة:

- قروي، ما في اليد حيلة، قروي مائة في المائة يريد أن يفهم كل شيء!

فأقول لها مستعطفاً:

- ماري، أما وعدتني أن تكوني لي أماً؟ أيجهل الابن شيئاً عن أمه؟

فتقول:

- نعم، يجهل على الأقل الغزل الرقيق التي كانت تسره في أذن أبيك! ومن جهة أخرى دعني أحتفظ بشيء للأيام المقبلة، أتريد تنشيفي بالإسفنجة يا ملعون؟

وذات يوم، دخلت جذلان طروباً، بي رغبة إلى الحديث والسماع، فتأتيه من خبر مسرّ وقع لي، خلاصته أن أحد الملحنين أعجبته قصيدة لي، فلحنها وأعدها للإذاعة، وحدد لها موعد تغنيها فيه إحدى المطربات.

قلت لها:

- ابشري.

قالت:

- خير إن شاء الله يا أبي.

قلت:

- اسمعي سيذاع من دار الإذاعة.. سيقول المذيع بصوته العميق المهيب: «والآن سيداتي سادتي، تسمعون أغنية «المسافر» من كلمات الأستاذ رسلان المرسي وغناء الآنسة فكرة!».. ماري تصوري كم هذا جميل! سنفتح الراديو كل يوم يا ماري، لا من أجل أغنيتي، ولكن لأن في الإذاعة أشياء جديرة بأن تسمع حقاً، الراديو حلو يا ماري، ما قولك؟

قالت جارتي ووجهها يطفح بابتسامة صافية:

- لم يكن رأسك في الراديو كذلك. ولكن هذا لا يهم، أقعد، أقعد سمعني الأغنية من أولها..

ولم أكن انتظر اقتراحها. كانت يدي على القصيدة، فنترتها وانطلقت أترنم بها، وأسهب في شرح دقيق معانيها، وأنفت أنظر إلى «الجرس المرن المسكر الذي ينساب من ألفاظها المهزوزة المغربلة...» وقلت لها أخيراً:

- أوترين يا ماري؟ سبيكة ذهب، شيء صنع بالبيكار والمنقلة، فكيف بالله عليك إذا غنتها حنجرة صبية؟ اسمعي لحنها!

ورفعت عقيرة لا أحسد عليها، وأخذت أغني جارتي المقطع الأول من الأغنية، وأصنع من لساني عوداً ينقر الفواصل الموسيقية، وانتهيت إلى سؤالها رأيها في القطعة، فقالت وعيناها شارتان في شبه أغماضة، كمن يتذكر أمراً بعيداً، ممعناً في البعد:

- إنها تعيد إليّ ذكريات أيام سود كالوجاق!

قلت لها وقد تنبه فيّ القروي الملح:

- احكي لي دخيلك!

قالت:

- أنت تعرف أنني كنت مغنية منذ زمان بعيد. وبلغت القمة قبل هجراني الفن بعامين، وكانت أغنيتي التي تقيم رواد الملهى وتقعدهم أغنية بلدية ناعمة تذكر بأغنيتك مطلعها «آه يا مسافر يا مسليني!» وكنا، نحن طبقة المطربات وأهل الفن، متى بلغنا أوج الشهرة تسلل إلى قلوبنا فأر من القلق والخشية على المستقبل، وطفق يقرض أفئدتنا بقسوة.. كنا نخشى ذلك اليوم الذي نعتاش من خمارهم، فلا يعودون يبصرون الصوت الجميل فكيف بالوجه الجميل.. ذلك اليوم الذي يجيئنا فيه صاحب الملهى ووجه بين ابتسامة منافقة مشبوهة، فيقول لنا بأسف مستعار من غبطة: «.. إن الحال واقفة، يا خانم.

والملهى لا يفي بنفقاته، والزبائن لا يدفعون كما كانوا من زمان، والحكومة تلبخ الضريبة في دبر الضريبة..» أي! والخلاصة؟ «سأكتفي بمطربة واحدة..» وتفهم أنت، بكثير من اليسر، إنه يريد الاكتفاء بالمطربة الصبية، وإنك أصبحت على الباب..

كان بعضنا يقاوم، قل ينازع، يتشبث بآخر خيط من خيوط حياته، فتخلط الدموع بالشتائم، وتتبدل لهجة المعلم، وتحلُّ محل «الخانم» صفات مقذعة.. ولكن ما الفائدة!

مررت بهذا الدور يا رسلان.. وعرفت أن البدر قد أشرف على المحاق منذ أن رأيت صاحب الملهى الفخيمة، الذي كنت أعمل فيه، يقبل نحوي، وهو يفرك يديه، ويميل برقيته على كتفه الأيمن وشرابة طربوشه تهتز وتنتثر خيوطها ثم تلتئم تنفرش من جديد..

أصبحت على الباب.. ليس في يدي صنعة أعتاش منها، لا خياطة ولا شغل إبرة ولا تريكو.. ثم إني أعتدت على أن يخطب الناس ودي: أن أنظر إليهم من عل، أن أطلَّ على مئات الرؤوس، أن تدوي مئات الحناجر بهتاف متناوب قاطف: «آه يا مسافر، آه يا مسافر!» وأنا، المنديل في يدي، والبسمة الظافرة على شفتي.. والعواد العجوز يدوزن العود وينتظر إشارة مني، والطبال يحميّ الدربكة على ضوء اللوكس، وصاحب الملهى ضاحك الوجه، معتزاً هانئاً يصيح: «سمع، يا عشاق النبي، سمع!».. كل هذا ينطفي في مثل طرفة العين، وأبقى أنا على الباب كقنينة عرق مكسورة..

لقد اجتزت أياماً صعبة، أصعب من مضغ الصوان.. كنت أمر تحت جنح الليل أمام الملهى الذي أحياني في الأنوار والمشاعل، فيبلغ أذنيَّ صياح الناس وتهليلهم للمطربة الصبية الحلوة.. لا أحسدها يعلم الله، ولكنني كنت على يقين أنها لا تدري السيكاه من النهاوند ولا تميز النوا من الماهور، فيدركني أسى واخز ممض!

ولم يكن أمامي إلا مخرج واحد من الأزمة التي تهددني بالجوع، ولكنه كان مخرجاً شنيعاً.. أن أطلب عملاً في قهوة «المنظر الجميل» والمنظر الجميل هذه قهوة من الصنف العاشر، أكثر زوارها من المدمنين المخمورين، أو الحشاشين الأصيلين، الذين يفهمون الغناء صياحاً وضوضاء تتيح لهم الكلام بصوت عال.. فكلما رفعت المغنية صوتها كلما ازداد صراخهم وقعقعة كؤوسهم وطقطقة أضراسهم.. تصور أنهم كانوا يحضرون معهم عشاءهم، بما فيه الكبة والمحشي وسماور الشاي..

أحجمت أكثر من أسبوعين عن الأخذ بهذا الحل المهين، ولكن شبح الأيام القريبة المقبل، وقت ينضب ثمن الأسورة الوحيدة التي أملك، جعلني أرضخ وألين.. فرضخت واستسلمت آخر الأمر كجندي تكسّرت بندقيته وسوّره العدو.. كان العدو بالنسبة لي هو الغناء في «المنظر الجميل».. والذي كادني أكثر ما كادني أنها قهوة المنظر الجميل لا تقرف!

لا أطيل عليك، فقد استقبلني صاحب القهوة، وهو كهل في الستين من عمره، منتفخ البطن، له غبغب متدل تحت ذقنه، كما لو قلت ثور هرم.. استقبلني مرحباً، وجبر خاطري بأن علق على الباب لافتة من الخام الأسمر، كتب عليها «تسمعون هذا المساء وكل مساء، كروان الشرق والغرب، مطربة السلاطين الآنسة ماري!» مع صورة بالألوان قيل أنها لي.. ورحّب بي أيضاً خادم القهوة؛ وهو رجل متصاب مخنث، إحدى أذنيه متجوفة، وله بدلة أسنان في فمه تسمع لها طقطقة إذا تكلم.. قال لي: «خادمك رزوق يا ستي!» فتجاهلته، ومضت داخلة، فأسرع ينط ورائي طوراً عن يميني وطوراً عن شمالي؛ ويشرح لي خفايا القهوة ولا ينقطع لحظة عن الكلام:

نورت القهوة يا ستي.. الكمنجاتي عذراً بطِّل البارحة عبد الوهاب العواد غضبان من المعلم. من يومين علق أبو فهد مع الشرطي حسن ومحمود الجدعان وصار سحب سكاكين...

ثم خفت صوته، وأسرَّ قرب أذني:

وإن المعلم إسماعيل أفندي غاطس في حب لورا الرقاصة، وهي تلعب عليه، وتطلب تدخل المحكمة الشرعية.. إحم.. فهمت ستي؟!»

كان صدري يزداد ضيقاً، ولكنني كنت كمن يطلب مزيداً من الخدر، بحقنات المورفين. كنت أريد أن أتابع طريقي معصوبة العينين، لا أعني حتى بمد يديّ وتقرّي الطريق أمامي في فخمة ليلي الأعمى؛ لا أريد حتى أن أحتج! وهكذا،رغم اشمئزازي من هذه الآلة الثرثارة المزيفة التي تنط قربي، جعلت استزيد من حديثه، مترفقة به، مربتة على كتفيه بين الحين والحين.. وكلما ربّت على كتفه مرة اتقدت في رماد جفنيه جذوة من حماسة وتأجج. كان يلهوج الكلام لهوجة كأنه قربة انبعج فمها..

وهبط الليل، ليل خريفي رطب، وأشعل لوكسان أو ثلاثة بلورها متغبش وقذارتها صفراء، وأنوارها تحتضر في جو كئيب.. وبدأ رواد القهوة يتوافدون، ولم يكونوا يزيدون عن عشرين أو ثلاثين رجلاً. وأية بدلات! وما كان أشبههم بنواطير الكروم.. واحتل التخت محله، والتخت يعني العواد عبد الوهاب ذا الوجه العابس المتصلب كوجه المومياء، والطبال الذي لم أعن بمعرفة اسمه، فتى مأخوذ، رث الثياب، ومع ذلك فهو يضع على فخذه منديلاً أبيض حتى لا توسخ الدربكة بدلته.. وكانت البوفيه قرب المدخل، بابها يشبه حلقاً مغفوراً، علقت أعلاه حبال النقانق والبسطرمة، فبدت البوفيه أشبه بدكان لحام.. أما نوافذ القهوة فكان أكثر زجاجها مهشماً عوض بجرائد قديمة لزقت بعجين سميك.

كان عليّ إن أبدأ السهرة أنا بوصلة غنائية، بلا قافية.. خرجت إلى المسرح فصفق أربعة أو خمسة بأكف واهنة عابثة، كما لو كانوا يتصدقون عليّ تصدقاً، وخربش الطبال الأبله إيذاناً بدخولي؛ وكان رزوق الخادم قرب البوفيه، فلاحظت أنه أطال التصفيق براحتين مفتوحتين. وقرأت في صدر المسرح لوحة كبيرة كتب عليها بالحبر الأزرق: «ممنوع الصفير والضوضاء وطلب الأغاني بأمر من الحكومة!».. حلو، إذن لن أغني «آه يا مسافر»، سأكتفي ببعض الليالي وموال..

وبدأت أغني، بل قل أنوح نواحاً حزيناً. كنت أبكي شبابي «المسافر» وفجيعتي بالمنظر الجميل. وكنت أنشج لأن المعجبين تقلصوا حتى أصبحوا رزوق الخادم وبدلة أسنانه المحيرة في فمه.. وصفق مخمور، يظهر أنه كان يسكر من الضحى، وصاح: «كمان يا ستي أنت!» بلسان يتعتعه السكر؛ وقذفني آخر بتفاحة أصابت صدري، فتألمت ألماً شديداً، وانقطعت عن الغناء ألملم أنفاسي.. وإذا رزوق الخادم يقفز مثل القرد إلى المسرح، في يده اليسرى صحن ويده اليمنى تهبط إلى الأرض في طلب التفاحة. حتى إذا ما ظفر بها تحت السجف وضعها في الصحن، وأشرعها للنظارة، وقد جلّس رأسه وركز ضحكة إغراء على شفتيه الزرقاوين، فتحمس السكارى، وبدأ الرجم بالفواكه على نطاق واسع؛ وأصابت تفاحة العواد عبد الوهاب، وسقطت أجاصة على رأس رزوق، واندفعت موزة ناضجة في وجه الطبال فلزمت فيه وتطايرت شظاياها حتى ملت وجهه وقبة قميصه المنشاة، فأعول وصب اللعنات... واحتميت أنا بعضادة المسرح وعيني على القاعة.

لقد انكسر قلبي، واسودت الدنيا في ناظري، وانسحبت من المسرح إلى غرفة الفنانات أمسك ذيل ثوبي وأعلك المنديل كما تعلك الخيل اللجم..

تهافت على كرسي واطيء، كومة من حطام، وحوالي حطام من ملابس الراقصات، والصنوج وعلب المساحيق.. وبدت الأرض مختلفة الألوان، أبيض قذر، فوق أحمر شفاه، قرب مخطة جافة.. فخيل إلي أني رميت في مزبلة قديمة!

وبينما أنا على هذه الحال تفرقني الهموم، إذا رزوق الخادم يدخل علي حاملاً صحناً مكتظاً بالفواكه التي تحمل آثار الكدمات، أدوات الرجم. كانت ضحكة الظفر على فمه، فلم تلبس أن اختفت المرآى وبريق الدموع في مقلتي. لقد انكمش وتقلص ودنا مني بخطى متقاصرة، وأصغى قربي صامتاً. قلت في ورقة:

- أهكذا تتسبب لنا بالرجم يا رزوق؟

فقال وبصره إلى الأرض:

- ليت يدي تتكسر يا ستي. والله ما كانت نيتي السوء، ولكن لا تؤاخذيني تعودنا أن تشكرنا المطربات إذا فعلنا هكذا! وصمت لحظة ثم قال متابعاً:

- والله يا ستي مالك حياة في هذه القهوة، هذه مغارة حشاشين، هذه إسطبل بغال. ستي، أما مازلت غاضبة علي؟!

فهونت عليه قائلة:

- لا يا رزوق لست غاضبة عليك؛ لقد كنت لطيفاً معي، حلواً، ظريفاً.

فلمعت، من جديد، جذوة الحماسة في عينيه واستخفه الطرب وقال:

والله يا ستي، من أول نظرة، عرفت أنك خلقت ملكة للخدمة. أنت تستحقين أن يعكف الإنسان طول عمره على مسح يديك ورجليك.. آه لو أمرت فكنت خادمك إلى الأبد..

وهمس مكرراً كلمة «الأبد» مصحوبة بتنهيدة عميقة..

كنت لا أنظر إليه، عن يميني، ولا أوليه إلا نصف انتباهه، لأني تقمطني الفكر، وتنهبني الوساوس، وتتوشني حيرة سوداء.. ومن خلال هذه الفوضى التي تعج في أعماقي أحسست أنفاساً ساخنة تلطم عنقي، فالتفت التفاته مفاجئة، وإذا رزوق يقرب وجهه مني كما يفعل الجمل حينما يدنو من جرن ماء، وعيناه مغمضتان كمن يحلم، وفمه يغمغم: «إلى الأبد..» وأذنه المنجوفة على شكل قص متجه قعره إلى أعلى، كذراعين متوسلتين إلى السماء..

صحت به:

- ولك رزوق!

فلم يجفل وإنما همهم:

- يعني يستت الله ورسوله يا ست الستات!

* * *

قال جارتي بعد صمت قصير:

- ومنذئذ أيقنت أن علي أن أهجر هذا الفن الجميل!

* * *

اللطف!

أنا، لا أخبي عليك، رجل يستعبدني اللطف، يسببني، يقعدني، يشل حركتي! باللطف تستطيع أن تشلحني الثياب التي على جسدي، أن تشتريني وتضع اللجام في حلقي، وتجرني كالحمار الذلول، أن تركبني وتدلي رجليك عن جانبي! آه يا مولاي من اللطف: إذا جاء يوم ورأيتني خادماً، أجيراً، عبداً على باب مسلم أو نصراني أو مجوسي، فاعلم أن اللطف سبب عبوديتي وذلي.. اللطف، اللطف!

أمس كنت عند صديقي فضل الله زيتون في مكتبه الرسمي، وكان مشغولاً، مثقلاً بالعمل، فلم يهن علي تركه بين هذه التلال من الأوراق والمعاملات.. وأنا ابن الحكومة خدمتها ثلاثين سنة، بلا قافية، كاتب تحقق في البلدية. وأفهم شغل الحكومة، والالتماسات والوساطات وما لا يخفاك من أمور.. ولهذا لم يأت من وجداني أن أترك صديقي الوحيد لهمه وبلواه، فعزمت على أن أبقى عنده، أروح عن نفسه وأؤنسه بوجودي، فقعدت. ومر وقت طويل. وزاد يقيني بأنه محتاج إلى مؤانستي لما لمحت بنظرة ذكية واحدة أنه يتململ في مجلسه ويتأفف وينتهر الآذن ويضرب القرد بالدب، فتبسمت بيني وبين نفسي وهمست في عبي: الصديق وقت الضيق، وصاحبك فضل الله متضايق من سخام الحكومة، فليس من اللطف في شيء أن تتركه وتروح إلى القهوة! وعلى الرغم من أن السيكارة تنزع صدري وتخنقني بالسعال - أنا شريب تنباك - فقد رضيت أن أتناول السيكارة وراء السيكارة من علبته الموضوعة على مكتبه بمنتهى الرقة واللطف. ولما فرغت العلبة ونده الآذن ليشتري له غيرها، وثبت واقفاً كمن جلس على مسمار وقبضت

على يده بشدة ونزعت الدراهم منها.. وقطبت حاجبي وطققته يمين طلاق مغلاظاً ألا يكلف نفسه هذا الغناء. وتقدمت من الموظف الجالس أمامه، وهو فتى حليق الشاربين مصفف الشعر، واسع المنخرين، دقيق الذقن، ورجوته أن يسمح لي بعلبة دخانه وكأنه أسره هذا اللطف الذي أتحلى به فأعطاني إياها من فوره، ثم دفن رأسه المهندم بين الأوراق عجلان مقطباً، ولا أخفي عليك، أنت مثل أخي وأعز، أنا لا أحب هؤلاء المقطبين، المزمومة شفاههم، الذين يحملون بين أكتافهم وجوهاً لا تضحك للرغيف السخن، كوجه قتال الحسنين.. ورحم الله أبي فقد كان يقول: «اطلبوا الخير من لطاف الوجوه..» أبي أو غيره لم أعد أذكره تماماً..

ولا نطيل عليك الشرح، فقد وضعنا علبة الرجل بين يدينا، ورحنا نعب الدخان في صمت، حتى لا نزعج أحداً، وننفثه، ونراقب سحبه الرمادية الفضفاضة التي كانت تتعقد في الفضاء وتسف ثم ترنق طويلاً كالحدادة التي تحدق في دودة صغيرة مدفونة في التراب ونظرت من خلال السحب إلى الموظف القاعد قبالتي فلم أكد أراه كأنما تفصل بيننا غلالة رمادية متموجة! حينئذ سعل صديقي فانقهرت جداً، وأصابني انزعاج شديد، حتى خيل إلي أن صدري هو الذي يفرمه السعال، لا صدره، وتمنيت له الشفاء ولا سيما حين تذكرت قول خطيب أحد الجوامع: «لا يكمل إيمان بني آدم حتى يحب لنفسه ما يحب لصديقه» وأنت تعلم صداقتي لفضل الله، فلا داعي للشرح والتطويل!

ودخل في هذه الأثناء شاب، أسمر، طويل، يدل مظهره على أنه من صنف العمال، وتقدم من فضل اله على استحياء وقال له:

- أنا فلان (لم أعد أذكر اسمه) كنت قدمت إليكم رسالة أطلب فيها تعويض تسريح عن عملي في الحفريات..

قال فضل الله:

- أنت لم تبين لنا عنوانك في الطلب وقد كتبنا لك الرد، ولم نرسله بعد..

- هل استطيع أن أفهم مضمونه؟

- إن الأعمال الموقوتة المحددة بطبيعتها لا تستحق أي تعويض، ووزارة المالية اعتبرت الحفريات من ضمن الأعمال الموقوتة المحددة!

ولكني قضيت سنتين ولم أكن خلالها كسلان!

- قل هذا الكلام لوزارة المالية، ومن ناحية أخرى هذا قانون لا تصح معه كلمة «ولكنني»!

فصمت العامل هنيهة وقال في خفوت كمن يحدث نفسه:

- وزارة المالية؟ القانون! هل يفهم أولادي هذا الكلام؟ هل أستطيع أن أقهر جوعهم به؟ لماذا يعتصب الناس ضدي؟

نظرت إلى وجهه، كانت فيه إمارات قسوة وبوادر اشتعال.. وإذا كان الكذب ينجي فالصدق أنجى: لقد خفت منه، قد يضربنا من قهره! ولم أشأ أن أنام أمام الخطر، فوجهت الخطاب إلى العامل وصحت به:

امشِ في طريقك، ماذا تقول؟ تعترض على الحكومة والله في بالي أقوم أمسكك للشرطة،.. كلامك هذا يدل على أنك رجل خطر، خطر جداً!

وكم كانت دهشتي حينما رأيت غضبتي تثمر لأنني رأيت الفتى يرسل إلي نظرة هادئة ساكنة ويقول لي بنفس الهدوء الذي كان يتحدث به:

- أُسكت يا أخي، لا أريد أن أحاورك، أنا في دنيا وأنت في دنيا..

ومال عليَّ فضل الله وهو يعض على شفتيه وهمس في أذني:

- عيب، أرجوك، هذا لا يجوز.

ثم التفت إلى الفتى واعتذر إليه وصرفه، وعاد إلى أوراقه عابساً.. وأظن أن عبوسه راجع إلى خوفه من العامل، مثلي، أو إلى أنه مشفق عليه. على أنني، من جهتي شعرت بارتياح كان حملا كان على كتفي وأنزلته، لأنني رجل مسالم لا أحب أن يعتدي علي أحد في ساعة غضب!

وبينما نحن في صمتنا وخواطرنا فتح الباب ودخل الغرفة رجل ضخم أنيق ولكنه لا يضع طربوشاً على رأسه، فهب صديقي فضل الله وزميله واقفين، وترك فضل الله مكتبه وخرج يستقبله إلى الباب، ومن وهلته اصطدم بالكرسي الذي أقعد عليه فكاد يسقط فوقي، فنظر إلي نظرة عاتبة وتابع طريقه إلى الباب، فلم أتحرك أنا من مطرحي لأنني لم تعجبني نظرته العاتبة، كأنني أنا الذي صدمته وكدت أسقط فوقه! فلما صار صديقي قبالة الرجل الضخم الأنيق زر سترته ووقف متأدباً فمال عليه الرجل وأسر في أذنه بضع كلمات كان فضل الله يردد أثناءها: «أمركم سيدي، تحت أمركم سيدي، طبيعي سيدي!» ثم خرج كما دخل شامخاً، متكبراً! لماذا؟ لست ادري، ولكنني قلت في نفسي متأثراً: «أمن الكياسة واللطف يدخل رجل على جماعة فلا يسلم عليهم؟» ولم يدعني فضل الله، صديقي، استرسل في أفكاري الغضبانة.

- وكان قد عاد إلى مجلسه وراء المكتب – بل مال علي وقال لي هامساً:

- أعرفته؟ هذا رئيسنا، إنه ينبهني إلى أن الزيارات الخاصة في أثناء العمل الرسمي ممنوعة بتاتاً...

فزاد غضبي ورأيتني للمرة الأولى في حياتي أكاد أصبح جلفاً فظاً، لأنني سمعت نفسي أصيح به:

- ليش سيدي؟ إنهم يرهقونك بالعمل ولا يتركون لك دقيقة واحدة تحك فيها رأسك، وأنت فوق هذا مريض يخنقك السعال ثم يمنعون عنك أعز أصحابك أن يزورك هنيهة قصيرة من الزمان يروح فيها عن نفسك. أي والله قره قاش ما قدر على هذا الظلم: انظر فتح عينيك في! أنا أيضاً كنت ابن حكومة وأعرف القانون. على زماننا كنا نجيء إلى الدائرة بالقبقاب والقنباز والزنار الحرير.. اسألني أين تعلمت شرب التنباك؟ في الدائرة والله العظيم الباري المقيم. كنا نطبخ ونفطر ونتغدى ولا واش ولا رقيب..

وقلدت لهجته المسكينة، من شدة انزعاجي، وتابعت كلامي:

- الزيارات الخاصة ممنوعة بتاتاً! بس فهمني ليش؟ أهي رشوة ارتكاب؟ قل لرئيسك، أن يشغل نفسه باللصوص الحقيقيين، بالمرتشين الذين بلعوا الدنيا.. الريحة خنقت البلد، لم يعد شيء مخبا.. قال الزيارات ممنوعة بتاتاً!

وكنت أتدفق بالحديث وأقلب عيني بين فضل وزميله الذي رفع رأسه الممشط المنضد عن الأوراق وجعل ينظر إلي بعينين تقدحان شرراً.. ويظهر أنه هو أيضاً كان غاضباً، حتى الجنون، من مسلك رئيسه لأنه فز علي وصاح:

- ولك أخي خلنا في بلوانا، في ما كتبه ربنا علينا. نحن راضون في قسمتنا، أنت ما شأنك في كل هذا؟

فضحكت.. إنه يخاف من رئيسه ولا يجرؤ على البوح بما في ضميره. أيحسب أني نمام؟ أم أني مولع بهذا الهيكل الضخم والسحنة الكئيبة التي تؤلف رئيسه، فنهضت واقفاً وصحت به:

- أتخاف من هذا الجاموس؟ أنا ذاهب إليه في غرفته أعرّفه حده، وأفهمه أن الناس ليست عبيد أبيه. لما كنت ابن حكومة كان رئيسي...

ولم يدعني فضل الله أكمل كلامي بل هجم عليّ وأمسك بتلابيبي وهو يقول:

هات يدك لأبوسها، أنا داخل عليك. هذا المكتب لك وبعنا إياه، في عرضك!..

أيصير وجهي من صوان! أنا ملتهب كالجمر، حانق كالمرجل، ولكن شمائلي اللطيفة تأبى علي أن أدع هياجي ينفلت من محبسه وفوق هذا فقد قربت الساعة من الواحدة وأنا جائع فحملت عصاي وتوجهت إلى الباب وأنا أقول لفضل الله:

- لن أدع الأمر، سيجيء يوم، أنا ذاهب الآن من أجل خاطرك. أأراك في القهوة عشية؟

* * *

عطار الحاره..

أزهرت شجرة اللوز أمام دكان أبي محمد شعبان، وتدلت منها عناقيد بيضاء، كنديف فراشات ضاحكة... وكان الحيُّ قد عاوده صباه، فأضحى يضجُّ بالحياة والحركة؛ فالأولاد يصخبون وراء دراجاتهم واكرهم، وبائعوا الفواكه يمتدحون أثمارهم بحداء مشوق، ويحثون حميرهم على السير بعتاب رقيق... وتركي سقاء الماء الأعشى يغني آخر أغنيات محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش، بصوت تخاله سحب منشار على خشب مقعد، وعلى الأرض تسَّاقط العصافير وتنط بخطواتها الصغيرة المخطوفة، تنقر الحَبَّ، وأعينها الملونة تغزل في كل جانب حذر المارة... وفي الجو الصاحي تعبق رائحة الربيع التي لا تسمى!

وكان أبو محمد شعبان يقعد قدام الدكان، على كرسي صغير، أصفر القشّ، وقد خلع مركوبه من رجله، ونشر جسمه للشمس الدافئة، وأمال رأسه على صدره، وبد كمن يستسلم لإغفاءة هادئة... ولكنَّ أبا محمد لم يكن نائماً. كان هو أيضاً يشعر بالربيع يزدهر في قلبه، ويشتعل في سنيّه الخمسين فيأكل نصفها.. حتى خيل إليه أنه فتى لا يزال قلبه يحنُّ إلى بذار العشق يبذر في تربته. فلا يلبث أن ينوء بالسنابل.. وانسلت يده إلى جيب سترته الداخلي، كأنها لصة، وأخرجت مرآة صغيرة سترها أبو محمد بيده الأخرى، ونظر فرأى وجهاً أجعد، وفودين خطهما الشيْب وعنقاً ذبلت عروقها... ولكنه رأى، مع ذلك إشراقة عميقة وعينين فيهما يقظة وجذوة شوف صبي! ورفع عينيه إلى شجرة اللوز وعناقيد زهرها المندوف.. كانت كأنما تغتسل تحت رذاذ الأشعة، فهمس في لهفة: «ما أجمل هذه الدنيا!»

في هذه الأثناء سمع أبو محمد صوتاً رفيعاً، كالهديل، ينبعث من الدار المجاورة يهتف باسمه، فاستوى واقفاً وانتعل مركوبه، وأسرع إلى الباب، فبرزت له صبية صغيرة، فمها صغير، وبشرتها كأنها صنعت من أوراق الورد الجوري.. وكان يتشبث بذيل روبها الأبيض يسبها، يريد أن يمنعها من الخروج.. فلما رأت أبا محمد مقبلاً قالت له، وفي صوتها لهجة تهديد:

- عمي أبو محمد!

فهتف الرجل من قلبه:

- نعم يا عين العم!

- عصام غضبان علي، وقد كسر الإبريق.. وماما مشغولة في المطبخ، وهو يرفض الخروج معي!

فمد أبو محمد يده كمن يحاول إمساك طير غريب، وجعل يعده بالسكر واللعب. قال له:

- تعال، اشتري لك لعبة ترقص وتدق على العود منها لحالها..

قال الطفل بلهجة فيها مساومة:

- ومسكة على بالون!

قال أبو محمد مذعناً:

- ومسكة على بالون وتطق!

- وسفينة مثل أختي!

وسفينة مثل أختك..

وحمله بين يديه، وفي أثرهما أسرعت الفتاة وعلى وجهها معنى من الانتصار..

وعلى الكرسي الصغير جلس أبو محمد، وفي حضنه الطفل، قد امتلأت يداه بالسكر المطعم والشكولاته واللعب، وظهرت على جبينه دلائل الاهتمام

الشديد؛ وقرب الكرسي جلست الفتاة القرفصاء، وعيناها إلى أبي محمد كقطة بيضاء أنيسة، وعلى فمها الحلو ابتسامة أم صغيرة..

كانت جدائلها الشقراء الذهبية تلمع في ضوء الشمس. قالت:

- عصام يحبك يا عم أبو محمد.

- وأنا أيضاً أحبه يا دعد.

- ولكنني أحبك أكثر منه.

فنظر الرجل إليها ولم يجب، فتابعت حديثها:

- ومعلمة الإنشاء، ألا تعرفها؟ أعطتنا موضوع إنشاء بعنوان:

«أحب الناس إليك!» فكتبت لها أقول أنني أحب أبي وأمي وجارنا، يعني أنت!

وصمتت قليلاً:

- عمي أبو محمد، كمّل لي قصة العفريت وست البدور..

فابتسم الشيخ وقال:

إلى أين وصلنا البارحة؟

- ودع أهل ست البدور بنتهم الوحيدة ونصحوها نصائح كثيرة. وقال لها العفريت: «اركبي على ظهري يا ستي، سوف تفتحين عينيك وتغمضينها وإذا أنت في قصر ملك الجان..»

قال أبو محمد:

- أيوه تذكرت.. وقالت أم ست البدور لابنتها العروس وهي تعلقها من بين ذراعيها: «انتبهي من البرد يا بنتي!»، وفاضت أعينها بالدموع.. وركبت ست البدور على ظهر العفريت وتشبثت بشعره الفاحم الطويل، كحبال السفن. قال لها العفريت: «امسكي جيداً يا ستي لأننا سنطير!» ورفع يدين كأنهما ناعورتان جبارتان، وصفع الهواء صفعة جعلته يولول من الألم، وإذا هما

يعلوان في الفضاء.. ونظرت العروس إلى الأرض فرأت أمها وأختيها وأقاربها تنزلق الدموع من أعينهم، وأيديهم في الهواء يلوحون لها.. وعصفت الرياح بغلالات العروس الناعمة وخفقت في الهواء منها سحائب شبيهة بأجنحة الملائكة.. وخيل إليها أن الغمام يدعوها، تغني لها فيه جوقات غير منظورة أغاني عذاباً، فأحست بلوعة ممزوجة بالفرح، وشرد ذهنها إلى ملك الجان فجعلت تتصور أروقة قصره، وكنوزه التي حكى لها العفريت عنها، وأعمدة الزمرد وأفاريز الياقوت والمرجان.. وعلبة الأغاني إذا كبستها انطلقت منها سبع حوريات، بسبعة دفوف، وأخذت ترقص رقصاً يخطف الأبصار... ولكن العفريت قطع عليها أحلامها حين التفت نحوها وسألها: «ماذا ترين من الأرض يا ستي؟» قالت: «بقدر البساط!» فأسرع يشق السماء صاعداً.. ثم سألها مرة أخرى: «والآن؟» قالت: «أراها بحجم طست الغسيل!» فأسرع يشق السماء صاعداً...

ولم يكمل أبو محمد قصته لأن أم البنت مدت جسمها من باب الدار وندهت ابنتها لتعاونها بعصر الغسيل ونشره، فقامت وهي تهمس في أذن أبي محمد: «سآتي بعد قليل، لا تنس أين وصلنا!» وحملت أخاها وغابت وراء الباب..

رجع أبو محمد إلى جلسته.. ولا يدري كيف ركضت أفكاره وراء زوجته. قالت له أمس: «أي الله خلق الخلق، يحرق دين الدكان.. أي اقعد خمس دقايق، أفهم لي منك كلمتين، أسمع سيرة، أحكي لك نبزة.. أي والدكان عاشق ومعشوق؟..» وهو يعلم ماذا تريد من قعوده في حضرتها، تريد أن تبقر هذه الجعبة الكدراء، الطافحة بالفضائح والظنون، وتقعد تحبب زوجة هذا بذاك وتهرّب بنت فلان، وتكتّب البنات رسائل غرامية يضبطها الآباء وتكاد تقع جرائم فظيعة... وكان الرجل في الماضي لا ينفر من هذه الأحاديث.. وقد يروي هو لامرأته شيئاً مما يتناقله الجلاّس في دكانه، التي هي أشبه بمركز بمحطة، منها بمتجر. ولكنه في هذه الأيام، لا يدري لماذا أصبح يهرب من

لسان زوجته، بل يعطف على الناس الذين ينالهم هذا المخرز الحاد. أصبح يأنس في نفسه ميلاً غلاباً إلى التخيل، إلى الحلم بالعفاريت ذات القلب الطيب، التي تحمل العرائس إلى بلاد مسحورة.. بأروقة الزمرد، وعلب الأغاني..

كان أبو محمد يفكر في كل هذا، حينما وقف أمامه فتى حسن الهندام، يسأله عن بيت أبي عصام.. فانتشل الشيخ من خواطره، ونظر إلى الفتى نظرة طويلة قبل أن يدله على بيت جيرانه.. ولكنه عجب لرغبة غالبها.. لقد تمنى لو أنه ضلل الفتى...

في المساء فتح باب الجيران، واندفعت دعد منه، كالعاصفة، نحو أبي محمد، فلما صارت قربه مطَّت قامتها وفمها إلى أُذنه:

- عمي أبو محمد، هل مرَّ بك اليوم حوالي الظهر شاب طويل ظريف؟..

قال الشيخ:

- نعم، ما له؟

قالت في دل:

- لا أقول!

- قال الشيخ:

- لا تغلي قلبي!

قالت:

- أتحلف لي ألا تقول لأحد؟

أحلف.

فتلفتت كمن يتثبت من خلو المكان من الرقباء وهمست:

- خطبني!

قالت هذا ونفرت راجعة كالهاربة!

وخفق قلب الرجل خفقات متتابعة، وتلاحقت أنفاسه ولم يستطع أن يميز نوع إحساسه، أهو الفرح بهذا «الشب الطويل الظريف» أم هو شيء آخر، يرصّ صدره ويضيق على عنقه؟!.

ومرت في هذه اللحظة عجوز محففة الوجه، محدودبة الظهر، تسحب طفلة لم تعد العامين، خداها متوردان، وشعرها موقوس بشريط ليلكي اللون..

وكانت الطفلة تتلفت بين حين وآخر وتشد العجوز إلى وراء أو تتملص منها وتقف ترقص قليلاً.. وكان على شجرة اللوز، بين الأغصان، أعواد يابسة بقيت من العام الماضي، لا حياة ولا حركة.. وفي السماء قزعان من غيمات هاربات تتجه صوب المغرب.. وكان الشيخ يحس في نفسه ما في الكون من شيخوخة ذاهبة وشباب آت يتعاقبان في كل شيء.. في الطبيعة كما في الأحياء.. وفي قلبه – هو نفسه – خفقة وليدة تقطعها سعلة عجوز.. وتلاصقت في ذهنه صور تطمسها صور. تراءى له أحباؤه الذين راحوا ولم يعودوا، رفاق صباه، وشركاؤه في صعوده وهبوطه.. أنهم لا يزالون يحيون فيه.. وهو! أتراه يحيا، تروى حكاياته لأطفال صغار قرب موقد ينشر الدفء، ويقال بعد كل حكاية في نبرة حزن: «لقد حكى لي كل هذا رجل كنت أفيء إليه، رجل أبيض الوجه والقلب، كان عطاراً في حارتنا اسمه..»

ومسح الشيخ عينيه وهو يهمهم: «إنني أباركك وأبارك الحياة!»

* * *

طبيب الناحية

كان طبيب الناحية غريب الأطوار، كهلاً في حيطان الخمسين. قصيراً، بطيناً، لخديه ثنيات وطيات، وتحت ذقنه غبغب كغبغب الثور، أبيض إلى اصفرار، إذا سعل ارتج.. وعيناه واسعتان مقروحتان، متباعدة رموشها، في بياضهما عروق زرق، كتلك التي تشيع في المرمر الأبيض.. وكانت عيادته، وهي عيادة البلدية الرسمية، أشبه بصومعة راهب، وهي في الوقت ذاته مسكنه الذي لا يكاد يغادره لا في الليل ولا في النهار.. ولعل الوحشة التي تقبض على الدار متأتية من خلوها من الأطفال وما يطلقون من ضحكات وصخب ومراح.. لأن طبيب الناحية أعزب! فإذا ما سئل في ذلك وكان رائقاً، تهانف ضاحكاً وأجاب: «من قال إني أعزب؟ لقد خطبت منذ ثلاثين سنة وتزوجت هذه الأصيلة بنت الأصايل!» يقول هذا ويشير إلى قنينة العرق..

ولم يكن للطبيب في ناحيتنا صديق أو عشير. فإذا أسود الليل أغلق باب العيادة وتفرد في ديره، لا يعرف أحد ما يصنع فيه.. وهو يأبى أن يفتح الباب أو يعود مريضاً، تحت الظلام، مهما تكن الحال خطيرة.. أما إذا أصبح الناس، وجاء أبو عمر الممرض العجوز القاسي النظرات، وفتح باب العيادة، فالطبيب مختبئ لا يصحو ولا تند من وكره حركة ولا نأمة، إلا إذا ارتفعت الشمس في كبد السماء.. حينئذ يخرج بمنامته المتهدلة، وطاقيته البيضاء ومركوبه الجلدي الخفيف، لا يغير من هندامه ولو كان في عمله الرسمي..

وما إن يفتح أبو عمر باب العيادة حتى يأخذ القرويون وأبناء الناحية بالتوافد على العيادة، يتكدسون في فنائها كدساً وكوم لحم مريض أطفال يحملون على أذرعهم عصائب وضمائد، نساء شاحبات، رجال أعينهم كالدمامل. وترتفع الجلبة وتنث رائحة مختلطة من العرق والمرض!

ومعلوم أن هؤلاء الوافدين يعرضون أنفسهم على الفحص مجاناً، استناداً إلى ورقة فقر حال يحصلون عليها من مجلس إدارة القضاء.. ويخيل إلى القروي بعد أن تصير الورقة في جيبه، أنه امتلك جواز سفر يوصله إلى الصحة والعافية، وأن على الطبيب، بمجرد رؤيتها في يده، أن يرفع يده بالتحية والاحترام، ثم ينكب على القروي يفحصه بأدق عناية وأرهف وجدان.. ولكن الذين يعرفون طبيب الناحية، رسمي أفندي، يدركون تفاهة التسلح بورقة فقر الحال هذه.. فهو يكرهها جداً، وينفر منها نفوراً شديداً، ويغتاظ لدى رؤيتها كما لو كانت شتيمة دموية، لا يخصص لحامليها إلا ساعة أو بعض الساعة من يومه ولو زاد عددهم على المئة، وهو في كل يوم يزيد!

وكان يأمر أبا عمر الممرض أن يدخلهم واحداً أثر واحد، بينما يكون هو جالساً على حرف منضدته متأففاً، مشمئزاً.. فإذا أقبل عليه المريض انتهره، وهو لا يزال على بعد خطوات منه قائلاً: «نعم، شو مرضك أنت؟» فيرتبك المسكين، ولا يكاد يفتح فمه حتى يكون قد كتب الوصفة، وصاح بأبي عمر الواقف بين مصراعي الباب: «هات غيره يا ولد..» وهكذا يتم فحص المئة او المئتين بأقل من ساعة.. وتصفر العيادة وينتهي الدوام، وكل أرض تشرب ماءها!.

أما مع المرضى الذين لا يحملون شهادة فقر حال، يعني الذين يمدون أيديهم بعد المعاينة، وينترون محفظة جلدية قد قماط الولد الرضيع، فرسمي أفندي إنسان آخر، أحلى من العسل، وديع، حلو المزاح حاضر النكتة.

* * *

كنت أعرف كل هذا عن رسمي أفندي، طبيب الناحية، لما مرضت زوجتي وصارت تتوجع وتذوي أمام عيني، كما يذوي الحبق في الشمس، أنا الرجل الطويل العريض، الذي يستطيع أن يقلع توته. أقلع توته، نعم، ولكن من أين أجيء بالتوتة فأقلعها وأقبض الأجر! لقد كنت بطالاً منذ سبعة أشهر، أي منذ يبس زيتوننا بفعل الصقيع، وانخرب بيتنا، نحن أهل المنطقة، وعزّانا

الكلب، وأصبحنا إما شحاذين على باب الله أو مهاجرين نضرب في أربع جهات الجزيرة واللاذقية.

ولم يكن أمامي غير طريق واحد: أن أذهب إلى القضاء، وآتي بالورقة الملعونة، وأشتم بها رسمي أفندي، فيلطمني بكلمة: «هات غيره يا ولد» فأخرج من عنده، مثل فقراء اليهود، لا دين ولا دنيا، كما دخلت! ولكن هذه الطريق المهينة كانت بالنسبة لمنتوف مثلي كالقدر، لا مفر من سلوكها.. وكان أن ذهبت إلى القضاء ورجعت حاملاً الورقة.

وكانت ضيعتنا رام حمدان تبعد عن الناحية مسير نصف ساعة، فقمت إلى الخزانة في العلية، فلبست أفخر ثيابي: سروال الجوخ الململم الذي احتفظ به من أيام عرسي، وقميص الحرير الحموي المقصب، بعراه المضفورة من البزيم اللامع، والمركوب الأصفر، شغل الحاج أحمد حسينو، وسترتي قص المقص. ثم دلفت من حماري الأخضر فألبسته البردعة، وأنهضت زوجتي وشجعتها على المسير نحوهُ، ولكنها لاقت عتباً شديداً، فحملتها بين يدي، ووضعتها على ظهره، وأشرت عليها أن تتمسك بالبردعة جيداً، وقبضت أنا على الرسن بيد وأسندتها بالأخرى.. وأخجل إذا قلت لك أنني أحبها.. وهي، والحق يقال، بنت حلال، لها فم يأكل وليس لها فم يحكي، صابرة، قنوع بالعسر واليسر، تصور أنها تتحمل واحداً مثلي.. وافهم!

وكنا نسير في الدرب المزهر سيراً وئيداً، وكان ساقاها يتأرجحان عن جانبي الحمار بوهن وضعف كأنهما خرقتان، وهي تئِن أنيناً خافتاً مجروماً يكسر القلب..

وكنا لا نتبادل الحديث إلا لماماً.. بم أحدثها؟ أأقول لها: «لا يكن لك فكرة يا أم نجم... إذا لم نحصل ثمرة عند رسمي أفندي عرضتك على موريس كوسا في حلب..» وهي تعلم أن السماء لم تنزل لي قفة ملآنة ذهب!..

وكان الطقس لطيفاً يبعث في العروق لوناً من البطر، تخاله في كل شيء حواليك. حتى الحمار نفسه، كنت أجد عسراً في كبح إرانه وبطره، إذ

كان يعابثني بأن يفتل رأسه نحوي، ويقرب فمه من يدي يهم بعضها، فإذا انتهرته نكس رأسه، متصنعاً المسكنة ورفع قائميته الخلفيتين ورفس الهواء رفساً هنياً ثم، تابع السير خفيفاً نشيطاً خبيثاً.. وأنا أيضاً كنت بطراً أرنا، أروم مشاركة الحمار لهوه ولعبه لولا هذه الإنسانة التي تتألم!

ووصلنا إلى عيادة الطبيب في الناحية عصراً، يعني بعد انتهاء الدوام الرسمي عند الطبيب... ويعني أيضاً بدء الدوام غير الرسمي، دوام الذين يبتسم لهم رسمي أفندي، ويعذب، ويعني أجمل عناية!

وأدخلت الحمار إلى فناء العيادة وربطته إلى شجرة المشمش، وحملت المرأة بين يدي وهرولت داخلاً، وإذا باب الغرفة الجانبية، عن يمين، ينفتح، وطبيب الناحية يمط رأسه ويبتسم ويهيب بي أن آتية بها.

وعلى السرير الجلدي كنت أمدد حملي العزيز، ورسمي أفندي يرحب بي هو ورائحة العرق التي تنبعث من كل مكان..

كان يحملق في زوجتي ويفرك يديه كأنه مقبل على خروف محشي بالرز والصنوبر، الملعون.. قال:

- من أين أنت؟

- من رام حمدان يا سيدي، الله يطول لنا عمرك!

- أنتم ملاعين أهل رام حمدان، لا أحد يقدر عليكم!

- سيدي بسلامة معرفتك، نحن دراويش على باب الله..

- أي، خير إن شاء الله؟

- منذ أكثر من أسبوعين وهذه المرأة كما ترى، تبرد حتى لتظنها جثة، وتسخن حتى لتقول تنور... ولا تمد يدها إلى طعام ولو كان المن والسلوى!

فقال باسماً:

- أي بسيطة هون عليك!

ونظر إلى قميصي المقصب وسروالي الجوخ، على نقرة ونصف ومركوبي الجديد.. ففهمت قصده وبادرت أقول له:

- لله يخليك يا دكتور عاينها بقلب ورب، وكل شيء لخاطرك!

فازدادت ابتسامة عرضاً، وركض دافعاً كرشه أمامه، وغبغبه ينوس نوسان رقاص الساعة، وأحضر سماعته فأدخلها في أذنيه، وعكف على المرأة يفصحها، والصمت بنا محيط، ورسمي أفندي غارق، يقظ، مقبل على زوجتي، كما يقبل حماري الأخضر على عليقه بعد جوع!

وبعد فترة قصيرة اعتدل الطبيب وقام إلى خزانته فأخرج منها أنابيب صغيرة، وأشعل ناراً زرقاء صامتة وغطس إبرة من الماء ووضعها على النار، ولم يمض وقت حتى أخذ الماء ينش نشيشاً خفيفاً كالوشوشة.. بينما كان الطبيب يحضر أدوية أخرى من هنا وهناك على رفوف الغرفة ويضعها في ظروف أو قنان ويكتب عليها طرائق استعمالها.. وأنا، أنا مبسوط.

جذلان لا تسعني الدنيا!

وفرغ الطبيب من الإبرة والفحص، وربت على كتف المرأة ممازحاً وقال لها:

- كيف حالك الآن؟

ولست أدري، لعل عناية الطبيب بالمرأة قد أوحت إليها أنها عوفيت. فقد تهلل وجهها وقالت له:

- تسلم يديك يا حكيم!

فقال منتفشاً:

- ما بك شيء، مثل الضبعة، قومي وأمشي قدامي لا شوف!

وقامت والله العظيم، كأن الخضر عليه السلام لمسها.. وأعاد رسمي أفندي أمره قائلاً:

- أمشي.

فمشت.

- احملي دواك.

فحملته.

- يا الله تيسرّي!

هنا تدخلت أنا. كان قلبي يخفق، لست أدري لماذا قلت للمرأة:

- روحي اسبقيني عند محمد شفيق..

فخرجت زوجتي تتحامل على نفسها... وبقيت أنا ورسمي أفندي الذي وقف أمامي منتصباً كأنه كسر طابور عسكر.. يداه في خاصريته، ووجهه تتراقص فيه شتى المعاني وكأنها كلها تقول:

«أتريد أكثر من هذا. مد يدك إلى جيبك إذن وبيض الكتاب!» ولم أكذب، من جهتي، خبراً، فانتصبت واقفاً ومددت يدي إلى جيب سترتي الداخلي، وتظاهرت أني أفتش عن العملة ثم.. نترتها! دفع الله ما كان أعظم، هي إياها ورقة فقر الحال، بلحمها ودمها، وقدمتها، بافتخار، إلى رسمي أفندي.. ولم أتمهل، بل تحركت أبغي الخروج إلى حال سبيلي.. فما إن رآها الرجل حتى انتفض كمن لسعته عقرب، واصفر، وصاح بي بغضب لا مزيد عليه:

- ما هذه، يا...

فقلت بهدوء وأنا قرب الباب:

- ورقة فقر حال! ليش؟ خير إن شاء الله؟

فخار خوار الثور وصاح:

- ورقة نعي في رأسك، في قرعة دماغ أجدادك! معاينة ساعة، وأدوية في ظروف وقناني وضرب سلامات، تصير كلها إلى هذه النهاية الوخمة!

ووثب علي وأمسك بتلابيبي وأنا أغالبه وأشده معي في طريقي إلى فناء العيادة، وهو لا ينفك يصرخ ويولول ويستعدي الناس.. فلما صرنا إلى الهواء

الطلق تجمع علينا خلق كثير، درك وعطارون وفلاحون وعابروا طريق ونسوة وأطفال..

وتدخل دركي شاب، فسألني عن الأمر بغلظه.. فلم أجبه مباشرة، بل رفعت صوتي عالياً كأنني خطيب في صلاة الجمعة وقلت:

انظروا يا ناس إلى هذا الرجل، طبيب بلدية، وظيفته خدمة الناس على كيس الحكومة، ولكنه يأبى إلا أن يطالبني بأجرة المعاينة.. والتفتُّ إليه وتابعت:

لماذا لا تقبلها سيدي؟ شهادة فقر حال مثل الألماس، عليها كومة أختام، وإمضاء القائم مقام زكريا بك، وكاتب التحريرات نشأت أفندي، والمعاون علي باكير.. ورقة فقر حال مرتبة على التمام والكمال وأربعة وعشرين قيراطاً!

.. وسمعت أن رسمي أفندي طلب نقله من الناحية بعد هذه الواقعة!

* * *

في الاستوديو

كان يخيم أروقة الإذاعة صمت خامل، يحمل إلى ذهنك صورة ملهى يطلع عليه الصباح. وعلى رأس الدرج قعد آذن شيخ، راح يهوم على كرسيه الصغير، رأسه على صدره، وقرص عمرته الرسمية اللماع يعكس الأضواء الخفيفة التي تتسلل من الشبابيك.. أما الاستوديو فكان موحشاً، قليل النور، إلا عند الكوة التي تفضله عن غرفة المراقبة، حيث يجثم، وراء الآلات النظيفة الملونة فتى جذاب بنظارتين ذهبيتين؛ يداه تلعبان بالعدد العديد من الأزرار!

كانت نقرات أزرار البيانو، التي تضبط الحركات الرياضية، لا تكاد تنزلق عن الأصابع العاجية، حتى تمتصها الجدران الإسفنجية وتخنقها.. فلا يبقى منهما غير نثار هزيل، يتشبث بأذني الأستاذ باكير، العازف؛ ووجهه ممطوط باك، وبشرته ناصلة اللون..

كان عليه أن ينتبذ نفسه، قبل أن يصحو بياع الكعك وتماري، من تحته الموجوع الكالح، ويهرع إلى الإذاعة، ينزوي في هذا الركن القصي من الاستوديو.. وما أن يسمع صوت المذيع، من الاستوديو الأخر، يعلن «فترة التمرينات الصباحية»، حتى ينهمك في هذا النقر الرتيب على البيانو، نقر هربت منه الروح.. بينما يقف زميله حمدي الشيخ، بكرشه الكبيرة، وخديه المنتفخين اللذين لمعهما العرق، يلقي على الناس تعليماته:

- الجسم ممدد على الأرض، اليدان وراء القذال، الكعبان مضمومان (مضبوبان). ارفع ساقيك إلى أعلى بحيث تصنعان مع البطن زاوية قائمة. أعدهما إلى الوضع. واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة..

كان الأستاذ باكير ناظر أشغال، أرمل، يسكن وحيداً مقطوعاً في غرفة في حي العمارة. وكانت زوجته التي توفيت منذ زمان بعيد، معلمة مدرسة

ناعمة، تملك بيانو بسيطاً صغيراً، علمها هو العزف عليه.. ولم يرزقا بأطفال، فكانا يلوذان بالبيانو، أكثر الليالي، لا يفارقانه إلا وقد امتلأ قلباهما أنساً وغبطة.. كان يخيل إلى الأستاذ باكير، وهو يصغي إلى الأصداء الهنية التي تتداح في فضاء الغرفة، أنه إنما يداعب طفلاً له، بعناً، ممتلئاً بالعافية والبشر.. وإذا الطفل يلغو هذا اللغو النديان، وإذا هو يثغو كالخروف تحت ثدي أمه، نعجة شبعانة أيام الربيع.. وكنت متى تأت البيانو تجده نظيفاً ناضراً، كالولد الوحيد تجلله ستارة من الحرير الأصفر، لها حواش هفهافة من الدانتيلا، ودائرتان في وسطها مطرزتان بوشي بديع، يحمل صورة طفلين بأجنحة منشورة يشرع كل منهما في يديه قوساً ونشاباً.. وفي زاوية من زوايا الدائرتين قلب له عينان تغمزان وثغر يضحك..

كان الأستاذ باكير يجلس على كرسي البيانو، وتقف زوجه بقربه، وفي يدها دفاتر النوطة، وفمها الصغير الملموم ينفتح عن الأغنيات الوديعة التي كانا يعدانها للأطفال.. كانت أغنيات سهلة، ساذجة الألفاظ، قد تحكي حكاية سفينة الورق التي سرقها النهر من الطفل فراحت تمخر أمواهه، راقصة، جذلى بالحرية والتطواف، فرحة بتحيات الأزهار المنحنية على النهر اللعوب.. أو تشدو قصة وطننا الجميل، دروبه الضاحكة، سهولة الخضر، جباله المهيبة! كانت الأغنيات سهلة، ولكن الأستاذ باكير كان يسكب في ألحانها كل ما يتميز في صدره من أشواق غامضة حيناً، فصيحة حيناً آخر.. كنت تكاد تستمع في أغنياته إلى وشوشة بنفسجتين، وخطوات الغجر المتلصصة على الأعشاب، وتنفس الربيع في الأزرار الخضر، عاشقين غريقين في عتاب شجي، تحت شجرة تفاح مزهرة..

وكان منزل الزوجين، الذي لا تعمره غير الأناشيد، تدب في عروقه، في بعض الأمسيات، حياة جديدة، نابضة بالحركة والطفولة، ذلك حينما كانت زوجه تصطحب بعضاً من تلميذاتها الصغيرات، بصدرياتهن السوداء، وقباتهن البيضاء والشرائط الملونة المعقودة على مفارقهن... فما أن يصرن

في الردهة حتى يتراكضن فيزدحمن عن جانبيه، والأعين مضيئة بذلك المعنى الذي تراه في عصفور تفلت من قفصه.. وتأخذ هذه الكائنات الصغيرة بالثرثرة.. تبدأ همساً وتنتهي إلى صخب وصيحات..

وما هي إلا أن يجيء الأستاذ باكير، فيتخذ مجلسه من البيانو حتى تلوذ البنات بصمت مترقب مشرق.. ثم.. ثم تعلو الأصوات الصغيرة كالأجراس الفضية أو كوسوسة الحلى..

وقد ينقطع الأستاذ باكير عن العزف فجأة، ويرنو إلى البنيات ثم ينهض وهو لا يزال يحدق فيهن، ويغيب في غرفة من الغرف ولا يلبث بعد حين أن يعود ويداه وراء ظهره، يقول في لهجة تحاول أن تكون ماكرة:

- إذا حزرتن ماذا في يدي كان لكن!

فتتدافع الصيحات، فراخاً وراء أمها، وسرعان ما ينطلق صوت بهذه الصيحة:

- شكولاته!

فيرتفع حاجبا الأستاذ باكير من دهشة وتعجب، ويدير رأسه يمنة ويسرة ويخرج يديه من وراء ظهره، وفيهما صندوق لطيف من الشكولاته وهو يتمتم كمن يحدث نفسه:

- الشيطانة! كيف عرفت؟

أما زوجه، فتكون في ركن بعيد، تتأمل المشهد بعينين رؤومين فيهما شيء من زجر وشيء من عتب!

* * *

وارتفع صوت معلم الرياضة حمدي الشيخ بتمرين جديد، فنزع الأستاذ باكير يديه عن البيانو:

- الصدر بارز، الرأس مرتفع، القبضتان مطبقتان، شد! الحركة الأولى: مد ذراعيك إلى الأمام، الحركة الثاني..

وحدق باكير في البيانو، كان عليه أن ينتظر حتى ينتهي معلم الرياضة من شرح التمرين الرياضي، ويبدأ العد، فيبادر هو إلى النقر على الأصابع العاجية من جديد..

كان لا يرى في بيانو الإذاعة أكثر من ضرب الدف البدائي يضبط إيقاع رقص لا تتحرك فيه غير الأعضاء.. وشرد ذهنه وراء البيانو الصغير، ذي الستارة الليمونية المزركشة. يعلم الله أينه الآن، بعد أن قلبته يد الدلال في سوق الخوجه؟ ليته لم يعن لتلك النزوة من الحزن التي عصفت به حين وفاة زوجه.. إذن لكان البيانو لا يزال في مسكنه يكاعيه، ويلغوان لغوهما الحلو النديان.. إن غرفته يسكنها الآن لا يفعم جوها غير صرير تخته الموجوع!

وزحفت في صدر الأستاذ باكير كآبة جارحة، شيّعت جوانبه.. أحس إحساساً حاداً.. بالوحشة السوداء التي يقتات منها طوال يومه، وهزيعاً مديداً من ليله. وآذته، أكثر من أي وقت مضى فكرة كونه وحيداً مقطوعاً.

إدراكه ذلك الشوق القديم الذي كان يصبه في أغنيات الأطفال، فامتدت أصابعه إلى البيانو، على غير وعي منه، ونقر نقرات متلاحقة، كقطرات من ماء نافورة تساقط في حوض يضيئه شعاع القمر.. وتابع العزف! كان يخيل إليك أنك ترى فتى يافعاً في ربوة تغص بالخزامى والأقحوان، وقد درج بنطاله، ورفعه حتى ركبتيه، وعلى كتفه عصا تنتهي بجعبة من الكتان مملوءة بالزاد.. كان الفتى يمشي صعداً.. وكلما نقل قدماً فاح من حواليها وقع فرح أغن. وكان يتأمل الأزهار والعشب بعينين ظامئتين، والأغصان البيضاء تميل عليه فتمس كتفه مساً رفيقاً ثم تعود فترتفع.. وتتطاير الفراشات الملونة عن يمينه وشماله.. ويرحب به طائر أزغب الصوت..

وعلى حين غرة، ينقطع النغم كما لو بترته سكين، وترى الفتى اليافع ينفتل إلى الوراء مذعوراً، ونظراته تخطط الدرب الذي خلفه، نظرات قلقة غائمة.. وقد يقال إنه أضاع شيئاً، فشيئاً عزيزاً غالياً...

هذا ما كان من الأستاذ باكير، أما معلم الرياضة فقد تشبث بعنق الميكروفون كما لو كان يتحاشى السقوط، وأدار عنقه نحو الأستاذ باكير وقد انشكلت عيناه وصبغهما لون من الذعر والدهشة.. ونهض الشاب ذو النظارتين الذهبيتين في غرفة المراقبة وإحدى يديه على الأزرار، والأخرى تشير من وراء البلور إلى معلم الرياضة إشارة استفهام.. ولكن معلم الرياضة متلبداً خلف الميكروفون، يعض على شفته السفلى، كأنما يحذر باكير وينجعه إلى الرشاد.. وفي غرفة المذيعين كانت تنبعث ضجة، وأصوات أقدام في الرواق، وصيحات هنا وهناك.. على حين أن الأستاذ باكير كان منصرفاً عن هذا كله، تتناثر الأنغام من بين أصابعه، هذه المرة، ثائرة، حانقة، مجروحة.. كنت تسمع نواحاً ضارعاً، لا يلبث أن ينقلب زئيراً متصاعداً يشره الأجواء، ويفجر في صفائها الجراح.. عندئذ ترتفع صيحات أخرى، آلاف الصيحات، تتدافع كصدور الأمواج في بحر غاضب، تشبه أن تكون أصداء لذاك النواح الحانق، تتدغم فيه وتؤلف معه جوقة رائعة هائلة جوقة تحسها كالناس، من لحم ودم!

وبينما تكون أنت ذاهباً مع هذه الجوقة بكل جوارحك، يخفت فجأة، ويخبت، ويروح ينسرب في عذوبة، كالأمل، كما لو أن الفجر قد أفاق، قد أيقظته الموسيقى، ولوّن الكون كله بأنواره الحريرية الحالمة.. أو أن اللازورد والزمرد قد فتح، كالأمل، في خضل الأعشاب، وأردان الغمامات، ورموش العيون..

والتفت حمدي الشيخ، معلم الرياضة، إلى غرفة المراقبة، ولوح بيديه، في شكوى عاجزة خرساء، للشاب ذي النظارتين. وتمتم قائلاً:

- كنت أعرف أنه مجنون، كنت اعرف ذلك! ولكنهم قالوا مسكين.. يا رب ماذا أصنع بالمساكين، أم أنا مأوى للعجزة؟ راح النهار على الناس. لم يقوموا بتمريناتهم الرياضية هذا اليوم. حركتين فقط! حركتين؟!

وامتدت يده إلى شعره فشده غاضباً، وتابع نحيبه:

- وأنا أيضاً مجنون.. قال كنت أقنعه هذا الصباح، هذا الصباح بالذات أن يعني بالرياضة البدنية، أن يكسو هذا الهيكل العظمي الذي كأنه بقليل من اللحم.. هم! رياضة بدنية! أهذا يفهم الرياضة البدنية؟..

في هذه الأثناء انبعث صوت المذيع من الاستوديو الآخر، صوت متردد باسم يقول:

- أيها السادة نعتذر عن المضي في إذاعة التمرينات الصباحية، لأسباب طارئة...

وصمت قليلاً، ثم استأنف:

- والآن تسمعون أغنية «الفل» لنور الهدى!

* * *

حساب مضبوط

تدخل أولاد الحلال بين الحاج سعيد، مالك الدكان الصغيرة الكائنة قرب فندق أمية، وبائع الحمص حسين الحلو، وهو فتى صغير جلب، قضى ردحاً من الزمن يعمل أجيراً في دكان حمصاني، فتوفر لديه قرشان نظيفان، كما يقول، عول على أن يفتح بهما دكاناً لحسابه الخاص.. وقد طلب الحاج سعيد - بادئ الأمر – أربعين ليرة سورية، أجرة شهرية، وقال لحسين الحلو، بصوته الأجش وشفتيه الغليظتين:

- لا تنظر إلى صغرها، ولا يخفك أن سقفها واطئ، بل انظر إلى الموقع: أنا أؤجرك موقعاً.. هنا سرة البلد: المرجة سوق ساروجة، فندق أمية الفخم الملوكي!

فقال حسين بصوت رفيع:

- ما اختلفنا يا عم، ولكن أربعين ليرة!

فعاد الحاج سعيد يقول:

- تصور، الموقع قرب فندق أمية، فندق أمية لا فندق الحجاز أو زهرة حماه!

فقال حسين وقد ذهب صبره:

- أتحسب من ينزل في أمية يتنازل إلى صحن حمص ورغيفين عند أمثالي!

أجاب الحاج سعيد:

- إن الأكابر يا عين عمك، تنتابهم نوبات من التواضع.. وقد يحلو لهم أحياناً، من يدري، بعد سهرة معربدة، أن يجربوا صحنك ورغيفك على اعتباره لوناً جديداً في حياتهم!

قال حسين مفكراً:

- أنا لا أستطيع دفع أربعين ليرة.

وهنا تدخل أولاد الحلال، صاحب القهوة ودلال الكراج وكاتب فندق الأندلس.. وكانوا منتشرين على الرصيف في الشمس! وبعد أخذ ورد، ووشوشات ومفاوضات، ووضع الأيدي على الذقون رضي الحاج سعيد بإنقاص الأجرة خمس عشرة ليرة فأصبحت خمساً وعشرين، تدفع في نهاية كل شهر. ولكنه علق على هذا قائلاً:

والله العظيم قليل، دكان في سرة البلد، وقرب أمية وجيرانك هؤلاء الأماثل.

فقال دلال الكراج وهو يمسح أنفه بكمه ويرف بعينين بخيلتي الرموش:

- أي حاج سعيد، خلصنا امسحها في ذقنا.. اقرأوا الفاتحة يا شباب..

وقرأ الجماعة الفاتحة ومسحوا براحات أكفهم على وجوههم، وتمنوا لحسين التوفيق والرزق الوافر!

ومضى كل لشأنه. ذهب الحاج سعيد إلى جامع يلبغا، ومنه إلى منزله القريب. كان يقول في نفسه: «أيصير وجهي من جلد الجاموس؟ يجب أن يلين الإنسان.. الإخوان تدخلوا؟ بالله ! خمس عشرة ليرة، وما كانت مع السلامة.. ثم أنني لا شغلة ولا عملة.. أذهب كل يوم عند الوالد، فيحسن استقبالي فأقعد أتسلى وأتفرج في الناس والزبائن.. والكلام في سرك يا حاج سعيد، الدكان لا تسوى أكثر من هذا!»

ومس الحاج شاله الصوفي العريض العجمي، وقد أحاط كرشاً ضخماً وبدا كأنه راضٍ عن نفسه كل الرضى!

بعد يومين، علقت على دكان الحاج سعيد لا فتة بالحبر الأزرق مكتوب عليها: «مطعم أمية الصحي الملوكي، لصاحبه حسين الحلو كافة أنواع الحمص والفلافل، هذا من فضل ربي!»

وفي الدكان، عن يمين الداخل، انتصب حاجز خشبي عليه صينية حمص، وطباخ كاز، وقطرميز مخلل، وآخر للفجل المنقوع بالماء، وصحنان، ومدقة لهرس الحمص، وإبريق زيت.. أما في داخل الدكان، فقد وضعت طاولة خشبية فقدت لونها الأصلي، ونشز أكثر مساميرها.. وإحدى أقدامها القصيرة مسندة بقطعة من الخشب! وقرب الطاولة كرسيان من خشب المشمش والقش البلدي الخشن..

كان في الدكان، رغم كل شيء، رائحة نظافة وترتيب. والهم من هذا نفحة من مراح وحبور تنداح من حسين الحلو في الدكان كلها.. فقد كان بهيجاً، لا يكاد يصدق عينيه، يتلمس عدته وأدواته بين حين وحين، كما لو كانت أطفالاً صغاراً.. وكان يضع صدرية بيضاء نظيفة، يشدها آناً ويفكها ويحزمها حول بطنه الخمصان أناً آخر..

ومد دلال الكراج رأسه من فرجة الباب، وعرك عينيه وقال لحسين:

- منزل مبارك يا أخ!

فرد عليه حسين بلهفة وانشراح عظيمين قائلاً:

- الله يبارك في عمرك يا عيني تفضل.. بصلاة محمد تفضل!

فاعتذر الدلال، وابتعد وهو يصيح: راكب لحلب! راكب واحد مستعجل لحلب!»

وفكر حسين في نفسه قائلاً: «ما ألطف سكان هذا الحي، وما أطيبهم! أظنني مقبلاً على محبتهم كأخواتي، يا الله ما أجمل كل هذا!»

واستدار حول الحاجز الخشبي ووقف قدام دكانه، ذراعاه معقوفان إلى خاصرتيه...

ولمح، بعد قليل، الحاج سعيد – مالك الدكان – مقبلاً نحوه كالفيل، وإحدى يديه على شاله الصوفي.. وغبغبه تحت ذقنه منتفخ يمس حرف قبته.. فتهلل وجهه، وزادت ابتسامة عرضاً، وصاح به بصوته الدقيق:

- أهلاً بالحجاج.. نورت الحارة يا حاج سعيد!

فزجره الحاج سعيد قائلاً:

- لا ينبغي أن تكثر من الترحيب يجب أن تكون جدياً صارماً. لأنك إن أدمنت على الإبتسام والترحيب، طمع فيك الزبائن، وتسلطوا على الدين والقرضة .. هات صحن حمص! قيد في الدفتر.. بالله من فضلك معك نصف ليرة فرط؟ قيد في الدفتر. والنتيجة التي لا بد منها أن يخرب بيتك ويعزيك الكلب ومشايخنا قالت: الدّين غضب الوالدين!

فالتّمَّ حسين الحلو واستخزى وقال من بين أسنانه:

- كتر الله خيرك يا عم قالوا أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، صحيح!

فتابع الحاج سعيد كلامه قائلاً:

- أنت يا عين عمك مثل ابني، ولو لم تكن في مقام ولدي لما نصحتك. كيف شغلك اليوم؟ هل دققت الحمص هذا الصباح؟

فعادت حماسة حسين إليه وقال:

- نعم يا عم، وأكثرت له من الطحينة، وعصرت له الليمون وأؤكد لك أنك لا تذوق مثله حتى في بيروت نفسها!

فقطب الحاج سعيد تقطيبه شديدة، وزوى ما بين حاجبيه وتبدى كأنما زاد غضبه ولومه وقال:

- اسكت، لا تمدح شغلك. خل الناس تمدحه. لا أحد يقول عن دبسه حامض، الأصل شهادة الناس، فهل يعجبهم؟

فازدادت حرارة حسين الحلو، وهرول إلى الدكان وأعمل يديه بصحن من الحمص هرساً بالمهراس ودقاً وتدويراً، والحاج سعيد يراقبه متعالياً، كأنه رئيس ورشة.. وقال حسين الحلو أخيراً وعيناه طافحتان بالبشر:

- تعال ذق واحكم، وقل لي هل ذقت في عمرك كله صحناً أخاً لهذا الصحن؟

ولا يدري أحداً الحاج سعيد مهيئاً لهذه المفاجأة أم أنها كانت صدفة.. ولكن الشيء الذي حدث هو أن الحاج سحب رغيفاً أحمر كبيراً من عبه وشقه وتناول صحن الحمص من يد حسين وانهال عليه جرفاً وتخطيطاً..

كان يتملظ بين حين وآخر، ويميل برأسه ذات اليمين وذات الشمال مستأنياً مفكراً، ويسرد ملاحظاته بين اللقم وأثناءها قائلاً:

- يعني!.. لا بأس! لو أشبعت الحمص هرساً.. الغلي نصف مليح، الحمص قليل.. كان عليك أن ترش قليلاً من الكمون.. هات عرق مخلل لنشوف!

وكان حسين الحلو، في هذه الأثناء، بادي الرضي، يداه إلى خاصرتيه كالعادة، ووجهه الصغير مزيجاً من الفخر والانتصار والترقب..

وفرغ الحاج سعيد من صحن الحمص، ولا حاجة بنا إلى القول أنه قاسه على قد الرغيف، ففرغ منهما في وقت واحد. وأعلن رضاه بشيء من التحفظ، فهرع حسين إلى أحد كرسييه، وأقسم على الحاج أن يجلس خارج الدكان ويتناول قدحاً من الشاي: «على حب النبي العربي ونية التوفيق» على حد تعبير حسين نفسه..

وبينما كان حسين الحلو يهيئ الشاي في الداخل كان الحاج سعيد متكوماً على الكرسي، كأنه عدل قطن منفوش.. كان يحاور نفسه على هذا النحو: «شيء لله يا رفاعي! هذه ليست دكاناً أجرناها، إنها كنز من الذهب فتحه الله في وجهنا، من غامض علمه.. إذا كان النصح والإرشاد بصحن من الحمص، وقدح من الشاي، وجلسة لطيفة قدام الدكان، فأرحب يا سيد حسين.. أرحب، أنا كل يوم عندي نصيحة جديدة! أبشر يا سيد حسين، يا ذكي يا فطين!»

وخرج حسين الحلو من الدكان بصينية الشاي.. فجلس الحاج سعيد يترشف الشراب بشغف وتأن وبطر..

وصاح على كاتب الفندق، وهو أحدب بنظارتين سميكتين، كان موظفاً في دائرة النفوس على زمن الأتراك، وقال له:

- كيف أصبحت اليوم يا سامي أفندي؟

فدلف منه سامي أفندي، وطفقا يتحدثان أحاديث شتى، وانضم إليها الدلال وأجير السينما وبواب مدرسة معاوية وحسين الحلو.. فكانت صباحية لطيفة!

وأدخل حسين الحلو على دكانه، في الأيام التي تلت، تحسينات جديرة بالذكر. فقد ركب واجهة بلورية للدكان، وأصلح الطاولة ووضع عليها قطعة، على قدها، من المرمر، وركب رفين ملأهما بقطرميزات المخلل والطحينة والحمص والزيت، وهمس في أذن دلال الكراج أنه أوصى على مغسلة من البورسلين.. وكان زبائن حسين يزدادون كل يوم وجلهم من رواد فندق قصر الأندلس والمسافرين إلى حماه وحمص والنبك، والحمالين الذين يرودون حول السيارات ويعرضون خدماتهم على الركاب وغيرهم كثير!

وانقضى شهر كامل على نصح حسين الحلو، وتوجيه الملاحظات إليه. نصحه مثلاً أن يسلق كل يوم جرة فول «لأن الزبائن – كما قال الحاج – قد تمل يا بني الحمص والفلافل.. والفول يفتح الشهية ويسري في العروق. وهو إلى ذلك غذاء جيد رخيص الثمن، محبوب من الجميع..»

وسلق حسين جرة فول، دشنها الحاج سعيد، على سبيل التذوق برغيف ونصف وعلق على وجودها قائلاً:

ألم أقل لك؟ الناصح مثوب. شيء جميل، شيء يسر بارك الله فيك.. تيقن يا بني أن آخرتك حسنة. أنت رجل محظوظ، وقد قيضني الله لك لخيرك وصلاحك!

فشكر حسين الحلو عواطفه ولكن الحاج سعيد تابع قائلاً:

- أي يا ابني أن الله لا يخلف الميعاد. هل أنت ميسور؟

قال حين وهو يبوس يده وجهاً وقفا:

الحمد لله، لقد غمرني الله بفضله وكرمه، ببركتك ووجهك الأغر.. أمراً هل تأمرني بخدمة؟

فقال الحاج وعلى شفتيه ابتسامة لها مغزى:

أجرة الدكان يا عين عمك!

فاستدرك حسين مسرعاً:

- تحت أمرك يا عم، من عيني قبل يدي!

قال هذا، ودخل الدكان وخرج حاملاً إحدى عشرة ليرة ونصف الليرة قدمها إلى الحاج سعيد قائلاً:

- تفضل يا عم. أهلاً وسهلاً.

فنظر الحاج إلى المبلغ وعده ليرة بتأن شديد وزوى حاجبيه وسأل قائلاً:

- تبقى لنا في ذمتك ثلاث عشرة ليرة ونصف!

فابتسم حسين الحلو ابتسامة من يشفق من نيسان صاحبه وقال:

- خصمنا ثمن ثلاثين صحناً من الحمص وثلاثين قدحاً من الشاي من أصل خمس وعشرين ليرة أجرة الدكان!

وأخذ وجهه سيماء طفل حل أحجية صعبة وقال:

- مضبوط الآن؟

* * *

إلى الدحداح

أحمد بيالي، زميلي في ورشة النجارة، فتى وديع، خجول عيناه عسليتان صافيتان، له أب في الخمسين، قد يقال في أول عمره ولكنه مات.. فوجدتني فجأة أمام واجب الوقوف في العزاء، كما لو كنت من أهل الميت، لأن زميلي حزين.. بدأت بأن لممّت من كل واحد من رفاقنا نصف ليرة.. لم يتمنع أحد فرحت أخير شغيلة الموت، والناس يسمعونهم كلاليب الجنائز لست أدري لماذا. فأرسلوا من عندهم كشافاً يحمل علبتين غرست فيهما غصون آس ضارب إلى الصفرة، أغلب الظن أنه مستعمل، مشى في جنازة أخرى قبل جنازتنا على الأقل!

طفت قليلاً في السوق، أشتري بعض الأغراض، ولما ذهبت إلى بيت الميت، كان الكلاليب قد سبقوني. عرفت ذلك وأنا مقبل على الدار، لأن غطاء التابوت كان مستنداً إلى الحائط قرب الباب.

دخلت. كان ينبعث من إحدى الغرف نحيب نسوة خافت.. حضرت في زماني جنائز لأغنياء، كانت نسوتهم ترفع صوتها بالبكاء وتولول، فتساءلت لماذا لا تعول أم أحمد هي أيضاً وترفع صوتها صائحة نادبة؟!

دنوت من الغرفة الأخرى حيث سيغسل الميت ويجهز. كان سقفها واطئاً، يقطعه في منتصفه جذع زيتونة ضخم معقد مظلم، والنافذة صغيرة تشبه أن تكون كوة، رقع زجاجها المهشم بجرائد عتيقة لونها إلى اصفرار.. ما من أثاث، وعلى حائط من الحيطان المهترئة المنكوتة، دقت خشبة ذات مسامير بارزة، تشبثت بأحدها فوطة قديمة. بياضها ضارب إلى زرقة

مخنوقة.. وفي وسط الغرفة كان الميت عارياً على نعش من الخشب القديم. وفي إحدى الزوايا يهدر طباخ كاز تحت تنكة فيها ماء أغبر، تصاعد إلى سطحه حبيبات كالكزبرة، حول طاس على جوانبها أثر الصابون!

كان في الغرفة اثنان من الكلاليب، لم يأبها لدخولي.. وحقن أحدهما، وهو قصير مجدول الرقبة، ضعيف البصر، حقن طباخ الكاز، وسأل رفيقه قائلاً:

- شيخ عبد الرزاق! عصرت له بطنه؟

كان الآخر، الشيخ عبد الرزاق، طويلاً عريض المنكبين، الجفن الأسفل لإحدى عينيه متهدل مشلول. كان يقف قرب النعش يعتمد براحة كفه على صدر الميت، كأنما رفعت الكلفة بينهما. أجاب وهو يتثائب بصوت مسموع:

- إِ.. إي عصرناه!

وصمت ريثما انتهى تثاؤبه، ثم سأل بكسل:

- أنت مهتم لمسألة بطن الميت جداً يا شيخ يونس! هذه ليست أول خطرة تسألني فيها هذا السؤال.. شو القصة؟ احكي لي!

قال الشيخ يونس:

- ألم تسمع الشيخ النقشبندي يقول أن هذا الأمر ضروري خوفاً من أن ينتقض وضوء الميت بعد الغسل؟

قال الشيخ عبد الرزاق:

- هذا ميت بلدي يا حبيبي، هذا من شهر ما انتقض وضوؤه! يمكن مات من الجوع. اعمل لك نظرة على البيت والعدة! وبعده، قل لي دخيل الله، هل ينتظرونه هناك ليأتموا به صلاة الظهر؟

فأطلق الشيخ يونس ضحكة خناء وقال متهكماً:

- أنت حر الخطيئة برقبتك على كل حال!

قال الشيخ عبد الرزاق متجهماً:

- الخطيئة! الخطيئة أن يموت أمثاله من المنتوفين! هذه هي الخطيئة التي لا تغتفر في نظر محسوبك الآن تفرج كم مقبض. قد لا نوى في كفنا بعد التدليك والتفريك «وعصر البطن» طبقاً لأوامر شيخك النقشبندي، إلا كلمة: «الله يلبسكم ثوب العافية» هم! كأن تغسيله للأجر...

فتابع الشيخ يونس تهكمه قائلاً:

وماذا في هذا، نحن صنعتنا كلها من باب الأجر. من باب عمل الخير والكب في البحر..

طيب يا سيدي، وماذا نفعل الآن؟ ألسنا نعمل؟ ولكن الشغل يكون على قد «الكرستة».

* * *

يقع بيت أحمد قريباً من كيوان، والقبر في الدحداح. مشوار! وانطلق صوت حاد على باب الدار يصيح: «أفلح من قال لا إله إلا الله..» كان صاحب الصوت شيخاً، من الكلاليب، أعرج، قصيراً، ذو وجه ماكر، وفم كبير، وذقن رقطاء كالإبر يعتمد على عصا معوجة. كان يراقب خروج النعش - تتقدمه علبتا الآس يحملهما رجلان بسروالين مرقعين - كما لو كان معلماً في ورشة النجارة ولا بأس من أن نقول أنه كان يراقب رزقه، طابقه!

لم يخرج أحد من عمال ورشتنا غيري أنا أما الآخرون فما سمح لهم المعلم. وهكذا لم يمش في الجنازة أكثر من سبعة أو ثمانية، منهم اثنان من جيران المرحوم، والآخرون للثواب، ومشى خلف النعش النعش مباشرة زميلي أحمد، وأخوه الذي كان مجنداً في الجيش، يتأبط ذراعيهما الجاران كما يقضي العرف.. وبدت الجنازة أشبه بقطيع خراف عجاف يجر أقدامه إلى مرعى ممحل! وكان يحمل النعش أربعة من الكلاليب معهم اثنان احتياط كانوا يلبسون طاقيات ذات بطانة سميكة، وعيونهم جامدة لا تعبر عن معنى ولم أدر

لماذا خيل إلي أنهم يحملون طبقاً من اللفت.. لعله الشبه بينهم وبين باعة الخضار الجوالين! ومع هذا فقد دنوت من أحد الكلاليب، بعد أن قطعنا حوالي مئة خطوة، ونقرت على كتفه، فأخلى لي مكانه على الفور، فأخذت قرنة النعش على كتفي اليمنى، وهمي – فضلاً عن الثواب أن أجامل زميلي الذي أحبه كثيراً.

وأشرفنا على طلعة التجهيز ورحنا نصعد فيها، ثم اجتزناها إلى شارع الفردوس.

أنا أعلم أن حملَ النعش مسألة رمزية مسألة خطوة أو خطوتين سنة رسول الله، ولكن مسيري تحت حملي الثقيل قد طال، ولم يأت أحد فينقر لي على كتفي، يأخذ مطرحي، ويفوز بالأجر والثواب معي.. على الأخص الكلاليب الذين يقبضون أجراً والصنعة صنعتهم. وكنت أخزر عيني فأرى التبادل يجري بين الكلاليب في زوايا النعش الثلاث الأقرنتي، كأنهم حريصون على أن يتركوا لي حصة الأسد من الثواب.. وبدأت كتفي تؤلمني، شعرت أنها تنخلع كباب دار قديم.

وكان يسير بقربي «ضبضبت» المجذوب، وهو كهل يبادر من يراه بهذه الكلمة: «ايمتى يا سيدنا؟» وهو يدفع فكه الأعلى كله إلى أمام حتى يشط ريقه.. وإذا عابثه الصبيان وحصبوه صاح بهم صيحته المشهورة: «روح الله يسترك!» وكان يومئذ، ينتعل بوطاً عسكرياً، بمسامير كانت تفرقع كأنها في جمجمتي.. وكان لا ينفكُ يحيّك من أول الجنازة إلى آخرها، والبوط يطرطق، ومساميره ترحك في قلبي. ولا أعلم أي شيء أغراه بي، إذ كان كلما مر قربي بكتفه يتودد، ويطلق ضحكة طروباً، ويقرب وجهه من أنفي ويسألني:

- ايمتى يا سيدنا؟

أأنا أعرف ايمتى يا سيدنا؟

اسأل الكلاليب! فعلوها بي أولاد الحرام، وكتفي انخلعت..

وسمعت ورائي همساً، رجل يقول لضبضبت:

بس يا شيخ أحمد عيب!

ولكن صوتاً آخر رد عليه:

- اتركه، يا أخي، هذا من أهل الله!

وأنا؟ أأنا من أهل الشيطان مع هذه العظام المرضوضة التي ضيعت أماكنها!.

ودنا من ضبضبت ولد وشده من سترته، فالتفت إليه وقال:

- روح الله يسترك.

ودنا مني كعادته ولزق وجهه في وجهي وقال لي في شبه شكاة:

- قل له، قل له يروح الله يسترك!

* * *

في مطلع دخلة سوق ساروجة تعطّف عليّ كلابة من كلاليب ونقر على كتفي.. خفت أن أطعنه بنظرة جارحة كالمسمار، فيعدل عن رأيه ويتركني إلى الدحداح أنال الأجر والثواب وحدي. ولما تحررت من النعش كنت أشعر كأن جرن كبة يتعلق بعظام كتفي ويجذبها إلى الأسفل، أن كتفاً قد صارت أعلى من كتف.. ولكن فكرة مفاجئة، غرزت عقلي، في تلك اللحظة التي تحررت بها من نعشي أذهلتني عن ألمي! بعد دكاكين من دخلة السوق تأتي دكان أبو حميد السمان، وله علي دين قديم، منذ كنت أسكن في هذه الحارة لسنوات خلت. كان أبو حميد هذا يشم رائحة القرش في جيبي بقدرة قادر.. يعرف متى أكون مفلساً، فيبدأ بالسلق والشي: البيضة بفرنكين ونصف، ورغيف الخبز بثلاثة فرنكات! ليس هذا فحسب بل كان يفرض علي بضائعه فرضاً.. كان يصرخ بي بلهجة آمرة:

- عندنا مشمشات ظراف خذلك كيلوين!

أما أن المشمش ممأميء، مخبوص قذر، للكب، فهذه مسأله أخرى، لا يحق لي الخوض فيها! ولما صار له عليَّ أربعون ليرة هربت من الحارة.. ويا جامع الشمل!

جعل قلبي يخفق بشدة.. بني آدم، خرج علي - بسم الله الرحمن الرحيم - من الدكان، وقذف نفسه وراء الجنازة! تمنيت لو مسخت ضبضبت آخر في هذه اللحظة. كنت أعرفه حق المعرفة، رجلاً قد لا يتورع عن أن يتشبث بتلابيبي، دون رعاية لحرمة الموت، ومصيبتي ومشاركتي الحقة لزميلي أحمد في حزنه، ويروح يهمر بي:

- وينك يا أخ! أي ما استوت الأربعين ليرة أي أكلها العت، أي بلعها الحوت؟

وكان النعش يزحف، والشقة تقصر بيننا وبين دكان أبو حمد، ورعبي يزداد، وقلبي أحسه في حلقومي، لماذا لم يذهبوا من بوابة الصالحة، من شارع بغداد! والله هنا الزقاق ضيق، والدكاكين مندلقة إلى نصف الزقاق، والدراجات رائحة جائية..

وبلغنا الدكان. جعلت أتلو في سري، بنفس مقطوع، آية الكرسي، ولإيلاف قريس، واستنجد بالأولياء والصالحين.. وأتظاهر بأنني، من حزني أكفكف وجهي عن النظر يميناً، وأكفكف دموعي التي خانتني هي أيضاً.. على أن بؤبؤي عيني كانا قد انسحبا كليهما صوب الدكان الغول، وتسمرا عليه.. ورن كعبان قربي، فنقزت: كان جندياً يحيي الجنازة.. آه لو أنني عسكري!..

وعاد بؤبؤاي من جديد يندقان، كالوتد، على الدكان، وإذا أنا ألمح أبا حميد، أبو حميد بعينيه، بكرشه المكتومة وشاربيه الكثيفين.. كان واقفاً وراء الحاجز الخشبي، وعيناه إلى الجنازة ولم يلبث طويلاً حتى رفع الحاجز وهم بالخروج.. خلص! وقعت الواقعة وخرب بيتي. إنه يتقدم من النعش، ماذا

أفعل يا أمه محمد؟ أحسست أن بصري قد طاش وجعل يتناثر في كل مكان كأنه يفتش عن ملاذ، عن مخبأ، وإذ أنا تسرق عيني الزاوية الأمامية اليسرى من النعش.. وكمن يسير في نومه هرولت نحوها، ورحت أنقر، قل أدق، على كتف حاملها، وأزيحه عن موضعه بنوع من الجفاء، وأحل محله.. إلى الدحداح وحياتك.

* * *

أمام القصر العدلي

الوقت ضحى أمام القصر العدلي، قرب الفيجة، وحمشو - صابغ الأحذية الفتى – قابع وراء صندوقه الصغير الرث، تغرق عينيه الركيكتين كآبة صامتة.. كان قميصه المكعب الباهت مشقوقاً عن صدر أسمر، خفيف الشعر. وبنطاله يحمل رقعاً من غير لونه لصقت بخيطان زرق وطعن كبيرة. وكان ثمة تنافر بينه، وهو الطويل النحيف، وبين صندوقه القصير المكتظ بالعلب والقناني التي تتدلق من حمالتها، وكان موضع الرجل من الصندوق مائلاً، مجوفاً في مقدمته، ضرب فيه عدد من المسامير الصغيرة والكبيرة فصار أشبه.. بجزمة عسكري تركي!

وكانت الضجة تصطخب وترتفع مع ارتفاع النهار، كأن الخلق، في هذا الجوء من المدينة، تلسع أقفيتهم سياط غير منظورة، تحثهم على الإسراع الصاخب.. فالباصات تزعق، والباعة يرفعون أصواتهم بالنداء، وصابغوا الأحذية الصبية يخبطون على صناديقهم، ويرشقون صيحات حادة متلاحقة: «بوية ظريفة يا بك!»، وشرطة السير في مواقف الباصات، بقبعاتهم البيضاء، يصفرون ويزجرون الركاب المزدحمين أكتافاً تضغطها أكتاف. وبين هذا الصخب المنهك، قد يقف شبان أغراب أو من أبناء المدينة، متسكعون، ليس لهم شغل إلا مراقبة المارة أو النظر إلى النسوة الواقفات في انتظار السيارات، حتى إذا قذفت إحداهن ساقها على سلم السيارة سددوا أعيناً براقة محملقة، تكاد تقطر منها تنهدات محرقة!

وشق هذا الضجيج كله محرك من دراجة نارية عتيقة تحمل آثار البرية من تراب ووحل، ووراء سائقها تدلى خرج برزت منه صفيحتا حليب..

وتعلقت امرأة عجوز بدرجة باص يسير رويداً، فكادت تقع على وجهها، فمد قاطع التذاكر رأسه من طاقة في مؤخرة السيارة وزمجر بصوت حانق:

- ولك انتظري يا حرمة حتى يقف. ضربك العمى، يحرق دين النسوان ومن اخترع النسوان، تفو!

وهدأ قليلاً ولكنه تابع بالصوت المرتفع ذاته:

- والله لو كان خلقني مرأة لكنت شنقت نفسي!

وعاد رأسه فاختفى داخل الباص، فردت عليه العجوز بصوت مبحوح ممدود:

- أي شو صار لك، قطيعة إن شاء الله!

وأعول بائع صحف أحول شاحب:

- الأيام، النضال، دمشق المساء. أبوها ما زوجها قتلته..

وأرسل حمشو، صابغ الأحذية، عينيه تكنسان الأرض قدامه، وتلاحقان مئات الأحذية المتراكضة.. خيل إليه أن الناس لا يجدون الوقت، في جنونهم هذا، لصبغ أحذيتهم..

وتساءل في بلاهة: «طيب، أليس عندهم وقت لإعطائي حق رغيف خبز!» ولبث ذهنه فترة من الزمن لا يتحرك ولا يجيب، كأنما شله جمود غريب في تيار هذه الحركة الجامحة حواليه.. وسمع كما لو كان كائن آخر في داخله يوشوش متسائلاً: «العمى، والله من البارحة ما أكلنا!».

* * *

كانت الشمس دافئة كأنها بُنية تخلصت من شعرها الغزير الذي يتوثب على وجهها فيغمره ويضيق أنفاسها. وفي السماء الصافية نثار غمامات بيضاء، والهواء يحمل روائح الربيع.. تذكر حمشو أنه لم يأكل منذ البارحة حقاً، وذهب إلى فتحي الفلسطيني، صابغ أحذية كان يقعد هنا قربه.. فتى مورد الخدين، حسن الهندام. هو الآن ميسور الحال، يقبض ربع ليرة كاملة

عن كل حذاء يصبغه، لأنه لم تعد ترضيه الجلسة الفقيرة هنا، إنه يطوف على دوائر الحكومة، وما أدراك! هناك ربع الليرة بسعر البصلة المنخورة.. لقد مر به منذ يومين وحياه باسماً وأعطاه أربعة فرنكات، هكذا لوجه الله، وألقى في أذنه هذا الخبر: عملنا اليوم بليرة ونصف!.. أما هو فقد حاول أن يطوف على المتوظفين في الدوائر، مثل فتحي. قصد بناء البريد، وتحت إبطه كرسيه العتيق، وصندوقه مندفع أمامه، فما أن مد رأسه من فرجة الباب حتى صاح به البواب منتهراً: «مسحة ظريفة بثلاثة فرنكات» حتى ينتفخ زوره، ولا يكاد يظفر بزبون!.. بل ظفر أول أمس بقروي ضخم ينتعل خفين ضخمين، عليهما رقع كثيفة من الوحل والطين والتراب، دلف من الصندوق وخبط قدمه اليمنى على المداس وأطبق صوتاً أجش غليظاً:

- امسح يا ولد!

- أمرك سيدي.

ولم يكد حمشو يمد يده إلى الفرشاة والصابون حتى صاح به القروي.

- قديش تأخذ؟

قال حمشو متأدباً:

- ثلاثة فرنكات سيدي. بوية أميركانية أصلية.

وإذا القروي يأخذه غضب شديد كأنك شققت له سترته أو شددت له شعره، ويروح يهدر كالجمل.. ويظل كذلك وقتاً غير يسير، لا أحد يجيبه.. حتى إذا هدأ قليلاً، دخل في مساومة تنشف القلب وهمه أن يمسح خفيه العظيمين بسبعة قروش ونصف!

وانتشل حمشو نفسه من هذه الصور الواخزة، الثقيلة كالرصاص، وحول بصره إلى يمين. كان قربه رفيقان صغيران يجلسان جلسته، إحداهما، وهو الأقرب، صبي أزهر الخدين، شعره مائل إلى الشقرة مشعث ترب، على فمه ابتسامة ساذجة.. كان يدعو المارة بنقرات موزونة من يديه الصغيرتين

البضتين على صندوقه، ويطلق صيحات ناعمة ندية كصوت البنت. لم يسبق لحمشو أن رآه مقطباً أو حزيناً، كان وجهه طافحاً بنوع من الاستسلام الجذلان الغافل، وهو يلبس سترة فضفاضة من الخاكي، مقطعة الأزرار، غير زر واحد أصفر، على وشك أن ينقطع هو أيضاً.. وقد برز من فتحة السترة رغيف أسمر مطوي عدة طيات.. أما الصبي الآخر فكان جامد التقاطيع مندفع الجبهة، مقرون الحاجبين، عبوساً.. وقد زعم مرة أنه يحسن القراءة وأنه كان له أهل!.

ومر رجل أمام صندوق حمشو، في قدميه حذاء أغبر واسع، وألقى نظرة إلى الصندوق، ثم تابع سيره متوانياً كسولاً فارتفعت الأيدي بالنقر على الصناديق، وانطلق الصياح المألوف: «شرّف يا أستاذ بثلاثة فرنكات، مسحة ظريفة، بثلاثة فرنكات!» وكأنما خيل إلى حمشو، في هذه اللحظة، أنه سمع صوتاً يصيح: «بفرنكين» فكف عن الخبط والصياح، والتفت صوب الصبي الأشقر فرآه يضرب الصندوق بيد ويشرع اصبعين من اليد الأخرى، إشارة إلى أن المسحة عنده بفرنكين فقط.. كان يفعل هذا ووجهه قد ازداد تهللاً وجذلاً..

ووقر في نفس حمشو أنه لمح فيه ظلاً من معابثة.. وتوقف الرجل عند الصبي الأشقر، وتردد قليلاً ثم وضع رجله على المداس.. لم يدر حمشو نوع الإحساس الثائر الذي عصف به، ولكنه شعر أن بئراً من الحنق والغيظ قد طفحت في صدره حتى كادت تخنقه، وسمع صيحة تفلت منه وهو يسدد إلى الصبي عينين من شرر «ولك ابن..» ولكنه امتلك نفسه وهمد.. أما الصبي فكان غافلاً عما حوله، منهمكاً في سحب خرقة من قلب الصندوق، يجرها فتنجر كأنها مصارين خروف.. وأما الصبي الآخر ذو الجبهة المندفعة والوجه القاتم، فقد سحب يديه عن صندوقه وعاد يقبع في صمته وعبوسه..

وكان الرجل ذو الحذاء الواسع لا يزال يوزع نظراته على الأولاد الثلاثة، ويمسك ذيل جبته السميكة بيديه ويكومه على ركبته التي اندفعت إلى جبهة الصبي الأشقر.

ولا أحد يعلم ماذا خطر في بال الرجل لأنه ما لبث أن قطب حاجبيه، وأفلت ذيل جبته، وحك عذاريه الأشيبين، ثم نزع قدميه عن المداس و.. مشى! وحملت ابتسامة الصبي الأشقر معنى من الدهشة، ولكنها لم تخفف من غضب حمشو الذي كان يغص بحنقه المتدفق.. والحقيقة أن الصبي الأشقر قد خانه وعبث به وطعن المهنة في صميمه ، ولكن، حتى هذه الأسباب لم تكن هي التي تغضبه.. كان يثيره الشمس الدافئة، والرجل ذو الحذاء الواسع، والصندوق، ورغيف الخبز الأسمر الذي يمد له لسانه من فتحه السترة الخاكي.. حتى الزر الأصفر القلق في منتصف السترة كان يعلق قلبه وصبره بشعرة واهنة تهم أن تنقطع! أحس إحساساً جارفاً بحاجته إلى الشجار، فصاح بالصبي الأشقر:

- أنت.. ماذا فعلت يا..

واختنقت الكلمات في حلقه.. فلوى الصبي عنقه نحوه، ونظر إليه نظرة فرحة، كأنه يستأني أن يسمع فرحة أو مداعبة.. وإذا حمشو ينهض بكل قامته ويشرع يده حتى تبلغ ظهره، ويهم أن ينزل بها على رأس الصبي. فيجتمع هذا، وينضغط على نفسه، ويرفع مرفقه يحمي به جمجمته، وعيناه المذعورتان ترفان رفيفاً متلاحقاً سريعاً.. وانزلق الرغيف الأسمر من تحت السترة، واستقر في حضن الولد.. كانت تند عنه صيحات دقيقة.. (وما كان أشبهه بجرو أبيض وليد صببت عليه طاساً من الماء)! وبدا لحمشو، في موقفه ذاك أن ضربة واحدة قد تميت هذا الجرو الأبيض الوليد وكان الرغيف لا يزال في حضن الولد، الرغيف الذي كان منذ دقائق يمدُّ له لسانه، فأنزل يده كالباشق، وانقض بها على الرغيف، وخطفه، وراح ينهشه في قسوة وشراسة، وعاد إلى مجلسه وراء صندوقه ينفخ من الغيظ!

جرى هذا كله في لحظات قصار، جعلت الصبيين الصغيرين يركزان أبصارهما في حمشو، ويتأملانه في دهشة بالغة؛ ولاسيما الصبي الأشقر، فقد

كان حاجباه شائلين، وجبينه متكوماً طيات وثنيات، في تعجب مضحك. وكأنما تصور أن كل ما حدث لم يعد كونه مزاحاً وترويحاً عن النفس.. وشع في وجهه الأزهر من جديد هذا الهدوء وهذا الاستسلام الغافل الجذلان، وقال بصوته الناعم الأنيس:

يخرب بيتك يا حمشو. خوفتني! فنكس حمشو رأسه، وأخفى بسمة خجلاً، فتابع الصبي:

من الأول أنك تريد الرغيف!

وضحك ضحكاً صافياً من صميم قلبه:

- آه يا شيطان آه.

ومد يده إلى جيب بنطاله، فأخرج قطعة كبيرة من الجبن الأبيض المتسخ، الذي يحمل فتيت بطانة الجيب، وقال له وهو ما ينقطع عن الضحك:

خذ هذه أيضاً!

* * *

أخبار من البلد

الرياضُ السنّدُسيَّة

عشية اليوم الذي وثب فيه حسني الزعيم إلى السلطة في صيدلية عتيقة بقطنا.

كان سامي زين العابدين، الصيدلي، وراء الحاجز الزجاجي يهرس بعض الأدوية في هاون من البورسبلين، لا يظهر غير رأسه الأصلع الصغير وعينيه الباسمتين وشاربيه الأرقطين. وعلى أحد المقاعد الخشبية، جلس منيب العطار مدير البريد والبرق، وهو كهل في الخمسين، ولكن امتلاء خديه ويديه يجعلك تظنه أصغر بعشر سنوات. كان يتحدث إلى الشيخ عبد الفتاح السلطي إمام جامع قطنا، خفيف شعر اللحية والعارضين، يلبس ثوباً حموياً له زنار من الحرير، فوقه جبة مفتوحة وأذيالها على الأرض، وكان الصيدلي يشارك في الحديث من وراء الحاجز الزجاجي، ويتوقف عن عمله إذا احتدم الجدل. وثمة قرب الباب، على مقعد خشبي آخر تجلس إمرأة بثوب سابغ كشفت عن صدرها فاندلق ثديها الضخم في فم رضيع كان يتشبث بصدرها ويلوح برجليه في الفضاء، وعن يمينها قعد عجوز على رأسه شملة صفراء فاقعة وعقال نصلت خيوطه، يسند يده إلى سلم خشبي ركز على رفوف الصيدلية العالية. وكان الفلاح العجوز يدخن في صمت واستسلام وأذنه إلى حديث الجماعة... وفي هواء الصيدلية تشيع رائحة الأدوية والعقاقير الخاصة...

كان الشيخ عبد الفتاح يلفظ السين كمنشار مر على حديد بارد، ويحملق بعينيه الجاحظتين كلما تحدث، ويكثر من الإشارة بيديه ومعهما يتحرك كمَّا الجبة الواسعان، قال:

- هذه آخرة الدنيا. أظن أن الساعة لن يطول وقتها. يوم القيامة ليس ببعيد. ماذا؟ كل يوم حاكم جديد! على زماننا كان السلطان يظل يحكم حتى

يموت. ويكون لا يزال سخناً لمن يدفن عندما يصيح الباروان: مات السلطان عاش السلطان الجديد، وإذا على العرش سلطان جديد، وكل أرض شربت ماءها!

فأجاب منيب العطار محتجاَ:

- شيء نفش! على زماننا! زماننا، الكلام بيننا زفت... قتل القتيل أهون من الصلاة على النبي! كان يأتيك جربوع حقه بارة يسحبك من بين أهلك ويحطك في الحبس. لا ياسيدي، كله خير. تغيير الدول رحمة. قال السلطان! ماذا ربحنا من ورا السلطان غير الجهل والعمى؟ كان الأمي ينصّب والياً، والحرامي يقضي بين الناس والجاهل يلبس جبة إمام الجامع!

فغمغم الشيخ محتجاً، بكلام غير مفهوم.

وتدخل الصيدلي:

أنا مع منيب أفندي بالمئة. كيفما كانت الأحوال في هذه الأيام سودا فعلى زمن الأتراك كانت أرذل. على الأقل الآن نستطيع الحكي بالعربي.

قال الشيخ مغضباً:

- والدين؟ اعمل لك نظرة على شباب اليوم. نسوا، استغفر الله العظيم، الشهادة، لا صلاة ولا صوم...

فقاطعه منيب:

جهال من أول عمرهم. وقت كنا قدهم كنا أقطع منهم. فورة شباب وتمر، ثم يرتجعون إلى الله ويتوبون. والحقيقة إنهم يفهمون الديانة أكثر منا. مرة ابني صلاح، عين الله عليه، ابن تسع عشرة سنة، في الصف الأول حقوق، سألني مازحاً: «أبي ما الفرق بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية؟» صحت به زاجراً: «اسكت تمتحن أباك يا مغضوب!» ولكني في أعماق قلبي كنت أعرف أنني من صنف الجاموس، يجب أن أربط إلى معلف وأساق إلى الفلاحة. هذا كل ما في الأمر، يجب أن أعرف حدي! ماذا أعرف أنا؟ التلغراف! شيء لله! شو التلغراف طبخة كيميا!

قال الصيدلي ضاحكاً:

- لهْ يا منيب أفندي. لا تعرف الفرق بين السلطة الزمنية والدينية، الفرق أنه...

فقاطعه منيب قائلاً:

- لا تقل لي، سوف تخبص. أنت لا تعرف. أنت صيدلي قديم. قبل سفر البر. والشيخ عبد الفتاح لا يعرف، لا أحد يعلم إلا هؤلاء الزهرات، هؤلاء الرياحين أولادنا... إنهم يعرفون كل شيء، تصور أن ابني صلاح رسام أيضاً، نقف أمامه خمس دقائق وإذا أنت بعينك وفمك وأنفك متمدد على الورق...

قال الشيخ عبد الفتاح:

هذا حرام. غداً، يوم القيامة يحضر الله الرسامين ويحضر تصاويرهم ويقول لهم: انفخوا فيها الروح فيعجزون فينفخ هو في التصاوير الروح ويعطيها أسياخ نار تضرب الرسامين وتقول: «هذا جزاء تسميرنا على الورق ومنعنا من عبادة رب العالمين!».

وبكى حينئذ الطفل في حجر أمه عند باب الصيدلية.

فقال منيب العطار:

- أنا لا أعتقد في ذلك. سكّتي ابنك يا حرمة... نحن لا نعرف شيئاً والسلام! من أين نتعلم؟ من هذه القرية؟ من هذا العجوز؟ من أين؟

وألقمت القروية ابنها حَلَمة الثدي فسكت. وخيم الصمت فترة قطعها منيب قائلاً:

- ولك في فكري اسأل سؤالاً واحداً. هذا حسني الزعيم أليس هو القومندان حسني الذي كان يأتي عندي في المركز أيام الفرنساويين ويستريح بعد المناورة؟

قال الصيدلي:

- أظنه بعينه...

قال الشيخ:

- إي معقول؟ قومندان يحبس رئيس الجمهورية؟

قال الصيدلي:

- هو، والله العظيم، أنا قرأت في الجريدة...

قال منيب:

عجيبة وحق الخضر! كان يجيء عندي أغبر عليه طين، فيصيح بي:

«ولك منيب أوص على فنجان قهوة سكر زيادة بالعجل، وإلا أمرت بإعدامك!»، فأقول له: «أنت يا عجل، أنت! انقلع من وجهي أحسن لك...»، فيضحك ويقول لي: «الأيام بيننا والله ما في أحد سيملك هالبلاد غير أنا! أنا هتلر، موسوليني، فرانكو...»، فأضربه براحة يدي على نقرته وأقول: «ما بقي علينا غيرك يا...» ونضحك...

قال الصيدلي:

من يدري لعلك تصبح وزيراً، ولك قبة وقنطرة وسيارة على الباب وشرطي آخذ رسم نتعظيم على الأربع والعشرين!

قال الشيخ باسماً:

إذا صار منيب أفندي وزيراً طالبت أنا بمشيخة الإسلام!

- ٢ -

وتمضي أيام معدودات لا حديث للناس فيها إلا حسني الزعيم، حتى أن إحدى الصحف الكبرى في العاصمة عثرت على مخطوط أثري قديم مكتوب فيه أن الزعيم يتصل نسبه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن منجماً

مغربياً فتح له في صغره فألاً وجد فيه أموراً عجيبة، وقيل أن المنجم همس في أذن المرحوم أبي الزعيم قائلاً: «هذا الولد كنز، بالكم عليه... سيحكم من البحر إلى البحر!»... ثم إن حسني الزعيم يستفتي الأمة في انقلابه فتيزاحم الناس على أبواب اللجان الانتخابية حتى أن الموتى والمهاجرين والمشلولين والخرس والطرش يشتركون في الاستفتاء. ومن ألطف ما حدث أن بعض الدوائر الانتخابية وجدت، بعد فرز الأصوات، أن عدد المقترعين يزيد مئات كثيرة عن عدد المسجلين في اللوائح. وقد علل أحد رجال الوقورين هذه العجيبة بأن العناية الصمدانية قد دعمت هذا الملخص، بروح من عندها، وأسهمت، هي أيضاً، بإعلاء شأنه رحمة ببلادنا المسكينة!

كانت الصيدلية في تلك الأثناء تلاحق أنباء دمشق باهتمام بالغ، فتحرك جوها الكسلان، وأخذ الصيدلي، رفيقاه يتابعون الجرائد اليومية، وينكبون عليها يفلونها تفلية. وكان الصيدلي يمتنع عن البيعات التافهات من باب ربع الليرة وما دون، وإمام الجامع لا ينهض إلى الصلاة إلا متثاقلاً يقتلع رجليه من الصيدلية اقتلاعاً مؤلماً.

أما منيب العطار فكان أكثر الثلاثة اهتماماً. ولما حدث ما كان منتظراً، ونط حسني الزعيم، بثياب المشيرية، إلى رئاسة الجمهورية، صفق منيب العطار متهللاً وصاح برفيقيه:

... ما قولكم ببرقية أصولية نهنئه بها؟

قال الشيخ:

نحن ما دخلنا؟ لم يكن الرجل يجيء إلينا بعد المناورة ويشرب فنجان قهوة سكر زيادة في محلنا!

أجاب منيب:

- أنت حر، أما أنا فسأبرق إليه البرقيات تذاع في الراديو.

قال الصيدلي:

- وما تقول له؟ أنت لا تعرف كيف تكتب ضرب زيد عمراً.

قال منيب واجماً:

- إي والله لو كان صلاح ابني هنا لكان نقش لي برقية مثل الألماس...

وصمت لحظة ثم تابع:

- على كل سأكتبها أنا. ولكن ما قولك في مكتوب يا زين العابدين؟ أظنه أوجه!

قال الصيدلي:

- أحسن، ولكن دبر البرقية أولاً.

قال منيب ذاهلاً:

- سأكتب له مكتوباً، أنا بنفسي. هو الزعيم نفسه لا يحسن القراءة والكتابة خيراً مني، أنا أعرفه، ثلاثة أرباع كلامه بين التركي والفرنساوي ولكن... أنت يا شيخ عبد الفتاح ألا تكتبه لي؟ أنت لست ماهراً إلا في الوقوف على المنبر: و«يا عباد الله اتقوا الله!» من عشرين سنة ذات الخطب.

قال الشيخ محتجاً:

- أنا؟ كذب! تعال، قم اكتب لك رسالة لا يستطيع كتابتها مفتي مصر، قم! قال أنا لا أعرف... شف شف!

فهب منيب العطار واقفاً وأمسك بيد الشيخ، وذهبا إلى مركز البريد القريب... والصيدلي بهدوئه البديع الأنيس، وعينيه الضاحكتين يودعهما!

في مركز البريد، وهو دكان مشعثة، في وسطها مدفأة من الصفيح مصبوغة بالأسود وبواريها تؤلف خطوطاً معوجة، جلس الشيخ عبد الفتاح ومنيب العطار على المنضدة الغبراء، وصاح هذا بالموزع، وهو فتى شاحب هزيل إحدى كتفيه أعلى من الأخرى وبنطاله مقطع مرقع، وقال له:

- أعطنا ورقاً ظريفاً وظرفاً.

فسأل الموزع وأسنانه مطبقة من البرد:

- رسمي؟

قال منيب:

- لا، اشتر لنا من السوق.

والتفت إلى الشيخ:

- ابدأ أنت... خذ مسودة.

قال الشيخ:

- ماذا أكتب؟

قال منيب متعجباً:

- يسألني أنا! وهل أعلم؟ كنت أكتبه أنا أبدأ بالديباجة، السلام وسؤال الخاطر...

فمد الشيخ أصابعه تحت العمامة وأخذ يحك رأسه، والعمامة تروح وتجيء، وتعلو وتهبط... ماذا يكتب؟ أخذ يعصر ذهنه... تذكر رسالة كان قرأها منذ زمان في كتاب أصفر. لم يبق في ذهنه منها إلا رسوم دوارس: «بعد إهدائكم السلام كفيض الغمام، وإبداء التحية كالرياض السندسية!»... الرياض السندسية! ما معناها؟ لا يهم، على كل حال لن يدعها تفلت من يديه...

كان منيب العطار في أثناء ذلك يمط رقبته، ويسترق النظر، وانتبه له الشيخ فقال:

- لا تحدق كثيراً إنك تربط يدي.

قال منيب مبتهجاً:

- على العكس، حلو، تابع، ظريف: إبداء التحية كالرياض السندسية! يا عيني...

ومضى الشيخ يكتب أشد حماسة مما كان... وانتهى المكتوب: صفحة ونصف. خلاصته أن حسني الزعيم أعظم رجل في العالم، ولكن لا ينسى صديقه الوفي منيب العطار!

- سمعني!

قالها منيب بلهفة، فأشرع الشيخ ورقته وأخذ يقرأ بصوت عال، وكلمات مفخمة، ولهجة تشبه لهجته في خطب الجمعة.

قال منيب بعد أن فرغ الشيخ من قراءته:

- بديع، بديع ولكني احفظ بيتين من الشعر، ما قولك في تنزيلهما في المكتوب؟

قال الشيخ:

- هات:

فأنشد منيب:

سألت الله أن تسمو وتعلو
كالقمر المصور في كبد السماء
فلما علوت وجدت نفسي
وما علي سوى ردائي![١]
سوى ردائي آ؟

قال الشيخ:

- حلو، حلو، والله العظيم.

* * *

---

(١) قال الرواي هذه رواية منيب العطار، والعهدة عليه.

لما رجع الشيخ عبد الفتاح ومنيب إلى الصيدلية كانا يميلان واحدهما على الآخر من الضحك، فاستقبلهما زين العابدين الصيدلي بحاجبين شائلين من دهشة، وسألهما عما يضحككهما فقال له منيب:

- نقشنا لك دين إيمان مكتوب يهدي للملوك: إبداء التحية في الرياض السندسية... كيف يا شيخ عبد الفتاح؟

فانتفش الشيخ كالديك الهندي:

معلوم ياه. أنا متأكد أن الزعيم سيطير عقله. مكتوب مثل سبيكة الذهب. المسألة مسألة بلاغة... غداً ترى كيف يصير منيب أفندي في السماء السابعة...

- بعيد الشر عنه... في السماء السابعة؟

* * *

فلما كان المساء دخل منيب العطار على زوجته، وهي إمرأة في حوالي الأربعين، سمراء بدينة، في عينيها دهشة طفلية دائمة، وأخذ يروي لها ما جرى له في النهار... وما كاد ينتهي من حديثه حتى وضعت المرأة إصبعيها على فمها وأطلقت زغردة عالية... وقامت قيامة البيت، وارتفع صياح الصغار... وكانت ليلة.

بعد ثلاثة أيام من هذه الحوادث وقع أمر هام عجيب حقاً. فقد تلقى منيب العطار من مدير البريد في الشام برقية هذا نصها.

«فخامة المشير يريد مقابلتكم. احضروا فوراً، سلموا المركز إلى الموزع على مسؤوليتكم الخاصة!»... ونترك للقارئ العزيز تصور حال منيب العطار بعد أن قرأ البرقية... أحس أن في رأسه طاحوناً تدور، فحمل البرقية، كمن يسير في نومه، وقصد الصيدلية، بينما كان الموزع الهزيل الشاحب يقفز كالأرنب إلى بيت منيب يحمل بشراه إلى الزوج التي وضعت إصبعيها على فمها كالعادة وأطلقت زغاريدها الحادة.

أما في الصيدلية فقد اشتد اللغط. وأهمل زين العابدين الزبائن. وكان بينهم ضابط كهل برتبة ملازم أول على جبهته ندبة، اهتم للخبر وأخذ العطار من يده وانتحى به من ناحية وغرقا في حديث طويل، كان الملازم أثناءه يلوح بيديه، يكثر من الإشارات. على حين أن الصيدلي وإمام الجامع كانا في غاية الجذل ولا سيما الشيخ عبد الفتاح الذي كان يتحسس زناره ويقول للصيدلي:

أرأيت؟ إن في البيان لسحراً. أنا والله قادر على إخراج الحية من حجرها بهذا اللسان. أنا فلتة من فلتات الزمان. أنا منوم مغناطيسي أنا... حرام عليك والله يا شيخ عبد الفتاح تنقبر في هذه الضيعة...

حينئذ سمع صوت الملازم، وهو يقول لمنيب:

لا تنسَ، قل له أنني من أكبر أنصاره، قل له لا ينسني، أنا رجله!

ويستطيع أن نؤكد أن قطنا كلها، نساءً ورجالاً، انشغلت في أمر منيب العطار، حتى أن حشداً كثيفاً كان في كراج البلدة يودعه حينما سافر إلى دمشق... إلى الخير الوافر والسعد المفاجئ!

-٣-

وصل منيب إلى دمشق حوالي الظهر، فقصد أول من قصد مدير بريد الشام، الذي استقبله إلى الباب مرحباً، كان يأكل نصف الكلمة:

- أهلاً، أهلاً! ألا تزال هنا؟ اذهب، فخامة المشير يريدك! لقد تنازل فخامته فكلمني بالهاتف وأمرني أن أبرق إليك. تأخرت يا منيب بك، تأخرت.

فرفع منيب رأسه شامخاً مغتطباً وقال:

- المسألة بسيطة. ليس بيني وبين حسني بك حاجب بواب. وأصلاً الكلفة مرفوعة أستطيع الذهاب إلى بيته إذا لم أجده في القصر!

فحملق مدير الشام متعجباً ودعا منيب إلى الجلوس، ونده الخادم، وأمره أن يحضر فنجاناً من القهوة وقال:

على بركة الله... ولكن أرجوك أن تسأل لي خاطر فخامته، وتخبره أنني أدعو له ليل نهار بالتأكيد والعمر الطويل. وأظنك تعرف يا منيب بك الحال: أربعين سنة في هذه الإدارة أخدم بجد وإخلاص...

وقطع منيب كلامه قائلاً:

- مفهوم، مفهوم!

قال المدير:

- أعني قصدي، أنت سيد العارفين إن...

فانتهره منيب صائحاً:

- قلت لك مفهوم. يعين كلمة ورد غطاها، أنا أفهم على الطاير تريد الترفيع، خلص!

قال المدير متطامناً:

- نعم، هذا ما أردت قوله!

بعد هذه المقابلة قصد منيب العطار القصر الجمهوري. كان منتفخاً كالإوزة، راضياً عن نفسه، شديد الفخر بها، ولا سيما بعد رؤيته مدير الشام، بطول وعرضه ومهابته القديمة، يصغر أمامه كالقط، هذا المرعب الذي كان شبحه المخيف قد بلغ من الفظاعة أنه كان يخطئه في الحسابات إذا خطر في باله... وضحك منيب العطار من صميم قلبه، وجعل يتخيل نفسه داخلاً إلى القصر الجمهوري والحرس عن يمين وشمال، بخوذاتهم اللامعة وقفازاتهم البيضاء يأخذون له التحية الرسمية كأنه قنصل: «أين زين العابدين والشيخ عبد الفتاح؟ ولا سيما الشيخ عبد الفتاح... إنه يشمخ علينا برعيته! وما رعيته! نصف رجل عمل منه خادم جامع، والمؤذن الأعرج والمقرئ الشيخ أحمد نعسان الذي يخنقه السعال كلما قال: «بسم الله الرحمن الرحيم! لو أن الشيخ عبد الفتاح هنا لكان طق عقله مئة بالمئة!».

ووصل إلى القصر الجمهوري في المهاجرين... ما هذا؟ محشو؟ فرن يبيع خبز الوثيقة؟ جبل عرفات؟ صلاة جمعة؟ كانت حدائق القصر محشوكة

بشتى أنماط البشر: حرس شرطة، جيش، بدو، حضر... وفتح منيب العطار فمه مدهوشاً وشعر بأنه ينضغط وينكمش ويصغر رويداً رويداً! أين يذهب في هذا البحر المتلاطم من الناس؟ ولمح عسكرياً يقف وحيداً قرب كوخ أحد الحارسين فدلف منه في مسكنه وسأله:

- أخي، حسني بك بالزعيم هنا؟

فنظر إليه العسكري ملياً وقال:

- فخامة المشير؟

قال منيب:

- نعم، طلبني ببرقية من قطنا!

فابتسم العسكري وقال:

- اذهب واسأل هناك، اسأل السكرتير.

ودار نصف دورة وذهب...

هناك! أين؟ لم يفهم شيئاً. ورأى الخلق يدخلون أحد الأبواب فتبعهم خلال رواق طويل يفضي إلى غرفة وقف في صدرها شاب طويل أنيق عرف أخيراً أنه سكرتير رئيس الجمهورية... وبعد انتظار طويل وصل إلى الشاب وروى له نصف قصته، وقد خيل إلى منيب أن السكرتير لم يفهم من قصته شيئاً لأن الهاتف كان يرن كل دقيقة... وعلى أية حال فقد صمت الشاب لحظة ثم خاطب منيب بلهجة مبتورة كمن يريد أن يفرغ من عمل كريه، قال:

هل ضرب لك فخامة المشير موعداً مسبقاً؟

قال منيب متوسلاً:

- يا سيدي هو طلبني ببرقية من قطنا، أنا صديقه...

فتأفف السكرتير ولكنه كظم تأففه وقال له بهدوء:

أخي، هو طلبك... على رأسي، ولكن لماذا طلبك؟

قال منيب:

لا لشيء... كان حضرته عندنا في قطنا، وجئت الآن أسأل خاطره... مسألة خمس دقائق.

طيب سؤالك وصل. أنا أوصله... أعدك وعداً قاطعاً. ومن جهة أخرى، ألا تعلم أن خمس دقائق من وقت فخامته لا تتمن. فكر! خمس دقائق! أنت في قطنا لا تعرف ماذا يجري هنا في دمشق. خمس دقائق قد تقرر تاريخ سوريا لمئة سنة، لمئة قرن. خمس دقائق تحتاجها البلاد كما تحتاج العين الضوء تريد أن تسأل خاطره؟ ألا تعلم ماذا ترتكب؟ إنك تسيء إلى الوطن! وإذا أنت - اسمح لي أن أقول بصريح العبارة - على غير قصد منك، خائن. هل يسرك أن تكون خائن بلادك؟

قال منيب متورعاً؟

أعوذ بالله:

قال السكرتير:

إذن اتفقنا، مع السلامة!

وحول وجهه بحركة استفهامية إلى مراجع آخر... وازدحمت الأكتاف حول منيب العطار وتكاثفت، واصطبخت، وظلت تتدفق وترتفع حتى غيبته في لججها!

* * *

بين الدموع

أنا ما أنكرت قط دمامتي. اعترفت بها حتى اليأس من هذا الجنس الرقيق الناعم المتقلب، جنس النسوان. هن لا يحببنني، وأظن أن ألحق معهن. ماذا عساهن أن يجدن في هذا الوجه الخشن والأنف الأفطس والذقن الكثاء ينفتل فيها الشعر كدوامات النهر، والشفتين اللتين قد غلظتا ونبق في كل واحدة منهما ما يشبه دملة بيضية ليس لها رأس. وأطرف من هذه الفتنة الجسمانية فقري المزمن المقيم. وأحسب أن هذه العاهة الأخيرة ليست غريبة على سيدي القارئ العزيز. على أن علتي أنا تظل ذات نكهة معينة... عمري الآن ست وعشرون، ولا أذكر، لا أذكر قطعاً، أني تحسست في جيبي عشر ليرات صحاح ليس للدهر فيهن عوز. وقد أقبض المعاش - أنا معلم ابتدائي - والسمان غريمين والخياط عينه علي حمراء مثل الدم، والقهواتي يجيئني بقدح الشاي مكروباً منكوتاً يكاد يلطمني به على يافوخي لطماً. وقد يحلو لي أن أتسكع، بعد قبض المعاش، في زقاق لا يقبع لي في زاوية منه ريان، وقصدي أن أحس هذا الإحساس المريح بأن في جيبي - لم أحو قط محفظة دراهم – كدسة هزيلة من المال. ولكن أفكاري تفسد على أبداً نشوتي المصطنعة. إنها تروح دوماً إلى جلاديّ، الدائنين.

ويظهر أن لي بعض المحاسن - والبائرون أمثالي لا يفتؤون ينبشون علي شيء منها؛ فأصحابي لا يشكون مني غلاظة وقد أعترف لي حلاقي، بصورة سرية جداً، أنني ظريف، وأنه يفضلني على كثير من زبائنه (أغلبهم من التحري). والحقيقة. أني أحب أصدقائي حباً عظيماً، وأفضلهم على صحبة

النسوان أنفسهن: إنك مع الصديق المذكر تستطيع أن تسب في حرية، وحتى أن تبكي. أما مع المرأة فأنت لا أعلم ما تريد. قد تقع. على امرأة تهيم بالضفادع وعلى أخرى تصيبها الصرعة حتى يعلو شدقها - أردت أن أقول مبسهما - الزبد إذا هي رأت ضفدعة ولو كانت ميتة. وقد كانت خالتي أخت أمي، يرحمها الله لا تمد يدها إلى طعام قبل أن ترفس الأرض ثلاث رفسات... تريد بذلك أن تظهر شماتتها بأهل العالم السفلي الذين يدأبون على حرمانها من الخبز، والله في كل وقعة يغلبهم ويرزقها!

ولكن أين الأصدقاء في هذا العالم المستعجل؟ أنا لولا مروان شريف، صديقي الوحيد، كنت فقعت من زمان بعيد. ولا أحب إلى قلبي من أن أسطو على هذه الحكمة الأدبية، وأظنها موجودة بكثرة في القواميس الكبيرة. أدخلتها مرة في رسالة أرسلتها إلى مروان ففرح بها فرحاً لا مزيد عليه. قلت: أي مروان، يا أيتها الواحة الظلية في صحرائي النحيلة... وأحبّ ما في صلتنا أحاديثنا الفلسفية العميقة. في بعض الأحيان يجيئي زائراً. وبعد أن نتبادل التحية وأرجو أمي أن تصنع لنا فنجانين من القهوة أقول:

- الوجود، هذا الوجود الكئيب... أنا لا أفهم لماذا خلقني الله. في فتوتي، السن التي يرى المرء نفسه شسئاً خطيراً، كانت أمي تسميني اللبخة، وتقول لي في يأس: دخلك قل لي ما الفائدة منك، قل! ألا تشعر يا مروان بمثل ما أشعر، كآبة تطّين صدرك؟

واصمت. أما مروان فكان يطيل التفكير في كلامي. ترتسم على وجهه الجميل انتباهة عميقة، ثم ينقز نقزة عصبية كالظبي ويصيح:

دعني أرجوك. لسنا في هذا. أريد أن أفهم لماذا لم تجب على رسالتي. ماذا تريد؟ الزواج! كل شيء إلا هذا. لم يبلغ بي الكساد هذا الحد. أريد أن أفهم بس لماذا يقتتل النساء على هذا الوباء. قل لي يا تحسين أتوسل إليك: أفيه غير الواع والويع وسم البدن؟

وكنت بدوري أتعمق كلماته وأغوص على معانيها معنى معنى وأقلب مما قد يعرض لي من أجوبة على وجوهه حتى لا أتورط في إجابة مبتسرة خرقاء وأجيب في روية:

- هذا الوجود، هذا الوجود الكئيب. ألست معي في أن الكآبة تعشش في قلوبنا، تبيض، تفرخ؟

كنا نستأنس واحدنا بالآخر، فأفكارنا منسجمة، وطبائعنا متشابهة. إن رفاقنا يرون أن المفارقة بيننا فظيعة. أما هو فجميل، طويل بادي، الرجولة، في شاربيه الأشقرين فتنة لا تقاوم (قرأت هذا الوصف الأخير في رواية غرامية، الكلام بيننا). وأما أنا فكما علمت... على أني أكن ألقي إلى نقد الرفاق بالاً، لأنني روحاني، ومنذ طفولتي البعيدة كنت أحب الروح. وقد أذهب إلى أبعد من هذا فأتعشق روح الروح التي ذكرها عبد الغني الشيخ في أغنية له.

حدث لنا ذات أمسية قصة. طرق الباب، وإذا مروان. وقبل أن يتسع لي الوقت للترحيب به أشار إلي إشارة مهذبة فهمت منها أنه ليس وحده كانت تختبئ وراءه إمرأة بملاءة.

كان من عادته أن يجيء بصويحباته عندي. في بيته يستحيل عليه أن يفعل لأن البيت ملآن ضنى: أولاد أخوته وأخوته الصغار وأحياناً صبيان الحارة. والعشق كما نعلم كلنا، كما يقول مروان نفسه، يحتاج إلى رواق، والرواق هذا متوفر في بيتي حيث أقطن وأمي وحيدين كالرهبان.

لما أصبحنا في غرفة الضيوف رفعت المرأة منديلها. اللهم أعف عنا... سمن وحسن. قلت في نفسي: «هذه البنت بلا أدنى ريب هاربة من الجنة للتو!».

وجعلت أتأملها مدهوشاً. كنت أحس أن بؤبؤي عيني يحاولان أن ينطا إليها، وحاجبي شائلان وفمي موارب، وشفتي السفلى قد هبطت إلى أسفل،

وحلقي قد جف. كان في وجه الفتاة، ولا سيما شفتاها، شيء يقول لك: خذني! وأخذ قلبي يدق حتى الإيلام.

عجبت من نفسي كل العجب، وحمدت الله على أن واحداً منهما لم ينتبه إلي. كان يتأملان واحدهما الآخر ويبتسمان ابتسامة سعيدة. وهمست الفتاة في رقة:

- مروان!

فأركض صديقي كرسيه في اتجاهها:

نعمة!

يا إخوان يقول المرء في نفسه: هذه سينما. سينما من صحيح. وهل يلتفت الممثلون إلى النظارة! وهكذا كان... رأيتهما يتباوسان. ولم أجد من المناسب البقاء فرحت إلى المطبخ أطبخ لها القهوة. كانت تتخاطفني الفكر. وعلى الرغم من أنني رجل روح، راح ذهني إلى قوام البنية البديع وفمها الشهي.

لما حملت إليهما القهوة كانت البوسة كأنها ابتدأت منذ ثانية فقط. أححت، فخرجت الأحة جشاء، كالحشرجة. حينئذ انتبه العاشقان إلي. نكست البنت بصرها وتلملم صديقي.

وقامت القهوة بمهمتها الاجتماعية (لاحظ لي هذا التعبير) فانطلقت الألسنة، وصفا الجو، وقدم مروان الفتاة إلي وقدمني إليها، وتلون الحديث وتزركش. كنت، بمكري المعهود، أسوقه في طريق ميداني المفضل، الأمور الفلسفية. كان مروان يقول:

- الحب، إنكما تسألان عن الحب. إذن فاعلما أن الحب هو كل ما في الحياة من خير وبركة. أنا قبل نعمة كنت في زنزانة حقيقة، في مقبرة مهجورة، في صحراء...

أما أنا فكنت طرياً، ندياً، أحس كأن قلبي أصبح حديقة زهراء يلعب فيها ألف طفل جميل. وضبطي أتظرف. أبغي أجلب انتباه البنية إلى نفسي.

لماذا كنت أسلك مثل هذا المسلك؟ لا تسلني... أنا ذاتي احترت في التعليل. بل لعل ضحكة أنجو في رسمها على هذا الفم المكبس تفضل كل مكتشفاتي في حقل الفكر. قلت:

تقول الحياة! هل تستطيع أن تعرّف لي الحياة، أنت؟ من أين جئنا وإلى أين نسير! أنحن إلى رجوع أم لا رجوع! وإذا انتصب لنا أنكر ونكير غداً في القبر، أتركبنا الجمدة أم نقدر على أن نبكي ونُبكي رحمة بنا؟

وانبسطت الصبية من كلامي انبساطاً لا مزيد عليه. ولا أنكر أن فمها الحلو قد زاده الابتسام فتنة. قال مروان.

- إذا أنت أجبت مرة واحدة وقع الرصد على أنكرك ونكيرك هذين وامتنعا من دخول قبرك!

في صباح اليوم التالي كنت أتسكع في شارع البرلمان، قرب ساحة المرجة. الشارع لا يزال نائماً. وفي الساحة كان حوذي عجوز يغفو في مقعده العالي، وآذان جواديه متهدلة... والصباح خريفياً بليلاً، يشيع في أعصابك شيئاً كالحلم فيخيل إليك أنك تبصر ولا تبصر... وألطف ما في الحارة هناك أن الأبنية عن جانبي الشارع يحتشد في حدائقها الياسمين، يتذرذر من فوق الأسيجة ويمد ذؤاباته إلى عابري السبيل. مدلاً بالزهرات البيضات ذات الوريقات الأربع. وما تمش تشم أرجاً ناعماً إلى حد الإشفاق.

أنا لا أحب أن أقطف أزهار الياسمين. يخالجني الشعور الذي قد يصيبك إذا أنت فصلت رضيعاً عن أمه. ومع ذلك، لست أدري لماذا أقدمت على قطفها ذلك الصباح جمعت منها حفنة. ولما وصلتُ إلى البيت أغلقت على نفسي باب الغرفة، وجئت بخيط، وجعلت أصنع من أزهاري عقداً. عقداً هل تصدق! أنفقت في ذلك وقتاً طويلاً كان علي أن أمسك كل زهرة، أن أترفق في ضمها حتى لا تنتش منها ورقة أو تروح الإبرة في غير أنبوب الساق. ويظهر أني كنت منصرفاً إلى مهمتي الحبيبة بكليتي، إذ رأيت في لحظة من اللحظات خيطاً براقاً من الريق يصل شفتي السفلى بالأرض. ربك حميد، كنت وحدي!

مضت بضعة أيام. ذبل عقدي الأبيض، وانكمشت من جديد في وحدتي وأفكاري. ولكن، في ركن من قلبي، في ركن قصي، كنت أحس أن شيئاً بليلاً قد بذر.

ويطرق الباب ذات أمسية. كانت نعمة نفسها. وحدها هذه المرة.

يا أخوان! في الحكايات القديمة يكون رجل مسكين غارقاً في أفكاره المهزولة، فيشق الحائط وتبرز جنية صوتها فضي، تقول له: لا تخف، أنا بنت الملك الأحمر وواقعة في هواك؛ أطلب تُعط...

أنا أيضاً جرى لي، لما رأيت الفتاة، مثل ما يجري في الحكايات. ظللت واقفاً كالصنم... ولم أنتبه إلا لما دهمتني ودخلت، تنقز كالغزال إلى الغرفة رأساً.

رحبت بها على استحياء.

- نورت البيت يا آنسة. صار زمان هل كنت مسافرة؟ ومروان لا أراه منذ دهر. عدم المواخذة.

كنت ألهوج الكلام كأني أحفظ عن ظهر قلب، ولا انتظر عنه جواباً، أبلع ريقي بلعات متلاحقة. قالت:

- مروان! لقد انتهى ما بيننا. أنا الآن أبغضه، كما أبغض الجرب. أنا لم أعد أحبه، هل تسمعني؟

وأخذت تبكي. ما عساني أن أفعل؟ أنا رجل قليل الخبرة في مثل هذه الأمور. أفهم أن يجيئني ولدان في ملعب المدرسة يشكو واحدهما الآخر، والدموع على الخدود، وكل يدعي أن الآخر شده من شعره وسبه. أما مع جنس النساء فأنا أجهل رجل على وجه الأرض.

ومن بين الدموع جعلت تفضي إليّ بهمومها... تحدثت طويلاً، ولكنني، علم الله لم أفهم شيئاً.

جعلت أطيّب خاطرها وأحكي لها حكايات كتلك التي أوريها للأولاد في المدرسة، رويت لها قصة البنية اليتيمة التي قادها أبوها، تحت إغراء امرأته، خالتها، إلى برية مهجورة وضيّعها هناك، فلما هبط الليل برز لها قزم قبيح جداً. لم تخف منه بل أخذت تروي له قصتها. وكان أن صارا صديقين، ودعاها إلى أن تكون في ضيافته، فذهبت شاكرة، وما إن صارت في قصره حتى أخذت تتصرف كأنها في بيتها. ويظهر أن القزم كان أميراً جميلاً سحرته ساحرة شمطاء ولا ينكسر السحر إلا إذا أحبته امرأة رغم قبحه... وتحبه البنية. أسرها فيه حياؤه من قبحه ورقته وفيض المحبة الذي يكاد يغمر كل شي في القصر وصاحبه... هنا ينفك السحر، ويشب من جلد القزم أمير ذلك الزمان، الفتى الجميل الفتان!

لست أدري لماذا حكيت لها هذه الحكاية غير أن نعمة فرحت بها فرحاً عظيماً، كما يفعل الأولاد عندي في الصف الثاني كلما أردت أن أريح أذني من عياطهم، كانت تنظر إلي بعينين صافيتين ينعكس فيهما كل فضول الدنيا. ولم أدر كيف تم ذلك... أذكر فقط أن الصبية وثبت إلى عنقي وجعلت تغمر وجهي، خدي، عيني، رقبتي، بقبلات مجنونة، وتضمني إلى صدرها بقوة:

- تحسين يا حبيبي... أحبك، أحبك... لا أحب إلاك.

تخلصت منها قليلاً، وجعلت انظر في عينيها المبللتين. كان صدرها يعلو ويهبط وغبطة حقيقية تنبع من قسماتها. أحسست بدوار حقيقي.

قلت:

- صحيح يا نعمة؟

عادت تبوسني من جديد، أشد حرارة من قبل. لم يعد هناك مجال للظن أن في المسألة مقلباً أو أن البنت تمزح.

أما أنا فقد شهد عالمي الداخلي ثورة حقيقية. لم أعد أفكر في مسائلي الكبرى، والتفكير في المسائل الفكرية العويصة يزيد في ثقل البدن نفسه. أصبحت خفيفاً كالعصفور. ومن عجب أن فكري قد ذهب إلى شؤون الزواج وأسبابه وتاريخه.

تذكرت الزوجين الوحيدين اللذين درست قصتهما بعمق، أبي وأمي. كان كف أبي في رقبة أمي رطلاً. يضربها أحياناً من قبيل فش الخلق لا أكثر ولا أقل. ومن ذلك، كانت تجد فيه قدراً مقدراً، شأنه شأن المطر أو الرعدأو الحمى الراجعة. تحتمله وتعمل صامتة. إذن هناك حبل قوي يصلها بذلك الإنسان المتوحـــ... استغفر الله العظيم، بذلك الإنسان الغريب. أي شيء هو؟ ما طبيعته؟ من أي مادة فتلت خيوطه.

ظلت نعمة عندي ساعتين. تعاهدنا على الإخلاص. ولما غادرتني كانت فرحتي أكبر من أن تظل قابعة في صدري. أردت أن أبوح بسري لأمي، ولكنني خفت سخريتها، فخرجت أهيم في الشوارع على غير هدى. كان في وسعي أن أفعل كما في الروايات، أن أناجي القمر وأوري له أشواقي. ولكن القمر كان مختفياً تلك الليلة!

خطر لي أن أسكر، أن أرى الناس على الأقل، فذهبت إلى مقهى العائلات في آخر القصاع. لم يكن في جيبي غير ثمن فنجان قهوة، ومع ذلك فقد جلست. كنت أتأمل الناس. أشعر أني أحبهم، لم تكن تدب في قلبي تلك المرارة التي تأخذ بخناقي حين أرى إمرأة ورجلاً يتناجيان. كنت، على العكس، ابتسم لهم، وأباركهم من أعماق وجدي. كنت أناجيهم بحنان: «أحبوا بعضكم بعضاً، هذا خير ما نصنع في هذا الوجود الكئيب!» الوجود الكئيب؟ أمسيت أشك في هذه الكلمة. بات لها في فمي مذاق باهت للمرة الأولى... وتحت العرائش الخضراء تضيئها المصابيح الكهربائية، بدأ الناس لعيني كأنهم في قصر مسحور. واختلط الواقع، في قرارة روحي، بحلم ناعم بهيج.

ألفت المقهى وجعلت أتردد إليه ، إلى أن كان مساء.

لما اجتزت المدخل رأيت، تحت عريشة في الصدر، مروان ونعمة. هكذا بكل بساطة، مروان ونعمة. ما معنى هذا؟ كانت هي قد تحررت من ملاءتها، وبرزت كالأمير الذي فك عنه الرصد في الحكاية. وهل أكثر من ألبسة البنات اليوم إبرازاً لجمال الأجسام!

لم أظهر شيئاً مما اضطرب في خاطري، بل دنوت من مجلسهما وسلمت فردا تحيتي بانشراح ودعواني إلى الجلوس معهما. جلست. كنت أغصب نفسي على الابتسام حتى لا أظهر فظاً ثقيل الظل. كانا كعادتهما لا يهتمان بأحد، يتحدثان بحماسة، يزقزقان، ويحدق واحدهما في عين الآخر لا يرفع نظره إلى شيء آخر. وكانت مرافقهما إلى المنضدة، وبين حين وآخر كانت الأيدي تتلامس... كان الحديث عن المستقبل.

هما جعلت فكرة تعذبني. هذه البنية خائنة. والصداقة في آخر تحليل أعمق من الحب وأثمن. أليس من واجبي أن أفضح هذه الغادة اللعوب حتى لا يتورط صديقي بما لا تحمد عقباه؟

النسوان! هذا الجنس الإبليس، هذا الجنس البلية! من يسلم رسنة لامرأة فهو ساذج، بليد! منذ آدم وهذه الآفة مسلطة على حياتنا، مولعة بطردنا. ألم تطردني هذه من أفكاري الفلسفية؟

رحت أتأملها. لم يبد عليها أنها تعرفني، إنها نهبت وجهي وشفتي وخدي بقبلات محمومة! أواه لم تنحفر القبلات على شفاه النسوان! إذن لما رأيت امرأة تجرؤ على أن تتناسى، أعني أن تخون!

وكان الراديو ينشر أغنيات خفيفة في جو المقهى:

«علموه كيف يجفو فجفا»

من علمها؟ أنا والله في حكم المجانين

وسنحت لي الفرصة حينما ذهبت الغادة تغسل يديها. همست في أذن مروان، بكلمتين، كل ما جرى لي معها، وقلت له مخلصاً:

- أطردها يا أخي أطردها. سمعتكما تتحدثان عن المستقبل. رح أربط مستقبلك بحية تحت التبن خير لك من أن ترتبط بهذه المرأة، أتفهمني؟

كان في عيني صديقي دهشة وطيف ضحكة.

- ألستَ، من قبيل الصدفة، واهماً. ألست تحلم؟ نعمة تبوسك!

- أقسم لك يا أخي أنها قبلتني وأنها... ماذا أقول لك تحبني... أقصد أنها قالتها لي.

قال لي بعد تفكير:

- طيب أتواجهها بادعائك. إن المسألة خطيرة يا تحسين، لأن علاقتي بنعمة ليست من النوع الخفيف. أنت تفهم!

ورجعت نعمة. إن لها وجهاً من هذا النوع الذي يعطيك في كل لحظة معنى جديداً.

كانت وقتئذ تشع بفرح كثير النعومة. قال مروان:

- نعمة!

- حبيبي.

قلت في نفسي: «حبيبك! ها... حبيبك يا خائنة!»

أذهبت مرة عن تحسين وحدك؟

قالت متحمسة:

- نعم، لماذا؟

- بوّسته؟

أمسكت قلبي بيدي. كان يخفق خفقاً مجنوناً كطائر أمسكت به من ذنبه. نظرت إليها. كان فرحها هو إياه لم يتبدل ولكن حاجبيها وحدهما اللذان تحركا إلى أعلى كإشارتي استفهام مقلوبتين على بطنهما. قالت:

- هذه ليست بائخة. أقصد أننا نهمل تحسين.

وجعلت تتطنط على كرسيها فرحة:

صحيح، تعال... من كل واحد نكتة. إبدأ أنت يا تحسين!

ومدت يدها (لها يدان الشيطانة كأنهما معجونتان بماء الزهر) ولمست ذقني، ومطت شفتيها كما يصنع الأطفال، وهي تطفر في مجلسها دوماً:

- بالله، لا تتغالظ، احكِ.

بالله لا تتغالظ احك! لم أعد أحتمل. قلت:

- نعمة. لسنا نمزح.

- ومن قال لك أني أمزح أنا الأخرى؟

- إذن اعترفي!

وعبس مروان وجعل يرجمها بنظرات كالأسياخ. وتوتر الجو. غير أن البنت لم تفارقها دهشتها، وإن هي خفت شيئاً من مرحها ونطنطتها. قالت:

هل أنت جاد يا مروان؟

نعم.

هنا أطلقت الفتاة ضحكة مستطيلة رنت في جوانب القهوة، ضحكة قطعتها ضحكات صغيرة صافية وقالت بينها:

لم أر أحداً في مثل حماقتك.

وأمسكت ذقني من جديد وفتلتني تعرضني على مروان:

نظرة واحدة دخيل الملائكة إلى هذا الوجه، وإلى وجهي. أتسطيع أن تتصور؟ انظر! إنه فزاعة طيور... أهذا وجه؟ هذا قناع! كرنفال! مسودة وجه! شف، شف لي هالشفة... خير إن شالله، شو آكل ضربة عليها، بسلامتك!

وجعلت الضحكات ترن من جديد. كنت تظن أن الغصون تميل علينا وتضحك معنا، والنجوم في السماء تضحك، والمقهى يضحك، وأبواق السيارات الآتية من بعيد ضحكات تنبعث من بال خال... وشملتنا العدوى نحن أيضاً. بدأ مروان بأن بسط وجهه ومحا منه التجاعيد المقطبة ثم لم يلبث أن فقد زمام جده... وأنا أيضاً رأيتني أضحك، أضحك من كل قلبي، أضحك حتى صارت الصور تتراءى لي من بين الدموع، الدموع...

* * *

الصديقان

قالت الزوجة بين العبرات:

أنا لا أذكر يوم مليح على زمانه، تسمع الأرض، ولا تبلعه. كان يسكر مثل القربة. ويوم الوقفة الماضي، لا تكن كلمتي عليه ثقيلة، ضربني أنا أم أولاده، وتركني بلا طبخة عيد أنا والأولاد وراح يشرب مع عبده الصغير.

وكان إمام جامع القرية، وهو قريب المتوفى، في فناء الدار، مغموماً، كثير المشاغل، لأن خادم أحمد محمد رجب قد هجر وظيفته منذ أسبوعين واختار العمل في مركز القضاء آذناً في السرايا. ولو كان عمل الخادم الأسبق مقتصراً على تكنيس الحرم ونشر الحصر وخدمة المسجد لهانت المسألة في عقل الشيخ وأعصابه. ولكن طموح الخادم إلى المناصب المرموقة في القضاء هدد كثيراً من المرافق العامة في القرية بالبوار؛ ذلك لأن أحمد محمد رجب كان المؤذن وكاتب الوقف ومنادي الضيعة ومساعد المختار... وعلى الأخص مغسل الأموات وحفار القبور.

كان يحب مشاغله التي لا تدر عليه، في بعض الأحيان، حتى الشكر الناشف. ولا يذكر أهل القرية كون خادم الجامع السابق أنقص في قبر من القبور مدماكاً، أو سوق من كفن أربع أصابع. كان إذا غسل ميتاً عكف عليه بقلب وربّ، فدلك وعرك حتى يسر الله ورسوله وأهل الفقيد.

وتنهد إمام الجامع وصاح بالزوجة المنتحبة.

- هذا حرام يا امرأة. خافي ربك. الرجل مات ولا تجوز عليه إلاّ الرحمة. قال تعالى...

فهمهمت الزوجة محنقة.

- إي سكت إنت دخيلك. راح بقى يبدا. قال الله وقال النبي. اتركنا في بلانا يا رجل ورح أسع بحفار قبور أحسن ما إنك قاعد متل الهم على القلب تتفاصح وتتداخل بين المرة وزوجها!

ووجهت الخطاب إلى الميت قائلة:

إي اسمح عني يا أبو غريب من شان خاطر الرسول. فورة دم تفهم!

والتفت إلى النسوة القاعدات حولها وأعولت:

- والله ما كان في مثله يقبرني. ريق حلو وإيد سخية ودم خفيف يسلم لقلبي.

وضحت بين الدموع وتابعت:

- دخل البيت مرة قرب الآذان، ريتني إبلى، والمؤذن طالع بالتسميع الأول. المؤذن ما غيره أحمد محمد رجب. وصوته يا أختي مصيت في أربعة أطراف البلاد... قلت لأبو غريب إي أدخل. قام ما رد علي. وتأنى عند قنطرة الباب وأدنى على التسميع هيك حصته... وعلى غفلة ما لقيت لك ياه إلا صاح بأحمد رجب: «أبو محمد سقت عليك جاه الله إلا قلبته شركاوي!». أبلى ريتني. والله لا عمل له طلعة وطلعة يصلح لها...

في هذه الأثناء كانت بنت المتوفى، وهي بنية صغيرة في حوالي السابعة من عمرها، تنتفخ أمام باب الدار، كالديك الهندي، مع صويحبات لها، وتقول في تفاخر:

- وأنا، أنا أبي مات وحلفت أمي يمين لتشتري له كفن من الشام...

وقاطعتها بنية أخرى ذات جدائل خرنوبية غبراء، في عيونها عمش. قالت:

- وأنا الثانية أبي بدو يموت. قال لأمي البارحة: بكرة أموت وأخلص منك ومن هالسحنة النحس.

وعند قدمي الجدار المواجه، جدار من اللبن يكاد يكون له بطن وأثداء وأمعاء تخرج من وعائها، الجأت الشمس المحرقة الملحة كلباً هزيلاً إلى خيط من الظل أوشك بدوره أن يتوهج. كان يوهمك أنه قد فطس وهمدت الحركة في عروقه، فلا هو يذب الحشرات عن أطرافه ولا يطوف. ولولا أنفاس مرهونة كانت تخفي أقواس أضلاعه وتبديها لسحبه الصبيان من ذنبه إلى أقرب بيدر خارج الضيعة.

وهبت دوامة ريح في الزقاق لفعت البنيات والصبية ببرقع أغبر كثير القذارة. ومن البعيد كان ينهق حمار نهيقاً فاتراً متقطعاً كأنه يقوم بواجب مقيت.

وغير بعيد، كان صباغ القرية يفترش حصيراً من القش الخشن، منطرحاً في أرض الدكان البيضاء. وعلى الرف الوحيد قصعة شطّت على جوانبها دروب من الصباغ الأزرق. وفوق المصطبة الحجرية تنكة وأرزبة وقنينة عرق. ودخل الدكان عبده الصغير، وهو كهل قصير، عروق وجهه الزرقاء ترسم أشكالاً وتنتفخ في بعض الأماكن انتفاخاً ظاهراً. كان عبده الصغير عامل طريق في الأشغال العامة، يحلو له أن يسمي نفسه ابن حكومة. على أن مظهره لا ينم على انتمائه إلى الحكومة لولا أن أحد أزرار سترته الصفراء لا يزال عسكرياً. ولكن عبده الصغير كان في ذاكرة القرية وأيامها شيئاً آخر غير الرز العسكري والبدلة التي كانت رسمية. إنه أول من حمل على ذراعه اليسرى عصابة حمراء كتب عليها تطريزاً: «مرمم».. وأغرب من هذا أن الرجل كان أول من قدم الضيعة، منذ عشرين سنة، على دراجة لها جرس ضخم ومرآة صغيرة وورق ملون... لقد فعل قدومه يومئذ في القرية ما يفعله الطبل في دورة عرس.

كان الصبيان يهزجون لكل رنة يرنها جرس الدراجة. وأقبل كهول القرية الذين يقضون العصر عادة في ظل حائط الجامع يسعون على وقار وفضول مشية الوفود الرسمية، وسأل أحدهم:

- ما هذا؟

قال عبده الصغير ضاحكاً:

- هذا بسكليت

قال الرجل:

- إيش معنى بسكليت؟

قال عبده:

- يعني بسلامة معرفتك دابة تمشي دون علف، مطلقاً لا شعير ولا تبن.

قال الرجل بعد تفكير:

- عجيب. هذا جحش حديد إذن.

ومنذ ذلك الحين والدراجة تحمل هذا الاسم. والحقيقة أن جحش عبده الحديدي كان يعني أشياء كثيرة أخرى ليس أهونها كون القرية لا تغيب عن فكر الحكومة أبداً!

نرجع إلى دكان الصباغ ونعتذر عن القول إنها لم تكن، هي أيضاً، مجرد دكان لصبغ سراويل الخام وقمصان الخاصة. وكانت إذا جَّن الليل خمارة الضيعة. والعرق في تاريخ الضيعة محدث. جاء مع دراجة عبده الصغير وعصابته الحمراء المطرزة. ويزعم هذا أن ضيعة لا يشرب أهلها دمعة طيبة إذا كان المساء، إنما هي ضيعة ميتة. غير أن رفاق الكأس لم يكونوا قطُّ كثرة، تميّز من بينهم مرممنا وميتنا الذي كان في الحديث عنه منذ قليل.

قال الصباغ كسلان نعساً:

- العمر لك يا أستاذ.

قال عبده الصغير وعيناه إلى المصطبة:

- خير إن شاء الله!

قال الصباغ:

- أبو غريب، بسلامة عمرك.

فوثب عبه على القنينة وهو يصيح:

- لا تقلها. هذا أحسن أصدقائي. هذا خير أصدقائي وحق كتاب الله.

قال الصباغ بلهجة ذات معنى:

- دعها، دعها عنك أو بضْ من فضلك ثلاث ليرات.

فتسمّر عبده الصغير على وضعه المتحمس وبقي يداً ممدودة ووجهاً مقطباً عابساً لا يخلو من تلهف ودهشة يختلطان اختلاطاً غريباً.

ودخل إمام المسجد ينحنح. كان ذلك فيه عادة قديمة تعود إلى تاريخ دخول العرق دكان الصباغ، وهي من قبيل تقويم الشر بالقلوب. كانت ثنيات جبهته بادية، على وجهه إمارات تفكير جديد عميق. قال بصوت أجش:

- السلام على من اتبع الهدى.

لم يرد عليه أحد، فتابع موجهاً الخطاب إلى عبه الصغير:

أنت تعلم يا سيد عبدو أن أخاك أبا غريب قد انتقل إلى رحمة الله، عفا الله عنا ما تقدم من ذنبنا وما تأخَّر، واليوم معلوم جنابك إن المؤمن أخو المؤمن، وأحمد محمد رجب هجر الضيعة إلى القضاء. شو راح يشوف في القضاء، الله أخبر. طموح. طفوح (يريد الشيخ أن يقول طموح) هذا الجيل والعياذ بالله لم تعد ترضيه الضيعة. آباؤنا وأجدادنا لم يكونوا كذلك. وأبي المرحوم لم يغادرها في حياته إلا مرة واحدة، ذهب فيها إلى بازار القضاء. أما اليوم فالمدينة تغري الشباب والعياذ بالله. قالوا فيها سيما قلنا ما السيما قالوا خيالات في خيالات...

كان الصباغ خلال هذه الخطبة نعس الوجه يفتح عيناً واحدة نصف انفتاحة ويبربر كما يبربر قط كبير وأما عبده الصغير فكان مكّسر العينين، في

سماته حيرة وتبرم خفيف. وكان يفكر في القنينة ويجد أن عليه واجباً أن يسكر كيما يطفئ حزنه الملح الذي يحفر في قلبه منذ بلغه خبر أبي غريب.

ثم إن الشيخ قفز فجأة إلى طلبه:

- وأنت يا سيد عبده رجل طيب، ابن صنعة. فما قولك في أن تحفر لنا القبر؟

فتتفتح غضون عبده الصغير وتستيقظ العينان الفاترتان ويقول في شبه غمغمة:

- أنا في الخدمة... ولكن يا شيخي، مسألة الوظيفة. أنت أدرى الناس. والمراقب ابن حرام، يطلع عيوننا بالطول إذا صدف ومرق من قدام ورشتي... أقل شيء حسم راتب يوم. أنا، معلومك يا شيخي، ابن حكومة...

وفهم الشيخ ما يبغي عبده الصغير. إنه يعلم أن المراقب ليس ابن حرام، لسبب بسيط أن ليس ثمة مراقب... وأن عليه أن يدفع شيئاً، ولكنه أدركته طبيعة المساومة فاندفق على المرمم بخطبة أخرى أثنى فيها على المتبرعين لحفر قبور الناس. ولا ندري من أين سطا الشيخ على هذا القول المأثور: «من حفر لأخيه المؤمن قبراً لطيفاً حفر الله له أساس قصر في جنة عدن!».

ولكن المرمم تهاتف في نهاية الخطبة ضاحكاً، أو فهم الشيخ، عن طريق الكناية، دائماً، أنه طامع بأجر الدنيا والآخرة. ما دام طالب رزق حلال.

وانعقدت الصفقة أخيراً، بعد أخذ ورد، على ليرتين ونصف. واشترط الشيخ على المرمم أن يكون القبر طريفاً، غميقاً، من الحجر الصلب، لا يخسف إذا سارت عليه دابة. وأوصى الشيخ أخيراً، وهو يعدُّ لعبده الصغير أجره مقدماً، قال:

- لا تنس أنك قبضت الأجر مقدماً. بدك تعجل لنا فيه. الدنيا صيف ومعلومك الرجل يفرط معنا.

قال عبده الصغير وفي عينيه يلتمع بريق ذكي.

- لا توصِ الحريص يا شيخي. رح لشغلك. قبل العصر يكون القبر في انتظارك إن شاء الله.

قبيل العصر كان النعش محمولاً على أكتاف شلة من كهول القرية. وعلى بعد خطوات، وراء الرجال، سارت النسوة حول أرملة المرحوم التي كانت تنوح نوحاً متقطعاً فاتراً. وفي مقدمة الموكب سار الشيخ الإمام، بادي الفخامة والخطر، منتفخ الأوداج، يرتدي جبته السوداء ذات القبة الكالحة. وعلى رقبته منديل شاسع للشيخ فيه منافع كثيرة.

وناحت المرأة بصوت متباك:

- شوفوا النعش عمن ينداد. على قامتي إن شاء الله. مورايد يترك البيت يا شمعدان البيت!

فميل الشيخ نظرة وقوراً زاجرة صوب الأرملة، ولكنّ هبة ريح حصبت عيني الشيخ بالغبار فدمعتا. وسأل أحد حملة النعش رفيقه بصوت مسموع:

- رجع ابنك من الحصاد؟

وأظلت امرأة عجوز كانت واقفة أما باب دارها عينيها بيدها وقالت:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم الله يرحمنا.

كانت المقبرة، ككل الجبانات في قرانا، قفراً، قفراً لا ترى فيه إلا شاهدةً أو شاهدتين كتب عليهما بخط ساذج متعرج ، وأغلب الأحيان بالحبر الأزرق، لا بالإزميل، اسم الميت وكلمة الفاتحة. ويخيّل إليك أن أهل الضيعة إنما تعلو بهم شمائلهم أن ينشدوا الرفاه أحياء كانوا أو أمواتاً، لأن قبور الضيعة ما هي إلا أكواخها قلبت على قفاها! غير أم مقبرة قريتنا كانت تمتاز بأن فيها شجرة

جوز عجفاء، على أوراقها المشرومة طبقة بيضاء من الغبار كالعفن ينمو على الخبز الأسود.

لما وصل الموكب إلى المقبرة شملها الإمام بنظرة متفحصة فلم يجد أثراً لحياة أو كومة من تراب تبني عن قبر يحفر. لم يكن ثمة غير شيء مكتوم تحت الجوزة الهزيلة... حدق غيه الشيخ وإذا هو... عبده الصغير!

وأشار الشيخ إلى حملة النعش أن يضعوا عنهم حملهم. وراح هو يدنو من الجوزة ووراءه الرجال والنسوة والصبية. هناك رأى مستطيلاً من الأرض قد قشر قشراً خفيفاً لا يتجاوز سماكته الفتر الواحد. ولم يكن عبد الصغير نائماً ولكنه كان ينتحب انتحاباً يرعش بدنه كله. أبدأ انتحابه لما بدت طلائع الموكب أم أنه بكى من قبل طويلاً؟ ليس لذلك أهمية في حكايتنا. كل ما في الأمر أن قنينة فارغة كانت ملقاة إلى جانب الرفش والمجرفة وعبده الصغير ينوح كمن يحدث نفسه:

- عيب، عيب علي أنا أعز أصدقائه أن أحفر له قبره!

كان يردد كلمة عيب بحرقة عميقة.

وهبت ريح ساخنة استنفرت غيمة من التراب راحت ترش الموكب والقبر و... حفار القبور!

* * *

بيَّاع الدّربّكّات

كان يختلج في صدره قلق يسير، لعله ظهر في تلك السحابة الغامقة التي لفت عينيه الوطفاوين. كان فارع القامة وادع الأسارير. وكان قميصه مشقوق الوسط اندست حواشيه تحت الشعر الكث الذي برز من صدر الرجل وتسلق عنقه الأجيد المنضفر. كان يمشي في وناء على الرصيف الأيمن في المهاجرين، وعلى كتفه عدل ملآن، وفي يده دربكة صغيرة منقشة بالأحمر والأزرق، إذا أنت أدرت مقبضها الخشبي الأسود نقرتها خرزتا خيطين ربطا عن كل من جانبيها!

وقال مصطفى المطربي يحدث نفسه: «يجب أن نبيع شيئاً يا رجل. لقد أفقتم اليوم على كفّ الرحمان لا خبز ولا عدس ولا كاز. والبيت لا يعرف الآهات. والبنت لا تقدر أن تقول لها: ما بعت شيئاً!».

أسرّ هذا في نفسه وكأنه يحاول أن يشغل ذهنه عن صورة ابنته الصغيرة الحلوة وهي ملتصقة بالباب بعناد طفلي حبيب، تريد أن تمنعه من الخروج إلا إذا أقسم لها بعينيه الاثنتين أن يأتيها بخسة سمينة حينما يعود!... كانت صورتها محفورة في مخه حفراً مؤلماً: قدماها الصغيرتان الحافيتان، فمها المضموم الوردي، ثوبها المقّطع عند بطنها، ضفيرتاها المنعقصتان إلى أعلى بشريط كان بنفسجي اللون... إنها وحيدة على زوجه وعليه ولعل هذا سبب دلالها!... وتساءل في أسى ولوعة كسيح: «أيحق لأولادنا، نحن المساكين البؤساء، أن يكونوا مدللين؟ من أين آتيها بالخس إذا أنا رجعت ودربكاتي لم تسم؟ أه، يحب أن أبيع شيئاً هذا اليوم... ومن أجل أمها أيضاً، هذه المرأة الصابرة التي تقتات بالصمت فلا تفتح فمها بشكوى! لم أدخل البيت مرة إلا وسبقتها ابتسامتها الخجلانة إلى استقبالي... أية ابنة حلال هي!».

وكان من عادة مصطفى المطربي أن يستمهل قليلاً قدام دكان الحاج يحيى النجار، السمان في الشمسية. وهو كهل منخفض الوجنات، جاحظ العينين ضاحكهما، يعقد عمامة من القماش الأغباني منشّاة بالزفت حتى منتصفها... كان يسأله عن خاطره وصحته في رواحه ويصل حبل الحديث إذا هو عاد من مشواره المعهود في الحي. ولكنه غفل ذلك اليوم عن تحيته، فناداه الحاج يحيى قائلاً:

- شيء لله يا رفاعي أصحابنا نسونا؟

فقفل بائع الدربكات راجعاً في عينيه حياء وندم، ووقف قدام الدكان وقال بصوت مكسور:

- لا تؤاخذني... بالي مشغول قليلاً.

فتضاحك الشيخ حتى بدا فكه الأمدد وقال:

- إن الحال واقف كالمعتاد. ولكن يا سبحان الله! ألم تجد لنفسك عملاً خيراً من شغلة الدربكات هذه؟. لقد ولى زمانها يا روحي، ولم تعد الأيام كعهدنا بها، أيام الخير والبركات. والناس تخبي فلوسها للرغيف الأسمر لا للدربكة المنقشة!

وغمز بعينه مشيراً إلى الدربكة التي يحملو المطربي، فسأله هذا:

- ولماذا بربك؟ أبخلت الأرض أم نضبت السماء؟ إن الشمس ما تزال إياها، تشرق على الناس كما كانت في أيام الخير والبركات. والحنطة ما تزال تدل بسنابلها المذهبة في كل صيف! فلماذا ينصرف الناس عن الكيف والطرب إذن؟

فظهرت حيلة ساذجة على وجه الشيخ وقال في شبه غمغمة:

- من يعرف لعله! صوت رباني. غضب من عند الحق تعالي!

ونكس رأسه وحملق في الأرض... فهمس مصطفى كسيفاً:

- لا أظن ذلك!

ومضى في سبيله وخرزتا الدربكة الصغيرة تشاركان في الجلبة التي تندّ عن الحي، مزيجاً من صرير عجلات الترام وصياح الصبية وأبواق السيارات المسرعة وكأن مصطفى قد أغلق صفيقاً بينه وبين تلك الجلبة فما يجيئه منها إلا صدى مختلط بعيد، ما ينفك يخنقه صوت هواجسه التي تذهب به كل مذهب...

ووصل إلى طلعة المصطبة، وانعطف إلى اليمين وشرع يتسلق الطلعة لعله يبيع شيئاً في دروبها المتشعبة وأزقتها الكثيرة... ولكنه شعر بخيط من التعب يلتف حول مفاصله ويجره إلى الأرض، فوضع عدله أمامه وجلس، وجهه إلى الشام وظهره إلى الجبل... ودحرج بصره في الشارع المطل على المدينة تغسله الشمس وتتكسر أشعتها على إسفلته النظيف، وزهر المشمس في البساتين مندوف على الأغصان ندفاً بديعاً آسراً، والنهر طريق من بريق يشق الأدغال، والطقس لذيذ منعش يتمشى في العروق منه دفء حلوله نشوة النبيذ العتيق! وهمس مصطفى: «قم يا رجل لا تستلم للتعب، إن البنت تنتظرك!» وقام من جديد، خطواته أشد بطئاً، يتسلّق الطلعة...

إن أحداً لم يكن يجود عليه حتى لا بنظرة فضول ناهيك بالشراء... إن صغار الصبية أنفسهم لم يعودوا يعنون به أو يلاحقونه من مكان إلى مكان يبهجهم نقر دربكته وتضحكهم مداعباته... كانوا يتعلقون بأذياله ويتدافعون حوله، والغانم من سرق نقرة على الدربكة أو مسها بإصبعه مساً وكان يبيع كثيراً ويقبض كل شيء... أرغفة من التنور، زبيباً، جوزاً، قروشاً... ولكنه كان يبيع على أية حال... أما الآن! ماذا جرى للناس؟ أتغير الصبية أيضاً؟... وتنهد بائع الدربكات وتابع تساؤله هامساً: «أحق كلام الحاج يحيى أن زمن الطرب قد انقضى وأن عليه أن يتدبر لنفسه مهنة غير هذه المهنة؟»...

كان يفكر على هذا النحو حينما سمع صوتاً من فضة يقول له:

- صباح الخير يا عمي بكم الواحدة؟

فالتفت إلى مصدر الصوت فرأى ولداً صغيراً رقيقاً متورد الخدين، منبوش شعر الرأس، أشقره، قد مدّ يدين فاتنتين في معابثة أليفة يريد أن يعترض طريق مصطفى المطربي، وعلى ثغرة الرقيق بسمة صافية وبين ساقيه المنفرجتين قطّة بيضاء ريشها طويل تمسح وجهها بقدميه وتهر في سكون!...

فخفق قلب الرجل، وركع أما م الطفل واضعاً عدله الملآن وجعل يخرج له أنواع الدربكات، منها ما يخشخش خشخشة، ومنها ما ينقر نقراً، شارحاً جمال هذه ولماذا يفضلها على تلك... ولكن الولد كان خلال هذه الشروح قد أمسك بالدربكة المنقَّشة ذات الخرزتين وأخذ يقلبها وينقرها غير آبه بمدائح، المطربي لسواها!

قال الطفل:

- هذه حلوة بكم تبيعها؟.

قال مصطفى:

- بفرنكين!

قاتل الطفل، وقد رفع حاجبيه إلى أعلى وأماله رأسه محبذاً:

- بدي آخذ من أمي فرنكين واشتري واحدة!

قال المطربي:

- وأين أمك؟

- تغسل عند بيت أفندي. راحت عندهم من الصبح.

تعرفهم؟

قال البائع وعلى فمه ابتسامة مجلاوحة:

- لا، ما تشرفت!

وانحنى على دربكاته المفروطة يلملمها ويعيدها إلى العدل... وقام يتابع طوافة... لقد قبض أمنيات ولد فقير أمه غسالة عند بيت أحمد أفندي في أن يشتري دربكة منه! ومتى تجيء! وهل تقبض أجرتها عملة أو أكلاً؟ وإذا عادت أتوافق على شراء الدربكة أم تفضّل الرغيف الأسود؟

وأوفض السير على الرغم من تعبه. كان يسمع للهاثه فحيح... لماذا يسرع، كأنما يهرب هروباً وقد عادوه هذا القلق الذي كان يختلج في صدره حينما غادر البيت في الصباح؟... وغاص في أعماق نفسه متسائلاً: أتراه يهرب من صورة هذا الولد التي صارت تتبادل، وصورة ابنته، المحو والإثبات؟ بل ذهبتا إلى أبعد من هذا: لقد اندغمتا في صورة واحدة عكفت على تخديش قلبه وتعليق أنفاسه والضغط على حلقومه!...

غسَّالة عند بيت أحمد أفندي! يعني تعود مع الليل متورمة اليدين مجرّحتهما، وقد حرض الدخان دموعها فملأت مآقيها... منهوكة تسحب أقدامها إلى الطراحة الممزقة التي تريحها من عذاب يومها فلا يكون لديها الوقت لمسح وجه طفلها الأشقر الحلو والتربيت على كتفه... بائعة عرق جبين مثله، قد تبيع وقد لا تبيع...

وأحس مصطفى المطربي كأن يداً قوية تمسك به من كتفيه وتنقله إلى وراء وتعود به إلى... حيث الطفل الأشقر ذو الابتسامة الصافية واليدين الفاتنتين... ابن تلك الغسالة عند بيت أحمد أفندي!

* * *

تقرير تفتيش

بناء على أمر مقامكم المؤرخ في ١٣ آذار ١٩٤٣ تحت الرقم ٢١٥ توجهت إلى مدينة... وفاجأت أمين صندوق المركز السيّد أحمد الــ... وفتشت صندوقه تفتيشاً يكسر الظهر كان بودي لو أن مقامكم كان حاضراً ليرى الوجه الأصفر واليدين المضطربتين والفم المفتوح على مصراعيه في هذا الأمين المسكين. لم أكن أدري من قبل أني مرعب لهذه الدرجة. معلوم ياه! هذا تفتيش ما هو ضحكة لعبة، وأنا مفتش قد قبة وقنطرة. تصوروا أن القائم مقام صار عنده خبر بمجيئي وأرسل جلواز البلدية يأمرني أن أمر عليه حين أنتهي من مهامي التفتيشية، وتجدر الملاحظة أن مفتشاً لا يلقي إليه القائم مقام بالاً إنما هو مفتش فلتان لا يكتال أحد بكيله. وسبحان مغير الأحوال! منذ عشرة سنوات فقط بهدلني هذا القائم مقام نفسُه في ظروف لا مجال لذكرها هنا. ولكني كنت شقفة موظف صغير لا شوكة ولا ذباحة، والموظفون الصغار يا حرام! الشاطر ينزل بساحلهم. على سلخ عن أبي جنب.

النتيجة فتشنا المركز تفتيشاً دقيقاً ككل تفتشياتنا التي نحاول أبداً أن نجعلها كبسات لا كما يفعل زميلنا المفقوع السيّد صادق بهلي الذي يطبل الدنيا قبل تحركه، لا تقرف، للتفتيش. إنه بلا قافية، لا يضع رجله في السيارة قبل أن يحوقل ويبسمل ويبيت استخارة ويدحش في جيبه أمر المهمة على أربعة وعشرين. أي لا ينقصه إلا أن يصطحب معه موسيقى الدرك وتي تي تي تم طول الطريق. أي هذا تفتيش أنا تفتيش بصلاة محمد؟!

الخلاصة: لا نريد أن نطبل في هذا الشأن لأن البحث عن مثل هذه الشؤون كالبحث في علة مزمنة، في ناسور. خلها لمالك الملك. هذه البلاد سائرة إلى الخراب بقدم ثابتة. أوضاع تبكي. تصور إني لم أنل أي ترفيع منذ

خمس سنوات لماذا سيدي؟ قال ما في شواغر. أي هل يجوز أن تكون دولة طويلة عريضة وحكومة وأضرب وأطرح دون شواغر؟

نعود حكايتنا إلى أمين الصندوق. لقد ظهر بنتيجة التفتيش الدقيق أنه، ماذا أقول، زبدة الكلام حرامي! لقد وضع في جيبه من أموال الدولة، بكل بساطة وراحة بال خمسمئة ليرة سورية، ولما استجوب عن السبب (الإفادة رقم ١) ادعى أن زوجته قد أصيبت بذات الجنب فاضطر إلى استقراض المبلغ لإرسالها إلى مستشفى المحافظة، نظراً لأن القضاء خلو من المشافي وفي المحافظة تولى معاينة المرأة الدكتور سامي الأخصائي في ذوات الجنوب. وهو كما علمت طبيب مشؤوم. القرش عنده يفلح ويزرع ومن عادته ألا يمد يده إلى مريض أو يجس نبضه إذا لم يلقف خمساً وعشرين ليرة عداً ونقداً. آه لو المرحوم أبي درسني الطب! إذن لرضيت بأربع وعشرين، بعشرين. ولكنه لم يدرسني ما أقول في حقه؟ آه من هذه الحكمة التي تضيق عليّ الخناق: اذكروا محاسن موتاكمّ لولاها ولولا الحياء لفشت قلبي... ناهيكم بنفقات الباص وإقامة المرأة في الفندق وما إلى ذلك. والدنيا غلاء والأخ لا يعرف أخاه في هذه الأيام العاطلة.

على أن ادعاء أمين الصندوق ذلك لا يبرر كونه لصاً. وقد استجوبت مأمور الواردات السيّد زين العابدين بهذا الصدد فأفاد أمين الصندوق رجل ذو مشاكل وأنه اعتاد إقراض الموظفين من الصندوق، ولم يعرف عنه أنه خيب محتاجاً أو رد طالباً، كأن الملعون قد فتح مصرفاً عقارياً أو أنه بياع دخان مجنون أو أن المركز قد تطعم على تكية السلطان سليم، العمى في عيونه!

ولما سألت السيّد علي رجاني آذن الدائرة عن رأيه في إفادة السيّد زين العابدين أسر في أذني، بعد أن حلفت له يمين به يمين الغموس ألا افتحها لأحد، ما خلاصته أن زين العابدين كذاب، وأنه مغرض نظراً لكون أمين الصندوق قد طرده ذات يوم من بيته بعد أن لقط منه مكتوباً موجهاً إلى أخته (أخت أمين الصندوق) وأن بين الاثنين قرابة من ناحية الكرش لا من جهة

العصب وأن زين العابدين المذكور قد سمعه ذات يوم يصيح بأمين الصندوق غاضباً: «أنا لست قليل العقل والوجدان ولست خالي الشرف والناموس حتى اتبع مثل هذه الأساليب المعوجة أفهمت! لقد كنت طول عمري صديقك أصد عنك أصحاب الديون وأعمل على تأجيلها حرصاً على سمعتك من التلوث!» والحقيقة أن السيّد زين العابدين يكون ابن بنت خالة كنة عم أمين الصندوق. وليس معقولاً ولا منطقياً أن يكتب مكتوباً غرامياً إلى أخت هذا الأخير. وقد تبين لي بعد البحث والاستقصاء أن الآذن، صاحب الإفادة أعلاه، قد ترك العصفورية في بيروت منذ شهر فقط وأن الحالة في المركز غير طبيعية، وهي تستدعي المعالجة الدقيقة ووضع حد للتصرفات المستهجنة التي تضر في حسن سير العمل وسمعة الموظفين وأخلاقهم. وقد جرت قبل وصولي بأسبوع مشاجرة بين الآذن السيّد على رجان وأحد المراجعين تراشق الاثنان خلالها، فضلاً عن المسبات والشتائم من قعر الدست، العض. فباللّه عليكم خبروني هل يجوز العض في دائرة رسمية؟

نعود إلى الموضوع. إن قرضة الموظفين من الصندوق ممنوعة ولو سددت في الوقت المناسب أو غير المناسب. ومن قبيل المعلومات أروي لكم هذه النادرة التي جرت لي لما كنت أميناً للصندوق في محافظة... يومها جاءني أحد الموظفين وقال لي: «أنا داخل على حريمك!» قلت له: «خير!» قال: «ابني وقع من السطح ورجله مكسورة والمجبر لا يقبل أن يمد إليه يده قبل أن أدفع له خمس مجيديات». قلت له مندهشاً: «إي؟ ما معنى كلامك هذا؟ أنا سعري سعرك، موظف مثلك!» قال: «قرضة الله حسنة أرجعها إليك آخر الشهر». وغمغم: «من الصندوق» هنا لم أعد امتلك شعوري. وضعت أصابعي في أذني وصرت أولول: «حرامي، حرامي!» يومها... المسكين شبع من القتل والضرب والركل قبل ظهور الحقيقة. لم يبق دركي في المخفر إلا آجر به! وإني أذكر الآن كما لو أن القضية تجري أمامي أن الموظفين اشمأزوا مني ولكنهم، في أعماقهم، كانوا معجبين حتى العظم بأمانتي

واستقامتي. قال الأقدمون: «الرزق الداشر يعلم الناس الحرام» وإذا تأمل مقامكم هذه الحكمة البليغة (هؤلاء الأقدمون لم يتركوا شيئاً إلا قالوا) وضعنا اليد على مفتاح الجرم الذي نحن في صدد التحقيق عن ملابساته.

إن أمين الصندوق السيّد أحمد لا تشفع له سلامة طويته وكرمه (كان الغداء الذي قدمه لنا لطيفاً حقاً) في أن يمد يده إلى الصندوق. غير أن الأسباب التخفيفية التي يجب أن تئخذ بعين الاعتبار ومرض زوجته جعلني ابتدع أسلوباً فذاً في تلافي وقوع مثل هذه الأمور، وهاكم البيان:

لما أنهيت التحقيق نظرت إلى الرجل، الظنين، نظرة يقطر منها السم، كان هو على يميني مرعوباً دوماً. لقد حمّلت بؤبؤي عيني في اتجاههما ناحيته كل معاني التأنيب والتهديد والوعيد. أما هو فكان يطرق إلى الأرض خجلاً وذلاً. لقد بدا قذاله عريضاً معبداً كظهر حمار صغير. وهنا جاءتني الفكرة. أشرعت يدي اليمنى على طولها ورحت ناسفه مقفة دين إيمان كف للطرش واحدة بواحدة. أقسم أنني خيل لي أن شرراً يتطاير تحت يدي:

- طق.

- آخ

- همس... ولا كلمة ها. هس عما أقول لك.

كنت مغتاظاً جداً ولكني رأيتني في الأعماق مبسوطاً. والواقع أن الولد قدر الله عليه هذه الفعلة. يعني أنخرب بيته؟ أنشنقه؟ كف يفض المشكل...

حاشية: فاتني أن أذكر لمقامكم الجهود التي بذلتها في سبيل الكشف عن النقص في الصندوق. هل تحسبون أنني أحصيت الموجودات وكسرت رأسي في الجمع والطرح والقسمة. لا والله لقد توصلت إلى الحقيقة عن طريق إطعام أمين الصندوق الموما إليه لقمة الزقوم، ولما أكلها بدا عليه رعب شديد واعترف! لو لم يعترف لكنت لجأت إلى طرائق أنجع: استحضار الأرواح مثلاً، ضرب المندل، قراءة الكف، وهي أمور موجودة كلها في كتاب أبي معشر الفلكي وسأتحدث عنها في تقارير تفتيشية مقبلة إن شاء الله!...

* * *

نِظَاميّ جِدّاً

عبد الغني قرما دركي صنف أول، نحيف، كثير الابتسام، قليل شعر الرأس والرموش، ولكن في عينيه معنى عذباً، شيئاً يقول لك: «الله معك يا روحي!».

ذات يوم استدعاه رئيس المخفر، وهو في حوالي الأربعين، سمين، عابس، بارز الفك الأسفل، قال عبد الغني وهو يربط زناره الجلدي، ويليق تحية عسكرية خاطفة.

- طلبتموني سيدي؟

- نعم.

- أمر.

قال رئيس المخفر:

- هاك مذكرة توقيف غير موقت في حق سعدي فك الغزال.

قال عبد الغني مندهشاً:

- لك يا ضرسان! شو عامل؟

قال رئيس المخفر باتاً:

- حرامي!

- حرامي، حاجة التاني... سيدي يمزح! سعدي فك الغزال حرامي هذا مستحيل!

فقطب رئيس المخفر حاجبيه وزجر الدركي قائلاً:

- نحن لا نلعب هنا يا سيد عبد الغني. خذ وضيعتك أقول لك وكف عن القال والقيل.

فنظر الدركي إلى رئيس المخفر كأنه ينتظر أن يكف عن المزاح وقال له في شبه عتاب:

- كنت أريد أن أقول، سيدي أن هذا... يعني أن سعدي صديقنا!

قال الرئيس:

- ها، ها! أن أعلم أنه صديقك، ولهذا السبب بالذات استدعيتك دون بقية الأنفار للقبض عليه.

وصمت قليلاً ثم أضاف:

- يا سيد عبد الغني، أنت دركي قديم؛ سبع عشرة سنة خدمة، والوظيفة ما فيها يا أمي ارحميني. لا فك الغزال ولا فك القرد ينفعانك وقت الحزة واللزة، أتفهم؟ وأنت رجل ما أقول، نظامي. ألست نظامياً؟

قال عبد الغني منتفشاً، منشرح الصدر:

- أنا، أنا نظامي جداً سيدي. ألا تذكر حادثتي مع...

وقال رئيس المخفر منهياً الحديث:

- لا لزوم للتفاصيل، أعرف، لفها. يا لله إلى العمل بسرعة.

وإذا انصاع عبد الغني قرما للأمر، وضرب تحية عسكرية ذاهلة، فليس معنى هذا أن الأفكار لم نكن تصطخب في ذهنه... كان يريد أن يتحدث عن ماضيه النظامي، لما كان في مخفر الزبداني، ومغامراته في الجبال مع الأشقياء وأمور أخرى كثيرة. منها عدم توقير أنفار الجيش لضباط الدرك، وصياحهم بهم، ذات مرة «قبقي» وقبقي هذه تحمل معاني كثيرة ليست مسرة لمن قضى زهرة شبابه في خدمة السلك.

وفكر في رئيس المخفر. إنه لا يحب السيّر، ولعل هذا مأخذه الوحيد عليه... والإنسان مع هذا الراتب الشحيح والحياة المختلطة، ماذا عساه أن يصنع دون كلمتين يحكيهما مع صديق رأساً لرأس.

وأحس بمذكرة التوقيف في يده فأصابه انقباض... أظريف أن يشرع الإنسان القيد في وجه أخيه الإنسان مزهواً، ويقول له هذا لك؟ أن سعدي فك الغزال سيقول في نفسه عبد الغني قرما قد جن، فما العمل؟

وقال في نفسه أخيراً: «أنا دركي قديم، لي خدمة سبع عشرة سنة، دركي صنف أول. ومعي أمر موقع من رئيس المخفر، أنا مأمور... عبد مأمور!».

وأعجبه قراره فأضاف: «وفوق هذا وذاك. أنا دركي نظامي، نظامي جداً!».

ومن القابون استقل أول باص ذاهب إلى المدينة...

كان الوقت عصراً لما وصل عبد الغني قرما إلى بيت سعدي فك الغزال. وهنا يجب أن نقطع سياق الحديث لنلفت النظر إلى هذه الناحية في كفاية عبد الغني المسلكية، لقد عرف عنه رفاقه ورئيسه أنه أبرع دركي في خرط القيد في رسغ المتهم ولعل هذه البراعة جاءته، مع التمرين، دفاعاً عن النفس. ويعلق عبد الغني ذاته على هذه الموهبة بقوله: «متى ما تضع القيد حول الرسغين أو الرسغ الواحد تأمن وجع الرأس!».

وطرق الدركي باب صاحبه سعدي فك الغزال، وانتظر وإذا خطوات تقترب من الباب، خطوات يعرفها جيداً، إنه سعدي ذاته. كان عبد الغني يخبئ القيد وراء ظهره، يمسكه بيده اليسرى ويهيء اليمنى للمصافحة. ولما فتح الباب وهلل سعدي فك الغزال مرحباً بيدي مبسوطتين وابتسامة شقية كان عبد الغني قد أنزل القيد بالرسغين وراح مطرقاً خجلاً وهو يهمهم في استحياء شديد:

- اعتذر يا سعدي، معي مذكرة توقيف في حقك.

كان سعدي قصيراً، ذكي العينين، مفتولاً. وقد فوجئ بحركة صديقه الدركي ولكنه أسقط في يده وسأل مضطرباً بعض الشيء:

- ليش، خير إن شاء الله؟

قال عبد الغني وعيناه لا تزالان إلي الأرض:

- قضية سرقة جرجس المر!

وأضاف مغموماً:

- أنا أدري أنك لم تفعلها ولكنني... أنت تفهم... أنا عبد مأمور، معي أمر يا سعدي!

واستعاد سعدي أنفاسه وقال مبتسماً:

- لماذا لم يختاروا غيرك؟

قال عبد الغني:

- أأنا أعرف؟ هل تتلطف بأن تتبعني؟

قال سعدي:

- حاضر.

وأغلق الباب وراءه وسارا جنباً إلى جنب بضع خطوات يرين عليهما صمت مستوفز:

قال سعدي أخيراً:

- هون عليك قليلاً يا عبد. أنا لست حاقداً عليك لأنك تحت الأمر.

فاستبشر عبد الغني واندفع يقول:

- وحق كتاب الله يا سعدي هذا شغل رئيس المخفر. ماذا أقول في حقه؟ أي شيء أغراه بيّ! إنه يعرف صداقتي لك. اسمع...

فقاطعه سعدي قائلاً:

- ماذا تريدني أن أسمع، تصور أنه كان علي أن أنبسط لأنهم أرسلوك أنت.

كنت أظن أنك لا تريد لي البهدلة، أنك تستر هذا القيد على الأقل ولكن، ماذا أقول، ها أنت ذا تسحبني أمام كل الناس. بعد خطوات سنصير في السوق، وأنا معروف هنا...

قال عبد الغني:

- أفك لك يداً!

فاعترض سعدي قائلاً:

- هل يخفف ذلك الفضيحة؟

وتوقفا عن المسير في زاوية محتجبة عن الأنظار قليلاً. وقام بين الرجلين جدال طويل انتهى بأن وافق سعدي على وضع القيد في يده اليسرى ووافق عبد الغني من جهته على ستره بمعطفه.

وهكذا سارا مع خط الترام مسافة مئتي متر وقد ساد الصفاء بينهما. ووصلا إلى خمارة أبي ناصيف، عند الساحة. كان الخمار واقفاً أمام دكانه، سميناً أصلع، كثير الابتسام، صاح بهما:

- الله محيي الطيبين.

فردا تحيته وحاولا المضي في شأنهما ولكنه أمسك بعبد الغني وألح عليه أن يأخذ قدحاً. قال هذا:

- عندنا شغل.

وهمس سعدي في أذنه:

- أنا أدعوك، على حسابي. نعال. قد لا نجتمع خلال سنتين.

فرد عبد الغني همساً، وهو يدخل الحانة:

- ممنوع الشرب أثناء الوظيفة.

وغاب أبو ناصيف وراء مقصفه وهو يثرثر:

- ليلة أول البارحة ضحكنا كثيراً. اليوم عندي دمعة ظريفة جداً. الآن تذوقانها. سأشرب معكما. شيء لطيف للغاية.

وهمس سعدي:

- فك لي يدي عيب.

فأجاب عبد الغني:

- أرجوك أنا أثناء الوظيفة، أنا رجل نظامي!

قال سعدي:

- سأحكم أبا ناصيف في المسألة.

قال عبد الغني وهو يعض على شفتيه:

- لا، عيب! ليس له أن يتدخل فيما بيننا. ما هو إلا خمار، ولكن أحلف لي بشرفك ألا تهرب.

وحلف سعدي وفك الدركي قيده، وصفت الأقداح وراق الأصحاب الثلاثة وأعلن أبو ناصيف وهو يرفع قدحه أن عبد الغني أعظم دركي في العالم.

قال عبد الغني مصححاً:

- دركي صنف أول!

وقال سعدي:

- بالله يا عبد احك لنا قصتك مع شاهين.

فابتسم عبد الغني وقال مدافعاً:

- صار حكيناها مئة مرة.

ومع ذلك فقد رواها. كان شاهين هذا قاطع طريق شهر على عبد الغني ذات يوم السلاح بغتة وطلب تسليم بارودته، فسلمها عبد الغني دون جدال، ولكنه سأله في براءة ودهشة عما عساه أن يفعل ببارودتين. فتأمله الشقي ملياً وقال له: «ما اسمك؟» قال عبد الغني: «عبد الغني بن عبد المجيد قرما. ألا تعرف أبي؟ كان صاحب دكان لبيع التبغ المهرب في الحارة. لا بدّ أنه يعرف كل الأشقياء أمثالك!» قال الشقي ضاحكاً: «قد يكون إنما عرف أبي، أما أنا فجديد في الكار!» وانتبه عبد الغني إلى أن شاهين يضحك فبادله الابتسام والسيكارات. وأخيراً اقترح شاهين على عبد الغني أن يلعبا بالطرة والنقش

لتقرير مصير البارودة الرسمية. أمسك شاهين ربع ليرة فضية وقذفها في الهواء فراحت تفتل عالياً وعين الخصمين عليها، ولما سقطت على الأرض ركع شاهين على أربع وخبأها براحة يده وقبالته تهافت عبد الغني راكعاً على أربع أيضاً وعينه إلى الأرض فما كان أشبههما بخروفين يتناطحان. وصاح شاهين.

- طرة إلا نقش؟

قال عبد الغني وعيناه دوماً على كف شاهين:

- نقش!

فراح شاهين يفتح كفه متمهلاً وعبد الغني يحملق فيه... وربح عبد الغني الرهان، وتمنطق بارودته من جديد، ولكن شاهين رجاه أن يقرضه صفي فشك فأقرضه.

هذه الحادثة وصلت إلى المخفر يومئذ على شكل آخر لا مجال لتفصيله هنا. على أن سكان المنطقة وهم يحبون عبد الغني كثيراً تناقلوا حكايات كثيرة عن اصطدام مسلح جرى له مع عصابة شاهين الرهيبة.

وضحك أبو ناصيف كأنه يسمع القصة للمرة الأولى في حياته ضحكاً طيباً ودارت عدة أقداح أخرى. وطلب عبد الغني إلى سعدي أن يغني «حول يا غنام حول»... ودخل أديب بياع الكاتو الأكتع الضخم وعلى خاصرته اليمنى صندوقه الذي لا يفارقه، ودس رأسه الضخم بين الأصحاب الثلاثة وزأر:

- كاتو، كاتو يا شباب!

ولم يلتفت إليه أحد بالطبع، فركى صندوقه على أحد الكراسي ومد يده السليمة إلى أقرب قدح على المنضدة وقرف نصفه ومضى يمسح فمه بكمه المزفت ويدور بعينه على زيتونة أو شيء آخر. وانتبه إليه أبو ناصيف. فنظر إليه نظرة عتاب، فصاح أديب:

- كاتو!

فنكس الخمار رأسه في شبه خضوع وتسليم.

ودخل الحانة رجل عبيل يتبعه ولد يحمل محفظة مدرسية ويلبس صدرية سوداء، ورحب أبو ناصيف بالرجل وقام يقدم له قدحاً على المقصف قال الرجل:

تعال اسمع لي هالقصة يا أبو ناصيف. صفر في الحساب. علامة جورج في الحساب صفر.

فقال الولد مدافعاً عن نفسه:

- ألم تر علامة الإملاء؟ أخذت أربعة.

وضحك الرجال فاندهش الطفل وراح ينظر في وجوههم متفحصاً.

وغنى سعدي فك الغزال أغنيات كثيرة بصوت ندي. وخيم على الحانة جو جنون. وأسند عبد الغني رأسه إلى الحائط وغرق في أفكاره. كان نشوان سعيداً.

وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة قليلاً... وخارج الحانة المفتوحة الأبواب، كان الطقس يذكرنا بالربيع على رغم تشرين المفكرة... والناس غادون رائحون، والنسوة تتنزهن أو يجلسن على المقاعد البلدية أمام الحديقة الصغيرة.

وانحنى عبد الغني على سعدي وسأله هامساً:

- ألا تذهب فنسهر عند سعاد محمد هذا المساء؟

* * *

مرشح السَّادةِ الأكارِم

اجتمع في دار مختار قرية بنش خلق كثير. لا لأن مرشح القضاء صابر العبياني، قوي في القرية، إنما هي فرجة من الفرج يملأ بها أهل الضيعة حياتهم ذات اللون الوحيد... على أن لعبد العزيز الحزنبل كاتب البلدية، وهو من أنصار المرشح المتحمسين، يداً طويلة في أحداث هذه الزحمة في بيت المختار. فقد كان يؤكد للناس قبل الاجتماع الانتخابي بأسبوع أن شراب الليمون سوف يدور على الخلق بعلب اللبن وطاسات النحاس...

وحل عبد العزيز الحزنبل مسألة المنبر بفطنته المعهودة، إذ كوم في الغرفة الكبيرة كومة من القش الناشف وأعطاها شكل منصة، جللها ببساط صوفي، وركز عليها الإبريق الأصفر وكأس البلور الوحيدة التي يملكها المختار. ثم تولى مهمة تقديم الخطباء... وكانا اثنين أولهما عبد الجبار الفزاري المعلم الابتدائي في مدرسة احسم الأولية، وهو من أشد المتحمسين لصابر العبياني ولو لب التطبيق الانتخابي في مختلف أنحاء القضاء. وقد وضع كل مقدرته اللغوية التي اشتهر بها في الخطبة، فجاءت كلماته أقرب إلى قطع من جمر أحمر ينصب على خصوم المرشح ويترك شواظه بيوتهم حصيداً جرزاً... عيرهم بتعاونهم مع الأجنبي قبل أن يذر عهد الاستقلال الأبلج قرنه، واتهمهم بكنز الذهب والفضة في بطونهم واستشهد بالآية... ولم يفهم أحد من الحاضرين أغلب مقاطع خطابه لأنهم كانوا مشغولين بالتفرج على أوداجه المنتفخة وحركات يديه المعروقتين العصبية. غير أن التصفيق - والحق يقال - قد بلغ عنان الغرفة بعد أن أنهى عبد الجبار خطبته الهائلة.

ورجع الخطيب إلى مجلسه وهو يمسح عرق جبينه ويكش الذباب عن وجهه راضياً. فقام عبد العزيز الحزنبل يزجي عبارات الشكر والمديح

للخطيب ويتهمه، باسماً، بأنه قس بن ساعدة الأيادي غير منازع في هذه البلاد... فصفق الخلق من جديد وازدادت حماستهم ازدياداً محسوساً لسببين: الأول أنهم لم يسمعوا بقس بن ساعدة الأيادي هذا إلا من فم الحزنبل. والثاني لأن طناجر الليمون قد بدأت تدخل الغرفة... هنا أعلن عبد العزيز أن الكلمة لمرشح اليوم ونائب الغد، المجاهد الكبير، نصير الضعفاء والمساكين صابر العبياني... فتحرك هذا، ودنا من المنبر وهو يثبت نظاريته على أرنبة أنفه، ويمط رقبته إلى الأمام بتواضع، حتى إذا كان خلف المنبر انفجرت أكف عبد العزيز وعبد الجبار والوافدين من القضاء بالتصفيق وتبعهم الحاضرون فاختنقت طقطقة كاسات الليمون. واغتنم المرشح الفرصة فصب لنفسه كأساً رطب به حلقومه، وتنحنح ثم صاح بصوت كالرعد:

أيها السادة الأكارم:

بسم الله العظيم والنبي صلى الله عليه وسلّم أقف من وراء هذا المنبر الذي شهد أمجاد هذه القرية المجاهدة، لأرفع إلى أهلها الأكارم أعطر آيات الشكر على هذه الحفاوة التي أحطتم بها شخصي هذا العاجز. أنتم، أنتم الذين طردتم الأجنبي ورميتم به إلى البحر وبئس المصير، أنتم الذين يتشرف من يرشح نفسه عن قضاء فيه قرية مجاهدة صابرة كقريتكم، بل كحصنكم الحصين هذا.

أيها السادة الكرام، أنا لم أرشح نفسي للنيابة طمعاً في جاه أو نفوذ إنما رشحتها كي أرفع راية الفقراء، لأنني فقير معدم لا أملك من هذه الدنيا العريضة مدق خازوق، وأقسم لكم بالله العظيم وملائكته وكتبه ورسله أنني استدنت من ابن عمي إبراهيم نفقات هذه الانتخابات ولم يقبل بإقراضي قرضة الله حسنة إنما كتفني بسند عند كاتب العدل مع الفائدة المركبة، بل أكثر منت هذا وذاك أيها السادة الأكارم أنني هبطت قريتكم الآن - والمجالس بالأمانات - بعد أن تغديت فتوشاً... أجل فتوش أقسم بالله العظيم أيها الأكارم. يسألني

الذين في قلوبهم غش: ماذا فعلت بأملاك آبائك وأجدادك؟ ويتجاهلون أني لم أنفقها على سكري وعربدتي أو على مصلحتي الخاصة إنما بعتها كلها وضربت في حقها برقيات ضد الأجنبي الغاصب ويتجاهلون أيضاً أنه لم تكن لي طول عمري، شغلة أو عملة أتعيش من ورائها، وأنني رجل جاهل مثل بقية أفراد الشعب الأكارم، لا أحمل شهادة ولا أتقن صنعة وليس لي إلا الله تعالى وتوجهات الطيبين أمثالكم.

ويلفق عني خصومي أن أبي طردني من البيت في صغري فلبثت عند الفرنساويين وأصبحت سرجاناً. نعم، أنا لا أنكر أنني كنت سرجاناً بالجيش الفرنساوي ولكنني أذكر لكم حادثة بسيطة جداً تجعلكم تتمنون جميعكم لو كنتم سراجين: فقد أصدر مرة رئيس كتيبتنا أمره إلى الجنود، بصوت مخوف، وصاح؟ استرح، تهيأ. وأقسم لكم بالله العظيم أنني لم أسترح ولم أتهيأ يومئذ... فكانت هذه الحادثة، التي تعبر عن وطنيتي، سبباً في إخراجي من الجيش الغاصب!

يقول هؤلاء الخصوم أيضاً: أن ابن عمي فائق العبياني كانت له اتصالات مريبة مع المستشارين الأجانب، وأنه كان ينقل إليهم أخبار رفاقه الموظفين، حينما كان كاتب تحريرات في حارم وجسر الشغور. وأنا لا أنكر ذلك لأنني رجل صريح حداً لا تأخذني في الحق لومة لائم - كما يقول الشاعر - ولكن قولوا لي بحق أجدادكم الأكارم، أليست لكم أسرة من الأسر بلوعة؟ إن ابن عمي فائق من جملة بلاليع أسرة العبياني التي اشتهرت بالجهاد في كل مكان وزمان، وأنا من جهتي لا أحكي معه منذ أكثر من سنتين والله العظيم.

فليلفق الخصوم عني ما بدا لهم أن يلفقوا. وليطعنوا في ما شاؤوا أن يطعنوا فأنا مرشح المفاليس أعرف كيف أدافع، غداً في المجلس، عن إفلاسهم، وأنا مرشح العاطلين عن العمل لأنني منهم. وأنا مرشح الجاهلين لأنني أشعر بمصيبة المساكين الذين لا يحملون شهادات عالية أو واطئة!

وقد تسألونني أيها السادة، عن برنامجي الانتخابي! ولكنني لن أضيع وقتكم الغالي في بناء القصور والعلالي ورفع قبة على كل حبة. لأن برنامجي يتلخص في جعل الذئب يرعى الشعب الأخضر في هذه البلاد مع الغنم، وتأمين السمن والعسل لأفراد الشعب والإصلاح بصورة عامة. أجل سوف أصلح ما أفسدته الأيدي التي لعبت بمقدرات الأمة... أليس حراماً؟ أيها الأكارم أن يرى الإنسان الشريف مثلاً هذا الدرب المهترئ بين القضاء وهذه القرية المجاهدة! لقد حزنت والله العظيم حين رأيته حزناً عظيماً، وهززت رأسي وتمثلت قول الشاعر الحكيم:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه

وأيقن آنّا لا حقان بقيصرا!

أيتها الحكومة الخائنة، سأضع حداً لهذه الفوضى التي أطنبت إضرابها في هذه البلاد العزيزة. أجل سوف أضع لها حداً... إن موعدي معك أيتها الحكومة قبة البرلمان:

قفي فانظري إن صدر الفراش

تمزق من أمسنا الممتع!

حينما وصل صابر العبياني إلى هذا المقطع من خطابه كان قد جن جنونه فضرب المنبر بيده ضربة فظيعة هبّلت ما صنعت يدا عبد العزيز الحزنبل، فطار الإبريق الأصفر ولحقته الكأس اليتمية... بينما كان الخلق يصيحون بحماسة: «لمرشح المفاليس، لصدر الفراش، لأبي الفتوش».

قال الراوي: من حسن حظ المفاليس والجهلاء أن العبياني قد نجح في الانتخابات... والله أعلم!

* * *

المسَاء

الأصيل في شارع أبي رمانة، أمام روضة أبي العلاء، عند الجسر. النهر يبدو صامتاً. وغير بعيد شجيرات خضرتها ميالة إلى الصفرة تميل على الماء من الضفتين وتتلاقى في الأعلى ذؤاباتها فترسم رواقاً كأروقة المعابد يغيب النظر في ظلمته. وعلى الماء ترتسم ظلال قاتمة. الأفق ملون حزين، تتجدل في غيماته البيضاء عروق زرقاء وأخرى حمراء قانية وتتمطى غيمة وحيدة ثم تجمد على وضعية واحدة كالصنم، وترتخي شرابات وذيول كالغلالات عن جانبيها.

وعلى ضفة النهر المعشوشبة يجلس إنسان يظهر مثل ضربة قلم فحم عابئة على لوحة قديمة، ومع ذلك أنت لا تستطيع أن تقلع هذه الضربة المشوشة من اللوحة وكذلك أنت عاجز عن أن تمحو اللوحة كلها.

وتمر بنت ضخمة ترافق طفلاً يتعلم المشي فيتوكأ على عربته ويدفعها أمامه ويفوه بالكلمات الأولى:

- دي مادا.

وتجيبه خادمة بملل:

- هي، دي ما.

وتخرج من مدرسة الإناث القريبة ثلاث فتيات في حوالي الرابعة عشرة من العمر. القامة ذاتها واللباس يكاد يكون متشابهاً. صدرية سوداء وجرابات بيضاء قصيرة. إنهن يتحدثن معاً كطائر أفلت من قفصه. وتمر سيارات تطلق ضربة بوق واحدة. تقترب البنيات الثلاثة من الساحة يزدد صياحهن ارتفاعاً. يدوم ذلك بضع دقائق إلى أن تغيبهن بناية من البنايات البديعة الأنيقة على بعد يسير من الساحة. ويعود الهدوء الحزين.

ويقبل كناس فتى، له شاربان خفيفان وبدلة زرقاء يجر مكنسته وراءه ويتوقف عند الجسر. قريباً من المكان الذي مرت به منذ قليل الفتيات. إنه يلقي نظرة ناحية مدرسة البنات، نظرن شاردة، ثم يدلف من إحدى شجرات الطريق ويركي كفه. إن منظره لطيف بهذا القوام الأهيف والوجه الأسمر العذب. وتخرج فتاة من المدرسة شدت خصرها بزنار أسود فنهد صدرها. حينما تصبح على بعد خطوتين من الكناس الجميلٍ:

عفواً معك ساعة.

أربعة وربع.

شكراً.

وتهم الفتاة بالرواح ولكنها تلتفت نحو الكناس بابتسامة:

نحن نخرج عادة الساعة الرابعة ودقائق.

وينكس الكناس بصره إلى الأرض في استحياء.

ويمر ولد بعين واحدة، حوالي تسع سنوات، لا أكثر. منفوش الشعر قصيره. رقبته سمراء وقميصه بيجاما قديمة. أما بنطاله فمرقوع ومجهول الهوية. ألوانه مختلطة وبائجة وخيطانه ظاهرة وزيقه مقطع كأنه علم مزقت حواشيه الريح. أما حذائه فكبير جداً على قدميه الحافيتين الصغيرتين ومع ذلك فكعباه ظاهران لأن الحذاء ملتو إلى الناحية الأنسية وخاصرتاه كلتاهما قد انخسفتا وانسحقتا سحقاً. كان يجر قدميه بإيقاع ويعزف، على هارمونيكا يمسكها بكلتا راحتيه، نغماً لطيفاً. كان في وجهه استغراق حلو وانتباهة إلى الداخل.

وتمر سيارة أنيقة تقودها امرأة، عليها: «هيئة سياسية». وعلى المئذنة التي لم يتم بناؤها وقف غراب لا ينعب. ومن البعيد كانت ضوضاء المدينة تحور همهمة رتيبة مستمرة. وتبدأ في المهاجرين أضواء قليلة تتناثر هنا وهناك...

المساء يقبل!

* * *

الحِبْر النَاشِفْ

أصلح وضع الداوة وركز فوقها الريشتين الحمراء والزرقاء، ونضد الدبابيس دبوساً دبوساً، ونفخ رماد السيكارة المتناثر على زجاج المنضدة، ثم راح يبري قلمه الرصاص بحركات كسلانة بطيئة وعيناه محملقتان في اللا شيء.

كان موظفاً في الديوان، وظيفته أن يستلم البريد الوارد من المنطقة الشمالية، يسجله في دفتر كبير، الرقم والتاريخ ثم ينتهي كل شيء، كانت الساعة لا تزال التاسعة. ونظر من النافذة. كان بائع الخردوات الجوال قد فرش بضاعته على الرصيف المواجه منذ الصباح الباكر وفي فترات متقطعة، مباعدة كان يصيح بصوت ميت:

- ستيلو حبر ناشف، شفرات حلاقة، معجون أسنان.

منذ شهرين لما تسلط هذا البائع على هذه القرنة من الشارع كان أكثر حرارة وأشد حماسة، كان يلحق المارة في رواحهم والمجيء كالمكوك يشوقهم:

بطل زي الأقلام الغالية. الوقت وقتك يا حبر الناشف. لا تبهدل بدلتك، لا تنزع قميصك اشتر قلم حبر ناشف. دقنك طويلة يا معلم. خذ جرب هالشفرة خذ. ما بدنا عملة.

أما الآن فقد شملت البائع عدوى الحارة، إنه يقعد الساعات الطوال قرب بضاعته ويصيح من قبيل فض العتب. لم يعد فيه أية طرافة. أصبح كالمنضدة ودفتر الواردة للمنطقة الشمالية وبراية الأقلام، أشياء ألطمس فيها المعنى وحتى الشكل ذاته.

وعاد موظف الديوان يصلح وضع الريشتين والدبابيس والشكالات ونبش في علبة الأوراق. كان فيها على الضبط بطاقة لحفلة رياضية: «تتشرف نقابة لاعبي كرة القدم...» وفي أسفل البطاقة: «السعر مائة وخمسون قرشاً» عمر البطاقة خمس سنوات. لقد ترك عليها الزمن عروقاً صفراء وسخة وانثنى حرفها. ذكر أنه استعملها ذات يوم لفتح صفحة رواية لما كان يقرأ الروايات ومن هنا كانت أضلاعها مسننة كأسنان المنشار... ثاني الأشياء في علبة الأوراق كان مسودة رسالة غرامية شرع في كتابتها ذات يوم، ذات يوم بعيد. كان يومئذ هفة صبوة. وكانت هي طالبة في مدرسة تجهيزية خاصة. ينطرها كل يوم حوالي الساعة الثامنة ويطرز الأحلام. وقرأ في المسودة: «أحبك، أحبك وكذا تحبينني فعلام الصدود وازورار النهود. أنت تعلمين أنني مفتخر، نظامي، محب عتيد فعلام الصدود!».

آه! لقد نضب ينبوع هذا الكلام الظريف. لقد جف القلم إنه الآن لا يستطيع، ولو أنه عصر قرائحه شهراً، أن يكتب مثل تلك الـ «كذا تحبينني» وهذه الـ «ازورار النهود!»... إنه لا يتسطيع، لقد أصبح بكل بساطة قلم حبر ناشف من النوع الرديء... بينما العالم يلد كل صباح أقلاماً جديدة، حبرها سيال، ونموها كريم موفور. أواه، يا كذا تحبينني!

ودخل أبو وجيه موظف السجل. إنه يجيء حوالي الحادية عشرة دوماً. يسحب كرسياً ويجلس في فتور وملال. كان في فمه أبداً تثاؤب يولد أو تثاؤب يمت ومن خلالها يلهوج:

- شو فيه ما فيه!

- سلامتك.

فينظر أبو وجيه من الشباك ويضحك ضحكة لا طعم لها حيثما يرى البياع الجوال ويقول: «يا ضرسان!» ويروح ينقل عينيه في الغرفة في بلاده ثم يقوم فيتطمى ويقصد الباب.

أما ثالثة الأوراق في العلبة فكان صورة عن قيد النفوس، قديمة أيام كانت المعاملات تعطى باللغتين العربية والفرنسية. كانت الساعة الجدارية الخماسية الشكل تجر عقاربها بوناء وكلال. كأن فرقاً من المسير. ومن الشارع قرقعة كاسات بياع عرق السوس ونداء: «أنا بياع القشطة أنا بياع القيمق».

كانت صورة قيد النفوس لا تزال بيده والساعة تجر عقاربها بكلال ووناء. وامتدت يد الرجل، على غير وعي منه، إلى الريشة الزرقاء فغمسها في المحبرة ومسح شفيتها على الحافة كعادته... وعلى ورقة بيضاء رسمية انكب ينقل، حرفاً فحرفاً، المعلومات الواردة فيها بالعربية والفرنسية.

كان وجهه يعكس إمارة الاهتمام الشديد وخطة بديعاً حقاً!.

* * *

يا إخوانْ

كان المصلون القلائل في مسجد الضيعة يعلمون ماذا ينتظر إبراهيم الشعار، يوم الجمعة ذاك، من الإمام الشيخ شريف الأقرعي. وإبراهيم الشعار أعلم الناس بما ستدور حوله خطبة الجمعة. فقد نمَّ الواشون للشيخ الإمام أنهم رأوه خارجاً من منزل أم معزز. والشيخ - عجوز ناحل، في حوالي السبعين منّور الوجه، بادي الطيبة، ذو حدبة صغيرة وعينين ناعستين غافلتين - لا يؤمن بالمواعظ ذات الصفة العامة. إنه إمام مسجد ضيعة، شهد مولد أكثر أهلها، ومولد آباء كثيرين من أهلها، ولذلك كان يرى من واجبه أن يقصر خطبه ومواعظه على شؤون دنياهم وآخرتهم. وأما من أراد التبحر في الدين فما عليه إلا لأن يستمع إلى الأحاديث الدينية في الراديو أو يذهب إلى الشام وبئس المصير!

في يوم الجمعة ذاك كان الشيخ جالساً على المنبر، يستمع إلى درويش الباطوس، المؤذن - في حوالي الخمسين، أعور بشملة صفراء - وهو يرفع عقيرته بالآذان. وكان المنبر قصيراً، من خش مهترئ مسوس، طرش خارجه بالكلس الأبيض؛ والدرج إلى مجلس الخطيب، ومفروشاً ببساط مقطع.

كان يضيء الحرم شباك، عن شمال المنبر. وفي فناء المسجد ضربت ستارة تصلي وراءها النسوان لا يعنى أحد بإغلاقها إغلاقاً تاماً لسببين: أولهما أن المصليات عجائز، والثاني أن المصلين يديرون ظهورهم للفناء فلا يراه إلا الإمام الشيخ حينما يقف خطيباً. وانتهى الباطوس المؤذن، فنهض الشيخ:

- الحمد لله ثم الحمد لله الذي هدانا إلى هذا وما كنا لنهتدي لولا أن...

ويصمت الشيخ قليلاً، ثم يستطرد:

- كل أسبوع يجب علي أن أعيد هذه الديباجة. أما آن لكم أن تحفظوها عن ظهر قلب. العمى! لن أكملها، هه. سأنتقل إلى الموضوع رأساً... الحمد لله ثم، الحمد لله الذي هدانا إلى هذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الحمد لله الذي أحل النكاح وحرم السفاح، وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة. وبعد أيها الإخوان، قد أصبحت رجلاً هرماً عجوزاً. مضى في هذا الجامع خمسون سنة وأنا أعظكم، وأعلمكم مكارم الأخلاق، ولا يظهر عليكم أنكم تتعظون كأني أدق الماء أو أعجن الهواء.يا إخوان سيرتكم لا تعجبني. زبدة الكلام. خذوا مثلاً أخاكم إبراهيم الشعار. أين إبراهيم يا إخوان؟ لم يأت اليوم إلى الجامع. ليش؟ أسألوه. إنه خائف مني يا إخوان، خائف أن أحكي سيرته وأجعلها عبرة لمن اعتبر. وأنتم تعلمون السبب خيراً مني. يا نوفل الشعار انفضحت أفعالك والعياذ بالله. لقد رأوك البارحة يا إبراهيم خارجاً من دار أم معز حرام لو أن الدنيا لكان أخوكم إبراهيم بين يدي الآن أجلده على الأقل ثمانين جلدة. ولكن الزي الآن أن يظل الشبان دون زواج. لقد تعلمتم، والعياذ بالله يا إخوان، على النطنطة، والسفر إلى الشام بمناسبة أو غير مناسبة. إن الزواج يا إخوان ينهي عن الفحشاء والمنكر. نقول لهذا الجيل هذا الكلام فيروح يتنحنح ويتلكأ ويهمهم ويختلق لك معاذير ما أنزل الله بها من سلطان. تصوروا يا إخوان أن أخاكم زهير حمش قال لي: «أن بين الزواج!» ما هذه الدعوى السخيفة يا إخوان. إن السيّد زهير يتفاصح بمثل هذا الكلام لأنه دخل تجهيز يا إخوان مفاسد في مفاسد. حرام إرسال الأولاد إلى هذه المدارس حرام. قال: «الهوة» (الشيخ يمط كلامه مقلداً زهير حمش) قال الهوة إي أنا واحد الناس، لما أخذت أم صفية وجدت بين أخلاقي وأخلاقها بحراً من الظلمات، مستنقعاً. كانت قبيحة جداً اللهم أعف عنا يا أخوان. ومع ذلك كبست على الجرح ملح وأخذت حسبتي قسام الحظوظ. قسمتي ونصيبي ماذا أفعل! إن أمي هي التي استنسبتها لي فهل أعصي أمي يا أخوان، والجنة تحت أقدام الأمهات. لقد قايضت جهنم الدنيا بجنة الآخرة.

هنا تنمط رؤوس صغيرة من الشباك المطل على الزقاق ويصيح أولاد كثيرون، هازجين:

- حديْ مدي... على رجلي، يا عسكر يا مسكر، طبق لي طبق سكر. يا سراق الرسن، يا أبو سن الجحش...

وإذا الخطيب يغضب وينزل درجتين من درجات المنبر وينحني حتى يريهم نفسه ويصيح بهم:

- ولك! العمى في قلبك لقلبه. ولك شو شايفنا عم نلعب إلا عم نتسخم ونخطب. انقلع أنت وإياه والآخر يلعن أبو اللي رباكم.

ويختفي الأولاد، فيتابع الشيخ شريف الأقرعي:

- الله يلعنك يا إبليس يا لعين... ويسأل المؤذن القاعد عند قدمي المنبر: وأين كنا يا ابني يا درويش؟

- كنا في ما أنزل الله به من سلطان يا شيخي.

- حمار. هذا مثل سائر، ولكن الموضوع. أنا أسألك عن الموضوع!

- الموضوع؟

- الموضوع، نعم الموضوع.

- الموضوع؟! نحن ما جبنا سيرة الموضوع أبداً يا شيخي. نحن ما كنا في الموضوع بالمرة.

ويتدخل أحد المصلين فيقول:

كنا في بحث الزواج يا شيخي...

ويفطن الشيخ وتتفتح أساريره:

- هاه، يرحم بيك. كنت أحدثكم والعياذ بالله يا إخوان عن شباب اليوم. بم يحتجون على عدم تزويجهم؟ المهر! كذب سيدي. خذوا مثلاً أخاكم إبراهيم الشعار. (الشيخ يتحول) نرجع دوماً إلى سيرته الحية! الشاهد، قلت له أنا

نفسي: «تعال تزوج يا إبراهيم!» فقال: «أنا مفلس يا شيخي!» قلت له: «يا عين شيخك أزوجك بنتي صفية. أنا لا ما كلفك شيئاً. الحاجات السبع وكم قرش تفرش بيتك!» أتعلمون يا إخوان والعياذ بالله بماذا جاوبني الخاسر. الملعون قلب شفته وقال لي في قرف: «أنا لسه ما جنيت!» إي ليش سيدي؟ صفية بشعة؟ على عيني وراسي. ولكن ماذا يقصد الخاسر، عدو الدين، من رفضه؟ هل يريد أن التبخ بها الأبد، أن تبور، وأقول لكم بصراحة أن من يتزوج إمرأة لجمالها، أذهب الله جماله وجمالها، ومن يتزوجها لمالها أذهب الله ماله ومالها. ولكن الزواج يجب أن يكون يا إخوان للدين والأخلاق لا غير. فهمتهم يا... استغفر الله العظيم. وبعد كل واحدة، صفية ليست شنيعة جداً. ارفعوا مسألة عرجها الخفيف تبن فتاة مثل فضة الروباص اللهم أعف عنا. وفوق ذلك تصلي يا إخوان. هذا لا يهم كثيراً. لنعد إلى الموضوع (المؤذن القاعد عند قدمي المنبر ورأسه بين يديه) فهمت يا حمار ما معنى كلمة موضوع؟ الموضوع يعني البحث.

ويرفع المؤذن رأسه وعلى وجهه علائم التفكير العقيم فيكمل الشيخ:

- لو كنت منذ خمس وعشرين سنة في خدمة حاكم لكان في رقبتك مئة مشنوق. أما عندي والعياذ بالله يا إخوان فعلى حطة إيدكم منذ خمس وعشرين سمة لم يلقط هذا الدماغ كلمة. ما لي حظ والسلام (رافعاً صوته) رح يا ابني يا درويش، قل للحرمة هناك وراء الستارة أن تستر شعرها. حرام يا ابني يا درويش شعر المرأة عورة.

- أمرك يا شيخي.

ويلبث الشيخ لحظة مقطب الجبين، مفكراً، ثم يقول في عتاب رقيق للمصلين:

إي هيك بدنا نشتغل معكم، العمى يا إخوان. مقصدنا نكمل الخطبة سمع بقا! الله يلعنك يا شيطان يا رجيم (يفطن) وبعد يا إخوان ما عندي من الأخبار

إلا أن أخاكم محمد الحسين، (مسيراً بيده في استهزاء) - والسيد محمد يقرأ العلوم بلا قافية في تجهيز الشام - صار لا ينادي أمه: «أمي» ككّل المسلمين والعياذ بالله يا إخوان. إنه يناديها: «ماما». وليت الأمر وقف عند هذا الحد يا إخوان! السيد محمد الحسين يا إخوان يغني بالفرنساوي. ماذا يغني يا إخوان؟ الله يلعن الشيطان. ماذا يغني؟ اللهم صلّ على سيدنا محمد! إيه: مارلو، مارلو. يا إخوان إن فتح البوز بالفرنساوي والتأرجح والتخنث والصياح: مارلو مارلو، كل هذا حرام. حرام الله يلعن الكاذب. والحاضر يعلم الغائب أن غناء مارلو مارلو نشبّه بالأجانب الكفار والعياذ بالله يا إخوان. ومن تشبه بقوم حشر معهم الله أعف عنا. فهل تريد يا حضرة السيّد محمد الحسين أن تنضرب في قلبك وتنحشر لي، يا طيب يا ابن الأطايب، مع بطرس وبولس وجرجي ومخول وضراب السخن والعياذ بالله. قل، بضها حتى نعرف على أي مخدة بدنا نحط رأسنا معك.

وعنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «أحب العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي». أو كما قال، قال قولي هذا واستغفر الله.

يجلس جلسة مابين الخطبتين فيقول درويش:

- آمين آمين والحمد لله رب العالمين

ويسمع دوي خافت بالاستغفار والتكبير. يقطعه الشيخ حينما ينهض للخطبة الثانية. وكان من عادته أن يلخص فيها الخطبة الأولى على شكل دعوات:

- الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين. اللهم صلّ على عبدك ونبيك وحبيبك الشفيع محمد صلّى الله عليه وسلّم.

فيقول المصلون:

- آمين.

- اللهم بجاه محمد وآل محمد وصحابته المبشرين بالجنة أهد ابراهيم الشعار.

- آمين.

- اللهم انزع من فكرة أم معزز.

- آمين.

- اللهم أنزل في قلبه الهداية ومحبة الزواج.

- آمين.

- اللهم ألهمه أن يتزوج من ضيعتنا.

- آمين.

- اللهم أهد عبدك محمد الحسين أن ينادي أمه: «يا امي».

- آمين.

- لا يا ماما.

- آمين.

- وألا يغني مارلو مارلو.

- آمين.

- اللهم إذا كنت كتبت له في لوحك المحفوظ أن يغني ولا بدّ أجعله يغني على الأقل «يا صاح الصبر وها مني».

- آمين.

- «وشفيق الروض نأى عني».

- آمين.

* * *

رحلة جدارية

وقصص أخرى

يوم ونصف

-١-

كان مجلسي في مؤخرة الطائرة قرب كوة في الجانب الأيمن، وكنت أطيف نظري في المدى الذي تفتحه هذه الدائرة الزجاجية المزدوجة على الدنيا.. ما أبعد الفرق بين الغابة وأنت تضرب في أرجائها ويتكسر طرفك على ظُللها الملتفة، والغابة من الجو، هذه ليست أكثر من قطعة من الأرض متجانسة، أكثر دكنة بعض الشيء من الحقل المعشوشب، ههنا لا همس تسره الذؤابات في حديثها الهين الخفي، ولا أوراق خلفها الخريف المنصرم، ولا أربع أقدام تسير على خط آفقي حيناً وتجتمع أحياناً أو يتداخل بعضها مع بعض..

وأية فوضى لذيذة! فيوليتا وأنا، الباص مرة من بيتنا قرب محطة سير بوخوفسكايا في موسكو إلى حديقة إسماعيلوفا، هذه الحديقة تتصل بلا حدود مع الغابة، أدواح البتولا ذات البيضاء والرشاقة الآسرة، السنديان البري الشامخ الباسق، في بعض اللحظات كانت تسقط ثمرة جافة من الذروة، وتظل تتصادم مع الأغصان التي بدأت تعرى حتى تقع بعيد منا، رسالة من الشتاء، فيوليتا وأنا صامتان، يا لعينيها الصافيتين الذكيتين، وما أعمق الحنان في إنسانيهما.. والأولان في كل مكان، كل الألوان، الأصفر الوديع، والخمري المقلق، الأخضر الواهب، بعض الأشجار هنا تموت من غير أن تدب إليها صفرة الموت، تموت في الريعان، وكل الألوان دفئ حي جواد، وفيولتاي ملونة أيضاً، من تحت الشملة التي تضعها على رأسها تطل خصلتا شعر شقراوان.. أنا الآن أديم النظر إلى يديها.

على بعد خطوتين يسقط شعاع أو انعكاس شعاع أخاله قام برحلة شيقة من ورقة إلى جذع إلى قطعة صوان حتى حط رحاله قربنا، إن له هذا اللون الأزهر الندي، يدا فيوليتا أجمل منه، هذه الأصابع الممشوقة اللدنة، هذه البشرة المضيئة، وتتحرك إحدى اليدين في اتجاهي، إنها تبحث عن يدي والكتف تحرقها الكتف، وقلبي.. قلبي؟ يا حبيبتي فيوليتا، لماذا شاقك الحديث الهامس، يومنا ذاك عن الشتاء؟ أكنت تستشفين من خلل الغيب ما سيفعله الزمهرير بقلبي المتشرد المسكين؟

وانتزعت عيني من مدى الكوة الزجاجية وطفت بهما في الطائرة. المقعدان عن يساري فارغان.. ممر فمقعدان آخران، آخرهما فيه رجل كهل تميل عليه مضيفة الطائرة الحسناء المعافاة، الرجل يتململ في مقعده والمضيفة تطرح عليه الأسئلة والابتسامات والإشارات، فلا يجيب إلا باضطراب في مجلسه ورفات متلاحقة من أهدابه تتخللها نظرات من عينين تستغيثان، لست أدري لماذا خطر لي أن الرجل من دمشق، أهي ملامحه الشرقية، أكاد أقول الشامية، أم أنها أشياء أخرى فيه لا تسمى؟ قمت من مقعدي وقلت للمضيفة بالإنكليزية:

- اغفري لي، هل أستطيع أن أكون نافعاً لك أو للسيد في شيء؟ فرفع الرجل إلى عينين بريئتين مستسلمتين، ولكن أملاً لا ريب فيه كان يلمع فيهما، قلت بالعربية:

- من أين حضرة الأخ؟

قلتها على سبيل التجربة، وفي همتي أن أجرب التركية أو الروسية إذا لم تنجح العربية، وإذا طيف الأمل الخافت في العينين الشهلاوين يصبح بهجة صارخة صاخبة، وإذا الرجل يقوم من مقعده مهللاً:

- أهلين بريحة الأهل، اقعد أرجوك!

وعدلت المضيفة من وقفتها وبدا وجهها كأنما يقول: (الآن أستطيع أن أطمئن عليه!) وقلت لها:

- ماذا كنت تريدين أن تقولي له؟

- - كنت أحاول أن أسأله هل يريد خمراً مع طعام الغداء؟

- هاتي قنينة نبيذ لنا كلينا.

والتفت إلى صاحبي الجديد:

- سأسقيك نبيذاً

- هذا ما كانت تريد قوله؟.

فأومأت بالإيجاب، قال مطلقاً ضحكته البريئة الخلية:

- ليش ما فيه عرق؟

كان قد تخطى الخمسين، فوداه أبيضان تماماً، في لباسه ما يشبه أن يكون حداثة عهد بالملابس الإفرنجية، ربطة العنق سيئة العقد، قبة القميص كأنها ترص على رقبته فيزحزحها بين حين وآخر.. ولكن معنى بديعاً آسراً، ينداح من كل حركة من حركاته، جذبني إليه، أهما العينان؟ إن في شهلتهما ضوءاً يشبه لمعان النجوم في ليلة صائفة ولا قمر، وأنا غائب عن دمشق منذ أكثر من عامين.

منذ أكثر من عامين ولا ضوء نجوم أشهل في ليلة صائفة.. نسيته، خيل إليّ أني قادر على أن أستغني عنه عمري، أني إلي الأبد أصبحت أسير جنون اللون اللانهائي التغير، أسير العاصفة الغاضبة يعقبها النسيم الرهو، أسير الأزباد والأرعاد في الموج الصخاب لا يلبث أن ينقلب رخاء، حلماً هنياً مثل اللمعة القزحية في بؤبؤ عين عسلية.. وإذا أنا بعد هذا الغياب الطويل وراء سبعة البحور، لا أزال أحمل صحرائي فيَّ!

واستمر صاحبي يقول:

- ولكننا لم نتعارف، أنا محمد أحمد الآوي من اتحاد عمال الدخان في دمشق.

- أين كنت؟

- حضرت مؤتمراً في براغ، واضطررت إلى التخلي عن رفاقي الآن، علي ما يحتم العودة إلى الشام.

قدمت نفسي، وسألته:

- هذه أول مرة ترى فيها أوروبا؟

- أي نعم، أول مرة، وكنت أتمنى أن تطول لأني في الحقيقة لم أر إلاّ المطارات وقاعة المؤتمر ومصنعاً أو مصنعين لصنع السيكارات.

وصمت لحظة ثم قال مفكراً.

- إنهم يشغِّلون العميان.

- العميان؟

- أي نعم، يشغلونهم في فرز أوراق التبغ، شيء يخوفك أعمى قاعد مع زمرة من رفاقه المكفوفين يتحمس الأوراق ويضع كل ورقة في عينتها الخاصة، تصورت المنظر؟

- تصورت.. رهيب!

- أنا أيضاً ارتعبت في البداية وقلت لهم فقالوا بل يجب أن يكون ذلك مصدر طمأنينة. لأن تشغيل العجزّ مشكلة من مشكلات الدولة الحديثة، العمل يشعر العجز بأنه لم يبق عالة على سواه، إنه يشعره بإنسانيته.

- وما رأيك أنت؟

- أعجبتني الفكرة، أنا لا أحب الشحاذة، لا أحلها ولست أدري لماذا!

- كان العرب القدامى يأنفون من السؤال، ويقولون ذل السؤال، وقد يضلون السبيل في الصحاري المهلكة ولا يسألون، السؤال عندهم مرده إلى نقص نحاول إكماله اعتماداً على الآخرين.

- شيء لطيف.

- هل تحب الشام؟

- سواء أحببتها أو لم أحبها فأنا أحملها معي! قالها ضاحكاً، وأكب على كيس ورقي بين ساقيه وراح يخرج منه أشياء جعلت قلبي يخفق: سيكارة طاتلي سرت رفيعة، قطعة كنافة مبرومة، راحة بفستق، والجيم يلفظها شامية مئة بالمئة، وربما لفظ القاف همزة ولكنه يغوص على خفايا إنسانية ويبسطها أمامك بسطاً هيناً ميسوراً يحملك على أن نتساءل ما إذا كان وراءه سهر على الكتب وإكباب. ولكنه عفوي، كل شيء في هذا الصاحب عفوي كتدفق الماء في النهر وانتشار الأريج في الزهرة، ولكنك؛ كنت تشعر أنه لا يصدق عينيه، لا يصدق أنه في أوروبا، في بعض الأحيان يبدو مبللاً، مدهوشاً ومع ذلك فقد حملني على التوهم أني وصلت إلى دمشق وأني وإياه صاحبان قديمان.، وقال:

- ولك أخي لي المقعد الذي تقعد عليه، تكبس زراً فينقلب على قفاه كأنه يضحك من نكتة ظريفة، تذكرت لك باصات الضمير، في أحد الباصات مرة دلف علينا السقف... وتمد إلى المسند هنا فتخرج لك منفضة سيكارات، وشف لي الأرض، شف لي الأنهار، شف لي أثر الشغل الإنساني! يا سيدي هدي هي الجنة التي وعد التي وعد الله بها المتقين ، دخيلك المضيفة متزوجة؟

- لا أظن، ليس في أصبعها خاتم.

- يا لطيف، والله لو كانت في الشام لدفعوا مهرها بناية مثل بناية شربجي وقباني في المرجة، واحدة مثل هذي الملكة تتنازل إلى واحد مثلي وتضيع ساعة حتى تحظى منه بكلمة عما يأمر أن يشرب!

ورفت أهدابه في حياء بديع وأضاف في شبه همس:

- الله يذكرك بالخير يا أم أحمد، والله هذه السفرة خربت بيتي! في هذه اللحظة خرج من غرفة القيادة أحد ملاحي الطائرة، نظيف القميص أحمر الوجه من صحة وعافية ومر بنا فوقعت عينيه على صاحبي فغمزه تحية وقال له:

- كيف الحال؟

فلكزني أبو أحمد بكوعه قائلاً:

- شو قال؟

- يسأل عن صحتك.

- بالله عليك! هو يعرفني؟ شو هالقصة هدي دخيلك قل لي؟ ظني أن كل الناس هنا أصحاب.

وجاء طفل أشقر فوقف قربي وشد كمي وهو يقول كلاماً لم أفهمه وقال أبو أحمد:

- ايش قال لك؟

- لم أفهم.

فمد صاحبي يديه إلى الطفل وقال:

- تعال يا حبيبي، تسلم لقلبي، الله يخليك لأهلك، أنا اسمي أبو أحمد يا روحي، أبو أحمد.. ومنْ يدريك بأبو أحمد يا ابن الجنة أنت!

-٢-

وصلنا زوريخ بعد الظهر، كان علينا أن نقضي فيها بقية اليوم وسحابة اليوم التالي، الأحد، ولا نغادرها إلا في التاسعة من مسائه، ولم أكن أعرف زوريخ من قبل إلا مروراً في مطارها الواسع الأنيق، ولكن معرفتي بأوروبا أهلتني لأن أكون دليلاً لا بأس به لأبي أحمد.

وقدمنا جوازي سفرنا وأخذنا بديلهما مرور إلى المدينة، وقالت لنا إحدى الموظفات أن باصاً يذهب إلى زوريخ كل ربع ساعة ويمكننا أن نستقله متى شئنا إليها، وهناك بتدبير مكتب المدينة أمر إيوائنا على حساب الشركة.

يقع مكتب المدينة قرب المحطة، كان الباب مغلقاً منه وإذا هو يفتح، قلت لأبي أحمد:

- وقف، من فتح الباب؟!

لم يبق هو وحده الذي تتخطفه الدهشة، قال:

- أأنا أعلم، والله أنا ما عدت أعرف نفسي أين، أنا رأسي فتل، فتل من صحيح..

وعدت فابتعدت عن الباب خطوتين وإذا هو يغلق وأتقدم حتى أكاد ألامسه بصدري فيفتح من جديد! مسألة مثل السحر.. أي؟ وبينا أنا أبتعد للمرة الثالثة رأيت إحدى الموظفات تدنو من الباب فاستوقفتها وسألتها.. المسألة حقاً سحر، سحر إنساني! ذلك أن في زاوية الباب العليا عن يمين ثقباً يسقط منه شعاع، والباب يفتح ويوصد الكترونياً، إذن فالأساطير عن الأبواب الموصدة وفك الرصد وما إليها كانت من قبيل التشوق، التنبؤ!..

وقال أبو أحمد:

اللهم ثبت علينا العقل والدين، ما عدنا نريد أكثر!

ودخلنا قاعة باسقة السقف، كنبات جلدية أمامها مناضد أنيقة ومنافض من البلور الصافي، لمعان صامت والناس يتحدثون كأنهم يتهامسون، في الصدر كوتان للاستعلامات أمام كل منهما فتاة صبية تجيب عما تكون فتاة الكوة قد أهملته من أسئلة المسافرين، وقفنا أمام الكوة اليمنى وأمامنا بضعة أشخاص يغلب عليهم الجد والكهولة، والفتاة، الماثلة بخدمة صفنا لا تكاد تستقر في موقفها من صبا ، كأنها المهر البطر في الربيع، وكان الزي زي

التنورات الضيقة والكعب الدقيق الرفيع. ولم تخف بدلة شركة الطيران السويسرية شيئاً من تكور يذيب القلب هنا، وشعر يتمرد على العمرة هناك، وصدر ناهد وبشرة نضيرة ترعش في قلبك ما يرعشه ورق الورد في الربيع..

ومط صاحبي رقبته من فوق كتفي وقال:

- يخطر في بالي أن الشرطة عندنا في الشام صارت كلها من صنف هذه البُنية، تصور أنك غافلت بياع جرابات ونترت لك دزينة وبعق البياع فجاءت واحدة مثل هذه الغزالة وألقت عليك القبض وساقتك إلى المخفر.. أي علي الطلاق كنت عملت السرقة شغلتي طول عمري.. أي نعم حرامي! فلقة، حاضر سجن، حاضر، ويلي، ويلي على عمري..

كنت أصغي إليه وأضحك فقالت الفتاة مداعبة:

- لو كنت أفهم كلامكما!

قلت لها مطمئناً:

- مستحيل!

- أعرف.

- ولكن ما قولك في أن أترجمه لك؟

- أقبل راضية شاكرة.

- متى؟

فمطت شفتين رقيقتين وغمزت غمزة ذات مغزى:

- الآن.

- في هذا الموقف الخطابي؟

- وما يمنع؟

- قد يكون بعض ما أود أن أقوله لك إنما يهمس همساً!

- هاك إذني!

- وبعضه الآخر إنما يقال فماً لشفتين..

فمدت وجهها وهي تلم شفتيها وتغمض عينيها في تجاهل ضاحك لطيف:

- قل.

- لا أقول.

- لماذا؟

- الكلام الذي يستمع إليه بالشفتين لا نقوله نحن الشرقيين إلا على انفراد، في موعد!

فقالت ضاحكة:

- قديمة ولكن الطريقة حسنة...

- الطريقة هي كل شيء عندي.

- ماذا تعني؟

- أنا كاتب، والكتابة بمعنى، صياغة، أقيسة ومهارة في مداورة المادة مثل النجارة، هل نلتقي هذا المساء؟

- نعم..

قالتها وهي تتضاحك هانئة مزقزقة وأتمت جملتها:

- إنك تستحق.

- أين؟

- رجعنا إلى البداية، ماذا تعرف من زوريخ؟

- أنت.

- هذا لا يكفي...

كان صوتها أكثر ما يجتذبك، صوت رقيق مواس، وكنا نتحدث بالفرنسية، وأنا قد سبق لي أن سمعت ألواناً من الحديث بالفرنسية، في باريس

وآنجيه وتور، ولكن هذه الوي (نعم) التي تشبه أن تكون غنجة، نفساً يسحب إلى الداخل كالتنهدة، لا نفثة تنطلق كالزفرة..

وكان أبو أحمد لا يفتأ يمط رقبته من خلفي ويسألني أن أترجم له، وأنا أستمهله، ولكنه هذه المرة استطاع أن ينطلق بهذه الجملة دفعة واحدة:

- أتعرف يا أستاذ أن أم أحمد عندما تمازحني تقول: تضرب شو غليظ!

كانت المفارقة فظيعة فقهقهت، واستمر غير راحم وهو نفسه يتضاحك في لين:

- أتصور أنها انتسبت إلى هذا السلك، (يعني مضيفة طائرة) وأتذكر أنها كانت أثناء الخطبة نحيفة، رشيقة مثل بقية عباد الله... ولكنها ما أن سطت عليّ حتى رخت بدن كما يقولون في الشام، وبدأنا نصرف كل ما نكسبه بعرق الجبين على القبوات والمحشي والسنبوسك... واللحمة دهنها، والكبة المشوية مالها طعم إذا كانت شحمتها قليلة، وإذا أم أحمد، أول بطن والثاني تروح في العرض مثل العجل المعلوف بقلب ورب، أي سيدي بدك ما تواخذنا، اضرب لي هالحسونة الصغيرة بعشر، بعشرين بمليون، تحصل على حرمتنا... أي سيدي شو قالت لك؟

وعدت أقول للفتاة:

- أرأيت؟ أن الترجمة تحتاج إلى أكثر من وقفة موقوتة قدام كوة، فأين نلتقي؟

- أنا أُتلفن لك إلى الفندق، أنا اسمي كلوديت.

وقدمت لها نفسي، وقال أبو أحمد:

- ألا تقول لي؟

- تواعدنا على اللقاء هذا المساء.

فجن جنون أبي أحمد:

- لا، مستحيل هذه المسألة مستحيلة، أنت تضحك على عمك أبو أحمد، احك لي الصحيح بصلاة محمد، دخيلك، شو قلت لي؟ موعد؟ وتأخذني معك؟ قل؟ قل؟

ولاد أبو أحمد بالصمت فجأة بعد هذه الانطلاقة الطفولية، ولكنه ما لبث أن قال في هدوء محزون:

- أستاذ بالله عليك قل لي: أهي حياة تلك نحياها في دمشق، حينما أذهب إلى السينما في الشهرين في الثلاثة أشهر مرة مع أم أحمد أشعر أني أسير في سيرك، أنا شفت السيرك في براغ، ويخطر في بالي أن هذين اليومين اللذين كتبهما الله لنا في هذه الدنيا، لماذا لا نزينهما، لماذا لا نملأ ضيقة سابية وعمرات يتبعثر الشعر الأسود من تحتها؟

-٣-

في بهو الفندق جلسنا ننتظر أن يفرغ موظف المكتب من زبون كان يكلمه حتى يدلنا على غرفتينا، لم تنقطع تعليقات أبي أحمد، كيف تحس أنه يتناثر على هذا العدد الذي لا يحصى من الجزئيات الصغيرة حوالينا، وعندما أفسر له ما يطلب إلي تفسيره كان يطيل الإصغاء ويزداد دهشة ويستعيدني في بعض الأحيان ما أقوله كأنه يترشفه ترشفاً.

وقدمنا لأوراقنا لموظف المكتب فرفع سماعة هاتف وتكلم كلمتين وإذا نادل في الرابعة عشرة أو أقل يبرز لنا ويحمل حقائبنا ويتقدمنا إلى المصعد، كان يضع قبعة اسطوانية الشكل انحدر من جانبيها شريطان عقدا تحت الذقن فالتم وجه النادل الصغير وجاءت البدلة العسكرية الزهراء التي تتضبُّ على الجسد اللدن وإذا الكل يقكم إليك صورة فاتنة للجمال الإنساني، ومال علي أبو أحمد هامساً كأنه يخشى أن يسمعه الغلام:

- بنت صبي؟

وفتح الغلام باب المصعد وهمَّ بحمل الحقيبتين ولكن أبا أحمد اختطفتهما منه:

- عليّ الطلاق إلا حملتهما أنا، ويلي علي..

وقال النادل:

- مطعم الطابق في نهاية الممر سادتي.

ودلنا على غرفتينا، قلت لأبي أحمد بعد أن وضعنا الحقيبتين وراء الباب:

- هل تأكل؟

- آكل.

- ولكنا أكلنا في الطائرة.

- هذا تسميّه أكلاً؟ المعدة التي تعودت على الكبة والقبوات وفتة المقادم..

- فهمت عليك، تعال.

واتجهنا إلى المطعم، فتح لنا الباب شاب أنيق، لولا المنشفة على ذراعه لما حسبته نادلاً، وقال لنا شيئاً بالألمانية فقلت له بالفرنسية:

- عفواً؟

فابتسم وراح يحدثني بفرنسية طليقة.

- أين يحب السيدان أن يجلسا؟ أظن أن هذه المنضدة قرب النافذة تلذ لهما؟

- جلسنا وقدم النادل إلينا قائمة الطعام وهو يسأل:

- السيدان ضيفا شركة الطيران السويسرية؟

- نعم.

وابتعد حتى غاب في غرفة ثم عاد يحمل إلينا عدة الطعام.

وبينما كنا نتناول الحساء رجع الرجل بالطبق الثاني في آنيتين من المعدن الأبيض تحتهما مصباحان كهربائيان يحفظان الأكل دافئاً. والمطعم صغير ململم، تتناثر شقوق الزهر في جنباته، ما عسى أن تنقص أناقة المطعم لولاها؟ ونحن نطل على جنينة يشتجر فيها النبات، والهدوء يتغلغل إلى حبة القلب، والطامعون يتحدثون همساً، والأرض من الخشب، وخطوات النادل صامتة في اضطرابه بين المطبخ وبضع الموائد الآهلة، وقد فهمت لماذا لا ينقل الرجل الأطباق، في مثل هذا المطعم المونق، على العربة الصغيرة ذات الدواليب الأربعة التي تستخدم في هذا الشأن: لقد اغتصبتها ثلاث بنيات صغيرات وسَقَتها كُبراهُنّ برفيقتيها الأخريين وراحت تطوف بهما أرجاء المكان، كنَّ يتضاحكن بأصوات رفيعة ويحركن شرائط ملونة عقدت على شعورهن الشقراء الناعمة فيبدون في ديكور المطعم، ولونه الغالب هو الأخضر، كأزهار تلعب بها النسائم.. لم يقطع عليهن لهوهن أحد لا الأهل ولا النادل، كان هذا يحيد عن مهرجانهن الصغير كلما خرج من المطبخ وهو يبتسم ابتسامة لا حدّ لعذوبتها، وكان على مائدتنا مزهرية من البلور المحجر فيها أربع زهرات من التوليب اثنتان قائمتان مثل العروس المزهوة والأخريان أقصر قليلاً، وإحدى هاتين كأنها بنية خجلى أطرقت إطراقة خفيفة نحو رفيقي.

وعاد النادل يسأل في لطف:

- هل يرغب في شيء آخر؟

- لا، شكراً، ولكن هل تسمح لي بأن أطرح عليك سؤالاً؟

- السيد يتفضل؟

- هل تعرف غير الألمانية والفرنسية؟

- أعرف الإيطالية.

- وتحذق اللغتين هاتين حذقك الفرنسية؟

فأجاب ضاحكاً:

- هذه ليست مأثرة في سويسرا، أنا أمي من سويسرا الإيطالية، وأبي سويسري فرنسي، وأنا أقطن زوريخ منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.

كان رفيقي لا يأكل إلا كما تنقر العصافير، وأصبح أميل إلى الصمت والتأمل، سألني:

- هل تعرف شيئاً عن زوريخ هذه؟

- لا أعرف إلا ما هو مكتوب في وريقة الدعاية التي أخذتها في المطار.

- اقرأ لي.

- زوريخ مدينة سويسرية، مركز كانتون..

- كانتون؟

- نوع من التقسيم الإداري يشبه المحافظة عندنا.

- أكمل من فضلك.

- تقع على نهر الليما وضفاف بحيرة زوريخ.. قصر البلدية فيها يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر.. طول البحيرة أربعون كيلو متراً وعرضها بين الثلاثة والأربعة.

وساد صمت تقطعه بين حين وآخر الزقزقة الناعمة التي تصدر عن البنيات، ومر بنا النادل وقال باسماً:

- Bon appetite

وسأل أبو أحمد:

- شو قال؟

- يتمنى لنا شهية طيبة.

- وله أيضاً، الله يحفظه، أستاذ، يخطر لي كيف يرضى هذا الإنسان أن يشتغل أجيراً هنا، أنا لا أظنه أجيراً، لابد أنه صاحب المحل، هذا لو كان في الشام هل تظنه يرضى بأقل من رئيس جامعة، من مدير مصنع، مصرف! أتعرف؟ يشرد فكري الآن إلى مطاعم دمشق، تصور يا بعد عيني، أن صاحب المطعم عندنا ما إن يضع أول طاولة حتى يروح يحلم بأن تقوم له بناية، شارع، حارة، وابتداء من هذه اللحظة يصبح الربح الحلال، الذي أمر به الله ورسوله، غير قادر على تحقيق الآمال، وإذا لحم الجمل، السمن المغشوش، الخضرة المعفنة تأخذ طريقها إلى المطعم.. والأجير يحتقرك إذا لم تفرك في يده من نصف ليرة وأنت طالع..

صمت قليلاً ثم عاد يقول:

- كنت أتمشى ذات مساء في شارع من شوارع براغ فصادفت فتاة صغيرة مدت لي يدها بدفتر ملون وأشارت إليّ فهمت منها أنها توقيعي؟ لم أفهم ولكنني وقعت لها، سألتني بالإشارات أيضاً من أين أنا، فقلت لها: دمشق، فهللت، داماسك، شهرزاد، أظنها كانت تفكر في ألف ليلة وليلة، آه يا عين عمك لو عرفت أن ألف ليلة ما هو إلا كتاب الأحلام، الإنسان في هذا الكتاب يدفعه في بحر الحياة حلم لطيف، وأما إنسان بلادنا فما الذي يدفعه؟ إنه يشخر، ينام نوماً مثل الرصاص ما فيه رائحة حلم...

- كان يتكلم من غير ضغن ولكن صوته كان ينضح بالحزن، وتوقف عن الحديث، قطعة عليه نغم يتصاعد إلينا من الطابق الأرضي، بضع لمسات من البيانو لا تلبث أن تتخلق وإذا أنت تتعرف إلى السونتانا الثامنة لبتهوفن، وأصاخ أبو أحمد السمع حتى خفتت الموسيقا فقال حالماً:

- أستاذ، كيف تفسر بعض الحالات الغريبة التي تصيب الإنسان؟

- أي حالات؟

- إحساس، حال يصيب القلب، لست أدري، ولكنك أثناءها تشعر أنك في راحة لا قبلها ولا بعدها، نفس صافية مثل النبع، راحة لا يقدر يعكرها حتى الشتيمة... لما كنت في مثل سنك أو أصغر قليلاً رأيت مناماً لا يزال حاضراً في ذهني كأني أراه الآن وأنا أكلمك: رأيت نفسي في بستان مشتبك، الدنيا ربيع، حساسين وبلابل تغني، الهواء معطر، ناعم، مثل عنق ولد يرضع وسيقان الأشجار تعكس ألواناً غريبة انعكاس أضواء الصباح الأولى على شرابات ثريات الجامع الأموي في الشام، وفي البستان شفت كأن بحيرة من نور، ويدين لا أرى صاحبهما تأخذان في رفق وتغطسانني... وكل خطرة أغوص فيها تنتشر في قلبي طمأنينة لا توصف.. ما تفسير هذا المنام في رأيك؟

- القول في الأحلام متشعب، وقد أحتاج إلى ساعات حتى أستطيع أن أحدثك بكل ما أعرف عنها لأن نظرية النوم ذاتها...

- لا، عفواً، لا تكمل.. أفضل أن يظل منامي من غير تفسير.

- ولماذا ذكرته الآن؟

- الآن تعاودني الطمأنينة التي ما ذقتها من يوم ذلك المنام.

-٤-

كانت غرفتانا متجاورتين، فافترقنا في الممر ودخل كل منا غرفته لنصلح من شأننا ونرتاح قليلاً.

كانت الستائر الخشبية المسدلة، والغرفة، في ظلمة خفيفة، فتلت الزر وإذا شلالات من الأنوار الهينة تنصب من كل مكان ولا مكان كما تنصب الأنوار على المسرح، وكان السرير مرتباً ترتيباً دقيقاً تقول أنه هندس بالمسطرة والبركار، والنظافة! النصوع! أحد الشلالات هذه كان يرذ على السرير نوراً أزهر، لم أجرؤ على الدنو من كل هذا الكمال قبل أن أستحم.. ولما عدت من الحمام سرقتني إغفاءه يسيرة صحوت منها على تكتكة خفيفة لم أفهم مصدرها في البداية، ثم انتبهت إلى أنها صادرة عن جهاز الهاتف:

- نعم؟

- ألم تعرفني؟

كان صوتاً نسوياً، فقلت:

- آسف.

- أنا كلوديت، أنا أكلمك من البهو تحت.

- سأكون عندك بعد دقيقة.

- وحدك؟

- ومن اصطحب؟

- صديقك الكهل.

سامحك الله، كيف نسيت أبا أحمد العزيز؟ لابد أن النوم لا يزال في عينيك، وهرعت إلى غرفته، رأيته يقرأ في كتاب لم يلبث أن دسه تحت المخدة، قلت:

- أبو أحمد قم.

- إلى أين؟

- الموعد، هل نسيت الموعد؟

- الموعد! لا، ما نسيته، ولكن ماذا تفعل بي أنا؟

- قم أرجوك، البنت تحت، وهي تطلبك..

- وبينما كان يصلح من هندامه رفعت حرف المخدة ورأيت الكتاب: الجزء الأول من ألف ليلة وليلة، طبعة صفراء.. وكان يلبس سترته ويتكلم:

- يا أستاذ يا أبو أحمد؟

- أنا أعرف؟ لما تركتك ودخلت الغرفة، قبل العصر، أهذه غرفة! كانت بنية ما تعدت العشرين تضع مناشف جديدة في الحمام. من المريول حزرت أنها تعمل هنا، وانحنت لعمك انحناءه.. ماذا أقول لك؟ كدت أبكي،

كل هذا الحسن، هذا الصبا، هذه البراءة.. تنحني لي أنا، تصور، أنا الغليظ الغبي الذي لا يكاد يفرق بين اللام والكلابة.. مالك علي يمين خطر في بالي أن أركع أمامها كما يصنع الممثلون في السينما واعتذر لها.. أعتذر لها من صاحب الأوتيل الذي يشغلها، منك أنت، مني أنا، من المدينة، تنحني لي أنا، وتكنس! امش. خذني، أنا حاضر، تحت الطلب. خذني أينما شئت، شوفتي، كحل عيني بهذه الدنيا المسحورة...

وقطعت كلام أبي أحمد تكتكة الهاتف.. كانت كلوديت تستعجلنا، واستأنف أبو أحمد.

- استاذ انتبهت لي إلى صوت الهاتف؟

- شو به؟

- سمعت ألطف من هذا الهاتف في عمرك؟ هل أصغيت مرة إلى جدي صغير، ابن يومين؟ هذه له مأمأة تجعل قلبك، كيف أقول لك، هكذا معلقاً على شعره لشدة ما يدر فيه من حنان..

لم تكن كلوديت وحدها، كانت معها سيدة نصف، أميل إلى السمنة، في فوديها طسات من الشعر الرمادي، وقدمتها كلوديت:

- مارغريت صديقتي.

فقالت السيدة ضاحكة:

- قولي لهما بقية الباقي، مارغو، ماما، عجوزي...

وأضافت وهي تتأمل أبا أحمد من رأسه إلى قدميه:

- أين فارسي؟

فقدمت كلوديت أبا أحمد لها:

- السيد...

- قلت

- أبو أحمد.

فراحت السيدة تردد وهي تشد على يد صاحبي:

- آبو أهماد! صعب، ولكن لابأس، هل يحسن لغة من اللغات؟ يا لله، لا حاجة به أن يعرف شيئاً، لابد أن نعثر على لغة مشتركة..

وكلوديت تنطنط ضاحكة، يتكوم وجهها الجميل ويتقارب حاجباها من استنكار، ثم تنفتح أساريرها من غفران وتهمهم زاجرة (ماما!) ثم تميل على صدري وقد غلبها ضحك لا ألطف ولا أحلى.. كانت قد تخلصت من البدلة الرسمية، ولبست روباً بسيطاً، أصفر كناري، خيل إلي في هذه اللحظة أنها إيطالية، فالشعر فاحم ودفء البشرة وحرارة ملامح لاتينية. ولكن الذي أدهشني هذه الضفيرة المتأرجحة على شكل ذيل مهر، كيف خبأتها عن الشركة؟ وكيف خيل إلي أن وجهها كان أقرب إلى الاستطالة وهو الآن أميل إلى الاستدارة؟ والشفتان اللتان بدتا رقيقتين تبدوان الآن نداء ناضجاً لا يقاوم.. والسن أهي ثماني عشرة أم ثمان وعشرون؟

وقالت:

- هيا بنا!

منذ الآن لم يعد أبو أحمد وحده هو الذي يقول: (أنا حاضر)، «خذني أينما شئت»، صرت مثله وقد تكون مارغريت هي أيضاً شروانا!

وخرجنا من الفندق، الواقع في شارع جانبي، إلى شارع رئيسي عريض، المخازن مغلقة ولكنها كلها مضاءة واجهاتها، كنا، أبو أحمد وأنا، نسرق إليها النظرات، أولئك الذين عرضوا هذه الأثواب والقمصان وربطات العنق فنانون كبار لا ريب، إنهم ورثة هذه الاندفاعة المذهلة المتشعبة: أوروبا! الدكان الصغيرة تحملك على الظن أنك في جناح متحف من المتاحف، في بعض أقسام قصر شايو في باريس..

لم نكد نمشي بضع دقائق حتى فاجأنا المطر، فلم تتوقف رفيقتانا، لاذتا بجدران المخازن على طول الشارع ولكنهما زادتا من سرعتهما ونحن نقفز

وراءهما إلى أن دخلتا مقهى واسعاً تعرف من الوهلة الأولى أنه فرنسي الطراز، وجهز القهوة، على الضغط، (فيجة) البيرة، الحاجز الشاسع يقف وراءه ساق سريع الحركة من خلفه رفوف من قناني تحمل محجرة من ماركات الخمور والكحول والليكور.. وحتى الزبائن الذين يقفون قدام الحاجز يتحدثون بحماسة وإشارات عريضة، ولا ينقطع سيل أحاديثم إلا حينما يرفعون كؤوس النبيذ الأحمر..

-٥-

اتخذنا مجلسنا إحدى المناضد المنعزلة في زاوية عميقة. وجاء الساقي فانحنى لنا محيياً، قالت كويت.

- ريكار للجميع..

- نعم سيدتي.

وسألني أبو أحمد على استحياء:

- ماذا طلبت؟

- نوعاً من المشروب يشبه العرق، وهو مثله يكسر بالماء.

قالت كلوديت تخاطبني:

- ابدأ الترجمة أيها المترجم!

- أمرك يا سيدتي، رفيقي يسأل ماذا فعلتم حتى استطعتم بلوغ كل هذا التمام في الحركة، في الإيماءة، في طرق باب السعادة، وبديهي أنه يوجه إليكما السؤال ويخاطب من ورائكما سويسرا، أوروبا!

فتدخلت مارغو وهي تتصنع التجهم والخطر:

- قل له ما ذلك ألا يكون العجائز ينافسن الصبايا في تصيد العشاق..

قالت كلوديت محتجة:

- هذا كل ما في الأمر؟

- لا، هنالك سبب آخر هو أن البياض في اللحية السوداء لا يستتبع عندنا ذبولاً في القلب، اللهم كلا، العكس هو الصحيح.. إنه يضرم فينا جوى متجدداً أبداً، صبياً أبداً!

- تحدثي عن نفسك وحدها.

- عفواً آنستي، بل أتحدث عن الناس كلهم، أمي رحمها الله عشقت وهي في الخمسين من عمرها عشقاً أضناها، وأمس وحسب تحرش بي جارنا المتقاعد الفاني، وراح يسكب في أذني سيلاً من كلمات الغزل الموقرة...

- وماذا فعلت؟

- لم يكن لي ثقة بأنه قادر على أن ينتقل من ميدان القول إلى ميدان الفعل.

- ماما، مارغو، ألا تستحين؟ كيف تتجرئين!

- وماذا فيها؟ ألأني أقولها في حضرة السيدين الشرقيين. أنا لا أفعل إلا أن أدل بهبة من الهبات، ومن جهة أخرى، ألسنا في ذلك مجرد تلاميذ ومريدين بسطاء في مدرستهم الشرقية العريقة! وطلبت إليّ كلوديت أن أنقل إلى أبي أحمد ما تقوله الماما، فتنهد وسألني:

- يعني أنها تريد أن تقول إننا علمناهم العشق؟

- أي نعم.

- إذن أروِ لها سيرتي مع زوجتي...

رآها عند أخته الخياطة، بنية أقرب إلى القبح، بأنفها الباذنجاني (الكلمة لأبي أحمد) وعينيها المبطنتين وأصابعها ذات العقد.. في البداية لم يكن يوليها اهتماماً على الرغم من كونه في سن المراهقة أو يكاد.. ولكن بضع جمل عجيبة بدرت منها فتلت رأسه.

كان إنساناً كادحاً، لم يقيض له من الثقافة إلا ما قرأه هنا وههنا من كتب الرواية والحكايات والقصص الشعبي، وهذا الحرمان جعله يشتاق أبداً إلى العالم والمعرفة، ومنذ تلك السن المبكرة اقتنع أن الزواج عملية تكميل، عملية رفع مشترك لكلا الزوجين إذا شئت... وكانت الفتاة التي رآها عند أخته مرات قد ألمت ببعض التعلم ولكن أثار إعجابه بها هو تلك الآراء العجيبة التي أبدتها، انتقدت الزواج في بلادنا، وقالت عنه أنه عملية بيع وشراء، عملية نخاسة.. «هذه هي!» كان أبو أحمد يردد هذه الكلمة وهو في بحر من غبطة، هذه فتاة على أن ترفعه، هو عامل تبغ، إلى مقام أرفع.. وخطبها من أبيها، كانت له مع الأب جلسة لا تنسى، هذا ثعلب ماكر، أخذ يفرك يديه ويميل برأسه متواضعاً ويقول لأبي أحمد: (جارية في مطبخكم يا عين العم، يعلم الله تشرفنا...) وقال أن تحرياته أظهرت أن الخاطب إنسان شريف، لا يسكر ولا يلعب القمار ولا يلحق النسوان...

ولكن، أي سيدي... الزواج يكلف، وأنا بنتي متعلمة وما هي من البنات التي عينها على غير زوجها وأولادها.. ومن شأن خاطرك، ألفين مقدم المهر وثلاثة آلاف مؤخرة... ويلي! من أين آتي بكل هذه الآلاف؟ قلت لنفسي: (أروح أدبرها مع البنت). حكينا لها فمطت شفتها، وخذي يا دموع: «أعوذ بالله لا تسمع له، أبي رجل جاهل، متأخر، أنا ما أنا كلاشة (أبوها بياع كلاشات) أُباع وأشرى»... كلام ظريف ما عليه غبار أي إذن روحي اخلعي رقبته وانزلي معي إلى المحكمة، أنت بنت بالغة راشدة.. - «ولكن!»- «ولكن إيش؟»- «تدين»..، وتدينا. قلنا إن الحب يكلف، والبنت، ولو أنها بشعة، مثقفة، قادرة على رفعي..

وارتفعنا، ولكن إلى أسفل: لم أذق طعم الحب، وكلما طق الكوز للجرة تقول لي المرأة المثقفة (أنت أخذتني بالبلاش، فتح عينك) وتروح تحرد عند أهلها، وقد تسألني عن الثقافة... خلها لله يا أستاذ، الثقافة عند نسائنا طعم،

قناع كذبة... والأنكى أنها كلما أرادت إدخال السرور على قلبي فتحت لي بحثاً عن فظاعة بيع الإنسان لأخيه الإنسان!

كنت أترجم مقطعاً وراء مقطع وأشرح لرفيقتنا، واستمع إلى تعليقات مارغريت الضاحكة، وسألت أبا أحمد:

- ولكن أم أحمد شيء آخر، أليس كذلك؟

- اتركني أرجوك، لا تنكأ جروحي، أم أحمد أرذل.

- لماذا؟

- الأولى لم تخلف، وأما هذه فكل سنة ولد بفضل الله. كلما نقرت عليها الباب تحبل الله الوكيل... وعلى كل حال ماتت شعرة قلبي!

-٦-

وكان الساقي قد أحضر الريكار وكسرته كلوديت وثلجته وقالت:

- تعال يا أبو أحمد اجلس قرب الماما.

قلت:

- ولكن كيف يتفاهمان؟

- الماما تدبر أمرها.

كنا نجلس على نوع من القاطع الجلدي يمتد على طول الجدار، أبو أحمد في الطرف فمارغو فكلوديت فأنا، وملت على كلوديت حتى مسّ شعرها وجهي.

- تحدثينني عن نفسك؟

فأجابت مستنكرة:

- ولماذا؟

- نزداد معرفة..

قالت متضاحكة:

- لا سيدي، الناس كلما ازداد معرفة ازدادوا تباغضاً.

- أتظنين؟

- ثم لماذا تريد أن تبدأ من البداية؟ أنا لا أحب التاريخ أصلاً، أنا أحب الرسم، الرسام لا يهتم للتسلسل الزمني، إنه ينصرف إلى اللحظة الراهنة.

قلت همساً:

- يا الله، ما أجملك!

قالت ضاحكة:

- تغازلني فيما بعد، فضولي شديد لمعرفة رأيك، أنت الكاتب الشرقي، في الفن.

- الفن أنت.

- كلمني جدياً.

- كل الجدية، أنت الحياة، دفقات الدماء الفتية تكاد تتراءى لي من خلال بشرتك الطرية، من الحياة يجب أن تتفجر الينابيع كلها، وأرى أيضاً أن ليس للفن إلا أن ينقل أخبار هذه الرحلة التي تغري الإنسان أبداً، منذ ولد، بالمطلق، رحلة خائبة قولاً واحداً ولكن هناك أفراداً ممتازين يستطيعون بين حين وآخر أن يحققوا، بالريشة أو القلم أو قوس الكمنجة، خطوة أو خطوتين نحو هذا الهدف المستحيل، أخبار هاتين الخطوتين هي وحدها التي تسوى..

- هذا شيء جميل..

عدت أقول:

- أي فن قادر على أن يشمل هذه اللحظة: أنت، التثني الوردي في شفتيك، هذا الزغب المتناثر حول ضفيرتك، صوتك الذي أراه، أنفاسك التي

أتذوقها باللسان، هذه الشولة المحيرة في أنفك، ازدهارك وكآبتي التي لا قرار لها أنا الإنسان الخائف المطارد...

وقطع علي سجيتي الجنونة صوت مارغو يخاطبني:

قلت لها:

- زوجي

كنا قد أهملناهما، إنهما الآن مكبان على كدسة أوراق في أقصى المنضدة، الرأسان يتماسان، وأحياناً النظارتان المكبرتان على أرنبة أنف كل منهما، ورفع أبو أحمد إلي عينيه، كأن فيهما حرارة طفل يحقق انتصارات في كتاب القراءة، وقال لي في إذلال:

- Je Ta ime beaucoup

ثم عاد إلى أوراقه ومارغو تقول له:

Oui, Zaouji est mort-

وقال هو رأسه في أوراقه:

- فهمت، مات.

- Exatement, mat

بعد العشاء أخذتنا كلوديت إلى حفلة راقصة أقامها موظفو أحد المصارف، القاعة واسعة، والثريات تغمرها من نور زاه إذا كانت فترة الاستراحة، وأما حينما ترتفع الموسيقا ويبدأ الرقص فتخفت الأنوار الساطعة وتتابع أنوار أخرى قد ذابت رقة وحلماً. وتبينت مارغوريت أن أبا أحمد لا يعرف شيئاً عن الرقص فباشرت الدروس في الحلبة صابرة صبرها في تعليمه الفرنسية.. وكنا كلما سكنت الموسيقا هرعنا إلى البار نشرب كأساً ودروس مارغو مستمرة، عادا في غير حاجة إلينا، لا بد أنهما عثرا على لغة مشتركة، وكنا إذ نجتمع عند البار تقول مارغو:

- شكراً، طمأنني أبو أحمد أن الرجال في الشرق ليسوا حكرة نسائهم، المرأة لا تستطيع عمرها كله، أن تقول: (زوجي) لأنها قد تفيق ذات صباح وإذا هي لا يحق لها أن تقول (زوجنا) وقد أعلنت له من طرفي إني شرقية الروح..

وتقول كلوديت لائمة ضاحكة:

- مجنونة، تقبلين بدخول الحريم!

- هذا على أية حال أهون من حياة الأرملة التعيسة التي أجرجر أيامها هنا.

وسألني أبو أحمد عما تقوله رفيقته فنقلته له.. فزوى ما بين حاجبيه وحك وراء أذنه وقال:

- ولكنها لم تفتح لي سيرة.

- لعلك لم تفهمها.

- صحيح لم أفهم، الآن فهمت، قل لها أنا مستعد للطلاق..

وأما كلوديت وأنا فكنا نتخلى أحياناً عن الرقص ونخرج إلى الأروقة والشرفات، اليد في اليد والحديث ينساب وادعاً متنوعاً موجزاً متقطعاً، لم أكن راقصاً بارعاً، وما رغبت في الرقص يوماً إلا لأنه سبيل إلى قربى لا تستطيع أن تقدمها جلسة القهوة أو النزهة في شارع: ضغطة يد، استجابة لحركة جذب خفيفة، رفعة من عينين غائبتين حاضرتين..

مع تقدم الليل كانت هذه القربى تزداد وشائج، ومعها نصل أكثر فأكثر، ومن غير تعمد، إلى نسيان أننا تعارفنا اليوم..

كانت تتوضح: ببساطة الإيماءة، حرارة اللفتة، الغرق في شعر اللحظة الحاضرة، ووجدتني أجيب عن أسئلتها الكثيرة وأترشف لمعات الدهشة في عينيها وأنا أحدثها عن حياتي المتشردة الضائعة، وقد كففت، مذ زجرتني،

عن الأسئلة التي سمتها «تاريخية»، وقنعت كما أرادت بدور الخلق الذي يقوم به متأمل اللوحة المعجزة مشاركة منه في إبداع المبدع..

ودقت ساعة جدارية في أحد الأروقة الواحدة فالتفتت كلوديت نحوي تتأملني.. كان طائف من معابثة طفلية يطوف في وجهها، ومدت يدها تأخذ يدي وتندفع إلي مشلح الثياب ثم إلى الشارع، فسيارة تكسي.. لم نكد نهبط منها حتى قفزنا إلى مصعد كهربائي في بناية، وتوقف بنا في آخر طابق، الخامس..

-٧-

كنت قادراً على أن أنام على باب بيتها، وهاأنذا في بيتها، بيت صغير، دهليز كالغرفة الصغيرة، عن يسار، مرآة ذات إطار من الخشب المنحوت من الطراز القديم، قبالة الداخل الحمام، عن يمين، بعد المرآة، باب تتوجه ستائر من المخمل الأخضر تتشلل منها سجف أخرى من الموسلين السكري الذي ينسدل حتى الأرض انسدال وشاح العروس، وأزاحت كلوديت الوشاح وفتحت الباب ودفعتني إلى داخل غرفة واسعة.. ما أعجب غرفة فتاة تحيا وحدها، إنها تشبه أثراً موسيقياً لا حدَّ لاتساقه، أثراً ما فيه نغمة ناشزة واحدة على الرغم من أن النوتات الصغيرة التي تكونه لا يحصى لها عدد.. وبعد أن سمعت اللحن بنظرة خاطفة شاملة ملأتني نشوة ورضى أخذت أقلب التفاصيل: بودا من العاج بحجم الإبهام، تحفة فنان هندي، منظر طبيعي من الصين، مطرز على قطعة من الحرير الأصلي في إطار مذهب، نسخة عن لوحة (سوزان والشيوخ) لتانتوريه، (النهود والأزهار الحمراء) لغوغان، مكتبة صغيرة فيها بضع عشرات من الكتب الأنيقة التجليد قرأت على حرف أحدها: (القربان العشري) لطاغور، ترجمة آندريه جيد.. ولم يكن في الغرفة سرير، بل كنبة واسعة عرفت أنها من النوع الذي ينقلب إلى سرير، وكان يواجه الداخل باب عريض يرتفع ارتفاع السقف دفعته فوجدتني في شرفة

عريضة مكشوفة تطل على شطر كبير من المدينة، هذه الشرفة جعلت منها اليدان اللطيفتان جنينة صغيرة، الورد الأحمر وهو الأثير لدى ربة البيت، ولكن أصيص التوليب والمنتور والزنبق، تؤطر الشرفة مع الدرابزون، تحملك على أن تمد رأسك بين الأفنان المعطرة حتى تستطيع التشوف إلى المدينة تحت.

وعدت إلى الغرفة، هذه المرة رأيت بيانو عليه شمعدانات، وانتبهت إلى السجادة، والنافذة العريضة عن يمين الداخل من الشرفة ومجموعة الخزائن الواطئة تحت المكتبة وألبوم صور على الإفريز الذي يفصل ما بينهما.. وسمحت لنفسي أن أفتح الألبوم، كان مجموعة من صور كلوديت منذ أن كانت في المهد، فبنتاً صغيرة بضفيرتين تلعب مع أولاد الحارة في الشارع، فصبية صغيرة في المدرسة.. فموظفة في شركة الطيران.

استرقتني الغرفة، وتسرب إلى قلبي شيء يشبه أن يمازج فيه الرأم الوجد، شيء لم أشعر بمثله من قبل، لم يكن معنى متخلقاً يلمع في الذهن قعيداً أو فائراً ولكنه، بالأحرى (حال) أوشك معها أن أذرف دمعة عند كل شيء صغير من أشياء هذه الغرفة.

في هذه اللحظة سمعت الباب يوارب في لطف وهمس خطوات حافية على السجادة قربي، حولت عيني ابتداء من السجادة: القدماء العاريتان الصغيرتان تسترهما حواشي غلالة زهراء.. ورفعت نظري وإذا كلوديت، كأنها انبعثت من بحيرة مسحورة، عارية إلا من الغلاة تموجت على الجسد الجميل غمامة ملونة في حلم...

-٨-

وسمعت رنين ساعة بعيدة تدق الخامسة، قمت إلى الشرفة... الفجر، هدأته، الأرج الغض يرتعش تحت أنفاسه، بضع لؤلؤات عكست الأضواء الأولى على أوراق الورد، في البعيد إنسان يعبر الشارع ويداه في جيبه.

عدت أطل على الغرفة، أهداب كلوديت مسبلة على خديها في سلام لا يسمى، ومن تحت الغطاء الحريري الخفيف خرج زند، عند قدمي السرير برزت قدم صغيرة، صغيرة.. على إفريز الخزائن لا يزال الألبوم مفتوحاً، رحت أبحث في سترتي عن قلم الحبر، أنا منذ صباي المبكر لم أنظم شعراً، وها أنذا قصيدة على إحدى الصور، ولكن، أية قصيدة قادرة على نقل الشعر الذي أعانيه!

لما سقطت أشعة الشمس الأولى على الشرفة كتبت كلمة لكوديت وتركت البيت إلى الفندق، كنت أخشى أن يغضب علي أبو أحمد، واندفعت من التكسي إلى مكتب الفندق، وطلبت إلى موظف الليل مفتاح غرفتي وتحركت أهم بالصعود ولكني لم ألبث أن فطنت إلى أني لم أنظر إلى رقم أبي أحمد في اللوحة، عدت، كان مفتاحه معلقاً، أين هو؟ سألت الموظف:

- ألم يعد رقم ٢٢؟

- لا، بعد.

وقفت متحيراً، خفت من حادث سيارة أو مرض مفاجئ، خرجت إلى الشارع ثم عدت أذرع البهو بعض الوقت، كان وجد الليلة ودبيب نشوتها أقوى من أن يعكرهما شيء، فأقنعت نفسي بأن استلقاءة في السرير وإغفاءة خفيفة تعينني على الحلم خير من الانتظار العبث في هذا البهو الفارغ، وهممت بالصعود مرة أخرى وأنا أتلفت دائماً نحو المدخل.. وإذا أبو أحمد ينفتل في الباب الدوار الذي قذفه، بعد دورة، إلى داخل البهو.

هرعت إليه:

- أين كنت؟

أجابني ماكراً:

- Qui es- tu?

- قل لي، أرجوك خفت عليك.

- كنت في رحلة.

- رحلة.

أي نعم.

- أين؟

- وراء البحور السبعة، في قصور الجان، وراء سد الصين، كنت أركض على بساط الريح، وآمر العفاريت فتطيعني وأكلم الطير.. أبو أحمد لم يعد له وجود، أنا من مواليد ليلة البارحة.. أنا ابن ساعات، أنا..

- أبو أحمد ألست سكران.

- سكران.

- طيب تعال نصعد.

- لن أصعد، لن أنام، أخاف أن تهرب مني.

- من هي؟

- الأشياء التي شفتها ليلة البارحة.

- تعال نحلق على الأقل.

- لا، تعال نتنزه.

- على أن نعود قبل الغداء، أنا دعوت كلوديت.

- وأنا دعوت مارغو.

وأعدت المفتاح إلى موظف الليل وانطلقنا إلى الشارع..

بعد خطوات من الفندق سكوار، جنينة صغيرة في وسطها باحة تحف بها مقاعد من الخشب، الظلل الملتفة وراء المقاعد تتقنطر فوق الجالس وتجعل له ما يشبه السقيفة وتعزله عن الشارع فيخيل إليه أنه وحده،

ويصوغ الزنزلجت تنتصب أزهاره كأنها الشمعدانات الملونة، والعصافير أصابها ما يشبه إران الصبية الصغار على بيدر القرية، ما أبعد الفرق بين هذه العصافير وعصافيرنا نحن الخائفة أبداً، المتوجسة أبداً! ها هي ذي هذه تجيء تسعى بين أقدامنا، بل حط أحدها على مسند المقعد، عند كتف أبي أحمد، وراح يحرك رأسه محدقاً به في حركات طفلة.. وغير بعيد كان بضعة من رفاقه تنقر في قطع صغيرة من صغار بيضة مسلوقة، بينها زرزور أيضاً، وقال أبو أحمد من غير أن ينظر إلي:

- يرون عندنا قصة عن الدوري، تعرفها؟

- هات.

كان الدوري الشيخ يعظ ابنه الدوري الفتى قبل أن يجيز له الطيران مستقلاً، قال: «يا بني، إذا رأيت إنساناً ينحني على الأرض فاهرب، لأنه لم ينحن إلا لأنه يريد أن يتناول حجراً يضربك به فيرديك قتيلاً ثم ينتفك ويشويك ويأكلك!» فتهاتف الدوري الفتى ضاحكاً، وقال للدوري الشيخ: «أنا مع إجلالي لعلمكم أنتم الشيوخ أود أن أسأل: ما عساي أن أفعل إذا كان هذا الإنسان قد خبأ حجراً في عبه؟».. فضحك الدوري الشيخ هو أيضاً مسروراً وقال لابنه:

«الآن أجيزك!»

وسألت أبا أحمد:

- لماذا رويتها لي الآن؟

- يظهر أن فلسفة العصافير هنا تختلف.

- ولكن الأوروبيين بعامة لا تنقصهم القسوة.

- ما عدا أهل هذا البلد.

- ولكن هذا البلد مؤلف من ثلاث مقاطعات يغلب على كل مقاطعة عرق من العروق، وكل من هذه العروق الثلاثة كان له نصيبه الوافر في تاريخ القسوة.

- هات لي أمه لم يكن لها نصيب أوفر، أنا إنسان قليل الثقافة ولكن أظن أن أوروبا قدمت للإنسانية أحسن فصول قصتها، أمس مرّ بنا، ونحن ذاهبون إلى القهوة، جندي، ولد ما بلغ العشرين، ما كان أشبه بعصافير الجنينة.. ولو كنت أعرف لغته لتصديت له وكلمته، أنا متأكد من أنه كان يجبيني في حياء البنت البكر!

وقمنا نسير في الشارع الطويل، والشمس قد ملأت الدنيا، والناس قد بدأوا يخرجون إلى الشوارع بعضهم كان يدخل الكنائس وبعض يتسكع مثلنا، ودنونا من سيد شيخ، قلت:

- عفواً يا سيدي..

فرفع قبعته وأحنى رأسه محيياً:

- سيدي؟

- أين بحيرة زوريخ؟

- في نهاية هذا الشارع يا سيدي العزيز.

ومضينا، قال أبو أحمد:

- أتعلم؟ يخطر في بالي أن هذه المدينة تصلح لأن تكون مشفى لكثير من أمراض القسوة، غداً في دمشق، إذا شكا لك أحد من أن أباه قد مات فوضع أخاه الأكبر يده على التركة كلها.. فلا تقترح عليه الالتجاء إلى المحاكم، ولا تنصحه الأكبر يده على التركة كلها.. فلا تقترح عليه الالتجاء إلى المحاكم، ولا تنصحه بشراء مسدس. قل له: «خذ أخاك إلى زوريخ» إذا شتمك واحد مبهدل قل له: «رح إلى زوريخ» إذا غشك بياع خذه إلى زوريخ..

وصلنا إلى البحيرة، كانت باخرة تقف في المرفأ الصغير، مشينا مع الضفة، التمُّ الأبيض هنا كأنه زوارق شراعية تتهادى على صفحة الماء الوادعة اللامعة، ومرت بنا امرأة صبية في لباس يوم الأحد الزاهية ألوانه، وبنية صغيرة بروب قصير تجرها نحو أحد الأدراج الهابطة إلى البحيرة،

وجلستا القرفصاء على الدرجة الأخيرة واخرجتا خبزاً من كيس من القماش المحبّر. وتجمع عليهما البط والتم، وجلسنا نحن على أحد المقاعد ظهرنا إلى البحيرة، ومرّ بنا رجلان مع كل منهما كلب من نوع الكانيش فتبادلا التحية والمصافحة، ودنا الكلبان وأحدهما من الآخر وتماس رأسهما في شبه تحية...

ظللنا في جلستنا تلك لا نقول شيئاً حتى سمعنا موسيقى تتناهى إلينا من إحدى الجنينات المحيطة بالبحيرة، قمنا، كان في الجنينة أدواح باسقة من الصفصاف، الأغصان متشللة من علو كبير.

وبين الأدواح مساكب من الأزهار والعشب الأخضر، في وسط الحديقة سقيفة ازدحمت بالموسيقيين الشبان بالزي العسكري.

وقفنا مع الواقفين نستمع إلى مقطوعات سمفونية وموسيقى خفيفة.

عزفوا باخ وشوبرت والربسوديا الهنغارية.. وكان في الجو غبشة خفيفة بيضاء، والهواء ناعم كبشرة طفلة نائمة، والشمس تنسكب على العشب الأخضر فيعكس ورق العشب الندي نثاراً من اللمعان يجعلك تغمض عينيك إغماضة خفيفة..

وعدنا قبيل الظهر قبيل الظهر متمهلين إلى الفندق، أبو أحمد يتحدث بين حين وآخر حديثاً هينا، خيل إلي أنه أولع بالهمس، قال:

- أستاذ!

- نعم؟

- أود أن أقترح عليك مسألة.

- هات.

- أرجو ألا تعارضني.

- قل.

- تعال نقطع سفرتنا هنا.

- كيف؟

- نبقى في هذه المدينة.

ضحكت:

- ماذا يفعلون بنا هنا؟ من أين العيش؟

- نشتغل.

- نشتغل إيش؟

- أي شيء، حمالين، بائعي جرائد، عاملين في مصنع للتبغ.. أي والله صحيح أنك أنت لكع، عفواً أقصد أنك كاتب ولكن أنا طول عمري عامل.. أنا أشتغل في مصنع تبغ وأطعمك، أنا شقيت في عمري كثيراً من غير أن ألقى كلمة عزاء واحدة، هنا وحسب عرفت لأول مرة أن الدنيا ما هي سيئة جداً، إن الناس يستحقون أن نفديهم بحياتنا... أنا قادر على أن أكدح مثل نحلة، أن أعيل عشرة أشخاص.

وصمت قليلاً ثم عاد يقول متوسلا:

- نبقى يا أستاذ، نبقى أليس كذلك؟ قل لي إي، نبقى إي؟!

* * *

الشيخ عقابية

-١-

كانت أمي تبكي وتنشق وتمسح أنفها بطرف مريولها، وقالت بين الدموع:

- هذا ابنك ما بقي لي طاقة عليه، هذا جني شق الأرض وطلع. دخيلك خذه عني، خلصني منه..

مع أنها كانت ضربتني بمحراك التنور، ولما أخطأتني رمتني بفردة قبقاب أثقلها الماء الذي تشربته في المطبخ.

وقال أبي وهو يتصنع العبوس:

- ألا تستحي يا ولد، أنت؟ هدي أمك، هدي.. الجنة تحت أقدام الأمهات يا بني، إي خلص يا ستي، احسبيها عندي، امسحيها في ذقني لا تبكي..

ولكنها عادت تنوح:

- والله ما ترك عرق زرع يوحد الله.، الحارة كلها تشكو منه، أخوته مثل النعجات جننهم، علمهم على الشقاوة.. قال الكبير قال! الله لا يكبره.. يخرب بيت مدارس الحكومة هدي.. في الصيف وقت ملعنة الأولاد تسكّر.

قال أبي:

- لا يكن لك فكر، رايح أحطه عند الشيخ عقابية، اليوم! وهدأت أمي قليلاً، ولكنها ظلت تتشكى من قبيل الاستمرار:

- بدي شيخ يكون عقله في عينه، ضربته قبل كلمته.

هربنا مرة، ياسين محمد ديب وأنا، من المدرسة وحضرنا محكمة في السرايا، خيل إلي أن أبي هو القاضي، باسم الشعب السوري حكمنا على ولدنا

مصطفى الزير بوضعه عند الشيخ عقابية، لم يكن أبي شديداً ولكني عرفت من لهجته أنه جاد، أصلاً، سبق له أن قال كلاماً يفهم منه أن نيته مبيتة، من أوائل الفرصة الصيفية، إذن هاهو ذا العهد الحلو، عهد التشرد في الأزقة، يوشك أن ينقضي، الوداع الوداع يا أعشاش العصافير، يا جرادين جبانة النصارى، يا برك دينيت ذات الماء الموحل المفرح، وداعاً يا جوزة الجبانة الشرقية، يا ذات الظل الشاسع الوريف..

وقال أبي:

- الشيخ عقابية شديد جداً، من حوالي أسبوع، أسبوعين كسر يد ابن شيخ الحدادين من الكوع.

فشهقت أمي:

- يوه، على قامتي، فضايل الألف بسم الله الرحمن الرحيم.

- ضروري لازم يتربى الأولاد..

- لا يا سيدي أنا ما بدي أحد يكسر لي يد ابني، موتي أسبق إن شاء الله وكان...

- طيب نوصيه ألا يكسر له يده، تعال يا ابني يا مصطفى، الحقني، وتبعت أبي مذعناً، وظل صوت أم مصطفى يلاحقنا:

- خده الآن، الآن هاه.

- الآن!

- أوع يؤخذني لي الولد شيخ عقابيتك هدا، هاه!

- خرجنا من البيت إلى الزقاق، قال أبي:

- هكذا أحسن لك؟

قلت:

- هي ضربتني بمحراك التنور.

- هي؟

- ورمت علي فردة القبقاب شية المطبخ!

- هكذا من غير ذنب؟

- قل، أنت تنوي حقاً أن تضعني عند الشيخ عقابية؟

قال في رقة:

- كنت أفكر في المسألة حتى قبل أن تثيرها أُمك، أنت في حاجة إلى تقوية قرآنك، في المدرسة لا يعلمون القرآن مثلما يفعل الشيخ، كل العلوم التي يدحشونها في رؤوسكم علَك أمام القرآن الكريم.

هذا كلام الله.. ومن جهة أُخرى تتسلى!

- أنا لا أُحب تسلية الشيخ.

- على كل حال، اجعلها من أجلي أنا.

كنا لا نزال على مسافة غير قليلة من زاوية الشيخ، الكتّاب، لما أخذت أصوات الأولاد تصل إلى آذاننا، صارخة بالآيات الأخيرة من جزء عمّ، أصوات ثاقبة، تتقطع أحياناً، ولكنها تذكرك دائماً ببعض اللعب التي ينبعث منها صوت رتيب إذ أنت فتلت نابضاً فيها.

وقال أبي:

- لا تهتم كثيراً، الشيخ عقابية مقرئنا، أنت تذكر، قرأ لنا يوم وفاة المرحوم جدك.

وطرحت على أبي هذا السؤال:

- معه شهادات

هذه الكلمة التي كان معناها غامضاً في ذهني، تعلمتها من معلمنا في المدرسة الابتدائية الأستاذ حسين أفندي، الذي كان يزهو علينا، ولا يكف عن التباهي بأنه يحمل شهادات من حلب.

وقال أبي:

- من هو؟

- الشيخ عقابية.

فتأملني وهو يكتم ضحكة ودهشة:

- شهادات إيش؟

- أنا.. أنا لا أعرف، شهادات مثل معلمنا حسين أفندي يعني مثلما تقول..

- فقاطعني أبو مصطفى ضاحكاً:

- هذا يدعي أنه نوى، أيام شبابه، أن ينتسب إلى المدرسة الخسروية في حلب.. حتى هذه النية ليس معه شهادة عليها فيقال إن الأعمال بالنيات!

الشيخ عقابية، اضرب واطرح وما معه شهادات!

لما وصلنا إلى الزاوية كان بعاق أولاد الشيخ قد أضحى يسد عليك السبل، ينبع من كل مكان حواليك، ودخلنا صحن الزاوية، ميضأة في الوسط، غرف واطئة الأبواب في أربعة أطراف، طابق ثان تمتد أمامه شرفات ضيقة بدرابزونات تُزنر الزاوية تزنيراً، واتجهنا إلى غرفة في الركن الأيسر، تحت، عن يسار المدخل.

الغرفة تغص.. حتى في العتبة تكوم أطفال جنباً إلى جنب مع الأحذية، وكانت الغرف مفروشة بالحصر، وفي صدرها مصطبة مجللة ببساط ممزق يكشف في مواضع عن الخشب القديم الذي صنعت منه.

ههنا يتربع الشيخ متكبشاً، وأمامه المقرأة، عليها مصحف مفتوح.. وعن يمينه عصا طويلة مما يسمونه في بلدتنا «المساس»، حقاً أن هذه العصا قادرة على أن «تمس» أي رأس من هذه الرؤوس الصغيرة المنبسطة أمام الشيخ.

وردّ الشيخ على سلام أبي رداً يتناسب مع مركزنا، أُسرة متوسطة، وحاول النهوض ولكن أبي أقسم عليه ألا يتحرك، وقال أبي:

- هذا مخدومك مصطفى.

- هذا هو؟ ما شاء الله، ما شاء الله!

ونظر إلي من رأسي إلى قدمي:

- ظني أنه ابن مكتب؟

قال أبي:

- أي نعم، ولكن قرآنه ضعيف شوية.

- هه، هه. ليش فيه ابن مكتب قرآنه قوي!

- بدي يعني أنك تدير بالك عليه.

- على رأسي ثم عيني، اقعد يا ابني.

- وتخليه يختم لي القرآن؟

- حاضر.

وهم أبي بالانصراف، ولكنه قال:

- رص لي أياه، لا تكن ذقنك رخوة معه يا شيخي، رص، العظم لي والجلد لك.

كانت لكلماته رنة مهلهلة، كأنها طقس مكرور ولكني مع ذلك ردَّدتها في سري: العظم لأبي والجلد للشيخ! ما معناها؟

وأضاف وهو ينحني على الشيخ هامساً وإن كان صوته واضحاً مسموعاً:

- وكل شيء لخاطرك!

فتضاحك الشيخ وقد لمعت عيناه لمعاناً جذلاً وتمتم معتذراً:

- ما هي بيننا، هذا ابننا، هذا!

ونده الشيخ فتى طويلاً لعله يكبرنا بثماني، بعشر سنوات، قل إنه رجل فتى قد شارف العشرين وقال له:

- استلمه يا حميد.

استلمه! وقام حميد فأخذني من يدي وأجلسني بين الأولاد الذين يقعدون في المقدمة، قدام المصطبة الخشبية مباشرة، وزوَرني وهو يخفضني إلى الأرض بقسوة وتسلط.

-٢-

وانصرف أبي فركضت عيناي تلاحقانه حتى غاب وراء الميضأة في صحن الزاوية وصاح الشيخ:

- اقروا...

وكأنه كبس زراً، انطلقت الحناجر الصغيرة تجأر بإحدى سور جزو عم، فجأة رأيت يد الشيخ تمتد إلى المساس في حذر، ثم تنقض عليه وترفعه وتهوي به على رأس صغير في آخر الغرفة...

كل هذا في رفة عين:

- طق!

وقع أصم، يد تحمي الرأس، فم يعول:

- آخ، ايهي ايهي، آخ!

ويصرخ الشيخ:

- وسلاخ يسلخ جلدك.. يلعن أبوك على أبو رفيقك يخرب بيت البذرك ما شبعت علاك ولك ابن الحرام أنت وهو...

والمساس ينقر مثل الدجاجة من رأس إلى رأس!

وأراح الشيخ مساسه، وعادت الحناجر، التي اندهشت قليلاً فلاذت بصمت قصير، عادت نشيطة مثل دابة ينخسها مكاري نزق في قذالها. إلى أن خفف منها صياح جديد انطلق من فم الشيخ:

- حميد!

- نعم شيخي؟

- خد عبد اللطيف معك وروح شف أم حسين ايش بدها.

وأشار حميد برأسه إلى أحد الأولاد إشارة آمرة، فقام هذا يتبعه وهو يتلفت إلى رفاقه عن الجانبين، وكأني لمحت في نظراته فرحة بالهروب واستسلام إنسان يساق إلى كريهة، وخرج الاثنان من الغرفة.

ووكزت الولد الذي قربي بكوعي:

- من هذا؟

- حميد.

- أعرف، سمعت، ولكن من هو؟

- العريف.

هاه، هذا هو العريف إذن! وكيل الشيخ، وزيره، مساسه إذا غاب، ومدير أعماله، إلخ.

في هذه الأثناء كان الأولاد قد انتقلوا إلى سورة ثانية من غير أن يطلب إليهم الشيخ ذلك، ماكنة قراءة هؤلاء الأولاد.

وعلى الرغم من ارتفاع أصواتهم، ونشاز هنا وهناك لابد منه فقد كان يصدر عنهم مثل الماكنة، هدير رتيب، ورفعت عيني إلى الشيخ المتكوم على مصطبته الخشبية وإذا عيناه تذبلان، وما لبث أن ارتخى رأسه على صدره، وانبعثت شخرة ثم أُخرى.. ثم ارتفعت في مواجهة ماكنة النشاز، ماكنة أُخرى للشخير.

ها هو ذا الشيخ أمامي مديد القامة، عريض الكتفين، أسمر بطسات سوداء، أجعد، وخطة الشيب، ما كان أشبهه بالثعلب، وقد انشمر كماه عن ذراعين كأذرعة المصارعين، أشعرين ملتفين خطر لي أنه لو اشتغل في الحصاد، في تكسير الحجارة على الطرق الكبرى، في معصرة الزيتون، لكان أجدى على الناس، وعينا نحن، من هذه الصنعة اللينة التي لا تخرج عن الشخير والنخير وتشغيل المساس في رؤوسنا.

وسألت رفيقي:

- ما اسمك؟

- برهان، أنا أقعد عند الشيخ في الصيف بس، أنا تلميذ مكتب.

- وأنا.

- ما اسمك؟

- مصطفى.

قال وهو يشير إلى الشيخ:

- يخرب بيته، وحش!

- ليش؟

- لا يعرف غير الضرب.

كان الشيخ قد استغرقه النوم، لم يعد يرتخي رأسه على صدره ويعتدل، أسنده إلى حرف الشباك وراءه وغط.

قلت لبرهان:

- وقف شف شو بدي أعمل لك فيه.

وأخرجت من جيبي حلقة من المطاط مما تحزم به البضائع الصغيرة في دكان أبي وفتلت أوراقاً صغيرة، ورحت أُسدد إلى وجه الشيخ...

لم تخطئه إلا اثنتان أو ثلاث... وهو يظن أن قذائفي الورقية اللاسعة ذباب ملحاح فيكشها، في نومه، ويعود إلى الجمود والغطيط، يعود إلى النوم الذي أضحى منذ الآن غير هني بأية حال.

وجن الأولاد فرحاً بهذا المشهد، وأخذوا يتضاحكون متهيبين في البداية، ومن غير أن ينقطعوا عن القراءة.. ثم لم يلبثوا أن ضجّوا بالضحك، بالقهقهة.. وتعطلت القراءة التي كان الشيخ ينام على هديرها واستيقظ الشيخ!

- ليش ما عم تقرروا ولك، أنت وهو؟

لم يجب أحد، ولكن الضحك مخنوقاً عسير الكبح كان يستمر يهدد بالانفجار في كل لحظة، وعاد الشيخ يزمجر:

- ليش ما عم تقروا أولاد الكلب.

وإذا ولد صغير، هزيل، في آخر الغرفة يقول بصوت رفيع بريء:

- كنا عم نضحك عليك يا شيخي!

.. يومها ذقت أُولى فلقاتي عند الشيخ!

-٣-

كان الشيخ يجد لذة في تعذيبنا، ويتفق هو وعريفه على إذلالنا ويعتبران أن هذا القطيع الصغير من الأولاد ملك يمين، ولعل هذه النظرة هي التي جعلت الفلقة والضرب بالمساس على قرعة الدماغ.. أشياء يومية مألوفة مثل التحية وغسل الوجه عند الاستيقاظ.

ونحن ملك الشيخ بمعان أُخرى، إننا نحن خدمه وحشمة، نشتري أغراضه من السوق، نقوم بالخدمات المنزلية كالجلي والكناسة والطهي وزق الماء من الجب وماء الشرب من العين..

وكان للشيخ زوجتان، أم حسين و «الجديدة» ولذلك كانت بليتنا أعظم، كان علينا أن نكون على مثل الصراط، أن نستشف أياً من الزوجتين أقرب

إلى قلب الشيخ اليوم، وأيهما أقرب غداً، متى تحلو أُم حسين ومتى لا تحلو، وقد تغضب الجديدة من خدم العتيقة «من أولاد الشيخ» يعني نحن، فتنهال عليهم ضرباً بالعصي ورجماً بالقباقيب.. وكان أبناء الشيخ هم أيضاً ملاكينا وأسيادنا لا نجرؤ على أن نرد عليهم ولو شتمونا بأقذع الألفاظ، وسبُّونا في آبائنا وأجدادنا.

وكانت «الخميسية» تتروح بين رغيف خبز وبضع قطع نقدية فضية، ولكن الخميسية لم تكن مورد رزق الشيخ الأوحد، كان للشيخ موارد إضافية أُخرى، فرقة المنشدين مثلاً، التي يقودها العريف، فالشيخ لا يسمع بولادة أو ختان أو عرس (وكان عنده مخبرون في جميع أحياء البلدة) إلا ويصدر أوامره إلى الجوقة الغنائية بالتوجه إلى بيت الفرحة.. فيذهبون رتلاً غير منتظم لا من حيث المشية ولا من حيث الزي، وقد يكون بينهم من يرصه حذاؤه فيخلعه، أو من قد لا يكون في قدمه حذاء أصلاً فيذهب حافياً، والعريف لا ينقطع عن الصياح، «امش على المضبوط يا ابن الكلب أنت». أو يشرع ذراعيه ويهوي بها على رأس أقرع هنا، وقذال لم يقص شعره منذ أسابيع هناك، وترتفع أصوات الأحذية ذات المسامير، والحناجر التي تتمرن على «النشيد».. حتى يصل الموكب إلى بيت الفرحة، وكان لكل فرحة نشيد المولودة الأنثى لا تدخل في قائمة الأفراح، وأما المولود الذكر فله نشيد طويل مكتوب على عصابة من الورق طويلة، ينشرها العريف، وتحفظ عادة في صندوق الشيخ تحت القفل، وأول النشيد هكذا، العريف يصرخ:

سلام سلام　　عليكم سلام

جينا لنهنيكم　　بهذا الغلام

أجمل يوم　　وأسعد عام

كل شطر على حدة، والجوقة تعيد الشطر صراخاً فظيعاً.. صوت طالع وصوت نازل، صوت دافئ وصوت مقرور، صوت شبعان وصوت لم يفطر

صباحاً.. والأعين جاحظة من شدة النفخ خوفاً من العريف الذي لا ينفك، مع استمراره في الإنشاد، يوزع النظرات الشزراء وصيحته القاصمة: «شدُّوا» والأولاد يشدُّون حتى تنقلب سحناتهم الصغيرة العجفاء وتنحسر الابتسامة التي يشدد العريف عليها دلالة منّا على المشاركة في فرحة نساق إليها بالعصا، فرحة لا ناقة لنا فيها ولا جمل... وتكون الأم في الفرشة، وأحياناً في تخت خشبي مصنوع من باب دار قديم ركز على حجرين.. وأما الأب فهو في صحن الدار يختال مثل الطاووس، ويتحدث بصوت مدوٍ، والداية (القابلة) ضاحكة السن، تدحش في سراويلاتها كل ما تصل إليه يدها من أُعطيات نقدية وحلوى والسراويلات التي تستر حتى رسغ القدمين تقول: هل من مزيد!

والهبات التي تعطى للمايسترو (العريف) يستقر أكثرها في كيس الشيخ، إن العريف عادة، عريفنا نحن مثلاً، من اهل الشيخ الأقربين وقد يكون من المقربين الموثوقين، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون ذا طمع بمال الكتّاب، مال الشيخ، قد يفكر بأنه هو اليد اليمنى للشيخ، عصاه، حرارته في «الشدّ» بالنشيد التي جعلت أهل الفرحة يزيدون حلوانهم.. ولذلك يحق له أن يعرق من الأُعطية ويخبئ في جيب سرواله.. ولكني أُلح على أن أكثر المنحة يستقر في كيس الشيخ الحذر، لأن استخباراته أولاً وتقديراته الخاصة عن أصحاب الفرحة ثانياً تجعله أقرب إلى الدقة العلمية في حساب الحلوان، وبديهي أن كون المولود الذكر وحيداً بعد خمس بنات، أو بكراً، أو ثانياً، أو ثالثاً، يلعب دوراً مهماً في موازين الشيخ..

-٤-

منذ أيامي الأولى في كتّاب الشيخ عقابية بدأت أتبين أن سكان الكتّاب، رعيته، يمكن تصنيفهم في طبقتين: طبقة «أولاد المكتب» يعني أولئك الذين جاؤوا إلى الكتّاب من المدرسة لقضاء الفرصة الصيفية وحدها، مثلي، وطبقة أولاد الكتّاب الأصليين، الوطنيين!

صحيح أننا، نحن أولاد المكتب، كنا قد عرفنا صنوفاً من التعذيب على أيدي معلمينا، كنا نُضرب، نقف على رجل واحدة في إحدى زوايا الصف، يهوي حسين أفندي على خدودنا بالصفعات، نحرم من الغداء فيتحنن علينا رفاق الصف أو الأقرباء وأولاد الحارة بكسرات من الخبز ترمي إلينا على خشية ومحاذرة.. ولكن المدرسة النظامية أفهمتنا أن للتلاميذ بعض الحقوق في الأقل، فنحن لا نخدم نسوان معلمينا، ولا نشتري شيئاً من السوق لأحد، صحيح أيضاً أن جدول الضرب بعبع حقيقي، ولا سيما إذا راح المعلم يتفاصح، ويخربطك في ترتيب الأسئلة، فيسألك ٧ في ٦ عوضاً عن ٦ في ٧!.. في حين أن الشيخ عقابية من هذه الناحية مرتاح ومريح لأن الحساب يدخل في العلوم العصرية.. ولكن، في أواخر السنة المدرسية المنصرمة، حكى لنا ولد كان أبوه موظفاً في حلب أن الضرب في المدارس هناك صار ممنوعاً، وأن المعلمين يخبئون عصيهم وخيرزاناتهم في درج المنبر، تحت القفل خوفاً من المفتش.

على أنه، حتى ولو اعتبرنا أن الضرب في الكتّاب والمدرسة واحد تظل المدرسة شيئاً، ماذا أقول؟ شيئاً له هوية، فالمعلم إنسان درس في المدرسة الابتدائية ثم انتقل إلى التجهيز، وأخيراً إلى دار المعلمين إلخ...

وأما الشيخ فقد كان نظامه لا يسمى، إنه شيخ ولكنه لا يصلي، معلم ولا يعلم، يتظاهر بالزهد واحتقار المال ولكنه يغلي حقداً على أصحاب الخميسيات القليلة.. أضف إلى ذلك هذه الابتسامة المصنوعة المنافقة أمام أهل الأولاد، وأما لنا نحن فالمساس والفلقة والمسبات الرذيلة!

بذور الثورة بدأت بيننا نحن «أولاد المكتب» على عسف الشيخ وعريفه، على إثر حادثة:

ذات يوم غاب الشيخ بضع الساعات الأولى من الصباح، وحل محله حميد العريف، لم يكف المساس عن العمل، كان شغالاً طوال فترة ولايته،

يخرب بيته، أفظع من رئيسه هذا الشاب «المعقود كلب وديب» على حد التعبير عندنا في البلدة، لا تقول إلا خنزير معلوف سنة كاملة، والسبب، والشتم.. برهان رفيقي كان يقرأ «والضحى والليل إذا سجى» فلفظ الضحى بإمالة «والضحى» (علمت فيما بعد أنها صحيحة إحدى القراءات) وإذا حميد يأمر زبانيته برفع رجليه، وبدأت الفلقة، عشرين ثلاثين عصا، قل أكثر، شغلني منظر عينيه، ابن الكلب! كان يقطر منهما تلذذ تراه في عيني الأكول النهم وهو أمام خروف مكتّف.. ولما تعب من الضرب تناوله برفسة على ضلعه!.

وجاء الشيخ عقابية وبرهان لا يزال يبكي وهو ممسك بضلعه فسأل الشيخ عن السبب:

- ليش عم يعوي مثل السلوقي، فيه أحد داس على ذنبك؟، قل، ابن المكتب!

وارتفعت بضعة أصوات باكية هنا وهناك ولكني قمت أنا أُلخص الموقف مشيراً إلى العريف:

- ضربه مئة عصا!

فهزَّ الشيخ مثل الضبع وكشر عن أسنان بيضاء، نضيدة، تطحن، الله وكيلك، خروفين قبل أن تجد الوقت لقولة بسم الله:

- وأنت من وكلك عنه يا حمصة الكي؟ حميد، هات الفلقة واحزم لي الاثنين، كل واحد رجل.

وعاد «الأصيل» إلى مزاولة العمل الذي قام به الوكيل خير قيام، ولكن كان واضحاً أن الأصيل أشدُ عراقة وتمرساً!

لست أدري ما أصابني، شعرت أن دفقة كالرصاص المنصهر تطفُّ إلى حلقي حتى تكاد تخنقني، دفقة خفق فيها البعض بالمرارة بالثورة، لم يكن

الوجع الذي يقفع القدم ويتشعع في الرجلين كلتيهما هو الذي أصعد هذه الموجة القادرة العارمة، صحيح أن للوجع الجسدي فجأة تسلمك إلى الصياح والبكاء أو إلى الجنون ولكن ما شعرت به يومئذ وأنا لقى تحت سياط الشيخ كان له طعم آخر، ما هو؟ لعله هذا الشعور الخفي المتدفق في سراديب عميقة كانت لا تزال بكماء أن ليس من حق هذين الإنسانين الانفراد بالتقييم، ولا سيما هذا التقييم الذي ينتهي إلى إهانة كل تلك الدماء المتدافعة، مثل أمواج الألحان، في أجسادنا الغضة... ولا بد أن استسلام أولاد الكتاب الأصليين وانسجامهم، كثيراً أو قليلاً، مع الظلم المقيم زادنا ثورة.

وكان بيتنا يقع في زقاق «الأرحب» والشيخ عقابية يسكن غير بعيد في الزقاق «المعوج»، ذلك اليوم ذاته اجتمع أولاد الحارة، وبينهم برهان وأنا، تحت قنطرة بيت ريمة وقررا الانتقال إلى العمل حالاً.

أولى غزواتنا قررها خبر جاءنا أن أحد أولاد الشيخ يلعب كل يوم بعد الظهر على البيدر الشمالي ولا يعود إلى البيت إلى بعد المغرب..

كمّنا له أنا وبرهان، ومع كل منّا شملة اتخذناها لثاماً وما أن أطل حتى وثبنا عليه في هجمة خاطفة، مثلما يجري في حرب العصابات، وهرّأناه تهرئة بالخيزرانة والكفوف والرفسات، كان أكبر منا قليلاً، ولكنه عبل، قوي الملعون، غير أن الدلال أو المفاجأة جعلته يصأى مثل الجرو.. كل الهجمة لم تطل أكثر من دقيقة، ولكن، أي ظفر! وأي حضيض بلغة إرهاب الشيخ وسمعته.. نظامه!

في اليوم التالي همسنا بأخبار غزوتنا إلى أحد الرفاق الموثوقين في الحارة الشرقية فضحك وأخبرنا بهمس آخر أنه رفاق حارته فعلوا شيئاً يشبه غزواتنا مع إحدى زوجتي الشيخ: حصبوها بالحجارة وشرطوا لها ملاءتها..

وأما في الحارة القبلية فقد حاربه رفاقنا حرباً اقتصادية، ألفوا جوقة، من معارفهم الأولاد الذين لا ينسبون إلى أي كتّاب، كانت هذه الجوقة تسبق فرقة الشيخ إلى الولادات فإذا جاءت هذه تأفف أهل الفرحة ولم يجودوا بأكثر من قرش أو قرشين فضيين حتى ولو كان المولود بكراً...

-٥-

بعد بضعة أيام غزونا، برهان واثنان آخران وأنا، غزوة أروع، لاحقنا الشيخ وهو ذاهب إلى قهوة ابن هدهد في سوق الخضرة لحضور الكركوزاتي، قطعنا عشرات السطوح ونحن نتكبكب بتنكة طافحة بماء الجلي، كان علينا أن نكون على غاية من الحذر خوفاً من أن يحس سكان المنازل التي كنا ننط على سطوحها.. إنهم قادرون على الصياح «حرامي، حرامي» فتتجمع البلدة علينا، ولكن إعداد غزوتنا في أوائل الليل ساعدنا على عدم لفت النظر إلى زحفنا السطوحي.. وكان برهان هو الذي يسبق حَمَلَة تنكة الماء، نحن الثلاثة من سطح وينبئنا بموقع الشيخ منا على الضبط، سلاح استكشاف لا ريب فيه، ولما صار الهدف في مرمى قذيفتنا وتأكدنا من الإحكام صببنا التنكة دفعة واحدة على رأسه..

وبدا الشيخ في اليوم التالي، كأنما شُلَّ تفكيره، لم أكف عن مراقبته والضحك في نفسي، ضحكاً كان في بعض اللحظات يكاد يغلبني، يفضحني، فأطلب الإذن بالخروج.. وأُرجح أنه لم يشك بنا في بداية هذه الحوادث التي انهمرت عليه متلاحقة ملّحة.. كيف يشك؟ ألسنا ملكه؟ ألم يزرع في قلوبنا الخوف ويطمئن إلى طاعتنا، إلى أننا نحب عصاه وعصا نائبة! ومع ذلك فقد خيّل إلي بعد بضعة أيام أنه خرج من غفلته قليلاً، كان يتكبش على مصطبته ويحدق فينا واحداً واحداً، وحتى تكبشه خيل إلي أنه ليس إلا امتداداً لعتوه السابق، إنه، على الرغم من المظهر، مشعوب متصدع!

وغداة سكب الماء القذر عليه، بعد أن استعرضنا، توقَف طويلاً عندي، كنت أراه على الرغم من تظاهري بالانهماك في القراءة.

وصاح:

- مصطفى الزير.

تصنعت أني لم أسمع، وازددت صراخاً وأنا أفتح فمي حتى آخره «تبارك الذي..».

فصرخ مرة أخرى بصوت مقلوب:

- زيز!

- بسم الله.. نعم شيخي!

- تعال إلى هنا..

- قمت متأدباً وديعاً، كان قلبي يخفق، ولكني وفقت إلى رسم ابتسامة إذعان واستسلام على وجهي.. وأما هو فرشقني بعينين كالنصل:

- قرِّب.

دنوت منه:

- نعم شيخي.

- تعال.

خطوة خطوتان، ثلاث، طق، طق، طق، الكتاب يمسك بأنفاسه، انقطعت القراءة، يمامة في الطاقة العليا هدلت، «وحدوا ربكم.».. إنها تقول وحدوا ربكم، هكذا تقول أمي: «يا سعد النمامات[1] التي في الزاوية!».

- عجّل، شو ماشي على بيض.

وصلت، فأمسكني من قبة جلابيتي وجذبني إليه وراح يشمني شماً عميقاً.. ما أقل عقله!. ما عسى أن يشم مني في هذه الغرفة المحبوسة الهواء؟!

- روح لمحلك!

بعد قليل انصرف العريف بناء على أمر الشيخ إلى بعض شؤون هذا في السوق أو عند السنكري... وأغفى الشيخ على بعاق آلة القراءة المربوطة، الحزينة بعض الشيء.

كان هذه المرة، يفتح فمه على المصراعين.. ولمحت ذبابة فضولية أو اثنتين تدخلان وتخرجان كأنهما في عرس، في تعليلة!

---

(١) في دمشق يسمونها ستيتيات.

أحسست أن الرغبة التي تملكتني لا فكاك منها، صارت أكثر من ثلاث ذبابات يمرحن وإذا أنا أقوم، خطوة، خطوة، وأُمسك شفتي الشيخ، من فوق ومن تحت، في اللحظة التي كان فيها الذباب، في الداخل.. وأكبس! لم أكن أُدير للأولاد ظهري، ولكني أرزم شفتي الشيخ بالإبهام والسبابة وأُعرض المشهد على الرفاق..

لعله كان يظل نائماً لو لم يوقظه الضحك، على الكردي، هذه العادة فيه سيئة، إنه يدق الأرض برجليه عندما يضحك.. وهو يجلس على حافة المصطبة الخشبية، وهكذا ارتفعت ضجة توقظ ميتاً، وأنا لغبائي، أزداد تشبثاً بالشفتين السمينتين وأنظر إلى الأولاد نظرة انتصار، راح عن ذهني بتاتاً أنه قد يفيق!

وأفاق، آه يا رب، قامت القيامة وفار التنور... وصل به الأمر أن دق لي رأسي بالجدار، ولم يبق في جسمي موضع سليم..

وذهبت إلى البيت، أذكر ذلك كأنه الأمس، وجلست على الطبق آكل مع الأسرة ولا أجرؤ على الشكوى أو البوح إلى أحد، وبدرت مني نظرة إلى أبي الذي لم يكن يضربنا أبداً، وقلت في نفسي أُخاطبه معاتباً. «أهكذا تسلمنا إلى هذا الظالم البليد الفظ!».

* * *

رحلة جداريه

نظرت إلى عداد الساعة، كان يطف فوق المئة، ورفعت عيني إلى السائق، ربعة، ضيق الجبهة، لم يتجاوز الخامسة والعشرين، لوحته الشمس، وأما شعر ذراعيه، اللذين انشمر عنهما قميص ناصع البياض، فكانت تخالطه شقرة هي من فعل الزيت وشمس البحر حتماً.. هذه السرعة، بسيارة «فولكس فاغن» صغيرة، تقبض على القلب قليلاً، ولكن نظرة تبقيها على السائق وهو مستقر وراء مقوده، شديد الثقة بنفسه يعلك المسكة.. تخفف من ثقيل قلبك، من هو هذا السائق؟ لقد تلفنت من الفندق في اللاذقية إلى شركة سفريات فقيل لي أن أترك لهم رقم هاتف الفندق فقد يستطيعون إن يدبروا سيارة خلال ساعة، وتلفنوا بعد قليل فذهبت إلى مكتب الشركة وإذا هذه السيارة الخصوصية الصغيرة.. السائق، بنطاله الحريري الحسن الكي، السلسلة الذهبية ذات المصحف في عنقه، الخاتم الذهبي الضخم وفصه من الحجارة الكريمة.. كل هذا ينم عن يسار. ولكننا دفعنا أجرة، عشر ليرات، وانتحى موظف الشركة بالسائق ناحية، وأُخرجت عملة وأُدخلت عملة وجرى همس.. إذن قبض الأجرة هو ودفع عمولة مثله مثل أي سائق محترف يعيش من مقود عربته!.

وفتل زر الراديو فانطلقت مغنية بأغنية مستحيلة تتكلم على زعل حبيبها الأسمر، في البعيد ينطلق باص، بقدر ما يسمح هذا الطريق الساحلي، المخرب في مواضع، لتلك الشاهقة الهادرة أن تنطلق.. ولم نلبث أن بلغناه، بقي بيننا حوالي مئة خطوة لما لف كوعاً مخبأ، المفروض أن يخفف سائقنا السرعة لأن الكوع ينتهي، كما كان عليه أن يعلم، بجسر ضيق، وخفف،

ولكن أقل مما ينبغي، فلما بلغ الكوع وجد أن الباص أمامه قد توقف، كانت الصدمة حتمية لولا أنه، في مثل لمح البرق، دعس على المكبح وفاصل السرعة كليهما، وتوقف على بعد خطوتين من مؤخرة الباص، كاد يدخل فيه، قال معتذراً:

- ما خطر لي أنه وقف!

وعاد يفتح الراديو، أغنية أخرى تصف (الصراع) بين عاشق وعواذله!

بعد طرطوس شممت رائحة احتراق، توقفنا، فتح صندوق المحرك في الخلف فثار في وجهه دخان كثيف، قال:

- ما فيه شي، خرقة أسد بها مستودع الزيت.

ونتر الخرقة وتابع سيره، قلت:

- أين غطاؤه؟

- ضاع.

بعد بضعة كيلومترات سمعنا صوت معدن يتدحرج على الإسفلت. مكبح، كانت طاسة الدولاب الخلفي الأيسر قد انفصلت وظلت تتدحرج حتى نطت على الطريق الإسفلتي واختفت بين الأعشاب، وهرع أولاد نحونا، قال لهم السائق مشجعاً:

- فتشوا لي عنها.

ركضوا، بعضهم في الجهة اليمنى وبعض في اليسرى، كانوا حفاة إلا واحداً يلبس حذاء ضخماً قديماً أكبر من قدميه، ورحت أنا أطوف حول السيارة، ما عسى أن يكون الطارئ المقبل؟ لفت نظري أن خلف السيارة قشور بيض، وتذكرت أني رأيت قشوراً في الموقفين السابقين، خلف السيارة أيضاً.. وقد استغربت، واستبعدت أن تتكرر المصادفة ثلاث مرات.

وعاد الأطفال بالطاسة فركبها السائق واستأنف السير، أخرجت علبة دخاني ووضعت سيكارة في فمي فشغّل هو قداحة السيارة الكهربائية، قدمت له سيكارة فقال:

- شكراً، أنا لا أدخن.

وأضاف بعد أن أشغل لي:

- كنا ضيعنا الطاسة، حقها عشر ليرات، شو تفو عليها!

صمت.

وعاد يقول:

- أنا لا أحب هذا الطريق، أنا عادة أسافر بالطائرة، من ثمانية أشهر ما سافرت بسيارتي.

اللهجة شامية، سألته:

- ماذا تعمل في اللاذقية؟

- أنا عميل جمركي، هذه السيارة خفيفة، إذا كان السائق وحده تعذر عليه أن يلف الكوع بسرعة، قلت في نفسي: أمر بمكتب سفريات المتوسط، صاحبه زبون من زبايني، وآخذ لي رفيقاً أضعه قربي.. قام عرض علي أربعة، قلت في نفسي: أعوذ بالله! ركاب بالأجرة؟ والله لا أعود أخلص من ألسنة الناس...

قلت مدارياً:

- ما فيها شي كل الناس تعملها، في أوروبا يعملونها.

كذب، تذكرت (الأوتوستوب)، أسفار طويلة يقوم بها الطلاب في غرب أوروبا في سيارات الشحن الكبيرة، سيارات الخضار والعفش، من غير أن يدفعوا قرشاً واحداً، وضحكت على نفسي، لماذا أقول: «أأردت أن ألفت النظر إلى المفخرة الوحيدة التي أزهو بها أعني إقامتي في أوروبا بضع سنوات عشت فيها عيشة الكلاب!

وتابع السائق الفتى:

- أي نعم، قلت في نفسي: (خذهم يا ولد، كل الناس تعملها، ولا سيما أن الحال واقف في اللاذقية).

خفق قلبي.. وددت أن أقول له أن كل شيء في هذه البلاد سيتوقف عن الحياة إذا استمرت عبادة صنم التمر الذي صنعه الناس ولما يأكلوه بعد.. على أشدها.. أذ ظل الناس يتعاطون كل أنواع المخدرات من غير أن يمر في أذهانهم نتفه حلم، إذا ظل الأحياء في الأكفان السميكة والقبور المهجورة.. ولكني خفت من محدثي، وخفت من الركاب الثلاثة الصامتين في المقعد الخلفي، جنديين وشاب أشهل العينيين ببدلة أنيقة.. ومع ذلك تساءلت:

- الحال واقف؟

- الله وكيل من أربعة أشهر ما استفتحنا، استيراد ما فيه، الحال واقف تماماً، موت. كل العملاء الجمركيين يسرحون عمالهم. أين تشتغل حضرتك؟

- في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

- شو شغلتك؟

- موظف في دائرة الترجمة.

- تترجم من الألماني.

- لا.

- قديش يعطونك على الصفحة؟

- أنا موظف أقبض راتباً شهرياً، أنا..

وهمدت أصابني ما أسميه الموقف الجداري، هذا الموقف الذي أعانيه عندما أحاول أن أشرح لإنسان مشكلة اللغة المسرحية وإذا أنا أقرأ في عينيه، في ردود فعله، في جملة اعتراضية تصدر عنه.. إنه لا يفرق بين شكسبير والحاج مصطفى هدهد خليلاتي بلدنا!

قال:

- مدير الشؤون في اللاذقية شو اسمه؟ سامي سامي إيش؟

- سامي القاضي.

- أي نعم سامي القاضي، ظريف هذا الشب، الآن هو في الشام، حسين سلمان محله، شوهدا وظيفته عالية؟

- لا بأس، ولكن مركز اللاذقية أعلى مرتبة.

- يعني؟

الموقف الجداري مرة أخرى. وتابع:

- أي نعم، ظريف ولكن ماله شخصية. (صمت) قل لي، دخلك، هذا قانون العمل كيف يطبق؟

- يعني؟

- أنا مثلاً عميل جمركي، كان عندي ولد تركماني، اللغة العربية لا يفهمها مثل الخلق والعالم، ولد لا ينفع إلا لبعض الخدمات الخفيفة، خذ لي هالورقة إلى الدائرة الفلانية، هات معاملة الشحن وقف على التحميل.. أي سيدي هذا الولد وأمثاله اعتبروهم في القانون عمال تحميل، عامل التحميل أجرته الدنيا ٢٤٠، أنا كنت أدفع له ١٠٠، يعني لازم علي أن أدفع له الفروق مدة سنتين كاملتين وفوقها تعويض تسريح حتى يكمل الخازوق.

- ودفعت له؟

- كيف أدفع له، أنا مجنون الكلام في سرك دبرناه، راضيناه بأربعمائة ليرة قام أعطاني براءة ذمة.. لو كان يفهم لكنا.. على قامتي، كلما تصورتها يكاد يغمي علي..

وضحك، وقلت:

- والآن ماذا تعمل؟

- والله الدنيا لا تمشي إلا بالواسطة، أنا دبرت حالي في معمل الخشب المعاكس، هذا أمموه مع الشركات التي أمموها، أي سيدي دبرت حالي براتب ٥٠٠ ليرة أنا وسيارتي، وظيفة مخلص بضائع.

- متى جئت إلى اللاذقية؟

- من ثلاث سنوات، في مدة ثلاث سنوات اشتريت قطعة أرض بستة عشر ألف ليرة، وبنيت فوقها أربع غرف وصوفة كلفت ١٨ ألف ليرة، كنت أحب الشام بلدي، صرت أحب اللاذقية.

قبيل تلكلخ رأينا سيارة دوسوتو صغيرة بمحرك مازوت، خفف العميل الجمركي السير وسأل:

- شوفيه؟

- قال السائق الآخر محزوناً:

- مكسورة معي الأول والثاني، أنا باق على الثالث وحده.

وأوقف العميل سيارته، كان سائق الدوسوتو قد أنزل ركابه السبعة، ونظرنا إلى بطن المنحدر فرأيناهم يصعدون، وهبط السائق إلى آخر المنحدر ثم عاد مسرعاً وفي همته الصعود إلى القمة.

كررها عدة مرات من غير أن يوفق، سائقنا مازال يعلك المسكة إنه الآن يضرب حصى الطريق بمقدمة حذائه ويتلفت حيناً إلى الركاب الذين يتوقلون السفح، وحيناً آخر إلى سيارته راضياً عن نفسه وعنها معاً. أكثر من هذا: على الرغم من تواشجه الظاهر مع سائق الدوسوتو، كان في رنة صوته رضى، وأصبح ركاب الدوسوتو على بعد خطوات منا، فلم أحول نظري عنهم. كان بينهم فتاة ممشوقة بضة الساقين. تركزت عيني على ساقيها اللتين كانتا تؤلفان تضاداً هائلاً مع الديكور الخارجي القاحل. وسمعت صوتاً قربي:

- مرحباً أستاذنا العزيز.

التفت. كان المتحدث رفيقاً لي عرفته في السجن. قضينا ليلة في زنزانة نسبٌ صنم التمر للمرة الأولى في حرية. صحت:

- بديع، يا مرحباً!

وكان العميل الجمركي يعرفه أيضاً. قال له مازحاً:

- تعال اركب معنا.

تذكرت درساً في التجويد أعطاني إياه مقرئ كان معنا في المهجع.

وغمزني بديع وهو يشير إلى الفتاة البضة:

- لا يا سيدي، نحن خلقنا ولزقنا هناك، عند الآخر.

وأشار إلى مؤخرة الفتاة.

وقلت:

- موفق!

وعدنا إلى الهدير. كانت السيارة تخشخش خشخشة خاصة كلما اجتازت جسراً. لعله صوت الريح في درابزين الجسر.

عند الحدود اللبنانية دنا منا رجل جمارك:

- معكم شيء للتصريح في الجمرك؟

قال السائق:

- ما معنا شي.

وقال لي باسماً:

- يظهر أنه جديد في الصنعة.

وقال الجمركي وهو يدور حول السيارة ويتوقف في الخلف:

- افتح لي الصندوق.

فمد السائق رأسه:

- الصندوق قدام.

وعاد الجمركي يطل علينا:

- ما معكم شي أبداً؟

- ما فيه.

وازداد رأسه دخولاً في السيارة. قال مخاطباً العسكريين.:

- شو فيه هنا؟

وأشار إلى كيس ورقي بين ساقي أحد الجنديين. قال هذا:

- بيض.

ودعس. قال:

- تريدون أن نقف في حمص؟

قلت:

- مثلما تريد.

- أفضل أن نستمر حتى لا نضطر إلى السير في الليل.

- توكل على الله.

المصفاة، مدخل حمص من جهة الغرب، مدخل ظليل، ريفي، طري عن يسار محطة نفط تأوي إليها بضعة صهاريج ضخمة. حمص. نساء بالملايات، طالبات مدارس بالصدريات السوداء والشعور ذات الشرائط البيضاء. جبانة، قربها ملعب للأطفال تتأرجح فيه بنيات صغيرات وأطفال هازجون..

سائقنا يتابع السير.

قبيل البريج لاحظ صاحبي أن السيارة «لا تسحب» مع أننا كنا نسير في سهل مثل راحة الكف.

سألني:

- هل نحن في صعود؟

- لا.

- ألا تلاحظ أن السيارة لا تسحب؟

- هذا صحيح.

قال قلقاً:

- شو القصة؟

- لا أعرف.

توقف. فتح الصندوق الخلفي:

- لا حول ولا قوة إلا بالله زيت ما فيه. غريبة والله البارحة وضعت لها ثلاثة كيلوات زيت.

وقلت في نفسي: لعلها توصلنا إلى النبك في الأقل. كنت أشتهي السندويشة الأبدية هناك: لبن مع البيض مع دمعة زيت ورشة نعنع.

وطلعنا في ثقل حتى البريج. سألنا دركياً واقفاً أمام باب المخفر:

- عندكم شوية زيت؟

- لا، كملوا حتى قارة. قد تجدون هناك.

ولكنا توقفنا بعد كيلو متر أو كيلو مترين. قال السائق وهو يتنهد:

- كربج المحرك.

- يعني؟

- المروحة عادت لا تشتغل.

قلت باسماً:

- يعني؟

- يعني في أرضنا.

وصمت لحظة:

- سأذهب لإحضار قليل من الزيت.

الشمس تغيب. تلال جرداء إلا من بعض النباتات القاحلة. حجارة من مختلف الأنواع، بعضها يصلح للرمي اللذيذ على طريقة الرعيان على ضفاف العاصي، وبعض يشبه الأقراص التي ترمى في المباريات الرياضية. جعلت أتسلى بالرمي ثم رحت أتجول حتى وصلت إلى أقدام السفوح الغربية. سكان

المقعد الخلفي الصامتون نزلوا هم أيضاً بعد أن مكثوا دقائق من غير أن يحزموا أمرهم.

عدت نحوهم. الشاب الأشهل عابس، مصقول الشعر، في جيب سترته الفضية الرقيقة قلم باركر. أحد الجنديين شعره محلوق بالماكينة على النمرة صفر، وأما الآخر فكان واضحاً أنه قاوم التعليمات العسكرية واستطاع أن يحتفظ بإصبع أو إصبعين من شعره. وابتعد الشاب الأشهل حتى العمود الهاتفي وتمدد على بطنه وأخذ يرفع نفسه معتمداً على يديه ورؤوس قدميه. وأما الجنديان فقرفصا قرب السيارة على عادة القرويين تحت الجدران. وقلت اسألهما:

- كنتما في مأذونية؟

قال أبو الشعر الأطول:

- أي نعم.

- كم يوماً؟

- ثلاثة أيام.

- متى تنتهي؟

- اليوم الساعة التاسعة.

سنصل قبل التاسعة. المسألة مسألة شوية زيت. نسيت أن أقترح على سائقنا اقتراحاً.

فاستفهم وجه محدثي في براءة. قلت:

- أنا معي، هنا في الصندوق، تنكه زيت زيتون.

- ابتسام خجول. وقلت:

أنتما مجندان؟

- أي نعم.

- من زمان؟

- من شهرين.

ودخل محدثي السيارة وعاد يحمل الكيس الورقي، ووسع حافته وبسط يده به:

- تفضل.

- شو هدا؟

- بيض.

لو كانا من المدينة لملأ لهما أهلهما كيساً من الحلوى، من النقل. قلت:

- شكراً.

- بالله عليك.

وأخرجت بيضة وكسرتها على ظهر السيارة وشرعت أكل معهما.

قلت:

- كيف العسكرية؟

- مليحة.

- تعب؟

- لا يخلو الأمر.

وقال صاحب الشعر الحليق وهو يربط شريط بوطه:

- لو أن المساعد رآني لخرب الدنيا على رأسي.

- شو فيها؟

- عقوبة.

قال الآخر:

- والذقن كل يوم الصبح حلاقة.

وقمت أتمشى حوالي السيارة وأسحق قشور البيض بقدمي. وعاد المدني الأشهل. وجهه لا يعبر عن شيء، ما خلال هذا الجد العابس. ومرت سيارة عسكرية فأوقفها وتسلق الدواسة وقال للعريف الراكب عن يمين السائق شيئاً ثم أطلقه وعاد إلينا يقول:

- مشواره قريب.

قلت:

- أنت مشغول؟

- جداً.

- بددها صبر.

- يظهر أنك ما عندك شغل.

- عندي غداً صباحاً.

- أنا الآن.

وعاد السائق. صب الزيت في المستودع وجلس وراء مقوده. السيارة مثل الحطبة.

عدنا نجلس القرفصاء على عدوة الطريق الترابية متعلقين بأمل. لا بد أن الحال سيتغير ولكن كيف؟ بدا لنا أننا هنا منذ أشهر. عندما ينقطع مرور السيارات كان يهيمن صمت يكاد يكون مطلقاً لا صوت. إنك لا تسمع إلا الصمت. هتفت فجأة:

- انتبهوا.

فتحولت الوجوه الأربعة إلي. قلت:

- ألا تسمعون الصمت؟

وصمتُّ لحظة كأني أشهدهم ثم تابعت:

- هذا الصمت لا تسمعونه في المدينة إلى كل عشر سنوات مرة. صمت يكاد يحتويك، يغلفك، يدخلك في سردابه الشفاف..

وابتسم المدني الأشهل مدة عسيرة:

- أرى أنك لا تهتم لشيء.

- بلى، أنت ترى أني أهتم. ما أجمل كل هذا؟

واقترح السائق مشغول البال:

- تعالوا ندفش حتى رأس الطلعة.

قلت:

- لا بأس، نتابع الرحلة دفشاً!

لقد غلبني الجذل. وانحنينا على السيارة ندفشها وأنا لا أكف عن المزاح. قلت:

- ليلة في الهواء الطلق لا بأس. الدنيا صيف ولكن هذه المنطقة مشهورة بعقاربها وأفاعيها.. قد يكون هذا موسمها الوحيد.

قال المدني وهو منحن على السيارة باسماً:

- أنت شو شغلتك؟

- أكتب قصصاً. أنا حكواتي...

فقال الجندي ذو الشعر الأطول:

- مثل إبراهيم حسن عندنا في الضيعة.

قال السائق مدارياً:

- الدفش مليح لتذويب الكرش.

قلت:

- ولقطع الأنفاس أيضاً.

قال الجندي الحليق في بساطة:

- لو أنك قلت لنا من قبل لكنا قطعنا الآن مسافة مليحة.

قال السائق:

- إذا ظللنا ندفش فمتى نصل إلى النبك؟

قلت:

- المسافة أكثر من عشرين كيلو متراً. يعني مسألة بسيطة.

نصل في الخريف.

قال المدني:

- نيالك ما على قلبك هم.

- ما الفائدة؟

كان الليل قد ملأ السماء وأطلت من خلف إحدى التلال الشرقية قوس ملتهبة تشبه نيران التنور: القمر!.

قال السائق:

- نستريح؟

قال المدني:

- ندفش حتى هذا الضوء..

قال السائق:

- أيش هذا؟

- صيوان عمال على ما يظهر.

وصلنا: برز لنا فتيان أحدهما ببنطال وقميص والآخر بسروال قال السائق:

- عندكم ماء؟

فأجاب الفتى ذو السروال بصوت حفي:

- فيه، حولوا.

وقلت:

- مرحباً يا شباب.

- مرحباً، آهلين. أنتم متعطلون من المغرب يمكن؟

- أي والله.

- شو القصة؟

- المحرك خرب.

المدني والجنديان بقيا قرب السيارة. السائق شرب وعاد يقف معهم. وأما أنا فأخذت الكرسي الواطي الذي قدمه إلي ذو البنطال قدام الصيوان، ظهري إلى الطريق ووجهي يستقبل القمر الذي ارتفع الآن بضعة أمتار فوق ذروة التلة.. كان مصباح بترولي معلقاً بعمود الصيوان من الداخل. ما من أسرّة. لحاف قديم مقطع مفروش على الأرض. خلف الصيوان حمار ينفخ في مخلاة. مجاديف، فؤوس، تنكات، كراسي تهرأ قشها فرفع بخرق خيش وقطع مطاط وجلد. طعنات الخياطة بدائية واسعة. على أحد هذه الكراسي نشر كتاب. قلبته وقرأت. الجغرافيا الإقليمية للبلاد العربية.

وتوقفت سيارة صغيرة في الطريق ثم تابعت سيرها. التفت فلم أر المدني الأشهل. وناديت السائق.

- ذهب؟

- أي نعم.

وخطا خطوتين نحوي:

- همي الآن أن أسفر الجنديين.

قلت للفتى ذي السروال:

- من أين أنتما؟

- من البريج..

بضعة بيوت هذه البريج ومئذنة لعلها أغرب مئذنة في الدنيا. علبة متوازية المستطيلات من اللبن، رثة قصيرة، فوقها سقيفة أكل الدهر عليها. كلما مررت بها فكرت. «لو أني أعيش هنا بضعة أشهر، معلماً مثلاً». ما أشد ما أجهل القرية وأزعمني كاتباً مع ذلك!

وسألت الآخر:

- كم نسمة في البريج؟

وتساءلت: «هل يفهم علي»؟. نحن لا نتكلم لغة واحدة. الضيق اللغوي. ولكنه تلميذ مدرسة وهذا هو كتابه، أبو السروال ينظر إلينا مبسوطاً. صاحبه مثقف قال أبو البنطال:

- ألف، يمكن أكثر.

- أنتما قريبان؟

قال أبو السروال:

- هذا ابن عمي.

- وأنت ألست في المدرسة؟

- درست حتى السادس ثم تركت.

- في البريج مدرسة؟

- حتى السادس.

قلت للآخر:

- وأنت أين تكمل؟

- في النبك.

- تستأجر غرفة؟

- أي نعم.

- أي الدروس أحب إليك؟

- اللغة العربية.

- تحب المتنبي.

- أحبه، هذا أمير الشعراء.

- تحفظ قصيدته في الأسد؟

- قصيدة الأسد؟

- ما رأيك في وحدة البيت؟

موقف جداري.

- هل قرأت شعراً حديثاً؟

- قرأت قصيدة لأبي العلاء..

موقف جداري.

- هل يوجد هنا عقارب؟

قال أبو السروال:

- كثير.

- كيف تتقونها.

- يدبرنا الله.

وتوقف كميون فصعد الجنديان. وأقبل السائق:

خلصنا منهما. أما سفرة. العمى في عمري ما صار معي فصل أخو هذا.

قال أفلحنا وأخذنا معنا ركاباً، دفعنا خمس ليرات عمولة لشركة السفريات، أربع ليرات للعسكريين، ست ليرات ونصف الليرة حق تنكه الزيت.. ولا أعرف قديش بددها تكلفني السيارة حتى تتصلح!

عدنا إلى الطريق، أوقفنا كميونا وطلبنا إلى سائقه أن يقطرنا، كان طويلاً عريض المنكبين، أجش الصوت، اهتم لمصابنا ولكنه أفهمنا أن من المستحيل عليه أن يقطرنا، قد يقع لنا حادث أو يدهس هو على المكبح فتدخل سيارتنا في قضبان الحديد التي يوثق بها كميونه.

كميون آخر، عبث، التاكسيات لا توقف لنا أصلاً، وأخيراً أشرنا، من قبيل فض التعب إلى إحدى السيارات الصغيرة فحيد سائقها إلى اليمين ووقف، كنت أنا أقف إلى يمين السيارة ورفيقي يشرح له الموقف، فلما استوعبه التفت إلى الفتاتين اللتين قربه وسألهما رأيهما، لم أكن أراهما جيداً، ضوء القمر لا يتسرب إلى داخل السيارة ولكن شبح الفتاة الجالسة إلى النافذة كان مليحاً حسن التقاطيع كانت مغناج الصوت وذنب مهر ينوس كلما حركت رأسها وكانتا تستطيعان رؤيتنا، رفيقي وأنا، لأننا كنا في ضوء القمر.

وانبعث صوت نغش من التي تلتصق بالسائق:

- حرام.

قال رفيقي متوسلاً:

- إي والله يا حضرة الآنسة، هذا الذي جرى.

وحلمت أنا بأنهما انتقلنا إلى سيارتنا وبدأ الغزل.

- حرام اسحبهم.

هكذا رددت الفتاة.

ونزل السائق، قالت الأخرى، أو ذنب المهر، في رنة مستطيلة تكاد تذوب:

- ولكن الماما تنتظرنا في التاسعة وعشر دقائق على أبعد حد.

والآن حوالي التاسعة.

قال رفيقي:

- الآن نتلفن لها نطمئنها.

قالت الأخرى:

- حرام.

وقال السائق بلهجة حمصية لا شية فيها:

- إي لُحّ عليهن.

قلت:

- أيأتي من قلب حضرتك أن ننام هنا بين العقارب.

فأطلقنا صيحة رعب مصطنعة.

وذهبت إلى حيث السائق الحمصي ورفيقي وأخرج الحمصي حبلاً من صندوق سيارته الخلفي. وقلت:

- ألست مستعجلاً؟ لن يتسنى لك أن تسير وأنت تقطرنا أكثر من أربعين في الساعة!

قال وهو يغمزني:

- هذا هو المراد، ومن قال لك إني زعلان؟ أنا الداعي أريد لو طالت السفرة حتى الصبح..

وأضاف وهو يرسم بيده أشكالاً في الهواء:

- شيء يذوب ذوباناً مثل الغريبة.

وربط الحبل بين السيارتين وقال:

- أنا ما بدي أشارطكم، أنتم الكرماء ونحن أهل الاستحقاق، فتضاحك رفيقي ضحكة منافقة:

- ولو! مثلما تريد أنت.

وسحب، أربعين أو خمسين متراً، طق، انقطع الحبل، زمرنا، وقوف.

تكررت العملية أربع مرات في أقل من كيلو متر، فطننت إلى أنه قال أنه معه حبلاً، نزلنا قوينا حبل السائق الحمصي الرفيع بحبلنا الغليظ.

قبيل النبك انقطع الغليظ وبقينا على الرفيع، كنت أراه واضحاً أمامي وأضحك، وأما رفيقي فكان يتحدث عن خسارته..

في النبك دنوت من الفتاتين أشكرهما، فقابلتني ذنب المهر ببشاشة، كانت الأخرى تشدها إلى صدرها وتداعب يديهما بهيمان، أضواء استراحة النبك أظهرتهما تماماً، قبيحتين قبحاً رهيباً والزينة صارخة على نحو مبالغ فيه جداً، قالت ذنب المهر:

- تكرم.

- أرجو أن لا يصيبكما وجع رأس من الماما.

وانتهرتها التي في الداخل وهي تشدها إليها:

- كفاية.

وقالت لي زاجرة:

- أين سائقنا؟

في هذه اللحظة سمعت صوت حوار لا ينفك يرتفع غير بعيد من السيارة. ذهبت. كان السائق الحمصي يطلب خمس ليرات ورفيقي يعطيه ليرتين، يضعهما في راحة كفه ويطبق الكف عليهما، مثلما يجري حينما يدفع (الوفا) في حمامات السوق... والحمصي أصابه ما يشبه الجنون:

- ولك أخي من البريج للنبك، ما قلنا لك عشر ليرات ولا عشرين، أقسم بالله كلفتني الشغلة نصف تنكه بنزين.

ويقول له الآخر ملحاحاً:

- إي صل على النبي، القصة كلها كيلو متر.

- كيلو متر؟ أنت نيتك تجنني، قل ثلاثين كيلو ولا تخف، أنا لا أطلب إلا حق البنزين.

- إي خد لي الآن ها لورقتين..

- اللهم ألهمني الصبر ولك أخي ما بددي عملة، أفرقني..

ومد رفيقي يده إلى جيبه وأخرج ربع ليرة.. كاد الحمصي يهستر هذه المرة من صحيح:

- إي والله سيرة، يا أخي كلمة ورد غطاها أما خمس ليرات وأما مع السلامة، ألله ييسر لك.

وصاحت إحدى الفتاتين:

- يا شوفير.

وقال رفيقي:

- إي كلها كيلو متر.

قلت له:

- ادفع له عيب!

وتركتهما وذهبت آكل الأكلة النبكية الأبدية: خبز وبيض ولبن مصفى ودمعة زيت، كانت عملية السحب لا تزال تنشر في قلبي جذلاً لم يطفئه حتى الحوار الذي جرى قبل قليل، ويظهر أن البائع قد لاحظ ذلك فأقبل علي هو أيضاً في بشاشة، قلت:

- عندك عيران؟

فدنا مني كأنه يود أن يوشوشني ووجهه يعكس اكتئاباً فجائياً:

- أقسم بالله العظيم ومحبتك أنه خلص من دقيقتين ولكن ما تحتاج إليه أنت أنا أعرفه، أنت بدك كأس شاي تقيل، كاس شاي يا ولد مستعجل.

وكنت قد دفعت له ليرة سورية فأعاد لي الباقي فقلت له:

- أعطه للولد.

فقال لي لائماً، محباً، حفياً:

- أعوذ بالله أنت متفضل.

ورحت أطوف في الساحة، الليل بليل، رفيقي ألقى القبض على أحد أصحاب السيارات وبدأ جدال جديد، النبكي يطلب خمساً وعشرين ليرة والجمركي يدفع بادئ بدء سبعاً ثم يصعد ربع ليرة وراء ربع ليرة حتى وصل إلى الخمس عشرة.

- ١٥ ليرة، ولا قرش واحد زيادة.

وتركتهما وتابعت جولتي، لا بد أن المسألة ستطول: عشر ليرات الفرق بينهما! لو أن هذه النبك، لو أن سورية أكثر تقدماً، لكان هنا مصيف يتشهاه الناس.

وصاح بي رفيقي:

- تفضل يا أستاذ.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، وبدأ السحب.. مرة خفف النبكي السرعة فجأة فكدنا ندخل فيه فزمر له رفيقي ونزل وأمسكه من قميصه:

- هذه السيارة لقائد المنطقة، قائد ابن خالتي.

قال النبكي:

- أي شو صار!

- بدك تدير بالك، أنا ابن خالتي قائد المنطقة.

- أي سيدي أعرف، وأعرف أنك ملازم.

وعاد رفيقي بادي الانشراح:

- من قال له إني ملازم؟

- دخلك هذا غاغارين كيف طلع ها لطلعة؟

- طلع.

- أي يعني كيف؟ ما خاف؟

- يجب أن تفهم، قبل أن أشرح لك بعض المفاهيم عن الجاذبية، أنا لست عالماً ولكن..

- أنا لا أنام ما دام فيه حديث.. الذي أريد أن أفهمه كيف تركته امرأته يطلع ها لطلعة؟

لما بلغنا نزول الثنايا توقف النبكي وفك الحبل فأخذنا ننحدر حتى مفرق أبي الشامات، ولما توقفنا عاد النبكي فربطنا وقال له رفيقي:

- بدك توصلني للزبلطاني، هناك كراج الفولكس فاكن.

قلت:

- وأنا؟

- تدبر حالك؟

- وتنكه الزيت الحلو التي معي؟

- أتركها لك في السيارة.

كاد يصيبني ما أصاب الحمصي:

- هذا جزاء انتظاري إياك وإلحاحي على البقاء معك.

وعدت لا أكلمه، ونويت أن أرغمه على المرور من أمام بيتي!

* * *

السالفة

موظف الري جالس وراء مكتبه جلسة هانئة: إنه ينحرف عن المكتب لا يوليه إلا الشطر الأيمن من جسمه، حتى أن الداخل الذي يجب أن يواجهه مواجهة، لا يرى منه إلا صورته الجانبية.

الساق على الساق، وعلى حرف المنضدة، وفي متناول يده تماماً فنجان قهوة لا تزال أنفاس منه واهنة تتصاعد، ثم لا تلبث أن تتبدد فلا يظهر منها شيء، الفنجان على حلقة من الورق المقوى ملونة بالأصفر، كتبت عليها كلمة دعاية لشركة طيران، وقربها منفضة استندت إلى حافتها سيجارة أشعلت منذ قليل، دخانها يرتفع في خط يبدأ مستقيماً متأوداً ثم يتجمع في غمامة خفيفة عند النافذة، صوت المؤذن في مئذنة الجامع المشرفة، معولاً ثاقباً، يلهوج آخر كلمات أذان الظهر، ولكنه لا يتعدى الوصيد من أذن الموظف.

لقد أنهى منذ هنيهة، معاملات اليوم، وهو الآن يتصفح جريدته تصفحاً.. فلا يهتم للمقالات والأنباء الجدية، وربما تسره الصور والأخبار الخفيفة، مارلين مونرو أجهضت مرتين وهي تتمنى أن تنجب ولداً يملأ حياتها بالسعادة الحقيقية!

الباب الموارب يفتح بقوة حتى يصدم الجدار، وترتفع في الغرفة قرقعة حذاء ثقيلة، فيحوّل الموظف عينيه عن الجريدة إلى ناحية الباب كان الداخل بدوياً بعباءة متسخة، ولحية صغيرة، وأنف دقيق وعينين براقتين، من تحت الكوفية سقطت طرتانا سوداوان على الجبهة المتثنية، المنكبان العريضان لا تخفيهما العباءة الرثة.

- قواك الله يا ابن أخي.

فيجيب الموظف منبسط الأسارير:

- الله يقويك بالعافية، تفضل.
- الله يزيد فضلك.
- أمر؟
- أستغفر الله يا ابن أخي، لا يأمر عليك عدو. أبغي أسألك عن سالفتنا؟
- سألفتك؟
- أي بالله.
- أي سالفة؟
- سالفة البئر، أنت تعرفها.
- أنا؟ لا والله.
- كيف لا تعرفها؟ أنا جئت عندك من مدة شهرين، ثلاثة، وراجعتك بها.
- طيب، افرضني نسيت، ذكرني.
- طلبت رخصة بير.
- اسم حضرتك؟
- نواف ألمحمد.
- نواف ألمحمد، نواف ألمحمد، هم.. رّفض.
- ايش يعني؟
- يعني لا نعطي رخصة.
- ليش؟
- ليش؟ تصور أننا سمحنا لكل طالب حلال، عفواً طالب بئر أن يركب محركاً له حلق مثل حلق العفريت في الحكايات، يروح يشرق الماء من الأرض.. ماذا في رأيك يكون من أمر المياه الجوفية التي تستمد من المطر، والمطر قليل هذه السنوات؟

- أي بالله يرحم والديك، المطر قليل.

- يعني المياه الجوفية قليلة.

- ايش يعني مياه جوفا نية يا طويل العمر؟

- الماء الذي تخرجه بمحركك، من أن يأتي؟

- من عند الله.

- ما اختلفنا، ولكن أصله؟

- من الأرض.

- وأصل الأصل؟

- والله ما أدري، أنا ما أدري، آني لا أقرأ ولا أكتب.

- أصله من المطر.

- بدك الصدق؟

- قل.

- أعرف.

- إذن لماذا تتجاهل؟

- والله يا ابن أخي أنا يحظر لي أنك كريم ابن كرام، ويقولون إذا كان الكذب ينجي الصدق أنجى وأنجى.

- نعم.

- آني في أبواب الحكومة، البهيمة تفهم أكثر مني.

- فهمت عليك.

- يرحم والديك، هدا آمن.

- داهية!

وصمت الموظف لحظة ثم أضاف وصوته قد ازداد حفاوة:

- والآن احك لي قصتك.

- تكرم.

قالها البدوي وأخرج من عبه مخططاً أزرق وسحاً مدعوكاً كسرّه طول النشر والطوي، ومد يده به فانحسر كم سترته وبان قميصه مدعوكاً متسخاً أيضاً له زر أزرق فخيط بخيط أبيض.

كان المخطط تقريبياً: «قطعة أرض مشار إليها بالخطوط المائلة، عن يمينها نهير صغير وعن يسارها نهير آخر واستمر البدوي يقول واضعاً إصبعه السمراء ذات العقد على قطعة الأرض المحبرة»:

- من هنا أرضي.

- ملكك؟

- الملك لله، مستأجرة.

كان طول عمره راعياً يسرح بقطعان الناس، ثم بقطعانه الخاصة، يعرف النعجة التي توشك أن تضع حملها من وناء أخفي في نقله ساقها، ويكمن للذئب في الليالي الباردة، يجزُّ الصوف في تلطف حلاق السيدات الصناع. لم يكن راعياً عادياً. الراعي عنده دنيا غنية فالنعجة نعمة.. تشتريها هذه السنة فتعطي حقها بعد بضعة أشهر إذ تهدي إليك حملاً صغيراً لا يلبس أن يباع فيسدد ثمن أمه، وأما السمن والزبد والحليب والصوف، كل هذا فائض حلال.. المرعى نفسه يحب النعجة، حينما نسرح في القطن تمشطها أعواده.

وسال الموظف:

- هل أنت متزوج؟

- ثنتين.

- اثنتين.

- أي بالله.

- وعندك أولاد؟

- بركة الله.

- يعني.

- أربعة عشر؟

وشرد فكر الموظف إلى مارلين مونرو وليس يدري لماذا، قال:

- كثير، ما هو كثير؟

لم يعترف نواف بكثرة هذا العدد، خير الله كثير أيضاً: والأولاد يسرحون مع القطيع، ويأكلون من ثمراته الوافرة، ومنى يبلغ الولد سناً معينة يصبح نافعاً لعمل من الأعمال سواء في الرعي، مهنة نواف الماضية، أو في الزراعة، مهنته الآن بعد أن هلك الجفاف أكثر الماشية، الأرض نعجة، يمكن أكرم، إن برها يفيض على كل أحد، لا تفرق بين العصفور الدوري والحرباء والسخلة والأولاد الصغار ونواف ذاته.

وسأل الموظف مهتماً:

- ألا تختصم زوجتاك؟

- ايش يعني؟

- يعني تتقاتلان.

لا، إنهما لا تتقاتلان، والحقيقة أن نواف لم يكن في نيته أن يتزوج على أم خلف والأولى، ولكن حادثة معينة اضطرته إلى ذلك، كان هذا منذ سنوات، أيام كان يرعى أغنام أحد أصحاب الأرض الموسرين، حوالي أربعمائة رأس، فيها تسعة أكباش أو عشرة ومريعان.

قال الموظف:

- ما هو المرياع؟

المرياع كبش خصيّ يعلمونه أن يتبع الراعي وحماره أينما توجها، وكان القطيع متعباً، ولكنه كنز حقيقي تفيض خيراته على كل الناس، بيد أن

الأولاد من أم خلف كانوا أصغر من أن يعول عليهم في رد الغنم عن الزرع أو حلب النعاج أو خض الحليب، وكان لنواف أخ أكبر يضرب في مكان ما من الصحراء، ولكنه معدم فأرسل نواف في طلبه وأشركه في رعي القطيع وزوجه من بنية حسناء في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من قبيلة مجاورة.. والبنية التي في هذه السن مثل النعجة التي تطلب الكبش! ولكن أخا نواف، الذي كانت له كل مظاهر الفحل وإذلاله، لم يكن كبشاً.. كان مرياعاً فهربت النعجة الصبية، راحت تشمم رائحة الفحل في قطيع آخر.. وبلغ نواف الخبر فلحق بها و.. أعادها إلى القطيع راضية، قريرة العين قلم تغادره منذ ذلك اليوم قط!

أي بالله يا ابن أخي، النسوان لا يتقاتلن إلا إذا كان كبشهن من أنواع المرياع، إن أبا خلف يقول هذا وهو يكفكف من كوفيته في زهو خفي طلي، هذه الرجولة المدله، ككل رجولة تنطوي على السماح، وهذا ما أهاب بأبي خلف أن يجعل من زوجتيه بيتاً يعني خيمة مستقلة، على الرغم من وفاقهما!

كان أبو خلف يتحدث في فيض ملون، مصوّر، كالحقل المزهر من الكلمات البدوية التي لا يفهمها الموظف كلها فيستوقفه ويسأله تفسيراً، وهو في رغادة ما تفتأ تطفو على وجهه فتغمره حيناً وتغيض حيناً فيحل محلها فصول طفولتي بهيج، وامتدت يده إلى زر الجرس فجاء الآذن، فطلب إليه فنجان قهوة لأبي خلف، ولم يبد على نواف أنه على عجل من أمره، لقد استغرقته قصة أيام كان راعياً وخيِّل إلى السامع أنه لن يعود إلى سالفة الأرض والبئر أبداً، والواقع أن الموظف هو الذي ذكره بها:

- وسالفة الأرض؟

- أي بالله.

وعاد إلى مخططه، لقد استأجر قطعة الأرض المشار إليها بالخطوط المائلة وسقاها بما (أخذه) من ماء أحد النهرين حتى نما الشوندر السكري وترعرع واستوت أوراقه خضراء كالأمومة.. ثم ضربت فيها عروق صفراء

فاندفعت الأسرة تنبش عنه وتجعله كومات كومات وآن أوان نقله بالكميونات إلى مصنع السكر، وكان للعربات طريق تمتد مع تخوم أرض جار من أصحاب النفوذ، غير أن هذا المنفذ فلح الطريق وضمها إلى أرضه، فلما أقبلت السيارات أوقفها، ورفض الاعتراف بحق ارتفاق مستأجري الأرض فيما وراء أرضه..

والموسم قاعدة، دم قلبنا وضعناه في الأرض وسقيناه من عرق الجبين، يا مرحوم ألبي خلنا ثمر، لا بالله. إنه لا يدع أحداً يمر من أرضه! ما العمل؟

نزل أبو خلف إلى الشام وأقام الدعوى عليه، دفع رسم الدعوى خمساً وعشرين ليرة ووكل محامياً.. وجاء يوم الجلسة فحدّق الحاكم في الأوراق وغمغم كلاماً غير مفهوم، وسأل أبو خلف محاميه عما يقوله القاضي فأجابه أن الجلسة تأجلت، يعني ذهبت النفقات سدى! يجب الانتظار ودفع نفقات جديدة! وآن أوان الجلسة الثانية. قال الحاكم يجب أن تدفع خمساً وثمانين ليرة أيضاً، ليشي يا مرحوم ألبي؟ قال: أجرة كشف، يعني أن المحكمة ستذهب إلى الضيعة وتنظر في صحة دعوانا أن الجار قد اغتصب الطريق، إذن لماذا خلق الله المخططات؟ قلت للمحامي: أجل، وخرجت معه، ومن سالفة إلى سالفة سألته سؤالاً واحداً:

- إيش سألته؟

- قلت له: قتلة الرجل، قتلة على كفيك تسوى كم يوم حبس؟

قال الموظف مستفظعاً:

- أعوذ بالله، تقتله؟

- لا مثل ما تقول اضربه.

وأجاب المحامي أن «دعسة مليحة» ترض عظام الجار المشاكس لها تعرفه محدودة في قانون العقوبات: ستة أيام أو سبعة.. ولم يستزده أبو خلف، ركب الباص وطار إلى القرية إلى الجار لتوه، و.. أين يوجعك وأين لا يوجعك.. «دعسة مليحة» تماماً رضت عظام الرجل وأقعدته عن منع

السيارات، فهدرت هذه وراحت تقوم وتقعد فوق الأرض المفلوحة حتى وصلت إلى تل الشوندر السكري في أرض أبي خلف.

وفي السنة الثانية زرعنا قطناً، وما أن أقبل الموسم وتكدست الأكياس حتى شمر أبو خلف عن ساعد الجد وتلطف بالجار حتى انفرد به.. فرضّ عظامه من غير أن يسأله هذه المرة إذناً مسبقاً بالمرور، أو يعرف موافقته أو عدمها.. لماذا يسأله؟ أليست التعرفة محددة!

وصمت أبو خلف، كانت عيناه تغزلان ذكيتين ماكرتين ظريفتين بينما كانت حنجرة الموظف تقرقر بضحك متتابع كأنما تصب خمراً من دن، ووجهه يطفح من جذل، وعيناه لا تتحولان عن وجه أبي خلف كأنهما تنظران إلى عجيبة.. وكان أبو خلف هو أيضاً متفتح الأسارير، مد يده إلى عبه وأخرج كيساً طويلاً سحب منه دفتر سيجارة «ورق الشام» وقداحة من الصوفان طويلة كمصران الخروف، وأكبَّ يلفُّ سيجارته في تؤدة متلذذة.. وأقبل صبي القهواتي بصينية نظيفة وفنجان قهوة كبير، وبينما يدور حول البدوي رماه بنظرة ارتفع لها حاجباه وتثنى جبينه الصغير..

والآن؟

الآن باتت القصة أكثر تعقيداً، لم يبق حق المرور معضلة لأن الحل معروف، لا يتطلب طول تأمل وتدبر، كرّة صغيرة يختار الإنسان جزئياتها وهو يمارسها، المعضلة الآن في الماء.. إنه عاد غير قادر على أن يأخذ ماءه من النهر، الحكومة لا تقبل، تشدد، لأن النهرين الأيمن والأيسر موقران بحقوق الناس طوال الساعات الأربع والعشرين من اليوم.. لم يبق أمامه إلا أن يشتري محركاً.. وقد اشتراه من مرآب ملعون الوالدين كتب سند البيع باسم زوجته، المرابية، لست أدري لماذا؟.. وأقساط البيع والفائدة دائبة كلها في سيرها دأب الشمس التي تجري لمستقر لها كل يوم، لا يعيق جريانها الصامت الصارم أن يتمرمر المدينون على سطح الأرض ويتلهوجوا على مليل من نار الهم والكمد.. والحكومة لا تمنح رخصة لتركيب المحرك على

البر، وبذار العصفر والشوندر والقطن قاعد، والأرض يابسة، قال المياه الجو فانية تتضب.!

قال الموظف:

وماذا تفكر أن تصنع؟

إذا شئت الحقيقة فأبو خلف لم يأت اليوم لاستعجال أمر الرخصة، قد يحصل عليها وقد لا يحصل وهو أدرى الناس بمعاملة علقت في دوائر الحكومة.. الحكومة لم تكن على عجل من أمرها يوماً، ليس عندها موسم ولا أوقات بذار، إن خزينتها تغص دائماً، تطفح، وهي تعجز عن أن تحس ذلك القلق الحاد الذي نعانيه ونحن نرى إلى سيقان عشب القمح تختلج في طفولتها، هشة لينة، مثل سيقان الأطفال الرضع.. ونحن نخشى على كل هذه الغرارة الرخصة أن تصدمها ريح باردة، نكاد، لو استطعنا، أن ننزع العباءة عن كتفينا ونلبس كل ساق غض، ندفئه نشده إلى صدرنا.. النبتة الرضيعة مثل الخروف الرضيع، وقد يحيل إليك أن حفيف الأوراق الوليدة ثغاء ناعم رفيع لا ترتعش به حنجرة سخلة وضعتها أُمها لتوها..

إن أبا خلف لا يؤمن بأنه تنكّر لمهنته القديمة، إنه هاهنا، حيث يحتاج الخلق الأعزل إلى رعاية، إلى حماية من الذئب وحيث يحتاج الخلق الأعزل إلى حماية من الظمأ أو السونة..

ويتهانف أبو خلف في ضحكة تحس لها طعم الاعتذار عن ذهابه بعيداً عن الموضوع، عن السالفة، كل مذهب، إنه مطمئن إلى أن الأرض ستشرب، سيسقيها ما من ذلك بد، ولكنه.. يريد أن يفهم كم يوم حبس ثمن «الأخذ» من ماء النهر! والله يا طويل العمر إذا كانت السالفة عشرة أيام، عشرين، قل شهر زمان.. والله ما يخالف وأما إذا كانت أكثر.. لا بالله! الموسم يتضرر.. لا، لا تقنعني، لا أقدر!

* * *

مجنون سنيـة

لم نكن نعرف له اسماً، درج على ألسنتنا أن نسميه «المؤجر» وأحياناً «مجنون سنية»، فقد كان يدخل علينا الغرفة فلا ينظر إلا إلى سنية يتدفق عليها بكلام طويل، بالعربية والفرنسية، من غير أن يرفع عينيه عنها، وأما أنا فلم يكن يقيم وزناً لي، كنت أمازحه، لا أكف عن طرح هذا السؤال عليه: «ألم يئن الأوان لتحكي لي بعض قصصك الغرامية؟» ولكنه لا يجود علي بأكثر من نظرة من طرف عينيه مائلة مستخفة.. وعلم أخيراً أن سنية على أهبة السفر إلى خارج البلاد، وإذا هو ذات يوم، يدخل عليها من غير تزويق أو أحاديث متدفقة بالعربية والفرنسية، ويطلب إليها مالاً، طلبه بلهجة استعجال وأمر أحرجتها، ورأت يدها تمتد إلى محفظتها فتخرج له «ما فيه النصيب»..

هذه الحادثة كانت، بعد سفر سنية، موضوع نقاش حاد بيننا نحن سكان المكتب، قال محمود في شيطنة:

- ربكم حميدان طلبه المتسلط ذاك قد انصب على المال وحده، ولم تفهم زهراء زميلتنا ما يعني أول الأمر فسألته:

- علام تريده أن ينصب إذن؟

فمال وهو يغمزني:

- المصيبة في المال ولا في الأبدان!

وأنّبته السيدة زهراء ضاحكة:

- هذه غيبة، حرام.

وسرعان ما نقلتا المسألة إلى صعيدها الأثير الجاد، قالت:

- الجنون أيضاً له مكره، أحابيله، جنسنه، قصة غيبة حقاً، منذ ستة أشهر وهو يتردد على سنية يكلمها على الفن، على الاجتماع، على مشروع لكهربة الصحراء.. ستة أشهر وهو يخفي، يكتم! هذا لا يقدر عليه إلا مجنون من هذا البلد، مجنون تآجر..

بعد بضعة أيام جاء، فلم يجد زميلتنا سنية، طرحت عليه سؤالي الذي لا يتغير، فدنا مني مثل قطة خائفة. أردت أن أدجّنه. مددت يدي إلى جيبي ودفعت له، فجرّ كرسياً وجلس قربي وسألني وهو يطيل النظر إليّ:

- كيف الحال:

- لا بأس، وأنت؟

- عال.

- ألم يئن الأوان بعد؟

- أو أن ايش؟

- أن تحكي لي إحدى مغامراتك الغرامية؟

- لا؛ بعد.

- السبب.

- هذي تحتاج إلى وقت.

- ولكنك ستفعل ذات يوم، أليس كذلك؟

- سأفعل.

- متى؟

قال وهو يغمز بعينه:

- عندما تكون قد حررت ذمتك!

- طيب، سأنتظر. أين تسكن؟

- في حارة بين المهاجرين وأبو رمانة اسمها السكا.

- وحدك؟

- أنا وكلب.

- كلب؟

- إي نعم من نوع «الكانيش»، أسود، لطيف، له فرو مثل فرو

- هل تؤمن؟

- إيماناً عميقاً.

- بالدين؟

- بالله؛ المطلق.

- تقرأ؟

- أقرأ.

- عندك مكتبة؟

- عندي. ليست غنية جداً، ولكن لا بأس بها.

- بم تعنى؟

- بالأبحاث الكونية الجديدة، غزو الفضاء.

- وما يهمك من غزو الفضاء أنت؟

- مجرد التفكير في إمكان انتصارنا على هذه المسافات، التي يصيبك الإغماء من تصورها وحده، ينشر في القلب زهواً لا يسمى، زهواً بالإنسان.

- وما سبب هذا الزهو؟

- تأمل لي قليلاً في هذا: نحن، سجناء هذه الأرض التي أصبحنا نعرفها كجيوبنا، عدنا لا نقنع بإطلاق أفكارنا ترود الجزر الكونية ونصطدم

بحدود لا محدودية الكون.. فصممنا على أن نرودها بأجسادنا ذاتها. وإني لأجدنا على الطريق السوي المؤدي إلى هذه الغاية الكبرى..

- وما الفائدة؟

- ماذا تعني؟

قلت:

- افرض أننا وصلنا إلى المريخ ووجدنا فيه خلقاً. هنالك احتمالان: إما أن يكون هذا الخلق أشباهنا وأمثالنا، يقتتلون من أجل لا شيء ويموتون جهلاء تعساء، ويتوالون لا يدرون لماذا يكررون أنفسهم في الزمان.. وإما أن يكونوا شيئاً آخر، خلقاً لا يهموننا إلا بمقدار ما يهمنا نوع جديد من الحشرات نعثر عليه في غابة استوائية بكر. في الفرض الأول سيكون انتصارنا على المسافة أشبه الأشياء بنقل حرفي ليأس مصيرنا وظلامه إلى عوالم أخرى. وفي الفرض الثاني لا نصنع إلا أن نشرِّح ونقتل ونستعمر.

- إن غزو الفضاء سيغير قدر الإنسانية من أساسه. انظر إلى ما حققه اكتشاف أمريكا من معجزات.

حقق ماذا؟ ارجع إلى افتراضي الأول. لقد ذهب إنسان العالم القديم إلى أمريكا فوجد بشراً مثله مختلفة نقاط الانطلاق عندهم بعض الشيء عنا.. فلم يحتمل نشوزهم، وإذا هو يبيدهم. لو غزا الإنسان المريخ ووجد فيه أناساً أرقى من أشباهه على الأرض لاعتبرهم نشوزاً. أنه لا يحب من يشذ عن سيره الرتيب البليد الذي لا يعرف لنفسه غاية..

- هذه نظرة سوداء أيها العزيز المسكين. أنا لا أقرها.

- لا تقرها! فكر مرة أخرى أن النهاية مبرمة، لا شك فيها: الموت. موت يستوي فيه أي كلب مع أي ملك..

- ولكن السعادة.. يجب أن تهيأ السعادة للإنسان خلال بقائه الخاطف على الأرض.

- وما الفرق بين من يموت في قصر ومن يموت في حفر أساس هذا القصر؟

- أنت تمزح. الفرق كبير. ألا ترى فرقاً بين أن تأكل ألذ ما أنتجه فن الطبخ في العالم على مر العصور وأن تأكل مع الفئران!

- ما دام الموت هو النهاية!

- أولاً، تعال أقنع هذه الكتل البشرية التي تخب في جحور الحاجة والحرمان بما ذهبت أنت إليه. ثانياً، الموت ماذا فيه؟ إذا كنت في رحلة ملونة، ألا تحن إلى العودة إلى البيت؟ افرضها رحلة لا أمنع ولا ألذ.. ومع ذلك، الرحلة حادث طبيعي والعودة هي أيضاً طبيعية. والحكيم من استمتع بهما كليهما.

- وددت لو لم أذق «متعة» الموت أبداً، أنا لا أطيق.. مجرد تصوره يرعبني.. أن تتابع الدنيا دوراتها وأنا هامد.. شيء يسلمني إلى الجنون... إلى الكآبة.

- وأما أنا فيسلمني إلى الغبطة.

- هذا مفهوم ما دمت لا تتحمل مسؤولية من أي نوع كان.

- إذا كنت أحس عبء الكون كله. عد بنا إلى الموت..

- لا، أرجوك..

فاستمر باسماً:

- ماذا في الموت؟ لماذا نفرح للولادة ونبكي للموت، وهما كلاهما مظهران من مظاهر تجدد الكون الأبدي!

- كلمات ضخمة.

- لا، ليست كلمات ضخمة، أبداً، ولكنها كلمات بسيطة أعيشها أنا كل يوم، كل لحظة.

- إذن لماذا لا تحاول استمرارها في ذرية؟

- أنا لا أنكر أن الإنسان لما يتوصل بعد إلى طريقة يجعل بها من حياته انسجاماً واتساقاً كاملين. نحن لازلنا نلوث وجودنا بالبغض وما شئت من القذرات. والكون مارد، أصم من دون صرخاتنا.. ولكن غزو الفضاء يظل أملاً عريضاً يستحق أن نحيا من أجله ونموت، أنا لو سمح لي لاخترت الانطلاق في صاروخ استكشف به الكون. إذا كان في ذلك الموت فلأمت. احتمال واحد من مئة للنجاة يكفيني.

- ماذا تود أن ترى هنالك؟

- احتمال واحد من مئة أن يكون الناس هناك قد اهتدوا إلى سبيل الانسجام والاتساق الكاملين.. حتى إذا أمكن السفر إلى الفضاء لكل طالب سفر – مثلما يتسنى لنا أن نسافر الآن بين القارات الخمس – خجل الإنسان أمام كمال سكان الكواكب الأخرى من نقصانه..

وابتسم وبقفا سبابته نقر لي على جيب بنطاله الصغير وهو يقول لي:

- أي سيدي قليل المبلغ الذي أعطيتني إياه، أليس قليلاً؟

وامتدت صداقتنا. زرته في بيته: أعجوبة في الرثاثة والفقر. جحر ركيك مهدم. الكرانيش الأسود كان حرياً بالشكوى منه لولا وداده لمجنون سنية. الفراش قطعة من الخشب أظنها كانت باب دار مركزة على دعامتين من البلوكات الإسمنتية المكسرة التي تتبقى بعد البناء. اللحاف المبهر كأن قطاً متوحشاً شحذ فيه مخالبه.

ونظر إلي باسماً. لا بد أني كنت فاغر العينين تبعثرني الدهشة وقال:

- أنا معك أن المعضلة شديدة التعقيد تكاد تكسر أشد الرؤوس شيوعاً. ولكن الإنسان الإنسان هو الذي يزج نفسه مع ذلك في اللجة بأمل، ولو بعض الأمل في الوصول إلى الشاطئ الآخر.. كيف؟!.

* * *

لـو أنـه وعـد...

العصر.. راح النهار وما صححت غير ست ورقات من أصل مئة وعشرين. أنا فكري بطبعه شرود، ولكنه يغدو جموحاً، طياراً، أثناء تصحيح أوراق الطلاب. شعبتان، مئة وعشرون طالباً ما فيهم واحد مُطْرِف، ما فيه واحد متميز يبشر بفنان أو عالم، أو شاعر متشرد في الأقل.. قطيع، مسخ لا طعم لها ولا لون ولا رائحة.

وفتح الباب واندفعت ابنتي عائشة هازجة.

- بابا

قرفصت وأخذتها بين ذراعي:

- تعالي عين البابا. تسلمي لي، والله نظرة واحدة إلى وجهك الفاتن تسوى ما في الدنيا كلّها من مواضيع أنشا.

وردّدت الريحانة الصغيرة الكلمة الأخيرة.

- انشا؟

قلت:

- أي روح البابا، أنشا.

ولم تلبث زوجتي أن أقبلت:

- تعالي ماما. بابا بدده يشتغل.

وتشبثت عائشة بعنقي، قلت:

- اتركها.

ودنوت بحملي اللطيف من النافذة المفتوحة. كانت جارتنا، امرأة بدر الدين المعمار، قد نشرت غسيلها المرتب النظيف. أكثره أواعي صغيرة. بياض الغسيل. شهبه شجرة تمر الحنّاء الباسقة. في الداخل يضعون تمر الحناء في شقوق ويحملونه شتاءَ إلى الحمامات. ألأصيل، بشرة عائشة، رائحتها، هدوء في بيت أبي ياسين المقابل. كم بقي من وقت حتى يركب أبو ياسين السكْرة؟ الفناءان مشتركان، فناء بدر الدين وفناء أبي ياسين. ست ورقات من أصل مئة وعشرين عليّ أن أوزعها غداً، من كل بد، على الأولاد.

وأطلّت سناء صغرى أولاد أبي ياسين من شرفتهم. بيتهم طابق أول. بضع درجات تنتهي بشرفة واسعة لها درابزين من الحجر. وما أن لمحت عائشة بين ذراعيّ حتى هرولت تقفز الدرجات رافعة يديها كما تفعل دائماً:

- حبيبتي شوشوا، تعالي حبيبتي.

وكما تفعل شوشوا دائماً، هي أيضاً، نظرت إلى سناء في دلّ، وغير قليل من صدود، وقالت:

- مادّي يهو.

هذه معناها، «ما بددي إياه».

ويطفح وجه سناء جذلاً وهيماناً ونقاوة وتقول شوشوا ويداها مرفوعتان دائماً:

- مادّي!

- ليش حبيبتي، أنا سناء.

وأقول أنا:

- دادا سناء بابا.

تقول سناء في إغراء:

- شوشانة بدنا نروح نلعب حبيبتي.

حينئذ تتلطف شوشوا فتمدّ يدها إلى سناء التي ترتفع على رؤوس أصابع قدميها وتتخطف الطفلة في حذر وتمضي بها تلعبان في البستان المجاور.

والتفتُّ إلى زوجتي. كانت تبتسم في مكر:

- ما حجتك الآن في التشاغل عن أوراقك؟

وأضافت وهي تلقي نظرة رخوة على إحدى الورقات:

- ما الموضوع هذه المرة؟ الموضوع الأبدي: «وطني لو شغلت بالخلد عنه».

واتسعت ابتسامتها. قلت:

أنا لا أملُّ من تأمل سناء. إنها ينبوع لا أصفى ولا أنقى. كيف نبتت هذه الريحانة الهفهافة في هذا الحقل الجرد الذي جافاه المطر، بيتهم. وهذه القسمات النبيلة، الكبرياء، الرقة العفوية في مدافعة هدايانا من حلوى وألعاب ودفاتر. والهندام؟ يظهر أن أم ياسين تدرك أي كنز منُحت، أو أنها في الأقل نحسّ على نحو غامض أن سناء تجسيد لشوق لها قديم لم يبتل له ظمأ. لا بد أنها تحرم نفسها حتى توفّر لابنتها الأثيرة هذه الفساتين الآسرة. ولكن، من يدري لعل ما أتوهمه برّية قاحلة هو في الحقيقة تربة ريانة. أن صمت الأم صبرها، عنفوانها وهي في شدق الحاجة والقدر الساحق.. يفصح عن الإنسان الرحيب الذي فيها، عن أن هذه القسمات النبيلة في سناء منها هي..

كانت زوجتي تقف في الباب الموارب وتصغي. الابتسامة الواسعة الماكرة ما زالت ولكني لمحت فيها طيفاً من حنو، من إشفاق. وضحكت أخيراً وقالت وهي تشير إلى الأوراق:

إذا بقيت هذه من غير تصحيح فلا تتهم عائشة!

وردت الباب ولكنها عادت فمطت رأسها من فتحته:

إنهم تفلسفك.

شوفوا الملعونة. ألا يحق لي أن أتأمل الناس من حولي، أن أغوص وأنفعل وأصور. أنا لو لا هذه التلال من الأوراق السخيفة، بدك تقول فنان! إن لي في الواقع ملاحظات بديعة جداً. ولكن، حتى زوجتي، أم أولادي نرى في كل عمل لا يجلب نفعاً مادياً، لا يجلب عملة توضع في محفظة نقود، تفلسفاً، أي عبثاً وإضاعة وقت.. ولكن، أليس معها حق من ناحية؟ ألا أتفلسف أنا هنا محاولاً سبر مالا يُسبر!

أيه، فليكن. لأعد إلى أوراقي المتلفة. هذا قدري، «وطني لو شغلت بالخد عنه».. صحيح ما قالته أم الأولاد. لي خمسة عشر عاماً في التدريس، وقد أعطيت الأولاد هذا الموضوع أكثر من ستين مرة. من أين أطرّق لهم مواضيع. وكل مرة تنهال علي الأجوبة متشابهة، «وطني أمي الثانية تمنحني الحياة والعزة والكرامة وتعلمني محبة الوطن من الإيمان»، «وطني هو الذي علمني أن أرضع لبان المجد والعزة».. والأخطاء المميتة، المزمنة، المعضلة.. المثنى المرفوع منصوب، النواصي ترفع، المعدود مخالف للعدد من الواحد حتى المليار.. في بعض الأوراق تنشق لك الأرض، بسم الله الرحمن الرحيم، عن جملة حسنة السبك، فيها حتى معا ظلة، تبدو لك كأنها رقعة من البروكار في جلباب شحاذ خلق.. وتثور ناثرتك لما اقترفه المنفلوطي أو العقاد أو الزيات حتى يستحيل عليك الاستمرار في الجلسة ذاتها..

وعدت إلى النافذة، ولكني لم ألبث أن تقهقرت. كانت هيفاء كبرى بنات أبي ياسين متمددة على «الشيزلونغ» المهشم، المحطم، وقد لفت ساقاً على ساق فظهر نصف فخذها العبل المكتنز. انسحبت بغير قليل من صعوبة، هيفاء غير مغرية ولكنها في العشرين، و.. على الأخص، الوضع.. أنا أحب هذه الاستلقاء تستلقي الصبايا فيظهر ظل خفيف فوق الركبة. وفكرت: «هيفاء

نصف امرأة!» ثمانية أولاد بعضهم على رأس بعض هيفاء بكرهم. زوجوها في العام الماضي ولكنها عادت بعد خمسة عشر يوماً تتبعها ورقة الطلاق. لماذا؟ أهو فمها الواسع الهابط الذي يشبه فم أبيها، أم عيناها قليلتا الرموش؟ زوجتي تروي، تلميحاً، أن السبب اختلاف بينها وبين مطلقها من نوع آخر: هي طفلة، على قدر من الغرارة، بينما هو رجل ذو ماض، رجل مقطع موصل.. المهم أنها رجعت إلى البيت وما هي إلا بضعة أسابيع حتى عادت إلى صدرية المدرسة، ونفقات المدرسة.

يجب قولاً واحداً، أن أعود إلى «وطني لو شغلت بالخلد عنه». ليس من اللائق أن نؤجل الأولاد أكثر مما فعلنا.. الهمة، الهمة. فعلاً، دفعة واحدة جرى قلمي الأحمر على عشرين ورقة. هاه، الطريق إلى روما يبدأ بخطوة.. عدت لا أرى في وضوح. الظلمة تسربت إلى الغرفة. يجب أن أشعل المصباح. إذا نظر أحد من الخارج لم يرني. قمت، ولكني لم أقتل زر المصباح. وقفت على بعد يسير من النافذة. هيفاء لا تزال متمددة. روبها انشمر أكثر قليلاً.

في الحارة صاروا يقولون: «مسكينة. ما لها حظ، مثل خالتها». صحيح خالتها، معلمة المدرسة ما لها حظ. تزوجت أول مرة، ووضعت بنتاً. ولكنها لم تسعد. كان زوجها فظاً، تركزت همته كلها في سرقتها. الزوج الثاني فلسطيني، طفران، طيب ولكنه مقامر. استو لدها هذا صبيين. وبعد أن أنفقت كل ما ادخرته طلقها، فلجأت إلى بيت أم ياسين، أختها. إنها تقوم الآن بالعبء الأكبر في البيت لما يخالجها من وجدان عميق بأنها عالة على الأسرة المعوزة، ولأن أختها في حاجة حقاً لمن يقوم عنها ببعض العبء: ثمانية أولاد، ودخل الزوج لا يكاد يكفي لطاولة عرقه اليومية. المعلمة إذن تضع راتبها كله، وهي التي تطبخ وتكوي وتغسل.. وأما أم ياسين فقد استنجدت بكل ما تعلمته في صباها من مبادئ الخياطة، واتخذت غرفة القعود مشغلاً.

بين نسوان الحارة انعقد اتفاق صامت على إعانتها.. بديهي أنَّ الأرواب الأنيقة، التيورات، المعاطف التي لها كبات من الفرو.. لا يذهب بها إلى أم ياسين. ولكن ألبسة الأطفال أرواب البيت، الناموسيات، بيوت المخدات.. كلها تصنع عندها والأجرة على طلبها وحبة مسك.

أحياناً يفصلن ما لسن بحاجة إليه..

ودخلت زوجتي:

- جارنا بدر الدين في غرفة الضيوف يريد مواجهتك.

- بدر الدين؟

- أي نعم.

- خير إن شاء الله؟

- لا أعرف.

- ماله عادة غير في الأعياد.

من طريقته في مصافحتي عرفت أنه لم يأت زائراً. إن لبدر الدين في الأصل هيئة تقنية، متنسكة. امرأته تضع كل سنة بنتاً، وتقول على استحياء، كأنها بنت عشر سنين، أن بدر الدين هكذا يريد. إنه يقول: «هذه هبة من الله والمنع حرام».

قال بدر الدين:

- لا تؤاخذني يا أستاذ الله يخليك. يمكن أزعجتك.

- أعوذ بالله يا بدر. إذا شئت الحقيقية، أنت أنقذتني: وظائف الأولاد أعمت لي عيني.

لم يكن يصغي. وعاد يقول:

- فكري أني أخذ رأيك في مسألة صغيرة.

- تفضل.

- الله يزيد فضلك. المسألة، أنه، حكايتي.. مع أبو ياسين.

قال هذه الكلمة الأخيرة دفعة واحدة. كنت أعرف القصة ولكني تجاهلت:

- خير إن شاء الله؟

- المسألة، والله أنا حيران في أميري. أبو ياسين رجل طيب. نعم الجار. والله تعالي أوصى بالجار. ولكن أنت أعلم. أنا أحياناً لا أشتغل.. يمضي علي شهر، يمكن أكثر، لا أطلع على حائط. والعلية، معلموك..

وقطع حديثه هكذا فجأة. بتره بتراً. كان يحدق في الأرض مثل تلميذ خجول يلقي درساً لم يتقنه.

صحيح. شقي بدر الدين عمراً حتى بني هذين البيتين المتجاورين اللذين تطل نافذتي على فنائهما المشترك، فسكن أحدهما وأجر الآخر لأبي ياسين الذي لا يدفع..

وعاد يتأتيء:

- يعني المسألة، معلموك، أبو ياسين، مثل كل أهل الحارة، كلمة حضرتك عنده لا تصير تنتين..

ووعدته أن أذهب لتوي أقابل أبا ياسين.

رحت. صاح أبو ياسين وهو يركز الكأس على المائدة:

آهلين ومرحبتين بالأستاذ سليم. تعال ذق لي أكلة المخلل هدي أل في عمرك ما ذقت أختها. تصور: مخلل من حشائش البحر. ملوحة مع عرق حموضة مع نتفه طعم مر..

جلست، قلت:

- أنا مشغول شوي والله يا أبويا..

قال يسد عليّ الطريق:

- مشغول، مشغول.. غير لي نغمتك هذي. هذا الشغل ماله نهاية..

- لا، القصة أن عندي كدسه وظائف علي أن أصححها الليل..

- تصححها، تصححها، لا يكن لك فكر، اطمئن، عندما ترجع إلى البيت تراها مطرحها في انتظارك. هان ها، ها، يا سناء.

- لا، أرجوك.

قال يقلدني:

- أرجوك، أرجوك.

ودخلت سناء. قال:

- روحي حبيبتي هاتي قدح لعمو سليم. هل تعرف يا أستاذ أني لو كنت مثلك أدرس الأولاد كان طق عقلي من مئة سنة: يا بني من الصبح إلى المساء مع أولاد صغار. شي يجنن حقيقة..

وعادت سناء بقدح صغير. قلت:

- مساء الخير عمو.

فابتسمت ابتسامتها الساحرة الخجول وأسبلت أهدابها:

قلت لما أغلقت الباب وراءها:

- أنا جيتك الليلة في مهمة.

سأل ضاحكاً:

- معك أمر مهمة؟

وأردف:

- أنا أفهم في برابيك الموظفين أيضاً:

وصب لي قدحاً، وأضاف:

- خد أشرب الآن، وأجل لي المهمات حتى يصحو رأسك. حتى يصحو رأسي، بالعرق؟! قلت بنفس واحد:

- بدر الدين جارك كان عندي الآن:

- أي، ايش فيها؟

- كلمني..

- ظننت أنه كركرك.

- لا، جد. فاتحني في مسألة أجرة البيت.

قال ضاحكاً:

- دفعت له عني؟

- فكري لو أنك دفعت له دفعة. بدر الدين رجل طيب شرواك.

- أنعم وأكرم.

- لو أنك دفعت له دفعة.

- وقف أحك لك حكاية، لما كنت في اسطنبول..

إذا كانت النبالة عند سناء وأمها تصرفاً صموتاً جميلاً لا يعي نفسه فهي عند أبي ياسين مرض. إنه يحيا في الماضي. وأما الحاضر فيغرقه، يغطسه في العرق. هذه السفرة تمتد كل ليلة، لا ينقصها شي: المخللات. الكبد المشوية، الموالح الغالية.. وقد يشتهي الخيار وهو لا يزال في الباكورة، باهظاً، ولكن علاوة لا يمنع من أن «يخلق» على السفرة خلقاً. إنه ينسيني، عندما أزوره، ما أعرفه من مصاعب الأسرة بما يغرقني في اللحظة الحاضرة، في القصة التي يرويها. قصة اسطنبول هذه سمعتها منه أكثر من مرة ولكنها تبقى لها كل مرة نكهة خاصة: أرسله أخوه التاجر الكبير في تجارة إلى تركيا منذ بضع سنوات. نجح نجاحاً لم يكن مأمولاً. نجاحين إذا شئت. أحدهما من فرق العملة والآخر من نفاد البضاعة سريعاً. فجأة، وجد في جيبه كدسه من آلاف الليرات «ما للدهر بها حاجة» كما يقول أبو ياسين في تمارك. وفيما كان مقروضاً أن يعود بعد أسبوع، قضى في اسطنبول شهراً أنفق فيه كل ما وصلت يده إليه.. يظهر أن النساء الاسطنبوليات شيء

يكسر الظهر! والعرق هناك ليس كالعرق اللبناني أو عرق البطة لأنهم لا يضيقون إليه الينسون الشامي والمسكة. ومع ذلك فهو عرق لطيف.. يومها خاصمه أخوه، وظل هذا مصراً على ألا يحكي معه سنتين، اشتغل خلالهما مستخدماً عند عميل جمركي..

.. ولم أرجع إلى البيت إلا بعد الثانية عشرة، سكران، لم أفز من أبي ياسين، عوضاً عن «دفعة» على الحساب لبدر الدين، بغير مجموعة طيبة من النصائح عن الصبر، وفوائد طول البال وقول يردده لا يغني شيئاً:

- أستاذ سليم حكمتك أنت. دبرها بمعرفتك!

حكماني أنا كأنهما - هذين العزيزين -- يفترضان فيّ القسوة..

والأنكى من هذا كله أن أقل من ثلاثين وظيفة من أصل مئة وعشرين هي التي صححت فقط، ويجب علي من كل يد أن..

محاولات كثيرة مثل هذه، و «أكثر صحواً» دامت أكثر من ثلاثة أشهر، أقام بدر الدين بعدها الدعوى على أبي ياسين: أننا أظن أن أناساً أشراراً أدخلوا في ذهنه الفكرة. الدليل أنه صار يتعمد التغيب عن الحارة والامتناع عن العودة إلى البيت أثناء النهار. مرة لمحته في الحديقة العامة، على حرف البحر، فغل بين الناس كأنه يتهيب لقائي. وأما أبو ياسين فلم يبد عليه أنه اهتم أو حنق أو استنكر.

وحكمت المحكمة بالإخلاء. وها هو ذا أبو ياسين ينتقل. اليوم يوم النقلة. قالت لي زوجتي أنهم استأجروا غير بعيد. رددت السجف وتركت شقاً ضيقاً جعلت أنظر منه منقبض القلب. بينهم قائم قاعد. لم يأتِ أبو ياسين لتوديعي. سناء وحدها جاءت عدة مرات. انتبهت إلى حركة معينة كانت تكررها كل مرة. أنها تقرفص أمام عائشة تركي رأسها الصغير الأشعث على عنقها وتضمها في حرارة وعيناها نديتان، طافحتان حزناً، ولم تكن نتلبث طويلاً. كانت تنطلق نحو الباب كأنها هاربة.. قبل يومين طلبت من زوجتي أن تعطيها صورة لعائشة وهي تلاعب دبها الأبيض..

كأنهم سيهجرون البلدة كلها.

أطفال الحارة أعجبتهم هذه الشوشرة. أنا أسمعهم يتزاعقون، يتهازجون، يجربون أصواتهم في الغرفات الخالية..

يا رب لو كان معي لكنت سددت أنا..

الليل يهبط والنقلة تستمر الآن في ظلمة لا تزال خفيفة. المكيون الضخم أمام الشرفة وعلى ظهره الدفعة الأخيرة من عفش بيت أبي ياسين. كنت أطيل النظر إلى المناضد والكراسي وقد قلبت على أقافيتها ورفعت سوقها إلى الأعلى كأنها كائنات فاجأها الموت وهي تتضرع. وهدأت ضجة أولاد الجارة. يظهر أنهم ملوا اللعبة. العمل يجري الآن في صمت، أعني أن أصوات متناثرة كانت تبلغ أذني:

سجادة تسحب، منضدة تنزلق فوق الأثاث.. أصوات بدت في صمت المساء كأنها حشرجات.

أول عهدي برحيل، كان في مساء ثقيل مثل هذا، منذ حوالي ثلث قرن. كنت طفلاً وقد انتقل أبي الموظف من بلدة إلى بلدة.. ذلك المساء عرفت لأول مرة إحساساً خضل فيما بعد حياتي كلها، كان قاعها، لازمتها: الإحساس خضل فيما بعد حياتي كلها، كان قاعها، لازمتها: الإحساس بأن بعضي قد ظل هاهنا. إني لم أرحل كلي..

إنهم يرحلون..

الكميون يشخر، يهدر، يتجه نحو الشارع ثم يبتعد ضجيجه..

وهبط على الحارة هدوء كل ليلة، ولكن أي هدوء اليوم..

حوالي الساعة العاشرة جاء بدر الدين. لم يكن وضع قدمه عندي منذ تلك الليلة. كان محتقن الوجه. قعد على حافة المقعد ولبث فترة لا يقول شيئاً. ولم أجد أنا، من جهتي، ما أقوله: أخيراً قال وهو ينظر في الأرض:

- والله أنا ما أردتها. المسألة أن الجار له على الجار.

غمغمت ولم أقل شيئاً. فاستمر:

- لو أنه قسط الماضي ونظم الدفع شهرياً حتى لا يتراكم عليه مبلغ جديد..

كان مصباح متحرك ملون في زراية عن يمينه هو الذي يضيء الغرفة بنور هادئ عذب. كان صوته كأنه يأتيني من بعيد: كأنه اعتذار للغرارة غير شخصي. وعاد يقول:

- الله يلعن الشيطان.

التقطت معنى من عصبية في صوته. هذا واضح لأنه يغير جلسته على نحو مطرد أيضاً، وينقر بأصابع يديه على مسند الكرسي. ما أكثر شفافيته. ثيابه ذاتها بيضاء ناصعة، ووجهه مضيء. وقال:

- لو أنه وعدني فقط.

وكرر:

- لو أنه وعد، وعد فقط..

* * *

يوليوس قيصر

دبر لنا البطاقتين فاضل، عضو نادي «الممثلون الهواة». وقال لي وهو يسلمني إياهما بلهجة لا تخلو من خطر:

أنت هنا أمام شكسبير ذاته، شكسبير بالنص، تمثيل متعب عليه، ليس فيه تهريج أو عبث، تمثيل يحتاج إلى أن تشهده بكل قوى روحك، إلى جهدك وتأنيك ومصابرتك.. بعض الذين حضروا حفلة العرض الأولى أصيبوا بخيبة أمل لأنهم كانوا يعدون أنفسهم لأمسية ضاحكة، تشخيص! تصور أن صاحبك عزيز قد ترك المسرح منذ الفصل الأول.. إذا كان كاتب ينظر إلى أثر فني هذه النظرة فلا عتب على العوام..

قلت:

- لعله كان مشغولاً!

- مشغول! لماذا يجئ إذن؟

وأبدى إشارة من يده كأنه يصرف بها الحديث عن هذه الناحية واستمر يقول:

- قل هذا أمر آخر.. المهم أن تحضر المسرحية وتعطيني رأيك فيها.. أنت إنسان درت في أوربا وتفهم.. لمن ستعطي الثانية؟

- للدكتور هشام:

- هذا الذي كان يعمل في السعودية؟ عال، عال، لا بأس.. اذهب.. التمثيل يبدأ حتماً في الثامنة والنصف.. لا تتأخر.. المواعيد أيضاً مضبوطة هنا..

في الساعة السابعة مساء كنا، الدكتور هشام وأنا، في القهوة نلعب الشطرنج في انتظار الثامنة والربع. وجاء فاضل. إنه يعرف قهوتنا.. لعله جاء ليطمئن إلى أنه وضع بطاقتيه في أيد أمينة.. وكففنا عن اللعب، ودار حديث حي هذه المرة، عن المسرحية.

سمى لنا المخرج.. كنت سمعت عنه.. دكتور في الاقتصاد أو الحقوق علق الإخراج المسرحي.. وسبق لي أن قرأت، منذ سنة وبعض السنة، مقالاً أو مقالين نشرهما في جريدة «الأسبوع» تصدى فيهما لمسائل تتعلق بهذا الفن.. في تلك الأيام كانت البلاد تحيا فترة مرضية لم تكد تعاني مثيلاً لها من قبل. كل شيء قفز من موضعه المألوف المناسب إلى مكان آخر ليس له.. ساد هرج ومرج فظيعان.. وكما يجري في الأساطير. المثال الذي صنعه الحالمون، في لياليهم السوداء القاسية وأيامهم الشقية، من خفقات القلوب وصمت الدموع هذا المثال دبت فيه حياة شيطانية ملعونة، فانطلق يبعثر كل ما يقع تحت يديه، يقلب، يمزق، يهدم.. والأنكى أنه يخطب طول النهار خطباً جنونية لا تعرف لها رأساً من ذنب، يختلط فيها ضرب المندل باستحضار الأرواح، بنتف من كلام الجرائد.. هذا ليس هو المثال الذي نحتنا! ولقد كان الاستماع إلى هذا الروح الشرير مسلياً بعض الوقت، ولكن التسلية انقلبت بعد قليل إلى عذاب أشبه لحك دمل هائج.. لقد امتلأ البلد بآلاف العفاريت الصغيرة التي اقتحمت على الناس خلواتهم وأخذت تفرض عبادة التمثال فرضاً شنيعاً: زج الآلاف في السجون.. مات كثيرون تحت السياط. قرأ الأولاد ثناءاً حاراً على عبادة الأصنام.. في هذه الأثناء كان الصنم لا ينقطع عن الخطابة.. ولم يكن أحد يفهم شيئاً، ولكن التصفيق كان ضريبة.. صفق أناس لأنهم أضحوا آلات.. وصفق آخرون خوفاً من جيرانهم.. وأولع الصنم بالتبرج فإذا هو لا يتورع عن أن يتذوق بالدم ويكتحل بالسخام.. ولعل هذا الولوع إنما كان يستهدف تبرير وجوده المسخ ذاته، وإلا فلماذا كان يضابح

صباح مساء لكي يوقف الحياة من حوله، لكي يجعلها من صخر، من صوان؟. ومن مظاهر هذه المضابحة أن الضجة قد أصبحت هي الآمرة الناهية.. إن الخزائن مفتوحة على المصاريف لكل صاحب طبل أخرق وزمر أبح: «ضجوا من مطلع الشمس حتى مطلعها التالي.. لا تدعوا التباس ثانية واحدة ينصرفون فيها إلى أنفسهم، وخذوا ما شئتم من مال».. ذلك لأن ثانية واحدة يتصرفون فيها إلى ذواتهم تكفي لعودة الصنم إلى صوانيته.. لقد كان حجم القرقعة والطرطقة والضجيج هو المهم.. وعدا الصمت ضرورة، بطولة، نوعاً من الرفض يميت رعباً أولئك الذي تخدمهم الضجة! وككل ديانة كان لهذه فنون تخدمها، تراتيل ترتفع بها العقائر في المعابد.. ويا لها من تراتيل! كل ما في الدنيا من رخص، من ميوعة، من زراية بالنغم..

وقلت:

- كانت الحرية مقتصرة على إحداث ضجة في الموكب الأخرق الشائن.. الويل لمن استنكر الضجة.. ولذلك كان عسيراً على ألا أشك في كل ما ينشر أو يذاع، أن أنظر إليه نظرة جمالية.. ومع ذلك أذكر أن انطباعيتي الأولى عن هذين المقالين إحساس بأنه ليس ابن صنعة.. إن هذه إلا نزوة، جهلة كما تقول العامة، استمرت لأنها مريحة، منجحة، تجلت الشهرة التي قد تنفع في مجتمع فقير كمجتمعنا أردت أن أقول إن الإخراج عنده ليس قضية حياة..

فاحتج فاضل:

- هذا ليس صحيحاً. الإخراج المسرحي قضية بالنسبة إليه. تصور، باع بيتاً ورثه عن أبيه وأنفق أكثر حقه على إخراج هذه المسرحية التي ستراها الليلة.. لقد كلف إخراجها حوالي سبعة آلاف...

قلت:

- وقف.. كم عمره؟

- حوالي الأربعين..

- منذ متى هوي الإخراج المسرحي؟ أنا ما سمعت باسمه إلا من سنتين.. ومع ذلك ربما كنت مخطئاً.. ولكني أظن أنه لو باع سورية من البيوت لما تغيرت الحال.. هذا الخير لا يصنع إلا أن يجعلني أرثي له.. القصة كلها لا تعدو أن تكون غناء في طاحونة!

وقال الدكتور هشام:

يفد إلى المدينة أناس من موريتانيا يعرفون هناك بالشناقطة.. الواحد منهم يصل إلى الحجاز في أول عمره، على أبواب العشرين خالي الوفاض، لا يملك إلا عبداً وعنزة، يعيش على حليب هذه وشغل ذلك.. العبد يعمل طول النهار وما يربحه يعيش هو وسيده به. وأما الشنقيطي، السيد، فينقطع إلى طلب العلم.. والعلم عنده يعني فرعاً من فروع العلوم العربية، لا شيء إلا العلوم العربية القديمة، النحو مثلاً.. أنه يفتح كتاب النحو بعيد صلاة الفجر ولا يغلقه إلا حينما ينعس.. وهو لا يقرأ كلمة واحدة في كتاب أبيض، ولا يدري حرف مما كتب بعد الزمخشري.. طبيعي أن الجارم وطموم والغلاييني والأفغاني لم يسمع باسم واحد منهم عمره.. ويظل عشرين، ثلاثين أربعين سنة يقرأ النحو...

قلت:

- عجيبة، وهل يقرأ شعراً؟

- لا، إلا ما كان شاهداً نحوياً أو إذا كان هواه للشعر في الأصل.

- إي؟

- يقرأ في هذا الحال الأخيرة شعراً جاهلياً وشعر صدر الإسلام لا يتعداهما، ويموت من غير أن يسمع باسم شوقي أو الجواهري أو إيلوار..

- وماذا يصنع بعلمه؟

- لا يصنع شيئاً.

وقال فاضل:

- وما دخل الشناقطة هنا؟

قلت متهللاً:

- دخل كبير.. هذا مثال لعلم لا ينفع أحداً!

قال فاضل غاضباً:

- آفة هذه البلاد أحكامها القَبْلية.

وهل أصدرنا أحكاماً!

وكان المقهى مزدحماً. وقطع حديثنا أن بضعة شبان وقفوا قربنا حتى كادوا يتعنقدون فوق رؤوسنا.. ونادل يصيح بآخر: «يا أحمد كراسي.. هات كراسي يا نوري!» وأمامنا اثنان يلعبان طاولة الزهر في حماسة وتعليقات جهورية: «يا أكحل»، «إي.. هات هال أربعة لأشوف»، «هذا مرسا ما فيها كلام».. وخلفنا شلة من أربعة يمسكون أوراق «الكونان» ويغصون في بحر من الفكر ووراء كل منهم صاحب أو اثنان يشار كان في التأمل العميق!..

وتابعت أقول:

- لا تغضب.. أنا أتصور لو جمعت خمسة من عباقرة مخرجي العالم وقدتهم إلى استوديوهات مصر وقلت لهم: اخرجوا لنا فلماً ممثلوه فريد الأطرش ويوسف وهبي وزوزو نبيل أو ماجدة، وكاتبه يوسف السباعي أو إحسان عبد القدوس..

قال فاضل في نزقة:

الكاتب هنا شكسبير من فضلك!

والمخرج؟ والممثلون؟

ومع هذه الأحكام القبّلية، تسرب إلى قلبي شك: «لعلي استعجلت الحكم!» إن فاضل يتعاطى صنعة التمثيل. ابن صنعة، ويكتب أقاصيص..

وإذا كان اطلاعه على حركة المسرح في العالم محدوداً بعض الشيء فمن يدري؟! لعل المزاولة العملية قد عوضته.. كان يتكلم عن «يوليوس قيصر» في حماسة لا تخبو..

لعل هذا هو الذي جعلنا ننهض في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة على عجل. وقال فاضل:

- اركضوا...

قلت:

- المسرح العسكري بعيد.. نأخذ تكسي..

في اللحظة التي كان الدكتور هشام يدفع للسائق كنت أننا قد فتحت باب السيارة ونزلت أتفقد الباحة أمام المسرح من حولي... توقفت سيارتان أخريان ونزلت من كل منهما باقة من السيدات. الأناقة يزيد من تأثيرها هذه الأنوار الملونة.. الفرو.. وقع الكعوب العالية المغناج.. ورنت ضحكات فضية خليعة عند شباك التذاكر عن يسار.. وتقدمنا، هشام وأنا. وأردت أن أطقطق عضلات رقبتي – الجلسة الطويلة في القهوة – فاضطررت لرفع رأسي، إلى الوراء بعيداً، فلما أعدته إلى موضعه ظل متكبشاً.. وشرد فكري إلى تكبش السيدات عند دخولهن السينمات.. القلم آخر الهموم عندهن.. المهم هو الكبش.. طقس من الطقوس التي تملأ الفراغ المترامي!..

بعد أن مزقت زاويتا بطاقتينا وعبرنا الباب قدم إلينا فتى في الدهليز غير بعيد من المدخل، بطاقات أخرى أكبر، ملونة، أنيقة: يوليوس قيصر بخط تزييني ولطخة من الدم المهراق المتشعع حول العنوان.. وتفتح البطاقة فتقرأ أسماء الممثلين بحسب ظهورهم على المسرح، المخرج مساعد الإخراج، الصوت، الضوء، الديكور..

وعثرنا على مكانينا.. لم يكونا بعيدين من المسرح.. في الأوركسترا.. الساعة الثامنة والنصف إلا دقيقتين.. على صفنا نسوة بمناديل، على الرغم

من المعاطف الوثيرة والأرواب الغالية يطقطقن بزراً. في الصفوف الأمامية أجانب شقر، طوال.. موظفون كبار من وزارة الثقافة.. المسرح دافئ.. الساعة الثامنة والنصف ودقيقة. من الصفوف الخلفية تتبعث ضجة: «ديرينا أخانا» وأعقبتها قهقهة جماعية.. هؤلاء جماعة أصحاب بينهم واحد دمه خفيف! الساعة الثامنة وأربعون.. عن يمين صاحب لي قضينا مدة معاً في باريس.. جميل غني. زوجه قربه. حسنا أنفها اسكندنا في تعقص شعرها إلى الخلف على نحو بارع مثير.. إنه يدخن الغليون وينفث دخانه في صمت. عيناه تغزلان ولكنه لا يوجه إلى امرأته كلمة، ولا كلمة طوال الوقت الذي راقبته فيه.. قد لا يكون بينهما شيء مشترك مثلنا جميعاً نحن المتزوجين.. ولكنه، في الأقل، انتقى امرأة جميلة! الساعة التاسعة إلا ربعاً..

قلت للدكتور هشام:

- أول نقطة عاطلة!

كان هو أيضاً يطلق عينيه في كل اتجاه.. ولفت وجهه نحوي مستفهماً.. تابعت أقول:

- نقطة سوداء لفاضل: الساعة التاسعة إلا ربعاً!

فغمزني بعينيه الواسعتين الشهلاوين:

- نحن لا يحق لنا الاعتراض.

قلت باسماً:

- ربما كان في القاعة أناس قد دفعوا!

قال وهو يلتفت خلفه بعيداً:

- لا أظن.. هذه تركيبة مجان..

في الساعة التاسعة سعل مكبر الصوت ودوى دوياً مستطيلاً ثاقباً وانقطع.. ثم عاد يرنّ ويتنحنح.. وهدأ ثم انطلقت نبرة موسيقية لم تلبث أن

أخمدت.. قرأت في البطاقة الملونة: «الإشراف الموسيقي: رشيد».. ما معنى الإشراف الموسيقي؟ أن يختار الاسطوانات التصويرية الملائمة للمشاهير؟ أن يؤلفها؟

وقال المكبر آخر الأمر بصوت ملأ القاعة: «الأستاذ مصطفى أنيس مدير العلاقات العامة يلقي كلمة النادي».. وصفق أناس مبعثرون في آخر القاعة، عند البوفيه.. وانزاح الستار، عن يمين المسرح قليلاً.. وبرز شاب طويل القامة. عريض المنكبين، بنظارتين سوداوي الإطار.. وبدأ يخطب.. تكلم على نسيان الممثلين ونسيان المتفرجين، نسيان المتفرجين ونسيان الممثلين، نسيان الممثلين والمتفرجين.. للخلود، ستصفقون كثيراً للخلود.. على أية حال لم يطل.. خطر لي أن اسأل هشام: هل يضير المسرحية شيء لو أنها بلا «كلمة النادي» هذه..؟ والتفت نحوه فعلاً.. رأيت أهدابه ألوطف وجبينه المتثني ولكني تذكرت وصية فاضل أن نغلب الحد.. وإذا هشام هو الذي.. يدفع مرفقه في خاصرتي دفعاً خفيفاً ويغمض عيناً ويبعثر وجهاً على نحو مستفهم:

لايش هدى؟

- ؟؟؟

- نقطة سوداء أخرى!

ضحكت:

لا يحق لنا!

وعاد الصوت في المكبر مفخماً، عريضاً عرض القاعة كلها يندفع إليك من الحيطان والمقاعد والسقوف جميعاً:

- نادي «الممثلون الهواة» يقدم (الموسيقى دردبة)، «يوليوس قيصر» مسرحية تراجيدية كتبها شكسبير العظيم.. الأدوار حسب الظهور على المسرح، الخ.

ومضى يقرأ ونحن نتبع ما يقرؤه على البطاقة الملونة، كلمة كلمة، حرفاً حرفاً.. لم يهمل إلا الكلمة الصغيرة بنط ٩ في أسفل الصفحة الرابعة «مطبعة الوفاء- دمشق».

وزلقت نظري نحو الدكتور هشام... كان يتبع الكلمات مثلي ويبتسم... والتفت إليّ أخيراً مشيراً إلى البطاقة بين يديه:

- مثل ما هنا!

وارتفع الستار: «اغربوا أيها الكسالى! امضوا إلى حوانيتكم! أهو يوم عيد..»

وصمت مكبر الصوت فلم يعد الكلام واضحاً... وازددنا إصغاء قد نكون وحدنا لأن الضجة وراء لا تزال، امتداداً لنفاد الصبر الذي سبق رفع الستار، أو لأمر آخر.. ومع ذلك فقد مضى الممثلون في أداء أدوارهم، وعاد المكبر شغالاً..

وبدأت أنا انتبه إلى أمر، إلى إحساس كان يخالجني على نحو غامض في مسرحية لشيلر قدمتها فرقة أخرى على مسرح سينما فريال منذ بضعة أشهر.. هاأنذا أحسه الآن في وضوح شديد بعد أن توهمت أنه تملص مني نهائياً: المسرح والقاعة عالمان مختلفان، منفصمان، حتى ليكاد يكون بينهما جدار عازل مثل جدران استوديوهات الإذاعة.. قد لا أكون أحسنت التعبير: الانفصام واقع بين شكسبير وهذا الجمهور الذي حولي.. لأن كلماته تتبدد ولا تستطيع أن تجتذب، أدنى اجتذاب ولا أذنا.. لا تقدر على أن تتغلغل ولا إلى سمع واحد: كل القسمات، العيون التعبير، الجلسات.. تنطق بهذه الحقيقة وأنا نفسي شاهد داخلي.. ومع ذلك فقد أشفقت من فاضل.. وتساءلت: «أيكون السبب في شرودي أنا؟» لا، مخلصاً.. أين هو إذن؟ أفي رنات الأصوات؟ في تصميمية المسرح المفقودة؟- مسرح «لا هو شيت» في الحي اللاتيني قد وصفه بيت واسعة – في الإضاءة؟ لا ريب أن الأصوات رتيبة، لفصاحة

فيها.. أنطوان أخو جانين، كورسيكي عاش في باريس دهراً، ولكن المسارح رفضته لأن لهجته ليست لهجة «الإيل دوفرانس».. كان في نطقه إثارةٌ خفيفة جداً من اللهجة الكورسيكية. هذا يسمونه «التجويد».. المخارج يجب أن تكون واضحة، مطربة فصيحة، ولاسيما في شكسبير..

وأصغيت.. كان كاسيوس يقول:

«صحيح تماماً.. وكثيرون يأسفون أن تنقذك هذه المرآة التي..»

بروتس وحدة كان حسن النطق، حسن الصوت.. إنه الممثل الوحيد الذي يستحق أن يكون مبتدئاً.

وأما يوليوس قيصر، فقد كان عجيبة من العجائب.. ما فيه من يوليوس قيصر ألا نحافته.. الباقي: صوته رفيع كالمواء.. حركاته ما فيها من الإيماءات الإمبراطورية شيء.. إنه يشبه أن يكون بائع صحف، أو يا نصيب، نشيطاً!

ولما بات الانفصام تاماً انصرفت إلى المسرحية الأخرى، المسرحية المطرفة حقاً: الجمهور. لقد انقلبت التراجيديات بفضل هذا الجمهور إلى كوميديا من كوميديات شكوكو وكشكش.. من تلك التي تمسك خاصرتيك فيها من الضحك.. وقد لا تكون، هشام وأنا، ضحكنا ضحكاً مجنوناً لا لُجم له ولا أزمَّة مثل هذا الضحك.. بدأ ابتساماً ثم كركرة خفيفة ثم ضحكاً قصيراً، ثم ضحكاً مديداً وقهقهة، فقيام وقعود: «ياخيي دخيلك ما بقي لي طاقة»، «لا، لا أقدر!».. وهذا التدرج بدأ بملاحظة الجمهور للهنات الصغيرة: اللهجة، اللاواقعية.. وتطور حين قتل يوليوس قيصر قتلاً مصطنعاً بخناجر خشبية لم يتقن دهانها.. ولما خطفه الجمهور – جمهور التمثيل- وخرجوا به من المسرح إلى الكواليس وظهر قبقابه العجيب (الممثلون كلهم يلبسون قباقيب سودا، عالية تعيق حركتهم وتزيد في لا واقعية المسرحية).. أفلت الستار

الذي عن يمين في المسرح، وانفضحت الكواليس، وتسربت أضواؤها وأشباحها.. وعبر أحد المساعدين منطقة الضوء وهو بعض على سبابته.. وظل الستار في أرض المسرح حتى نهاية الفصل.. كان يوليوس قيصر، أو جثته، يهودج مثل مشايخ الطريق، والضحك يهز أركان القاعة هزأ موجعاً.. وصاح صوت ضاحك عند البوفيه: «آجر!» فزاد الطين بله، وعدت أنا لا أرى شيئاً، عدت لا أسمع.. أعشتني دموع غزار ملأت عيني، وبللت ذقني وقبة قميصي.. رحت أشير إلى هشام إشارات خرقاء أن «أعطني منديلاً» فأخرج وهو يختلج رزمة مناديل ورقية وأعطاني واحداً، ونسل آخر وارتفع الشخير والنخر والمتمخط..

وهدأ الجمهور، نحن، قليلاً.. تصورت أن هدأ الهدوء عن كلالة، عن تعب من الضحك.. عادوا غير قادرين حقاً.. وامتدت انفراجة الجمهور بحلول الفاصل بين فصلين.. أخذت أقول لهشام:

- قم نمشي!

ونظرت إليه.. أنه قليل الابتسام عادة ولذلك كان منظر وجهه الذي بعثره الضحك وبلله باعثاً على جذل جديد. قال:

- إلى أين؟

- هذه تراجيديا.. يعني أننا سنرى حوادث قتل أخرى.. قال ضاحكاً:

- أحسن وأحسن.. خلنا!

قلت:

المشكلة إن هذا الجمهور اعتاد السينما، السينما بكل ما تملك من وسائل وما تحقق من كمالات معجزة.. المسرح في أوروبا ذاتها كاد يذوي ويموت أمام السينما.. وما بقي إلا بجهود عبقرية متصلة ناهيك بالجمهور المهيأ.. فما عسى أن يصنع مخرج مسكين وفي دمشق خمس عشرة سينما؟

وعاد التمثيل وعاد الضحك.. كان كل قتل – والمسرحية مجزرة حقيقية – يشغل مكوكاً مديداً من الضحك:

كاسيوس - .. إيه قيصر، إن السيف الذي تخَطّفك قد انتقم لك (يموت)..

الجمهور – هي، هي، هي! هو، هو، و!

تيتينيوس -... وأنت يا سيف كاسيوس تعال استقر في قلب تيتينيوس (يموت)..

الجمهور – هي، هو، ها، ها!

وجاء دور بروتوس:

بروتوس – وداعاً ستارون «يقذف نفسه على السيف» اهدأ الآن أي قيصر.. لقد أصاب بروتوس بقتلك نصف الفرحة التي لقيها في موته هو نفسه (يموت).

هنا علق سيف بروتوس الذي كان يمسك به ستراتون، لست أدري في أي جزء من ثوب بروتوس فإذا هو ينكسر.. هذه المرة خيل إلى أن مئات الأيدي غير المنظرة تكركر الناس.. ضحك مديد ملح، هائل، استمر حتى ستارة الختام، استمر حتى رفع الستار عن الممثلين الأكارم وهم يمسك بعضهم بأيدي بعض وفي وسطهم المخرج، صغيراً، خجولاً، شديد التأثر.. واختلط الضحك ربك حميد بالتصفيق.. وهبط الستار ثم رفع عدة مرات كما يجري في مسارح بلاد الناس.. والمخرج يزداد تأثراً وعرفاناً ورضي خجولاَ...

* * *

المؤلف..

كنت كلما رأيته يلح علي سؤال: «لماذا اختار التأليف بالذات وبالعربية أيضاً؟». هذا النموذج الذي انقرض الآن أو يكاد، نموذج ما كان يسمى منذ نصف قرن «ابن استانبول» «تربية استانبولية»: ربطة العنق الفراشة، البنطال الضيق، القبة المنشاة، الحديث المهذب الناعم تقطعه لازمة من «أفندم سولايم» أو ما يشابهها.. أي نعم، لماذا التأليف؟ صحيح أنه في بداية القرن كان يعمل في الصحافة، ولكن الحديثين الخاطفين اللذين أتيحا لي معه أعطياني انطباعاً أولياً أنه إنسان متعنكب، مثل مستودع مهجور، إنسان يتكلم لغة مهروشة، باخ لونها وتجاوزها الزمان. وأنا، إذ أسرق حوارنا الذي غصت فيه غوصه أهم، إنما – أعترف – أُشَخْصِنُه، أجعله يحمل شيئاً مني ولكني متأكد من أني بذلت جهداً كبيراً كي أنقله هو ذاته. ولست أدري ما إذا كان هذا الحوار سيحمل للقارئ شيئاً من الأفكار التي خطرت في ذهني وأنا أصغي إليه، ذلك الصباح في مكتبي في الوزارة. أفكار تتعلق بأنظمة الحكم والأخلاق والقيم ولكن، فيم الإطالة؟ ها هو ذا حوارنا، هو وأنا.

كنت رائق المزاج فأحسنت الترحيب به وسألته عن شواغله الراهنة، فالتفت إليهَ بكل ربطة عنقه الفراشة ووجهه ذي المعفرة الخلقة، وسألني مرتفع الحاجبين:

- أما قرأت مؤلفي الأخير «تاريخ المدنيات والديانات في العالم».

- مع الأسف. ولكني تصفحته على عجل عند المدير العام.

الورق شوي.. كنت أودُّ لو طبعته طباعة أرقى. ولكن يا مولانا، مشكلة المؤلفات مشكلة. هذه سوسة إذا تسلطت على الإنسان.. أنا من جهتي إذا لم

أكن في سبيل تأليف كتاب جديد تسلَّيت بكتابة مقالات أنشرها في «الأزمنة» أو في «العمر». كتبنا مؤخراً مقالين عن مشكلة فلسطين وقضية الجزائر فأثنى علينا الناس وقرظونا. وصلتنا رقعة من زميل قديم فيها فذلكة حلوة: إنه يمتدحنا ويشكرنا. معلموك، المقالان من ذلك المستوى الرفيع الذي تعوده القراء منَّا، واستحققنا من أجله لقب «ملك القلم»..

- هل يدفعون لكم؟

- أعوذ بالله!

- يدفعون؟

- أعوذ بالله!

- لا يدفعون؟

- أعوذ بالله. هؤلاء تلاميذي. إن فؤاد صاحب «الأزمة» تلميذي، ابني، أنا ربّيته...

- أعتقد أن كل عمل أدبي، مثل أي عمل بدني، يجب أن يكون له أجر.

- أي الحقيقة أن فؤاد قال لي بصورة ضمنية، من تحت طرف خفي. حدثني في الأمر أحمد أمير الدايم، المجاهد. أنت تعرفه.

- لا أعرفه.

الشاهد. قال لي أكتب كل يوم مقالاً للأزمنة. قلت له: أنا مستعد، ولكن يجب أن تنزّل مقالاتي في منزلتها اللائقة. أنا لا أقولها امتداحاً لنفسي ولا تفاخراً. امتداح النفس مكروه. ولكن قلت له أن يرفع لي، عدم مؤاخذة، هذه الخربشة التي يكتبها ويسمي لي إياها «افتتاحيات». قلت له: يجب أن تكون مقالاتي افتتاحيات. فؤاد المسكين لا يعرف يكتب.. هو تلميذي، ابني أنا ربيته، أننا أدرى البشرية، ولكنه لا يعرف يكتب. كان محرراً عندي فكيف أقبض منه؟ هذا يعني أن أصير محرراً عنده. هذا لا يجوز بتاتاً. الخلاصة،

قلت للمجاهد: أنا عملة لا أمسك بيدي إنما. إذا عملها من عنده وأرسل إلى أستاذه من حين إلى آخر يعني تتكه سمن حديدي، سجادة عجمية، شفقة طقم كوبونه.. أي يعني مثلما تقول.. آه يا مولانا، الشاهد إن صنعتنا، نحن الأدباء والعلماء، صعبة في هذه البلاد. يحتاج واحدنا إلى دفعة؟ ما في!.. منذ أيام زارني عيسى القاضي: رجل محقق، مدقق، مؤلف متمرس، عليّ الأعلى.. قعد يشكو لي. شيء محزن يا مولاي، شيء محزن من تسعة الكتب التي ألّفها المسكين لم يشتر أحد تسع نسخ. عنده الآن أربعة كتب جاهزة يفكر في عدم طبعها.. المسألة بددها ضربة مليحة، ضربة حظ. أنا عملت لي قرشين من كتاب «الاشتراكية في نظر الدين» فاوضني الانكليز على ترجمته فطلبت خمسة آلاف. قاموا دفعوا ألفين ليس إلا. وطبعوه بمئات الألوف، ووزعوه في بورما وسيلان والهند وجيبوتي.. معلموك ضد الشيوعية على خط مستقيم. وأخيراً أوفد غليَّ الفرنسيون مبعوثهم ثابت في بيروت. هذا موظف كبير في خدمتهم من زمان. أنا أكره هذه الدولة، يا سبحان الله، كره المجوس. كتبت عنها كثيراً وانسجنت في أرواد. أحم، أحم... هذا الربو أصبنا به في قلعة أرواد. الشاهد يا مولانا كتبنا مقالات كثيرة ضد هذه الدولة، فرنسا.. (يبتسم) سميناها، ولو قللنا الأدب، ملهى الغرب. من الله، أنا لا أستطيع أن أهضم هذه الدولة. قلت لثابت: «خمسة آلاف لا تنقص بارة الفرد!» وقال لي مستنكراً: «لماذا بعتها للانكليز بألفين؟ أنت تظننا لا نعلم!» قلت: أنا أكره هذه الدولة التي ربطت مصيرك بمصيرها يا ثابت. شيء فوق طاقتي، أكرهها. قالوا في الانكليز أنهم يصنعون في مستعمراتهم ما يصنع المزارع ألفهيم: يسممونها ثم يحلبونها. وأما أنتم فتحلبونها وهي جلد على عظم فتموت. «المستعمر يجب أن يكون حكيماً!» قال لي الملعون ضاحكاً: «اكرهنا ولكن اقبل ألفين وخمسمئة».. لم أقبل. تشددت. طمعت أن يعود. كان مستعداً، أنا أقول لك، لرفع المبلغ إلى ثلاثة آلاف وحبة مسك. ساعة جهل: ضيعنا الألفين

وخمسمئةّ! لأنهم ترجموا الكتاب ونشروه من غير أذني. ساعة شيطان. يومها كنت مبحبحاً، وطمعت في أن يعود.

كنت قد جمعت ألف عثمانية من مؤلفاتي. وفيت ديوني كلها، وعيشت العيال عيشة أمراء. أنا الآن أكتب مذكراتي في دنيا الفكر الذي شغلني طول عمري. سيكون عنوان الكتاب «مذكرات ملك القلم». سيكون كتاباً كبيراً، حوالي مئتي صفحة، مثل تاريخ المدنيات والديانات ولكن من يشتري؟ لو كنت في غير هذا البلد لتجنّد طلاب الجامعة وأساتذتها أنفسهم لبيع مؤلفاتي في الشوارع العامة. هذه البلاد ستظل متأخرة إذا كانت مملكة الفكر، الجامعة، لا تهتم بنتائج القرائح. أوردت في المذكرات نبذاً وفذلكات عن عهد جمال باشا.. كتاب هائل، عظيم. تجارب خمسين سنة في صناعة القلم. هؤلاء الذين تراهم الآن تملأ أسماؤهم أعمدة الصحف كلهم تلاميذي. المؤلف يحتاج ضربة تستحق.. في زماني، لما كنت أصدر مجلة «الأعمال والنيات» خطر لي أن أنشر أطروحتي التي تقدمت بها إلى الفحص النهائي في استانبول. يومها نلت عليها درجة امتياز، وتعينت على الرغم من صغر سني، ٢١ سنة، مفتش معارف. سميت الأطروحة «دردانة» يعني حبة اللؤلؤ. وخطر لي أن أدخل في الكتاب، وهو على شكل روائي عصري، مثل الكتابات التي تكتبها جنابك، بحثاً عن السفور والحجاب. اي نعم، أدخلت الفصل. دافعت عن السفور. هذه الحوادث أعطني فكرك، تجري احزر لي متى؟ سنة ١٩١٠ يا مولانا يعني من ست وأربعين سنة. تصور الجرأة. ويحكون الآن في تبجج عن التقدمية.. سبحان الذي يغيّر ولا يتغير. أي نعم، ونشرنا الـــ «دردانة». طبعنا منه ثلاثة آلاف نسخة. كان النساء في ذلك الوقت يضعن أغطية أشبه بالعدول، عمى خالص! وقامت قيامة المشابخ. عقدوا اجتماعاً في قرية الجمهور، في نزلة طريق بيروت، وقرروا الضغط على والي بيروت كي يستصدر ارادة سنية من السلطان يمنع بها الكتاب ويضع صاحبه بعيد الشر

عن سعادتك في قنطار حديد والعياذ بالله. وكان الوالي صديقي، فأشار إليّ من تحت طرف خفي أن أخبئ النسخ الباقية. وكنت قد بعت الفين في العراق والكويت ومصر وسورية وفلسطين وبقي ألف فأخذتها من المطبعة ووضعتها في حرز حريز. وأثمر الضغط فصدرت الإرادة السنية. لم تكن تتناول شخص المؤلف ولكنها تنصٌّ على مصادرة الكتاب فقط: معلوم جنابك. أصابع الوالي تدخلت.. ولكن أين الكتاب، موضوع المصادرة؟ هي هي هي، الشاهد أحم، أحم، مثلما يقول الفيلسوف العربي، تماماً مثلما قال يا مولانا:

أحبّ شيء إلى الانسان ما منعا

أعطيتني بالك؟ ما منعا؟ وهكذا كان: انهالت الطلبات علينا يا مولانا. صرنا نبيع، نبيع، نبيع بليرة فرانساوية ذهب، ونبيع بمجيدين، ونبيع بثلاثة مجيديات، وأنت ماشي.. عمل معي الكتاب يومها ألف عثمانية ذهب. الشاهد، كتابنا الجديد «تاريخ المدنيات والديانات» ما فيه ربح كبير. أين الثريا من الثرى وأين السيف من العصا!

- فيه مدح للانكليز كما فهمت.

- أي نعم ولكنه مدح ضمني. انتبهوا له، ملاعين وكافؤوني عليه. ومثلما يقول المثل: لماذا لا أمدحهم . أنا أبوس يدك وأدعو عليها بالكسر. . المقصد هو أن تحظى بمرأى أمات الحصان شياتهم.. يخرب بيتهم ليرتهم حلوة، يجب أن يكون عند الانسان أنصاف. ليرة حلوة ما عليها كلام. وبعدها ينضربوا في قلبهم! الانكليز يا مولانا يحكمون العالم من وراء ستار. أذكيا. وسيظلون يحكمونه إلى الأبد. ملاعين، أنجاس. أين فيه طبخة رائحتها طالعة؟ فتش عن الانكليز. أولاد حرام. الآن الأميركان، الروس، الألمان.. كله خردلة، كله يأخذ دروسه من الانكليز. ما دام عندهم أم الحصان ها ها ها..

- ها ها ها..

طيب فتوا لي أنا أيضاً

في البداية كان المقهى لايعدو أن يكون موعداً، ندوة صغيرة عبرة، يزدادون فيها معرفة بعضهم بعضاً. وكانت تلك الأيام تفيض أحلاماً: الصبا، الجامعة، كل يوم يشتغل ألف مكوك في غزل المستقبل، الصبوة بفجرها قد مياد، ويفجرها فكرة..

ولكن المقهى لم يلبث أن صار خاتمة، محط رحال منهوكة ضائعة، بداية ونهاية، كأنه سجن مؤبد. فإذا غاب أحدهم ليلة أحس أنه أثم في حق الجماعة، إن شيئاً مهولاً قد حدث، إن دولاب الدنيا قد أصابه خلل.

ومع كرّ الليالي كانت الينابيع تجف، ويتسرب الخراب إلى كل عرق أخضر، يبشر بربيع، حتى اقتصر الحصاد عندهم على الحكم العامة التي لا تكلف إلا جهد تحريك الشفتين مثل الدمية: لازم على الإنسان أن يساير، الإنسان لا يتعلم إلا من كيسه، الحق للقوة، الدنيا حظوظ، أنا حظي لو راح إلى البحر نشفه، الحياة..

في تلك الليلة وفد واحد من رفاق الجامعة القدامى. لابد أنه هو أيضاً تحفّز، ثم تفرفط ثم أوى إلى مجتمع مثل مجتمعنا في القهوة، جف وضاق بدوره حتى اقتصر على المواعظ التي لا تضر ولا تنفع.. أو لعل مجتمع الرفيق العائد إنما أبقى على نافذة، طاقة، ثقب معنكب ولكنه يطل على العالم الواسع في الخارج. هذا ما كنا نجهله. أكثرنا لم يكونوا يفكرون فيه، لأنه سيان لديهم أن يكون في جدار ما منفذ يتسرب منه خيط من ضوء أو لا يكون. لم يكن في نيتنا حتى النظرة الخاطفة الفارغة!.

وقرب الوافد كرسيه مني، قال:

- تعال نذهب إلى السينما.

والتفت إليه مدهوشاً: أنا لم أر فلماً منذ أكثر من أربع سنوات. بدأ هذا ملالا من سلسلة أفلام غثة ولكنه أزمن.

قلت في رثاء:

- السينما؟

- أي نعم.

- فيها فلم ظريف؟

- فلم هائل. تصوَّر : المخرج والت ديزني!

أنا سمعت بهذا الاسم. أين! أين اللهم صلِ على النبي؟ إي تذكرت:

- هذا شبه الرسوم المتحركة؟

- أي نعم، هو ذاته!

- يعني غرض أولاد صغار؟

- أنت تمزح ! فلمه «حسناء الغابة النائمة» غرض أولاد صغار؟

على كل حال فلمه اليوم للكبار.

- أي فلم؟

- هذه المرة يخرج روبنسون كروزوي قصة دانييل ديفو المعروفة. شيء رائع، رائع جداً.

- يعني تقصد أن ممثلين من لحم ودم..؟

- أي، أي نعم!

والت ديزني ، روبنسون كروزوي، الغابة النائمة.. ساد مجتمعنا صمت. تبودلت نظرات مذهولة. من أين طلع لنا هذا الرجل الليلة؟ لا بد أن

جماعتنا سمعوا ديزني. سمعناه لما كنا نسمع بأسماء أخرى: شابلن، بروكوفييف، سارتر، تشايكوفسكي، رودان فيدياس.. ولكنها أسماء تشبه ما وعى طبيب خامل من كتب الطب المدرسية: ذكريات متملصة. سراب . نحن كفت حياتنا عن ان تكون معقدة كما يروق لهؤلاء الأجانب أن يصنعوا بحيواتهم! نحن نسهر كل ليلة معاً من غير أن نتبادل عشرين كلمة. نلعب. نقرقر بأركيلة، نتفرج خمس، ست ساعات على لاعبين منا يخوضان مباراة. وكل ربع ساعة ترتخي كلمة:

- بهيمة؟

- أنا؟

- أي أنت.

- أنت تعرف من البهيمة فينا.

وبعد فترة أزلية من صمت. يقول واحد:

- قلت لك ألف مرة روح تعلم اللعب!

- أنا!

- ويستمر ذلك حتى الحادية عشرة، الثانية عشرة، الثالثة صباحاً.. في بعض الليالي يفقأ أحدنا سؤالاً:

- شو فيه ما فيه في الدنيا؟

فلا يرد عليه أحد زمناً غير قصير. ثم إن يتثاءب ويسلت هذا الجواب:

- الأخبار عندك؟

ويسكت السائل. الطلعة. كاسباً غانماً!

وعاد الوافد يقول:

- ألا تقومون؟

صمت .. ومر النادل فطلب إليه أحدنا ورق لعب. وقال:

- أنا ما شفت فلم سينما من ست سنين.

وقال آخر:

- تعالوا نلعب زيرو.

وألح علي الوافد:

- قم.

- ولك أخي ابق. تعال إلعب معنا.

- والله فلم لا يفوت.

- ابق.

- وجاء النادل بالورق. فدُقَّ وامتدّت يدٌ تهمُّ أن تفت. وسأل صاحب الورق.

- أفت لثلاثة؟

وقال لي الوافد في رخاوة:

- ألا تقوم؟

- اقعد.

- طيب فتوا لي أنا أيضاً!

* * *

السنديانة الهرمة

أكتب إليك من القهوة الصغيرة التي تعرفينها في الحديقة. أتذكرين؟ كنت تمرين من قدامها وتنظرين ثم تصدر عنك تلك الايماءة الخفيفة المحببة المتآمرة، تند عن عينيك الباسمتين ويدك : «الحقني!» فأسحب أنا سحبتين من الأركيلة وألف نربيشها عجلان، وأقوم أهرول حتى ألحق بك، ونروح نهيم في الأزقة ونثرثر.

أنا الآن أجلس في موضعي ذاته قرب الباب، لا انتظر أحداً، لا أطمع في أن يكلمني غير صاحب القهوة يسألني عما أريد أن أشرب، وحيد مع دفتري السميك وبضعة الأقلام التي كلما قصر أحدهما سكرته ونترت آخر. اكتب، اكتب، اكتب. أحس أني اذا كففت قضيت، أن لو وهبت أربعين أخرى مثل هذه، تغلي نشاطاً وعطاء، لما استطعت أن أقول كل ما في قلبي، إني سحابة جواد قادرة على أن تنهمر إلى يوم الحشر. أنا لا أريد أن أطرح أسئلة. «لماذا؟ فيم؟ ألست تمطر في الصحراء؟..» لا أريد أن يسأل أحد ورق الورد لماذا يهمس، يوميء، يضوع، يتصبّى.

أية «لماذا» أطرحها في هذا الشيخ الكبير الذي اعتاد أن يأتي إلى القهوة في مثل هذه الساعة، بين العاشرة والنصف والحادية عشرة، وهو يكاد يتقصف تحت أحماله؟ سأحكي لك عنه. أنا أراقبه منذ أسبوع. أظنه تجاوز السبعين. قصير، نحيف، مافيه. إلا الجلد والعظم، عيناه صغيرتان، واضح أن نظره ضعيف، تعرفين ذلك من هذه الحركة المتعودة، أن يمد يديه إلى أمام كأنه يتقرى طريقه بهما.. وهو يضع على رأسه طربوشاً، الناظر إليه لايراه

لأن حطة من القماش الخشن تستره وتتعقد في إحكام تحت ذقنه.. ظهره محني قليلاً.

وما أن ألمحه في الشارع يتقدم من الرصيف حتى أدع ما بين يدي من عمل، وأنظر إليه وهو يدلف في بطء شديد يحمل ربطة المكانس التي تتدلى على صدره وظهره، الربطة الأبدية. وأية مشية! أفكر لو أنه مشى على أزهار طرية لما جرحها، مع أنه ينتعل حذاءاً عتيقاً، بائخ اللون، متكسر الجوانب لاشرائط له، يظهر من فوقه، بينه وبين حرف السروال، الكاحل المعروق الهزيل القاتم.

وتصدم قدمه حجر الرصيف صدمة خفيفة فيرفعها ويصعد.. على طرف الباب يتوقف ويزلق ربطة المكانس تزليقاً حذراً، مدارياً، ويميل معها حتى يركزها غير بعيد من المدخل عندئذ ينفتل نحو باب القهوة.. هنا درجة أعلى من الرصيف، ولذلك يميل إلى الأمام وقد رفع قدمه قليلاً ويمد يده إلى داخل القهوة، فيهرع أي انسان: صاحب القهوة، أحد الندل الثلاثة، زبون ويتناول اليد الممدودة، ويعين الشيخ على ارتقاء درجة القهوة الوحيدة ويظل محتفظاً باليد. العجوز حتى يجلسه على كرسي شاغر.

ها هو ذا حسين، أكبر الندل الثلاثة، يسحبه وراءه، ويفتش: الكرسي الوحيد الشاغر أمامي أنا.

حسين يُجلس الشيخ عليه. والشيخ لا يجلس كما تفعلين أنت وأنا، أعني إنه يملأ الكرسي بوجوده. لا، أنا ألتقط كل حركاته من حركته الآن. ها هو ذا يركز نفسه على حافة الكرسي خفيف الظل خفيف الوطأة، على وشك أن ينزلق في كل لحظة، ويختفي. ويمد يده إلى عبه فيخرج كيساً من الخام له بزيم معقود على فوهته فيحله. عدة دورات تدورها يده اليمنى قبل أن ينفتح الكيس وتمتد إليه اليد الصغيرة إلى التنباك فتخرج منه ملء راحة طفل صغير

رضيع. الشيخ ينثر حبة التنباك على المرمرة: ينحني عليها، يفليها، ثم يجمعها بعضها إلى بعض ويدفعها دفعاً هيناً، ودوداً إلى زاوية الطاولة. صاحب القهوة يقترب من الطاولة ويفتح كفّه فيرفع الشيخ نظره إليه ويبتسم ثم يعود فيكتب على حبة التنباك ويسقطها في راحة الكف المفتوحة.. الشيخ يهوم لحظة. صاحب القهوة يعود بالأركيلة وعلى رأسها عرف صغير بني في ذروته بصتا نار، ويضع يده على كتف الشيخ في رفق فيصحو هذا ويتناول النربيش ويسحب بضع سحبات. «النفس» الصغير يستمر عادة ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة. وأما هذا النفس الرضيع! وهو لايكمله أيضاً. بضع سحبات لا تتجاوز العشر، ثم يلف النربيش ويعود يهوم لحظة.. ويفيق، فيمد يده إلى عبه مرة أخرى ويخرج كيساً آخر فيه قطع نقدية صغيرة.. تنثر، تُعد مرة مرتين ثم تُكوَّم في حركات يختلط فيها الحلم باليقظة، على حافة الطاولة.

هذه أول مرة، منذ أسبوع، أجدني قادراً على كل هذا الرصد الدقيق.

واليوم، لأول مرة كذلك أسمع صوته الواهن البعيد، ذلك أنه رفع عينيه إلي وتفحصني طويلاً ثم هبط بنظره إلى ما بين يدي من أوراق فأكب على الأسطر: سطر ما فيه شطبة واحدة، سطر ثان مشطوبة كلماته كلها بخطوط مائلة متصالبة تأبى على إحدى الجمل أن يطل فيها حرف واحد.. وخفق قلبي كأني في فحص حقيقي، وابتهلت: يا رب اجعله يكلمني! في البستان الذي قامت عليه حارتنا شهدت آخر أيام سنديانة مسنة. الحفريات، جعلت تنتزع كل يوم منها جذراً، فلما صدر قرارهم لم يحتاجوا إلا إلى دفعة، ومع ذلك ما كان أكثر جذورها! ما أقوى تشبثها بالأرض! ما أوجع الآهة التي كان يطلقها الجذر وهو ينسلخ عن حلمات التربة.. أنا حتى الآن كلما أعملت رفشي في جنينة البيت الصغيرة أجد بضعة منها، من جذورها.

وكلمني. نبتت ابتسامة معتذرة في الصلصال المتغضن الجاف وانداح الصوت الواهن القصي:

- الله يعطيك العافية.

- الله يعافيك.

- أنا ما تعلمت القراءة والكتابة في عمري!

وعاد يدني وجهه من أوراقي المنسية وينوس رأسه فوقها وهو يتمتم لنفسه:

- شيء صعب.

وتحامل على نفسه ثم نهض وجاء حسين فأخذه من يده وأوصله إلى ربطة المقشات وحمله اياها من جديد. وراقبه حتى هبط الرصيف وابتعد فلما صار في منتصف الشارع ندت عنه صيحة واهنة بعيدة:

- المقشات، المقشات!

- لماذا أكتب إليك عن هذا؟ أنا أدري! القصة أني أحسبني جذراً منسياً تشجُه بسنديانة عتيقة هرمة وشائج أصفى من المزن وأحن من الأم المرضع.

* * *

في التكسي

أنا في صدر التكسي، في الوسط أميل إلى اليسار.

ركبت في موقف «المصالح العقارية» بعد أن انحنيت على طاقة السائق وصحت به. «باب توما»! فأومأ إلي برأسه أن «أصعد» ولكني صحت مرة أخرى: «سرفيس؟» فكرر الايماءة.

بعد قليل صعد واحد سمين، معه كيسان من الورق في أحدهما موز وفي الآخر تفاح غولدن، واتخذ مجلسه قرب السائق، وانتظر هذا عبثاً فلم يصعد أحد في هذا الموقف، فدعس حتى موقف المحافظة.

هنا، في موقف المحافظة، لمحته ينزل عن الرصيف ويتقدم من الباب الأيمن ويفتحه.. إنه لمحني هو أيضاً، ولكن كان الأمر قد قضي. فات الأوان وعاد غير قادراً على النكوص، فجلس قربي..

إنه يعرفني. كنا زميلين في المصرف المركزي وكان يحلو لي أن أراقب حركاته المتوجّسة، وسوسته، لصوقه الدبق الضيق على شؤونه، سواء في البيت أو في المصرف لصوقاً أفظع ما فيه أنه خلو من الحلم. أذكر أني دعوته مرة إلى غداء في مطعم مع زمرة من الزملاء. سر سروراً واضحاً. بدا كأنك أخرجته من كهف مظلم إلى نور الصباح.. بعدها ظل دهراً طويلاً يتململ كلما أتيح لنا أن نتجاذب الحديث، ويقول لي بين لحمه وثيابه. «بدنا شي مرة نعزم عليك!» ويتثاءب ولكنه لايعزم علي البتة. وأنه يتثاءب أيضاً كلما حاد الحديث، ولو أنملة، عن أحد موضوعين : غلاء المعيشة والتحويلات المصرفية، يتثاءب ويكتسي وجهه معنى منتحباً كأن هموم الدنيا قد راحت تحفر فيه. معنى يشهّيني بالبكاء!.

طوال الفترة التي وقفها التكسي في موقف المحافظة لم ينظر إلي نظرة واحدة. وصرت أقول في نفسي:

«إنه رآني، حتماً، وهو لايريد أن يكلمني..» وجعلت انزلق حتى مست كتفي كتفه. التكسي لايزال واقفاً، أنا أحدق إلى قذاله تحديقاً ثقيل الوطاة. ولكنه لا يلتفت.. لا شك في أن نظرتي تضغط عليه. ها هو ذا يتظاهر بالبحث في جيبه، عمّ؟ يده تخرج وفيها وصل برسالة بريدية مضمونة. إنه يغوص في قراءة النص. أنا أيضاً أقرأ: «الجمهورية العربية السورية، المؤسسة العامة.. المادة، تحرير».. ولكن قراءة وصل، ما عسى أن تشغل! ها هو ذا يستعرض الواقفين على الرصيف في انتظار الباصات.. وأعود فأقول لنفسي: إنه لاينظر إلي.. هو، بيته في السادات، يعني أنه سينزل قبلي.. فاذا كلمني وجب عليه، من باب اللياقة، «أن يعزم علي» بربع ليرة على الأقل. لياقة، حياء، ما شئت ولكن يجب عليه أن يدفع: وأنا لا أكلمه من جهتي.. قررت أن أتابع العملية حتى نهايتها!.

في هذه اللحظة فتح باب اليمين مرة أخرى، وهم شخص بدخول التكسي. واذا صاحبي يتبعثر، يحار لحظة ثم ينط خارجاً من السيارة، داعياً القادم الجديد بالاشارة، إلى الركوب قربي. وركب هو في أقصى اليمين، يعني أن الغريب فصل بينه وبيني. وقلت في نفسي: «لقد تمرّس ضدي!».

لم يوفق السائق إلى راكب يشغل المقعد الأخير الذي بقي قربه، لا في موقف السبع بحرات ولا في عين الكرش على الرغم من انه انتظر، راوح، صرخ وراح يسب:

- تفو على هالبلد.. بلد.. بلد جربانين.. بدهم الباص. المسألة كلها تفرق ١٧,٥.. الله يساعدهم، شغلة تخرب البيت!.

وبعد أن صمت قليلاً عاد يسب:

- تفو، لو كان واحدة خفيفة راكبة معي، واحدة من أمات التنورات الضيقة.

ونظر إليه جاره السمين في دهشة بريئة ولكن السائق لم يسكت:

- أنا ما بدي من ربي إلا أنه ينزل مطر!

ونظرت إلى صاحبي. لم يكن حتى يبتسم، كان مكتوماً في الركن يكاد يحشر وجهه في المخمل..

وسارت العربة، وصاحبي لا يزال يصر على النظر إلى الأرصفة اليمنى. وانا، خطر لي أن أخفف عنه بعض الشيء.. هربت نظرة أو نظرتين أركضتهما وراء صبايا المدارس الصغيرات، بصدرياتهن السماوية اللون إلى مافوق الركبة، الكلسات السوكيت، والأحذية المسح.. سرب من هؤلاء الحمائم الملونة ذات الهديل كان يزيد على خمس أو ست أمسكت كل منهن بقطعة بوظة وراحت تداعبها بطرف لسانها.. ما عسى أن يعني مثل هذا الشباب الريان المتدفق مثل شلالات تل شهاب، أمر غلاء المعيشة والتحويلات المصرفية. وربع ليرة تمثل، لتجنب دفعه، مسرحية صامتة (بانتوميم) ما انفكت شغالة منذ عشر دقائق!.

انتبهت فجأة إلى أن التكسي قد توقف قليلاً عند قهوة «ديب الشيخ» في القزازين، ونزل السمين صاحب كيسي الفاكهة، وانطلقت السيارة. الموقف التالي هو السادات. عدت لا أطيق.. يجب أن أسرع. فعلاً، ها أنذا أرفع ذراعي خلف جاري الغريب. وتدنو يدي من كتف الزميل القديم وتدق عليه.. يا للعب قسمات الوجه، التعبير، الدهشة المصنوعة، الصيحة الباهتة:

- هذا أنت!

- كيف حالك؟

- كيف ما شفتني؟

- والله ما شفتك. (إلى السائق) عندك سادات من فضلك.. ثم يلتفت إلي:

- تفضل.

- شكراً.

وتغوص يده في جيب البنطال الصغير. وأقول أنا في رخاوة:

- خل علينا.

- لا، استغفر الله.

ويدفع، ووجهه متقبض، منتحب.

وتستانف السيارة سيرها.

في موقف باب توما، آخر موقف، سمعت سائق التكسي يصيح بي بعد أن صرت على الرصيف:

- أخي، يا استاذ!

- أمر؟

- نسيت تدفع لنا.

- ليش ما دفع لك رفيقي، هناك في السادات؟

- دفع.

- إذن؟

- عن نفسه!.

* * *

التصوير الحديث

كان الباب مغلقاً، تتراءى من وراء زجاجه الشافّ ظلال أناس يروحون ويتوقفون ويختفون. وأمام الباب وقف شرطي سمين، ضخم يمسك بالأكرة ويصيح بين حين وآخر:

- بعّدْ، أنا أقول لك. بعّد أحسن ما أعمل لك اللازم إلك وأله.

ولكن أحداً لايبعّد. كانت تتكوم أمامه، وعلى طول الرواق المظلم كتل آدمية، نساء ورجال أكثرهم من الريف. فلو أراد بضعة الرجال الذين يقفون وجهاً لوجه مع الشرطي أن يتقهقروا خطوة واحدة لداسوا على رجل أو دعسوا في بطن.

وتابع الشرطي بصوت عال، مخاطباً نفسه:

- يعني حرام أكون في إدارة غير هدي، في مصلحة مثل الخلق والعالم! كلّ سنة في مثل هالموسم تلتزق المصلحة هدي بالذات في خلقتي، وخد يا وخم أستغفر الله العظيم! حاجة دفش يا حمار!.

وتنحنح أحد الواقفين حول الشرطي، وهو قروي قميء، شاحب يضع حطة صفراء تخفي عنقه وقسماً من وجهه:

- الله يلبسكم توب العافية. شغل الحكومة صعب، صعب. أنا أعرف من الدركي عبد السميع أفندي، والله شهادة لله أنكم يا جنس الشرطة والدرك، تتعبون، وتأكلون خبزتكم بعرق جبينكم!

كانت عيون كثيرة ترتفع إليه بينا هو يتكلم، معجبة مدهوشة أو خلواً من المعنى، قد انطفأ فيها التطلّع إلا ما تلمحه في عيني قطة نعسة.

وأما الشرطي فقد أشاح بوجهه احتقاراً. وتابع القروي متسائلاً:

- يا سيد راسي طويلة حكايتنا هنا؟ قصدنا أننا نتيسر قبل ما يمسي علينا المسا. الطحنة تركناها عند مصطفى الزين!.

فانتهره الشرط من غير أن ينظر إليه ذاته:

- مئة مرة قلت لكم للساعة الواحدة. أنا أحكي بالعربي: قبل الساعة الواحدة ما فيه جوازات. وغمغم القروي في استسلام:

- بدنا، يعني، قصدنا نتيسَّر قبل ما يمسي علينا المسا. الله يسترك.

- كانت الساعة حوالي العاشرة. والمسا بعيد حتى يمسي.

وصاح الشرطي صيحة لا غضب فيها، كأنها للمبدأ لا غير:

- هس هه.

- فهمس القروي ولزم الصمت.

في نهاية الرواق، قرب النظارة، لم يكن القرويون على عجل من أمرهم. كانت امرأة رخوة الجلد تلقم ابنها ثدياً ممروطاً مثل صرّة فارغة، وثلاثة كهول يفرشون على الأرض شملة قذرة عليها أرغفة من الخبز المشروح، وصرر زيتون وحلاوة وجبن كشفت أغطيتها الورقية المشبعة بالزيت والسيرج.

كان الضوء المتحدّر من طاقة النظارة يضيء لهم «المائدة». وكانوا يأكلون في شهية وعيونهم تبرق من تلذذ وهيمان. وقد يتحدثون بين اللقم حديثاً لا علاقة له بهذا الانتظار الطويل الممل أمام باب الدائرة.. وفي النظارة، على المقعد الخشبي الخشن، جلس ظنين بطاقية من اللباد، مستسلماً، يهوّم في خلو بال، ويفتح عينا وانية واحدة يسارق القرويين بين فترة وأخرى نظرات ذائبة فاترة. هو أيضاً لم يكن يبدو عليه أنه مشغول بأمر توقيفه!.

ومع هذا الخلق، تمتد من النظارة إلى نهاية الرواق خطوط من الأوساخ وقشور الفواكه وأوراق حكومية، بعضها واضح أن كاتبه قد تقيّد في خطّه وتنميقه..

وشق هذه الكوم الآدمية قروي بشروال وسترة عسكرية قديمة، وشمكلة بيضاء .. كانت في عينيه غفلة وغرارة وجدّ ظاهر. ووقف غير بعيد من الشرطي، وأطلّ عليه من فوق الرؤوس وصرخ به:

- قل يا ابن أخي، هين يبيعون البصات للحجاز؟

- فطافت بوجه الشرطي ابتسامة تلّبثت قليلاً ولكنه سارع إلى زجرها وقال في نزق.

- أي هين.

قال القروي ويده على جيبه.

- قديش؟

قال الشرطي:

روح هات صورتين قبل ما تدفع.

قال القروي:

- صورتين ليش؟

فتدخل الواقفون حول الشرطي، ولكن الرجل القميء هو الذي تولي الشرح، فأخبره أن الصورتين ضروريتان للزقهما على الجواز، لأن الحكومة ما هي لعبة، إذا قالت لك يجب عليك أن تلزق صورتين على الجواز فمعنى هذا أنك لا تستطييع أن تخطو خطوتين من دونهما، وإذا..

وفكّر القروي طويلاً، ثم سأل:

- وأين يبيعون الصورتين بالله، بحياة بيّك؟

فأفهمه الرجل أنه ما عليه إلا أن يخرج من حيث دخل، حتى إذا صار في الشارع، قدّام المدخل، رأى فتى قدامه سلّم بثلاث أرجل، على ذروته صندوق له ما يشبه الكوفيه السوداء، يدس فيه رأسه بين حين وآخر، ثم لايلبث أن يرفعه، مثل الدجاجة التي تشرب من جرن الماء في الضيعة وتنظر

إلى ربّها، داحشاً يده في الصندوق خاضاً فيه شيئاً يشبه القربة يخض فيها الزُّبد..

ولم يدع القروي الرجل القميْ يكمل كلامه. أمسك يديه الاثنتين بكلتا يديه وضمّهما إلى صدره وصرخ فيه متهللاً:

- أي بالله يا مرحوم البيّ أعرفه. شفته. هو هين قدّام الباب!

فأطلق المجتمعون تنهّدة ارتباح. وقال الرجل القميء، الفصيح:

- هذا هو المصور!

وانفتل القروي على عجل، واندفع قاصداً المدخل، لايهمّه أداس على رجل أو دعس في بطن.. حتى صار في الشارع، وهو يردده في سرّه: «المصور، المصور!» كأنه كان يخشى أن ينسى الكلمة.

أمام مدخل منزل العابد، في زقاق رامي مصوران، إذا أنت تأملتهما راعك تشابههما، كأنهما توأمان.. وعلى كرسيّ بين صندوقيهما كان يجلس، في وقار، شيخ في حوالي الستين، عمامته عمودية جداً على رأسه، حسنة الطيّ، وجبتّه فضية انزرعت البقع في أمكنة عديدة منها، وبدا بزيم من الزفت يحف بحرف العمامة وقبّة الجبة والكمّين، كأنه مولع بالحواشي.. كان ظاهراً أن أحد المصورين مشغول بأمر الشيخ بينما وقف الآخر، صابراً، هاديء القسمات والصوت، يجيب عن أسئلة الشيخ. قال هذا:

- أي نعم، إذن قلت لي أنكم من صلخد؟

فقال المصور الشاغر متأدباً:

- أي نعم سيدي.

- ولكن لماذا تركتم قريتكم؟

- معلومك يا شيخي ما فيها شغل، قمنا أنا وأخي بعنا شقفة أرض وجينا نتسبب هنا في الشام.

فتنّهد الشيخ:

- صحيح ، الحال واقف.

وتجشأ وهو يستغفر الله وأضاف:

- الرزق على الله الكريم.

كان على وجه المصور في هذه الأثناء استفهام ساذج. لعله كان ينتظر أن تنتهي خطبة الشيخ بنكتة أو مزحة. كان في وجهه شيء يجذبك إليه: شقاوة طيّبة وغشم يحببه إليك، ويجعلك ترثي لحال هذا الفلاح الذي لم تَسْرِ في عروقه موهبة ممارسة الآلة وعلاجها. كان يضع يده على الآلة بين حين وآخر يلمسها، أو يغمض إحدى عينيه ويحدّق بالأخرى في الثقب الموجود في زاوية الصندوق العليا، اليسرى.. ربما كان هو نفسه غير مصدق أن بين يديه آلة حذق من العين وأدقّ من اللمس.. ويئس على ما يظهر من الشيخ فمدّ يده إلى المنفاخ فشده، وجعل يتأمله وهو يدرج على دواليبه الصغيرة الدقيقة. وسحب إحدى القوائم الثلاث معدلاً من وقفة آلته.. وهو خلال ذلك كله متعجب مدهوش!

هنا برز القروي ذو السترة العسكرية أمام المصور وصاح به من فوره، وحتى قبل أن يلقي التحية:

- أنت المصور؟

فقال هذا مبتهجاً.

- أي نعم.

قال القرويّ:

- أبغي تبيعني صورتين والله.

- أقعد.

- فقعد القروي على الكرسي الذي أشار المصور إليه وهو يلتفت حواليه، كأنما يتساءل عما يرد به، ويغمغم:

- إيه ، سلّمت أمري إلى الله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

- ارفع الشملة، يا عم.

فلم يفهم الرجل وظلّ يتلفت حواليه.

في هذه اللحظة رفع المصور الآخر، عميل الشيخ، رأسه عن صندوقه، وسحب بضع بطاقات نديانة قدّمها للشيخ الذي مدّ يده إلى جيب سترته الداخلي وأخرج علبة نظارتيه، وقد تثنى جبينه في اهتمام شديد. فلما وضع النظارتين طفق يحملق في الصورة حيناً وينقل نظره إلى ورقة كانت في يده. ودام الحال طويلاً، وأخيراً رفع رأسه ونظر من فوق اطار النظارتين، إلى المصور الذي كان ينتظر الحكم في ترقب وصبر:

- يا ابني أنا شايف لك إياها ممطوطة شوية.

قال المصور:

- مستحيل.

قال الشيخ لاثماً:

- مستحيل! لا تقل مستحيل، لا تستعجل. العجلة من الشيطان الرجيم والعياذ بالله، والتأني من الرحمان.. من تأنّ نال ما تمنى يا عين عمك. تعال شف لي هدي مثل هدي؟

- قال المصور مدافعاً:

- أي يا شيخي هدي ماكنة، ما معها مزح، أنا لا دخلت ولا خرجتّ!

وعاد الشيخ يقارن بين الصورة والورقة ويهز برأسه مستنكراً. وأضاف المصور:

- هذه هو التصوير الأصلي، التصوير الحديث!

وغضب الشيخ هذه المرة وصرخ:

- اسكت، شف، تعال شف لي كلمة، حسن سلوك، هدي. أين الكاف، و«محمد جلال الدين الفيومي» أين الــ «جلا» أين الــ «مي»؟ وتوقيع مدير

الامتحانات بياض. العمى، بياض بالمرة. والله في الدائرة اذا شافوها صربوها في وجهي استعنت بالله العظيم. نحن ندفع عملة، نحن لا نلعب.

وخرج على صوت الشيخ بياع الراديوهات المواجه، على الرغم من أنه يفتح راديوه مستمعاً إلى أغنية شديدة الضجيج لعبد الحليم حافظ، وسأل عن الخبر فاستداه الشيخ على المصور قائلاً:

- تعال يا عين عمك شف لي هالرقم. شف ٣٥٠/٣٥٨، أعطني بالك، الثمانية تظهر مثل الواحد. طلع لك تطليعة بصلاة محمد. لا، هدا ما هو شغل أبداً، ما هو شغل بالمرّة!

وحمي الجدال وارتفعت الأصوات.. وتجمع بعض الصبية وامرأة عجوز بملاءة زمّ.. ونطّ بائع الراديوهات إلى دكانه فقتل الزر وإذا فريد الأطرش يبعث هذه المرّة:

- يا دنيا!

ورفع الشيخ صوته من جهته أكثر فأكثر. ثم صمت الراديو وراح البائع يسكت كلا من الشيخ والمصور، وفي همته أن يدلي بحكمه في المشكلة..

وتوفق بعد مضابحة وجهاد طويلين إلى اسكاتهما. وسأل الشيخ عما يريد تقديمها إلى المحافظة لأن ولده محمد جلال الدين، الله يسلمه، نجح، الخ.. فزوى البائع ما بين حاجبيه، وفكّر قليلاً ثم اقترح أن يذهب كلّ من الشيخ والمصور إلى المحافظة ويطلعا الموظف المسؤول على هذه النسخ المصورة، فإذا رضي بها دفع الشيخ الأجرة واستقام الأمر.

وبدت الفكرة وجيهة للشيخ.. كان يهمر ويبربر حانقاً، ولكنه نزل عن الرصيف، ويمم شطر المحافظة يتبعه المصور الذي بدا هو أيضاً، راضياً بحكم البائع.

وما أن غيبّهما المنعطف الذي تقوم فيه دكان بياع اليانصيب الأرمني حتى احتدمت مشاجرة أخرى.. كان القروي ذو السترة العسكرية، والشملة

البيضاء هو الذي يبعق هذه المرّة وصورته في يده مشرعة. لقد أفهمه المصور – وهو يعمل- إن الصورة يجب أن تشبهه لأنها إذا لم تكن كذلك تعرض إلى مشاكل في الباخرة، والحج. وإن هذه الماكنة إنما صنعت لإخراج صور تشبهه.. وهاهو ذا يشرع الصورة الملوية الندية في يده غاضباً ويصيح منكراً أن تكون هذه صورته.. وإن المصور الوليد قد غشّه وأعطاه صورة زبون آخر، هل يستحمره؟

*   *   *

المهنة؟ ملاك!

صمت أبي قليلاً ثم استأنف في هدوئه الأنيس ولهجته التي لاتخلو من طيف خفيف من الأمر:

- ألا ترى أنك تبالغ يا حاج؟

فخفض الآخر عينيه العمشاوين وأمال رأسه الصغير في اتجاه محدثه وأخذ يفرك يديه. ولمحت أنا في نظرته التحتية وتلملمه في مجلسه نوعاً من الارتياح الخفي، قال:

- لا، ومن وجبت شفاعته.

- لم يقل لا، ولكنه أضاف إليها جملة. ما أكثر رغبته في إطالة الحديث!

- وقال أبي:

- ولكن هذه قصة لم تسمع في حلب فقط.

فقال الحاج:

- غداً ترى سعادتك كيف تصير هذه المنطقة.

أثناء الحوار كنت أفكر في هذين الرجلين اللذين لا يمكن أن يجتمعا إلا مثل هذا الاجتماع العابر، الموقوت، المحدودة غايته. تزوج أخي الطيّار وانتقل من دمشق إلى مطار النيرب فعاد لا يكفينا بيتنا القديم قرب السرايا. وعثرنا على مسكن جديد في حيّ السبيل أعجبنا جميعاً فاستدعى أبي هذا الإنسان الأعجف الرث، مالك المسكن الجديد، يساومه على طريقته الخاصة. قد يكون صوته العميق المطمئن بما في جرسه الراضي من وداعة وجود،

إنما يلخص طبيعته كلّها. المال! ليس له عنده إلا أن ينفق. كان الانفاق عند أبي لذة وعادة تشبه هوس الخمر عند الشاربين. وها نحن أولاء، بعد أن عمل أبي حوالي أربعين عاماً في الوظائف العالية، وبعد الضيعة الواسعة قرب الوضيحي على بعد خمسة عشر كيلو متراً من حلب نخرج من بيت أجرة إلى بيت أجرة آخر.. وصوت أبي العميق المطمئن يصل إلى قلبي: «هل نطيق أن نحيا على نحو آخر»!.

وأما الآخر فكان شيئاً مختلفاً تماماً. وفد على حلب من دركوش منذ سنوات قليلة مالكاً زراعياً في صندوقه الحديدي سندات بآلاف الدونمات من الأرض آلاف شجرات الزيتون. لعل مجيئه إلى حلب، في البداية، كان من قبيل السياحة، وإن كنت استبعد فكرة السياحة عن هذا الدماغ المحدودة آفاقه. ويظهر أنه سمع مما يدور عن الأبنية وأراضي البناء وارتفاع الأجور وتحسّن المناطق.. في باب الفرج دُفع خلو رجل قدره عشرون ألفاً في دكان صغير. العمى! عشرون ألف ليرة! إذا كان طن الزيت يسوى ثلاثمئة ليرة! والقطاف، وصاحب المعصرة، وتاجر الزيت ونفقات النقل، ومنعت الحكومة التصدير فصار القرش ربع قرش لا! البناة لا تحمل كل هذه المغامرات. البناية كائن في خدمته الحكومة من أصغر آذن إلى أكبر رئيس محكمة: امتنع مستأجر عن الدفع تعالي يا محكمة. انكسر لوح بلّور تعال يا شرطي، يا جابي، يا محضر.. ارموا له أغراضه على الباب حتى لايأكل حقوق العالم بعد الآن!

وجاءت الطبيعة فأكدت هذه المقارنة في ذهن الحاج مصطفى: انخفضت درجة الحرارة ذات ليلة في منطقة حلب إلى خمس وعشرين تحت الصفر فيبس الزيتون، وخربت بيوت وتشردت ألوف الأسر، وآلاف الهكتارات التي كانت أنساً في العين وحلاوة في القلب وستراً من الفقر أصبحت صحارى تنشّك فيها خوازيق من الحطب الأسود، من جذوع تجمدّ الدم فيها رعباً ورهبة.. جرى كل هذا في ليلة واحدة! ليلة واحدة كتبت ألف

قصة فاجعة في منطقتنا المسكينة.. ومثلما تصنع الزلازل والبراكين الهائجة طرحت الكارثة مشكلة الجثث. مشكلة حادة عاجلة. ماذا يصنع المنكوبون بجثث الأشجار؟

ذلك العام عرفت طرق سورية قوافل من سيارات الشحن الموسوقة حطباً تغمر المدن الكبرى. واستأجر الحاج مصطفى كميوناً حمّله وركب قرب السائق هو وابنه واتجهت السيارة إلى حلب. لم ينقطع الحاج عن الندب والنحيب منذ ان علم بالكارثة. لم يصب إلا بقسم من زيتونه، ومع ذلك فقد كان ينتحب طوال الطريق. ولما وصل الكميون إلى جسر الشغور أشار راكب بيده إلى السائق:

- إلى أين؟

- إلى حلب.

- تأخذني معك؟

- لا، ليس معي محل.

فقال الحاج للمسافر باكياً:

- قديش تدفع؟

- ليرة.

- لا، ليرة ونصف يا عين عمك.

- ويحتج السائق، ويقول للحاج أنه لايستطيع أن يخالف. أكثر من اثنين إلى جانب السائق لايجوز، يكتب مخالفة، والحاج يبكي ويقول السائق: «لابأس، خلّه يركب، نحن خرب بيتنا»، والسائق يصر على الرفض إلى أن حل الحاج المشكلة حلاً عملياً. أخذ الليرة والنصف فوضعهما في محفظة نقوده، ونزل وصعد إلى الظهر فوق الحطب، في ذلك الشتاء الرحيم!

بعد كارثة الزيتون اشترى الحاج مصطفى بناية في شارع البارون في حلب. وشرع من بعد يصفي أمواله في دركوش ويشتري البنايات في المدينة.

وكلما اشترى واحدة تبهدل جزء من هندامه، فلما سجل السادسة أضرب عن لبس الجوارب دفعة واحدة. وقاطع الباصات والترام وصار يجر شحاطته الثقيلة برقعها ومساميرها ولوزاتها وكعبياتها في أربع زوايا البلدة. وتدرب على التشكي: «إذا انقصفت في عز شبابي يكون المستأجرون قتلتي، لا تسألوا أحداً غيرهم!».

وجاءني صوت أبي من جديد:

- ألفان كفاية.

فأصر الحاج مصطفى.

- ألفان وأربعمئة سيدي!

- طيب اكتب العقد.

- اي سيدي أنتم أسيادنا، ألفان وأربعمئة، يعني بدك تقول..

- خلص، فهمنا، هات العقد!

لم يتنازل ليرة واحدة، الماكر. ألفان وأربعمئة ليرة، تصور في تلك الأيام، كما قال أبي، لم تكن الأجور الغالية مألوفة في حلب. وقد يقع لتاجر كبير من تجار خان الجمرك الذين يربحون مئات الألوف ألا يشتري داراً ، لأن المبلغ الذي يجمّد في بناية قادر على أن يدرّ عليه، في السوق، أضعاف أضعاف ما يمكن أن يعطيه إياه حجراً وأخشاباً. وكنت أفد إلى الشام فأسمع رفاقي يتكلمون عن أجور المساكن في شارع أبي رمانة: خمسة آلاف، عشرة.. فأتعجب. لقد سكنا بيتنا قرب السرايا عشرين سنة كنا ندفع ثلاثمئة وخمسين ليرة سنوياً رفعها أبي في السنوات الأخيرة إلى ستمئة من نفسه. وقد يخطر لي احياناً، تدفعني دراستي القانونية، أن أتأمل في هذا الزيّ الرهيب الذي اجتاح بقية المدن السورية، وكان الحاج مصطفى أول من بشّر به في حلب. ما هي أسبابه؟ البناية في بستان الكزبري كانت تكلف مع أرضها

حوالي خمسين ألفاً، قل مئة، فتؤجر شققها الست كل واحدة بألفي ليرة على الأقل، يعني أن رأس المال يعود إلى صاحبه بأقل من عشر سنوات في أسوأ الحالات. كم يقبض المدير العام في وزارة؟ إنه شحاذ حقيقي إذا أنت قارنته بتجار البنايات. حلاق على ضفة بردى هجر الحلاقة واشتغل في تجارة البيوت صارت ثروته تعد بعشرات الألوف وتسلط على مطعم الشرق. ذات ليلة كان يجلس وزوجته في الملاءة إلى مائدة حافلة فتصدى له أحد الملاكين المفلسين (كان أبوه رئيس جمهورية) وانتهره قائلاً: أما آن لك أن تعرف حدودك يا.. فلم يتحرك الحلاق ولم يحتج النبالة تحتاج إلى ضريبة!.

وانتقلنا إلى البيت الجديد ونسينا الحاج مصطفى ومشكلة السكنى والبيوتات القديمة لا تشعثها نفقة تزيد أو أخرى تنقص. ولم تلبث أجور المساكن في حلب أن أصابتها عدوى دمشق. أخذت تلعب دورها بين الناس ويكون لها موكبها وموسيقاها وحاشيتها وخدمها وضحاياها والذين يحيون على فتات موائدها مثل كل الملوك. وتحت ضغط المستأجرين الكثر صدر المرسوم المعروف القاضي بامكان سماع الدعوى في حال الغبن وفحش الأجرة. وعيّنت لجان للتخمين تكون حكماً بين المستأجر والمالك.. ولكن أبي آثر الرضى فاستدعى الحاج مصطفى من جديد. وجاء الحاج يجرُّ شحاطته المصفحة وثيابه المرقعة. كان رأي أن البيت لا يسوي أكثر من ألف وسبعمئة وأنه يؤثر أن يتم التنزيل برضى الحاج لأننا لم نعتد أبواب المحاكم.. لم يبد على الحاج في البداية أنه فهم، ثم اتسعت عيناه، ثم تضاحك وأخذ يفرك يديه:

- أي سيدي نحن جماعة شحاذين جهلة لا نتجرأ على تعليم سعادتكم.. و.. ألا يرى أبي إذن أن الملاك في هذه المنطقة، منطقة القصور (هذا التعبير مستورد من دمشق أيضاً) في ارتفاع. بنايتنا لا تبعد مئة متر عن قصر المحافظ. ولماذا لايكون هو البادئ بطرق الباب وطلب الزيادة. والأجرة لا تنزل عن الألفين وأربعمئة نصف قرش يتيم! يجب أن نبوس يدنا وجهاً وقفا

على انها لم تزد وما هي هذه الأجرة؟ قل الله يساعدك يا حاج مصطفى.، إن شاء الله تجمع الرأسين. مواد البناء ترتفع كل يوم، والمستأجرون ، على القديم، لا يخرجون ، والزيتون يبس. نحن من نحن؟ أصلاً الشحاذون خير منا. الشحاذة، أنتم سيد العارفين، مكسب بلا رأسمال!.

وعلى الرغم من ممانعة أبي أقمنا الدعوى على الحاج. احنقني رفضه الألفين التي صعد إليها أبي فأخذت المبادرة في الاجراءات.

كان القاضي الذي رأس اللجنة من اللاذقية، فتى في عينيه السوداوين الواسعتين وطف جذاب ومراح أقرب إلى المعابثة. جاء مبكراً فجلسنا على الشرفة نشرب القهوة ونتحدث. كان قاضينا يرى أن السكن حق طبيعي مثل الهواء والأملاك العامة. والكسب في الأصل يجب أن يقترن بعمل. بخدمة تؤدى بينما نجد الملكية كسباً ولا عمل.. ماذا تشتغل: ملاك! هل هذه مهنة؟

وجاء العضوان الآخران والحاج مصطفى. لم يكن يفرك يديه، وإنما أخذ يقرقع بشحاطته الثقيلة ويتأود من الصوفة إلى الشرفة ويدندن:

- خمس غرف يا مولانا، خمس!

كان في عينيه بريق تلمح مثله عند العشاق المأخوذين:

وسأله القاضي في تهكم خفيف:

- قديش دفعوا لك؟

فتضاحك الحاج:

- طلعوا حتى الألفين! تصور سعادتك، قلت لهم..

- ولماذا لم تقبل؟

- أقبل؟ الله يطول عمر سعادتك الــ..

- كم بناية عندك؟

ما كان أشبه القاضي بالقدر! الشبان الذين يدخلون مصحات السلّ ومرضهم في الدرجة الثالثة يعشون، ويهيمون حباً بقنص رفيقاتهم في المصح

ويسهرون حتى الفجر في كتابة الرسائل الملتهبة وآذانهم موصدة من دون صوت مطرقة القدر تقرع على الباب!.

ونطق القاضي حكمه:

- ألف وخمسون ليرة!

وأما العضوان فكانا من أصحاب العمامة لام ألف. الذين يتخذون من التخمين مهنة ولا يغضبون القاضي مهما يحرق في انفاس المؤجر.

وحرر الضبط، ونهض القاضي مودعاً والحاج مصطفى.. لن أنسى منظره ذلك اليوم. غامت عيناه في بطء وارتفع بؤبؤاهما ثم ترنح وسقط على المقعد يحشرج.. سمعته ينطق نتقة من كلمة: «أستأ..» يريد أن يستأنف!.

وجرحني المنظر.

قل لأبي هلوعاً:

- الحقه. إنه يموت ! أسمعه كلمة. كلمة تفتح له باباً، أملا، دخيلك!

فقال القاضي ضاحكاً:

- افتحوا له باب الدار!

ولكني استهولت قسوة القاضي وركعت قرب الحاج:

- قم يا حاج. لعل الاستئناف..

فقاطعني القاضي وهو يشير إلى الحاج:

- الله يحميه من النقض!

والحقيقة أن لجنة الاستئناف لم ترحم الحاج كثيراً. ألف ومئتان! وكان الحاج غائباً فلم يغم عليه.. ولكننا نحن كاد يغمى علينا طوال أسبوع من صدور حكم اللجنة الثانية القطعي.. لم يبق صديق لأبي بعيد أو قريب إلا وفد علينا راجياً أبي أن يرفع الأجرة. كان الحاج يلطى لبعضهم على أبواب دورهم في الصباح الباكر ويطرق الباب على بعض مع صلاة الفجر.. يقبل

الأيدي ويبكي يتوجع ويندب حظه ويستعيد قصة يبس الزيتون.. وجاء أحد أصدقاء أبي الأقربين يقول له:

- وبعدين معك! أي خلصني منه يدي في زنارك! أي والله هلكني اعملها ألف وأربعمئة ومن غير يمين طلاق أدفع الزيادة أنا إذا لم ترفعها..

ورفعها أبي ضاحكاً.

*   *   *

الغريب

... ومثلما توهَّم انهم يفعلون ههنا، ابتسم. «هأنذا!» وانحنى أيضاً ولكن أحداً لم يتحرك! ومع ذلك فالحركات لاينقصها شيء. كانت خليقة أن تحدث ضجة صغيرة على الأقل. كراسي تتسحب على البلاط، صيحات تعجب ناعمة مثل وسوسة الفراريج في الليل. «العم!»، صيحات أعدّ لها هي كذلك عدة عصرية.. على باب كل جامع في المدن القديمة مصطبتان.. لا بد أن حجارتها كانت ذات يوم تحمل أسنان المبرد، ولكنها الآن ملساء. الأولاد يتزلقون عليها في انتظار أن يخرج الآباء من الصلاة.. مثل هذه التحية كانت خليقة أن يهطل لها تعليقات من كل جانب.. ولكن هنا في هذا المجلس الصبي اليافع. ولاذ بالكرسي الوحيد الشاغر عند الباب. وجوه، وجوه صغيرة تعبس وتبسم. شفاه مبتلة، وشفاه جافة، والعيون، كل العيون، مصوّبة إلى الشاشة، الموضوعة على منضدة في الصدر، التي أضاءت الوجوه بنور أبيض إلى زرقة.. ودوّت ضحكة فازداد قرباً من الباب، من نفسه. الحجارة الملساء العتيقة!.. في تلك الأيام كان سراج الزيت هو الذي يضيء الجلاس والراوي. وهو نفسه الذي يتشهى «العم» الرفيعة هنا، كان معروفاً في المجالس. كانوا يحبون منه حكايته المرتَّبة عن الجبهة ذات الثلوج الدائمة في الشمال، أيام كانت الجبهة قلقة تتنازعها الأيدي المقتتلة ساعة بعد ساعة.. هو لم تحدث معه الحادثة ولكنه زعمها لنفسه. هكذا كان يفعل دائماً. هذا يضفي على الرواية حميمية وجاذبية. وحتى لو اكتّشف الكذب فإنهم يضحكون.. وهجم الأعداء فاندس بين القتلى، وتماوت حتى عاد جماعتنا واستعادوا الموقع. استعادوه في الليل.. وكان هو يفارش بضعة موتى ويتدثر بميتين. ومع نواح

الريح في الغاب القريب كان ينبعث أنين.. أين تذهب ميرة جيش مولانا السلطان؟ لابد أن الضباط الأتراك هم الذين يسرقونها. ومد يده يفتش في جيوب لحاف القتيل. يا رب! جمّد الرعب يده، رعب يقفٌ له شعر الرأس حقاً، لا تشبيهاً: القتيل يمد يده فيحمي جيبه! وانعقد لسانه فلم يستطع حتى صرخة واحدة.. كاد يجن من الهلع قبل أن عرف أن اللحاف فراري مثله! أجل كانوا يوقفون الحكواتي إذا وفد هو على السامر! وعنده أيضاً غير هذه الحكاية..

وقصفت ضحكة أخرى عظيمة اندفعت من أربعة أركان الغرفة حتى الشاشة كان يصدر عنتها ضحك مستطيل! الصحراء في الليل. وتنهد بصوت مسموع: «وتلك الأيام نداولها بين الناس» قال الشيخ محمود مرة أن القبر ليس موحشاً كما نظن.. فالموتى يزور بعضهم بعضاً، ويحيون حياتين. إنهم ملمون بحياة الإنس والجان الأحياء وبحياة الأموات من سكان الجبانة، مسكن الميت على الأقل! وضحك هو من الشيخ محمود، تصنع براءة الغشيم وسأله سؤالاً شلّ مجلس الوعظ، في غبشة الفجر، بضع ثوان. قال للشيخ:

«وهل في الجبانة مطاعم يا شيخي؟».

يومها قامت القيامة وفار التنور. انقسمت البلدة إلى أحلاف. هذه أول مرة يعترض أحد الجلاس على ما يلقيه الشيخ. قد يبدر منهم أشياء: يبكون إذا حكى لهم عن الشفاعة وماء الكوثر والجنة التي يحمل كل ورقة وكل جذع شجرة فيها اسم النبي منذ أن كان آدم يعيش في الجنة.. هو ذاته بكى أكثر من مرة ولكنه تلك الخطرة لم يستطع مقاومة هذا العابث الذي اندفع إلى شفتيه لا يدري لماذا.. لعلها رقة السّحر الربيعي، اليقظة المبكرة! وقال قائل إنه قد كفر.. وطرده أبوه من البيت. أبوه! يا للشيخ المسكين.. عمّر تسعين سنة. أواه لو أنه لم يتعثر ذلك الفجر وينكسر!.

أجل قامت قيامة البلد. وخطب الشيخ الواعظ في الأسبوع التالي فعرّض بالسكاكين وذوي «المعلاق الغليظ» يعني الفضوليين!

متى كان هذا كله؟ ما أسرع ما تكرّ الأيام! سباق. لقد خلفه هذا الدوران الاغمائي كأنه انسان مرصود. إنه يحاول أن يمد يده فلا تطيعه..

لقد مات الشيخ محمود. ماتت البلدة العزيزة. مات مجلس الوعظ في غبشة الفجر، ولم يعد أحد كفّر أحداً! وانشقت الأرض عن مئات، عن آلاف الوجوه الصغيرة والصدريات السوداء التي سرعان ما انقلبت إلى بناطيل وبدلات.. وكف هو عن محاولة مد يده ودفع قدمه لأنهما لم تعودا تستجيبان البته! واحتدم السباق. إلى أين؟ اضطر إلى اللياذ بعوسجة صفراء متيبّسة على عدوة الطريق خوفاً من أن تطأه الأرجل تضرب الأرض كأنها قوائم أمهار. أما لهذه الدردبة الهادرة من نهاية! إلى أين! لم يجبه أحد. لو أن هذه القدم المرصودة الملعونة تطاوعه لما طرح هذا السؤال.. كان وحيداً حتى مع ولديه الصغيرين هذين. وحيداً على الرغم من أن شرذمة من الشيوخ قد لاذوا بعواسج وأكواخ مهجورة هنا وهنالك، في منأى عن زحمة الطريق. واعجاب! ههنا شيخ مثله ينتحب من صدر محترق. وإنه ليسأله: «مابك؟» ولكنه لايجيب. كانت الدموع تبلل لحيته البيضاء، ويداه تختلجان. يا رفيقي وأخي! أيكون الرصدّ قد وقع على نطقك أيضاً! لماذا لا تردّ؟

واستمر الركض والغبار والقعقعة وهو في مطرحه المؤنس الموحش، وهو في لياذه الخائف وراء مكتب رث قذر في فندق عتيق.. كان الليل يمعن في الصمت، وآخر العربات يموت وقع حوافرها على بلاط شارع بعيد. الغربة. اليد الموصودة..؟ صوت غطيط يرتفع من غرفة هناك في قاع الممر وترنق رائحة النوم العكرة. إنها تسكن المكان والأنوف وتعشش في الدرج ولا تنصرف حتى ولو فتحت الشبابيك. وفي السماء القصية ارتعشت نجمة وجاء سكران: «أنت يا حارس!» إنه يريد أن يتسلى.. من أين لهذا المخمور الفتى أن يعلم أن هذا «الحارس».. هل تغزل الأساطير من غير مغزل؟ جده هو دخل إلى الفرن المشتعل، وخرج بين تهليل الناس وتكبيرهم سالماً.. مرة

أخرى صرخ بأفعى تهاجم صبياً صغيراً فانقلبت إلى تمثال من حديد بارد لا تزال حتى الآن في الدار المهجورة.. حاول أخوه الأصغر أن يعبّر عن احتقاره للمعجزة فعزق بها الأرض، فغضب الشيوخ. كان «الجاهل» يرد بأن غضبتهم تعني أنهم يريدون تأبيد الضحك على الناس، بأن الأسرة التي تحتاج أن يكون جدها ممن يبتلعون السيوف ويدخلون الأفران ويذكرون مع الأباريق والخوابي.. إنما هي أسرة فقيرة الروح، عاطلة الجيد عن مجد العمل ومعجزته، المعجزة التي تستحق الزهور وحدها.. قسوة! ما كان يضير أخاه لو ظلت الأسطورة حية! هو لما افتقر صار يبيع شموع المزار والمناديل التي يتقرب بها الزوار! وحتى هذه كانت ما تنفك إلى ندرة، كانت تندثر، ومع ذلك فالشمعة الصامتة تلقي ظلالاً عميقة على العمائم البالية، والعَلَم الذي طار مع الجدّ الأعلى من النجف الأشرف، والمناديل، وفراشة تندفع من نافذة بلا منجور في جرف الليل المنسي، وشبح الألبسة البيضاء، وهيمنة الريح في أشجار الزيزفون في الفناء، والسكران يهمر لا يزال: أنت يا حارس!» وساد البيت جوٌ من الحزن، وقال الابن البكر: «لن تذهب منذ اليوم أبداً إلى فندقك الملعون ذاك!» إن دموع الأم مألوفة، يختلط فيها الحزن والفرح فلا يفصل بينهما خط واضح، وفي بعض الأحيان تندفع الدمعة لأنه وجه الولد يغنّي الحمرة بعد لعبة في البرية.. وأما دموع الأب فصامتة نادرة، الدرب إليها عسير «لن تذهب بعد اليوم أبداً» وعرى الابن، وألقى نفسه في اللجة.. الماء شائك والسابحون يفتنُّون في نصب الشراك، وبدت اللجة كأنها غاب، مأسدة. أحياناً كان على الصغير المسكين أن يغوص، أن يشتبك في صراع حتى الموت مع اخطبوط متوحش أو سمكة قرش مفترسة.. يصارع وقلبه إلى الشاطئ حيث وضع أباه على صخرة صغيرة لحستّها الأمواج حتى برتها برياً، ما كان أشبهه بتمثال حيّ، مما كان يرى في المتحف، غارق في بحر من اللادهشة، من اللا أمل. لا بغض ولا حب.. هذا الغرق الجاف لم يكن في

البداية حجرةُ منخوراً خاوياً، كان فيه محاسنة الأم وتوجسها وهي ترى إلى الخطوة الأولى من القدم الصغيرة الغضة المندهشة، كان قلبه هو يثب مع نقله القدم.. يا قلبي! إن الخطوة مستقيمة ولكنها لاتزال دهشة، لم تتقو، لأن اللواء في هذه اللجة النتنة لا يعقد للمهرة من السباحين. ربما كان السباح الماهر أو المثخنين، ومع ذلك فالقلب لم يعد، مع الأيام، يلاحق الخطوة القلقة المعذبة، قد يكون هذا الذي خفق طويلاً قد تهرأ هو أيضاً وانبرى مثل الصخرة العتيقة.. فلما ألقى الولد الثاني نفسه في اللجة كان الصخر قد شمل كل شيء. وتتوالى الأمسيات.. كل يوم يعود الصيادان الصغيران الاعجاف، ولكن الجعبتين لم تكونا تحويان نصيبين من الصيد الصيد الواحد صار في جعبتين!

«وتلك الأيام نداولها بين الناس» يظهر أنه قال هذه المرة بصوت أعلى فانتزع جاره عينيه عن الشاشة المعربدة وتلاقت النظرتان. ابتسامة محرجة من كلمة! كان الجار يعرف أباه الشيخ المعمّر وهو في سنيه الأخيرة سأله عنه كأنما يعتذر عن الوجوه اللاهية:

- كيف صحة الوالد!

- صحته! لقد مات منذ عشرة أعوام. نهض إلى صلاة الفجر فعثر فانكسر فمات. كان كسراً بسيطاً، ولكن العظم في التسعين يكون متقصفاً كالزجاج.. أنا كم عمري؟ آخر عمل لي في الفندق منذ...

اشتهى من أعماق قلبه أن يدخل في التفاصيل. في التسعين تبدأ طفولة أنيسة. قد لا تقل أعاجيب عن الطفولة الخضراء. الجسد يمسي ضبابياً والروح هائمة والإنسان الكبير أعزل مثل الرضع.. ذبالة تشهق في سكون ولكنها تضيء القلب بنور أصفر، رقيق، شفّاف مثل كلمات العذارى، مثل مناغاة الأطفال في المهود. لقاء محيّر للبداية والنهاية!

فترة صمت اغتنمها الجار فعاد إلى شاشته كمن تخلص من فخّ!

وجاء ولد صغير أزهر، في خديه هزيج ألوان. كان قلبه الصغير يدق مثل قلب أرنب خائف. ورفع عينيه الوطفاوين وتأمل الأخاديد، الفك الخاوي، السالفين الرماديين.. ذات مرّة طارد ورفاقه الصغار فأراً.. حتى الجدة كان لرأسها لون آخر وهي تروي حكاية الفارات الثلاث.. وكادت تبدو من الغريب حركة، من يده المجففة، ولكن الطفل غاب، ثم عاد يحمل كيساً وأخذ يقلد البياعين المتجولين ويضحك. ليس لهذا العصفور الأزهر عمل منذ أن يفتح عينيه حتى الليل إلا أن يبذر في كل أرض.. ولكن الموتى لا يأكلون ولا يشربون على الرغم من أسطورة الشيخ محمود! وازداد الطفل قرباً. لعله استبطأ الابتسامة.. قال للغريب: «تشتري؟» عجيبة! خفقة دافئة في النخاريب.. في آذار تكون السماء سوداء هنا، بينما تنوَّر الشمس مكاناً ليس بالبعيد.. وفي رامة مياه عكرة، في قرية منسية على قمة جبل ناء، تسبح أزهار لا حد لشاعرية ألوانها.. أزهار وحيدة، وحيدة!.

* * *

خــذ!

هل بلغ التلبك والسوء بحالك مأزقاً لا خروج لك منه إلا بورقة يانصيب تربح الجائزة الثانية أو الثالثة على الأقل، يعني مبلغاً لايقل عن ألفي ليرة سورية يسلمك البائع إياها بنفسجية، جديدة نظيفة، لها خشخشة حلوة إذا أنت ثنيت كلّ ثلاث أو أربع منها ودستها في محفظتك المهجورة.. تدسّها في هدوء ظاهر يخفي دردبة قلبك المسكين الذي تحسّه في حلقومك، في طبلتي أذنيك، في أصابع قدميك جميعاً.. تأخذها وتنطّ في خفة السنجاب فتمر على حنّا الخياط الذي يستقبلك بادئ الأمر في جفاف ظناً منه أنك آت تفاوضه في وقف تنفيذ الحكم الذي كسبه عليك وتقسيط المبلغ على دفعات تقلّ عن خمس المعاش.. فلا يكاد يرى الورقات البنفسجية حتى تتحرك بدلة أسنانه حمداً وشكراً.. ولا تنسَ أن تنفح أجيره الهزيل، ذا الشَّفة التي تحمل آثار حرق قديم، خمس ليرات بخشيشاً، وتتركه مودعاً بالدعوات الصالحات، وتذهب إلى مطعم الصفا ماراً ببياع الدخان، والفتى الأعرج الذي يفرش جرائده ومجلاته على برطاش قهوة البرازيل، وأبي اسماعيل صاحب حمام الورد ونادل قهوة الروضة.. موزعاً ابتساماتك ونقودك على الجانبين. فإذا وصلت إلى المطعم أوصيت حمود على صحن رز وصحن فاصولياء حب. ليسا معاً! صحنين، تلح على كلمة صحنين. وتوصيه أن ينتخب لك اللحم موزات، وأن يتجنب العروق.. وهو يحملق فيك. وأنت تدري أن هذه الحملقة تشبه اللحظة الفاصلة بين بلوغ الدرجة مئة والغليان، يعني الانفجار، ولكنك تقول له:

- رغيف صغير واحد يا حمود، أنا لا أحب المواد النشوية كثيراً!

فيوشك أن ينفجر، ولكنه يحاسب نفسه. لعلّه يقول لها: «لستمئة جهنم الحمراء وبئس المصير. ينضرب هو والمعلم» ويهم بأن ينفتل في وناء ، وإذا أنت تستوقفه آمراً، وتضرب ضربتك المهولة الأخيرة:

- أعطني الحساب كله!

فيكاد يجن. وأنت لن تحتاج إلى صرف قطعة من أمات المئة، فقد تبقى معك من الدفعات السابقة عشرات القطع من فئات خمس وعشرين وعشر وخمس، وهكذا تتخلص من الفراطة!.

وأخيراً تدخل على السيدة إيرينا مؤجرتك فتدفع لها أربعة الأشهر التي لها في ذمتك، وتجود على ابنها بييرو بمثل ما جدت على أجير الخياط، وتروح إلى غرفتك، فتخلع ثيابك وتنام مثل الخروف وتشخر ما حلا لك الشخير. وتفيق مساء فتذهب إلى القهوة وتلعب الورق قليلاً، ثم تدعو رفقتك إلى جلسة شراب تتبعها سهرة نظيفة في ملهى الكروان على وجه الحصر.

ويأتي الصباح فتذهب إلى عملك في الوزارة، ويدخل المتعهد أبو بسام فلا تسمح له بإهانتك التي اعتادها واعتدتها أنت، أعني أن يطلب فنجانين من القهوة لك وله ويدفع هو مع أنه في محلك. هذا مستحيل يا أبو بسام، أنا لا أقبل، أرفض، أنت ضيفنا، لا تقل الكيسان واحد، لا، لا! وتطلب القهوة وتشربها ترشفا. وتكون قد أخذت للأمر أهبته فاشتريت علبة من لفائف «السيد» التي يدخنها أبو بسام نفسه، وتقدم له آمناً أن يقول لك: لا أغيّر.. وتقعد تدخن، وأنت تشعر أنك ندّ لهذا الباشق الذي ينبش عن فريسته في كل مكان، وتنفث الدخان في الهواء على نحو مترف، منعم متفضل، دخاناً ليست له غتّة مثل الطاتلي سرت غليظة، ولكنه سهل، لونه بنفسجي فاتح كأنه سحائب العطر.. وترجع البصر في متعهدك. ها أنت تدخل على السبع وكره ولا تخيفك يده الضخمة الشعراء كأنها الوزنة، هذه اليد التي كنت تخشاها ولا تدري لذلك سبباً وتتخيّل أنها يعقدها وشقوقها وسماكتها القدر يلاحقك ويسوط ظهرك ويسدّ عليك الدروب.. إنك الآن تخزر عينيك ناحيتها غير خائف وتفكر في شأن آخر لا علاقة له بضخامة اليد أو التفاف شعرها.. تفكر في المتعهد وتفهم هذه المرة كلّ الفهم جراته وجوده.. بدأت ثروته بتعويض قبضه يعد تسريحه من الشرطة، قد لا يتجاوز الألفي ليرة، ثم قال له الكريم: خذ! ويبهرني طبعه على الأخص.

إنه قادر على تزويج القط من الفأر، ولا يخاف الوزير نفسه. وإذا حطّ عينه على مناقصة فإنه يرسيها على نفسه مهما كلفه الأمر، بالزور بالغصب ولكنه يرسيها..

الخلاصة، في تلك الأيام كان التلبك في حالي المالية قد بلغ هذه المرحلة الموئسة مرحلة التعلق بالأحلام، لا أمل في ارث لأن أبي مات موظفاً وأمي كانت تقبض ثلاثين ليرة تقاعداً عنه ، تعطيني إيّاها وتمنّ عليَّ بها: «راتبي!» وتكلفني.. خلّها لله، كانت تغار من بناتها وتهندس شعرها عند الحلاق حتى قبل مرضها الأخير، وأخواتي الأربع متزوجات من كادحين، لأن المرحوم أبي كان لا ينقطع عن ترديد هذه الحكمة: «استأصل لابنك واستدون لبنتك».. وأنا على يقين من أن هذه هي أسرتي. فليس لي أقارب في أميركا، ولا أرض ينفتح فيها أو عليها شارع فينطّ سعر القصبة من عشر ليرات إلى ثمانين عثمانية.. ثم أني لا أستطيع أن أطمع في أن تعشقني عجوز غنية، لأن العشق في بدايته على الأقل، يحتاج إلى نفقات ربنا، على عيني وعينك يا تاجر!.

شف الصدف: أبو أمين رسام عندنا في المصلحة يقبض أربعمئة وخمسين مع التعويض العائلي، ولكن عنده ثمانية أولاد. البكر في التاسعة عشرة، مثل النقطة في المصحف، له طرة سمراء وقامة ممشوقة وصدر عريض وخصر نحيف ووسامة. هذا الفتى سعى له أبوه، ومن ورائه نحن الموظفين جميعاً، أن يتعين في مصلحة الرسم معاوناً. مسألة مئة وخمسين ليرة يعين بها هذه الأسرة التي تأكل شعر الذقن. وذات يوم كان الولد مكباً على المرسم يغطّ ويخط ويمط كما نقول عن الرسامين مازحين، وإذا هو، سبحان الذي لايسهو ولاينام، يكب الحبر على الورق، فيغضب أبوه غضبة مرعبة، ويبصق في يده ويناوله كفاً يتطاير الشرر منها.

كنت أشرب أنا القهوة عند كمال (رسام أيضاً) وحضرت الفصل. لم يزد الولد، بعد هذه الكفّ الفاضحة، على أن أغلق محبرة الحبر الصيني

بالفلينة ووضع المسطرة والريشة على المرسم ونهض ثم دنا من المشجب فلبس سترته وذهب من غير أن يلقي نظرة واحدة وراءه.. وحتى الباب لم يصفقه في قسوة حينما خرج، بل ردّه رداً لطيفاً.

وقمنا نحن على الأب مثل عش الدبابير. هذا لا يجوز! شب مثل زر الورد، الشب في مثل هذه السن عنده كرامة.. ولم يردّ علينا الرجل إلا بالصمت، ولما خرج من صمته، كان هامداً كابياً كأنه صعد جبلاً وعلى ظهره كيس من الطحين، قال:

- خلّوها لله!

مرّ أسبوع والولد غائب عن الوزارة والبيت جميعاً، لا يعلم أحد أين أراضيه. وتصرّم أسبوع آخر ولا أخبار فاعتبر مستقيلاً ورقّن قيده من سجل العمال الموقتين. وأما الأب فقد انصب على العمل انصباباً رهيباً حتى خفنا عليه. غلب عليه الصمت. ولكنّه إذا تكلم لم تفارقه بشاشته التي تتقطّر طيبة، أبوّة، غفراناً.. وقد يكون من واجبنا، نحن زملاءه، أن نحيط هذه القصة المرّة بنوع من التناسي، أن نتجنب الاشارة إليها ولو تلميحاً، ولكننا رفاق نجتمع كل يوم في هذا المرسم الأصيل الذي لا يشابهه مرسم في الدنيا، نصنع شاينا بأنفسنا ونستمع إلى الموسيقى من الراديو الصغير الذي أحضره كمال وننفق وقتاً طويلاً في الحديث.. وقد تعوزنا المادة في بعض الأحيان فيشتغل بعضنا ببعض.. وسألته أخيراً على نحو مفاجئ:

- ألا تزال بلا أخبار؟

كان قد مضى علي غياب الولد ثلاثة أسابيع أو أكثر قليلاً، والمرسم قد استعاد أصالته وشايه وشكواه من صروف الزمان والتفرج بالصور العارية التي قد يحضرها أحد سكانه وعيناه تغزلان في ملعنة وتفاخر فنتحلق نحن عليها نقلِّبها مراراً وكلّ مرة تنبعث الشتائم نفسها والتأوهات نفسها من العازبين والمتزوجين على قدم المساواة.

وغمغم الوالد في تصبّره الباش:

- لا!

فانفتح عليه سكان المرسم مرّة أخرى باللوم والتقريع. شبّ مثل زر الورد، والشب في مثل هذه السن. ولكنّ موزع البريد فتح الباب ومطّ رأسه في تلك اللحظة ودخل حاملاً رسالة إلى أبي أمين. ولم يعتد الرجل أخذ الرسائل فشع في وجهه دهش وطفق ينظر إلينا نظرات حائرة والرسالة بيده وهرعنا إليه. كانت موجهة إليه «ومن فضله إلى السيدة حرمه» ومصدرها الكويت. ولم يزعجنا كونها موجهة إلى غيرنا؟ فتحناها وأبو أمين، مثل واحد منا، ينظر من فوق الأكتاف..

كانت رسالة عجيبة. الولد يكتب لأمه أنه في الكويت وقد تعرف بفتاة أصلها من بولونيا، مال وجمال، تسكن الآن في المكسيك وتملك مزرعة يعني قل مثل ضيعة عندنا هنا، واردها السنوي أيام المحل، شوفوا الملعون، أربعون ألف ليرة سورية. يعني معاش أبيه طوال عشر سنوات.

هذا ما عدا اسطبلات الخيول، وأسهم الشركات.. وتنتهي الرسالة بهذه الفقرة:

«أنا رائح الأسبوع القادم إلى المكسيك. وتجدين مع هذا المكتوب شيكاً على البنك البريطاني بخمسين جنيهاً، ولا يكن لك فكر، سأرسل إليك كل ما يلزمك. أقبل يد أبي وأتمنى لكم الصحة والعافية..».

وقال أبو أمين ضاحكاً:

- شوفوا الديوث!

وقال كمال:

- وأخيراً طلع من بيت الزط مؤذن!

وأردت أنا أن أقول أن الشيك كان وفاء ديوني، أو أكثرها، ولكنني فطنت إلى أن الرسالة موجهة إلى رفيقي لا إليّ أنا فبلعت الجملة التي كادت تخرج من بين شفتي، وذهبت إلى غرفتي يتنازعني الحزن والحبور.

وذات يوم كنت أسوق البريد فدخل علي أبو بسام المتعهد.

- أهلاً وسهلاً.

قلتها متشاغلاً، فقال عجلاً وهو يرمي رتاج الباب وراءه:

- قبل أهلاً وسهلاً، سأقول لك ما أريد بكلمتين.

- نشرب فنجان قهوة.

- لا، فيما بعد.

- وانتقل رأساً إلى الموضوع الذي أقدمّهُ:

- غداً مناقصة وأريد أن أرى عرض فلان (وسمى متعهداً منافساً من الأقوياء) وأنا لا أريد أن أبني لك قصوراً في الخيال. أنت رجل منتوف فقير، معاشك كلّه أنا أصرفه على جلسة مع.. في ملهى، ولذلك خذ..

ونتر محفظة نقود شاسعة وأخرج منها رزمة من أوراق المئة. كنت أرى يده مثل المكوك تروح وتجيء وتتكدس المئات على المنضدة أمامي، تحت أنفي، أستطيع بحركة مفاجئة سريعة من يدي أن أقبض عليها كلها وأدسها في جيبي وأمد أصابعي إلى قميصي فأمزقه، وأخرج الزبد على فمي وأنطلق من الوزارة أغني يا عصفوري يا عصفور.. خيّل إليّ أن لهذه الأوراق خاصة، رائحة حادة، واخزة، دسمة مثل الروائح التي تنطلق من دكاكين بياعي الموالح.. ولم يكن في وجهه انفعال، ويداه ما فيها أثر لرعشة. أنا وحدي كان قلبي يدق، يهمر، يوهمني خلال ثوان معدودات، إنه سيقف، سيستريح ساعة لكي يتابع خفقه المجنون.. والمكوك يروح ويجيء والرائحة تخزني، رائحة امرأة، واليد لا ترتعش والوجه لا ينفعل والقلب الآخر يولول.. كم مرة اندفعت هذه الكف الضخمة في اتجاهي؟ خمس عشرة ، عشرين.. لست أدري.

- أنا لا أعرف أن أفعل كما يفعل الآخرون. «نعطيك». أنا أعرف أن أقول: «خذ»، خذ.

قد تكون شريفاً طاهر اليدين ما دامت الرشوة حديثاً: مدّ يده إلى محفظته وكوم أمامي ألفاً وخمسمئة، ألفي ليرة، فنظرت إليه متعالياً، وحاجباي قفل ومفتاح من تقطيب واستهجان وصحت به منّهراً: لمّ عملتك، كلب. «أنا لا أقبل الرشوة!».. أقول أن هذا كلام ظريف إذا ظل كلاماً.. وأما أن يتكوم أمامك ألف وخمسمئة، ألفا ليرة بلحمها ودمها برائحتها الدسمة، بلونها وخشخشتها، ألف وخمسمئة، ألفان لا يحسم منها لا تقاعد ولا تمتع ولا ضريبة دخل، وتظلّ شريفاً طاهر اليد ثم أنك لا تتعرض لمحاكمة ولا تحال إلى المجلس التأديبي ولا يستطيع إنسان في الدنيا أن يتهمك أو، وهذا هو الأهم، أن يثبت عليك.. في غرفتي العارية المكتئبة يسودّ عليّ الليل ويهدأ الحي إلا من همهمة بعيدة إذا أصخت السمع إليها أصابني بلبال لا أدري له سبباً. وأراني، في بعض الأحيان، أحدق في الحديقة المظلمة وأشجارها العارية كأنها الجذور التي انقطعت صلتها بالأرض. البارحة لاذ جرو صغير بجدار بيتي، لا بد وأنه ضائع، كان يجأر بشكوى مرة، بصوت يشبه بكاء الأطفال. هذا المشهد، مشهد طفل في الثانية أو الثالثة من عمره أضاع أمه، أراه أيام الأعياد على الأخص. بالدموع السخية تتحدر على الخدين اللطيفين الصبيين في حرقة، ومن خلال برقع الدموع تكون النظرات بائسة: «لماذا أنا ضائع؟» أراه فأهرب، كأن كلّ شكاة انفلتت من شفتين تلاحقني وتحجب عن عيني النور، كأني أنا الذي صنعت الدموع.. وكانت الحديقة مظلمة والأشجار عارية والريح باردة والجرو الصغير يشكو تحت نافذتي.

وكان أبي يسمي المرتشي مرتكباً ويرفع عقيرته فخوراً بأن يده هذه نظيفة ناصعة لأنها لم تمتد إلى رشوة وحسب بل لأنها لم تشد على يد مرتش.. والشريف تلذعه الرشوة مثل الجمرة.. ولكن هل ترشفت هذه الخفة المنعشة، هذه اللذاذة الناعمة، لذاذة العطاء والتحرر من الديون؟ دائنك تلمع، تندى عيناه من عرفان وشكران وحرارة المفاجأة، كأن الدائن، مهما تكن

الضمانات التي يكتّف بها مدينه، يظلّ في قلق على حقه أن يؤكل.. وأنا موجس خيفة أن تطردني السيدة ايرينا من بيتها.. وبياع الشوندر يخيفني صوته. لست أعلم أين يبيع بضاعته نهاراً. ولكنه في الليل لا يكاد يبتعد من شارعنا.. أسمعه حينما يقبل من رأسٍ الشارع. كيف أصف صوته؟ أجس لكنه على الأخص مجروح، مجروح، ونداؤه لايتغير، قراره الأنين، وأظنه ينتهي بكلمة «عسل» يمطها حتى تصبح تأوهة ، حشرجة، شكاية يائسة تصرخ بها جراحي ذاتها..

أثناء الحرب الأخيرة ظللنا ثمانية أيام لا نأكل، نحن الأسرة الكبيرة، إلا حساء العدس. لم يكن عندنا خبز، وأقبل عيد الأضحى، والعيد يجب أن يكون فيه طبخ. رز ولحم كثير وحلوى وأثواب جديدة. الثوب الجديد يمكن التساهل فيه ولكن الطبخ شيء مقدس. وتأتينا روائح الطبخ من عند الجيران. يطبخون طوال ليلة العيد. وربة البيت تهيم بهذا الشقاء وتراه قدراً بديعاً.. ويغيب صوت بياع الشوندر المسلوق قليلاً ثم لا يلبث أن يعود. يظل حتى ساعة متأخرة من الليل.

ولكن من يحسبني هذا الغريب الذي يشغل مكوكه وينسج قطعاً بنفسجية تحت أنفي. ما الدّين في الحقيقة؟ قد يكون ضريبة الفقراء على الموسرين. أنه غضب الوالدين عند العطارين والسمانين والتجار.. وأما نحن الموظفين فليشنق الدائن نفسه. مهما يبلغ الدين يقسط على المعاش.

وسمعت صوتي يشبه شخير القتيل.. ماذا قلت؟ عدت لا أذكر، كلّ ما أذكره أني رأيت يداً ضخمة شعراء، كأنها الوزنة، ذات عقد وشقوق تمتد إلى كومة الأوراق وتعيدها إلى محفظتها، وقامة المتعهد الباسقة تنهض نهوضاً ذليلاً (هكذا بدا لي) وصاحبها ينسحب حائراً معتجباً!.

* * *

في سعر المشروب

الليل. والمارّون في الشارعين اللذين تطلّ عليهما القهوة بأبوابها الخمسة قليلون. وقد فرغت بضع طاولات، ولم يبق غير بعض الشاربين وأولئك اللاعبين الذين سيكنّسهم عبد الله وفاضل آخر الليل تكنيساً.. هذه القهوة لم أعرف لها اسماً. على أحد أبوابها الخمسة علقت لوحة، في الداخل، مكتوب عليها: «سعر المشروب ٣٥ قرشاً» فدأبت على تسميتها «قهوة سعر المشروب». عبد الله النادل الرئيسي أدهشه أنا دائماً: إنسان يفرفط كل هذه الوراق والدفاتر أمامه على المنضدة، ويغرق فيها ساعة، ساعتين. أحياناً ست ساعات! أهو محام؟ المحامي يعمل في مكتب. أم أنه محاسب قانوني؟ ولكن هذا يسوّد أوراقاً.. أسطر، أسطر، مثل دبيب النمل.. وأما فاضل، النادل الصغير، فقد بدأت صداقتنا يوم أهداني ملقطاً عثر عليه في الشارع وقال في نفسه «سأقدمه للأستاذ!». .. وشكا لي أنه يعمل اثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة لقاء أربع ليرات. الأجر ليس هو الأهم. صحيح أن في رقبته ثلاث أخوات وأباً مقعداً، ولكن الكارثة في كونه اضطر إلى ترك الدراسة من الصف السابع. كان معلم العربي يعجبه خطه وانشاؤه. إن له صديقاً من القرية، قريته، قد وفّق إلى عمل في السفارة الطليانية.. حظوظ. إنه الآن يقبض مئة وخمسين، والدوام من السابعة حتى الثانية بعد الظهر فقط. لقد استطاع ذلك الرفيق أن يواظب على دروس مسائية، ونجح هذا العام في الكفاءة.. ألا يستطيع «الأستاذ» يعني أنا - أن يتدبر له أيّ عمل، أي عمل يدع له وقتاً للدراسة!.

ومنذ شهرين عرفت خليل. كانت السهرة في بدايتها لما دخل كهل رقيق الملامح، يتأبط محفظة مثل محفظتي. لم يجد طاولة شاغرة فاستأذنني وقدّم نفسه. إنه موظف في شركة الكهرباء مولع بالتاريخ. سألني في تهذيب شديد:

- وحضرتك، ماذا تكتب؟

قلت:

- قصة.

- يعني مثل بول وفرجيني المنفلوطي؟

- لا، مسرحية.

فشقرق مثل الطفل:

- أنا قرأت مسرحية سيرانو دو برجراك.

وعاد إلى حيائه:

- وكتبت واحدة.

- كتب مسرحية؟

- أي نعم.

- نوعها؟

- تاريخية.

- من أي عهد؟

- تجري حوادثها بين دمشق وبيروت ولندن أيام الحرب العظمى الأولى..

وصمت قليلاً ثم قال في رقة:

- وكتبت بحثاً عن بطرس الأكبر قيصر روسياً أيضاً.

- هل تنوي نشر المسرحية؟

تنهّد:

- عام ١٩٦٠ عرفت البلاد حمّى غريبة. اعلانات في الصحف، في المجلات، في الاذاعة عن رغبة الحكومة في تشجيع الكتاب، عن حرصها على النبش عن الكفايات.. وقدمت مسرحيتي إلى إحدى المسابقات المعلن عنها خبرها انطفأ. لم يعد أحد يدري ما تم في أمر النتائج!.

- المسرحية معك؟

- معي.

أخذت أتصفحها. لا ريب أنه قد شقي في جمع المعلومات، ولكنه أوردها كما هي: يودّ أن يتكلم على معاهدة سايس بيكو مثلاً، فيجري حواراً على لسان أشخاص يدخلون المسرحية، هكذا، من الباب إلى الطاقة، ليتحدثوا عن المعاهدة ويختفوا كما ظهروا.. ولكن، ما أشق العمل الذي تجشمه! كانت المسرحية في مغلف يحوي، فضلاً عن النص النهائي، أكثر من عشر نسخ أخرى، على هوامش كان منها تعديلات وملاحظات بعضها بخطوط غير خط خليل.. عمل نملة تجر حبة قمح إلى وكرها مئة مرة، ولكن ولداً معابثاً شريراً يكون في انتظارها عند باب الوكر فيخلصها إياها ويعيدها إلى مكانها الأول..

لما طويت الدفتر سألني مشفقاً عن رأيي فقلت مترفقاً أنها تحتاج إلى إعادة نظر وفق المخطط تفصيلي.. وضربت له مثالاً بسيطاً عن أحد أنواع الخلل التي سببها فقدان المخطط. أحد أشخاص المسرحية يخرج ليحضر اثنين آخرين من آخر بيروت فلا يغيب أكثر من دقيقة واحدة..

بعد هذه السهرة انقطع خليل عن القهوة إلا في فترات قليلة كان يحضر فيدخن نفساً من التنباك صغيراً ثم يلف النربيش عجلان وينصرف. وسألته عمّا يشغله فأخبرني أنه يجهز كبرى بناته التي توشك أن تتزوج.

ومرّ بطاولتي منذ أسبوع وانحنى عليّ هامساً:

- هدى كتبناها من جديد.

كان قد عاد إلى مواظبته على القهوة والعمل فيها. قلت:

- كتبت ايش؟

- المسرحية.

كنتت نيتها تماماً. قلت في شبع اعتذار:

- عال. عال، أي أحضرها معك ذات مرة.

- وهو كذلك.

البارحة أحضرها. كانت منسوخة في دفتر خمري اللون مكتوب عليه بالأجنبية «كورونا» . شرعت أقرأ وأتذكر. لم يغير شيئاً مذكوراً. تثاءبت في الفصل الأول عدة مرات. ثم قررت أن أنطّ فقرات. انظر، أتظاهر أني قرأت ثم اقلب الصفحة.. حتى الغلاف الثاني!.

كان يسحب سحبات متلاحقة من أركيلته ويتململ فوق كرسيه ويزلق نحوي نظرات قلقلة.. فلما رفعت رأسي التفت إليّ بصدره جميعاً:

- كيف شفت؟

سعلت وسحبت بضعة أنفاس من أركيلتي ثم قلت:

- لا بأس ، ولكني أرى أن التاريخ غير المسرحية التاريخية. ما عسى أن يفيد المتفرج إذا أنت جعلت المسرحية كلّها وسيلة لتقرير معلومات تاريخية قد يعرفها خيراً منها؟ الشخصيات لا يمكن أن تصعد إلى المسرح لأن معها كلمتين تاريخيتين تود أن تقولها وحسب. مثلاً هذا الموظف في وزارة الخارجية الانكليزية في الفصل الأول. كيف نبرر أن بين يديه الحل والعقد في قضايا خطيرة مثل تقرير مصير المسألة الشرقية؟

وساد صمت مديد، وأخيراً قال في صوت واهن:

- عني فكرك أني أحذف الفصل الأول؟

- لا أدري ، ولكن الشهداء في الفصل الأخير مثلاً كل واحد منهم يشبه الآخر. كلّهم يخبطون، كلهم لا نعرف عنهم شيئاً قبل الفصل الأخير. أنا

أتصور مثلاً لو أن المسرحية بدات باجتماع سري يناقش فيه المجتمعون القضية العربية. الغرفة موصدة، أسدلت عليها ستائر سميكة جداً تضفي على المكان شبه ظلمة. ما من نور إلا خيط من ضوء النهار يتسرب إليها من كوة بعيدة قرب السقف. هذا الديكور وحده أمين بأن يوجز المسرحية قبلياً. العرب في ظلمة تكاد تكون مطبقة لولا ضوء يسير يتسرب إليهم من العالم المتحرك الناشط خارج السرداب التركي..

- فهمت عليك، يعني لازم علي حذف الفصل الأخير.

قالها وقد عاوده أمل جديد. قلت:

- لا، ولكن أنا أتصور أن التاريخ في الرواية التاريخية يجب أن يروى ضمن فلسفة معينة، ضمن نظرة الكاتب إلى الحادثة التاريخية..

كنت في مأزق مرهق، لا أكاد أنهض من حفرة حتى أقع في أخرى أشد إحراجاً.. خيّل إلي في بعض اللحظات أن رنّة من التعالي كانت تنداح من كلماتي، ولو من بعيد.. فلما ذهب غرقت في الوساوس.. جعلت تسألني:

«إذا كان هو نملة يُزري بها قدر عابث فأي شيء أنا؟» الماضي ليال ولا نوم، القراء تلك القبائل من زنوج افريقيا الذين يفضلون النقود النحاسية، المثقوبة، القليلة القيمة، على النقود الذهبية، ويتعاملون بها ويغتنون، يسلمون لقاءها عاج الفيل الذي تعرضوا للموت حتى ظفروا به.. من قال أن الإنسانية تسير إلى الأمام أأنت قادر، في قلب الدردبة المصمة، والزمر الثاقب اللذين لا يخاطبان إلى الحركة التي في الأطراف أن تهمس بأبيات من غزليات حافظ! التجليد هو الآفة. التجليد الأنيق أشد فتكاً من السرطان. القلق القليلة من القارئين والقارئات الذين ربما شقوا عصا الطاعة على الأفلام المخدرة، والأغاني التي لا يعرف لها أب، والمطاعم التي ينتصب فيها نادل بدلته أغلى من أثاث بيتك.. هذه القلة القليلة كمن لها كتاب قتلة استطاعوا أن يحبسوها في قماقم من ظلمة وبحران جنسي مظلم لا يمكن لومضة صافية واحدة أن تتسرب إليه.

من غير تواضع كاذب قد يكون خليل خيراً مني. ولكن قدرنا، آخر الأمر، واحد . حتى «ثواب الذي اجتهد» هذه الجملة التي كتبها أحد الأساتذة في مقدمة بحث خليل عن بطرس الأكبر لم تعد في أعيننا أكثر من تعزية لا غناء فيها. تعزية يضحكون بها على فشلنا، على وحدتنا، على لا جدوانا..

انصرف خليل اذن، وحاولت العودة إلى الكتابة ولكّن وصباً لا يسمى شل يدي. أغلقت دفتري ولملمت أوراقي والتفت نحو الطاولة التي قربي. حول الأربعة اللاعبين تحلّق ستة أو سبعة متفرجين. أحدهم استأثر بانتباهي قبل هذه الليلة. لا بل أنا أراقبه منذ أكثر من أسبوعين. كهل، معروق، جاف الوجه، قليل الرموش، يضع نظارتين مكبرتين. يعني أنه يستخدمهما للنظر في ورق اللاعب الذي يجلس هو وراءه . وهو يقبل على القهوة من أول الليل، ويظل قلقاً، مضيّعاً إلى أن «تركب» اللعبة ويلصق هو، جذلاً، وراء لاعب. منذ هذه اللحظة ينسكب كلّه، هو المتفرج، في اللعبة. إن عينيه، قلبه، فكره جميعاً تنمطُّ مع يد لاعبه التي تنزلق نحو كدسة الورق مترددة، مفكرة. وتقرر آخر الأمر فتسحب ورقة ثم تقرصها فتظهر حرفها: تسعة السباتي! لابأس معنا الثمانية، نضعها لصقها، قد يلحش لنا ملاعبنا عن يسار العشرة فيصير معنا ثلاث «تيرسات».. فإذا سحبنا هنا الثمانية الدينارية فتحنا.. ولكن، ها نحن أولاء نسحب –على ورقة- ست مرّات عبثاً. تفو، حظ ما فيه! ونحن ندخن لنهدئ أعصابنا، نسب الدين، نبربر لنفسنا حتى لا نزعج اللاعبين، إن أعصابهم هم أيضاً مثل الوتر المشدود ولا يطيقون كلمة تأتيهم من الخارج، من المتفرجين.. العمى، هذه هي الورقة الرابعة التي يلتقطها ملاعبنا هذا الذي عن يمين. إنه الآن يمدّ يده إلى كدسة الورق في توجس.. رجفة خفية تفضح ورقه أنه هو أيضاً «على ورقة». ليس مثلنا منذ ست سبع دورات. الآن أصبح على ورقة. ها هي ذي يده تصل إلى كدسة الورق. إنها تقرص الورقة هناك، قبل أن تسحبها. هذا لا يجوز: قد يقرص الورقة التي تحتها ويعرفها.. ويلي! فتح..

وتستمر لعبة صاحبي المتفرج هذا حتى يأتي عبد الله وفاضل ويكنسا مع اللاعبين أصحاب اللعبة الأصلية..

أنا الليلة لا أراقبه خطفاً، كلما تعبت من الكتابة، كما كنت أفعل طوال الليالي الماضية. ولكني اندمج في لعبته اندماجه هو فيها. ما أشدّ استغراقه! يقولون أنك إذا ركزت نظرك على إنسان فترة طويلة انتهى إلى الالتفات ناحينك.. وأما هذا فأظّن أنك لو ركزت سيرنغ دواء مما يحقن في العرق لما التفت إليك. وهذا الوجه – المسرح: القلق والاشفاق، اليأس. الزمل يتجدد تفو آه، فتحنا. العمى من عشر فتات هذه أول مرة نفتح فيها..

فجأة ضمّ اللاعب مروحة ورقه وقدمها إلى صاحبي المتفرج وقال له:

- العب عني لحظة.

هنا صار الوجه –المسرح في عيد حقيقي. إن فرحته من الطفوح في حيث أخجلته. هذه هي الكلمة كان وجهه يعكس خجلاً وغير قليل من التهيب: «أأنا جدير بمثل هذه السعادة!».. وكان اللاعب الأصلي قد نط واختفى في الغسلة. بينما كان المتفرج قد وثب، أخف من هر، واحتل كرسيه وأعاد بسط مروحة الورق وركز سيكارته على حافة المنضدة.. ولكن صوتاً قد انبعث عن يمينه في هذه اللحظة ذاتها:

- ننتظر عزيز.

ذعر صاحبي واتسعت حدقتاه. النظارتان زادتهما اتساعاً:

- عزيز قال لي أمسك الورق عني.

- لا أقبل.

- ليش ولك أخي؟

كان في صوته وحوحة، توسل. خوف. قال الآخر:

- تضرب ما أغلظك!

- أي.. أي ليش؟

- أنت شايف الورقين.

- أنا؟ صدقني . ورحمة أبي..

- يلحق الحبل بالدلو، يلعن والدك..

ضحك . الوحوحة من جديد ولكنها مبطنة بمزاح متملق لعل الضحك الجماعي هو الذي أوحى به:

- أي العب تضرب. ما أحد اعترض غيرك.

- اخرس.

- أي خل عندك شوية ذوق، العب.

- لا تعذب نفسك. هاه، رجع عزيز!

ويقول عزيز السمين المكتنز الخدين الطفلي الملامح، وقد عاد إلى المنضدة:

- أين وصلنا؟

فيقول له اللاعب المعارض:

- مطرحنا، خذ ورقك.

حركة طرد من يد عزيز تبعد متفرجي المسكين. الوجه –المسرح يداري الخيبة. إنه يُبربر حانقاً، موجهاً الخطاب إلى اللاعب المعارض:

- تضرب ما أعندك! العمى..

وهو يبعد سيكارته معه. لقد انطفأت. أشعلها. شغله ذلك وأعاد إلى وجهه الاهتمام والملاحقة. رويداً رويداً استانف الرأس نوسانه، العينان مطاردتهما. اسحب هذه الورقة اشوف. أي! والله فتح. العمى، والله أنا قلت أن هذا الورق لا يفتح في عمره.. فظيعة!.

ها هو ذا فاضل يبدأ تكنيسنا. وعبد الله يطبق الكراسي.«خلص الوقت يا شباب بدنا نسكر!» ولكن متفرجي قال متوسلاً:

- أي دقيقة، آخر فت. يا الله فت ياعزيز!.

* * *

على الطريق الكبرى

بعد سد الرستن ينعطف الطريق يساراً. ويظل على مستوى الجسر حتى نهاية القرية حيث يأخذ يصعّد في مرتفع عال وأنت في السفح كأنه واقف أمامك.. على الذروة التي كنا نحبو نحوها، لمحت ونحن في القاع، ما خيل إليّ أنه ولدٌ بصدرية المدرسة السوداء. كنت أرى ذراعه مرفوعة حتى آخرها، وفي اليد الأخرى المتدلية عن جانب ما يشبه أن يكون محفظة مدرسية.

وكنّا ندنو من بداية المرتفع والسيارة الضخمة تهدر هديراً متصلاً جعلت نبرته تتغير بعض الشيء منذ بدأ الصعود. عن يمين، كانت البيوت والدكاكين متواضعة، واطئة. قد ترى بعض الدكاكين من الحجر والاسمنت، ولكن يقع في خلدك أن المعمار ربما يضنّ بفنّه أن يهدره في هذه القرية المسكينة، أو ان صاحب الدكان قد بدأ البنيان ولكنه أفلس فلم يتمّه فجاء مستأجر درويش يسقفه، كيفما اتفق ويحتله دهراً بالقليل الذي أنفقه على اتمامه.. البيوت والدكاكين جميعها تحمل كتابات بالخطوط العريضة جداً: «استعملوا السماد ماركة السبع والحصان». «استعملوا السماد ماركة السبعين، خلاصة تجارب العلماء الألمان..» «استعملوا سمن الثلاث عنزات، بديل السمن العربي». ويظهر أن القرويين يحبون هذه الكتابات التي لاتبقي على قطعة خالية من الواجهة، يرون فيها نوعاً من الزينة.. القروية عندما تتزين تفرط في استخدام الألوان، تختارها في زرقة الخزامى وحمرة الورد الجوري وصفرة النرجس.. وحتى القرط والأسورة والكحل يحسن أن تكون ملونة.. قد يكون هذا هو السبب في ان مداخل المدن تكاد تكون خلواً من اعلانات كهذه تلطّخ الجدران بأحمرها وأزرقها تلطيخاً لا مرحمة فيه..

آخر دكان في القرية يحمل. فضلاً عن السماد الألماني، وسمن الثلاث عنزات، إعلاناً بالخط العريض نفسه: «كأس الشاي عند نل بخمسة قروش

سورية»، وفي الخربة الواقعة عن يسار الدكان بضعة قرويين أحدهم يلبس سترة عسكرية محلولة الأزرار، يجلسون. بعض على كراسي قصيرة من القش وبعض يجلسون فقط. هل شربوه؟ هل ينتظرونه؟ هل يجلسون صحبة، مجاناً؟ كأس الشاي عندنا بخمسة قروش سورية.. وفكرك يشرد وراء ثمن النفط والسكر والشاي.. واما أجرة العمل الإنساني المبذول.. وأما الوقت وهو «من الذهب، كالسيف إذا لم تقطعه قطعك».. هذا في المدن الكبرى والكتب.. هنا كأس الشاي عندنا، هو والمواد الأولية والعمل الإنساني وأجر المكان والوقت الذي كالسيف، بخمسة قروش سورية لا غير..

واتضح الشخص الصغير الذي كان يشرع ذراعه اليمنى على طولها. إنه حقاً تلميذ مدرسة. هذا الاشراع المبكر منذ أن كنّا في القاع ليس له تعليل إلا أنه كان غير واثق من وقوفنا له عندما نبلغه، أن كثيراً من السيارات تهمله سواء لصغر سنه أو لضآلة ما يستطيع أن يدفعه..

وكنت أعلم أن عبد القادر سيتوقف عند الصبي الصغير ذي الثوب الأسود والمحفظة المدرسية. منذ أكثر من عشرين سنة كنا رفيقين في المدرسة الابتدائية . إنه من أقربائي الأدنين. وهو الآن يقود هذه السيارة- البناية، يصعد بها ويهبط، يقوم ويقعد، يحيد عن الصهاريج الشاهقة التي تترك في فضاء سيارتنا صوتاً خاطفاً من بوقها، لامعاً كالبرق، لايعيش إلا خلال هذه اللحظة الموجزة التي تتلاقى فيها العربتان، ثم يخمد بمثل الفجاءة التي ضجّ بها في آذاننا.. ويدعس عبد القادر ثم يغيّر السرعة، ويدعس من جدد. وأنا.. راكب من الركاب، أقبع في زاوية من الباص الذي «سحب فارغاً» من حلب حتى يلحق الدور في دمشق.. وبين حين وآخر ألقي نظرة غائبة إلى الكتاب الذي في حضني.

منذ أكثر من عشرين سنة اختلف طريقنا.لم يكمل هو مدرسته واتخذ السيارات مهنة. كان أميلَ إلى الصمت، فيه حياء قد لا تراه في سائق غيره ولو طوفت سورية كلها. ما أكثر ما علّمه هذا الاضطراب اليومي بين الناس. كنت أصادفه في فترات متباعدة عند الأقارب. يدخل خفيف الظل، على استيحاء، ولا يطيل اللبث، ويعتذر عن الدعوات بأدب عميم. سمعت مرة أن

ابنه البكر، وليس عنده إلا اثنان وقد مات في المستشفى. كان ولداً ذكياً، جميلاً، فرحة للعين والقلب. مات وهو في عنفوان صحته بخطأ من الطبيب.. وبعد أيام كنت عند أحد الأقرباء وإذا الأب يدخل على عادته الحييّة، ويوجه إليه القريب الدعوة إلى العشاء فيعتذر برفات متلاحقة من أهدابه، وقد أضاءت وجهه الابتسامة الوديعة المختصرة، هذه التي أراها في مرآة الباص أمامه الآن.. وصدرت عن أحد الحاضرين كلمة تشير إلى المصاب إشارة مهذبة، بعيدة.. وإذا الأب يعود إلى خفق الأهداب الخجول وتند عنه حركة استسلام كأنه يحاول أن يقول بها: «الله أعطى، الله أخذ، اصرف الموضوع نحن لا نستحق أن نعكر جلسة انسجام!» قد أكون أفسدت المعاني المتشعبة التي لاتسمى في حركة عبد القادر تلك الليلة.. وهيمن عليَّ سؤال: «من أي ينبوع عميق يغرف هذا الانسان طمأنينه وصفاءه؟».

وتوقف عبد القادر عند ذروة المرتفع على شكل يكون معه الباب الخلفي أمام الولد تماماً. وانقضت هنيهة قصيرة أقلع الباص بعدها من جديد، وعاد الهدير المتنوع النبرات.

في الباصات المسافرة على الطرق الكبرى يدبر الأمور إنسان يسمى المعاون، ليس له راتب محدد وإنما يتقاضى أجره على السفرة وهو يصلح لكل شيء. يجب أن تجتمع فيه خلائق متعددة وأن يعرف مهناً كثيرة على الأخص. فهو حمال، وسمسار، وسائق سيارة إذا نعس السائق، وناطور ، وأمين صندوق وحكواتي.. وكان معاون عبد القادر، أبو سامي، بديناً مكتنز الوجه إذا مشى تمايل عن يمين وعن يسار وهو من بلدة صغيرة في ديرتنا يضربون المثل بقرعانها. وهي بلدة قديمة جاء ذكرها في ياقوت واشتهرت بكونها أنجبت أحد عظماء الفكر العربي. هذا في التاريخ المكتوب، وأما في تاريخ الناس المعاصرين، التاريخ الذي لا يكتب وإنما يتردد من فم إلى أذن متسكعاً من قرية إلى قرية.. فيروون عن هذه البلدة أسطورة. يقولون أن الباري تعالى عند خلق العالم يخلق البلدة أو القرية ويقرر مصيرها منذ البداية، يخص أهلها على مر الدهور، بأنصبة معينة من الفهم والفطنة والوداعة، إلخ. ويبدو، كما تقول الأسطورة أن هذه الأنصبة كانت تصنع وتكدس في الفناء الممتد قدام مستودع السماء انتظاراً لإدخالها المستودع

وتسجيلها في خاناتها الخاصة من اللوح المحفوظ، خانات مصنفة حسب الأجيال، لكل جيل مقدار محدد منذ الأزل لا يناله إلا عندما ترى أعينه النور.. وهكذا إذن أنجز صنع أنصبة بلدة أبي سامي من الفهم والذكاء في فاخورة السماء، وتكدست أمام المستودع وإذا العبقري الذي أنجبته تلك البلدة (ولم يكن قد مضى إلا دقائق معدوات على قوله له «كن!» وما تبعها من عطسة الحياة).. يثب على أنصبة أهل البلدة كلها ويسرقها.. طفق الملائكة يتلطفون به ويحاولون، بكلامهم الملائكي، أن يقنعوه بأن عمله هذا سيء لأن أهل البلدة التي ستؤويه سيظلون إلى يوم القيامة، الخ. وإن من الخير إعادة الأنصبة إلى أماكنها.. ولكنه، غفر الله لنا وله، تشبث بها، فلما ألحوا عليه قال لهم مطمئناً: «إنهم لن يحتاجوا إليها».

والتفتُّ إلى الوراء بعد إقلاع الباص وقد خالجتني خشية غامضة سحيقة. لم أجد الولد. لم يحمله أبو سامي. أصابتني كآبة ثقيلة.. ما أبعد المدى الذي يفصلني عن هذه السلسلة الملثّمة بزرقة ضبابية عن يمين، لبنان! هرب صديقان لي. كنا متفقين على الهروب معاً ولكنهما رحلا وتركاني هنا. لو أنني معهما الآن، وأرضى أن أعمل عتالاً في المرفأ على قلة ممارستي لأعمال العتل. الطريق. نبتة قطن تهتز للريح هنا، وساقية الريّ ههنا، مغلقة، مفتوحة، مغلقة، مختبئة تحت ظلال سُكْر أجرد.. لماذا لا يأخذون قليلاً من ماء الساقية ويزرعون شجيرات على حفافيها؟ ما أجمل أن يتأفعى شريط أخضر في هذه الفلاة التي لا ظل فيها! شريط أخضر صاعد، هابط، يُظلُّ الساقية ويرد عنها ظمأ الأشعة في تموز وآب.. وإذا مر قطيع من الغنم تجد السخلات الصغيرات ما تحك به أعناقها الناعمة الغضة.. وقد يأخذ الوسن بمعاقد أجفان الراعي فيسلم نفسه لغفوة هنيَّة.. هنالك قرية بيوتها قباب من اللبن ليس لها نوافذ. بعض الأبواب موصد بالحجر والطين. في القرى الأوروبية لا يوجد ذباب. وإذا عرجت على ضيعة وقعت أبداً على قهوة صغيرة متصلة بمنزل صاحبها، تستطيع أن تبلّ فمك بكأس لذيذ، وان تسمع حديثاً بين زبونين لا تحرّج فيه ولا خشية من رقيب، يفتح لك كوة على دنيا لا تعرفها.. ترى هل يلتقي الخلق.. ذات يوم، في قهوة ممتعة مونسة. قهوة

واحدة! ورائي في المقعد الخلفي ولد صغير «يفصفص» بزراً ويرميه عليَّ. التفتُّ. كان قاعداً على ركبة أمه. يداه قذرتان جداً كأنهما نقعتا في شحم المحركات. أخته أكبر منه تلبس ثوباً أحمر فاقعاً، ويداها قذرتان أيضاً، وعيناها مكسرتان من رمد قديم أو تراخوما. الأب دركي سمين، والأم قروية لها وشم يطرش على فمها جميعاً. كانت تسلّم رضيعاً، لم أره بادئ الأمر، ثدياً رخواً.. ويعاودني السؤال: «من أين يغرف عبد القادر طمأنينته؟».

وصلنا حمص. في المرآب قهوة ركيكة. جلست إلى منضدة من الخشب قلقة، محروقة بأعقاب السيكارات. بعد قليل أقبل عبد القادر وفي يده سندويشة. لست أدري لماذا يحزنني منظر الشغيلة وهم يطعمون! الخبز قوام الوقعة. رغيف شاسع ومعه زيتونات، رغيف وأقراص فلافل، رغيف وتمر. عبد القادرمن جهته ميسور ولكن طريقته في الأكل، هذا الانصياع، ماذا أقول! وفي فناء المرآب حركة لا تنقطع. باعة صور وجرائد، سيارات كبيرة وصغيرة، أزياء متنافرة، من العقادة الحريرية إلى العباءة المرقعة إلى الأقدام الحافية.. وكان أبو سامي يركض من مقدمة الباص الواقف في وسط الفناء نحو مؤخرته. ما أشبهه بدب صغير يلبس طاقية. في السيرك ينمّون ميولاً فنية كامنة في الدب، يعلّمونه الضرب على الطبل وركب الدراجة.. وأما أبو سامي فلم يحمل تلميذ المدرسة الذي استوقفنا في الرستن.

وطلب لي عبد القادر شاياً ولنفسه لبناً.

سألته:

- لماذا لم يحمله؟

أدهشني أنه فهمني من غير أن أزيده إيضاحاً. لعلي أبديت حركة. وابتسم ابتسامته الوديعة وقال:

- لأنه حمار!

- ولكن لم تكن قاسية. إنها ملامة. قد يكون أبو سامي معاون عبد القادر منذ عشر سنين. غضب مرة وحاول العمل في باص آخر. أسبوع واحد لم ينقض وإذا هو يعود.

وعدت أسأل:

- إلى أين كان الولد في رأيك يريد الذهاب؟

وأفهمني أن هؤلاء يدرسون في القرية الأكبر، ويعودون إلى قراهم الصغيرة التي ليس فيها مدارس. قلت:

- وهل يرفضهم دائماً كما فعل اليوم؟

- لا. بعضهم يدفع والبعض لا يدفع ويحمله أبو سامي مع ذلك. اليوم مثلاً ما خطر له.

- ألا تقول له أن هذا حرام؟

فابتسم:

- مستحيل ، دق الماء. يقولون عندنا كما تعلم: عنيد كالأقرع. ربما كان هذا الكلام فيه شيء من الصحة.

وجعلت أستزيده. إن ملامح أبي سامي، سمنته، استبشاره.. كلها أشياء تحببك به رأساً. ومضى عبد القادر يحدثني عنه. كان منطلقاً . ربما للمرة الأولى أراه هكذا.

آخر سفرة إلى دمشق كانا جائعين. وقفا عند لحام . قال له عبد القادر أن يدخل الدكان ويوصي على نصف كيلو لحم مشوي، بينما يكون هو قد انخطف إلى السوق لشراء بعض الأغراض ولن تطول غيبته إلا بمقدار ما يحتاج شيّ اللحم من وقت. وانصرف عبد القادر، ولم تطل غيبته فعلاً. ولكن يظهر أن اللحام كان سريعاً أو قليل الزبن فأسرع في تقديم الطلب. وقعد أبو سامي يتسلى، «ينقنق»، على حد تعبيره. وعاد عبد القادر وإذا المعاون منصبّ على آخر فلول الصحون يطاردها. كان في إحدى يديه آخر سيخ مع آخر قطعة خبز، وآخر شقفة بندورة وجنح بصلة وفي يده الأخرى كأس ماء.

وابتسم عبد القادر ابتسامته الخجول.

قلت:

- وبعد؟ سكّت له؟

ما عساه أن يصنع. سأله وادعاً. «ليش ما انتظرت؟ فأجابه أبو سامي وهو يغص بلقمته المفرطة: «خفت عليها أن تبرد» وأضاف في مرحمة.

- شغيل. يتعب!

وعاد إلى صمته الأنيس.

والسيارات الكبيرة كالقلوب الشاسعة. تئن، نعيِّر سرعتها، تحمل مجاناً، تقلّ لقاء عوض، تروح وتغدو، تتعطل، تتفتح أبوابها على المصاريع أو توارب مواربة، تغص أو تسحب فارغة يدخلها الطفل ذو اليدين المتسختين والمرأة الناضجة الريّا، تسافر أو تهر في مكانها متبطلة منتظرة.. وسائقها أبديُّ الابتسامة، يتوقف للولد الذي حمل محفظته المدرسية ويغفر للمعاون إن أكل اللحم كله، ويجلس جلسته تلك في القهوة الرثة يقتات من الخبز الذي يصنعه الناس وهو من عالم قد يحلم به الناس..

* * *

العـودة

لم يكن تغير فيها شيء، الأبعاد وحدها اختلط أمرها علي. كان الذهاب من بيتنا في الحارة الشرقية إلى قهوة الأصدقاء في الغرب مشواراً، مشواراً تؤخذ له أهبته. ودار القائمقام لم تعد تبدو لعيني شاهقة. ورأيت الثكنة الصغيرة، والمدرسة بطابقيها تشبه فيلا مما يبنى في شارع أبي رمانة لولا القدم واختلاف لون الطابق الأول عن الثاني.

ومع ذلك فقد خفق قلبي وأنا أمر بها. ما أكثر الذكريات: مثلنا، قبيل فحص السرتفيكا، رواية في الهواء الطلق، كنت أنا بطلها. يرتفع الستار في الفصل الأول عن صف كل تلامذته مجتهدون ما خلا واحداً (أنا) كان كسولاً، لا يحب درس الحساب على الأخص، في جيبه أبداً شعب ومطاطة ورميات سن الورق تنهال على أقفية المعلمين. وأما الفصل الثاني فتقع حوادثه بعد سنوات. التلامذة يصبحون رجالاً مرموقين في المجتمع: طبيب، مهندس، «معلم»، قائمقام.. إلا أنا يقعد بي كسلي عن المعالي فأضحي سواساً.. يومها أهدتني المدرسة قلم حبر من طراز سكريب اعترافاً بنبوغي في التمثيل. وكانت أمي بين المتفرجات أعني على التلة الترابية المطلة على باحة المدرسة من الغرب. فبكت وشهقت، وآزرتها نساء حارتنا وخالاتي وعماتي، لما رأتني أعتمر بطاقية شغل الحبس وأضع مئزراً مما يضع المعّترون والسقاؤون واجراء المقاهي، وأروح أرقِّص طاسات السوس، والقربة الجلدية تميل بكتفي اليسرى مميلاً محزناً.. فلما تقدم الأستاذ نعسان، طربوشه مائل على كتفه اليمنى والشرابة ليست عمودية على القذال بل متدلية على الكتف

(كان هذا آخر زي رجالي في تلك الأيام) أقول لما تقدم الأستاذ نعسان، باسم المدير يشد على يدي في أبهة وإيماءات واسعة، ويسلمني قلم الحبر انقلبت الشهقات في «لوج» أمي إلى زغاريد..

ذلك اليوم بدت شهقات أمي وزغاريدها نوعاً من التأثر بالتمثيل. نوعاً من الذهاب مع العاطفة الجمالية لا يخلو من المبالغة، لأن أبي رحمه الله كان إنساناً محترماً في البلدة، يملك من الأرض الوطاء والعقارات ما يكفل لنا نحن ذريته حياة ميسورة موفورة، حتى لو كنا أكثر الأولاد حمرنة في الحساب، والجغرافيا أيضاً. وحتى لو بارت تجارتنا وماتت فعندنا دكان أبي واسمه وزبن ثابتون من القرى المجاورة يستدينون على الموسم ولكنهم يدفعون ويثقون بأبي ويقسمون برأسه ويودعون عنده الودائع.

ولكن للأقدار لعباً لا نفهمه. مات أبي وهجرنا البلدة إلى دمشق في طلب العلم، وبدأت أملاكنا تنقص، وأثرى وكيلنا في الدكان ولكنه أعلن إفلاسنا. وأمي تعودت البعزقة. أخي الأصغر، الذي ولد في صينية من الذهب كما يقولون تسلط على طريق الصالحية وتفصيل البدلات في بيروت وجلب العقادات من ايطاليا، ومكاتيب الغرام، وسيارة صغيرة، صغيرة جداً. وكأن الحارة هدته حاسة شمه التجارية إلى حقيقتنا، إلى أننا أسرة من الأرياف فصار يقول لي: «سعادة عبد الفتاح بك!» ولأخي: «سعادة رياض بك!» ويرفض صرف قطعة من خمس ليرات: « أي شو صار، نقبض آخر الشهر!».. وفشلت أنا في طلب العلم فتعلمت على زر السترة والدخول إلى المقاهي ونوادي اللعب وفتوح وفتوحين، رصيدك حط الميز! وفي الصيف اذهب إلى فندق بلودان الكبير، ويندق بصري على الأسود والأبيض والزوج والفرد... والوجاهة لا تكمل إلا بصاحبة، والصاحبة على الأغلب ذات ماض، ولكن عيب على ابن فلان أن يأخذ منها مالاً. هذا عمل لا يقدم عليه إلا الأوباش من أصحاب دكاكين النوفوته والمرابون والشبان الذين يربون

شوارب مثل كلارك غيبل... وأما من كان في مثل مركزي، مركزي! فيجب عليه أن يفرد محفظته مثل قماط ابن السبعة الأشهر ويقول لها: «خلي الباقي» والعشق الذي من هذا الطراز يحتاج إلى بار أميركاني، ووسكي على الأخص.. العرق مشرشح إطلاقاً: زيتون: بليلة، صحن حمص مثل جبلة رمل، ومخلل الفليفلة، وحموضة في المعدة... لا، الوسكي شيء آخر، ونافعة لأمراض القلب، ولا سيما الأيكوسية. نحن لا نشربها الأيكوسية. أراد أصحاب مصانع الوسكي في كندا أن يقلدوا الاسكوسية فباؤوا بغضب من أصحاب الدمعة. ويظهر أن الدنان التي تحفظ فيها الوسكي من خشب معين لا ينبت إلا أيكوسيا.. والخليلة خادمة من لست أدري أين أو من ضراب السخن، ودخلت على الوجاهة برأس مال معروف: ساقين ملتفين وكفل بقري، فصارت تحكي على الوجاهة برأس مال معروف: ساقين ملتفين وكفل بقري، فصارت تحكي في الكونشرتو نمبرتو لشوبان. سَمعتَه، لم تسمعه، الله ورسوله أعلم وتقول لخادمتها هاتي لسيدك، وتسميني زوجي، وركبت للهاتف شريطاً طويلاً مثلما يجري في الأفلام المصرية، والخادمة اسمها تفاحة. قد تكون خادمة أخرى عند واحد من الأشراف تحمل هذا الاسم. وتتمطرق «زوجي» في التخت وتطلب جهاز الهاتف فتحمله تفاحة إليها، فتفتح على سعاد خانم وماذا تسوي الدنيا بلا هاتف، وقلت لها أنا يمكن مشغولة. افتحي علي قبل أن تأتي... هاتف؛ وقلت لها بالهاتف، ويا عيني على ها ها الهاتف والإنسان يضحي حياته في سبيل الحب. أنا لما تعرفت بزوجي... لأن الحب أصل الحياة، والإنسان موته استر له إذا كان لا يحب، والحب حياة الحياة، والحياة حب الحب. وقلت لها أنا لا أخيط إلا عند أبو دقن لأن أبو دقن قال لي انتظريني شهرين بس، آخر زي في باريس، تنورة بليسة وتروكار فضي، قلت له. قام قال لي. واسطوانة شيش كباب سمعتيها؟... وانتهى بي المطاف إلى وزارة الصحة وعرفتني صاحبتي بشاب أنيق أناقة فاضحة ونحيل إلي

أني سمعتها تقول: خطيبتي: وشهادة التطعيم ضد الجدري قسمان دولي ومحلي. وأخي جابي في البلدية بمحفظة مهترئة ضخمة والستر على الله الكريم.

لم نحشد لقمتنا ولكننا فعلنا ما كان علينا أن نفعله منذ أن وضعنا قدمنا الأولى في دمشق: عرفنا حدودنا وانزوينا. صارت أمي تشتري الخضرة من سوق الهال. لا يزال عندنا قطعتا أرض وحصة في وقف ذري.. ورمينا أعيننا إلى قطعة أرض رخيصة عند مستشفى ابن نفيس نبني عليها داراً مقسطة مثلما تفعل المئات: من هنا عضادتان ومن هناك كيس اسمنت.. وذهبت إلى البلدة أصفي أملاكنا بعد غياب طويل.

في الأشهر الأولى من سكني دمشق كنت، حينما أذهب إلى البلدة في بيع أو تصفية، أنزل عادة عند راشد، وهو معلم الموسيقى في تجهيز البلدة، نط على التعليم أثناء «الهجرة التاريخية» التي رفع رايتها ساطع الحصري محموداً مشكوراً. في تلك الأيام أرادت وزارة المعارف أن تصلح مناهج التدريس فاستقدمت هذا المربي الكبير الذي ما استقر به المجلس وراء مقعده في الوزارة حتى انهال على البرامج القديمة كما ينهال مكاري محنق على حمار حائر مسكين. وضرب ضربة عصا ففتح بضع كليات في الجامعة السورية لم تهيأ لها الملاكات الكافية من الأساتذة فاستورد الأساتذة «اللامعون» من الثانوي، وشح الثانوي فاندفع إليه «لامعو» الابتدائي بطرابيشهم المائلة يجررون الذيول من تيه ويتبغددون على العلم والمعرفة مثل الديكة الهندية. وأما الابتدائي فلن يبقى حلاق بائر أو سنكري خرب البوتاغاز بيته أو ضابط إيقاع انفختت طبلته إلا وقلفط وكالة معلم، وكالة صارت بقدرة قادر أصالة مثلما كتب الحظ لصديقي راشد. وقبل أن يمن الله عليه بهذه الوظيفة مثلما كتب الحظ لصديقي راشد، وقبل أن يمن الله عليه بهذه الوظيفة كنا نسهر مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. كنت أنا ضابط الإيقاع.

مسألة لا تحتاج إلى دائرة معارف موسيقية: دم تك، تك تك دم، دم تك، حسب المعزوفة. وكانت المعزوفات التي يجيدها راشد على قدنا لا تتعدى بشرف طاتيوس، وموشحي ملا الكاسات ولما بدا يتثنى وبعض الطقطوقات الحديثة (بشرف طاتيوس يضبط وحدتو أبو صالح الصباغ لأنه أصعب). أذكر أن راشد قد أدخل في رأسي أن الرق هو باب مدينة العلم الموسيقي: هل رأيت في عمرك جوقة موسيقية تشتغل بلا ضابط إيقاع؟ والحقيقة أني لم أر. وبعد فإن حياتنا لا قيمة لها إذا أنت عريتها من المثال الأعلى؛ وهل في الدنيا مثال أعلى من الفن. وصادفت أخيراً الهجرة فنمى إليّ أن راشد قد أصبح «أستاذاً» سمعته قيلا عن قال لان الرسائل بيننا قد انقطعت منذ سنوات مديدة.

لما نزلت من السيارة لم تكن معي أغراض فجعلت أطيل الطريق إلى راشد ومررت أمام المدرسة أتلفت إلى نوافذها وأبوابها وإذا أنا أصطدم بالأستاذ نعسان.

هو أيضاً لم يتغير فيه شيء إلا الأبعاد. لم يبد لي العملاق المرعب الذي عرفت. لا أزال أذكر صفة، الثالث، واللوحات المعلقة على الجدران: «حب الوطن من الإيمان»، «النظافة من الإيمان»، «قم للمعلم وفه التبجيلا».. وكنا نحن في الصف الثالث لا نحب النظافة. بل أرى، كأنه الأمس، يوم علق الأستاذ نعسان هذه اللوحات في تشاغل وأبهة كبيرتين. لم نخرج يوم ذاك إلى الملعب. تحلقنا حول المدفأة (في بيوتنا كنا نشغل الفحم في المناقل)، ودارت مناقشة حول كلمتين على الأخص، لم نعرف لهما معنى مقبولاً: «الإيمان» و «وفه التبجيلا». كنا نعرف «حلفت له الإيمان».. ولكن هل هذه من تلك؟ وزعم إبراهيم السيد علي، وهو الآن محام، أن «إيمان» أصلها يمين، ضد يسار والمعنى أن الأعسر لا يمكن أن يكون نظيفاً. وأما «قم للمعلم» فمن يجرؤ على أن يفعل غيرها إذا دخل علينا الأستاذ نعسان الصف مسلحاً بعصاه أم العقد. وهكذا فد ظلت «وفه التبجيلا». وقرع الجرس ودخل المعلم،

فسأله أكثرنا جرأة عن معنى الإيمان الذي جمع بين حب الوطن والنظافة، فضحك الأستاذ نعسان وقال لنا أن الإيمان هو الإيمان بالله تعالى، وأما وفه التبجيلا فمعناها أن نخاف من المعلم ونقوم له كلما دخل الصف... لازلنا في أرضنا. لم نجد ما يحببنا بالوطن والنظافة، وظللنا نأتي المدرسة بالقبقاب ويقطع بعضنا الطريق على بعض لكي نتشاجر ونتقاذف بالقباقيب دفاعاً عن شرف حارتنا أو صفنا ضد الصف الرابع وأحياناً الخامس إذا أسعفنا الجرأة.

وكنا في بعض الاصباحات نجيء متأخرين، مخطتنا تشط من العدو والبرد فنقف بالوصيد رأسنا منكس إلى الأرض. وإذا الأستاذ نعسان يترك منبره ويعطل الدرس، ويقوم بحركات تمثيلية هدفها الضحك ولكنها، إذا شئت الصدق، تميتنا من الخوف. كان يختبئ وراء مصراع الباب ويمط رأسه، وشرابه طربوشه تنوس كلها، أو قد يظل خيطان منها متشبثين بلباد الطربوش ويقول: «نوّ!» ثم يسرع إلى سحب رأسه. والأولاد في الصف يضحكون حتى تنفتح أذهانهم على المعرفة، ثم يخرج علينا، بكل قامته، مؤهلاً مسهلاً في سخرية: «يعلم الله شرفتم. أي ليش أزعجت سعادتكم نفسها، قيام!» ويقوم الصف جوقة واحدة تغني: هللوا وكبروا، يسقط التأخر!».

وكان الصف ينظر إلى المتأخرين بأعين مشفقة حيناً وأحياناً في تشف غبي كأنهم ليسوا معرضين جميعهم لمثل هذه الوقعة المخيفة! ويبدون إجمالاً أقرب الأشياء إلى علبة موسيقية كبست زرها..

وكانت تدور عن الأستاذ نعسان قصص طريفة. ويظهر أنه كان في الفرصة الصيفية يوقف ساعته حتى تستريح، ويخلع أحذيته الإفرنجية كلها وينتعل صرماية حمراء من شغل البلد، وتسمى عندنا مركوباً، وكذلك بدلاته يعوضها بقمباز بلدي وزنار.. ولما كبرت تأكدت عندي هذه الشائعات، ولكن ما صدمني في هذه الشيعة من الناس، المعلمين، هو دورانهم في حلقة

وظيفتهم. كان أحدهم مثلاً يفتخر بأنه لم يفتح كتاباً منذ أن حصل أهلية التعليم!.

وتهلل الأستاذ نعسان وهجم علي يقبلني:

- عبد الفتاح، ولك أهلاً وسهلاً! يا مئة مرحباً! أولادنا صاروا وتصوروا، ما شاء الله كان. الآن أنا في الثانوي أولادي شباب. تعال، تعال إلى القهوة، الإخوان كلهم هناك. أخباركم تصلنا ساخنة. أنا أعرف كل شيء لا تقل لي، بارك الله فيكم. رفعتم رأس البلد!

حسبته يسخر مني. رفعنا رأس البلد! بماذا؟ وجعلت أتفحصه وأرهف السمع لما وراء كلماته. كان شديد الحماسة يهرول بساقيه الصغيرتين قربي ولا ينقطع عن الثناء علي.

ومضى بي إلى أبي النوري. قهوة الأصدقاء، وأبو النوري يعرفني جيداً رأيته مرة في دمشق وأكرمته. وثب عن سدته مرحباً ولكن الأستاذ نعسان زجره وأخذني عنوة إلى الزاوية العميقة التي تطل على خان الشحاذين. وهناك رأيت راشد وخير الدين وبضعة من المعلمين. جلست محرجاً بعض الشيء. لم يعد بيننا ما يجمعنا، وحتى الذكريات بدت بعيدة لا تستحق الرواية. كان خير الدين يروي قصة تعلمه السباحة في بستان دينيب. سبق أن سمعتها. خيل إليّ لو أني سجلتها على شريط وقارنتها بما يحكيه الآن... كانوا ثلاثة هو ابن حاكم الصلح وابن الشيخ محمد كاتب المحكمة الشرعية. سرقوا مشمشاً فجاً من كرم بيت الكردي، صادفوا حيتين صغيرتين منضفرتين كأنهما في عناق فأخرج ابن الشيخ محمد شعبه ووتر مطاطه...

وسألني خير الدين متلطفاً:

- أي كيف الشام؟

- تشتهيكم!

انفلتت مني على نحو آلي فشتمت نفسي، أنا أقول ما يقال في مثل هذه المناسبة! وعاد يسأل:

- كيف أشغالكم؟

لم أجب، لأن صوت الأستاذ نعسان ارتفع متدفقاً متحمساً:

- في السحاب، شيء عظيم يا مولاي، شيء يرفع الرأس... الأستاذ عبد الفتاح (يعني أنا) محام كبير في دمشق. بعد تخرجه من معهد الحقوق تدرب عند وزير العدلية بالذات. كان معالي الوزير يقول لخلصائه: «خلص: أنا لم يبق لي عمل مع هذا الفتى النابغ!» وذات يوم رن الوزير الجرس في مكتبه، مكتب المحاماة وقال للآذن انده لي الأستاذ عبد الفتاح فلما أتى قال لي: «أغلق الباب من فضلك» فأغلقه، قال: «بالمفتاح إذا أمرت». ففعل، قال: «تفضل اقعد جنبي» فلما استوى به المجلس في المقعد الوثير الواسع قال له: «يا ابني أنت لمعت في الجنايات والحقوقيات على حد سواء، ومعاملتك شريفة، شاب مثقف، ديّن، ابن عائلة (كان يشير دائماً إليّ)، وانا إذا عشت اليوم لا أعيش غداً، معلومات من في مثل سني رجل في الدنيا ورجل في الآخرة، وأنا عشت وشفت وشبعت من حلو الدنيا ومرها. كنت أموش الأرض على دعوى أجرتها خمس وعشرون ليرة سورية، حق خبز للعيال وأضع سماسرة، كل دعوى يوردونها لي يقبضون عليها عشرة في المئة. وتقلبت على كل الأحزاب التي عرفتها البلاد، اضطربت من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال.. وأخيراً تطلع الله إلى وجهي وسواني وزيراً والدهر دولاب. والآن قصدي أني أستر بنتي الوحيدة عزيزة، أنت تعرفها، مال وجمال وأخلاق وليست صغيرة مفقوعة مثل بنات اليوم. بدي، القصد، أسترها ما قولك؟»..

كنا نستمع إليه في فضول شديد، وشعرت أنا أن فمي كان مفغوراً على مصراعيه وجبهتي ثنيات تدفعها ثنيات... أهو يتكلم عني! وتابع الأستاذ نعسان قائلاً:

وقال له (ومد إصبعه نحوي أيضاً): «أنا لا أريد منك شيئاً، لاحقاً ولا مستحقاً. وهذا المكتب لك، بس مؤخر المهر خمسون ألفاً. أنت تعلم الدنيا فيها موت وحياة، والمسألة كلها رمزية».

وصفق الأستاذ في ضجة وإيماءة من يعرف خطره:

- هات فنجان قهوة. وأما السيد رياض (هذا اسم أخي الصغير) فقد جرى له ما هو أعظم. طبيب كبير، من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ليرة في الشهر. تخصص في فرنسا وأحبته هناك فتاة سويسرية أبوها رئيس الحزب الديمقراطي المسيحي في أمستردام وأعطته قصراً، وعرض عليه أبوها أن يتنازل له عن كل ما يملك فرفض وباع القصر وعاد إلى دمشق. هكذا يكون الوطنيون. الشريف لا يبيع وطنه بكنوز الدنيا. «حب الوطن من الإيمان»...

واستمر الأستاذ نعسان يتكلم. لم تفتر له همة ولم تبرد حماسته. كان طربوشه ينوس ورقبته الطويلة تنمط ويداه العجفاوان تتحركان حركاتهما الآمرة التي عرفتها في صغري، والحاضرون يستمعون مأخوذين بسعة آفاق الأستاذ واطلاعه الشامل.

* * *

الاتفـاق

كان الصيدلي رفيقي، يكشف لي، ذلك الصباح، عن أسرار البلدة الصغيرة المعقدة ع... التي نقلت إليها حديثاً:

- هذه البلدة تشبه الكويت أو قطر. منذ بضعة أعوام كانت عشرين، ثلاثين بيتاً لا أكثر. الناس معهم حق في تسمية القطن «الذهب الأبيض». إنه يجتذب الفراش والهوام البشري من مختلف أنحاء البلاد. صاحبك الدكتور ماهر لم يشأ أن يفتح في بلدتنا المتواضعة على الساحل. ما إن تخرج حتى نطّ إلى هنا وفي وكده أن يصبح مليونيراً خلال سنتين. ولا بد أنه وصل. هذا يهودي أكثر من شية تاجر البندقية!...

فتضاحكت وأنا أتعمّد إثارته:

- وأنت!؟.. أظنك تركت بلدتنا للاستكشاف؟!

أجابني في مرارة:

- صدق أو لا تصدق، ولكن أكاد أقسم أن رحيلي عن بلدتنا كان مؤامرة حاك خيوطها الدكتور ماهر نفسه!..

قطبت ما بين حاجبيّ، ونظرت إليه من فوق نظارتي. أنا أحب يديه. يدي رسام لا صيدلي!.. واستأنف يقول:

- أنا أعلم أنها قصة لا تكاد تصدق، ولكن أسمعها مع ذلك سأرويها لم من غير تعليق...

- هات..

- كنت قد استدنت من صهري، وساعدني تاجر أدوية في اللاذقية، ففتحت الصيدلية ومشى الحال على الأربعة والعشرين. ذات صباح دخل

على ماهر الصيدلية: «كيف الشغل؟» قلت له: «لا بأس، ماذا تنتظر من صيدلية في بلدة صغيرةّ» قال: «شيء يشبه حمل الكشكول.. أنا فتحت في بلدة ع... هناك الثروة التي تهبط عليك كأنك في ليلة القدر..» وأدمن، طوال الأسبوع الذي قضاه في بلدتنا، على قرض فكري مثل السوس. كان يخرج من صيدليتي ويدخل صيدلية زميلي سامي. هذا تخرج معي. ولما تجسم حلم الثروة الخاطفة في روحي لما غدا ممضا مثل شبح يسكن منزلاً مهجوراً.. صرت أسمع الدكتور ماهر يتحدث عن دين له على سامي!..

وصمت رفيقي هنيهة غير قصيرة ثم قال:

- باعني، ابن الكلب. وها هو يوصي زبنه وزملاءه أن يقاطعوني! ليش؟ لأن عنده في العيادة، صيدلية خالصة!

وأما أنا فلم أحل في هذه البلدة، التي تداهمها العواصف الرملية وترتفع فيها الحرارة حتى تمسي مثل التنور، لم أحل طامعاً في ذهب أبيض أو أصفر.. وزارة المعارف هي التي نقلتني قبل أسبوعين مدرساً شكساً لا يستلطفه مدير معارف المحافظة المدلل على قلب الوزير! وكنت أحتفظ بعلاقات طيبة مع أولاد بلدي الثلاثة الوحيدين ههنا في ع... وهم: النائب العام شاهر السبع، والدكتور ماهر، ورفيقي الصيدلي رضا... رضا كان الأحب.. وقد أقول أن الرسمية تغلب على علاقاتي مع الاثنين الآخرين. وأما رضا فأكاد لا أرى غيره.. أوقات فراغي أقضيها كلها عنده أو معه.. وما كان أشد تنوع المشاهد والفصول التي تجري في الصيدلية، في بلدة فيها كل أجناس سورية ولغاتها، من العربية بلهجاتها المحلية إلى الآشورية والسريانية.

فجأة ارتفعت جلبة أصوات كأنها آتية من عيادة الدكتور ماهر على العدوة الأخرى من الشارع، بعد بضعة بيوت عن يمين. قمت أتفرج. وكان قد سبقني جمهور صغير من الفضوليين.

كان في فناء العيادة امرأة مسنة تسند فتاة إلى حوالي العشرين، شاحبة، غار خداها وجحظت عيناها، والدكتور ماهر محتقن الوجه، غاضب، يفتح فمه الكبير على مصراعيه:

- العمى.. أي أنا جيت من آخر الدنيا حتى أداوي الناس مجاناً! انقلعي يلعن.. مصرياتك خلصت، خلصت! قلت لك إياها ألف مرة.. روحي هاتي غيرها وتعالي داوي بنتك...

كان يحاول أن يتكلم بلهجة دمشقية، ودخل العيادة وهو يصفق الباب في شدة.. لم يرني.. أنا لمحته يمر وراء زجاج النافذة ويتجه إلى مكتبه.

كانت الفتاة قد ازدادت انحناء على نفسها.. بدت كأنها تمسك بصدرها.. وندت عنها سعلة واهنة.

ودنوت من المرأة فشق المتجمعون لي ممراً وسألتها:

- ايش القصة؟..

أجابت في صوت مكسور:

- الله يأخذ لي حقي...

هذه لكنة سريانية. وراحت تتكلم. لم تكن توجه الخطاب إلى واحد من الجمع بعينه. لم تكن تفضي لأحد: ابنتها معها كيس ماء في صدرها.. (أنا قرأت عنه، هذا مرض قاتل تسببه الدودة الوحيدة المقنفذة).. قاموا «وصفوا» لها الدكتور ماهر.. «- قديش بدك يا حكيم؟» إنه يطلب مئتين وخمسين ليرة: أنا إنسان لا أحب أن أستغل.. روحي وتعالي، وكل مرة كشفية وكل مرة حق ابر وكل مرة وصفة يتلقف الصيدلي حقها فلفل وقرنفل.. هاتي مئتين وخمسين وخذي بنتك ما فيها البلى، مثل فضة الروباص!.. ولكن، يا دكتور... – ايش؟ قولي لا تخجلي.. – قالوا لي أنه بدها عملية!... – أعوذ بالله، عملية؟ حرام.. عملية ايش!..

ولم يكن معها من المئتين والخمسين إلا حق الخبز اليومي.. بدأ طرق الأبواب.. لا أحد!.. ولم يحل المشكلة إلا بيع مكنة الخياطة ورهن الاسورة الوحيدة التي يعتز بها معصم البنية الطالعة على الدنيا مثل برعم صبي مريض.

بعد الاتفاق، والدفع، استقبلها الدكتور فوراً، بعد ثانية واحدة من دخولها العيادة... يا حبيبي ما أطيبه هذا الحكيم!.. في المرة التالية انتظرت بمريضتها الحبيبة نصف ساعة.. هذا الحكيم مشغول.. في المرة الثالثة..

اليوم رفض استقبالها: خلصت مصرياتك!.. كيف؟ والاتفاق؟.. الاتفاق على أن تستلمها مثل... من أين تدفع؟ لا أحد يقرض. الاسورة صداق..

وسرت همهمة بين المجتمعين رأيت شيخاً ينفتل وهو يهر مثل كلب أنيس: تفو، حرامي!.. وقال رجل بشملة حريرية:

- روحي يا أمي اشكي أمرك إلى الله هذا قلبه حجر صوان!..

وقال آخر كلاماً بالكردية، كلاماً لا يسر حتماً.. ونظرت إلى العيادة. كان الدكتور ماهر يذرع الصوفة بين حين وآخر فينتظر من النافذة التي تطل على الفناء.. إحدى المرات أطل معه أبوه السمان في سوق الخضرة ببلدتنا.. كان في ضيافة ابنه.. ولم يرياني.. كان ينظران وراءنا..

أين قرأت أن مجلس نقابة الأطباء في انكلترا يستطيع أن يسحب رخصة مزاولة الطب من الطبيب الفاسد؟.. مؤكد أنهم هناك لم يصادفهم مثل هذا الصنف، الطبيب - المرابي.

في هذه اللحظة صاح صبي صغير:

- سيارة الشرطة..

التفتُّ إلى حيث كان الصبي ينظر، من ناحية صيدلية رضا.. سيارة مقبلة، مسرعة.. لحظة، وإذا هي تقف أمام العيادة.. وانسحبت أنا إلى الرصيف المقابل.. فتحت أبواب السيارة كلها ونزل بضعة أنفار لم يتقدموا نحو العيادة فوراً، ولكنهم وقفوا كأنهم يهمون بأخذ التحية لشخص سينزل من السيارة. فعلاً.. كان هذا الشخص هو ابن بلدتنا النائب العام، الأستاذ السبع.

وخرج ماهر لقاء النائب.. بادره وهو يشير إلى المرأة المسنة:

- هذه هي.. أنا تلفنت لك.. وغابت البقية في تفتقة وهرير حانق. ما كان أشد شبهه بأبيه.. هذا كانت دكانه أشبه بركن كمن فيه عنكبوت جائع جوع الذئاب إلى... القروبين! والابن؟.. السمان المرابي ذاته بشهادة معشوقته في حرارة وصبوة.

وعبس النائب العام وهو يتقدم في أبهة، عالي الرأس، شديد الخطوة.. هذا غير كنيته بدعوى. كانت كنيته شنيعة، لا أصل لها..

لم يوجه السبع إلى المرأة أس سؤال.. لم يأمر أيا من الانفار أن يفتح أي دفتر، أن ينشر أية ورقة.. أنه ارتأى حلاً آخر، عملياً بعض الشيء: تقدم من المرأة في بسالة، وأشرع يده إلى أعلى وزهوى علي وجهها.

خيل إليّ أني سمعت شهقة تصدر من قلب الجمع، من كل قلب حتى الجدران. هذا السبع!.. الآن تذكرت: في المدرسة الابتدائية كان مشهوراً بأن يده طويلة!.. عدة مرات في الاسبوع كان المدير يرفعه فلقة لأنه خطف من هذه الدكان أو تلك.

وأرخى الأستاذ السبع بعد ذلك أساريره، عسلها وقدمها إلى الدكتور ماهر فتصافحا في حفاوة كأنهما لم ير واحدهما الآخر منذ شهر..

وصاح نفر من الشرطة في الحشد:

- يا الله ولك، أنت وهو، شو فيه؟ عرس! روحوا كل واحد لشغلته، العمى ضربكم..

ونظر حواليه بادي الانتفاش والرضى عن نفسه..

عدت إلى الصيدلية.. قال لي رضا لما فرغت من رواية الحادثة:

- أما قلت لك؟ طبيب، قال طبيب! أنا أعرف أنهم في كلية الطب يشرحون العلق.. وأما في بلادنا وتفو!.. إنهم يمنحون العلقة دكتوراه وترخيصاً بمزاولة المهنة..

قلت:

- والسبع هذا؟.. إنه نائب عام!

قال وهو يضحك ضحكة بتراء:

أيام لا أدري أي ملك كان المحتسب يعني قائد الشرطة، ينتقى من مهرة الحرامية.. قد تكون وزارة العدلية إنما أخذت بهذا المبدأ الحصيف!..

- أترى أن ماهر يرشوه؟ هاتف صغير وإذا هو مستنفر بخليه ورجاله!..

- لا، إنه يرضى بأحقر من الرشوة. هذا يداويه ويداوي عياله ويعطيه أدوية لقاء مثل هذه «الدورية» الممكنة كل يوم..

بعد ساعة كان السمان المرابي في سوق الخضرة، الدكتور ماهر بعد عدد من السنين، يدخل علينا الصيدلية. إنه مثل ابنه: حركاته مسلوقة ملهوجة. إنه أبداً عجلان. لماذا؟ وهو يأكل أنصاف الكلمات كما يأكل أموال الفلاحين. ماذا أقول أن هذا الشيخ معروف في بلدتنا بأنه هجر سكان قرية من قريتهم بقوة الربا!

كان نحيفاً جافاً كأنك نشفته بالنشافة.. وكان لا يزال غاضباً هو أيضاً على المرأة التي تجرأت مصرياتها فنضبت. قال:

- شعب حيوان

- ؟!...

- سمعتم حتماً بقصة العجوز السريانية!

أصر رضا على اللياذ بالصمت. ورضا يكره أبا ماهر «كره المجوس» ويتحدث عن زياراته الدورية لابنه في ع.. فيقول أنه يتفقد رزق الأسرة، «رزقنا» مثل موسم نضاح بالبشاير!

وسألت أنا الشيخ المرابي:

- لا، شو القصة؟

فتدافعت أنصاف الكلمات من بين فكي بدلة أسنانه:

- مرة محتالة دوايناها، في أمان الله، قامت خلصت مصرياتها... شو بدنا نعمل لها؟ نداويها بالبلاش؟. نحن تعبنا على حالنا، درسنا..

وأضاف وهو يهز رأسه متأففاً:

- شعب همج!...

* * *

الأخرى

فتح عينيه ولكنه لم يتحك. أطربه أن يرصد الوضع أفاق عليه، أن يسجله كما هو: كان متمدداً على جنبه الأيسر، ساقه اليمنى تلتف بساقها، أنفه يلصق بخدها، يده تحيط بخصرها.. وأبعد وجهه قليلاً، وجعل ينظر إليها. كانت غرتها قد انحسرت عن جبهتها الضيقة فتوضحت أبعاد رأسها الصغير ووجهها الذي يشبه الفأرة. إنها توارب فمها وتغط غطيطاً هادئاً متقطعاً، قرَّب أنفه: أن لها رائحة باب دار. منظر داجن أيضاً! الفخذان، أحسن ما فيها، قصيران. مكتنزان تمازجهما صفرة. الثديان صرتان فارغتان من قماش خلق بال. الكتفان رجاليتان. العنق؟ ليس لها القدمان مسطحتان، ولا سيما اليسرى التي تتدفع منها عند الكاحل الأنسي نتوء كأنه ورم.. قبل الزواج لم يلاحظه. الأحذية ذات الكعوب العالية تقنّع مثل هذا التشويه. وجه القدم هو أيضاً مأووف: ينفرش مثل مروحة لا تغلق.. قدمان مسطحتان. صدر مسطح. امرأة مسطحة. كل شيء متسطح، راكد مخنوق..

وانقلب كأنما لسعته عقرب على جبنه الأيمن، نحو الأخرى. يا للمفارقة! في مثل هذا الساعة خاصة، تكون تلك في أحسن حال إنها دائماً في أحسن حال تأودا وصبوة. دائماً في الريعان. شقراء، مخضرة، محيِّرة مثل زهرة، مثل الصفاء في عيني طفل، مثل قبلة تستكشفها بنت ثلاثة عشر...

ولما كان القاع أبجور نافذة مدهون بلون البرتقال... وتقبل أشعة الشمس الأولى، صهباء، يلذعها برد الصباح، تنسكب على الأبجور فتشعشع هي.. من أين تأتي هذه الأنوار الملونة؟ لا بد أن في الكون مكاناً تنبع منه كل الأنوار! أين هو؟ لو اهتدت القلوب المضيَّعة إلى الينبوع!.. في العام الماضي

حرموه من القوام البديع، من الألوان والأضواء. وأما الآن فقد ترعرعت مرة أخرى. كل ورقة لون. أحد الأغصان، مثل ذراع عارية، تعطيها راقصة مغناج إلى مراقص محب، يمتد حتى يمس النافذة- الإطار. لما قصَّها الجار الذي في القبو وجد هو نفسه مضيعاً. لم يعد حوله غير الفأر المخنوق يقاسمه الفراش...

وملأ الفضاء صوت حاد ونزق، غرد انبعث منها هي، من الأخرى: هذا طائر غريب، صغير، رخيم. عصافير الحارة لها زقزقة من نوع آخر. هذا الصوت فيه شجو ساذج، محاولة نغم.. ورفع هو جذعه يبحث عن الطائر الملم بين الأوراق، فشخرت هذه مدوية ممطوطة واحدة، ثم عادت بعدها إلى الغطيط الرتيب.

كانت ذراعها اليمنى تتمدد لا حراك فيها إلى جانبها. مضى أكثر من أسبوعين على الحلاقة الأخيرة. شعر الذراع ينفذ الآن من الجلد، أسود، مدّ يده ومرَّ بها على الذراع. خشنة. الساقان ظهر شعرهما كذلك أسود، أشد خشونة...

عاد ينفتل نحو الأخرى. اللون البرتقالي يوقف القلب على شعرة.. تمنى لو لم يذهب إلى العمل، أن يظل يتأمل كل ساعة من ساعات النهار، لا تلك اللحظات الصباحية وحدها. لماذا اللون البرتقالي على الأخص؟ لعله لون الشفق، لون فجر ما، طلع عليه في فنلندا، ذات يوم، وراح يرزُّ أنواره على ضفيرة موفورة، ذهبية، وكنزة برتقالية، وتغريد نزق رخيم. كان آنذاك في الريعان، في سورة مثل سورة الأخرى، الرمز!...

رمز؟ أجل انبث في كل شيء هذه الأيام الأخيرة: إذا رأى إنساناً ضاحكاً تساءل: «لابد أن هذا الوجه المغتبط حكرة الأخر!».. البارحة، في مشرب، راقب شاباً مكتهلاً طلب بطحة عرق من نوع رخيص. كان معه رغيف خبز جعل يغمسه في صحون المازة، وبين حين وآخر يسند رأسه إلى رسغ كفّه ويتأمل الشارع.. إنساب حوار هين بين الشارب والخمار. قال هذا:

- أتدري يا أبا الخير منذ متى أنت زبوني؟

- من عشرين سنة ربما.

- قل ثلاثين ولا تخف.

وأضاف الخمار ضاحكاً:

- صار لك حصة في المحل.

- أنا مالي حصة في أي مكان، ولكني أحب هذه الزاوية!

قبيل الإغلاق كان أبو الخير يهوم وقد دفع رأسه إلى الجام وراءه، اسنده إليه جاء الخمار ووضع يده على كتفه في رفق:

- أبو الخير، قم إلى البيت.

قال أبو بصوت نعسان، مخمورة ولكن فيه رنة من حزن صدمة عمقها، حيرته:

- أنا مالي بيت!

وقال هو نفسه: «هذا، الخمارة عنده هي الأخر!»

وزلق رأسه. جعله يتدلى إلى جانب السرير. اختفى المنظور الأول. اختفت الأخرى. إنه الآن أمام لمسات لونية باهرة: تنُّور يتوهم فيه أرغفة معافاة. كل هذا تؤطره النافذة!

وما أغرب الصلة! الأخرى هي، نسغ أوراق، تغريد ألوان، تشتعل حتى في العروق... بينما الأولى لحم ودم، دفء يُتشهى أحياناً، يستسلم، يلد. مثله، منه ها هي ذي يمس جسدها جسده. ومع ذلك.. ينفتل نحو الأخرى: أكثر من أية لحظة مضت، مذ فتح عينيه، كان كل جزء منها يشتعل، يدعو، مثل ركبة بضة، وردية، بيضاء انحسرت عنها تنورة زهراء، مثل إبط أزغب، عمره أربعة عشر تكشف عنه إيماءة من ذراع عارية... وهب نسيم ناعم وإذا هي ترتعش كلها كأنها تعانق، تذوب في قبلة، ترتعش حتى ذراعها المورقة الممتدة إلى نافذته.. وتوالت الرعشات. فضحها اللمعان، الأنوار الذهبية.. يا للمشهد!

ورفع جذعه أكثر فأكثر يتملى، ينهل من أعماق شوقه، الرعشة والوجه على نحو محموم أيقظ الأولى... أطلقت هذه أنة وتنهدة مستطيلة... ولا يدري كيف تم الأمر، ولكنه تم. كان فيه اندفاع جارف، عنيف. لم ينتبه حتى إلى الرائحة المخنوقة. تم على نحو لم يعهده من قبل على طول العشرة...

وانطرح إلى جانبها يلهث لهاثاً لطيفاً. كانت عيناه مغمضتين وفمه منفرجاً عن ابتسامة وادعة قريرة. وراحت يده اليسرى تعبث بشعرها.. وتمطت هي في رخاوة، وهمست همساً نغشاً، راضياً، فيه محاولة مزاح:

- شو قصتك اليوم؟ على غير العادة!

* * *

حكايـة بسيطة

التـــوم

-١-

كان في بلدتنا شقي لقبه التوم. وأما اسمه فعاد لا يذكره أحد حتى أمه. وهذا مألوف في البلد: الولد منذ طفولته المبكرة - ولا سيما إذا كان من بين أولئك الذين لا يذهبون إلى المدرسة!- ينبر بلقب في أغلب الأحيان يلبسه لبساً وفي كل الأحيان يطمس اسمه، ينفيه. ولا يستغرب أن تنوح أم على ابنها المتوفى منادية إياه بلقبه الشائع مهما يكن مجافياً للسمع.

لا أحد يعرف لماذا نبز التوم بهذا اللقب، ولكن الأيام برهنت على أن في التوم ذيوع رائحة حادة! كان شريراً هواية، شريراً لوجه الشر، يقتل القتيل ويمشي في جنازته. يفرض أتاوات على بعض الأطباء، على المقاهي، على سقائي الماء، على...

ويقول رجل ذو عزوة (ذو ظهر، ذو أسرة كبيرة) لآخر مقطوع من شجرة، يقولها في دهشة مؤنبة:

- صحيح أنك تدفع للتوم خوة (أتاوة)؟
- نعم، أدفع.
- غريبة!
- ما وجه الغرابة فيها؟
- أنا أدري، أنا لو كنت مطرحك لمصعت رقبته.

- أنت شيء آخر. أنت حواليك عزوة. وأما أنا فدرويش في حالي في ذاتي. من جهة أخرى أنا لا أريد أن أبهدل نفسي مع واحد مثله. هذا ولد شقي

على جنبه مسدس أمريكاني، شرير حتى على أهله. وأنا أقول لنفسي: اعطه يا ولد واكسب القضا بالرضا!

في وقت من الأوقات صارت المدينة كلها، القضاء كله يرون هذا الرأي: القائمقام، قائد الدرك، النائب العام، كبار التجار وحتى دراويش الناس الذين لا يملكون غير سواعدهم.

- ولك يا رجل هذا ولد دمه على كفه. لا تندق معه. داروا السفهاء.

وانشط التوم. صار يضرب، يقوم بغارات على أناس آمنين في عمرهم لم يحملوا قطعة سلاح، يطرد الناس من منازلهم ويلجئهم إلى البرية، تحت خيمة.. وقد يعجبه زركنداي أو ارطاي (أنواع من المراكيب يمتاز بعضها من بعض بموتيفات أو علو في البوز)، أو حتى جزمة صفراء أم نضوة، مما يصنع في وسق الجزماتية ويلبسه الفلاحون في الأراضي الممطورة أو نساء القرى المجاورة اللواتي يفدن إلى المدينة وعلى رؤوسهن علب اللبن.. فلا يكلف نفسه إلا أن يشير بإصبعه إلى الصرماتي أو الجزماتي فيلف له ما أراد في سرعة وعناية.

- يا حسينو.

- نعم توم أفندي.

- ابعث لي سحارة البندورة هذي إلى البيت مع الولد.

- أمرك حضرة التوم.

- خلك على توم أفندي، هذه أعجبتني أكثر.

- أمرك توم أفندي.

- أنا لمعلوماتك رجل أكابر.

- هذا طبيعي توم أفندي.

- كيف الحالة في السوق؟

- عال توم أفندي.

- أنا لا أريد خربطات. أحب أن تكون السوق هادئة، أنا شعاري أن أحيا وأدع الآخرين يعيشون في حدود آمنة على الأربعة والعشرين...

عقلاء البلدة كانوا يهزون رؤوسهم في أسى عميق يكاد يكون لا عزاء له: ما كان أعذب بلدتنا قبله! من أين جاء؟ كيف تسلل إلى أمتنا، إلى تلك الاصباحات الندية تعتنق فيها السماء والأرض، والأفق من خلال أشجار الزيتون والليمون يجر ذيولاً ملونة، مثل أثواب العروس، تملأ القلب سلاماً، أكثر، تملؤه وَجْدا... إلى تلك الأمسيات: سنونو في أعراس هازجة، بقرة تخور في فناء بيت جيراننا، عواء بعيد لابد أنه صادر عن بارود كلب «زقيقان» الراعي، من حارتنا أيضاً، يعود من المراعي في تل شمارون على طريق حارم.. ها هي ذي مدخنة أم شهربانة تبدأ تطلق دخانها البنفسجي في الشفق. لا بد أن الأب يوشك أن يعود من أرضه وهو تعبان، يسوق دابتيه. شهربانة ابنته شقراء بعينين زرقاوين. هي في مثل سني، ولكنها مكربجة. كناز، طرية مثل دراقة مستوية. شهربانة لا تذهب إلى المدرسة لأن أباها يخاف إذا هو «حطها» في المدرسة أن تكتب مكاتيب لعشاق! ولكن شهربانة كانت «تنسرق» في غياب أبيها وتدق هذا المجهول، الجَرْف، تعينها في خطوتها الأولى أختي الصغيرة. شهربانة تعلمت كذلك من أختي الكبرى المخطوبة، رقصة الهوانم على العود. من يدري قد تخطب هي أيضاً مثل أختي الخطابون في بلدتنا يرغبون البنت التي تدق على العود و «تفك، كلمتين في كتاب!».

-٢-

واحد وحيد في البلدة، فتى يافع في حوالي السابعة عشرة، رقيق، غض، خجول مثل عذراء. كان هذا يدرس في تجهيز حلب. (لم يكن في بلدتنا غير المدارس الابتدائية). ولكنه كان، في أيام العطل، يأخذ دروساً في

السولفيج (عندنا يسموته النوطة). عند عواد البلد الأكبر، غير منازع، أبي قاسم العواد...

هذا اليافع دخل عليه طغيان التوم، مُطْلَقيَّته (توتاليتاريته) بالأعجمي. لم يفهم لماذا ينقلب الخلق في هذا البلد إلى أصنام من ملح كلما تعلق الأمر بالتوم. لنسم فتاناً هذا عدنان أو إسماعيل أو عيسى أو محمداً. على أية حال لم يكن له لقب. محمدنا العذب هذا كان يعرف البلدة، قبل أن يغزوها التوم، ويحبُّها. البلدة كانت عنده سمفونية ألوان وألحان وأنسام تطور حركاتها حتى ذروة الكشف... كانت النزهة عنده على طريق اللاذقية مع دندنات الصباح الأولى هواه. فمن أين جاء هذا النشاز، هذا الكسر للتناغم العميق والنمو المعافى في الطبيعة والناس؟ التوم! ما التوم؟ إنه غريب عنا، لا يمكن أن تهضمه بلدتنا ولو عاش فيها قرنا. وهو شيتّ (هذه في قاموسنا معناها القميء الذي تتقحمه العين، تعادلها باللهجة الشامية كلمة «زمك» أصفر الوجه، والشيخ شريف أمام الجامع الكبير لا يفتأ يردد في دروس وعظه أن نتقي صفر الوجوه من غير علة صفرة وجوهم من حقد على الناس!

مسألة أخرى: محمد أبوه خضري، وللتوم عليه خوة تنتفي من بواكير البندورة مثل مزارع الورد، من البطيخ الأخضر على السكين، أحمر مثل الدم، قد تصل البطيخة الواحدة منه إلى سبعة أرطال...

أبو محمد خضري ولكن الأسرة أسرة فلاحين. الأرض في بلدتنا موزعة ملكيات صغيرة. تاريخنا لا يعرف الإقطاع. إنك إذا كنت مالك أرض وطاء (لا شجر فيها) وأردت أن تغرسها زيتوناً، ذهبت تعرض الأمر على فلاح. الفلاح لا يقبل منك عمله أجرة يده حتى ولو دفعت له يوكا (اليوك رقم ضخم جداً لم يستطع لغويو بلدتنا تحديده على الضبط بعد!). إنه لا يقبل منك إلا أرضاً، جزءاً من الأرض تسجل على اسمه في الطابو، سعره سعرك... هذا يفسر لماذا يملك كل إنسان، كل أرملة، بضع شجرات من الزيتون... المونة!

... ولكن الأرض تخدم من يخدمها.، محمد كان يرى مشفقاً ما تحتاج إليه شجرة الزيتون من قيام في الأسحار، من عرق يتصبب مزاريب، من انتظار، من حنو، من محبة... أهذا كله يتخطفه طفيلي مثل الأريا على العدس، غريب لا أحد يعرف قرعة أبيه من أين؟!...

كان عقل محمد مرتباً ولذلك فقد لخص نظرته في التوم:

- التوم يضرب الجبان ضربة يهلع لها قلب الشجاع.
- التوم أمام «حقه» في الحياة على الجريمة.
- التوم طارئ على جمال البلدة وانسيابها الوديع المؤنس في الزمان والمكان.
- التوم مكْبح مؤذٍ لنمو البلدة الطبيعي المعافى نحو البقاع والازدهار وإعطاء كل غصن من زيتونها، كل أرض، كل قلب.. أقصى ما فيها من مناجم خير.
- التوم يجب أن يقلّم من شجرة البلدة حتى تتفجر قواها المثمرة كلها.
- التوم يمكن تقليمه!.

-٣-

ما جرى بعد ذلك من أيام البلدة التي مايزال الآباء يروونها للأبناء، والجدات يحكينها لأحفادهن اللائذين بفضول أثوابهن قرب الموقد. بدأ محمد بداية بسيطة: اشترى مسدساً. درسه درساً عميقاً. فهم جزيئاته، أسراره كلها. أتقن الرمي. اشترى أثقالاً وكيس رمل وتمرن على الملاكمة. أقنع أباه أن يمتنع عن دفع الخوة للتوم. لما جاء هذا يطالب بها في صلف قال له محمد في لطافة، ولكن بصوت عالٍ سمعه من كان على مسافة خمسين خطوة من اهل السوق:

- يا توم ادفع ما عليك أولاً ثم تعال اطلب أشياء جديدة.

نظر التوم إلى «الولد» نظرة امتزجت فيها السخرية بالدهشة. ولم يرض الرد عليه. توجه إلى أبيه:

- ما شاء الله، ما شاء الله! قل يا أبا محمد أنت علمت ابن المكتب المائع هذا أن يتطاول...

كان يتكلم ويذلف من محمد وأبيه بخطوات فهد.

لم يدعه محمد يكمل:

- امش في طريقك يا توم. هذه نصيحة مجانية (ضحكة خفيفة مهددة) تذكر أن النصيحة كانت بجمل!

- ها، ها، ها! أنا أريد، قبل أن أكنس بهذا الولد الأرض، أن أفهم متى فقست عنه البيضة!

كانت نصف دائرة من الخلق بعيدة بعض الشيء من دكان أبي محمد قد حفت بالدكان. أجرأ أهل السوق كانوا الأقرب إلى مركز نصف الدائرة، أي إلى ثلاثة الأبطال الذين يواجه بعضهم بعضاً ويوشكون أن يحكموا العنف كما تدل البوادر آخرون من أهل السوق ظلوا بعيدين: بَعِّد عن الشر وغنِ له!

وقال جار من جيران أبي محمد:

- ولك أخي اخزوا الشيطان. اكسبوا القضا...

بيد أن التوم، في هذه اللحظة، قطع حكمة الجار كأنما بسكين إذ أشرع ذراعه اليسرى على طولها وأهوى بها على رأس محمد، بينما كانت اليمنى تمتد إلى زناده، إلى المسدس الأمريكاني...

ولكن يد التوم لم تصل قط إلى رأس محمد. لقد طوحت بها ضربة مفاجئة سريعة من يمنى محمد، أعقبتها، مثل لمح البرق، ركلة في بطنه.. وقبل أن يفيق أهل الساحة (سوق الخضرة) من دهشتهم، أو يتبينوا كيف تم

الأمر، كان مسدس التوم في يد محمد الذي... في هدوء، والابتسامة العذبة الخجول على الشفتين دائماً، سحب المشط ووضعه في جيبه، ورمى المسدس بعيداً في الطاروق ذي الماء الموحل... وأعطاه ظهره ودخل الدكان حييا، خفرا مثل عذراء!

بعد ذهول الثواني الأولى انفرج جو الساحة. صاح آمد أجير الشوشة اللحام:

- ارحموا عزيز قوم ذل.

أجاب نمورة الخضري:

- أنا عندي منفاخ في البيت ولكنه نفَّس.

وصاح العضيد جذلان:

- بعظمه يا لحم!

وضحك الضبع قبالته وقال:

- والله ذبح يا لحم، تازة يا لحم!

وقال ددك القباني:

- قالوا لفرعون: من فرعنك؟...

فأجابته أصوات ضاحكة:

- قال لهم: ما لقيت من يردني!

لم ينتظر التوم سماع التعليقات الضاحكة كلها التي استمرت أمداً طويلاً، قل أياماً: نهض على عجل وهو يتلفت ممزقاً بين الدهشة والذعر. ما القصة؟ العمى! ودلف من الطاروق فالتقط مسدسه الفارغ ونجا، ذنبه بين ساقيه. لم يلتفت إلى خلف التفاتة واحدة.

أنت تفهم، لم يكن الأمر هيناً: مملكة، أرض موعودة، فردوس أرضي. توشك أن تتسرب من بين أصابعه مثل من يقبض على ماء. وعلى يد من؟

على يد ابن أبي محمد ممصوع الرقبة الذي ما فقست عنه البيضة بعد! إذن لا غرابة أن يغيب التوم عن الأنظار فترة يزور فيها تجاربه السابقة، يلملم شعث ذكائه: يجب أن يكون انتقامي من قامة الإهانة التي لحقت بي. لا، يجب أن يكون انتقامي رعب البلدة كلها خلال سنوات طويلة. إن محمد ابن أبي محمد ظل يهينني ذلك اليوم ألفي سنة. لقد طردني من الأرض الموعودة.

لتنسني يمناي ويسراي إن نسيت إهانته. لن أسكت له. أنا صناعتي الحقد، الذحل. أنا أتروق حقداً ضغناً وأتعشى كرهاً. سأحرق البلدة.

-٤-

المشهد الأخير في دكان العضيد اللحام. محمد بن أبي محمد يدخل الدكان ومعه بصل وبندورة. إنه يريد أن يوصي على صفيحة لحمتها تقطع على يده وتفرم على السيخ كما أوصاه أبوه.

فجأة تنشق الأرض عن التوم وقد شهر مسدسه الأمريكاني، وانطلقت رصاصة، اثنتان، ثلاث إلى داخل الدكان

الدنيا قامت ولكن محمداً لم يصب. يظهر أن يد التوم، المشهورة بأنها لا تخطى برغشة طائرة، قد تثلمت إلى الأبد. لقد أصيب وجاق الشواية. الرصاصة الثالثة فقد استقرت في جدار الصدر... وأما الرابعة فلم تخرج من فوهة المسدس قط. هذا يسمونه هنا في الشام «روكب الفرد». وأما عندنا فيقولون أن الفرد قد علك! أي نعم علك فرد التوم ربما للمرة الأولى في عمره.. بينما كان محمد قد وضع بصلة وبندروته على وضم العضيد وراح يتجه نحو التوم...

-٥-

وأعولت امرأة في جنازة:

- يا دلي بعدك يا توم!

عينان وصوت

- هل عنده أحد؟

- لحظة، الاسم الكريم؟

قالها الآذن الأنيس، وهو يضع يده على أكرة الباب ويديرها فينفرج المصراع قليلاً... ولا تجيب الفتاة.. تتقدم من الباب وتدفعه بيد صغيرة لطيفة وتدخل. ويغلق الباب خلفها، فتقف لحظة يسيره متهيبة: عن يسارها مكتب عريض عليه بضعة مصنفات وجهاز هاتف، يقف وراءه شاب طويل القامة، تسرب الصلع إلى مقدمة رأسه فمسح قسماً من الشعر، وأهوى على قسم آخر ولكنه لم يمسحه، تركه واهناً، صغيراً، هشاً كأنه أعشاب في أرض حوارية لم تحرث ولم تمطر.. الرجل أنيق، ولكن أناقته ورعة، إذا شئت، مقتصدة.

إنه يقف الآن وقد اتسعت عيناه في دهشة تشبه الذعر، وراحت شفتاه تغمغمان ولا تقولان شيئاً.. ويندفع إلى لقاء الفتاة، ولكنه عوضاً عن أن يأخذ أقرب السبل، إلى يمين المكتب، يهم بالدوران حول المكتب من الجهة اليسرى.. غير أنه يفطن إلى ذلك فيقفل راجعاً..

ولكنه لا يمد يده إلى الزائرة. يكتفي بإشارة متحيرة من ذراعه، وتتخلص بضع كلمات متلجلجة من شفتيه:

- الآ.. نسة.. تفضلي، أرجوك!

ودلفت الفتاة إلى أحد المقاعد الثلاثة أمام المكتب، وجلست على حافته. كانت أقرب إلى النحافة، لا يصنع المنديل الموسلين إلا أن يلقي على قسمات وجهها نوعاً من ضباب الحلم، مثلما يفعل البعد بنبرة ناي..

وراءها كانت خزانة فيها كتب مجلدة يغلب على غلافاتها اللون الأسود. في الزاوية، عند الباب، مشجب علق عليه معطف حسن الطي، عن يمينها

نافذة عريضة أسدلت ستائرها الخشبية نصف إسدال فامتدت في الغرفة ظلمة خفيفة.

وجلس الرجل هو أيضاً. جعل يسحب أوراقاً من ناحية في المكتب ويضعها في الناحية المقابلة، ثم يعيدها. ورفعت الفتاة نقابها.. اختلف منظرها بعض الاختلاف. كان أنفها أقنى، يميل إلى الضخامة وأذناها ليستا صغيرتين، وذقنها عريضة، ولكن العينين.. أية عينين! الحور، الأهداب الوارفة التي تلقي ما يشبه الظل على الخدين الفتيين.. قوساً الحاجبين المتباعدتان إلا ذكرى من الزغب بينهما.. أغلب الظن أن المتعب الحزين إذا ألقى ناظريه في هاتين العينين أفاءتا عليه عزاء موفوراً.. وحتى حينما تطفحان بالعبرات يظل أساهما وديعاً، يسيراً كالغمامة البيضاء في سماء لا نهاية الزرقة..

وتموج صوتها في الصمت المقيم:

- قطعتنا، مرة واحدة!

بعض الأصوات يشبه لمسة حاذقة على مفاتيح بيانو، يمتد لها، حتى بعد انفلات الكلمة، صدى، غنة، رنين حي يظل في القلب أمداً...

وقال الرجل:

- أعوذ بالله، نتشرف.

ووجه بصره نحوها هذه المرة، ولكن عينيه كانتا تحطان على الخزانة وراءها. وفي قرارته كانت ثنية المنديل تختلط بالغلافات السود، بصورة عينيها، أيام كانتا ضاحكتين قريرتين أو مغمضتين ظليلتين تهمسان: «يا الله كم أنا سعيدة معك!».. وانبعث في هذه القرارة ابتهال خفي: «رباه أنزل سكينتك على قلبي المسكين! يا رب أنت تدري أني رجل ضعيف فأعني على عهذه الساعة يا رب!».

- كيف حال الوالدة الكريمة؟ (فترة) والشقيقات؟ (فترة).

وعاد الصوت يتثنى والعينان ساجيتان:

- لماذا لم تعد تأتي؟

«آه، لو كنت أقوى! لو كنت أستطيع أن أقول لها كل شيء في نفس واحدة وأستريح».

قالت:

- هل أغضبك منا شيء؟

- أأ.. أعوذ بالله! أنت تعرفين أني أحمل لك كل الود. أنت كنت دائماً غالية علي جداً..

«ولا تزالين يا حبيبتي الصغيرة! لا أزال يفريني الألم، ويبعثرني أشلاء حية على أشواك ضارية.».

الحدقتان ترتفعان ارتفاعاً خفيفاً. الأهداب العليا تنسدل في تؤده فترمي ظلاً على الخدين. الصوت حالم، بعيد:

- كانت رغبتي لا حد لها في إسعادك! (فترة) كنت قادرة على أن أصنع الكثير...

- أعلم.

«نعم، أعلم من صميم القلب. أذكر ليلة خرجنا إلى حديقة «ضوء القمر» في الصحراء. في الطريق الممتدة أمام القهوة ارتفعت على رؤوس أصابع القدمين، وهاتان العينان مغمضتان، مثلهما الآن، والشفتان تدعوان. الاستجابة البكر. أحسست أنك لا تمدين الشفتين وحدهما ولكن الرسغين أيضاً، تنشدين لهما عيودية حبيبة مختارة، يريدها كل ما فيك من أشواق الصبا وأحلام البيت ترن في جنباته صيحات الأطفال!».

- أعلم، ولكن النصيب..

«أنا كاذب يا حبيبتي. أكبر كاذب عرفته في حياتي. تصوري أني أنا الذي أهرف بهذه الكلمة: «النصيب»! أرجوك لا تذكري تلك الليلة الأخرى، حين قلت لي، وقد ذهبت مع نفحة من الحزن كثيراً ما تصيب السعداء في

ذروة سعادتهم. قلت لي: «ومع ذلك، من يدري! قد لا تكون لي. قد لا يكتب لنا نصيب على الرغم من كل المراسم وهذين المحبسين الذهبيين في أصبعينا!» أرجوك لا تتذكري! وقلت لك أنا: «نحن خالقو مصائرنا». كلمة ليست لي، اندفعت لست أدري من أي مستودع راكد في ذاكرتي.. ودفعت تربيتك الدينية إلى شفتيك احتجاجاً فأسكته أنا بشفتي.. نعم، أسكته بالشفتين اللاهبتين، فآمنت به.. من أعماق قلبك، ككل كلمة كنت أقولها لك..».

العينان معتكرتان. الحاجبان متقاربان. الأهداب دانية كسيرة. الصوت غائب:

- النصيب؟! .. (فترة) رفيقاتي في المدرسة.. تعجبن كثيراً. ما كنت أدري كيف أفسر..

- لماذا الــ.. المسألة..

«نعم يا حبيبتي. أنا أدري أية ضربة غادرة سددتها إلى «نصيبك» في مثل هذا البلد المخيف. كان علي أن أبدأ تحرياتي الفظيعة قبل إعلان الخطبة. ولكن ما عساي أن أصنع؟ لقد علمت. وما أن علمت حتى ركبتي الهموم. كيف أستطيع احتمال نظرات الناس: «وردة من مزبلة». الأفكار يا حبيبة قلبي المكسور حلية مزيفة يستخدمها النفاجون أمثالي لتزجية فراغ المجالس الفارغة، كي لا يقال أنهم خرس.. الأفكار عندنا شيء كسيح، مخلوق مكتمل ولكنه ميت..».

العينان نديتان. خط مظلم تحت الجفن السفلي. الحدقتان كأنهما كرة من حجر كريم معلقتان فوق ينبوع صاف.. الشفتان فيها ثنيات جافة. في العنق ليٌّ من خط أو خطين يزينان مقدمته.

- أنت أدري بموقف الفتاة المخطوبة يرد إليها خاتم الخطبة. كل الناس يتساءلون عن السبب، من تعرف ومن لا تعرف!

- كلام الناس متعب. الأفضل ألا يصغي الإنسان..

«كذبة ضخمة أخرى يا حبيبتي، لا تصدقيها. أنا لم أرد الخاتم إلا لأني أموت رعباً من كلام الناس. أرتعب حتى من النظرة التي قد تكون بريئة. «لا تصغي إلى كلام الناس» حلية أخرى من حلي مجالس الثرثرة، نحاول بها أن نستدر حملقة الدهشة في الأعين الغريرة، حينما نتبغدد مثل الطواويس ونزعم أن المجتمع من صنع الأفذاذ. نعني نحن!.. لو أن في الدنيا عدلاً يا حبيبتي المسكينة لكنت الآن أخب في قنطار من الحديد جزاء ما ارتكبت من تزييف..».

- ربما أغضبك شيء.

- لا، أقسم..

العينان الآن تتراءيان من خلال الدموع التي تلمع وتتجمع في الموقين. الصوت يحشرج. نغمة غائمة تخفي نحيباً وغصة مخرشة:

- لا تقسم، أرجوك، أنا أعرف.

وصمت لحظة ثم ألقتها إلقاءً مفاجئاً، مرة واحدة:

- أليست حكاية عمتي هي...

- لا، أقسم لك.. ما علاقتك أنت؟ صحيح أني سمعت كلاماً عن السيدة عمتك.. ولكنك تعلمين أني لا أعيره انتباهاً.. أنا مؤمن.. هل تزور وازرة وزر أخرى. هنا في البلد لا أرخص من الكلام.. تصوري أنك قد تجلسين إلى إنسان يخيل إليك أنه رزين، مفكر، وتتهيئين للاستماع إليه بكل جوارحك. و.. وإذا هو يطلع عليك بحديث لا تدرين له رأساً من ذنب.. نحن تنقصنا القدرة على ضبط الوحدة كما يفعل الرقاق في التخت الشرقي. يخطر لي أحياناً أن علينا أن نتعلم من الخياطين أن نفصل قطعة القماش على قد الجسم.. حتى لغتنا مطاطة: نبدأ الجملة فنفاجأ بأنها تسير على غير ما نشتهي بقدرة قادر. ولعل هذا القادر هو التركيب القديم الذي...

«يا رب أعني. انفجرت العاصفة. أنا أعلم أنك لا تصغين إلى ثرثرتي الفارغة.. نعم إن ماضي عمتك هو السبب.. ولكن ما ذنبي أنا؟ أنا ليس لي يد في صياغة نظرات الناس: «عمتها...» أنا إنسان ضعيف، مسكين، مخيط من ألف رقعة. لا تحبني يا حبيبتي الصغيرة أرجوك. أين الأفكار الثائرة أيها الإنسان التافه؟ أين نظرتك إلى المحبة العميقة السماوية التي تدعوه إلى الصعود و.. ما ذنبها إذا كان لعمتها ماض؟ أين هي المرأة البتول التي ليس لها ماض، حُلُمي على الأقل، مرت به في ليالي الوحدة القارسة، ليالي اللوعة اللحمية، ليالي الرؤى المرة اللائبة!. وأنت؟! هل أنت بلا ماض أيها الوالغ القذر في كل بؤرة عفنة مستوبأة.. بشرط واحد، يا للسخرية! ألا تتخدش المظاهر! أواه يا حبيبة الطفل الذي في! لا تبكي، أتوسل إليك. سأقوم وأركع عند قدميك.. رباه، إن دمعتين صامتتين تنحدران الآن على خديها! آه لو استطعت أن أركع عند قدميها وأسألها الغفران! يا لقلبي الممزق! كيف أفدي هذه الدموع؟ كيف ألملمها؟ آه. ما أشد حزني. أنا الإنسان الغث سبب هذه الدموع! يا إلهي ألهمها أن تكف..».

الصوت الآن عميق، أكثر بعداً، صوت إنسان يسر إلى نفسه أسراراً أبيض ما فيه إثارة من موجدة أو ضغينة. إنها تطلق لنفسها العنان. تسرد حياتها كأنها تسجلها على شريط في غرفة ليس فيها أحد.

كانت سعادتها، حينما خطبها، أكبر من أن تصدق. كان الإشفاق، الإشفاق من أن تذورها ريح مفاجئة غاضبة هوجاء يلفها بما يشبه مغزل الرمال الثائرة. إنها لم تذق اللياذ بكتف الأب. هجر أمها وهي طفلة تتعثر بأولى أغنيات دور الحضانة. هجرها وتزوج امرأة قالوا أنها كانت خليلته. صار حديث الناس. هذه الخليلة عرفتها فيما بعد: المساحيق، الأحمر الدابغ، الكحل المذنَّب حتى الصدغ، طريقتها المخلعة في المشي.. من أجل هذه ترك أربعة أشخاص. الأخت العاجزة كانت هي البكر. ولدت عاجزة هكذا، قدمها اليسرى ملوية وفي يدها كتع خفيف. لعلها كانت نذيراً بأن الله لم يبارك ذلك

الزواج. وأما أخوها وهي فكانا أحسن حظاً. استطاعا أن يتبلغا ببعض العلم حتى دخلا الجامعة. ولكن كان الثمن باهظاً. دفعته الأم من شبابها، من عينيها. قدمته إلى مكنة الخياطة في ليال كانت تمتد كأنها الأبد. أنها الآن رمة. تشرب أحياناً كأساً من الماء على ظمأ تئن ليلتها كلها. وكان أخوها يدرس ويعمل في النجارة. وكانت هي تساعد أمها في الخياطة. ولا تزال حتى الآن تختلط في ذهنها الفرائض والوصايا والقانون الروماني بدوي مكنة الخياطة وانسحاب قطع القماش تحت الإبرة الراكضة.

وكان الولدان يحلمان أحلاماً على قدهما. امتزج حلمها هي بعافية أمها وهناءتها امتزاجاً غريباً. لماذا؟ إنها لا تدري! وكانت الرؤيا في البداية وادعة ليس لعبورها في الذهن أثر مؤلم. ولكنها انقلبت، فجأة، نغارة متشبثة تقض المضجع: الرجل الذي يستطيع أن يحيل هذه الرمال الثائرة إلى فيء وريف يظل الأم أيضاً. هذا التشبث كان على أثر خطبة فاشلة مثل هذه... ارتد إليها الخاتم، لأن «النصيب»...

وأخيراً تقدمت أنت! منذ الأيام الأولى فتحت لي خزائن حنانك وحمايتك. أشركتني بشؤونك إشراكاً لا تفسره إلا الثقة، إلا المحب.. عفواً، أرجو أن تغفر.. سمحت لنفسي...

- أرجوك أن...

إنها الآن تهم بالنهوض. قم يا رجل وغيبها في صدرك اغرق في روحها الصافية الشاسعة.. أضرب بالناس والبلد عرض الأفق وامنحها قلبك وحبك تمنحك الغفران والرغادة، قم أقول لك...

- أرجوك، تفضلي.. إلى أين؟

- لا تقم، أرجوك. الله يسعدك.

وتخرج منديلاً صغيراً تمسح به العينين في حركات هادئة. وتنهض في وناء، وهي تمد يدها إلى النقاب فينسدل وئيداً ويخفي آثار الدموع، و.. تتحرك اكرة الباب!

هذيان ليلة صائفة

أنا ليس لي ما آخذه على زوجتي: امرأة لا تراها إلا مريلتها في رقبتها.. ومن المطبخ، إلى الصوفة، إلى غرفة الأولاد، إلى السمان أو اللحام.. ولكن، كيف أعبِّر؟ الحياة شيء آخر!

في بعض ليالي الصيف أجلس على الشرفة، في ظلمة خفيفة، ونسيم بليل يهب عليَّ، ووقع أقدام يغيب في الشارع المقابل، وكلبان يقتتلان على كومة قمامة قدام مدخل بناية بعيدة، وحارس يصفر لرفيقه. لعله يدعوه كي يتسليا معاً في قلب هذا الليل المقفر... في مثل هذه الأوقات اللطيفة يحلو لي أن أتفكر في أمور الدنيا والآخرة. وقد تخطر لي خواطر متشابكة، بعضها يتصل بحياتي اليومية، وبعض يذهب بعيداً، بعيداً جداً. أتساءل مثلاً لماذا ألقى عليّ أبو صياح شغل النهار كله وهرب من الوظيفة زاعماً أن بطنه يمغصه.. مع أني أدرى الناس بأمر صحته! أنا أيضاً قادر على أن أجعل بطني يمغصني حتى كأنه منشرة على الكهرباء تخرخر في أمعائي وتفرمها فرماً.. ولكنّا، نحن أولاد الحكومة، إذا سمحنا لبطوننا جميعها أن تمغصنا، فما عساه أن يقع لدفتر التحقق والمعاملات الواردة من المنطقة، ومحاسبة المياومين، والمراجعين المستعجلين؟!

وقد تذهب أفكاري مذهباً آخر. أتمنى أن أكون أملك طاقية الإخفاء حتى أستطيع تقويم كل معوج في هذه الدنيا. مثلاً، ألاحق زوجة خرجت من البيت وفي نيتها أن تخون زوجها. فإذا رأيتها دخلت منزل العشيق خوَّفتها حتى ألجئها إلى الفرار. لماذا تخونه؟ إذا كانت قد كفّت عن محبته فلتهجره، لتطلقه. هذا هو الحل الشريف. وأما أن تستسلم لغيره وتعيش على حسابه، أن

تقول لاثنين، وربما لأكثر، في آن واحد: «يا حبيبي!».. فأمر يجعلني أغلي مثل حلة زفت مما يستخدم في الطريق...

ولكن المشاكل التي تشغلني أكثر شي، أفكر فيها طويلاً في هدوء الليل، لا علاقة لها بهذه الشؤون الصغيرة. هنا تشرد أفكاري في عوالم واسعة، فأبحث في الحشر والنشر، في الخلق والفناء، أعنى، بكلمة، فيما وراء الطبيعة. أتساءل مثلاً عن السر في خلق الحدبات في الظهور، الشحاذين، الرمد، الأنوف الباذنجانية، زوجة عبد السلام الفلسطيني، رفيقي في العمل. وأحاول أن أبلغ بخيالي مبتدأ أو منتهى لتكرار هذه المخلوقات خلال الدهور.. لماذا ركّبت على نفسي الديون وتشاجرت مع أهلي في سبيل أن أتزوج؟ ألكي أخرج نسخاً أخرى مني أنا؟ ما الفائدة؟ ألا يكفي أبو صياح وعبد السلام ورئيس الدائرة؟

وقد تجيء زوجتي في بعض الليالي تسهر معي. إنها لا تطيق أن تقعد من غير عمل، لذلك تحضر معها خيطاناً ومخارز، وتروح تنسج لأطفالها وتقول لي بين حين وآخر في صوت ممطوط نعسان:

- قم ريّح عظامك يا رجل!

حينئذ تعتكر وحدتي. أفكر في أن «عظامي» سترتاح ذات يوم، إلى الأبد في قبر بعيد لا يزوره أحد. ولا أجيبها، فليس جلوسك وحيداً مثل جلوسك مع إنسان آخر ولو كان قليل الكلام.. إذا لم تكن زوجتي معي رأيتني في بعض الأحيان قادراً على أن أراني أطير بين النجوم. وأما معها فأنا مقيد إلى الشرفة، إلى البيت، إلى الصوف...

ذات ليلة كانت تجلس معي في الشرفة، شغلها بين يديها. وعلى بلاط الشرفة كرة خيطان بيضاء تتحرك في صمت، والياسمينة المتسلقة من الجنينة الصغيرة مزهرة، تأتي بعض أغصانها فتحيط زوجتي بإطار من الخضرة الأنيسة يسقط عليها ضوء الشارع الخافت فيجملها.. خطر لي أن أشركها في أفكاري. سألتها:

- كيف ترين لي هذه الدنيا يا حميدة؟

توقفت يداها عن الحركة ورفعت إليّ عينين حمراوين ناعستين:

- غلاء، نار!

قلت ضاحكاً:

- لا أقصد مثلاً هل تعتقدين في الجنة والنار والحساب والعقاب؟

أجابت مستنكرة:

يوه، هل جننت يا رجل؟ أعتقد؟ كيف لا أعتقد؟ إذن من خلقنا؟

ورأيتها تنفض عن نفسها النعاس، تتيقظ كلها وتقول:

- وبعد كل واحدة، أما آن الأوان أنك تترك الجنة والنار والحساب والعقاب مطرحها وتروح تأخذ ابنك محمد عند الطبيب؟ إنه يبرد ويسخن طول النهار، وأنت قاعد لي هنا، مثل قرمة الهم، تضرب الأخماس في الأسداس وتحكي على الجنة والنار!

كنت ألمح في عينيها، كلما تعلق الأمر بأحد أولادها، توثب اللبوة وغضبها.. وقد يكون هذا حسناً من أم صغيرة. ولكن الأفكار، الأفكار! أليس الإنسان حيواناً مفكراً!.. عرفت تلك الليلة أنها لا تستطيع أن تحلق معي في أفلاكي، أن مدارها لا يتعدى الأولاد والمطبخ وسمان الحارة.. وتنهدت متحسراً: «ماذا لو منَّ الله عليّ بامرأة تفهمني!» ولكني لم أثر.. لم أسمح للغصص أن تنتابني، لأن الحكمة ضد هدوء الأعصاب. وأنا رجل علمته الحياة أن يتحمل ما يقع له في هدوء واستسلام.

«وأنت قاعد لي هنا تضرب الأخماس في الأسداس!» ظللت أذكر كلمتها طوال اليوم التالي، وكان، على ما أذكر، أول الشهر يوم قبض الراتب..

زاد في كربي أن زوجة عبد السلام شرفت مكتبنا بالزيارة. وعبد السلام رفيقنا، إنسان مهذب، أكاد أقول مريض تهذيب.. يتكلم همساً. تحسُّ وأنت تحاوره في صوته شيئاً مكسوراً.. وإذا استدعاه رئيساً إلى غرفته

المجاورة التمَّ، ارتصَّ، وبدأ سلسلة من الانحناءات وهو لا يزال في غرفتنا، فإذا عاد ظلت رقبته مائلة إلى اليمين ويداه تتبادلان الفرك مدة غير قصيرة..

ولكن، يظهر أن عبد السلام ابن أسرة طيبة، فهو يلبس لباساً ليس بالأنيق المفرط الأناقة، ولكنه مقبول، لا ترى فيه بقعة أو خدشاً. وكان إذا طلبنا إلى القهواتي لبناً أو قهوة يرفض أن يشاركنا متعتنا، ويرفض أن يقبل ضيافتنا. إنه لا يدعو، ولا يحب أن يدعى. وهو لا يدخن، وبيته عند الأزبكية ولا يستقل الباص..

لست أدري لماذا كان يقع في ذهني أن عبد السلام محبوس على الرغم من أنه كان طليقاً مثلنا جميعاً.

وكان من عادة زوجته، وهي معلمة مدرسة ابتدائية، أن تزورنا في فرصة الغداء في بعض الأحيان، كما فعلت ذلك اليوم، حين كنت أستشعر كآبة ثقيلة وكرباً لا يزحزح عن صدري. وكانت زوجة عبد السلام أكبر منه قليلاً، في حوالي الخمسين، لها بدلة أسنان، ووجه مستطيل مخبّص مثل وجه حصان مصاب بالرشح. وهي تتكلم في بطء وتعال، ضاغطة على الكلمات. وتقول «فاز» عوضاً عن مزهرية، و «بيبي» بدلاً من طفل.. وتبادرنا قائلة:

- أي كيف صحة حضرات جنابكم، يا شباب؟

عندما تدخل علينا الغرفة أشعر أن عبد السلام قد انكمش وتضاءل، لبسته وضعية من ينتظر مصيبة تنزل به أو صفعة حامية ارتضاها على أثر رهان خاسر!

ذلك اليوم، قبل مجيء السيدة زوجته، كان مبتهجاً، خفيف الظل. كان يمازح أبا صياح، ويقول له إنه من غير المعقول أن يوجعه بطنه، كل يوم في ساعة معينة لا تتغير.. ويرد أبو صياح في حماسة:

- أي سيدي ظنوا بي ما تشاؤون. أنا أصلاً رايح. خلص، سأترك هذه الدائرة العجوز إلى الأبد وأشتغل بالفن. الإذاعة قبلت أغنية من تلحيني: ترم،

ترم، ترم حبي طار من غير أمل.. سأترك لكم «عطفاً على حاشيتكم» سأهجر «لا يخفى على مقامكم الكريم أن مقتضيات المصلحة...» مقتضيات المصلحة يا حبيباتي تستدعي انصرافي إلى الفن، ترم، ترم! قال يأتيك مراجع قرعة رأس أجداده لا يعرفها أحد من أين.. يقف أمامك مثل النمرود. «أين وصلت معاملتي؟» يلعن أبوك وأبو معاملتكم!

قال عبد السلام حالماً:

- أحلى شيء عندنا في فلسطين ليالي الصيف، وماندولين أو أكورديون، وضوء القمر بين بيارات البرتقال، والدنيا ما فيهاش أحد، وأشجار الزيتون.. يا عيني، هناك رح لحن!

قال أبو صياح:

- والمرأة؟ أنا رأيي أن كل ما في الدنيا من بيارات برتقال، كل ما فيها من أقمار لا تعادل عشر معشار نظرة مكسّرة من عينين فاتنتين.. هذه هي السيمفونية الحقيقية! الحياة من دون المرأة فاكهة لا طعم لها ولا رائحة، خيال إذا سكّرت يدك قبضت الريح!

وغمغم عبد السلام:

- الجمال ليس كل شيء، ولكن...

فقاطعه أبو صياح مقرعاً، في عصبية وحزم:

- اسكت. أنا أعرف ما تريد أن تقول. نظرية فتانة، عتيقة، متهرئة، أو هي من خيوط العنكبوت. الجمال ليس كل شيء؟ هذه نظرية اخترعها واحد ابتلاه الله بامرأة شربة، بامرأة إذا عضت على الشام كلبت كالكوتا! الجمال ليس كل شيء؟! إذن أي شيء هو كل شيء، تسلم لي؟ العقل والكمال على قول السيدة حرمك المصونة؟ أي سيدي أنا جبل عقل! أنا عندي من العقل ما يفيض عن حاجتي. هات لي امرأة جميلة أعطها من عقلي! ما عساني أن أصنع بكل هذا العقل الذي أملكه؟ الجمال ليس كل شيء! أي والله لو كان عندي امرأة مثل امرأتك لكنت شنقتها أو شنقت حالي...

وعاد عبد السلام يغمغم من جديد:

- أنا، أنا لا أقول أن تكون مثل..

ولم يكمل جملته. انشق الباب وأطل منه رأس يتضاحك في غنج. ثم لم يلبث الباب أن انفتح واندفعت امرأة عبد السلام ضاحكة في قهقهة كأنها تقول لنا: «هذي أنا».

أخرستنا المفاجأة، وانقضت فترة ليست باليسيرة قبل أن نفهم المسألة: كانت قد صبغت شعرها عند حلاق خبيث، عقربته، طَرَشُتْه، أرخت منه ما أرخت وعقصت ما عقصت مثل بنات العشرين. ولبست روباً قصيراً انشد على جسدها شداً فاضحاً. بدت سبحان الله كأنها في سبيلها إلى حفلة تنكرية. قالت في صوت مغنٍّ:

- أي كيف خاطر جناب الشباب؟

قعدنا. أخذ أبو صياح ينظر إلى عبد السلام نظرات ذات مغزى، تنطوي على تهديد، بينما قبع هذا في كرسيه وتظاهر بتقليب الأوراق التي أمامه وتفحصها باستغراق. ولكننا نحن وحدنا كنا قادرين على التقاط نظراته الخائفة التي كان يسرقها في اتجاه أبو صياح. وأخيراً ألقى أبو صياح هذه:

- نريد أن نسمع رأي السيدة...

وصمت. ونقز عبد السلام ورفع إلى جلاده عينين متوسلتين، ولكن أبو صياح زوره في قسوة واستأنف:

- ... بعد أن سمعنا رأي الأخ عبد السلام!

وسألت المرأة:

- حول إيش؟

قال أبو صياح وهو يهمر:

- حول إيش؟

وعاد ينظر إلى عبد السلام متوعداً. صار هذا في حال تستثير الشفقة. أنا نفسي صرت أتوسل إلى أبي صياح بالنظرات.. وأما زوجة عبد السلام

فلم تكن معنا. كانت كلها لهندامها وشعرها. ولم يستطع أبو صياح الاستمرار: انفرط العبوس. أكثر من ذلك، كادت ضحكة مجلجلة تنفجر، ولكنه كبحها وحمّل وجهه معنى يقول: «سأطلق سراحك!» والتفت إلى المرأة:

- ما قولك يا سيدتي في بنات اليوم؟

وبلعت ريقها، ومطت شفتيها، ثم القت نظرة أخرى تفقدت بها هندامها الذي انشمر، وجادت علينا أخيراً:

- المرأة، تعلمون جناب حضراتكم، في هذه الأيام، لم تعد مثلها أيام جداتنا وجدات جداتنا. عبد السلام يعرف. أصبحت تحتاج إلى غسالة، إلى مكواة على الكهرباء، إلى سيارة على الباب، إلى صانعة وفوسفاتين للبيبي.. كانت الماشطة هي التي تمشطها فصارت تذهب عند الحلاق، إلى صالون الحلاقة: صالونات الحلاقة تجلب قصات الشعر من قلب لندن وباريس. نحن بنات اليوم...

عدت لا أطيق السماع. تقول عن نفسها أنها «بنات اليوم!» الكرنبة، الكركمّة!

خرجت من الغرفة. وقفت في الممر أتنفس الهواء الطلق وصوتها يلعلع عن الغسالة على الكهرباء والسيارة التي على الباب، يثقب طبلة أذني. وعدت أتساءل عن السر في خلق الحدبات في الظهور، والشحاذين، والرمد، والحلاقين الذين يجلبون قصات الشعر من باريس ولندن.. وجمح بي الخيال فرأيتني ميتاً، ملقى في البرية، وعظامي تتخطفها الكلاب الشاردة، وتكسرها تحت أسنانها القوية على مرأى مني ومسمع، بينا أنا عاجز عن الدفاع عنها وتخليصها من أشداق الكلاب النهمة.. فأصابني حزن عظيم!

وكان اليوم أول الشهر كما قلت فرحت أقبض راتبي من عند المحاسب.. ولما انتهى الدوام كانت كأبتي تسد علي الدروب، ولا سيما درب البيت.. ولم أدر إلا وأنا في مطعم سقراط، الحلم الذي طالما راودني، أقرأ في

قائمة الطعام المطبوعة التي قدمها إليَّ النادل، وفي فكري تصميم لا يحول أن أستمتع بوجبة غداء ممتازة وحدي، في هذا المخبأ، بعيداً من القال والقيل، وعلى الأخص بعيداً من جنس النسوان... وبدأ النادل يحضر لي في صحون نظيفة، وإيماءات لطيفة، ما طلبت من أكل خالٍ من الدسم والدهن، خفيف على المعدة! النادل ذاته فرجة. أناقة، تهذيب.. ولم أكد أمضغ لقمة أو لقمتين حتى رأيت عبد السلام وأبو صياح ذراعاً تحت ذراع، يدخلان المطعم.

قال أبو صياح مهللاً:

- خلّصته منها. يخرب بيتها!

قلت:

- كيف عرفت أني هنا؟

- كنا راكبين في الترام لمحناك. قمنا نزلنا.

وقال عبد السلام قاطعاً:

- نعم، سأحيا يوم حرية!

كان في عينيه جذل ومرح طفليان ما لبثا أن انتقلا إلينا... ولصقنا مائدتين واحدتهما بالأخرى، وطلبنا أكلاً كثيراً وشراباً أيضاً. نسينا الوظيفة والعمل وزوجة عبد السلام وكل شيء.. هيمن علينا شعور هو أشبه الأشياء بما يحسه تلاميذ مدرسة تدفقوا إلى الهروب من درس صعب!

كان النادل ذاهباً آيباً. وكنا نتوقف أحياناً عن الأكل ونغوص في قائمة الطعام ننتقي منها الأغلى والأعجب.. فجأة، خيّل إلينا أن ظلا يقع علينا. رفعنا أبصارنا معاً وإذا... ويلي! زوجة عبد السلام، بلحمها ودمها، يداها في حاضرتيها، تنظر إلينا نظرة فيها خليط من غضب وشماتة وانتصار: «آه يا ملاعين».

لا أزال حتى الآن أتساءل كيف اهتدت إلى مخبئنا، الملعونة!

الذوبـان

راقبته وهو يلعب الكونكان معنا: كلما فُت الورق وكان ورقة طيباً ارتجفت يداه، وصار يتململ في مجلسه، ويطلب إلى النادل الصغير ماء في استمرار. وكان ورقة أكثر الوقت حسناً، ولكني ربحت الدق أنا بورق كاسر جاءني في الفت الأخير. وقلت للرفاق:

- صدر عفو عام في حقكم!

ولم يفهم هو إلا حينما أعدت إليه ما سلّمه من دراهم. قال على استحياء:

- لماذا لا تأخذ؟

قلت:

- ألم أقل لك؟ صدر عفو عام!

لم يكن من رواد القهوة. منذ بضعة أيام فقط انضم إلى شلتنا، وصار مواظباً مثلنا. تلك الليلة شاركنا اللعب أيضاً. ولعبنا يغلب عليه المزاح، الرابح فيه قدلاً يظفر بأكثر من الإفلات من أجرة القهوة. تضييع وقت. ما عسى أن نفعل بالليل الطويل كله!..

في ساعة متأخرة قمنا نتمشى. كنا نسكن حارة واحدة. قلت له ممازحاً:

- إياك أن تلعب البوكر أنت!

- لماذا؟

- البوكر لعبة أعصاب، وأنت أوراقك مكشوفة. وجهك يفضح ما معك من ورق.

- هذا صحيح. عندما يكون ورقي طيباً أحسن أن قلبي يضرب في حنجرتي، إني، من غير مبالغة، أكاد أختنق.

وأضاف في دهشة:

- ولكن كيف عرفت أنت؟

لم يكن اكتشافي في حاجة إلى بناهة خارقة. قلت:

- شيء واضح. يظهر أنك متعب.

- متعب فقط! على فكرة، مرة قلت لي إن لك صديقاً عاد من فرنسا بعد أن تخصص في الطب العصبي والنفسي. هل تأخذني إليه؟

- ماذا تحس؟

- ألف علّة. أخاف من الفراغ. إذا كنت أقود سيارة أموت رعباً في المنحدرات. معدتي لا تهضم الطعام جيداً. عندي خفقان...

- أنا أيضاً معدتي لا تهضم كما ينبغي. ولكن الفرق بينك وبيني أني شخّصت مرضي، وضعت يدي على أسبابه.

قال في شبه توسل:

- ماهي؟

- بنت الـــ... زوجتي. ابتلائي الله بزوجة تستحق مربطاً وعلفاً ورسناً. في سورية قل مليوناً امرأة، هذه قطعاً أرذلهن. الخاسرة، لا علم، لا جمال، لا مال، خنّاء، لها رائحة، قصيرة، في ساقيها رَوَح.. ومع ذلك تجمّع كل الشرور الخناق. النقار، وتصبها دفعة واحدة على رأسي وقت الأكل...

تنهد. تابعت:

- أنت لا أظن أن مصائبك أصلها داخليتك. أنت متزوج من أستاذه عاقلة، غنية.

- تشرفنا!

لم يكن من عادته أن يسخر. قلت:

- تريد أن تهوّن عليّ مصيبتي؟ قلت لك أني شخصت مرضي، وأزيدك أني عثرت على الدواء أيضاً..

- ما هو؟

- الكيّ.

- الكي؟!

- وماذا ترى غيره دواء لمثل آفتي؟ أجدادنا كانوا يقولون: آخر الدواء الكيّ وآخر دواء مرأة - حيوان مثل امرأتي البتر.

فنظر إلي مستهولاً:

- تقتلها؟

ضحكت:

- لا، أطلّقها.

وعاد ينظر إليّ في إحداد:

- وتفعلها؟

- فعلتها وخلصت. غداً وكيلي المحامي يطلق باسمي. أنا لا أحب حتى أن أرى وجهها.

تمتم مستغرقاً:

- حق. أحياناً.. قد لا يكون أمامك إلا هذا السبيل!

- لم يكن لا أمامي ولا ورائي سواه!

وخيل إلي أني سمعته يقول:

- وأظن أني كذلك...

- أنت؟

- أي نعم أنا!

- لم أكن أدري، أنا أعتذر...

واستأنف في صوت عذب، حيي، في شكاة مكسورة مهذبة.

- أنا بيتي فندق: أهلها، أهل أهلها. أخوتها، أولادهن. زميلاتها، صديقاتهن. ناس أعرفهم وناس لا أعرفهم يعششون آناء الليل وأطراف النهار. يظهر أنهم يظنونني مسروراً من هذه الحال، ويخيل إلي أنهم يمنون عليّ إدامتها في البيت! لو أن أحداً يعتذر مني على الأقل، يحسبني! قد يقع لي، في الأسبوع في الأسبوعين، أن أزلق كلمة يتيمة ممعوسة، يكاد يتصبب عرقها من خجل.. وإذا البيت- الفندق يضج بالضحك: أنت، تجرؤ!.. إنهن كلهن مدرسات في الثانويات أو موظفات من الحلقة الأولى.. كأني زبال، أنا! والأنكى أن الله حرمنا من الأولاد. ثلاث مرات حملت وأجهضت. ونحن لم نعد في أول العمر. هذا أيضاً ينضاف إلى العلاقة المتوترة الخفية فيجعل البيت كأنه ملغوم من الأساس.

قلت:

- بُس يدك وجهاً وقفا واحمد ربك. أنت أسعد الناس. آه لو لم يكن عندي أولاد، أنا.

- ربما ولكن، يخطر لي في بعض الأحيان- قد أكون على خطأ- إن هذا هو السبب. الطفل...

- لا أظن. بعض النساء يلدن كما يتمخطن. أنا زوجتي رمت الأولاد وذهبت. فيهم رضيع، طفل هش أزهر مثل الياسمينة. تركته...

- ولكن في الواقع هذا يؤخذ عليّ... إن امرأتي، ماذا أقول! لولا التأثير الذي تخضع له، قد أقول...

ولم يتم عبارته. كان يتكلم وأنا في دهشة لاتخف. امرأتي أنا لا تميز الخمسة من الطمسة، شبه أمية ولا تمل من ترديد قولها: «نحن المثقفات!»

كاذبة حتى ليعسر معها التعرف على الحدود الفاصلة بين ما هو باطل. كاذبة تبرعاً، مجاناً. لو غابت خمس دقائق عن البيت وعادت ومعها زبدية لبن، وقالت لي: «أنا كنت عند السمان» لسألت نفسي: «هل أصدقها!»... وأما امرأته فسيدة ناهزت الأربعين أو تكاد، أنيقة، من أسرة محترمة. رأيتها مرة عند إحدى القريبات. جاءت في سيارة تقودها هي. كانت قليلة الكلام، تضحك في ترفع (لزوجتي ضحكة اصطناعية مغشوشة تثير أعصابي في اليوم مئة مرة!) صحيح إنها عاطلة عن السن، وجهها متعوب بعض الشيء ولكن جسمها لابأس: حشو جلدها، مخصورة، ناهد. أنا زوجتي لا جسم ولا وجه. ليذهب الحسن إلى جهنم الحمراء. كانت زوجته سيدة، سيدة حقيقية. وقلت في نفسي: «لو أن هذا الإنسان عاش مع زوجتي، التي سأطلقها غداً حتماً إن شاء الله، خمسة أيام، لأخذ من فوره سيارة تكسي، ورشا السائق حتى يسحب به على المئة في الساعة، ودخل على زوجته في البيت وخر، على ملأ من أهلها وزميلاتها، وقبّل قدميها!».

ومع الليالي بدا أنه يستأنس بي. صار مثلنا، حلْسَ مقهى يسهر حتى ساعة متأخرة، ويقوم معي. أنا أيضاً أنست به. كان خجولاً، يتكلم بصوت خافت، ويحمّر وجهه كأنه بنت تُخطب. علاقاته مع الآخرين كانت، إذا شئت، مستقيمة. الاستقامة أصلاً سمته الغالبة. أعرفها عنه قبل أن ينضم إلى شلتنا في القهوة، وتأكدت منها على أثر «العفو العام» الي أصدرته في حق الرفاق ليلة ربحت..

وطلّقت أنا. ركّبت على نفسي ما فتح وما رزق، ولكني استعدت بعض صفائي القديم. مؤكد أن التجربة ضعضعتني، جرّحتني تجريحاً بالغاً عميقاً، ولكنها لم تقض عليّ. لولا الطلاق لكانت قمينة أن تفعل. في عمري لم أخب مثل خيبتي مع تلك المرأة، لم يطفح قلبي بمثل هذا الطوفان من المرارة. وأشنع ما في الأمر أن الذي سبب كل هذا الزلزال الذي زعزع حياتي مخلوقة، تافهة، بليدة، قبيحة العجماوات خير منها. إنها مملقة، مدقعة، على

الأرض روحاً وجسداً، وجهاً وقفاً! إني لا أزال أتساءل كيف استطعت بعد تجربتي المفزعة تلك أن أظل أحب الناس، أن أظل أشيم الخير والنبالة والصدق.. كيف لم أنقلب حاقداً، شريراً أسود العين والقلب!

ومضى شهر تقريباً.. أمس صباحاً، الساعة السابعة، كنت قد أفقت منذ قليل وأمي أعدت لي فنجان القهوة، وإذا جرس الباب.

فتحت. يا عجبي! إنها زوجته... رحبت بها وأوصلتها غرفة الضيوف وذهبت ألبس ثوب الغرفة فاستوقفتني أمي. سألتني بالإشارة والهمس:

- من تكون؟

أجبتها هامساً:

- امرأة رفيق.

زوت ما بين حاجبيها. ابتسمت: أظنها خافت أن أقع وقعة وخمة أخت تلك مع زوجتي المطلقة!

وعدت إلى غرفة الضيوف. كان وجه المرأة قاتماً، كامداً. جلست، وهممت بأن أفتح فمي بكلمات ترحيب جديدة، إذ ما عسى أن أقول لها غيرها؟ ولكنها كفتني مؤونة الثرثرة. قالت بصوت متجهم فيه بحة خفيفة:

- أغلق الباب، ممكن؟

- أغلقته. قالت:

- جئت أشتكي لك من صديقك بكري.

- خير إن شاء الله؟

- في فكره، حضرته، يطلقني.

- أعوذ بالله!

- أي والله. هذه آخرتها معه. هذا بعد صبري عليه أنا الكريمة بنت العيلة. كأن لم يكف أني رضيت به حتى...

- عفواً، ولكن الأستاذ بكري هو أيضاً رجل طيب.

- طيب، طيب.. هذا الذي يجنني أكثر كل شيء. أينما أحك أسمع هذه الكلمة: «طيب، طيب!» أكاد أنفلق...

- هذه ليست شهادتي وحدي يا سيدتي. كل الناس تحلف برأس الأستاذ. إنسان، وديع، طيب...

كان ظاهراً أنها تدافع انفجاراً عارماً ليس غريباً أن تصيبني منه شظايا. قالت:

- أي نعم وديع جداً. القط يأكل عشاءه، لا في خارج المنزل فقط ولكن داخله أيضاً، هي هي.

- هذا ما فهمته: أنت حضرتك الآمرة الناهية في البيت.

- أهو الذي قالها لك؟

- لا، سمعتها.

- وهل تظن أن هذا يسعد المرأة؟

- إذن لماذا لا تلعبين الدور الذي خلق لك؟

- لأنه هو عاجز عن أن يلعب دور الرجال.

- أتيحي له.

وعادت إلى الــ «هي، هي» هذه المرة صدمني فيها صفرة في رنتها ومعنى سوقي لا يتخبأ. قالت:

- منذ أربع سنوات وأنا لا أصنع إلا أن أتيح له. انظر أليس لي جسد يفجر الرجولة إذا وجدت؟ ولكنه خرقة، خرقة. افهمني خرقة مهترئة. في الخارج، في البيت، في التخت...

- عفواً، أنا لم أفهم!

- مثلما قلت لك، يعني أنه في التخت لا ينفع لا للخل ولا للخردل!

- يعني هل تقصدين..

- أي نعم، يعني أني متزوجة امرأة!

- ولكن، اعذريني، أود أن أقول.. بلغني أنك حملت أكثر من مرة؟

- وأجهضت. الطبيب قال لي أن بذرته ضعيفة. ويا له من حمل! صدفة. الأرنبة أصابت العصا. شيء رخو، ميت، في الشهر، في الشهرين مرة. جرّ، شحط

وأضافت سيلاً من الجمل المسهبة تقصد فيها تصوير الهشاشة، ولكنها في منتهى الكشف، كدت أقول البذاءة. قلت مدارياً:

- تعلمين حضرتك أن الأمور النفسية تلعب دوراً حاسماً في مثل هذه الأحوال.

- بلا أمور نفسية، بلا بطيخ. أنا امرأة ولي حقوقي. في بعض الليالي أصرخ فتسمع أمي في الغرفة الثانية وتعلم. أنا أريد فحلاً يكسّر عظامي. ليس هذا وحده. أريد ولداً، ولداً، ولداً. سمعت؟

واستمرت تشرح لي في عبارات لا لبس فيها ولا غموض متحدثة عن الأمنية التي لا تشبع، عن اللهوجة، عن العمل غير الكامل.. حدقت في وجهها مذعوراً. كانت تردح لي كأني أنا زوجها الذي يعتزم طلاقها. ردح، هذه هي الكلمة. والحركات؟ يارب! إنها مدرّسة، تعلّم البنات. لابد أن عندها قناعاً خاصاً تأخذه معها إلى المدرسة. انخطف فكري مثل البرق إلى جلستنا عند القريبة، ليلة صادفتها للمرة الأولى. لابد أن عندها قناعاً. ومع ذلك، كم في وجهها من تعاسة!

وأصغيت. كانت تقول:

- لم أترك واحداً من رفاقه إلا حكيت له. سأنشر عرضه على كومة شوك. ألم يقع لك أن حدقت في وجهه؟ إنه بومة حقيقية بنظارتين. والحدبة، والنظرة المكسورة، والصوت الممعوس! الرجل القادر على تكسير أضلاع زوجته في التخت له مظهراً آخر غير هذا الدبر. ألا ترى هذا؟

شعرت بأني على وشك أن أتقيأ. قلت في هدوء مكبّل:

- إذن لماذا تخشين الطلاق؟

- الطلاق؟ لم يعد ينقصني إلا هذا...

وفي لجة موجة جديدة من الدهشة رأيت المرأة تستخرط في بكاء مرير جعل يهزها هزاً. كان منظرها محزناً. قلت وأنا نفسي أحاول أن أكبت تهدجاً في صوتي:

- أرجوك أن تهدئي.

قامت بجهد كبير حتى استطاعت أن تعاود الكلام على نحو أستطيع معه أن أفهمها:

تصور مخلوقاً تافهاً، بليداً، بوجه بومة، من أسرة مجهولة لم يسمع بها أحد، القرش عنده يفلح ويزرع، ما فيه أي معنى من معاني الرجولة.. مثل هذا المخلوق يلعب عليّ، يمرّغني في التراب، يهزأ مني، هذا المخلوق الخرقة! تصور أني في بعض الليالي كنت أنا التي أطلب. كنت أدعس على كرامتي وأطلب. احزر بماذا كان يجيبني؟ يقول: هذا أمر حيواني. الزواج ليس جنساً. هي، هي قال: الزواج ما هو جنس.. وقال لي أيضاً: يجب أن نتعلم تصعيد غرائزنا! الله أعلم من علمه هذه الكلمة.. قال تصعيد غرائز. لماذا لا يصعد هو غرائزه في سرقة مالي، في الاحتيال، في الهسهسة، في المؤامرات من تحت لتحت؟ إنه يريد أن يطلقني، الخاسر، أليس كذلك؟ معلوم، بعد أن كوّن ثروة صغيرة من ورائي! لم يتزوجني إلا لمالي، أؤكد لك. ظل يداورني حتى استلبني وكالة عامة. اشتغل في تجارة السجاد فوق وظيفته في الدولة. تاجر في التلفزيونات. الهسهوس، كان يأخذ نصيب رفاقه الذين لا يملكون ثمن الأجهزة التي تعرض عليهم، ويبيعهم بأرباح ممتازة.. زيّن لي مشروعاً زراعياً في طرطوس: مزرعة برتقال. الأرض التي استأجرها مساحتها عشرون دنماً، لا أكثر. احزر قديش أخذ مني حق شتل؟

- قديش؟

- ثمانية آلاف ليرة سورية. أقسم لك بالقرآن ثمانية آلاف ليرة سورية. إذا شئت جلبت لك دفتر الشيكات. قال اصعِّد غرائزي! حكيت هذه القصة لإحدى رفيقاتي، واحدة سيدة أنعم الله عليها برجل فحل، زوج لا يقول لامرأته: قومي إلى التخت، ولكن يحملها حملاً. حكيت لها قامت أمسكت خواصرها من الضحك وقالت لي وهي تكاد تقلب على قفاها: «الزواج ما هو

جنس! إذن ما هو؟ الزواج يا مسكينة كله جنس، كله!».. وأنا أعلم أنها على صواب، أجل على صواب...

وعادت تنتحب في صمت. ولكنها فجأة نفرت في مجلسها حتى استقرت على حافة المقعد:

- لابد أن أجن. رأسي يتمزق كأن ألف ساطور تهوي عليه. في عمري لم يهزأ بي أحد مثلما هزأ بي هذا الخاسر. يارب ما أكبر مصيبتي. كلما فكرت. إن أهالي هيروشيما مصيبتهم تهون قرب مصيبتي. وما يجنني أكثر كل شيء، إنه هو، هذا الإنسان البليد، الضحكة بين الناس، هو مصدر بلائي كله. أنا متأكدة أني لن أعيش طويلاً. سأموت قهراً. الواطي، أثرى على حسابي ويريد الآن أن يطلقني ! يا سواد وجهي أمام الناس في بلدتي. كل الأقرباء لاموني لما أقدمت على الزواج منه. وأعود إليهم الآن مطلقة. ومطلقي من؟ هذا السحلول! لي أربع أخوات، أزواجهن ينامون معهن كل ليلة كل ليلة.. وأما أنا فأرضى أن أتزوج خرقة معترة تطلقني آخر الأمر!

ودخلت أمي على الصراخ والنحيب، (لعل ظنونها قد زادت!) ولكن المرأة لم تعن حتى ترد تحيتها. كانت الدموع قد بلت صدرها. ووجهها تخبّص وانحفر في بداية غضونه أسى لا عزاء له!

* * *

الكُـمّ

-١-

أنا شخصياً ما تعاطيت كش الحمام. أبي كان ديّناً ينهانا. كان يقول: ثلاثة تخرب البيت: جنح يطير (كش الحمام) وعقرب يدور (الساعة) والدخير (الصيد، لأن بنادق الصيد- الجفوت- كانت تدك دكاً وتذخّر بالبارود). وفي البلدة، إذا أرادوا منتهى الزراية بإنسان قالوا: «اتركه، كشاش حمام!».. ومع ذلك فقد أحببت أنا كشاشي الحمام دائماً. حتى الآن، ولم يبق بين أصحابي واحد منهم، لا أزال أتساءل عن سبب تعلقي بهم. إنهم طائشون، مغامرون، مهملون، يدهم خفيفة... ولكن فيهم شيئاً لا يسمى، شاعرياً، يجذبني إليهم. أهو الملال، الذي فتحت عيني عليه، من الحياة المسطحة الخاملة حواليّ؟ أم أن فيَّ مع الكاتب كشاش حمام متخفياً!

أحد أقربائي كان كشاش حمام، ولكنه أقرب إلى أن يُصنَّف بين الهواة. ترددت على بيته حذاراً بعض الوقت، وعرفت عدداً محدداً من أسرار الصنعة. ابنه، في مثل سني، سمح لي بأن أمسك العبّ، وهو شبكة ذات مقبض طويل تشبه تلك التي يصيد بها أولاد الأكابر الفراشات... «فرفحت» بالطيرة. صفّرت للشلعة لما رأيتها ترنّق فوق سطح استعداداً للهبوط. كششت «جنح جنحين» (لا يستعجل القارئ عليّ. سأعلمه هذه الاصطلاحات كلها بعد قليل!) كل هذا في غياب الأب طبعاً.. ولكن ما قيمة هذه المعارف الابتدائية إذا هي قورنت بأوقيانوس العلم الذي فتح لي بعض كواه جارنا «الكم»!

الكُم (هذا لقب، ولا أحد في البلدة يعرف اسمه الأصلي. حتى امرأته تندهه بلقبه!) هو الذي أخذ بيدي في متاهات عالم معقد، مثير كثير الألوان والحركة، مثل العالم الأوسع خارج مملكة الحمام.

ويقال في البلدة أن الكم كان في البدء معماراً، ولكني لم أره صعد حائطاً في عمري. أخوه الأكبر، نعم. اشتغل في ترميمات دارنا، وعمّر لنا العليّة القبلية. وهو رجل طيب، رب أسرة ديِّن. لا تفوته صلاة الفجر حاضراً وراء الشيخ طاهر ذاته. ولولا هذا الأخ ما سمح لي أبي بدخول بيت الكم قط.

أجل، أنا لا أعرف الكم معماراً، ولكني عرفته لما كان نشترياً. وهي المرحلة التي سبقت نشاطه كشاش حمام. والنشترة هي لصوصية الجيوب. النشتري يلحق المواسم والبازارات: يوم الاثنين، في بازار جسر الشغور. يوم الجمعة والأحد، في حلب. الأربعاء، في بازار إدلب، الخ. وهو لا يحمل مفاتيح أو أوائل معقدة ولا سلالم من حبال. إنه يطوف في البازار، مثله مثل أي بائع أو شار. وقد يحمل قلادة فليفلة حمراء، حصيرة، نصف ثوب خام... فإذا أنس من جيب شروال سمنة ودسماً اندس في الزحمة وشغّل منشتره في سرعة البرق. والمنشتر – سلاح النشتري الوحيد- موسى صغيرة، حادة، تخبأ بين أصابع اليد، وتبرز عندما تمس اليد الجيب المرصود مسّاً خاطفاً فتشرطه وتختفي للتو تاركة المجال لليد ذاتها أن تتلقى ما يسقط من الجيب من غنائم... شيء يشبه صيد اللؤلؤ: أنت تجمع المحار ولكن الله تعالى وحده هو الذي يعلم أية محارة قد أوصدت على لؤلؤة!

كيف هجر الكم النشترة وانقطع إلى الحمام نهائياً؟ أنا من جهتي أجهل السر. وعلى الرغم من الصداقة التي توطدت بيننا فقد استحيت دائماً من الاستفسار. ولكن الأقاويل تذهب إلى أن رئيس مخفر الدرك، وقد كان هو نفسه ابن صنعة تائباً، أحب الكم ونصحه فانتصح.. على أن في الوسع الظن

بأن سر التوبة يجب البحث عنه في غلبة هوى الحمام. النشترة صنعة تحتاج إلى حدة وبراعة وزبائن، مثل كل الصنعات، وفيها أيضاً روتين ووقت ميت... وأما كش الحمام فهو، حتى لو احترف، تغلب عليه الهواية، الحياة. إنه فن!

-٢-

إذن أصبحنا، الكم وأنا، صديقين. لابد أن أسئلتي التي لا تنتهي، حماستي، انخطافي من البيت كلما سنحت الفرصة ومجيئي إلى بيته وتسلقي السطوح معه... هي التي جعلته يرى فيّ كشاش حمام مقبلاً لا يشق له غبار. ولعل هذا ما دفعه إلى أن يصحبني معه إلى، «قهوة الحمام»، التي تقع في أحد الأزقة الفرعية في الحارة الغربية. وكانت تلك المرة الأولى التي أدخل فيها القهوة. سبق لي أن مررت مرات عدة من قدامها، ولكني لم أنتبه إلى حقيقة أمرها.. لم تكن قهوة بالمعنى المعروف. قل أنها ناد، رابطة. وكما توجد نواد للموسيقى، لكرة السلة، لهواية الكتب الجميلة.. هنا يوجد ناد للحمام. صاحب القهوة نفسه حميماتي قديم، متقاعد، يروى عنه أنه كان محاسباً في إحدى دوائر الدولة، وعلق الحمام فأوصله إلى هنا. يقولون في البلد: «خربه الجنح». وكان، مثل كل الذين ضحوا كثيراً في سبيل فنهم، يقول لجلاّسه في إثارة من مرارة: «الله ينسخ من قلبنا هذه الصنعة. أبداً لن أعلم لأولادي صنعه الحمام!» ولكنك تفهم من اللهجة الواهنة أن الشكاة عتب محب... في تلك الأيام كان قد كف عن «الكش». كان يربّي، يحكم، يتوسط، يفتي!

في ناد للموسيقى ماذا ترى؟ كمنجات، أعواداً، دربكات، انواطاً موسيقية.. هنا: حمام، عبّ، قفص، زبائن حميماتية هم أطرف ما في القهوة.

ذلك اليوم، أول عهدي بالقهوة، كان النقاش الدائر غريباً عليّ في كثير من المواضع، على الرغم من إلمامي السابق بقاموس الصنعة. أنا أعرف مثلاً

أن «أبو المحاسن» تعني كل طائر أصيل، لا «يكامش»، لا يغريه أن يفرفح له متربص طامع بطيرة مهما يبلغ نصيبها من الدلل والإغراء. وأعرف أن خير الحمام السوداي والصافي والأزرق. ولعل هذا القاموس هو الذي جعلني قادراً على «فك» جزء من النقاش. ويبدو أن أحد الجلاس- فتى عبل، متين البنان كانوا يقولون له أبو الأحمر- كان يملك فحلاً صافياً تضرب عين الكم عليه. وخيّل إلى أني أفهم أن الكم يتحدى أبا الأحمر: إذا كنت مكبر رأسك إلى هذا الحد يصافيك فلماذا لا تجرؤ على كشه؟ كشّة «جنح جنحين» إذا كنت من صحيح أبو الأحمر، وتعال بعدها أحك معي قدام الخلق في القهوة! وأبو الأحمر يجيب إجابات فضفاضة. يقول أنه لما كان يخافه حميماتية البلد كان الكم ولداً يشخ تحته في الفرشة.. إن صافيه الأصيل لا يتنازل إلى النزول في ميدان ما فيه إلا الكدش.. إنه قبض مبالغ من «الفكاك» تزن ثقل الكم...

وفهمت فيما بعد ما تعنيه كلمة «فكاك»: إذا استطاع الحميماتي اقتناص فحل أصيل فإنه يشكله (يخيط جنحيه حتى لا يطير عائداً إلى شلته) ويبعث خفية إلى صاحب الفحل أن يدفع الدية، الفكاك. فإذا تجاهل صاحب الفحل الرسالة أقدم الآسر على أفظع ما يخافه الحميماتي العريق في الدنيا: إذاعة الخبر. وما أن يصل الخبر إلى المصاب حتى تبدأ الوسائط، ومسك الشوارب واللحى. مساومات هائلة، مطرفة، معقدة. بعض الفحول، يفك «بأساور ذهبية»!

كان الحاضرون مستغرقين استغراقاً لم أر له نظيراً. خيّل إلي أنه لو بلغهم خبر قنبلة هيروشيما لما بدر منهم استفسار، أو لقال أشدهم عناية بالأمور العامة: «وحمامها، نفذ؟»... لكن، مهما تكن نجابتي تلميذاً للكم فهي لمّا تبلغ ذلك الحين مبلغاً يجعلني، أنا اليافع، قادراً على التسمّر في مكاني طويلاً. وهكذا قمت استكشف المكان: كان الهديل يملأ فضاء القهوة طوال الجلسة كأنه قرار لأحاديث الإخوان كشاشي الحمام. القهوة دكان مفتوحان

واحدتهما على الأخرى. في صدر الفجّة الفجّة الأخرى باب يفضي إلى ساحة سماوية. من هناك كان يتدفق الهديل. وقفت انظر. كان الفناء بابل حقيقية، بابل حمام. واسترعى انتباهي منذ لحظات وقوفي الأولى، زوجان سواديان على قدر من الوسامة عظيم. الذكر أجسم وله ريشتان أو ثلاث بيضاء ليس للأنثى مثلها. ويظهر أنهما جديدان في بابل القهوة، لأن الأنثى كانت تخوض، كل لحظة، صراعاً مستميتاً ضد الفحول الأخرى دفاعاً عن عرضها. وكانت كل مرة تنتصر وتطير للقاء رجلها على مصطبة أو على وتد غير بعيد. وأما بعلها فكان في منتهى الاعتداء، ولا أستبعد أن يكون مصاباً بشيء من النرجسية! لم يكن يشارك في الدفاع عن شرف الأسرة. إنه يختال، يرخي الذيل من تيه، يصعّر الخد في انتظار أن تعود إليه أثناه ظافرة فتدلله هي أيضاً فوق تدليله نفسه، وهذا ما كانت تفعله تلك العاشقة من غير ملال. أم أن قعوده عن خوض المعارك يعود إلى ثقته بشرف الحليلة وامتناعها على الآخرين!

-٣-

في عصر اليوم التالي انسرقت إلى بيت الكم. سألت زوجته التي كانت في صحن الدار عنه، فأبدت حركة تسليم وعجز في اتجاه السطح... إذا أنت استثنيت بضعة منازل في البلدة مبنية بالحجر النحيت، عالية السقوف، ذات شرفات أحياناً (لا يذهب فكرك أبداً إلى البنايات التي تراها في دمشق أو حلب!) كانت الصفة الغلبة على البيوت هي القماءة. الأسطحة واطئة، من الطين المجبول بالتبن، يجدد كل عام أو عامين بعد أن تكشط الطبقة العليا. السقوف من جذوع الزيتون امتدت على حالها من غير تنجير أو اختصار فبدا السقف واطئاً، ثقيلاً، مخيفاً يجثم على الصدر... والسطح في هذه المنازل يلعب دوراً مهماً في حياة الأسرة. ههنا ينشر البرغل، ويجفف وقود الشتاء، وأحياناً يلعب الأولاد. وأنت تبلغ السطح إما على سلم خشبي، وهذا نادر، أو

على درج من الحجر ضيق جداً مغروس في خاصرة الغرفة الخارجية لا درابزون له، وهو لا يتسع إلا لصاعد أو هابط واحد.

صعدت على حذر، ولا سيما الدرجات الأخيرة حيث توقفت دقيقة مديدة من غير أن ينتبه الكم إلي. كان قد كش شلعته وراح يصفر ويتلوى ويصيح بها كلما حاولت العودة إلى مرابعها على السطح. وقد يوجه الخطاب إلى واحد بعينه: «أرجع يا أكحل، يا أزعر!» وبدرت منه التفاتة نحوي فأشار إلي إشارة خاطفة أن ألبد في موقفي. ودنا مني وهو يقول همساً وعينه إلى السماء:

- ولا حركة، مفهوم؟

سألته همساً أيضاً:

- لماذا تبعدها كلما حاولت العودة؟

ابتسم:

- لأنها تعود وحدها!

عاد إلى ذهني قهوة الحمام دفعة واحدة. من قبل لم أكن أفهم الغاية من كش الحمام. صحيح أن فيه عنصراً جمالياً: قوس القزح هذا البديع، بفحولة السوادية، والصفاة والقلابة (مؤكد أنك استمتعت بمنظر هذا الطائر الأبيض، المزهو، القلاب، وهو يعرض ألعابه في كبد السماء مجاناً. الغريب أن الحميماتية يرون القلاب سلالة قليلة الأصالة!) ولكن الكش، في الحقيقة، نوع من الطُعْم: تغيب الشلعة وتعود وقد سلخت من شلعات أخرى أفراداً وطنيتهم ضعيفة، ولاؤهم للقبيلة هش، غررت بهم أحياناً شؤون قلب!

كنت أملأ العينين بمنظر الكم يقتصر ويطول، يحدق في السماء بهيمان، يصفر، يصرخ، يكمن. راقص باليه مفرد. جسمه ذاته جسم راقص باليه رقص عمراً مع بافلوفا ذاتها: هذه المجموعة المنضفرة من العضلات

المفرّضة كأنها من البرونز. الخصر النحيل الشعر المتمرد تسقط خصلات منه على الوجه المستوفز المضيء..

فجأة انثنى على نفسه حتى كادت ذقنه تمس ركبتيه، ودلف بخطوات نمر من قفص غير بعيد وأخرج منه طيرة زرقاء جميلة وخبأها في عبه، بينما كانت يده تلصق العب على طول جنبه الأيمن... وعاد يقول لي:

- البس الأرض، ولا حركة هه!

ورنقت الشلعة فوق الدار ورؤوسها تحدق في السطح. لم يصرخ بها الكم هذه المرة ولم يصفر. على العكس، أخرج الطيرة من مخبئها وراح يفرفح بها: تيعا، تيعا، تيعا...

وبدأت الشلعة تهبط في هزج غامر. كان وجه الكم يضيئه نور داخلي لماح. همس:

- بعد زمان!

كان قربي ولكنه حتماً نسني. سألته:

- ما الحكاية؟

لم يجبني. أخذ يكلم نفسه:

- الصافي، فحل أبو الأحمر، آخرتها!

وحطت الشلعة. كانت كلها منضبّة بعضها إلى بعض إلا واحداً. كان ظاهراً أنه حذر، مستغرب. لابد أنه هو. صاف حقيقي باسل ذو لبدة! وفرفح الكم بالطيرة بعض الشيء فدنا صافي أبو الأحمر خطوتين في خيلاء وتيه. كانت الشلعة في هيجان، مثل جياد عادت من سباق: هديل تحس فيه غزلاً وتصبياً، أغاني رجونية، صدرية مقصبة تتهادى في عرس يقرع فيه طبل وتزغرد دربكة ويشابك سيفان...

وهدأت الطيرة. لبدت في راحة الكم بليدة النظرة، غافلة عن حرج الموقف، فتنبه الصافي، وأشرع أذنيه، ثم نفر نفرة توقف القلب على شعرة. وحط على القفص، حذراً يقظاً.. وهمز الكم الطيرة في حنق. فرفحت. وإذا حركتان تحدثان في آن واحد: الصافي يمطّ رقبته ويهم بالنزول إليها، والكم يدفع قدمه في اتجاه الصافي خفيفاً، شديد الحيطة. في لحظة ما توهمت أن الصافي بين يدي الكم، أن ما من قوة تنقذه. ولكن، بغتة، انتصب، فتح جناحيه وطار إلى أقصى السطح ووقف على مزراب من الصفيح.. ولم يتراجع الكم. لكز الطيرة وانعطف إلى اليسار حتى صار يمشي على حافة السطح، كأنه بهلوان في سرك، وقد امتشق العب. اختلطت عليّ، خلال قانية واحدة، بضع حركات خاطفة سريعة تثير الدوار. حدثت كلها معاً. ولا أدري حتى الآن كيف حدث الأمر: سقط الكم في صحن الدار.. سمعت صوت السقطة، وبعدها خليطاً من الأصوات: خفق أجنحة. تطاير كثير من الحمام وهدل ثم عاد إلى مواقعه على السطح. خرجت امرأة الكم من الغرفة على السقطة. هرولت أنا نازلاً مروّعاً. حاولت انهاض الرجل عبثاً. رجّحت أن في ساقه اليسرى كسراً. قلت:

- بسيطة، على سلامة إن شاء الله.

قالت المرأة:

- على قامتي إن شا الله.

قال الكم في صوت متهدج، موجع:

- الصافي، الصافي. أنت طالق بالثلاث إن هرب الصافي!

* * *

مع هبوط الليل

كان يستند بظهره إلى صدر الكرسي، بينما مال رأسه إلى الأمام قليلاً في شبه تهريمة أو ذهول، وعلى مقبض العصا الأملس استراحت يداه الهشتان، المتغضنتان، الخلقتان. كان عنقه هزيلاً أبيض، رقيق الجلد. وإنك لتعجب كيف تسنى لهذا العنق أن يحك حرف قبة المعطف الأسود السميك ويترك أثره فيها!.. وهبطت قسمات الوجه. عكست هروباً واستسلاماً وبعض طمأنينة هي من صنيع هذه التهوية الهيّنة اليسيرة.

وكانت الحياة قد بدأت تدب في المقهى حواليه مع هبوط الليل البارد. وارتفعت أصوات لاعبي البريدج الأربعة قربه تناقش لعبة خاطئة، وصفق زبون، وطرق آخر معدن أركيلته طالباً ناراً..

ودنا النادل الفتى منه وانحنى عليه في رفق، وامتدت يده إلى كتفه فمستها مساً رفيقاً:

- عم أبو عزيز!

ففتح الرجل عينين صغيرتين زاغتا قليلاً كأنهما تبحثان عن مصدر الصوت. وعاد النادل يقول:

- عم أبو عزيز فيه واحدة ست في الباب تسأل عنك.

ورفع الرجل الشيخ عينيه إلى النادل:

- عني أنا؟

- أي نعم.

فتلفت حواليه، ونهض معتمداً على عصاه، وتوجه نحو الباب بخطى وئيدة ونظرات تتقرى.

في المدخل كانت تقف صبية عيناها واسعتان، صافيتان كالدموع. كانت تضم كفيها واحدتهما إلى الأخرى وتشرئب إلى داخل المقهى.

وهتف الشيخ:

- سميرة!

- أبي..

ومست الصبية بحركة خفرة يده، فعلق عصاه على زنده، وأخذ اليدين الصغيرتين بين يديه وضغط:

- يا حبيبتي!

صمت.. إنها ترفع أهدابها الوطف إليه فيبدو تحت ضوء النيون الفولاذي حوَرَ فريد:

- فكري عندك.

وأما هو فيبتعد وهو لا يزال ممسكاً برؤوس أصابع اليدين الصغيرتين ويتأمل الطرة التي تهبط حتى تكاد تمس الحاجب الايسر، يتأمل القامة النحيفة، المعطف البرتقالي، الحذاء الصغير:

- أيمتى جيتي؟

- الآن.

- مررت بالبيت؟

العينان الوطفاوان إلى الوجه المغتضن معتذرتين هذه المرة:

- أنت تعرف أن هذا..

لم تكمل. اليدان وحدهما تحركتا حركة خفيفة كأنهما تضيفان: «غير ممكن!».. ويقول الشيخ موافقاً:

- أعرف، أعرف. عليها من الله ما تستحق! كيف وائل؟

- عال.

- والأولاد؟

- يقبلون يديك. أنت كيف صحتك؟

- مثل ما أنت شايفة: أموت.

- بعيد الشر. الله يطول لنا عمرك يا أبي..

- يطول عمري؟! معها؟

- المرأة الصبية تضب معطف الشيخ وتزره، وتصلح من شأن اللحشة الصوفية:

- أنت لا تهتم يا أبي وكل شيء هين. المهم أن تكون صحتك طيبة (صمت) ما بقي لنا غيرك يا أبي..

- لا أهتم! أنا الذي ما تزوجت إلا لأجل خاطر هاتين العينين الوديعتين أحرم من رؤية بنتي في بيت أبيها. أنت الإنسان الوحيد الذي يذكرني بأني عشت بضعة أيام تستحق الحياة.. أنا الإنسان الذي كان عنده امرأة تطعمه على كل ضرس لون طعام وإذا هو ينام يفيق فيرى امرأته قد خطفها الموت من بين يديه وهي في عز صباها، وحلت محلها امرأة تطعمه الصوان! أيام المرحومة أمك كنت لا أدخل القهوة في السنة، في السنتين مرة. كان تختي يفرش بالياسمين. قميصي تندى منه العين. كنت شمامة بين الرجال.. والآن. انظري لك نظرة إلى هندامي: متشرد في الستين من العمر.. في القهوة، دوام رسمي مثل أيام الوظيفة. لا ينقصني إلا أن أوقع دفتر دوام.. وأنت وزوجك في آخر الدنيا لا تأتيان إلا في زيارة خاطفة.

- وائل يا أبي يسعى جدياً لنقله إلى الشام.. متى ما انتقل يصبح لك بيت جديد.

- أنا أنام في القهوة، آكل في القهوة، وحدي. ما لي رفيق! رفاقي كلهم توفرت لهم شيخوخة مريحة.. والبيت؟ تقولين سيرك، مدينة ملاه: رقص ونط وضحك سفيه.. وإذا فتحت فمي بكلمة انهدم البيت على رأسي: «زمانك ولّى يابي. فتّح عينك، أنت متزوج واحدة قد بناتك!» قد بناتي! إنها أم أربعة أولاد يفتحون العين من العمى.. بعد أربعة أولاد، المرأة يجب ألا يشغلها غير الأمومة.. أنا أتصور أن الأمومة وحدها تكفي، تُغني..

- لا تعيط يا أبي هكذا.

- أي باب لن أصرخ.. كنت أقول لك ماذا يصيب المرأة هكذا، فجأة، فتتكر لأثمن هبة وهبها إياها الله وتؤثر عليها الرقص والفقش والثرثرة الفارغة!

يزداد صوته خفوتاً حتى يغدو إسراراً لا يبوح به إلى أحد بعينه:

- أحد المتظرّفين، من هؤلاء الذين يلبسون سترات قصيرة وبناطيل ضيقة مثل السراويل، لا يفارق بيتنا: لا ينقصه إلا أن يجلب فرشته ولحافه ويحتل غرفتين فيه.

وندت عن المرأة الصبية صيحة موجزة خافتة وهي ترفع يدها إلى خدها:

- يا أبي إلى هذه الدرجة!

فارتفع صوته قليلاً:

- لا، معاذ الله. الله ما بيني وبينهم! ما فيه شيء. مسألة ولدنة، لا أكثر. هذه يسمونها جهلة الأربعين.. أنا متأكد من أن المسألة لا تعدو خفة العقل والميوعة.. طول النهار اسطوانات راقصة والداخل أكثر من الطالع، والشعر، عند الحلاقين اللصوص، اشتراك..

وعاد صوته خفيضاً، يسر:

- أحياناً أدلف إلى غرفة الضيوف كأني أدنو من صندوق للعجائب وإذا الضحك يخفت وإذا حركات التأدب تفضح، ماذا أقول؟ تفضح مستنقعات من التواطؤ والحماقة والسخف.. أين أنا في هذه الصحراء؟

- أبي أرجوك..

كانت العينان الحوراوان قد طفحتا وامتدت اليدان الصغيرتان الغضّتان إلى اليدين المتغضّنتين الخلقتين فشدتا عليهما وتدافع كلام من الشفتين الرقيقتين النديتين. كان صوتها أبح متهدجاً:

تعال يا أبي إلى البيت، بيت أهل وائل. تعال الليلة. أنت تعبت من الوقوف ادخل، ادخل القهوة. لا يأخذك برد.. لا تهتم يا أبي أرجوك. تعال تعال من كل بد. الليلة إذا استطعت. وائل مشتاق لك. نحن ننتظرك هاه، أي؟

وعادت تشد على يدي الشيخ وتنفتل فتكاد تصطدم بزبون قصير السترة، ضيق البنطال، كان يهم بدخول المقهى. ويتقهقر هذا خطوة وهو يتأمّلها.. حتى ما هبطت درجة المدخل الوحيد ألقى نظرة أخرى.. ولبث الشيخ لحظات في ركن المدخل وقد رسمت يداه شبه حركة في اتجاه الشارع.

* * *

وقلق خفيف أحبه

الطائرة تحلق فوق ايجه. إنه الليل، اطفئت المصابيح، ولم يبق إلا نثار من أضواء ناعسة، زهراء، تتسرب من أمكنة خفيّة. الركاب قليلون. غلبهم النوم جميعاً. حتى المضيفة، الشقراء المكتنزة، خفضت مساند المقاعد المزدوجة وتكوّمت غير بعيد. ما أجدرها أن تكون أمّاً. إذن لكان عندها طفل أشهى من أطفال نستلة ذوي العيون التي بلون اللازورد. طفل يسرح على هذا الصدر الفياض الكريم ويمرح، وبعد أن يرفس الهواء برجليه الصغيرتين، ينام ملء أجفانه وهو يبتسم للملائكة وللصدر الوهاج الرؤوم... قبل قليل دار بيننا، هي وأنا، حديث في هذا الاتجاه بسطت لها فكرتي: يظهر أننا ما تزال تجري في عروقنا دماء بدوية. البحر والجو ليسا بمنتجع لها. خطر. والخطر صناعة الرجل ضحكت وقالت لي:

- أنتم أصحاب الحريم. أنتم ترون أن المرأة خلقت لتحبس بين جدران الحريم الأربعة.

تلفظها «هاريم». قلت:

- أنا أقصد الأمومة. ولعل في اختيارك هذه المهنة تعبيراً عن الأمومة الهاجعة فيك. إنها، هي أيضاً، أمومة، الأطفال فيها راشدون، ركاب...

قالت ضاحكة:

- يظهر أنك شاعر. الشعراء أحياناً يعقّدون الحياة. أنا ما فكرت في الدوافع لمّا انتقيت هذه المهنة: بحثت عن عمل، وجدت، اشتغلت. هذا كل ما في الأمر.

- ما قولك في أن تعودي إلى المهنة الدافعة؟

- المهنة الدافعة؟ لم أفهم!

- أقصد مهنة الأمومة.

رنت ضحكتها أشد جذلاً:

- ومن تقترحه أباً لأطفالي؟

- مثلاً... أنا!

قالت والضحك يقطع كلماتها:

- ولكنك هرم أكثر مما ينبغي، هرم عليّ في الأقل...

- أنا؟! والله هذه ما قالها أحد قبلك!

وأما الآن فالأيقاظ هم الملاحون، ومضيف في حوالي الخامسة والثلاثين، متين البنيان، مورد الوجنات من حسن تغذية أغلب الظن وأنا. أنا لا أستطيع النوم في الطائرة حتى في الليل. ربما لأني أوثر الدرب على الغاية. عمري كله دروب لا توصل، ومع ذلك أحب أن أضرب فيها... في النهار تجعلني الكوة أهبط، أعيش في الأرض. خضرة الغابة، لمعان البحر تحت الشمس، تصور أن عاشقين تحت ذلك السقف الصغير هنالك يتناجيان الآن في هذه اللحظة... وأما في الليل فالأضواء البعيدة هي التي تكلمني سماء الأرض المزينة بالمصابيح!

تلك الليلة كان الجو غاضباً. في الخارج ظلمة مطبقة، موصدة، كتيمة، تكاد تكون مطلقة لولا البروق التي تمزقها في عنف من حين إلى آخر.. كلما لمع برق وجَّ جناح الطائرة الأيمن، وبدا لي شاسعاً ينغرس في الأفق الأسود كالنصل. كنت أرى مسبحات المطر تلتطم بالجناح وتنط رذاذاً متناثراً قوياً.. لحظة خاطفة، ثم تعود الظلمة الصماء.

في الماضي تصورنا نحن بساط الريح ولكن ما فاتنا هو أن نتصور له سقفاً يحمينا، يجعلنا، والجو رهيب منذر في الخارج، نغوص في دفء وثير حانٍ...

وجاء المضيف الرجل وجلس قربي. سألني لماذا لا أنام. أخبرته. كانت فرنسيته مهرمشة، ذات رطانة فلم ينتعش الحوار. ما نما. صرت أكلمه ولكن عيني ظلت إلى البروق السارية. ولعله فطن: مد يدا إلى الجيب الذي في ظهر المقعد أمامه وأخرج منه مغلفاً من النايلون، نسل منه جهازاً يشبه فرشة من المطاط، وأخذ يشرح لي:

- هذا للنجاة. هذا ينفخ ويلبس فيشعل فيه ضوء يهدي سفن الإنقاذ إلى مكانك في البحر!

- مكاني أنا!

في هذه الأثناء بلغ غضب الطبيعة في الخارج ذروته. صارت الطائرة تقوم وتقعد كأن يد جبارة تزلزلها، تمسكها من ذنبها وتهزها مثلما يفعل معلم المدرسة حين يهدد الأولاد بمسطرته. البروق تقصفها قصفاً ملحاً عنيداً. كنت أرى جناحها الأيمن مثل شفرة ثبتَّ أحد طرفيها ونقرت الطرف السائب... وبدرت مني نظرة إلى صدر الطائرة، وإذا الضوء الأحمر، بالفرنسية والإنكليزية، يحذرنا:

- «شدوا أحزمتكم. لا تدخنوا».

- ما معنى هذا؟ هذا التحذير لا يضاء إلا عند الإقلاع والهبوط! وجاري، من جهته، يشرح لي كيفية استعمال جهاز، للنجاة يستخدمه من يسقط في البحر... ولكن، كيف نعوم في البحر والأمر الأحمر واضح: اربطوا أنفسكم»؟ ألقاه في اليم مكتوفاً.. يا ويلي!

ويظهر أن سحنتي قد انقلبت على غير علم مني، وأما جاري فلم يبد عليه أنه يقيم وزناً للـــ... للعوم! قد يكون سبّاحاً ممتازاً، هو. وأنا أيضاً اشترك كل صيف في المسبح البلدي.. ولكن تصور لي سباحة في مثل هذا الزمهرير! ثم إن الأسماك، أنا قرأت عن أسماك لها أسنان حادة جداً، قد تذهب بإحدى قدميك أو أذنيك ولا تعيدها إليك عمرك كله! أضف إلى ذلك كله

أن البحر ليس له درابزون يتمسك به الإنسان إذا تعب من السباحة، وأنا لست جلال زيدان.. تعال قمطها!

لم يكن مضى على إقلاعنا من أثينا وقت طويل. وخط سيرنا، على علمي، هو: أثينا، بيروت، دمشق. فهل في الأمر هبوط اضطراري في إحدى الجزر اليونانية؟ قد نعلق علقة أذيسيوس.. حلوة! وسألت صاحبي المورد الوجنات، الهادئ الأسارير:

- أنت تعلّمني استعمال هذا الجهاز لأننا على وشك أن نسقط في البحر؟

- اتسعت عيناه. تنبه إلى سحنتي، إلى فظاعة تسليته البرئية مع راكب يحب السهر ولكنه جاهل، جاهل! وإذا هو يلملم عدته على عجل ويقول لي مدافعاً عن نفسه في بسالة:

- أبداً، أبداً. لا شيء من هذا الذي تتوهم. لا شيء إطلاقاً.

- قلت:

- وهذا الإنذار الأحمر بلغتين؟

- لا شيء، لا شيء. ألا ترى أني هادئ كأني في أرجوحة يوم العيد. إن الطقس سيئ، والطائرة ستقوم وتقعد...

- تقعد؟!...

استمر كأنه لم يسمعني:

- التثبيت في هذه الحال خير من إبقاء الجسم سائباً. هذا كل ما في الأمر.

- فكرت في كلامه هنيهة:

- هل تحلف لي؟

فرفع يده إلى أعلى كأنه في محكمة:

- أقسم!

عدت إلى الهدوء، أو قل حاولت العودة إليه بتخبئة خوفي في مزاج:

- شف، أنا لست بخائف. ولكن إذا كانت المسألة جدية دعني انتقل إلى جوار الآنسة المضيفة. أنا شخصياً احب الموت المختلط، ذلك أن الأرض أنثى، أم. هذا آنس!

تضاحك وهو ينظر إلى وجهي في انتباه. لا بد أنه اطمئن عليَّ بعض الشيء. ومع ذلك قام من مقعده قربي وتركني لليّل والبروق وهجعة المضيفة المربرية و... قلق خفيف أحبه!

* * *

الخلاصة

كان يحمل مناشف من مختلف الحجوم، يحملها على ذراعه اليسرى، على كتفيه، في صندوق من المقوّى بين يديه.. ويسير الهوينا كرشة أمامه قد انطلقت خارج السترة المقطعة الأزرار، فبدا كأن الكرش هي التي قطعتها لتتحرر من ربقة السترة..

وبادرته بالتحية:

- الله معك يا أبو سامر!

فأظلَّ عينيه بيده اليسرى وقال:

- مرحباً!

ولكنه سرعان ما هتف متهللاً.

- عبد الكريم! ولك أهلاً بك، تعال، تعال..

لم يكن من عادته أن يخاطبني بمثل الكلفة المرفوعة.. وحِدْت معه عن سبيل الناس من رصيف محطة الحجاز، ولذنا بالجدار. ووضع ما كان في يده من مناشف على صندوق المقوى الذي انزلق غطاؤه قليلاً، وركى كتفه على الجدار. قلت:

- منذ متى ما رأيتك؟

قال وهو يتفحّصني بعينيه:

- من زمان. ست، سبع سنين، يمكن أكثر. ولد عمره سبع سنين يروح إلى المدرسة. أنت نحفت قليلاً. والشيب؟ لا، شعرات فقط! ألا تزال تشتغل في التجارة؟

- لا، فلَّست تقريباً. صفيت المحل. أنا الآن سمسار.

- يسترها الله. صحتك جيدة. هذا هو الأصل. الشيخ الذي سقطت أسنانه وتدربت عليه الأوجاع والعلل، واليوم المرارة متعطلة، وغداً الكبد منفوخة.. ايش تسوى الدنيا في عينيه؟ افرض عنده مال قارون، ولا يتهنا بكأس ماء صاف، فما قيمة ماله؟ لا تحزن! ألا تحصِّل حق الخبزات؟ كفاية، أحمد ربك: أنتم جماعة طيبون. البيت المستور حاشا الله يفضحه.. ولكن يجب أن يكون في يدكم لله. الصدقة تدفع البلاء يا عبد الكريم. ساعدوا عمكم خليل. لا يجوز أن تتخلوا عنه. أنا ساكن معه في هذا الفندق هنا. هل زرته فيه؟

وكنت قد زرت عمي مرة واحدة في الشتاء الماضي، ولم أطق تثنيتها. أي فندق يا رب! كدت أبكي. سبعة أسرّة أو ثمانية موزعة على ثلاث غرف صغيرة، الواحدة قد حمّام البيت. غرفة عمي كان فيها ثلاثة أسرّة، ويسمونها تخوتا، فرشاتها من القش، وألوان معدنها الأصلية عادت لا تعرف لطول ما فتك الصدأ بها. وقد يلذع البرد أحد النزلاء الكرام (على الباب إعلان في رأسه بشرى إلى نزلائنا الكرام.. والبشرى هي تخفيض سعر التخت من ليرة ونصف إلى ليرة واحدة. والأجرة الشهرية يتفق عليها مع الإدارة) فيمدّ يده المرتجفة إلى السجادة المتهرئة المتربة ويسحبها إلى تخته وينطمر فيها.. والقذارة في كل مكان. المخدات كأنك دهنتها بالزفت مثنى وثلاث، وأعقاب السيكارات تحت التخوت، فوق الخزانات، على مناضد الليل.. وكل شيء يئن، ينشر روائح حادة مخرشة، أو عفنة محبوسة.. في الدهليز ديوانة من أمّات التاج والطرة، قسمها الأيسر مخسوف، قشّة يمس الأرض، ووجهها كالح مثل وبد هرٍّ مريض.. وأما قسمها الأيمن فشائل، مرتفع، أغلب الظن أنه سُمِّك بقطعة خشب فوق النوابض البايظة.. صاحب الفندق - الإدارة التي جاء ذكرها في البشرى - هو ذاته يهوم طول النهار وراء منضدة رثة، أظن

أنها مصنوعة من صناديق البضائع، لأني لمحت على القسم الذي يواجه داخل الدهليز، حيث تقوم الإدارة، كلمة «وارد بيروت» بالفرنسية، وبخط يشبه ما نقرؤه على الصناديق التي تعلب بها البضائع المنقولة بحراً.. أجل، صاحب الفندق لا يكاد يختلف طرازه عن كلية الأثاث والنزلاء.. وهو يهوم تهويماً ثقيلاً. لابد أن جسمه قد تسمم من الروائح والهواء المحبوس، فأصابه ما يشبه داء النوم. هذا إنسان مدمن مخدرات ولا مخدرات.. وإذا وجهت إليه الخطاب ندّ عنه صوت ميت كأنه من غير هذه الدنيا، كأن كل الأمراس التي تشده إليها قد تقطعت...

واستطرد أبو سامر يقول:

- قد تكون زرته مرة واحدة ولم تكررها. هذا لا يجوز. عمك رجل مسكين. مقامر؟ كان. وأما اليوم فهو طالب رغيف، لا أكثر.. لما وَجَد في العام الماضي تلك الوظيفة في معمل الكونسروة جنّ من الفرح.. وأنت تعرف الراتب: تسعين ورقة.. وأجرة الفندق في اليوم ثلاثة أرباع الليرة مع المراعاة. ومع ذلك باس يده وجهاً وقفا وحطّها على رأسه وحمد الله تعالى. أنت لا تفهم معنى أن يكون الرجل بطالاً. الموت أهون عليّ ديني حرام. البطال تخطر له خواطر مثل المجانين. يعنّ على باله أن ينقل كومة حجارة من مطرح إلى مطرح، أن يخطف من عامل مجرفته ويحفر الأرض هكذا مجاناً، لوجه الله.. ماذا كنت أقول؟ بعد أن يسرّ الله لعمك ذلك العمل صار كأنه خُلِق من جديد. صار غير عمك خليل الذي تعرفه كان يشغل قبل الظهر وبعد الظهر حتى المغرب. وظيفة الأصلية كانت مقتصرة على تسجيل بطاقات العمال، ولكنه كان يقف على القبان، يكنّس الغرفة، يملي المكاتيب على الناسخ... ولكن الله لم يشأ إبقاء تلك النعمة عليه. سكّر المعمل وسرحوه. أعطوه ثلاثين ليرة تعويض تسريح. إيش يعني مبلغ ثلاثين ليرة؟ أكلها بشهر وقعد فتح فمه للهواء.. حرام! لا يجوز أن تتخلوا عنه. هذا عمكم، من دمك

ولحمكم. ربما تقول لي أنه جلب العار للأسرة. باع حصته من الضيعة وصرفها على طاولة القمار.. حب، عشق، عمل كل شيء ما أراده الله.. ولكن فكّر أن كل هذا شغل الله. الله هو الذي أشقاه. والرجل عمكم أمام الله وأمام الخلق.. الدم ما هو ماء. الدم دائماً دم. إيش يعني جلب العار الأسرة؟ أن يحكي الناس في حقكم؟ أي سيدي الناس يحكون في حقك ولو كنت مقطع حصر الجوامع، وفي جبينك زبيبة صلاة قد الخوخة المجففة. خذني أنا. أنت تعرف أني كنت تاجر مال فاتورة وأضرب وأطرح، ألعب بالليرات مثلما تلعب أنت بزهر الطاولة. ولكني تدربت على القمار... بدأت الحكاية تسلية: جرّب حظك بخمسين ليرة. وكانت خمسين من الربح، وإذا أنا، في ظرف شهر زمان، ألعب بمئات الليرات من رأس المال! صرنا نبيع البيعة من هنا، ويا الله يا قهوة، يا الله يا مقمرة.. الخلاصة بعنا ما فوقنا وما تحتنا وبعزقناه على فول الآس وكاريه دام.. عاشرنا العتال والحرامي والسكير وجابي المالية المختلس. لعبنا في نواد، النسوان فيها مثل العرايس ليلة الدخلة، ولعبنا في زريبة بقر حيطانها، الله وكيلك، مسيّعة بالجلة، ورائحة الصنان تخنق الخنزير.. وتغمّضت لنا عين وتفتّحت عين وإذا نحن لا مال ولا رزق، لا دكان ولا بضاعة، لا قدر ولا قيمة.. لو أن في يدنا صنعة لكانت المسألة هينة. ولكن أهلنا، الله يسامحهم ما علمونا غير زرّ السترة والتسكع في الطرقات.. أكابر بلا قافية، بيت المواقيدي لا تقرف! أي؟ ايش نشتغل؟ رحنا بوّسنا ألف يد حتى لقينا وظيفة جابي بلدية، براتب مئة وعشرين ليرة سورية لا أكثر ولا أقل.. كفاية! لو كنت بني آدم لحمدت ربي وشكرته وضببت المرأة والأولاد وقعدت مستور الحال، أمدّ لحافي على قد رجلي، على قد هذه المئة والعشرين التي قسمها الله لي.. ولكن سوس القمار كان قد باض وفرخ في عظامي.. أول راتب والثاني وإذا أنا ألقط سر الصنعة: صرنا نمد يدنا إلى مال الحكومة.. يقولون لك: «أغرانا الشيطان!».. كذب، لا تصدق. الشيطان لا يغري أحداً. الشيطان هنا، فينا. أقول: مددت يدي إلى مال البلدية.

كنت أسرق وأقتسم الغنائم مع برهان الدين، كاتب التحقق. أنت تعرفه. هذا لم يكن مبتلى بالقمار مثلي. هذا كانت علته أرذل. كان يحب الشكل. عشق حاكم الصلح، وهو شاب على وجهه ضوء، ولكنه حاكم. ومع ذلك عشقه! صرف عليه جب مال. تصور كاتب تحقق في البلدية يصطحب حاكم الصلح.. ماذا يجب عليه أن يلبس؟ عقاده من أمات الورقة؟ بدلة من البالات؟ أعوذ بالله، هذا لا يليق بالمقام! كان برهان الدين يا مولانا لا يفصل بدلاته إلا عند حبشيان في حلب. والعقادات شغل إيطاليه، عليّ الطلاق.. ولما حجزوا عليه وجدوا عنده استغفر الله العظيم ثلاثمئة عقادة وخمسين بدلة، على قولهم. الله ما بيننا وبينه.. الآن هو في حلب، في فندق شروى فندقنا هذا، يلحق ابن البلد سفر عشر ساعات حتى يعطيه معاملة يمشيها له في السرايا.. وأما حاكم الصلح، صاحبه الحميم.. فقد تزوج. فرش بيته من محلات كردوس ما لك عليّ يمين.. ديني عليّ حرام ثلاثة أرباح المهر وفرش البيت من علي برهان الدين، أنا سرقت له إياه، وانتهى إلى جيب الحاكم.. لما بدأت الدعاوى من الدائنين على برهان الدين المسكين، واشتغل الحجز في كتف الحجز، ورأى الحاكم «صديقه الأوحد» مفلساً، ملاحقاً في المحاكم، متشرداً في الأزقة.. فعل مالا يفعله الغريب. يومها ذهب علي برهان الدين يطلب منه مئة ليرة يعيش بها بضعة أيام.. أتدري ماذا فعل الحاكم الحبيب؟ الله الوكيل رن الجرس وصاح بالآذن: «أخرج لي هذا القذر من هنا» القذر يا ابن الأصل؟ الخلاصة.. أنا أيضاً خرطوا لي القيد في يدي وساقوني إلى المحاكمة. أخوك سعد توكّل لي. الله يكثر من أمثاله. الله يحي البطن والظهر. إنسان أكابر صحيح. نزل إلى الجنايات في حلب عدة مرات، ودافع، وكتب.. وما قبض غير رحمة الله ورضى الله ورضى الوالدين! الشاهد! أخذ وعطا، هاتوه وخذوه، وأخيراً سمعت الحاكم يلفظ الحكم.. احزر كم حكموني؟ سنة حبس وسبع وعشرين ليرة غرامة! العمى..

صرت أضحك في قلبي على الحاكم وأقول في نفسي: «هذا، عليّ الطلاق، مجنون!» صحيح أن سعد، الله يوجه له كل خير، بح صوته وانتفخت عروق رقبته، ولم يترك «يا حضرات السادة هذه ليست جريمة موكلي» إلا نبشها وسلخها في وجه المحكمة.. ولكن لا ريب فيه هو أني حرامي، مقامر، نهبت الدولة، قلفطت مال الخلق.. مالك عليّ يمين لا اعرف كم سرقت.. خمسة آلاف، عشرة! يمكن أكثر.. وسنة حبس وسبع وعشرون ليرة غرامة فقط لا غير! كيف صح الحساب معهم على هذا الشكل؟ الله اعلم! أتعلم أني كنت أقدر لنفسي حركة عشر سنين يابسات على الأقل؟ الخلاصة، انحبسنا.. وقبل نهاية الحكومية بأسبوع أسبوعين، جاءت الحرمة، أم سامر، تزورني في الحبس. قلت لها أن عليها أن تتدبر السبع والعشرين ليرة غرامة، وإلا انحبست فيها حوالي شهر، شهر ونصف زيادة.. راحت المرأة تطرق أبواب الأسرة، آل المواقيدي الأكارم.. لم يرد عليها أحد، كأنها تدق على أبواب أهل القبور.. ومن يرد على امرأة مرتكب، مرتش، حرامي؟ نحن بلا قافية أشراف، أغنياء، نصف البلد.. والأشراف لا يوسخون أيديهم. لا يمدونها إلى شقي.. ام سامر لا تعرف تقول لهم: «من أين جمعتم أموالكم أنتم؟»، امرأة درويشة، واقعة في ضيق. الطفل عنده حيلة أكثر منها.. ولكن اسألني أنا! أبو رياض، عمي، من أين جمع ماله؟ لا تغرّك العمامة اللام ألف، والمسبحة طول يومين بلا خبز، والحج ثلاث مرات.. عليّ الطلاق ثلاثة أرباع ثروته من الربا، والباقي من أكل حقوق العالم! الحاصل، ما لنا وما للناس. أنا لا أحب الحكي في القفا. الحقيقة أنهم لا يريدون ان يدفعوا. هذه زبدة الكلام.. قل راحت الحرمة تطرق باب عبد الرحمن الصباغ. هذا رجل لا هو قريبنا ولا هو نسيبنا، وليس من الأشراف بعيد عنك! هذا إنسان بدأ حياته في محلجة القطن، أجير بكعكة. ظل يحمل الأكياس حتى تورم ظهره، وفي الكلب نهرة وفيه ألف.. ولكن الله نظر إليه بعين الرضا. صار إذا مسك

التراب ينقلب إلى ذهب بين يديه. أنت ربما تعرفه أيام كان في دكانه الصغيرة بسوق الخضرة. متى تركت البلد؟ من عشر سنوات؟ أي نعم، يومها كان تاجراً صغيراً في آخر سوق الخضرة، قرب الجامع العمري. أي سيدي رح شفه الآن. صار غير عبد الرحمن الذي كنت تعرفه: تاجر قد الدنيا، لا يحكي إلا بالملايين.. وآلو، يا آنسة، أعطيني الهند، اليابان، أمريكا.. وبنايات في حلب، وأراضي في الجزيرة، وخدم، وحشم، وأكثر من مئة عيلة محتاجة يطوف عليها في الليل: لهذه شنبل حنطة، لتلك مئة ليرة.. ويظهر أن الله تعالى حكيم، يعرف من يستحق الثروة ومن لا يستحقها.. يعرف مثلاً أني عكروت، خاسر، لا أسوى أن يكون في جيبي أكثر من حق الخبزات.. وعمك خليل أيضاً لم يكن يستحق أن تكون له حصة في ضيعة.. الخلاصة، دخلت الحرمة على عبد الرحمن الصباغ. قالت له: «أبو سامر سيخرج من الحبس بعد بضعة أيام، فإذا كنت تستطيع أن تؤمن له عملاً بعد خروجه فأعطني سبعاً وعشرين ليرة من راتب الشهر الأول حتى ندفع الغرامة عنه». أنا والله ما علمتها ان تقول له هذا الكلام. ولكن الله أنطقها. وأحزر ما قال لها؟ قال لها «الله يكرم أصلك يا أم سامر». ومد يده إلى الصندوق وأعطاها السبع والعشرين ليرة، وفوقها خمسين. قال لها: «دبري بها أمورك من الآن حتى يخرج أبو سامر..» وطلعنا من الحبس وإذا العمل في الانتظار: عينني عبد الرحمن حارساً في محلجتهم. وأي محلجة! مصنع طويل عريض. ماكنات آخر طراز.. والداعي بسلامتك قاعد طول النهار، مثل ذكر النحل، في الشمس، لا شغلة ولا عملة، ومئة ليرة سورية لخدمتي.. وحتى بعد أن تركت البلد وجئت إلى هنا، بل حتى الآن يدفع خمسين ليرة لأم سامر، أحياناً أكثر.

قلت :

- ولماذا تركت العمل عنده؟

- ما بقي لي حياة في البلد: الدائنون، الأسرة، نظرات الناس صرت مضرب الأمثال. الأب ينصح ابنه فيقول له: «اعتبر يا ابني بابن المواقيدي!».. ثم أني لم أكن أقدم عملاً مفيداً. وهذا محرج.. المئة ليرة التي كنت أقبضها أشعر أنها نوع من الصدقة، شفقة..

- ولكنك قلت أنه لا يزال يدفع!

أي نعم، لا يزال.. ولكني غائب عن البلد. هذا أهون. ابني سامر يقوم بالحراسة أحياناً. أنا هنا لا عين تشوف ولا قلب يحزن. الفرق كبير بين أن يكون رب البيت في البيت ويتقبل الصدقة.. الشاهد! نعود إلى سيرة عبد الرحمن. ألا ترى معي أن الأولياء الصالحين الذين يبني الخلق لهم المزارات، ويتمسحون بتراب قبورهم ليسوا من هذا الإنسان؟ الشيخ رجب مثلاً له مزار غرب البلد، يحجون إليه من أربعة أطراف الكرة الأرضية، استغفر الله العظيم. تقدر تقول لي ايش فعل الشيخ رجب هذا حتى يتبارك به الخلق وينذروا له النذور؟ أنا أعرف الشيخ رجب هذا شخصياً: كان شاطراً في دق المزهر وضرب الشيش.. وفي كل سنة مرة، في محرم، يقوم بدوسة على البيدر القبلي.. أنت كنت صغيراً ولم تر الدوسة: ينبطح ألوف الناس على بطونهم، ومرافقهم مشدودة إلى خواصرهم ويأتي الشيخ رجب على مهر ضعيف فيمر من فوقهم.. تدجيل! الشيخ رجب بخفة الريشة والمهر ليس له نضوة حديدية، والناس مشدودة عضلات ظهورهم.. ومع ذلك، مرة من المرات دعس المهر دعسة جدية فكسر ضلع واحد من المهابيل المنبطحين لتلقي بركة الشيخ! أتعلم كيف علل مريدو الشيخ الحادث يومها؟ قالوا أن الرجل المصاب كان على جنابة! كذب.. الخلاصة، هذا مثل ولي من أولياء الله.. ولا تنس انه كان يعيش على الأجاويد. يعني؟ شحاد طفيلي، شيخ سلتة.. وأما عبد الرحمن فتستطيع البلدة، تستطيع سورية نفسها أن ترفع رأسها به.. يقولون لك عمر بن الخطاب كان في يده لله.. أي قل لي، أبوس يديك ماذا

فعل حتى تمتلئ الكتب والسير بأخباره؟ افتح أي كتاب يقع تحت يدك تجد مئة صفحة عن عدله، عن صبره، عن قلبه الطيب.. أريد أن أفهم فقط، هل مد يده مرة إلى صندوقه الحديدي فأعطى امرأة زوجها محبوس عشرين، ثلاثين ليرة. تفك زوجها بها؟ هل عيّن أحداً في حراسة؟ هل دعا إنساناً إلى غداء، إلى عشاء؟ قالوا مر بأم فقيرة كانت تغلي الحصى في الطنجرة وتكذب على أولادها.. فحمل لها كيس طحين! تعال أقدر تخلص من كيس الطحين هذا: كتب أولاد المدرسة تحكيها، التواريخ تطنب فيها، المجلات، الجرائد! قالوا أيضاً حاتم الطائي ذبح جمله.. أي علي الطلاق عبد الرحمن أحسن من مائة حاتم طائي، وأخوك سعد أحسن منه. لو كان في الدنيا عدل لكان اسمهما نزل في التاريخ. أمثال هذين يجب أن تكتب عنهما التواريخ. قال كيس طحين، قال جمل! شيء لله! التاريخ إيش يعني؟ التاريخ عبارة عن رواية عجائب المخلوقات: امرأة وضعت ولداً برأسين صياد رأى مخلوقة نصفها امرأة ونصفها سمكة.. أي سيدي حكاية عبد الرحمن أعجب.. ومع ذلك أنا ما قرأت اسمه في أي كتاب تاريخ والله العظيم. هذا ظلم!

والآن يا أخي لا تنسوا عمك خليل. حالته تبكي. قلب الكافر يتألم عليه. والدم يا عبد الكريم دم. الدم ما هو ماء. الله سبحانه وتعالى كتب عليه القمار ثم تاب. القمار علة. داء مثل السرطان. إذا أنصاب أحد محبيك بالسرطان، بعيد الشر، لا سمح الله.. فهل تأنف منه؟ القمار كذلك. أنا أتذكر أول ما تعلمت القمار: في يوم من الأيام كانت نفسي سوداء، كأنك دهنتها بالقطران. قلت لنفسي: «رح يا ولد إلى القهوة تسل لك شوية!» رحنا. كان فيها بعض الأصحاب يلعبون البوكر. هل تعرف هذه اللعبة؟ كلها مفاجآت. ربما تكون المفاجآت الوحيدة في بلدنا الميت.. ومن يومها علقنا علقة بدوي في صلاة التراويح! الإنسان يا عبد الكريم ضعيف. يجب أن نشفق عليه.. أحياناً أمر بولد قدامه صندوق بوية. وتكون عيناه

إلى حذائي، ولا يكون قد نظر إلى هندامي بعد، فيخطئ ويقول لي بصوت خافت يائس: «مسحة ظريفة!» فأحس أن قلبي قد انجرح، انهدم. لماذا لا يكون الناس كلهم أكارم، حالهم طيب، خبزهم مؤمن، والضحكة ولا تفارق شفاهم! العمل ما فيه عيب، ولكن الصوت الخافت المكسور هو الذي يجرح القلب يشطره إلى شطرين.. أي نعم يا عين أخيك، يجب أن نعطف على الناس. أكبر رجل في الدنيا يحتاج إلى عطفنا مثلما يحتاج الطفل إلى ثدي أمه. الدنيا آخرتها حفرة مالها قرار، حفرة سوداء مثل قلب المرابي.. ولا يبقى في الدنيا شيء.. وما دام عزرائيل بالمرصاد لملكنا وزبالنا، لغنينا وفقيرنا.. فما معنى الشح والكلبنة والنفخة الكذابة! أحب الناس يا أخي. أنا مقامر، لا أسوى فلساً، ولكن الناس تفضلوا علي، غمروني بأفضالهم. أنا الآن لا أسحب في اليوم أكثر من ورقتين ثلاث، ولكني أقول لنفسي: «كفاية، كثير عليك يا أبو سامر. إيش قدمت للناس حتى تطلب أكثر!» كفاية حق الخبزات وهذه حياة تناسبني تماماً. أحياناً لا أجد ما أدفع به أجرة الفندق، فأحمل عفشي (وأي عفش! صرة أواعي ما لها لون..) وأروح أنام في الجامع.. ومبسوط. فوق الرضا رضا.. هل تلزمك منشفة؟

- قديش الواحدة؟

- ليرة.

لم يكن معي إلا عشر ليرات قطعة واحدة فأعطيته إياها وأنا أنظر إليه متمعناً. قال:

- عشر ليرات؟ ما معي كفاية. رح الآن. تعطيني فيما بعد.

- لا، أعط الباقي لعمي.

- ظريف! الله يعوض عليك. ولكن العملة لا تكفي. لا تقطعه. الكلمة الطيبة قد تكون أحلى على قلبه من العملة. ولا أحد يموت من الجوع. تعال زره فهو إنسان وحيد، وحيد!

حكاية بسيطة

جاءتني بطاقة من مكتب شحن في الحريقة تعلمني بان طرد كتب قد ورد باسمي من مكتبة «عجان الحديد» في حلب. وأبرزت البطاقة لموظف المكتب فنادى الحمال:

- أنزل الطرد رقم ١٦ للأستاذ.

هذا طرد أرسله إلي عبد الرحمن، فيه قصة الحضارة في واحد وعشرين جزءاً وطوق الحمامة وسيرة ابن هشام، وقد اشتراها لي بأقل مما تطلبه أية مكتبة في دمشق.

ورجوت الحمال أن يحضر لي تكسي، ووقفت أنظر إلى أكياس الطرود التي ترتفع حتى السقف، ولم يلبث الحمال أن عاد مستقلاً سيارة دوسوتو قديمة، ونزل فصعدت واتخذت مكاني قرب السائق وقلت:

- القصاع.

كانت مقدمة السيارة متجهة ناحية سوق مدحت باشا فدعس السائق إلى الأمام. لم ينعطف إلى الدررويشية. قلت:

- البيت في أول شارع حلب.

- أي نعم.

- لماذا لا تذهب من شارع النصر؟

فالتفت إلي وقال في رقة:

- كلّه واحد.. الطريق من هنا مؤنس. صعب ولكنه أنيس. وصمت لحظة، ثم مد يده إلى يدي فشد عليها وهو يقول:

- اسمح لي أن أقول لك كلمة: الإنسان لا يستطيع أن يحيا وحده. ضعه في جزيرة مهجورة، وأمّن له كل ما يخطر على بالك من وسائل التسلية. أمنّ له كل حاجاته، كل ما يلزمه، تجده حزين الفؤاد، ينقصه شيء. إنه يريد إنساناً مثله..

حولت نظري إليه وأخذت أتأمله: لم يكن يشبه سائقي التكسيات العاملة في البلد في شيء. اللغة تكاد تكون فصيحة. وغير اللغة أيضاً. إنه في حوالي الستين، خفيف العارضين، يكاد يكون كوسجا، لحيته بيضاء نامية، بنطاله من الخاكي رث، سترته عتيقة تستر أنماطاً من القمصان والكنزات ظهرت طبقات عند العنق.. وأي ايناس في وجهه، مثل حديثه المؤنس! وهو يعض على الراء وصوته دافئ ينساب طلاوة.

قلت، وقصدي أن يستمر:

هذا صحيح. نحن نتشاجر مع الناس، نسمعهم كلمات مقذعة، نود لو نسرقهم.. ولكننا في الأعماق لا نستطيع أن نحيا من دونهم...

وقفز فكري إلى الكتب، تكفي؟ هراء! ثم ذكرت حديثاً أفضي به إلي رجل سياسي حبس خمسة وأربعين يوماً في زنزانة من اللواتي تسمى في عرف السجون «المنفردات». وكان فيما قاله: «ما شئت قل عن الناس: ذئاب، لصوص، حمقى.. ولكن، لو أن لي كرة، لو أن لي أن أختار، لما اخترت حياة أخرى، لما أخترت إلا العودة إلى الحياة بين هؤلاء اللصوص، أشباهي وأحبائي!».

وقال السائق:

- في بعض الأحيان أثور على أولادي، يطفو في قلبي غضب أود معه لو فتكت بهم.. ومع ذلك أنا أعمل طول النهار لسواد عيونهم. أتضايق إذا لم يأخذوا ما أربح: «تعالوا، خذوا، لا تتركوا لي قرشاً واحداً!».. أي نعم، أنا أعمل من أجلهم في النهار، وأطبخ لهم في الليل..

- تطبخ؟

- أي نعم أطبخ.

- وأمهم؟

- أمهم، بعيد عنك، مريضة.

وتوقف. كان بضع نسوة، معهن أطفال، يقطعون السوق. لم يشغّل بوقه. وقف ينتظر عبورهم صابراً، فلما انتهوا أقلع من جديد. وعاد يقول:

أي نعم مريضة. نحن نربطها...

تربطونها؟!

أي نعم، نقيدها. أنا لا أستطيع أن أتركها. قد تفتك بالأولاد. عندي. أولاد صغار، أفراخ. أكبر أولادي بنت في الثالثة والعشرين. ولكن عندي أيضاً ابن سنتين.. أخاف أن تؤذيهم. ما دامت مقيدة فهي مثلك ومثلي. لا كلام طالع نازل ولا حركة واحدة في غير محلها، آمنت بالله!

- وأنت تطبخ؟

- أحياناً. وأحياناً الأولاد. أغلب الأحيان أنا لأن الأولاد في المدارس. البنت في الجامعة..

- عرضت الأم على طبيب مختص؟

- صرفت حتى الآن ٨٠٠ ليرة. من عدة سنوات جاء إلى هنا طبيب ألماني. عرضتها عليه فعمل لها صدمات دماغية..

- تقصد صدمات كهربائية.

- أي نعم، صدمات كهربائية. ٢٣ جلسة كلفت ٤٠٠ ليرة. قامت، آمنت بالله، صحّت. وبقيت ثلاث سنوات ما فيها البلاء.

هنا، يبدأ صوت السائق الشيخ يرق ويغدو أكثر خفوقاً. كان ينظر أمامه ويقود السيارة في بطء شديد ويتابع حديثه كأنما يبث شكاته لنفسه. اضطررت إلى أن ألزّ عليه.

فجأة بعد ثلاث السنوات التي قضتها المرأة سليمة نتيجة صدمات الألماني، عاودها المرض أشد شراسة وعنفاً. في المرحلة الأولى من المرض لم تكن تؤذي. وأما في المرحلة التالية فكانت عيناها تنذران بشر كبير. ذات مرة قبضت على أحد الأطفال وكاد العناق ينقلب إلى عملية خنق.. ونصحه معارفه أن يعرضها على الدكتور مرهمي. هذا عنده الآلة التي تحدث «الصدمات الدماغية».. واستقدمه إلى البيت حتى لا يطلع الناس على مصيبته. ستة أشهر لم تر فيها المرض. عادت امرأة رؤوماً، شديد الحرص على بيتها وأولادها، حريصة حتى الوسواس.. ولكن المرض لم يلبث أن عاد، أقوى مما كان. رجع صاحبي الشيخ إلى الدكتور مرهمي وأحضره إلى البيت. ست صدمات أخرى كأنك تضعها على الصوان كل جلسة عشرون ليرة سورية لا تنقص قرشاً واحداً...

كل هذا هيّن، إلى أن كانت جلسة من الجلسات: الدكتور مرهمي قد فرغ من صدماته، وأخذ يضب عدته ويستعد للانصراف، في حين أن السائق الشيخ أخرج ما في محفظته من النقود، وسحب منها عشرين ليرة قدمها إلى الطبيب. وحانت من هذا نظرة إلى ما في يد الرجل الشيخ: كان معه حوالي ثمانين ليرة أخرى.. وإذا عينا الطبيب تغزلان على نحو غريب، على نحو يخيل معه أن شراهة فظيعة توجّ من حدقتيه.. وإذا السائق الشيخ يسمعه يقول:

- هات عشرين ثانية.

- عشرين إيش؟

عشرين ليرة أخرى!

قال السائق متعجباً:

- ليش؟

- عن جلسة الغد!

كان قد خفف السير حتى كاد يقف. وصفعنا بوق باص عاصف عند الباب الشرقي، وتجاوزنا. واستأنف صاحبي حديثه، وقال:

- ما لك عليّ يمين. أحسست كان نصل خنجر غاص في خاصرتي..

وتحامل على نفسه حتى استطاع أن يقول للطبيب الذي كانت يده لا تزال ممدودة:

- هل سبق لك أن دينتني يا حكيم؟

- لا.

- هل قلت لي مرة واحدة: يكفي عشر ليرات هذه المرة؟

- لا.

- إذن لماذا تريد أن أدفع لك عن جلسة الغد؟

ومع انه كان يغلي، يكاد ينفجر، فقد فطن إلى أمر: هذه هي الجلسة الثامنة أو التاسعة في سلسلة الجلسات الجديدة تهدر على صوان. مئة وستون ليرة والمرأة في قيودها.. وعاد يستجوب الطبيب:

- هذه هي الجلسة الثامنة أو التاسعة يا حكيم.

- أي نعم.

- ونحن لا نستفيد شيئاً؟

- لم تعد تنفع الكهرباء.

- لم تعد تنفع الكهرباء! منذ متى توصلت إلى هذا القرار؟

- من عدة جلسات!

وصمت السائق الشيخ لحظة طويلة. لم تتغير قسمات وجهه الوديعة، ولكن ماذا عن القلب الكبير! وعاد يقول لي:

- ما عساي أن أقول له؟ أنا ما رحت إلى عيادته مرة إلا رأيت الناس بعضهم فوق بعض.. ويقدم على سرقة رجل فقير، منتوف، معيل، رزق الطير بالطير، مثلي! كيف تفسر لي هذه المسألة بالله عليك؟

قلت:

- هذا ما هو إنسان، ما هو طبيب. هذا مراب، جلاد!

قال في عذوبة:

- ما أحزنني ليس أخذه عشرين ليرة على الجلسة فوق أجرة السيارة ذهاباً وإياباً، مع أني آخذه وأعيده في سيارتي... ما أحزنني هو أنه أهانني. أي نعم، أهانني!

وذكرت حادثة لي مع هذا الطبيب نفسه: مرضت أمي ذات يوم. ارتفع ضغطها وباتت تتشكى وتئن، فأحسست أن السبل قد سدت في وجهي، مع أن مرضها معتاد. وكان عندي حسين الشامي فسألته أن يدلني على طبيب فنصحني أن آخذها إلى الدكتور مرهمي هذا.. تمنيت طوال الجلسة لو أنه ابتسم! كان عبوسه كأنه يتحداني فلم أدع نكتة إلا رويتها وهو قاتم، جامد.. ثم أن اللافتة على باب عيادته تشير إلى أنه اختصاصي في الأمراض العصبية من جنيف ولندن، فما دخله في المرض الداخلي الذي تشكو أمي منه؟. ولم ينبسط الجو إلا حينما نترت محفظة نقودي. ومزحت أنا مزحتي العاشرة فتلامحت ابتسامة بعيدة، بعيدة، غائبة، باهتة على شفتيه. ووقع في فكري أن طيف الابتسامة ذاك لم يكن لي ولكنه كان لعشر الليرات الجديدة التي بسطت له يدي بها. وشعرت أنا أيضاً أنه أهانني بتلك الابتسامة!

وصلنا إلى البيت. قلت له:

- سأعود معك، تعال نشرب فنجان قهوة.

- شكراً. دهني أنتظرك هنا.

- لا، تعال أرجوك.

حاول أن يحمل لي الطرد فأبيت. وأدخلته أمامي. قدمته لأهلي وقلت لأمي:

- العم عنده بنت في الجامعة.

قالت:

- ما شاء الله كان.

كان يضبّ ساقيه، ويضع راحتيه على ركبتيه مثل تلميذ صغير يجلس أمام آلة تصوير. ولما جاءت أختي بالقهوة أخذ يرتشف رشفات صغيرة، ويقلب عينيه في المكتبة والكتب. وقلت لأمي:

- العم جرت له حادثة مع الدكتور مرهمي، صاحبك!

قالت:

- ما هو صاحبي، أنا ما أعجبني دكتورك هذا أبداً. إنه ليس دكتوري، هذا ليس بدكتور أحد!

وسألت أمي السائق الشيخ:

- شو قصتك معه؟

فقال لها على استحياء وهو يرف بعينيه:

- حكاية بسيطة. تسلينا مع الأستاذ.

وعدنا إلى السيارة. سألني:

- طرد إيش هذا الذي أحضرته؟

- كتب.

- مثل إيش؟

- السيرة لابن هشام.

كان كلما نبهه بوق وراءه مد يده اليسرى وأشار: «امض». والقيت نظرة على عداد السرعة: لم يكن يتجاوز الثلاثين. وقال:

- هل عندك كتب تصوف؟

- قليل. منذ أيام قرأت كتاباً عن التصوف.

- مؤلفه قديم؟

- لا، معاصر.

- عم يتحدث؟

- عن ابن الفارض ومحيي الدين بن العربي.

- أنا عندي مكتبة لا بأس بها ومخطوطان نادران. إذا شئت أعرتك.

- تسرني جداً.

- غداً أحضر لك بضعة كتب. أنا أقف دائماً قدام جامع الدرويشية. إذا لم تجدني انتظرني أرجع بعد قليل.

في المرجة أعطيته خمس ليرات وهممت بالنزول فدفعها في يدي وهو يقول حاسماً:

- لا، هذه عليّ ضيافة هذه المرة.

- مستحيل، أرجوك.

وبعد إلحاح طويل مني أعاد إلي ثلاث ليرات. رفض رفضاً قاطعاً أن يأخذ قرشاً واحداً زيادة...

* * *

يــوه!

كان يحدق فيها منذ بضع دقائق. تركزت نظرته على ذقنها لحظة، ونفث نفثة كثيفة من الدخان خرجت بطيئة، وراحت تتعقد بينه وبينها، وتتخذ أشكالاً متعددة. وقال في نفسه: «يظهر أن للزينة ضلالاً كالوحام عند الحبالى. لماذا فعلت هذه الأفاعيل بنفسك أيتها الإنسانية المسكينة! مستحيل، لا أستطيع..، لا أستطيع.. أن أتحمل امرأة تتزين على هذا الشكل الكرنفالي. لو لم تلبّخ وجهها بكل هذه الألوان المتنافرة لكان لي معها شأن آخر: راتب لا بأس به، وعندها طابق في المزرعة...».

وكانت هي تبدو كأنها غارقة في المصنف المفتوح أمامها، ولكن بؤبؤي عينيها كانا منحرفين ناحية الرجل انحرافاً يكاد لا يخفى. وأما الفتاتان الأخريان فقد تدانى رأساهما، وشغلتا في حديث خفيض كان يثني جبهة هذه حيناً، وجبين تلك حيناً آخر. وقد تطوف ابتسامة على فم أو ضحكة مخنوقة، أو تقلب الشفتين بعثرة اشمئزاز...

وابتعدت سحابة الدخان في اتجاه النافذة – الباب المفضية إلى الشرفة. ونظر الرجل في ساعته، وسأل الفتاة ذات المصنف:

- آنسة سعاد، نحن ننتظر ماذا حتى نبدأ؟

فشالت برأسها قليلاً، وزحفت نظرتها على المسافة القصيرة التي تفصل بينهما من المنضدة الواسعة، واستقرت أمامه وقالت:

- ننتظر الآنسة فتحية والأستاذ عزمي.

وعاد يحدق فيها: «وانفها كبير أيضاً!».

وتضاحكت إحدى الفتاتين، سمراء بنظارتين ذهبيتي الإطار يبدو من خلالهما حولها الخفيف:

- يجب أن نتحمل فتحية...

وغمزت جارتها، ثم لكزت سعاد بمرفقها وأضافت:

- هذه الأيام على الأقل.

قال الرجل بصوت محايد:

- لماذا هذه الأيام؟

قالت الحولاء:

- أما بلغكم النبأ العظيم إذن؟

- أي نبأ؟

- الآنسة فتحية مخطوبة!

- أنت تمزحين! ومن أعمى الـــ ... عفواً، من الخطيب السعيد؟

وانفجرت الفتاتان بضحكة مدوية. وأما سعاد فضحكت على استحياء، وهي لا تنفك تزلق نظرة جانبية إلى الرجل. ونقل نظره من الحولاء إليها، وقال في نفسه: «مسامات وجهها تكاد تظهر. هذا من فعل البودرة حتماً. آه لو أنها لا تتزوق. لو أنهن ينظرن إلى وجوههن بحياد، إذن...».

وقالت الحولاء:

- الخطيب السعيد صاحبك الأستاذ عمر.

- عمر!

قالها في شبه صيحة. عمر إنسان كل مظاهره، أقواله على الأقل، تنصب على قضيته. وإذا كان أقرب إلى البوهيمية، بما يحيي من ليال بيضاء وما يستدين ولا يفي إذا كان الدائن ميسور الحال، فلأن الواقع الجاحد جمّد

قضيته وأقعدها عن الحركة. إنه ذو حلم مستحيل، أشلّ، ولكن هذا لا ينفي أنه حلم كريم. من يعيش مثل هذه الرؤى مرة تظل أفكاره تحمحم وتعلك في سبيل الانطلاق.. فكيف يرضى بان يقطر إلى عربة القمامة هذه؟ فتحية فتاة لزجة، تتحكك بشباب الوزارة كلهم، من عامل المصعد إلى الوزير، وسمعتها مع ذلك فوق الشبهات!

لعله الأمل القديم الذي أمسى موهوناً، مثل شيخ يحتضر، هو الذي يرفع رأسه في قلبها: «ربما!» بعيدة، بعيدة.. ومع ذلك، ها هي ذي... يا رب، أهكذا ممكن!

وقالت صاحبة النظارتين الحولاوين متهكمة:

- ولكن فتحية التي تعرفها اندثرت. ولدت فتحية جديدة تماماً..

ومالت على رفيقتها، وهي فتاة ضخمة الوركين، وديعة، هادئة الأسارير لا ترفع الإيشارب عن رأسها. ونظر إلى الحولاء وفكر: «أنت أيضاً يا ملعونة دبرت رأسك بخطيب!».

وتنهدت ذات الإيشارب:

- سعود!

قالت الحولاء:

- تيسنة. الرجال حتماً أغبى المخلو...

ونظرت إلى الرجل مذعورة، وضربت على فخذ ذات الشملة وأخفت وجهها:

- على قامتي. ولك نبيهة! عفواً أستاذ مراد، أنا...

بينما كانت ذات الإيشارب تصيح:

- ويلي عليك يا دلال!

وقال مراد محاولاً تغيير الحديث:

- آنسة سعاد، هل تتفضلين بقراءة جدول الأعمال؟

وبدأت سعاد في نوع من الخضوع المستمتع:

- «المادة الأولى: النظر في جهاز الوزارة الإداري والتقدم بمقترحات عملية لإصلاحه...».

وابتسم مراد:

- تشجيع الزواج بين الموظفين والموظفات. حل...

ضحك. وأضاف:

- ما دمنا ننتظر ما قولكن في أن نتحدث قليلاً في عمل المرأة؟ هل نشجع مثلاً هذه الاندفاعة تندفعها المرأة إلى العمل خارج البيت؟

قالت سعاد على استحياء:

- المرأة المتزوجة يجب أن تعمل في بيتها فقط.

- ولكن تعقد الحياة المدينية، النفقات.. وأهم من هذه الكرامة التي يهبها العمل.

- ولـــ.. ـــسكن، أليس شغل البيت، تربية الأطفال، عملاً؟ ما قولك يا دلال؟

قالت الحولاء:

- أظن أن كل النساء من هذا الرأي.

وأضافت في خفر متدلع:

- ولكن فوزي يقول لي خذي حريتك.

وسأل مراد:

- فوزي؟

فأوضحت سعاد:

- خطيبها، خطيب دلال.

قال متجاهلاً:

- عفواً، الآنسة دلال مخطوبة؟

وفكر: «يا بخته!».

فأشرعت دلال يدها اليمنى في حركة عفوية تنطوي على ادلال خفي عارم، فبدا خاتم الخطبة. وتنهدت:

- من أربع سنوات. كنت في السنة الثانية في الجامعة.

- لماذا؟ إطالة الخطبة أمر سيء.

فازداد تنهدها:

- الجامعة وما أدراك! كنا ننتظر حصولي على الإجازة.

فقال مراد في نفسه: «هذه هي القصة. إنه يتزوج رتب الحقوق!».

وسأل:

- وما عمله هو؟

- رئيس دائرة في الزراعة.

وابتسمت في مكر وأضافت:

- هذا حديث آخر. أنا أعلم أن لك ولعاً بأحاديث النساء. واليوم روت لي فتحية شيئاً طريفاً.

فرفع رأسه مستفهماً، وتابعت دلال:

- البارحة معلومك جمعة. راح عمر عند فتحية إلى البيت صباحاً وخرجا معاً... أي سيدي بقيا حتى الثانية عشر ليلاً. والحديث الآن لفتحية. قالت: «قلت له «تقلّد فتحية مغناجاً جداً» شف يا عمر، لو أن شاباً بشاربين تغيب عن البيت ست عشرة ساعة لخانقه أهله.. فكيف أنا، الفتاة المحافظة!.. يا الله قديش أهلي لهم ثقة فيك يا عمر!».

فانفجر الضحك من جديد. وقالت نبيهة:

- ويلي عليك يا دلال!

وعادت دلال تقول جادة:

- وقلت لها أنا: «وإيش قال لك الأستاذ عمر؟» قالت: «ضحك حتى قلب على قفاه. وهو اليوم لا يفعل منذ الثامنة صباحاً إلا أن يرويها لرفاقه.. ويقول لهم أنه من خمسة عشر عاماً يفتش عن امرأة رائعة، دمها خفيف مثل هذه، يعني مثلي أنا...».

قالت نبيهة في براءة:

- اليوم عندنا في الديوان حكى عن الاستقرار والكنكنة!

قالت دلال:

- وعندنا أيضاً كان يقول أن الزواج لم يعد كما كان. قال لها أمس: أنا حالي كما تعلمين. لم أقبض رواتبي من ثلاثة أشهر. قال قالت له: أنا لا أسمح لك بأن تستدين قرشاً واحداً بعد اليوم. أنا ما قبلت بك لمالك. أنا لا أريد غير الاستقرار!

وبحلقت عينيها متصنعة البلاهة، وأضافت:

- قال فتاة محافظة، وأهلها شيء عسير جداً! لو أني رجل لحلفت بالطلاق أن أهلها « المــ - و - حا - فــ - ــيــ - ــظــ - ــين» لو رأوها بالشورت ترقص في المطار لغضوا النظر إذا كان الثمن أن تنفق هذه الجوهرة المكنونة.. قال أخذها من الصباح حتى منتصف الليل! أي سيدي خدها حتى الصباح، خدها على طول، خدها ولا ترجعها، الله يبارك لك سبعاً بسبع!

ضحك عام. قال مراد والضحك يقطع كلماته:

- في بلادنا هذه الأعجوبة يتساءل الإنسان: أين الحدود الفاصلة بين المحافظة المتطرفة الصارمة التي تقتل قتلى، والتحرر الخفيف، خفة الريشة!

- لا بد أن أهلها قطعوا الأمل. أخذوا لله حسبهم... ولكن المعجزات يظهر أنها لا تزال بيننا. فتحوا عيناً وغمضوا عيناً وإذا الله تعالى يكافئهم على صبرهم على يأسهم بـــ ... كان المرحوم أبي يردد هذا الحديث كثيراً: «أكثر أهل الجنة من البله!».

وتوقفت قليلاً حتى مرت عاصفة الضحك التي أثيرت من جديد، ثم قالت:

- صحيح يا أولاد، شو السر في قصة الحظ هذه؟ البلد ملآنة بنات مثل أزرار الورد: علم، جمال، ذكاء، مال... ويركض الشبان على مثل هذه العجيبة! ولك دخيلكم تطلعوا لي في وجهها مرة. شيتا حقيقية.. ناطقة...

وانقطع الضحك فجأة كأنه بتر بتراً: فتح الباب ودخلت فتحية ووراءها الأستاذ عزمي. ونظرت متصنعة الدهشة وإذا:

- أوووهوه!

طويلة، متأثّمة، تنطلق من حناجر الفتيان الثلاث، حتى سعاد.. وهتفت دلال:

- ولي عليك يا فتحية!

كانت فتحية تتقدم بخطى متكبرة، وقد أشرعت يدها اليمنى إلى أمام، كأنها تصرخ بالناس على اختلاف مللهم وأجناسهم وميولهم السياسية: «طقوا، موتوا، أنا مخطوبة!» ولكن اليد المندفعة المتدلية، الإصبع البراقة المظفرة، الخطوة الملوكية.. ليست هي التي أثارت «أوووهوه» الفتيات وحدها. كان هناك التسريحة أي نعم التسريحة: كان شعرها قصيراً، قاسياً، مثل شعر الضبع، أشيب في مواضع.. ومع ذلك فقد استصنعته فتحية على فرح ديبا، فجاء مسخرة حقيقة مع هذا الوجه الأسود الأزرق، وفوق هذا العنق النحيف كالمصران! الحلاق إما أن يكون ابن كلب، خبيثاً، صاحب مقالب، وإما أن يكون أعمى قلب، بليداً ينفذ القصات التي في المنشورات المستوردة من باريس على عماها!

واتخذت فتحية مجلسها عن يسار مراد، وسرعان ما أخرجت من محفظتها مرآة صغيرة:

- جورج قال لي وجهك يلبق له فرح ديبا...

فتساءل مراد ضاحكاً:

- جورج؟ علمي أن خطيبك اسمه عمر!

- أنت أيضاً صار عندك خبر؟ جورج هذا حلاقي الخصوصي.

قالت دلال:

- يوه، متى عملت شعرك؟ الصبح ما كان فيك شي!

قالت فتحية وهي لا تكف عن النظر في مرآتها وأدرات رأسها يمنة ويسرة كأنها تتمطق جمالها:

- الآن جئت من عند جورج!

وتأملها مراد:

- يظهر أنك نسيت اللجمة يا آنسة فتحية!

- لا، ما نسيتها، ولكن موعدي مع جورج.. أنا آبونية عنده، ولكنه في الصباح لا يفرغ لحك رأسه...

غاب من وجهها المعني القديم المقيم، الشحاذة: «لله ربع عريس، ريحة عريس!» إن مجرد الخطبة أنساها ليالي الرعب القديمة. ألا يخطر لها أنه.. ربما.. قد.. يعدل! لا، أبداً. ليس في هذا الوجه أثر، طيف، غمامة رقيقة بعيدة من شك، كأنها عمرها كلها مخطوبة، مرغوبة!

وقال مراد:

- طيب، يا أخوان أنتم تعلمون أن الأمر الوزاري رقم...

قالت دلال مقاطعة:

- عفواً، أستاذ مراد. لن أقاطعك مرة أخرى، ولكن ألا نحتفل بخطبة فتحية، فتحيتنا؟..

ورنت الجرس. قالت للآذن الذي وقف بالباب:

- ستة عصير على حساب الآنسة فتحية!

قالت فتحية محتجة، مغناجاً:

- لا والله، على حسابكن. نحن، أنا وعمر، عندنا نفقات كثيرة.. هذا عوضاً عن مساعدتكن لنا، يوه!

قال مراد مخاطباً الآذن الذي بدأ يبتسم:

- رح هات ستة عصير.

وكررت دلال شيطانة:

- على حساب فتحية.

وغنجت فتحية:

- أنا وعمر، أنا وعمر...

وقال مراد:

- قل له يقيدها عليّ

قال فتحية وهي تغمز الأستاذ عزمي:

- أنا بدي قهوة.

واستفهمت دلال:

- ليش ولك فتحية؟

- الأستاذ عزمي يعرف..

فهللت دلال. وقالت تخاطب الآذن:

- فهمت، فهمت، رح هات ستة قهوة.

وقال مراد بصوت يائس:

- ألا ننصرف إلى العمل قليلاً؟

وقالت نبيهة في شبه همس:

- لماذا طلبت لي قهوة؟ أنا لا أشرب قهوة، أنت تعرفين!

قالت دلال:

- ألا تعرفين أن الأستاذ عزمي يبصّر في القهوة؟

- صحيح!

ورفّ الأستاذ عزمي بعينيه، وأخذ رأسه ينوس:

- والله المسألة...

كان صوته رفيعاً بعض الشيء، لا يتناسب مع قامته المديدة. وكتفيه العريضتين، وأناقته القروية البادية...

وقالت دلال:

- أنا أذكر حتى الآن يوم فتحت لي فنجاني وقلت لي: انتظري بشارة: شخص آت على طريق طويل...

وأضافت خجلة:

- يومها جاء.

قال عزمي متخابثاً:

- الخطيب، أليس كذلك!

- أووم!

وأقبل ولد صغير يحمل القهوة ويحدق في الوجوه وهو لا يكف عن الابتسام. وقال عزمي لمراد:

- أي كيف صحتكم مراد بك؟

- والله كما ترى!

- سلامتك. ولكن، يقولون أن في نية الحكومة زيادة الرواتب. معلوكم رواتب الموظفين ما زادت من عام ١٩٥٤ مع أن الأسعار زادت ربما ثلاثة أضعاف.. ولكن أنا يا مولاي أعتقد أن المسألة كلها إشاعات، لأن الحكومة، وأنتم سيد العارفين، لا تعطي إلا لكبار الموظفين..

كانت فتحية قد شربت قهوتها وقلبت الفنجان، وكذلك فعلت بقية الفتيات وقالت فتحية في غنج شديد، وصوت رفيع جداً، مائع يكاد يشط، وباللهجة المصرية أيضاً:

- بالله عليك يا عزمي بيه تعمل معروف تبصّر لي في فنجاني شوية.

قال مراد باسماً:

- أهل مصر يقولون: في فنجالي.

- دي أنا حققت الوحدة مضبوط. أنا ولية سورية مصرية..

- أي الله يعطيك العافية.

وفكر: «أنا وحدة!»

وقال عزمي مهذباً دائماً:

- تكرمي، تكرمي يا فتحية خانم، على الرأس ثم العين يا ستي (يقلب الفنجان ويحدق في داخله) عجبيبة يا فتحية خانم! فيه شيء مشترك بين طبع حضرتك وطبعي أنا (فتحية تقهقه قهقة لا يدري أحد سببها) ولكن حظك كويس يا ست الستات، كويس جداً. ستدخلين بيتاً جديداً (فتحية تضحك ضحكاً مديداً منتصراً)...

وقالت دلال:

- كويس وبس!

وقالت فتحية في خجل:

- أقسم بالله العظيم، وحياة رأس بابا أنا ما سعيت لهذه «الخطوبة».. هدي خامس، سادس مرت أنخطب فيها (نظرات ذهول، همهمات احتجاج استنكار من الآنسات. دلال تهمس بما يشبه الجهر: «خطبك عزرائيل!» ولكن فتحية لا تحس شيئاً غير مألوف!) ولكني كنت انتظر، انتظر mon grand amour!

وأضافت وهي تغمز، وتبدي إيماءة مسرحية:

- ولم يطل انتظاري: يا مه القمر ع الباب!

قال الأستاذ عزمي وهو يرفّ بأهدابه رفّات متلاحقة:

- سيدخل قريباً. لن يطول وقوفه على الباب. يا بخته.. الفنجان واضح مثل الشمس!

وعادت فتحية تقول باللهجة المصرية في غنج وتدلّع لم يتركا زيادة امستزيد:

- قريباً جداً، جداً جداً يا سيادة الأستاذ. أصل الحكاية أنـّ «ـــه» مستعجل، مستعجل قوي!..

وتنهدت دلال متخلية عن مرحها لأول مرة، وقالت في همس مسموع كأنها تتحدث إلى نفسها:

- وأنا مخطوبة منذ سنوات!

وقال نبيهة آلياً:

- سعود!

واحتقن وجه سعاد، وأطرقت تحدق في الأوراق أمامها.

وقال عزمي وهو لا يزال يحدق في الفنجان، بادي الاهتمام، بسام الأسارير:

- وتلدين ثلاثة أطفال!

وشهقت فتحية:

- أعوذ بالله. أنا والعريس لا نحب الأطفال أبداً. يقول لي الحبيب: الأولاد يلهوننا عن الاهتمام (غمزة مسرحية) بعضنا ببعض! عن الحب! وقال لي أيضاً أن شهر العسل يجب أن يستمر على الأقل ثلاث سنوات...

وقالت نبيهة:

- وزنك نقص يا فتحية كثيراً. أنت تنحفين!

فاكتسى وجه فتحية توالها مصطنعاً، ووضعت يدها المعروقة السو – زرقاء على صدرها الأعجف:

- إنه الحب يا بنات، الحب! أربع سنوات في كلية الآداب. فلسفة، علم اجتماع، حدوس فلسفية، ما نحّفتني مثل ما نحفني شهر غرام.. (زفرة) تصوروا ما أظلم الوزارة: سيرسلونه إلى القامشلي شهراً كاملاً..

قال دلال متهكمة:

- من هو؟

فارتفعت صيحة استنكار مشتركة:

- من هو!

وقال عزمي:

- سلامة معرفتك، دلال خانم. فيه غير قمر الزمان، عمر بك

واستمرت فتحية تقول حالمة:

- فكري أدخل على الوزير وأركع أمامه: لا تفرق بين قلبين جمع بينهما العشق يا سيادة الوزير!

قالت دلال:

- يا مسكينة!

- أعوذ بالله، ليش مسكينة، أرتاح قليلاً...

- ويلي عليك. هذا ما تسمينه محبة؟ أيام الخطبة وجمالها!

- يوه، أردت ان أقول (في شبه غناء) حبه لي يزداد.. بالبعاد (غمزة) يا أسياد.. ولا سيما أن «الهمة» قريبة جداً (بالمصرية) جداً، جداً. (تفكر) ظني أني لن أتزوج قبل أن أصبح شاعرة. أصلاً عمر قال لي أن عندي كل المقومات التي تجعل مني شاعرة عظيمة. اسمعوا لي شوية. أليس هذا شعراً:

الحب زاد

بالبعاد

ارحموني

يا أسياد!

وصفقت دلال وسايرها عزمي. وقالت دلال:

- العين تطرقك إن شا الله. والله شاعرة!

وقالت فتحية:

- أي نعم مستعجل (زفرة). يظهر أني ساسكن مع أهله (في ازدراء) مع الأم والأب والأخت. الأخت لا بأس elle est trés maderne يعني أننا نتفاهم حتماً. وستكون هي وسيلتي إلى التفاهم مع الجيل الماضي، ها ها، ها!

فترة صمت. ثم قالت فتحية:

- أتدرون كيف حملت به أمه؟

قالت دلال:

- من هو؟ قطكم؟

فغنجت فتحية:

- الحبيب!

- كيف؟ من بلعومها؟

- لو تدرون.. كانت حاملاً به وصارت تتخانق مع الأب: إذا جاء غلاماً ذكراً فماذا نسميه؟ هل تعطيه اسم جده أبي أبيه أو جده أبي أمه! وجاء يوم الوضع وإذا هي تضع اثنين، الواحد أبيض أشقر، بعينين زرقاوين، والثاني أسود، أسود، يعني، يسلم لي، أسمر مقمّر، هذا هو حبيب القلب... ومات الأبيض الأشقر يا حسرة، وسلم الأسود، يعني الأسمر، يسلم لي، يعني زوجي..

وفتح الباب ودخل الآذن:

- أستاذ مراد، سيادة الأمين العام بطلبك أنت والأستاذ عزمي.

لما أغلقا الباب وراءهما، ارتفعت الأصوات، ضج الضحك واشتبك. البنات صرن يحكين معاً، في وقت واحد. سعاد المتحفظة منذ قليل كان صوتها يباري صوت دلال وضحكها. وقالت دلال وهي تحاول الهيمنة على الموجة:

- الدست ناقص باذنجانه يا بنات.

وأمسكت سماعة الهاتف:

- ألو، هند! بالله عليك أعطيني رجاء... رجاء، تعالي، تعالي حالاً. الجلسة حافلة.

وعاد الصخب. قالت دلال لفتحية:

- ولك فتحية، وقفي: رحنا بعيد وجينا قريب، أين وصلت أنت وعمر؟

فشهقت فتحية شهقة طويلة أعقبها ضحك هستري ممتد...

قالت دلال:

- يخرب بيتك، اسكتي، الآن يظنون أننا نحكي قصة رذيلة. قولي، بصوت واطئ! على الأقل قولي لنا كيف عملــ .. كيف تمت الخطبة!

قالت سعاد:

- لا، السؤال الأول!

قالت فتحية:

- خطبني يا بنات كانت مفاجأة. دعاني أحمد رفيقه في الغرفة، أنتنّ تعرفنه. دمه خفيف خالص.. وكان زوجي هناك، يعني عمورة. وسألني أحمد عن الزواج وما الزواج.. وأخيراً قال: «هل كانت لك علاقات غرامية؟» فشهقت: «أعوذ بالله!» قال لي: «فيه حواليّ عريس، ما قولك؟» فأطرقت إلى الأرض خجلة. استعنت بالله أحمد هذا شو شيطان. يحب اللت والعجن. والحّ «نريد لك حياة الاستقرار» قلت: «أنا حياتي مستقرة، ولا أفكر إلا في تأمين كبرة محترمة لأمي وأبي...» فيما بعد قال لي عمر أني نزلت في قلبه من يومها، ولا سيما بعد جوابي هذا!

قالت سعاد في صوت حاقد:

- وانتهيت آخر الأمر إلى تفضيل الاستقرار الآخر، الأدهن!

- وما عساني أن أفعل، ألحوا عليّ!

قالت دلال:

- أي قولي لنا الآن أين وصلت أنت وإياه؟

- يوه، لا.. عمر جدي خالص، ورسمي! أهلي أحبوه كثيراً. تصوروا، لما جاء أهله من بلدهم لم يشأ أن يعلمني إلا عن طريق هيام!

وهمست دلال:

- عصابة لصوص هاتان الاثنتان. هدي هيام أم دقن ما هي قليلة أبداً.

وقالت بصوت عال:

- الأفضل أن تتبادلا القبل عن طريق هيام أيضاً. هذا أكثر جدية ورسمية! هذا ينسجم مع تعاليم الوزارة، ربما! بالله أحكي لنا إلى أين وصات أنت وهو؟

- يوه، شو فضولية! في السينما، مد يده..

- إلى رأسه؟

- إلى ركبتي.

- فوق شوية؟

- لا والله.

- وإيش قال لك؟

- قال لي: يا حبيبتي على هاللحمات، مثل صابون لوكس!

وقطع الحوار والضحك جرس الهاتف. أخذت دلال السماعة:

- نعم، لا، الأستاذ عمر؟ أهلاً وسهلاً (تنظر إلى فتحية) أي نعم. طيب، مع السلامة (تضع السماعة) قومي يا مو، جوزك بده.. ياك!

ونهضت فتحية على عجل. وما أن بلغت الباب حتى كانت رجاء داخلة قالت هذه:

- إلى أين فتحية خانم؟

فأشارت فتحية إشارة هائمة:

- إلى الحبيب!

ودخلت رجاء، وهي ممشوقة القامة بارزة العجيزة تنشد في تنورة ضيقة جداً، شديدة الأناقة، عيناها محاطتان بظل قاتم بعض الشيء. بعض الغضون تحت أذنيها تفضح سنها التي تجاوزت الخامسة والثلاثين حتماً:

- صار لها حبيب قال. يبعت لها الحمى إن شاء الله. يعمي قلبه أن شا الله الجحش ابن الكلب ال علق فيها، تفوه! (ضحك) العمى ال ضرب الرجال شو سكينتهم مطابخية! (فجأة) سمعتن أفظع خبر في الدنيا يا بنات؟

قالت دلال:

- خير إن شا الله، نقّزتينا؟

- أي يا ستاتي، هيام، أم دقن..

- ما لها؟

- انخطبت!

انطلقت شهقة فظيعة، ولغلغة:

- لا.

مستحيل..

- أي جحش بذنـــ...

- هذه مزحة!

- لا وحياة بابا!

- يخرب بيتكم يا رجال...

- ما شاف ذقنها محلوقة بالشفرة؟

- والسيقان المطعمة على جذع زيتون!

- والريحة؟

وقالت رجاء لما هدأت العاصفة:

- من شان خاطركن خطبها واحد مثل الفلّة: شب، طويل، أشقر، متزوج وعنده ثلاثة أولاد.. مرته هي أيضاً من الجميلات. بدأ الآن معاملة طلاقها. قالوا إنه دارس في ألمانيا. تفوه على سويسرا وألمانيا وفرنسا التي تخرّج أمة مثل هذا. يبعت لها الحمى: ولك قولوا لي كيف دخلت فيه مثل السوس، هي ودبّاكاتها، الفيلة، أم دقن، المدحلة، خربت له بيته! هيام أم ذقن تتزوج وأنا قاعدة! يلعن أبو حظي شو أسود، قطران. أي! ما عليه شي. عزائي يا بنات أني زوجتكن. بدي أفهم حظي مخبأ في أي دبر!

وقالت سعاد في تنهيدة طويلة:

- زوجتينا؟

- أنت شغلتك منتهية.

أنا!

- أنت تعرفين من أعني!

وقالت نبيهة:

- أنا في عمري ما أحد خطبني.

فلم تأبه لها رجاء. قالت مخاطبة دلال:

- ولك دلال، أنت أيضاً يبعت لك الحمى.

- ليش، ولي عليك!

يوه، هذا خطيبك الحمار عنده مئة رفيق وما قدر يدبر لي نصنوص عريس! يخرب بيتك أنت وهو... الحظ أين الأستاذ عزمي؟

نزل عند الأمين العام، الآن يرجع، ليش؟

بدى يفتح لي في الفنجان حتى أشوف آخرتها مع حظ القطران هذا، حتى ينكش لي إياه، في أي جحر متخبي!

* * *

مواطن عالمي

«هل هذا معقول؟ أنت سيء الظن بالناس، ولا شفاء لك من علتك هذه لعله في نزهة هو وامرأته!».

وتضاحك الخبيث الذي فيّ: «أي سيدي معقول. ألا تذكر تلك الليلة في مطعم الشرق؟ تذكر الصورة التي لقطها له مصور الحفلة: كان صاحبك يمزق الفروج بيديه الاثنتين، وقد اندفع رأسه إلى الأمام وأسفل، وعزلت عيناه وانكمشت شفتاه في تهليل للحم الغض بدا كأنه تكشيرة شرهة، تكشيرة ضبع! ولو أن الصورة كانت ناطقة، إذن لسمعت له هريراً...».

قلت: «بعد هذه المدة كلها! ثم أنه تزوج. والزواج مكلف!».

قلتها للآخر الذي فيّ على نحو رخو، في يقين كسيح. ولكن خبيثي لم يدعني:

«أذكر حفلة السفارة. النفاق: أنا اشتراكي! والحركات: هذه السفارة سفارتنا، شيتتل. هات ڤودكا يا ابني، أنت وهو!».

ألزمني الصمت، الملعون. غلبني. تذكرت ليلة مطعم الشرق وحفلة السفارة. إذن فهو ذاهب الآن بعد أن طبّع امرأته، بعد أن روضها، يبحث عن عشاء لهما في هذا الشهر الفضيل، شهر المعرض!

ولحقتهما من بعيد لبعيد، وقد خفت اعتراضي، أو اعتراض أحديَّ.

تختلف النظرة إلى النهد. يراه نزار القباني ديوان شعر نغش، والحلاب مصدر مادة يضاف إليها ماء الفيجة فتنتصب بناية، وطفلي الرضيع مطعماً فخماً.. كذلك تختلف نظرة الناس إلى معرض دمشق الدولي. فهو عند البنت

غير المتزوجة مكتب زواج رسم الدخول إليه، أربعة أيام في الأسبوع، نصف ليرة سورية.

يا بلاش! والشاب الطالع على الدنيا جديداً يجده مكاناً للصيد والقنص. قد لا يصطاد طوال شهر المعرض إلا الحسرات، ولمعة ركبة بضة هنا وتموّج تنورة مغناج ههنا.

والمرابي ما عسى أن يجد فيكن أنت الذي أوجزت الكون، أكثر من ضحية يسلخ جلدها!

عند مدخل المعرض من الشرق، قرب ثانوية الهاشمي، أبرز هو وامرأته بطاقتين. لم يقطع تذكرة من كوة التذاكر بليرة عنه وعن زوجته. وأما أنا فقطعت. كنت ألحقهما في عناد. بلغا جناح ألمانيا الغربية وتوقفا. إيه! هذا دولي، مواطن عالمي! ظني إنه يساري ولا يقبل ضيافة إلا من أصدقائنا، الدول الاشتراكية!

وانتزعني صوت رن في أذني:

- ولك أبو الحصين، هذا أنت؟ متى رجعت؟

كان صاحب الصوت، مروان، هو الذي يلقبني بأبي الحصين وتعانقنا. قال:

- شوبك؟ شايف فكرك مشغول!

كانت عيناي لا تكادان تفارقان مدخل الجناح الألماني. لقد دخلا. قلت:

- شفت زكي وامرأته؟

- أنت تفتش عنه؟

- لا، أتجسس عليه!

- كل هذه السنوات في فرنسا وما تغيرت!

- ما تغير فيَّ شيء. قل ازدادت علتي.

ضحك. ضحكة مروان كركرة، مثل قازوزة يهرق ما فيها من خمر. قال:

- يعني إذا كان الشغلة فيها موت أقدمت عليها.

- أي نعم.

- المهم أن تعرف. طيب ايش شاغلك في زكي الليلة؟

- خطر لي خاطر وفكري أن أتحقق منه. تعال معي.

إلى أين؟

- إلى الجناح الألماني.

- الدخول ممنوع الليلة. الليلة فيه حفلة عشاء لمناسبة اشتراك ألمانيا الغربية في المعرض.

- إذن أنا حزرت. معك بطاقة؟

- ليش؟ جوعان؟

- جوعان فضول. منذ أربع سنوات وأنا غائب عن البلد. الآن، عند السبع بحرات، لمحت صاحبك زكي يجر امرأته وراءه. قلت لك في نفسي: الدنيا معرض، وكل ليلة فيه حفلة افتتاح جناح من الأجنحة، يعني فيه عشاء مجاني فاخر. لا يحتمل أن يكونا، في هذه اللحظة، ذاهبين لملء بطنيهما؟ ولكني لمت نفسي: لعلي ظلمته!

كان مروان يتكرر فتهرق خمرة لطيفة الوهج. ويتمايل، يقوم ويقعد، وكلما انتصب حملق في وجهي في دهشة كأني حيوان طريف ولكن أية حماسة طفلية ترفضّ من كل قسيمة من قسمات وجهه. عيناه كانتا نديتين أيضاً. قال:

- لمت نفسك ولكنك ما قدرت على الامتناع عن اللحاق به، عن التكعيب وراءه.. لا والله العظيم ما تغير فيك شي.

- النكتة، مروان، أني قبل سفري إلى فرنسا كمنت له واستطعت أن التقط لك محاورة جرت بينه وبين الملحق الثقافي الروسي. كنت أدير لهما ظهري وأتظاهر باني مصغ إلى حديث أحد الأصدقاء. زكي يقول للروسي أن أطفال القرى أنفسهم يقرؤون شولوخوف ويهيمون به حباً. كل هذا وفمه ملآن، لم يكف لحظة واحدة عن الطحن والهرس والطرطقة... يقولون يجب أن نعيش قبل أن نتفلسف. وأما هو فشعاره: يجب أن نهرس، أن نطحن قبل أن نتحدث عن شولوخوف!

- أي، العمى!

- ولكن يجب أن أعترف بهذه الفضيلة: هو لا يفتح فمه أثناء المضغ. ولد متمدن تماماً، يبيض الوجه أمام الأجانب.

- هي، هي. أي.. وبعد؟

- مرة أخرى تعقبته حتى مدخل السفارة اليوغوسلافية. واحتلت حتى دخلت. حفلة عشاء أيضاً. حديث آخر بين زكي وواحد يوغسلافي خلاصته أن الاتحاد السوفييتي ملوم كل اللوم على موقفه من تيتو. الاشتراكية تبنى من غير موسكو... والفم محشو أيضاً. المطبخ اليوغسلافي أمـــ..ممه! ظريف. يا عيني، مطبخ شرقي غربي آمنت بالله!

وصرخ مروان:

- وقف. يخرب بيتك يا أبو الحصين! هذه تصنيف. هذه من نظمك وتلحينك. تركيبة من عندك، أراهن!

- أنا الذي أراهن: أتصور الآن مع أحد الألمان الغربيين. لا بد أنه ينصب على ألمانيا الشرقية، ينعي عليها إقامة جدار بين شطري برلين: ما معهم حق أبداً، هؤلاء القساة يفصلون الأخ عن أخيه. أنا لا أقبل! القرويات في رأس البطة، في دريكيش، في شلخ، في فيق زعلانات جداً من ألمانيا الشرقية، كلي يا مرة كلي، الظهر ما تغدينا!

وحانت من مروان التفاتة خاطفة نحو الجناح الألماني. كان المدعوون لا يزالون يفدون. وقطع ضحكته وهتف بي:

- تعال، الحقني.

وجرني من كمي كيفما اتفق وراءه وهو يسلق الكلام سلقاً:

تعال.. الواقف على الباب صاحبي!

لم تجتذبني لا الآلات الدقيقة في جاماتها الباهرة، ولا مظاهر الرفاه والوثارة المادية، أو الأضواء الملونة أخفى من السر، لا ولا عليه القوم.. شغلني زكي وامرأته وحدهما. شملت مذ أنا بالوصيد، الجناح كله بنظرة عريضة خاطفة سرعان ما نبشت بها موقعه. أو ربما أكون قد سددت نظرتي إلى المائدة مباشرة مدفوعاً بفكرتي المسبقة. مهما يكن من أمر فلم يكذبني ظني. كان هناك غزل العينين، التكشيرة، التهليل الضبعي للحم.. على أنواعه!

وانزلقت من يد مروان وأنا أهتف جذلان:

- إنه هناك.

- من هو؟

هو!

كان خيالي قد شط. لم يكن زكي يكلم أحداً. ظاهر أنه كان قد ملأ صحنه قبل هذه المرة، وها هو ذا يدحم هذا، يدعس على رجل هذا، يعلو بصحنه شعر تلك، المهندس عند الحلاق، ينحني مثل غواص شاطر تحت إبط هنا، بين حبيبين ههنا... وفي هذه الأثناء لا ينفك يطفح، يتعرم، والحنك يهرس يطحن على الماضي. رأيته يجرف النقانق أمام نكاشات الأسنان المشكوكة جرفاً...

مرة واحدة تكلم، انتهر زوجته:

خدي من هناك، من صحن السمك... وأما امرأته فكانت تكدح هي أيضاً ولكن في إيماءات من تعفف مصطنع، ولا تتوقف إلا لتعض على طريقة ممثلات السينما، برؤوس أسنانها، وشفتاها شائلتان. أنا متأكد من أنه يراها معدة، وتراه زوجاً بالحيلة.

وامتلأ الصحنان حتى طفحا. وانحسر الغازيان بغنائهما الحربية، وانتحيا ركناً وابتدأ النهش، الطحن، الهرير. والأعين تغزل، يا الله، يا له من غزل!

* * *

كنت قد ابتعدت قليلاً. بغتة انحنى زكي على امرأته وخداه كرتان، وأسرَّ لها شيئاً وهو يسلمها صحنه واتجه إلى المائدة الشاسعة من جديد. وحمي وطيس جديد: دحم، شقلبة، قطعة نقانق تنط كأن نابضاً قذف بها إلى الفم المفتوح.. تفاحة ململمة تغوص في الجيب... وما هي إلا انقضاضة حتى عاد ومعه بضع قطع من الكاتو كان يلفها في أوراق رقيقة مما يلف به التفاح اللبناني، وأخذ حقيبة المرأة ودس الكاتو فيها. حقائب النسوان هذه السنة مثل حقائب السفر. هذا هو الزي!

كنت قد شغلت عن مروان وإذا هو يهتف بي:

إيش هدا، العمى إيش هدا؟

وهو يلكزني بكوعه في خاصرتي.

ألأنا أعلم! قلت:

لعلها لترويقة الغد!

* * *

صديقتاي المجهولتان

قد يكون اهتمامي بهما إنما يعود إلى عشر، إلى خمس عشرة سنة. كانتا متشابهتين في الطول: أميل إلى القصر، في المشية: الجذع مندفع إلى الأمام، في القسمات: الجبهة منخفضة قليلاً والفم منطبق بعضه على بعض، مندفع إلى أمام مثل فصي محارة مغلقة. الأنف ضخم.

كل يوم، في الساعة الثامنة وأنا ذاهب إلى العمل، وفي الثانية، عند انصرافي، أراهما في مكان ما من الرصيف الأيمن بين عين الكرش والسادات. لم أهتم بنوع العمل الذي تزاولان، ولكن المواقيت جعلتني أوقن أنهما موظفتان في إحدى الدوائر الحكومية.

في الطور الأول، ولعله دام بضعة أشهر، كانتا تضعان المنديل، تسدلانه حتى يغطي الوجه جميعه، وتنشدان إحداهما إلى الأخرى مثل الجراء في الشتاء، كأنهما تخشيان – وخروج المرأة إلى الوظائف العامة كان في بدايته – عالم الرجال الذي تدخلانه في الأوليات. تدخلانه! لماذا؟ لحاجة، لوحشة؟

وجاء يوم وإذا هما ترفعان المنديل وتستبدلان به إيشارباً منضباً تماماً على الشعر – غطاء شرعي – مع تنورة عادية سابغة وبلوز طويل الأكمام، وكعب نصف عال. كان ظاهراً أن شعرهما طويل، وقد عقصتاه إلى أعلى. أيام المنديل لم أكن قادراً على تفحص تعابير العينين والوجه. وأما الآن فإن الإيشارب حادث مهم. يظهر ذلك من هذه النظرات المخطوفة، المتهيبة: هل يستنكر أحد؟ نظرات لا تزال متكسرة، مسبلة أمام النور الغريب المفاجئ.

ومرت أشهر طويلة. وبدأت دمشق النسوة تتحرر. كنت أقرأ، كل لقاء، إشارة جديدة على هذين الوجهين الصديقين. مرة وجدت: «ما العمل؟

الإنسان يجب أن يساير وقته!» مرة ثانية كلمة واحدة فقط: «لعل!» لم تلبث أم محتها عبارة من كلمتين: «نحن تعبتان!»... التعب؟ أجل! إنه يتصبب في بعض الأحيان من كل مكان، في الوجه، في الخطوة، في الثوب، وإذا الإيشارب مهمل، وإذا الجوارب فيها ثنيات وشعث، وإذا النظرة تعود تكنس الرصيف، تُدفع ثقيلة مثل عربة يد موسوقة بالصوان...

ولكن ما هي إلا فترة حتى لمحت، ذات صباح، صديقتي المجهولتين، يا عجبي! لقد رمتا الإيشارب وظهرتا بأربع ضفائر على الزي القديم! تعبير الوجه هو أيضاً اختلف. صارت النظرة ترتفع عن أرض الرصيف قليلاً، وتنزلق فتمسح أقدام أشجار الزنزلخت والكينا. وقد تذهب أبعد من ذلك: تتخطف إلى وجه شاب عابر، غافل حتى عن الفتوة التي ترعد في عروقه. السنديانة الصبية!..

نعمت مع صديقتي أسبوعاً، أسبوعين. قل شهراً. كنت أقرأ على الوجهين كلمات لطيفة، بسامة. ربما مرت غيمة ولكن الصحو هو الغلاب. ولكن، لا إخال أن هذا قد استمر أكثر من شهر تسرب إلى الشد، إلى التوتر ضعف بدا أخفى من أن تلتقطه العين الخلية. كان يحتاج إلى عين الصديق. ثم أضحى ظاهراً. وبعد يومين بات صارخاً. عادت النظرة مكسورة، تشربت اليأس مثل الإسفنج، ورجعت تكنس الرصيف لا تبلغ حتى الأحواض الحديدية حول أشجار العدوتين. مرة أخرى دب الوناء حتى إلى الهندام.. خمود يشبه خمود الأرض والطبيعة إذ يكفنها الثلج أشهر الشتاء.

إلى أن طلع صباح...

في الشعلان، في الصالحية، عند البرلمان فتح شخصان، ثلاثة أشخاص خبثاء، من أولئك الذين يتشممون رائحة العملة على بعد سحيق، من أين هي موشكة أن تهب، قوة هبوبها... فتحوا محلات علق على إحداها: «حلاقة للسيدات. آخر زي» وأضافت لافتة في محل آخر هذا التهويل المختلق من

ألفه إلى يائه: «اختصاصي من باريس»! وأما الثالث فقد عمد إلى البرهان المنظور: صور في أعلى اللافتة امرأة صبية، أجنبية حتماً، قد قصت شعرها آلا غارسون.. هذه المحلات تسدل على واجهاتها ستائر حريرية مهفهفة، لطيفة الألوان، تخفي ما وراءها. تدرجه بالسر والغيب.

وأفاجأ ذات صباح أن ضفائر صديقتي قد قصت آلا غارسون تماماً مثل الصورة، صورة لافتة المحل الذي عند البرلمان.

اعتباراً من هذا اليوم تعقدت العلاقات بينهما وبيني. لم أعد أقنع بالنظرة العابرة من ماش إلى ماشيتين، أو باللمحة الخاطفة وأنا في الباص. صرت أنزل، أكمن، أنتظر.. انصرف اهتمامي إلى أكثر من الملامح والمشية وقصة الشعر. صرت أتفحص الأصابع. في هذا الطور الذي دشنته قصة آلا غارسون المفاجئة – الطور الآلاغارسوني! – كانت الأظافر لا زيادة لمستزيد: مخالب حقيقية لا تنقصها حتى الحمرة الدموية! يا للنسر – الدجاجة! وأية دجاجة، منتوفة، ضربها ديك محتوم متسلط على قذالها يوماً كاملاً، عمراً كاملاً!

كان قلبي في هذا الطور مفعماً بالعطف والإشفاق مثل أم طفلها مريض.. ذلك أن الحياة قد تعقدت وأصبح راتب الرجل الموظف لا يكفي. فإذا أراد أن يعيش يومين نظيفين، أن لا يشحذ، أن لا يخاف غده خوفاً يشل، فيجب عليه أن يبحث عن واحدة... وهكذا كنت أحدق في البنصر، اليمنى على الأقل! لا شيء، ولا نتفة محبس متواضع صغير... ما عسى أن ينتظر الراغبون في الستر، في غد له تقاعد. صحيح أن القمحتين هنا مسوستان، ولكن كيالاً أعمى يمشي معنا، العمى! ثم أن الجمال في الزواج ليس ضروري.. أي أخرس دخيلك، إذن ما هو الضروري المار المضبوب؟

ولكن الأصابع لم تشغلني عن التعابير: شهراً كاملاً ظلت المحارتان تندفعان إلى الأمام في أمل عريض. الأعين أقدر على انتزاع نفسها من إسمنت الرصيف وأقدام الأشجار، أقدر على المواجهة المذلة.. ولكن، ينقضي الشهر، ويهطل ثلج كالرماد يطمر، شيئاً فشيئاً، كل اختلاجة يختلجها غصن!

وأخيراً طلق شاه إيران ملكة الملوك ثريا، وسجل أروع انتصارته بزواجه من فرح ديبا. وذاع خبر انتصاره الممجد في طول عالمنا المسكين وعرضه، ولا سيما عالم تصفيف الشعر. كدت تستيقظ ذات صباح فترى حتى شبان الجامعات قد ابتل شعرهم بالبيرة وعقص فرح ديبا، يا لطيف اللطف! وكانت اللافتات النغشة المغرية – ذات الاختصاصيين من باريس والقصات الجديدة – قد انتشرت في شوارع دمشق حتى الجانبية والقديمة المهترئة منها انتشار النار في رؤوس النسوة. وكثرت الأسماء والصور تضيئها أنوار النيون الملونة التي تنطفئ وتشتعل طوال الليل: «أناقة»، «هي»، «فتنة»، «سحر»، «صالون الهام»! وكلها تعلن عن قصات آتية من باريس طازجة، خاصة، وكلها تنفع أكثر من محلات للحلاقة وحدها... إنك تراها أحياناً مكاتب انتظار، وفي أحيان أخرى، لا يقنع صاحب المحل بالأجرة التي تدفع باليد وإنما تبرق عيناه إلى نوع آخر من الربح، نوع أشد إثارة وحرارة!

ههنا إما أن تدفع على الحلاقة الواحدة، وإما أن تشترك شهرياً. أبواب سيما لا تنطلي إلا على أنصاف العقول، على النسوان. هكذا يقول حلاقو الرجال في الأحياء غير الأنيقة وهم يصعدون الزفرات. وأما أصحاب الرصد، أولئك الذين يلاحقون، في مكاتب الحكومة ذات الهواء المحبوس، أخبار احتقان الجيوب بالمال في العالم العريض المتحرك خارجاً، فإنهم يتنهدون في حرقة ويقولون: «بنى بناية ابن الكلب هذا»! ويشيرون إلى محل مرخية ستائره! الاشتراك الشهري عشرون ليرة. أربع مرات ميز – آن – بلي، وايش الميز آن بلي هذا؟ دمعة بيرة وضربتا مشط وفق جورنال فرنسي وكان الله يحب عباده البله!

وأفيق ذلك الصباح خالي الذهن، وأركب الباص، وما أن أصل إلى الأزبكية حتى تكون فرح ديبا قد وصلت إلينا نحن الاثنتين أيضاً... هي وآخر زي في الأحذية النسائية: بوز رفيع وكعب ١٢!

كم مضى على اللمحة الأولى التي لمحتهما بها أول مرة؟ عشر سنوات؟ خمس عشرة؟ إن خطوات الزمن لا تخفى. تحفر، تغضن، تترك وناء هنا وذبولاً هناك.. ومع ذلك فقد كان الأمل – الذي تتغير ملامحه هو أيضاً مع الأيام – يعارك ذلك اليوم كثير الرغبة في أن يبرهن على أنه لا يقهر. ها هو ذا في الأعين، في فرح ديبا هذه، المنفوشة مثل العمامة الأولوية فوق الرأس الصغير والجبهة المنخفضة والفم المنطبق المضبوب، المندفع إلى أمام، محارة منطبقة في أحكام جذلان هذه المرة! جذلان؟ لعل الحكاية أشبه ببكرة مسحورة يكر حبلها إلى الأبد! لعلك لو أمسكت تلك الساعة الصباحية من يدها وركضت بها قرناً من الزمان، عشرين قرناً، لرأيت صديقتي، في مكان ما على رصيف يعلو هذا الرصيف ستة أمتار، لا تزالان تندفعان إلى الأمام بأعين جذلى، يحترق فيها أمل كالحمى، لأن مخاضاً قد أضرم النار أمداً يسيراً على الرغم من أنه مخاض موهوم دائماً إلى إجهاض، إلى طرح!

*   *   *

البائع المتجول

قطع نداءه وقال لي: «أهلين أستاذ. والله اشتقنا».

قلت: «شكراً. فيه محل إلى اللاذقية؟».

- فيه.

- جنب السائق؟

- لا والله يا أستاذ. فيه، في الصدر. اختر المحل الذي يعجبك.

- اقطع لي إلى اليمين، المحل الأيمن قرب النافذة.

- تكرم على رأسي ثم عيني.

- شكراً. متى تمشي السيارة؟

- في الواحدة كالعادة. ولكنها قد تمشي قبل عشر دقائق، ربع ساعة، حسب التيسير. كم هنا أعمل معروفاً في الواحدة إلا ربعاً.

- طيب، خاطرك.

- مع ألف سلامة.

عدت في الواحدة إلا ربعاً كما أمر:

- طبقت أبو النور.

- طبقت، تفضل.

- أراها لم تطبق تماماً.

لا، طبقت. ركاب قدام والوسط جاهزون. في الصدر راكب وجنابك، وفيه حرمة في المجتهد سنذهب نحضرها. إذا شئت أستاذ حسن أن تدخل السيارة وتستريح حتى نفرغ من حزم الظهر...

- وهو كذلك.

ودخلت السيارة. كان في المحل الذي قطعته رجلاً في حوالي الخامسة والثلاثين نحيفاً، يصب قبته بيده اليسرى وتحمل اليمنى سيكارة. قلت:

- عفواً حضرة الأخ، أظن أن المقعد الأيمن، هنا قرب النافذة، لي أنا.

- لك؟

- أي نعم، أنت تستطيع سؤال الأخ الدلال. معه القائمة.

قال في صوت أبح مزكوم:

- حضرتك صادق أستاذ، تفضل.

وانتقل إلى الطرف الأخر، الأيسر، من الصدر طيعاً وديعاً مستسلماً. قلت:

- شكراً لك. لا تؤاخذني. أنا أدوخ قليلاً من رائحة المازوت، ولذلك اختار مقعداً قريباً من النافذة..

لم يسألني لماذا لم أختر النافذة اليسرى التي ستظل الشمس تنصب منها وهي غاربة حتى حمص.

قال وقد خالطت البحة المزكومة رنة من تهذيب مكسور، مسحوق:

- ما عليه شي أستاذ أبوس يدك.. تفضل اختر المطرح الذي يرضيك...

قلت له:

- لماذا تبتعد هكذا إلى أقصى اليسار. ابق هنا قربي..

- لا يا أستاذ. أنا، بعيد عنك، مزكوم. أخاف أن أزعجك..

وارتفع صوت الدلال خارج السيارة:

- يا الله يا عطا، اطلع إلى سيارتك كفاك ملكعة..

وقال عطا الذي كان يقف على الرصيف:

- أنت لا تصلح إلا لشغلة معلم مكتب.. أشتهي أن أسمعك ذات يوم تطلب مني شيئاً من غير أمر..

قال أبو النور:

- الأولاد مقصوفو الرقبة شرواك يحتاجون إلى الشدة. العصا من الجنة!

وضحك عطا:

- أمرك.. ماذا تأمر؟

قال أبو النور آمراً:

- ضروري أن نعيد الدرس ألف مرة. قلنا لك اطلع عبي مركزك وتيسر.

- أمرك. فيه أوامر أخرى؟

- توصّ بأستاذنا.

- من؟

- الأستاذ حسن هنا.

ومد عطا رأسه إلى داخل السيارة:

- أهلاً وسهلاً أستاذنا العزيز، وصلت الأمانة؟

قلت:

- وصلت، شكراً لك يا عطا. ولكني وكيلك الله ما ذقت منها غير قرص واحد.

قال عطا:

- بالله عليمك؟ والله يا أستاذنا حسن شنكليشات موصى عليها، شغل أم ممدوح ذاتها. والله أنا في عمري ما ذقت أفكه منها.

قلت ضاحكاً:

- إذن أنت أيضاً ما قصرت؟!..

- والله يا أستاذ إذا كان الكذب ينجي فالصدق أنجى. أنا قلت في نفسي: «هذه الشنكليشات لأستاذنا.. وما فيه فرق بيننا...» قمت أكلت لي مثلما تقول قرصين ثلاثة..

- قل أربعة خمسة..

- ولكن مستحيل أن يكون الرقم قد ارتفع إلى الستة السبعة (ضحك).

إن شاء الله مأكول الصحة. على كل حال أنت نصيبك أكبر من نصيبي. أنا ما أصابني غير قرص واحد.

- والبقية؟

- جلاها حمد. الجيران صاروا يتواصون بها. أم عدنان بشرت أم رياض، أم رياض زفت الخبر إلى أم سمير: «روحي اطلبي لك قرصين شنكلش من بيت الأستاذ. شنكليشات للنظر ما هي للأكل.. وهكذا انطبلت الحارة.. وطلبت من التنكة وزمرت...

قال عطا ضاحكاً:

- يا ليتني أكلت سبعة ثمانية.

ونقر أبو النور الشباك على عطا:

- يا الله يا عطا دوّر. كفاك علكاً يا ابني امش..

قال عطا:

- أمر مولانا مطاع. إلى الأمام سر يا سيد عطا. أين هذه الحرمة التي في الصدر قلت لي؟

قال أبو النور:

- معك العنوان، في القائمة.

- خاطرك.

- مع السلامة. سلم لي على أبو عمر.

السيارة تتحرك في اتجاه شارع سعد الله الجابري، خالد بن الوليد، المجتهد. عطا ينزل أمام بناية يطرق الباب. صوت امرأة من الداخل:

- من؟

قال عطا:

- سيارة اللاذقية يا أختي، يا الله.

- أي يا أخت جيت.

- عجلي يا أختي من فضلك.

- جيت، جيت. فريزة هاتي السلة. سناء المحفظة. سامر تعال عاوني. ولكن أحداً لا يخرج من المنزل. ويعود عطا يطرق الباب:

الركاب تنتظر يا أختي.

- اي يا أخي اي. خذ يا ابني احمل هذه البقجة. الحقه يا سامر. سامية خذي هذا الحذاء حطيه قدامي..

وأخيراً انفتح الباب واندفعت من البيت مظاهرة «مسلحة» صغيرة:

قال عطا:

- فيه شي نحزمه على الظهر؟

- لا تقبرني ما معي شيء. كلها محفظة وسلة أضعهما أمامي. نادر، سامر، سناء، فريزة عاونوني.

عطا يحمل المحفظتين الثقيلتين إلى الظهر والمرأة تحتج:

- أضعها أمامي. ما فيه غير غرضين. يوه، أين محلي أنا:

قال عطا:

- في الصدر.

قالت المرأة وهي تدخل السيارة:

- في الوسط؟ لا ومئة نبي...

قال الراكب المزكوم:

- تفضلي يا أختي، نقي المحل الذي يعجبك.

- أنا أريد جنب الشباك.

- تفضلي خذي المحل جنب الشباك.

وانتقل الرجل في الاستسلام ذاته إلى المقعد الأوسط. وهو يقول لي:

- العفو. لا تؤاخذني يا أستاذ. أأضايقك؟

- لا. اقعد جيداً. خذ حريتك. المقعد أساساً واسع.

وعادت السيارة إلى شارع النصر فسعد الله. المعامل. الغوطة. زيتونة سمينة مثل جارتنا اللاهثة هذه، أخرى عجفاء مثل أختي زينب. عشب ذو خضرة ندية تأسر القلب، لا تأسره وحسب ولكنها تجعله يقف على شعرة من حنان وإشفاق ووجد.. ما فيه فائدة. سأموت وأنا عاشق. عاشق مزمن، عاشق أزلي. العشق! الله، الله! رب اجعله ديدني أبد الدهن.. أنا أنغمس حتى الأذنين في هذه العذوبة الخريفية. وي! لقد ذهلت عن إخراج غليوني!

سأسطر نفساً كما يقولون في قهوة البرج. هذا الذي يجلس قربي شهّاني إنه لا يطفئ السيكارة إلا ليشعل أخرى. يا رب كم هو مطحون! مطحون حتى العظام. كم عمره؟ لعله أن يكون في الثلاثين، في الخامسة والثلاثين. إنه يشبه هوتشي مينه على أصبى. كنزة تحت القميص المفتوحة رقبته..

الجار يسعل.

قلت:

- ما لك يا حضرة الأخ؟

- سيدي، الشكوى لله.. معي نزلة على الصدر.

- ولكنك تدخن كثيراً.

- أي والله. الله يلعن الشيطان. أنا ليس لي غير هذه السوسة. أنا الداعي لا أسكر ولا ألعب ولا أتعاطى شيئاً حرمه الله.. مالي غير هذه الملعونة!

- من أين أنت؟ ألست من حلب؟

- بلى. وأنت؟ لا تؤاخذني على فضولي..

- أنا من جهات حلب، ولكني أسكن الشام منذ عشرين سنة.

- الله يعمرك يا شام.

صمت.

- هذه السلسلة من الطلعات تسمى الثنايا.

- أي سيدي.

- يقال أن خالد بن الوليد..

- سيدنا خالد؟

- أي نعم، يقال إنه هو الذي سماها الثنايا. أتعلم ما معنى الثنية؟

- لا يا سيدي، أنا لا أعرف.

- الثنية وتجمع على ثنايا هي هذه: أسنان مقدم الفم. ثنتان من فوق وثنتان من تحت.. ولعل معناها أن يكون أيضاً الطريق العسيرة لأن العرب كانت تقول: فلان طلّاع الثنايا.. انظر، أن المعنيين ينطبقان على هذه المنطقة...

- كيف سيدي؟

- أولاً تتثنى الجبال فتشبه الأسنان، انظر. ثانياً، في هذه المنطقة عسر واضح. انظر أنها جبال صعبة، يكش لمنظرها البدن ما فيها عرق أخضر واحد. حبذا لو امتدت أبعد تلك الغوطة الطرية مثل الخسة. من هنا وصاعداً

تسحب السيارة ساعات من غير أن يرى الإنسان عرقاً أخضر إلا شجيرات السماق القميئة على سفوح التلال الغربية في القلمون..

سعلة مكتومة من الجار.

- أي نعم يا سيدي.

- لا تقل لي بعد الآن سيدي أيها الأخ.

- أستغفر الله. أهل الكرامات لهم علامات.

- ما اسمك؟

- علي.

- وأنا اسمي حسن.

- تشرفنا.

- اسمع يا علي، أنا رجل درويش مثلك، ولكني لا أسوِّد أحداً عليّ.

- نعم سيدي (بعد فترة) هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً؟

- تفضل.

- صحيح أن الغليون أنفع من السيكارة؟

- أرذل..

قال علي في دهشة:

والله أنا قال لي واحد إن الغليون أنفع من السيكارة..

- لو أنك قلت أخف ضرراً. ولا أظن أن شيئاً من هذه الآفات فيه ما ينفع الناس أو حتى ما يهدئ الأعصاب كما يزعمون.. قلت لي إنك حلبي؟

- نعم سيدي.

- قل حسن.

- نعم أستاذ حسن.

- ولكنك ذاهب إلى اللاذقية.

- أي نعم. أنا أعمل هناك.

- أين؟ في المرفأ؟

- لا يا أستاذ. أنا بائع متجول. بسطاتي (في صوت خفيض) وجنابك؟

- أنا صحافي.

- يعني تكتب في الجرائد؟

- أي نعم.

- أنعم وأكرم. ومن بيت من؟

- من بيت هلال.

- أنعم وأكرم. أنتم أجاويد.

- حط في الخرج أخي علي. الجود ليس حكرة أسرة من الأسر. ولكن قل لي ماذا تعمل في دمشق، وأنت بسطاتي في اللاذقية؟

- أي سيدي خلّني أخدمك. أنا آتي إلى دمشق، أقصد أحد التجار، أشتري منه بضاعة حقها ألف ليرة.. طبيعي، واحد مثلي لا يملك ألفاً في حال من الأحوال. التاجر، لا تؤاخذني، يأخذ مني خمسين ليرة عربوناً، ويبدأ يرسل إليّ طروداً من طريق وكالة شحن. مثلاً خمسة طرود، كل طرد حقه مئتان. أسلم الوكالة المئتين، كل أسبوع أسبوعين، فأتسلم الطرد.. هكذا حتى ينتهي شحن البضاعة المطلوبة وتسديد ثمنها..

- وما هي البضاعة التي تبيعها على بسطتك؟

- والله يا أستاذ مشكّلة: بيجامات أنترلوك، كنزات ولادية جوارب.. نأخذ كل هذه الأصناف نضرِّبها بعضها في بعض ونبيع القطعة قلم قايم بليرة..

فيه ربح إجمالاً؟

- والله فيه شيء يربح فرنكين، فيه شيء يربح أربعة فرنكات. تستطيع أن تقول أنها مستورة..

وصمت قليلاً ثم عاد يقول:

- مستورة ولكنها مصلحة ما فيها زبدة. اليوم الذي نربح فيه عشر ليرات نكون دفعنا حوالي خمس منها أجور سيارات.

- أجور سيارات؟ إلى أين؟

- معلوماتك.. أنا آخذ مطرحاً في سيارة، سيارة تكسي في الأغلب، وأحزم بسطتي على الظهر، وأروح أدور.. الحفة، طرطوس، دمسرخو، جبلة، قرادحة.

فترة قصيرة ثم:

- المشكلة أنه يمر عليك يوم يرمي لك ربحاً حسناً ولكنك لا تلبث أن تفاجأ ببسطتك وقد سرق منها أربع خمس قطع..

قلت متعجباً:

- سرق منها؟ من يسرق؟

واستمر يقول:

- أحياناً أمسك السارق مسك اليد. نسوان، الله وكيلك. فيه منهن من تكون ذراعاها ملآنتان أساور. الأسورة قرب أختها رصاً...

- وماذا تفعل أنت في هذه الحال؟

- استأجر ولداً (ضحكة خفيفة تتبعها سعلة) قد يكون غشيم صنعة، عامل بيتون سابقاً ولكنه الله ما بيني وبينه – أمين...

- وإذا لم يتيسر لك ولد؟

- أدفع عربة البسطة إلى قرب دكان أعرف صاحبها وأسأله أن يدير لي باله عليها و... أفشخ وراء الحرمة التي عملتها...

- وهل يجدي ذلك دائماً؟

- والله يا سيدي في الأغلب تنحلّ المشكلة صلحاً، من غير عياط...

- كيف؟

- أقرّب (يهمس) أهمس في أذنها: ستي، أظن أنك، لا تؤاخذيني (الصوت باسم) أخذت بنطلون بيجاما ولادي من طريق الخطأ (يقلد صوت امرأة) أنا؟ أنت غلطان يا أخ! (يعود إلى صوته المعسول) سيدتي المحترمة ما أنا غلطان أؤكد لك (صوت المرأة) لا، حضرتك غلطان.. أمثالنا يا حضرة لم يعتادوا الغلط! (صوته) أرجو عفوك سيدتي المصونة، أنا شفتك بعيني هاتين اللتين سيأكلهما الدود (صوت المرأة) وقح (صوته) ما فيه مانع خلنا نتكلم في هدوء ولا نرفع صوتنا، لأن شرطياً عابر سبيل إذا.. من قبيل المصادفة.. مر بنا.. مصادفة أقول.. وسأل عن سر العياط، عن سر الخناقة، وقلت له أن السيدة.. تستطيع يا حضرة الشرطي أن تتفضل فتنبشها.. (صوت المرأة) والله يا ابني الإنسان مركب على الخطأ. أنت على صواب.. أنا، ما عسى أن أقول؟ يدي انخطفت (صوته) لا أبوك ولا أبو الشيطان. ارجعي لي رزقي وروحي في سبيلك، الله يسامحك...

وضحكت من صميم قلبي:

- لاحظت أنك قلت: في الأغلب...

- أنا؟

- أي أنت.

قال في براءة:

- متى؟

- منذ قليل. قلت: في الأغلب تحل المشكلة صلحاً..

- أي تذكرت. أي نعم. أحياناً قد تقع على واحدة – عدم المؤاخذة – قارحة، تروح تولول وتصيح (يقلد) ويلي. هذا البياع مبهدل، يتحرش بي، أنا أم أولاد..

ضحك ثم صمت قصير.

وفكرت: «هذه هي المرة الأولى أرى فيها بسطاتياً يركب سيارة صغيرة!».

وقلت له:

- أنك تسعل يا علي.

- أي والله مثلما قلت لحضرتك، شيء – الشكوى لله – نازل على صدري. هذه حدفة، الله العليم. ادع لي يا أستاذ أن لا يرميني الله من حيلي.. كله محتمل يا أستاذ كل شيء: السرقة، الشقاء، التعتير، اللوبان في القرى... كله على الرأس والعين، نعمة.. إلا المرض. إذا مرضت يا أستاذ لا يشق أحد علي الباب ويقول لي «ما بك؟» لا أحد يقول لي: «خذ لك يا أبا أحمد هذين القرشين حق دواء...».

بعد فترة:

- وحدي، وحيد. لا أحد غيري. أنا وصحتي ولا معين.

- إذن أنت أعزب؟

- لا يا سيدي. أنا متزوج وعندي الحمد لله (يبوس يده وجهاً وقفا) ثلاث بنات... أي نعم ثلاث بنات.. قد تسألني: كيف أركب سيارة تكسي أجرتها عشر ليرات، أنا البسطاتي الدرويش. لماذا لا آخذ الباص؟ أي سيدي هذا هو السبب: أنا لا أستطيع أن أنام إلا إذا تمسيت بوجوههن الصغيرة. في عمري، أقصد منذ أن تزوجت، ما نمت ليلة واحدة خارج البيت. قد أكون في الشام، في حلب، في طرطوس.. ولكن متى ما يُمْسِ المساء أغسل يدي من كل شي، من كل شيء مرة واحدة ولو كان شغلي الذهب، و... يا قديم الإحسان إلى اللاذقية، إلى البيت... وسواء كنت رابحاً أو خاسراً، مرضوض العظام من التعب أو مرتاحاً مثل طفل ما به جوع ولا هو موجوع... يحدث لي، آمنت بالله، أني، منذ أن أضع قدمي على برطاش الباب، أحس أني

اغتسلت من كل تعب اليوم، من العناء، من الشنططة والغربة والقلق والخشية من المرض جميعاً...

ويستمر علي في تحنن:

- «بابا»... عندما أسمعها، ما لك عليّ يمين يا أستاذ، أحس أن شيئاً فيّ يذوب، يقف على شعرة.. وأتصور كيف كانت تكون هذه الدنيا لولا هذه البراعم الثلاثة من زهر الرمان، من زهر التفاح؟...

مطحون، مطحون أنت حتى العظام، ولكنك تحيا لأن لك هذا الشط الوديع الغرير تلوذ به كل مساء. وأما أنا فلا شط وديع مؤنس ألوذ به. أنا شراع في بحر لجيّ، غضوب، ولا شاطئ.

وقلت له:

- أتعرف يا علي لماذا أنا شراع ضائع؟

قال في دهشة وريبة كأنه وقع على إنسان ممسوس:

- نعم؟

- كنت أسألك يا أبا أحمد ما إذا كنت تعلم لماذا أنا شراع ضليل متشرد، في بحر لجي غضوب ولا شاطئ؟..

- سيدي، أنا في عمري ما قعدت في المدرسة. ما فهمت عليك.

- كنت أقول لك لماذا اخترت اللاذقية وأنت حلبي؟

- أنا؟

- اي نعم، أنت.

وعاد إلى سرده المسور كأنما كذّب أذنيه:

- والله يا أستاذ البسطاتية في حلب كثار. إذا كانت المصلحة في اللاذقية ما فيها زبدة فهي في حلب ناشفة على القطنة...

وساد صمت امتد طويلاً. تذكرت قصيدة من الشعر الحر نظمتها أقص فيها كيف ضللت طريقي في بلدي، وعدت أسأل حتى عن بيتي...

وأما علي البسطاتي فلا يضل حتى في بلد غريب...

صندوق العجائب

سيادة الوزير:

إشارة إلى كتابكم رقم ٤٤٨٦٤٧ المؤرخ في ١١ تشرين الثاني الجاري، المتضمن إنذاري باتخاذ أشد العقوبات في حقي إذا تكرر تأخري عن العمل، أتشرف بالاعتراف أني في اليوم السابع من تشرين الثاني تأخرت سبعاً وثلاثين دقيقة كما تلطف سيادة المفتش الأول ولاحظ مشكوراً.

أجل، أنا لا أنكر ذلك، ولن أدافع عن نفسي.. بأن أصف لكم ساعة الحشر التي تتكرر كل يوم في موقف الباص في شارعنا. وأنا لا تعفني ميزانيتي فآخذ تكسي. أكثر من هذا، أني أحيطكم علماً بمخالفة أفظع من التأخر، وهي في الحقيقة سببه: أنا أعمل من الرابعة إلا ربعاً حتى الثامنة في مكتب للضرب على الآلة الكاتبة لقاء أجر. وهذا مخالف، كما تعلمون، للأنظمة، ويقع تحت طائلة العقوبة... ولكني أعلم أن المدير الذي وجه إلى الكتاب وحصل على توقيعكم عليه، لا يجرؤ على أن ينزل بي أية عقوبة. إن سيادته قد كتب كتابه بناء على تقرير من المفتش الأول. وأنا لا أنكر أن هذا الأخير يجيء إلى الوزارة باكراً، ولكن سلني أنا ماذا يصنع! أولاً هو أعزب وشحيح وجربان، لا يسهر ولا يسكر ولا يلعب ولا يتزوج. إنه ينام بعد العشاء، ويفتح عينيه قبل الشحاذة وابنتها، فيسلق أربع بيضات، ويمر على فرن العمارة فيشتري رغيفين من الخبز التنوري المشروح، ويقول يا الله إلى الوزارة... وراء المكتب الضخم الفخم، مكتب مفتش أول معلوكم، يقبع سيادته، وينسل من جيب بنطاله الخلفي، أو من حول زناره، منديلاً مما يسمى

في دمشق «شورى»، وهو شيء مطعم على شرشف فرشة، من القماش المطبوع الخشن، وينشره على المكتب، فوق الاضبارات والأوراق، ويكبّ على البيضات الأربع فيكسرها، ويسحب من الدرج الأوسط صرة فيها ملح وفلفل، فيرشّ على البيض بعد أن يقطعه بموساه الكبّاس، ست طقات (هو يزعم أنه، مفتشاً، يحتاج إلى سلاح يحمله دائماً!) ويلف هذا كله عروسة، ويروح يجتر... في بعض الاصباحات يأتي إبراهيم سنديان، مساعده، فيدعوه المفتش، ويلح عليه، لا ليشركه في مأدبته، ولكن لأن إبراهيم هذا، مثل جميع الموظفين الدراويش، يطلب حالاً كاسين من الشاي على حسابه. هذا يتكرر كل أسبوع مرة، مرتين، أي كلما حضر إبراهيم إلى الوزارة مبكراً.. ويخل أجير القهواتي بكأس الشاي مع سكرية طافحة، فيضع سيادة المفتش ربعها أو نصفها ويأخذ ورقة رسمية عن المكتب ويصر الباقي على طريقة العطارين – كما يشهد آذنو الطابق جميعهم – حتى إذا أراد أن يصنع الشاي لنفسه، في الأيام التي لا يبكر فيها إبراهيم، أخذ الغلاية من الدرج ووضع فيش الكهرباء في الجدار، مع أن هذا ممنوع أمر إداري صادر عن سيادة الأمين العام. ولهذا الأمر الإداري قصة فظيعة لعلها تطلعكم على عينة من «المهام الجسام» التي تستأثر باهتمام كبار الموظفين الذين يكلفون الدولة آلافاً من الليرات رواتب وتعويضات تنفخ جيوبهم، وتجعلهم في بروج مشيدة من غرور وكبرياء فارغة!

وخلاصة قصد الأمر الإداري المشار إليه في أعلى هي أن موظفي الطابقين الثالث والرابع قد سئموا القهوة والشاي اللذين يقدمهما قهواتي الوزارة، وقرورا الامتناع عن معاملته، وكلفوا أحد الآذنين أن ينشئ بوفيه صغيرة يربح منها قليلاً ولكنه يقدم لهم مشروباتهم نظيفة وبأسعار معقولة. والواقع أنهم كانوا على حق لأن قهواتي الوزارة إنسان غشاش، شحيح، مراب، يبيعنا فنجان القهوة بثلاثة فرنكات، وأما كبار الموظفين فلهم سعر

خاص، سبعة قروش ونصف. والأمين العام – الذي يقبض تعويض تمثيل – مجاناً! إن منظر القهواتي وحده، وهو يطوف على الغرف حوالي الساعة الواحدة ويجبي أثمان الطلبات «المرمية» كاف لتنفير الإنسان منه إلى الأبد. أنا شخصياً عندما أراه أتذكر كل ما سمعته وقرأته عن أضرار المنبهات وخطرها على الصحة. أضف إلى ذلك أن الملعون يختلق فناجين وكاسات ما أنزل الله بها من سلطان، ويزعم لك أنك طلبت خمسة قهوة بينما تكون طلبت اثنين أو ثلاثة. وأما إذا كنت تحاسبه شهرياً فاطمئن إلى أن حسابك سيتضاعف.. ومن هنا قدر زملاؤنا للقهواتي ربحاً صافياً يزيد على ألف ليرة، وأصبح دخله موضوع تندر بين الموظفين. مثلاً قال موظف من مرتبة دنيا: «اللهم مرتبة قهواتي وزارة وأتوب!».

ويبلغ القهواتي أن موظفي الثالث والرابع اتخذوا لنفسهم بوفيه خاصة يعمل فيها الآذن عبد الرزاق فيجن جنونه حقاً لا كلاماً: قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق! ويصعد إلى الطابق الرابع، مركز البوفيه الضرة، ويشتبك مع الآذن في معركة حياة أو موت تسيل فيها الدماء.. وينزل لتوه يواجه الأمين العام، يخلو به نصف ساعة. وما أن ينصرف حتى تصدر أوامر سيادة الأمين العام بالدعوة إلى جلسة مديرين طارئة فوق العادة تستمر حتى آخر الدوام، وتسفر عن الأمر الإداري القاطع موضوع بحثنا.. وأنا لا أود أن أنقل إلى سادتكم هنا كل التعليقات الضاحكة التي تهرول، منذ تلك الجلسة، وبين غرف الوزارة. يكفيني أن ألمح إلى أنها كلها تنصب على شراكة محتملة بين القهواتي وجهة عليا في الوزارة، وأن هذه الجهة العليا قد سبقت لها «سوابق» في هذا الميدان! ويستدل المتندرون على ذلك بحادثة مذهلة، كان شهودها موظفو الطابق الرابع ذاته، جرت بعد يومين أو ثلاثة من الجلسة الطارئة المهمة: وردت إخبارية من «فاعل خير» إلى الأمين العام مفادها أن بوفيه الطابق الرابع لا تزال شغالة وإن موهت عدتها... فانسل سيادته، من غير أن

يأخذ المصعد، وفاجأ الآذن - فعلاً - وهو في الجرم المشهود.. فأرغى وأزيد، مثل كل شريك حريص على شركته غيور وضبط «الموجودات الجريمة» وساق المتهم أمامه إلى الطابق الأول!...

نعود إلى حديث المفتش الأول.. إذن يصنعِ سيادته، كما أسلفت، عروسة من البيض ويلتهمها، وإذا رأسه بتثاقل رويداً رويداً، وعيناه تغرِّبان وتشرِّفان.. ثم يرتخي الرأس على الصدر، ويبدأ الشخير الرسمي! أنا أفهم أن أن ينام المفتش الأول في مكتبه. هذا مألوف، يدل إذا نحن صفينا النية على أن الوزارة تعمل أشد انتظاماً من ساعة اوميغا في إعلانات السينما... ولكن الذي لا أفهمه يا سيادة الوزير إنما هو الشخير. إن غرفتي كما تعلمون ملاصقة لغرفته. وفي عمري لم أسمع مثل شخيره. تقول كسّارة بحص.. وفي رأيي المتواضع أن الشخير اجتهاد شخصي من سيادة المفتش الأول. وأنتم تعلمون أن لا اجتهاد في مورد النص. صحيح أن المتعارف عليه في قوانين العقوبات جميعها أن لا عقوبة من غير نص، وأن قانون الموظفين الأساسي رقم ١٣٥ نفسه جاد خلوا من أي نص يحظر الشخير أثناء الدوام، ولكن، ماذا أقول! الذوق فضّلوه على الدين.. وقد تقع على موظفين لا يستطيعون العمل في ضجة كسارات البحص!

لعلكم، يا سيادة الوزير، تظنون أني أفتري على المفتش الكذب، بسبب التقرير اللئيم الذي سطّره في حقي... هذا غير صحيح إطلاقاً. وأنا أملك أدلة قاطعة، بعضها فوتوغرافي، على كل كلمة وردت في كتابي هذا. المؤسف أن الشخير لا يظهر في الصور الفوتوغرافية!

وأما المدير، الذي وضع توقيعه الكريم في ذيل كتاب الإنذار الموجه إليّ، فقصته أعجب. وهو آخر من يحق له الخوض في دوام الموظفين. إن هذا لم يحضر يوماً واحداً قبل التاسعة. والأمين العام يدري ولكنه يحنث. إن المدير لا ينفك يتباكى أمام الموظفين ويدعي أنه مصاب بالأرق. والحقيقة أنه

مصاب بعلل أخرى.. فهو يسكن في المزرعة. والمزرعة حارة أكابر، الحاجات فيها غالية، نار. لذلك تراه كل صباح يتأبط السك الجلدي وينزل إلى سوق الهال.. ولا تكاد الساعة تبلغ الثامنة حتى يكون قد لملم في سكة مختلف أنواع الخضرة الرخيصة. بعدئذ يجيء دور اللحمة في سوق العتيق، والفواكه قدام جامع يلبغا. المسألة ليست هينة. في رقبة الرجل بيتان... وبعد أن تتم عمليات التسوّق يحمل المدير الأغراض ويحضرها معه إلى الوزارة. ادخلوا يا سيادة الوزير مرة إلى مكتبه وتلطفوا بشم خزائن الأوراق، الأدراج.. سوق الهال رائحته أخف، الله الوكيل!.. وما أن يستقر سيادته في كرسيه الدوار، وراء مكتبه، الفخم أيضاً، حتى يرفع سماعة الهاتف ويطلب رئيس المرآب:

- آلوا يا معلمي فيه سيارة؟ لا مشوارين صغيرين... إلى بيت محسوبك وبيت سيادة الأمين العام... كثر الله خيرك.

ويحضر سعيد آذن المديرية فيقول له المدير:

- السيارة في انتظارك يا معلمي.

ويحمل الآذن الخضرة والفواكه من غير أن ينقطع المدير عن إرشاده.. وقبل أن يترك الغرفة يناديه مرةً أخيرة:

يا معلمي، قل لهم في البيت إني سآخذ لهم السمنات معي عند الانصراف.. وقل لهم يفلفلوّا لنا شويت رز مع المنزلة.. اسألهم في بيت سيادته (يقصد الأمين العام) إذا كان لازمهم سمن...

وهكذا حتى تدق العاشرة أو الحادية عشرة. عندها تبدأ اللألأة بين الغرف، النفاق، الوضعيات.. وأخيراً يمط رأسه على غرفنا واحدة واحدة، وكل مرة يفضي إلينا بهذا السر الخطير من أسرار الدولة:

- إذا كنتم في حاجة إلى شيء. أنا عند سيادة الأمين العام!

نحن في حاجة إلى شيء، منه؟ في حاجة إلى ماذا؟

وينزل إلى غرفة الأمين العام ويلبد، يبلّط. يخبره بادئ الأمر بأن الأغراض في طريقها إلى البيت. أنا تحت الأنظار، بين الأيدي، يطول لنا عمرك. البارحة أرسلت أم الأولاد تعاون السيدة حرمكم في المعقودات، قامت بقيت حتى نصف الليل.. ويشكره سيادته مهذباً. فجأة يتذكر أن عليه أن يدفع قسط المدرسة عن سيادة ابنة سيادته...

عندما يعود سيادة المدير من دفع القسط حوالي الواحدة، الواحدة والنصف، متصنعاً اللهاث، يبدأ حملة جديدة: أن موظفي الوزارة كلهم يقبضون تعويضات أكثر مني. أنا لا أشكو. أنت تفضلت عليّ. جعلتني مديراً. ولكن تصور أني أقبض ثلث الراتب فقط. بينما يقبض بعض الزملاء ضعفي الراتب... ونقرأ في الجريرة الرسمية بعد مدة وجيزة قراراً طويلاً عريضاً يقضي بمنح المدير السيد فلان... تعويضاً قدرة المبلغ المرقوم أعلاه عن الأعمال الإضافية التي يقوم بها خارج أوقات الدوام الرسمية!

يا سيادة الوزير:

لو أني قعدت أكتب إليكم عن صندوق العجائب هذا الذي سمي وزارة لما فرغت في شهرين. ومع ذلك يدقق كبار هذه الوزارة ويحققون في تأخر بضع دقائق بدر من واحد درويش مسكين مثلي!

* * *

اجتماع مهم

قال شهاب، مدير المناهج، بعد أن استقر به المجلس وراء المكتب:

- هنا أنسب. أنا غرفتي قائمة قاعدة. أنهم يدهنون المنضدة ويدقون مشجباً جديداً. هاه، أخيراً في هذا البناء الجديد يستطيع الإنسان أن يأخذ حريته، أن تكون له غرفة وحدة كيف يا أستاذ محيي الدين؟

كان محيي الدين ربعة، أميل إلى السمن، في حوالي الأربعين، رئيس دائرة في المديرية، أعلى مرتبة من شهاب، ولكنه في معيته. وانزلق مندفعاً إلى أمام في إذعان وقال:

- صحيح سيدي.

واستأنف شهاب:

- نحن استولينا على غرفة الأستاذ سعيد، كيف يا أستاذ سعيد؟

فلم يجب سعيد الذي كان أقرب إلى الشرود واللامبالاة، وهما لا يظهران في حركات وجهه وحده بل في هندامه وشعره الأشعث كذلك.

وعاد شهاب إلى مخاطبه محيي الدين:

يا إخوان أنا أزعجتكم اليوم بدعوتي إياكم إلى هذه الجلسة القصيرة، لأن في فكري أن نسيّر دولاب العمل، بعد أن انتقلنا إلى البناء الجديد، على أسس جديدة. وقد دعوت الإخوان، رؤساء الدوائر الأخرى، ولا يلبثون أن يحضروا...

ورن الجرس فدخل الآذن، قال له:

- هل جاء الأستاذ أبو السعود والأستاذ شفيق؟

- الأستاذ شفيق في غرفته.

- ادعه، ماذا تنتظر؟

وخرج الآذن فعاد شهاب يقول:

- مشكلة مع هذا الآذن. أنا أحب الآذن الذي يفهم على الطاير. لقد أخطرته مع ذلك بهذا الاجتماع أمس عند انتهاء الدوام!

ودخل شفيق وهو رجل صارم التقاطيع، في حركاته ونبراته شيء حاسم. واستأنف شهاب:

- وهكذا إذن أستاذ شفيق... كنت أقول للإخوان أني منذ مدة طويلة أفكر في أن نسيّر دولاب العمل على أسس جديدة تتمشى مع توجيهات سيادة الأمين العام. وقد جريت على عادة إشراك إخواني المرؤو... الزملاء في تمشية الأمور على أحسن وجه. مسألة أخوة.

وابتسم وضغط زر الجرس فدخل الآذن. قال شهاب:

- قهوة يا ابني للإخوان، كيف تحبونها؟ أنا أحبها تركية سكر على الريحة، مغلية. قل له مدير المناهج وهو يفهم والإخوان؟

فارتفعت أصوات:

- ونحن.

- رح قل له أربعة فناجين تركية لمدير المناهج. هكذا إذن. مديرتنا جديدة. رح قل له أربعة فناجين تركية لمدير المناهج. واقف تتفرج علي؟ ما سمعت! مديرية جديدة تماماً.

ودخل أبو السعود. شاب لطيف الملامح بنظارتين أنيقتين وإيماءات مهذبة. قال شهاب:

- تأخرت يا أستاذ أبو السعود.

- والله يا سيدي الباص. أنت تعلم...

- كنت أقول للإخوان... نسينا نوصيه على فنجان قهوة لك. الآن يأتي.
كنت أقول أننا في البناء القديم اعتزمنا أن يكون سير دولاب العمل في المستقبل قائماً على أسس جديدة كل الجدة. ثورة. وقد جربت، منذ أن كنت مثلكم رئيس دائرة – إن شاء الله تتقدمون وتصبحون مدراء (يبتسم) – الوزارة ما فيها مديريات كفاية (يشير بذارعيه إشارة إلى كثرتهم) ما شاء الله، فيكم البركة... نعم أحب أن أشرك الإخوان، مرؤوس... أقصد زملائي في إدارة دفة العمل. وأنا أريد الآن أن أتتبع الخطة نفسها.

ودخل صبي القهواتي: في حوالي العاشرة، بسام العينين طلق الإشارة، حلو السمات، لا يتوصل لفهم هذا الكون المعقد من الرجال الجادين الذين لا يملون من طلب القهوة والعصير طوال الدوام. قال وهو يضع القهوة أمام شهاب:

- تفضل سيد شهاب.

فانتهره محيي الدين، السمين، وهو يعض على شفته:

- يا حسن!

فتوقف حسن ونظر إليه متعجباً من غير أن يفهم. وأضاف أبو السعود وهو يركز نظارتيه جيداً على أنه:

يا حسن!

وقال شهاب متواضعاً:

- لابأس، لابأس، اتركوه، ولد! رح يا ابني هات فنجان قهوة أيضاً.

- أي سيد شهاب.

وعاد محيي الدين يزجره:

- يا حسن، يا ابني!

وقال أبو السعود:

قل شهاب بك يا ابني.

- أي نعم سيد أبو السعود!

وانطلق سعيد، الذي كان يجاهد ضحكة طوال هذا المشهد، يقهقه ضاحكاً، فنظر إليه حسن لحظة ثم راح هو أيضاً يشاركه ضحكه بابتسامة برئية، عريضة، مزهوة.. وبعد أن قدم القهوة خرج. قال شهاب:

- أي نعم من حسن حظكم أني قادر على أن أخصص لكن جزءاً من وقتي كل يوم لبحث القضايا المهمة التي تنطوي على بعض الصعوبة.. ولكن ذلك لن يكون ميسوراً لي بعد أسبوع أو أسبوعين.. ستكون نحن المدراء، آنئذ، مشغولين، بل غارقين حتى الآذان في بحث موازنة العام المالي المقبل وآلاف الشؤون المهمة الأخرى.. ولذلك يجب علينا، خلال هذين الأسبوعين على الأكثر، أن نرسي القواعد لانطلاقة ايجابية بناءة لا يتوقف دولاب العمل بعدها أبداً...

وعاد حسن يحمل فنجاناً آخر من القهوة وضعه أمام سعيد فصحح له هذا:

- للأستاذ أبو السعود.

وحك الصبي أذنه:

- أي سيد سعيد.

مضى بالفنجان إلى المنضدة الصغيرة أمام أبو السعود، وهمّ بالمضي لكنه توقف وقال لسعيد:

- سيد سعيد، أنا نجحت درجة أولى في الفحص. المدير أعطاني جائزة، قلم حبر.

قال سعيد حفياً:

- عال، عال، إلى أي صف؟

- الخامس، سيد سعيد.

- بديع، يعني السنة الآتية في التجهيز؟

- لا سيد سعيد، الِ بعدها.

- عال، موفق، نيتك تدرس إيش بعد التجهيز؟

- دكتور، سيد سعيد،

- تحفة!

- أي سيد سعيد، عاوز خدمة؟

- لا، سلامتك. مر عليّ بعد شوي. أنا أيضاً أود أن أقدم لك هدية.

- أي سيد سعيد.

وخطا خطوة نحو الباب ثم عاد يقول:

- أخي محمد علي نجح إلى الرابع سيد سعيد..

وقال شهاب عصبياً:

- رح لشغلك يا ابني.

- أي سيد شهاب، أنا رايح.

وقال محيي الدين مؤنباً:

- يا حسن!

وخرج حسن وهو ينظر إلى محيي الدين مدهشا.

وعاد شهاب يقول:

- نعم يا إخوان، كنت أقول لكم قد لا ترونني بعد قليل إلا نادراً. قد لا ترونني قادراً على أن أخصص لكم ثانية واحدة من وقتي الثمين.. فاستفيدوا

من، من، ماذا أقول (يبتسم) من البطالة النسبية، من البطالة المؤقتة التي أنعم بها الآن... بطالة؟! هاه! أنتم ترون بأم أعينكم، يا لها بطالة! أصلاَ، هذا الذي يحزنني. يظنون أن مديريتنا لا تعمل شيئاً!..

وضحك فشاركه محيي الدين ضحكه المستخف، وابتسم أبو السعود ازدراء، ومضى شهاب:

- أنا، عفواً، لا أتفاخر... أنا لا أستطيع أن أقوم بالعمل الذي يلقى على كاهلي نصف قيام! هذا طبعي من يوم خلقني ربي. أحب دائماً أن أكون درجة أولى. درجة أولى أبداً. هذا هو شعاري المقدس. إنهم في هذه الوزارة دأبوا على تجاهل عمل العاملين. إنهم لا يقدرون مدى المسؤوليات الملقاة على عاتق مديريتنا. أمس (يخفض صوته ويلتفت صوب الباب)، وهذا بيتنا، كان عندي رئيس هيئة التفتيش يشرب فنجان قوة... ومن كلمة إلى كلمة عاتبني على عدم زيارتي له في غرفته مع أننا جيران، الباب بالباب، على حد قوله...

وقطع حديثه جرس الهاتف فرفع السماعة:

- نعم سيدي... نصف ساعة على الأكثر، عندما اجتماع مهم جداً... الاجتماع الذي حدثت سيادتكم عنه... الله يعافيكم سيدي.. حاضر سيدي..

ووضع السماعة:

- سيادة الأمين العام... قلت له أن عندنا جلسة فانبسط... الشاهد ماذا كنا نقول؟

قال محيي الدين:

- مسألة رئيس هيئة التفتيش، سيدي.

- أي نعم. قلت له: «وكيف يتسنى لي أن أتشرف بزيارة سيادتك وأنا أعمل ليل نهار!» فنظر سيادته إليّ مندهشاً وقال لي: «عجيبة، أنا لا أفهم!

هل تتفضل بأن تفهمني ماذا يشغلك! علمي أني لم أمر على موظفيك مرة إلا ورأيت القهوة دايرة – الله يجعلها دايمة – والحديث والمناقشات على أشدها...» صدقوني أنسلق بدني.. المسألة أنه، ولو لم يكن عندنا عمل، يجب أن نتظا... أقصد أن نبحث...

قال شفيق بلهجته الباترة:

- وسكت له؟!.. القهوة عندنا دايرة؟ وهو؟! ظني أن الأشغال يقتل بعضها بعضاً عنده؟ هل يتفضل حضرته بدوره أن يشرح لنا ماذا يصنع هو طوال النهار؟ لماذا لا يكبسنا جنابة ويرى ما إذا كنا نعمل أو لا! أريد أن أفهم فقط الأعمال الجبارة التي تنهض بها مديرية هيئة التفتيش الموقرة! يجدون أنفسهم بحاجة إلى دراهم فيقررون القيام بجولة تفتيشية كلها علك في علك، وكل يوم يمرقون المبالغ المرقومة تعويضات وأذون سفر! لا يا أستاذ شهاب، كان عليك ألا تسكت له. نحن نقوم بواجبنا، ولا نسمح لإنسان كائناً من كان أن ينتقص من كفايتنا...

قال شهاب مقاطعاً:

- عفواً أستاذ شفيق، اسمح لي أرجوك. أنا أقدر كل التقدير... وأقول لك بصراحة أني لم أنم الليل بعد أن سمعت منه ما سمعت...

- أنا أدرى الناس بأعمال مديرية التفتيش. أعرف مثلاً كيف صيفّ سيادته في كسب العام الماضي بحجة التفتيش في اللاذقية...

- أستاذ شفيق ما لنا وما للناس...

- لا، أنا لن أسكت عن هذا الأمر ولو أدى... إلى.. الآن، بعد الاجتماع مباشرة سأذهب إليه وأسمعه حقيقته إذا كان يجهلها. سأخربط الدنيا على...

- أستاذ شفيق أرجوك. أمسحها في ذقني، ما بدنا مشاكل، شغلنا نحن طمرنا، ما عندنا وقت...

- أبدا، هذه مسألة لا يمكن السكوت عليها...

- أستاذ شفيق أنا مديرك!...

ودخل الآذن:

- فيه واحد يريد مواجهتك، أستاذ شهاب.

قال شهاب منفعلاً:

- يا ابني، يا ابني، ألا ترى أننا في اجتماع؟!..

- أرى...

- نحن مشغولون. شغلنا طمرنا. سكّر الباب وأمنع الدخول منعاً باتاً.

وخرج الآذن، وتنهد شهاب من قلب متعب:

- آه... كنت أقول ايش؟ ضاع منا رأس الشموط يلعن الشيطان الرجيم!

قال شفيق مثل طلقات متفرقة بعد نار غزيرة:

- أنا لن أسكت!

- أستاذ شفيق أبوس يديك. احسبها عندي، أرجوك. عدني أن لا تفتحها. خلص؟ وعدت؟

- واحد مثل هذا...

- خلص، قلنا لك!

- طيب لأجلك!..

- شكراً... وهكذا إذن. أنهم يعتقدون أننا هنا كم مهمل، شيء زائد...

وعاد شفيق يهر:

- والله لولاك لكنت...

- أي خلص أتوسل إليك. كنت أقول: لما سمعت هذا الكلام فكرت على النحو التالي: أن رئيس هيئة التفتيش ربما كان يعبر عن فكرة سائدة بين

موظفي الوزارة عن مديريتنا. ربما يقولون أن مديريتنا لا لزوم لها أصلاً، أنها في الماضي لم تكن أكثر من شعبة صغيرة للدراسات القانونية: رئيس شعبة وكاتب.. وإذا هي الآن مديرية فيها ستة عشر موظفاً ومدير من المرتبة الثالثة وأربعة رؤساء دوائر وثلاثة آذنين، فضلاً عن أني لا أكف عن طلب موظفين جدد... وقلت في نفسي: لو أن هذه الأقاويل بقيت بين الغرف، بين الموظفين، حتى بين المدراء، لما كان في الأمر ما يدعو إلى الخوف.. ولكن ما أخشاه هو أن تبلغ هذه الوشايات مسامع سيادة الأمين العام... أو الوزير والعياذ بالله!.. وجعلت أتساءل طول الليل: كيف أبرهن لهم على أننا لسنا كمّاً زائداً أو إصبعاً سادساً كما يقال؟ لا بد أن في الأمر مؤامرة. إن أكثر الأعمال التي أقوم بها أنا شخصياً لا تظهر للعيان! أول أمس مثلاً كلفني سيادة الأمين العام طبع بطاقات زيارة لسيادته. بطاقات العام الماضي نفدت، وسيادته يريد مئة بطاقة مع اللقب، ومائة بالاسم وحده – يظهر أن هذه الأخيرة لمعايدة الأقارب – تصوروا الغشيم الذي لا يفهم في أمور البيع والشراء يظن أن المسألة أهون من شربة ماء: تذهب إلى المطبعة، تطلب مائتي بطاقة وإذا هي بين يديك في ظرف ربع ساعة! أي سيدي القضية أعقد من هذا بكثير. فكروا في الخطاط الذي يكتب الاسم، في نوع الخط الذي يقع اختيارنا عليه، في الزنكوغراف... والعيد على الأبواب، والعمال مشغولون، شغلهم طمرهم. أينما تذهب لا نسمع إلا هذا الجواب: «ارجع بعد العيد!» ما عساني أن أفعل بالبطاقات بعد العيد! هل أغضب سيادة الأمين العام؟... وهكذا رحت أدور من زنكوغراف إلى آخر حتى وفقني الله تعالى بواحد قبل أن يحفر لي الكليشة ويسلمني إياها مساء... ولكن هل تظنون أن المشكل انتهى؟ لا، والمطبعة؟ مطبعة عجرم، عند البرلمان، تطلب أربع ليرات في المائة. ساوم حتى ينشف ريقك. ما فيه فائدة! اذهب إلى المطبعة الجديدة وأعد الأسطوانة. أي سيدي، بلا طول سيرة، توفقنا آخر الأمر وطبعنا المائتين بأربع ليرات...

نادرة أخرى: الأسبوع الماضي انخطبت بنت أخت سيادته، والعريس مستعجل. أي سيدي ثلاثة أيام وأنا أفتل على كعبي مثل الغازول من دائرة النفوس، إلى المحكمة الشرعية، إلى... من أين لرئيس هيئة التفتيش أن يدري شيئاً عن أشغالي؟! وهكذا ترون أني لا أستطيع أن أصرف اهتمامي إلى عمل كل واحد منكم. تعودوا على تحمل المسؤوليات بأنفسكم. كل واحد منكم مدير في دائرته. كل واحد منكم شهاب. وإذا لم يستدعني سيادة الأمين العام صباحاً كان في وسعي أن أخصص لكم، كل يوم، نصف ساعة، ساعة.. ولكن المهم أن تعوّدوا أنفسكم تحمل المسؤوليات، لأنكم إذا أبقيتم أعمال المديرية كلها على عاتق المدير، على عاتقي، انتهيت إلى الانهيار تحت ثقل الأعمال، أنهد، بكل بساطة... وماذا تكون النتيجة لا قدر الله؟ تصبحون بلا مدير والعياذ بالله! قطيع بلا راع.. تصوروا الفظاعة: موظفون بلا مدير...

كان سعيد يمسد على خديه بجماع كفه مخفياً فمه. واستمر شهاب:

- مسألة أخرى أود أن ألفت الانتباه إليها: العمل. بعض الموظفين قد يقع لهم في بعض الأحيان (يخطف بصره صوب سعيد) أن يتفقوا.. بعض الوقت.. في أعمال... بعض أعمال لا تمت إلى أشغال الوزارة... لو أن... أردت أن أقول أن الدساسين كثيرون في هذه الوزارة.. قد يبلغ سيادة الأمين العام خبر! وعلى رأس من يقع اللوم؟ على المدير طبعاً و..

قال سعيد مقاطعاً:

- إذا كنت تقصد...

قال شهاب معتذراً:

- أستاذ سعيد عفواً. أنا لا أقصد ولا أسمي... وأنت شخصياً شغلك ما عليه غبار. أردت فقط أن ألفت النظر إلى ما يمكن أن يدور من أقاويل قد تضر بسمعة مديريتنا جميعاً. وقد...

قال سعيد في جفاء:

- لا، هذه تكررت...

أستاذ سعيد أنا أؤكد لك...

- إذا كنت أنظم...

- والله العظيم لم أقصد. أنا أصلاً ضربت لكم مثالاً رئيس هيئة التفتيش. إن سيادة الأمين العام يعرف، وأنتم أنفسكم تعرفون وأنا نفسي أعرف ماذا نفعل! اعتذر مرة أخرى إذا صدر مني كلام قد يفسر بأنه موجه إلى شخص بعينه... نحن إخوان، وقصدنا ألا يحكي أحد في حقنا، أن يكون رؤساؤنا راضين عنا..

قال شفيق وهو يتثاءب غير مُعنى حتى بستر فمه:

- المهم هو المصلحة العامة!

وأيده أبو السعود:

- صحيح، وهذا الاجتماع يا شهاب بك مفيد جداً. توجيهات قيمة.

وأخفى محاولة تثاؤب.

قال شهاب:

صحيح، ومن أولى برؤسائنا بتقدير الأعمال النافعة للمصلحة العامة! من يشك بحكمة سيادة وزيرنا، سيادة أميننا العام باعث الحركة والحياة في هذه الوزارة التي كانت ميتة قبله! أنا أتكلم عن معرفة. أؤكد لكم أن سيادته يأخذ معه اضبارات إلى البيت! أكثر من هذا، أحياناً يقع لي أن أنسى مصير معاملة من المعاملات.. وإذا سيادته يقول لي قولة الواثق من نفسه: «شهاب، رح فتش في الإضبارة الزرقاء، هناك، في الخزانة اليمنى، الرف الفوقاني. هذه معاملة يرجع تاريخها إلى الشهر العاشر من العام الماضي...» يا إخوان، شيء لا يكاد يصدق، معجزة... وسيادته لا يمل من أن يقول لي: «أنا يا شهاب ما لي هدف إلا المصلحة العامة. في أي شركة يعطونني أضعاف

راتبي هنا، ولكن المصلحة العامة هي التي تكسر ظهري!»... وهكذا إذن سنتصرف إلى أشغالنا. وأعتقد أن دماء جديدة ستتفجر في عروقنا ما دام نبراسنا سيادة الأمين العام، أليس كذلك يا سيد محيي الدين؟

- من كل بد سيدي...

- إذا وجد واحد منا نفسه من غير شغل نبشه من بطن الأرض. ليكن سيادة الأمن العام قدوتنا وهادينا. أنا لما كنت رئيس دائرة مثلكم كان يقع لي أن أرى نفسي في بعض الأحيان من غير معاملات، فأكاد أجن ما لكم عليّ يمين! ماذا كنت أفعل في مثل هذه الحال يا حزركم؟ اقرأ جريدة؟ كتاباً؟ أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم. هذه ما فعلتها في عمري. أنا في حياتي ما قرأت كتاباً غير كتب المدرسة... ومن جهة أخرى، يعني دخل عليّ المدير، الأمين العام، على غفلة؟!... الأستاذ سعيد يعرف ماذا كنت أفعل، أليس كذلك يا أستاذ سعيد؟ كنت أفرش الاضبارات التي عندنا وأعيد ترتيبها من جديد. ترتيب الاضبارات يا إخوان مهم جداً. الموظف الذي لا يرتب اضباراته جيداً يضيع. ناهيكم بأن ترتيب الاضبارات يجعل المعاملات مائلة في الذهن دائماً. ولاسيما إذا وضعت على صفحة الغلاف الثانية قائمة الأوراق التي في الاضباراة وتواريخها وخلاصتها. شيء ينعش العين والقلب حقاً... ثم أن الدبوس الذي تشكل به المعاملة يجب أن يكون في الزاوية اليمنى، على بعد إصبع واحد من الرأس: والمعاملات كلها، دبوس فوق دبوس، فوق دبوس! طول عمري في الوظيفة كانت إضباراتي فرجة...

تثاؤب عام. شهاب يسرع في كلامه:

- بقيت مسألة واحدة اعذروني إذا أنا لفت النظر إليها. أنا ما كان في نيتي أن أفتحها لولا أن رئيس هيئة التفتيش نفسه قد نوه بها: روى لي أن بعض الموظفين - لم يخصص المديرية التي ينتمون إليها - كيف أقول؟ يرفعون الكلفة بينهم وبين الآذنين! يا إخوان هذا لا يجوز. الحكومة أساً لا تعتبر الآذن موظفاً الآذن ليس له تقاعد، ولا مكتب...

تململ، حركة بين الجالسين. سعيد ينهض متجهاً نحو النافذة على مهل ويداه في جيبي بنطاله. شهاب يلهوج الكلام:

- وهكذا إذن. أنا شخصياً لا أهتم لهذه الأمور. أساساً ما عندي وقت. شغلي يطمرني كما ترون. كل دقيقة لها قيمة. ولكن المهم أن ننتزع الأفكار التي قد تسيء إلى مديريتنا من أذهان كبار الموظفين على الأقل... قد تحفر الأفكار في دماغ الوزير فيلغي مديريتنا والعياذ بالله، ويلحق دوائرها بمديرية أخرى... تصوروا أن كارثة من هذا النوع ليست مستحيلة وتصرفوا على هذا الأساس. أعوذ بالله أنا لا أطيق مجرد تصور ذلك.. تفضلوا، تفضلوا إلى أعمالكم...

حركة خروج تشبه اندفاع التلاميذ عند قرع جرس الانصراف يوم الخميس. سعيد يعود إلى مكتبة في حركات وانية منطفئة وهو يتثاءب. وبالحركات ذاتها يمد يده إلى ورقة في جيبه ويقرأ بصوت مسموع:

«وأحوك من جديد رقعة الألفاظ التي خلفها الموتى الذين ليس بهم حاجة إلى دفء الكلمات وهم في حقول لا يطلع عليها ضوء القمر..».

وقال يحدث نفسه:

- من أين نقلت هذا الكلام؟

* * *

الدفتر

-١-

حينما انتهى حملت حديثه من أساسه محمل التطرفي والتندر أنا أعرفه جاداً صادقاً أبداً. ولكن، ربما كانت عشرتي أنا هي التي أغرته بالاختراع... فأنا كثيراً ما اختلق له حكايات، أركبها تركيباً، أو أبني على حبة من واقع قبة من خيال فيه من التشريق والتغريب ما يشبه حكايات ألف ليلة وليلة.. ولكني سرعان ما أعود فأكشف له عن مواضع الاختراع، بعد أن أكون قد استمتعت بتصديقه الطفولة العذب.

ولم أكتمه قلت:

- بهجة، قل لي ألم تخترع هذه الحكاية اختراعاً؟

فبدت عليه الدهشة:

- إن الصدفة وحدها هي التي أطلعتني على الدفتر كما قلت لك...

- ولكن إنساناً مثل مظهر.. كل ما يوحي به مظهره هو الثقل، الوزن، التعالي.. فهل يعقل أن ينحدر إلى مثل هذا العبث، هذه المسكنة إذا شئت.. أكاد لا أصدق!..

قال بهجة:

- أكرر: أنا لا أملك أن أعيد تلك الصدفة لأريك بعيني رأسك أني لم أختلق ولكن، عندي برهان من نوع آخر، حدسي إذا شئت.

- أي برهان؟

- اذهب الآن، واشرب عند مظهر فنجان قهوة، وراقب وجهه. وقف. حدثه في البدء أحاديث مبعثرة.. ثم أنْهِ إليه هذا الخبر: «عبد الباري يوسف

انتدب للتدريس في مدرسة الوزارة المهنية، لقاء تعويضات دسمة!».. وهذا صحيح، نقلته إليه أنا صباح اليوم. أنا لن أخبرك عن ردة الفعل عنده. اذهب أنت نفسك واستكشف ثم أرجع لنتحدث..

قلت:

- عبد الباري يوسف انتدب للتدريس في المدرسة المهنية؟

- أي نعم.

- ويدرس إيش؟

- التربية وعلم النفس.

انفجرت ضاحكاً:

- أنت تمزح معي!

- لا.

- ولكنه يكاد يكون أمياً!

- عندك أنت.. ولكنه عند الكبار في الوزارة من علماء النفس.. إنه مقرب، ويجب أن تكون له حصة في «الطابق»!

- تقصد في الوزارة – المزرعة!

وساد صمت قصير. وقلت:

- طيب، هذه مسألة أخرى.عد بنا إلى مظهر: ما دمت أبلغته النبأ أنت فبديهي ألا يكون له رد الفعل الأول عندما أعيد أنا الكرة.

- لا أريد أن أزيدك إيضاحاً. اذهب وعد إلي..

-٢-

ولم يكن بين مظهر وبيني من نقاط التلاقي إلا «عبقريتنا» الجحودة، ولعل هذه، إذا اجتمع مظهر وبهجة، هي نقطة التلاقي بينهما أيضاً.. عبقرية

جحودة في هذه الوزارة «المز فتة» (الكلمة لمظهر)... في الأسبوع، في الأسبوعين مرة يزورني مظهر.. يدخل على الغرفة وهو يقول متفضلا: «أظن أننا نستحق فنجان قهوة!» فأجيب أنا متصنعاً الجذل والحفاوة: «أهلاً، أهلاً.. فنجان ذهب، فنجان الماس!» ويهيمن صمت قصير، ثم نعود إلى: «أهلاً!» - «أهلاً»، «كيف الصحة؟» - «كيف الصحة!».. ويعود الصمت.. ثم فجأة، ينط مظهر على أية مناسبة، ويروح يدق «الباب المشترك».. فإذا كنت لحظة دخوله، اقرأ في جريدة تتهد وأنشأ يقول: «والله ما أحد فاهم هذه الوزارة الزفت غيرك. أنت لا تحمّلها. لا تفكر في الأعاجيب التي تدور حولك. والله معك حق: أهي تستحق أن يهتم الإنسان بها! هذه المقبرة المهجورة للكافيات!»... وأتنهد أنا بدوري من أعماق القلب: «راحت علينا يا مظهر بك.. عدنا لا يفهم أحد علينا.. هذا الجيل الجديد في الوزارة، وما أدراك!» ونزخر نتذكر أمجادنا:

أنا، نجحت درجة خامسة في المسابقة التي دخلت فيها الوظيفة. هو، قدم تقريراً إلى وزير سابق حاز إعجابه.

أنا، ترجمت رسالة آتية من هيئة الأمم المتحدة ترجمة مضبوطة جداً.

هو، كان عضواً في لجنة الموظفين.

أنا، كنت من قراء مجلة الرسالة القاهرية أيام كان الوزراء أميين.

هو، شرحه!

وأما الآن فنكاد تكون بلا عمل!

ولكن مصيري أنا أهون من مصيره هو على أية حال، فأنا قيّم مكتبة الوزارة، ولي ولع بالقراءة ليست تلك القراءة المنظمة التي تمسك فيها خيطاً يفضي إلى غاية.. ولكنها قراءة مَرَضية تشبه التدخين. فأنا أقرأ في قاموس روبير، وأقرأ السلسلة السوداء، وأقرأ الجرائد التي تفرشها أمي على رف المطبخ.. ومن هنا كانت الساعة التي يقضيها مظهر عندي، كل أسبوع أو

أسبوعين، تسلمني إلى كآبة غلابة، أكاد أنفجر معها باكياً. إنه يداورني، يحاصرني، يلملمني من مساراتي المبعثرة و.. يحبسني في قنينة!! كل شيء عنده مظلم: الوزارة، الأسرة، الأولاد الذين تدنت ثقافتهم عما كنا نزدان به نحن العباقرة.. الآذنون يتطاولون على كبار الموظفين ويمازحونهم (إنه يعرض بي أنا هنا!)، الترفيعات التي لا تهتم لقراءة مجلة الرسالة القاهرية الباسلين الميامين، أو أصحاب التقارير التي تشبه السبائك الذهبية التعويضات التي ينهبها المنافقون..

-٣-

ودخلت عليه. كان مكتبه في آخر الممر. تلج بابا منعزلاً عن الممر فتجد نفسك أمام بابين، غرفته هي اليسرى. هذا الانعزال المضاعف جعلها منقطعة عن ضجيج ممر الطابق والوزارة جميعاً.

- نعم سيدي!

- أي ساعة يا ابني لازم نرن حتى تشرف! خذ هذه المعاملة إلى الديوان وأوص لنا على.. قهوة؟ أي نعم. اثنين قهوة. قل له لمظهر، قهوة مضبوطة، على كفيك، فهمت علي؟

وخرج الآذن. قال مظهر:

- أي سيدي، هات احك علينا.

تنهدت:

- ما عساي أن أحكي؟ يظهر أنهم لا يعتبروننا موظفين في هذه الوزارة العجائبية.

- طبيعي. نحن أولاد الجارية، نحن.. فيه أخبار جديدة؟

- لا يخلو الأمر.

- مثلاً؟

مثلاً صاحبك عبد الباري..

وتوقفت.. انصرفت إلى تأمل وجهه. كان مقبلاً عليَّ، مستمتعاً، معذباً، مثل إنسان يحك جرحاً ينتدب.. لم يكن قد أولاني صدره ووجهه جميعاً، ومع ذلك، فقد زحفت ظلال قاتمة إلى ما تحت عينيه، وتقارب حاجباه الفاحمان، وتطبق جبينه. قال:

- شوبه؟

زد على ذلك أنها شمالية، وعلى نافذتيها سجف مسدلة. هنا، في هذه الظلمة الخفيفة، يعشش مظهر.

قال وهو يصافحني:

- دقيقة أوقع على هذه المعاملة وأكون كلي لك. ماذا جرى حتى شفناك؟

كان في حوالي الخامسة والأربعين، ولكن الشيب غزا رأسه كله، وتغضن وجهه. حاجباه الكثيفان بقيا صقريين فاحمين. الأسنان مهمشة مرقعة. البذلة ثمينة وربطة العنق فاخرة..

وضغط زر الجرس، وعاد يرحب بي:

- أهلاً!

- أهلاً:

- كيف الصحة؟

- الله يحفظكم.

- نحن أيضاً في عزلة، مثلك في المكتبة. سقط المتاع!!

الوزارة كلها هكذا..

- الوزارة! هذه وزارة؟ هذه دار تنابلة..

وعاد يرن الجرس:

- الآذنون أنفسهم ما فيهم حيل!!

ودخل الآذن:

- ليش ما بلغك الخبر؟

- لا.

- أي سيدي قرار بتعويضات جديدة.

تبعثر وجهه وهو يثب في مقعده ويتجه إلي بجذعه جميعه:

- شو؟

- قرار بتعويضات جديدة لعبقري الوزارة عبد الباري يوسف.

- عن إيش من فضلك؟

- التدريس في المدرسة المهنية..

- بالله عليك؟ ألا تمزح؟

- انزل اسأل المحاسبة. ولماذا تستغرب؟ هذا نابغة..

- أي نعم، اللهم أن هذا صحيح.. نابغة في النفاق للوزير والأمين العام واللألأة بين غرف الكبار.. أي سيدي مفهومة.. القصة من ألفها إلى يائها مفهومة.. اتبع السبل الملتوية، تذبذب، تصبح الوزارة ملكك: صلات مع الوزير، خدمات منزلية للأمين العام، مسح جوخ..

وتنهد في حرقة وهو يضيف:

- أساساً عبد الباري هذا من أصحاب العريضة..

- العريضة؟..

- أي نعم، العريضة المشهورة..

وتتحنحت أساريره عن ابتسامة حاقدة، تقطر سماً، ومد يده إلى جيب سترته الداخلي، وسحب محفظة نقوده، وأخرج – في حرص عظيم – ورقة تكاد تكون متهرئة، وأعطاني إياها:

- خذ، اقرأ هذه:

وقرأت: «مقام وزارة... نحن الموقعين أدناه موظفي الحلقة الأولى في هذه الوزارة قد نما إلينا أن في نية الوزارة ترفيع السيد مظهر... ترفيعا استثنائياً درجتين كاملتين.. نحتج على هذا التدبير ونطالب...».

كان تاريخ العريضة يعود إلى خمسة عشر عاماً مضت، أي قبل دخولي الوزارة بخمس سنين. ورحت أقرأ الأسماء: ثلاثة ماتوا، وأحد أحيل على التقاعد، ثلاثة نقلوا إلى وزارات أخرى، لم يبق من الموقعين إلا سبعة نفر..

ومضى مظهر يقول مغموماً، كأنه يرثي نفسه:

- عبد الباري هذا استفاد في تصنيف الـــ ٤٧ درجتين، وما اعترض عليه أحد. وأما أنا..

- درجة على حد علمي.

- درجتين أنا أقول لك.

- عفواً ولكني متأكد من أنه لم يستفد إلا درجة واحدة..

- درجتين يا سيدي درجتين..

- درجة وا...

فتضاحك الزميل ومد يده إلى جيب بنطاله الصغير وأخرج مفتاح يال، ففتح درجاً في مكتبه، وسحب دفتراً سميكاً، جلده من المقوى، تلمح عليه آثار القدم وقلب هذه صفحات وهو يتمتم: «يو، يوسف، يو، يوسف..» ثم توقف وقرأ. وعاد يقول منتصراً:

- أي أنا لا أنسى، أنا. درجتين. قلت لك درجتين يعني درجتين..

هل هذا هو الدفتر الذي حدثني بهجة حديثه؟ أضحى فضولي ممض.

وقال مظهر وهو يشير إلى العريضة:

- وأما هذا الذي تقرأ اسمه في الرأس فقد انتقم الله منه. قصف عمره وهو شب..

كان يشير إلى اسم المرحوم بسام الزيات.. إذن قصف –الله- عمر – بسام – الزيات انتقاماً!.. لأنه وقع العريضة!.. كان بسام صديقي. كنا شلة صغيرة تقف اللقمة في حلق أحدنا إذا صادف وتغذى من دون رفاقه. وكان بسام يسكن وحده في بيت واسع فيه كل شيء، من البراد إلى الغاز إلى الأسرة الإضافية. هاهنا كان مأوانا، بيتنا. لكل منا مفتاحه الخاص. أحياناً كنا نقضي يومين أو ثلاثة لا نذهب فيها إلى بيوتنا. كنا نطبخ، نجلي، نغسل، نكنس، نقرأ، نلعب. وكان ارتباط بسام بالحياة خفيف الظل وموته كذلك: ذات ليلة وقف قلبه، هكذا فجأة، ومات. لم يفجع أحداً في رزقه. أهله كانوا ميسورين. ولم تكن له امرأة ولا أم ولا أب. ولكنه فجعنا نحن، حرمنا ملاذاً لم نجد له قط بديلاً..

ورفعت عيني إلى هذا الوجه المبعثر الحاقد. إن مظهر يحمل شهادات عليا، وقد وصل إلى مرتبة عالية في الدولة. أوفد عدة مرات إلى أوروبا بأموال ينتزعها الجباة من الفلاحين كما تسلخ ثمرة فجة، لما تنضج عن غصن نحيل.. وعاد، لم يفد من أوروبا إلا هذه السحنة المقلوبة، وهذه العبقرية الجحودة، عبقريتنا المشتركة أنا وهو، و.. أن الله قصف عمر بسام الزيات لأنه وقع على عريضة حرمت مظهر ترفيعا استثنائياً..

قلت:

- ولكن المرحوم بسام كان طول عمره زاهداً في الترفيع أو المغانم العابرة.. ولا أحسبه وقع العريضة إلا من قبيل المسايرة..

فعادت الابتسامة الصفراء، مشفقة من جهلي المطبق هذه المرة:

- إذا قلت هذا الكلام عنا نحن، أنت وأنا، اللذين ضيعنا عمرنا في الكتب، في توسيع آفاقنا، كان كلامك صحيحاً. وأما الآخرون.. أنت لا تدري شيئاً مما يدور حولك. كان بسام أحرص على الترفيعات الملتوية والتعويضات المنهوبة من عبد الباري المنافق نفسه. وأنا لا أريد أن أحكي في

حق الأموات، اذكروا محاسن موتاكم. أصلاً الرجل كان صديقك. ولكن زهد بسام لم يكن إلا حيلة، دهاء..

ويظهر أنه قرأ النفور الذي لم أوفق في محوه من قسمات وجهي. فمد يده إلى الدفتر من جديد، واستمر يقول:

- إذا شئت البرهان فاقرأ هنا. هذا الدفتر لا يطلع عليه أحد. ولكنك أنت مثل أخي...

واستيقظ فضولي مرة أخرى حتى طغى على تحنني لذكرى بسام الموجعة. وأخذت الدفتر. لا بد أنه من دفاتر العقد الثالث من هذا القرن. الدفاتر في تلك الأيام، كانت على هذا الشكل: الصفحة الأولى من الغلاف تحمل صورة يدوية، بدائية جداً لتلميذ ببنطال قصير (كنا نحن نروح إلى المدرسة أيامها بالجلباب والحزام الحريري) وقد كتب تحتها: «العلم يبني بيوتاً لا عماد لها، والجهل يهدم بيت العز والنعم»، وأما الصفحة الأخيرة من الغلاف ففيها جدول الضرب ذلك الجدول الذي كنا نخافه أكثر من عزرائيل، جدول الضرب القاتل.

وسمعت صوت مظهر يقول لي:

- افتحه.

ففتحته. قال:

- الصفحة العاشرة. اقرأ.

ما هذا؟ شيء يشبه سجلات الموظفين في مديرية الذاتية، في الرأس عنوان: «بسام الزيات»، تحتها ملاحظة «لا يحمل شهادة عليا» ثم حقول: اسم الوظيفة، تاريخ التعيين، الوظيفة المنقول إليها، أساب النقل (ترفيعاً مثلاً) التعويضات الإضافية..

قال مظهر:

- اقرأ في حقل التعويضات:

قرأت: «بموجب القرار رقم... تاريخ... المنشور في الجريدة الرسمية، العدد... تاريخ... منح تعويضاً إضافياً يعادل ربع الراتب غير الصافي، لاشتراكه في تصحيح أوراق مسابقة لانتقاء موظفين من حملة شهادة البكالوريا..

ملاحظة:؟ كان صاحب العلاقة والمنتفعون الآخرون، أعضاء اللجنة، يضيعون الوقت في طق الحنك والعلك، بينما قمت أنا وحدي بالعبْ كله..».

وقلبت الصفحة: اسم آخر. صفحتين أخريين، ثلاث صفحات.. كل أصدقائنا ومعارفنا، حتى في وزارات أخرى، مسجلون في هذا الدفتر.. وركضت أصابعي. كنت أود أن أصل إلى حرف الياء: ياسين، ياسين.. ولكن يد مظهر امتدت إلى الدفتر بلطف حازم فأخذته وأعادته إلى مخبئة المحصن..

وتنحنحت مخيباً، وقلت حتى أقول شيئاً:

- دنيا... هذه البلاد لا ينفع فيها إلا المنافقون..

- هذا صحيح.. الشرفاء، الأذكياء..

- راحت علينا يا مظهر بك. أين أيامنا؟ ولكن عبد الباري هذا.. ما هي كفايته العظيمة؟

وعدنا نحسب تعويضاته، بعد هذا الندب الأخير إلى المدرسة المهنية، لا ندع حتى أجزاء الليرة السورية و.. نتنهد في مهابة وجد عظيمين يليقان باثنين من كبار موظفي الوزارة، من عمدها.. من.. خشبها المسندة..

*   *   *

من أين تؤكل الكتف

أنا أعلم أنه يحكي في حقي، يسميني «الرجل الصغير». ماذا يريدني حضرته أن أفعل؟ أن أتشرد مثله في الأزقة وأرابط خلف زجاج كل خمارة من خمارات البلد لأرصد انطلاق البنات من المدارس، وأشهق كلما تناست ضفيرة على ظهر لطيف الاستدارات، على حد تعبيره دائماً؟ أيريدني أن أقرأ الصحف والمجلات وأنفق نصف راتبي في شراء كل كتاب يخربشه مخربش ويدفع به إلى الأسواق؟.. هو حضرته، لا وراءه ولا قدامه، مقطوع من شجرة، وراتبه مع ذلك، أربعمائة وخمس وعشرون تصل إلى يده ثلاثمائة وسبعاً وخمسين. وأما أنا، الله لا يركع مخلوقاً فراتبي مائتان وخمسون مع التعويض العائلي، امرأة وولدين اقبضها شيئاً لا يسمى من هزال وركاكة!

أنا لا أفهم تصرفاته أبداً. تلك المرة روى لنا أنه لا حق بياع «للمونة يا بصل!» كان يضرب في أربعة أركان الحي لا يبيع. كان، هو لا البياع، قلقاً مشفقاً، يبثها إلى الله في سره: «يا رب اجعله يبيع!» فلما باع البياع بيعتين أو ثلاثاً صار يبثها: «يا رب اجعله ينفق!». أنا من جهتي إذا صادف وانتبهت – وهذا نادر لأني لست قاضيا لمثل هذا الهراء – إلى بياع بصل ما لم يوحِ إليّ إلا أنه يربح في الكيلو أربعة فرنكات، أحياناً أكثر، زيادة على السعر في سوق الهال. لذلك أنا لا أشتري أغراضي إلا من سوق الهال مباشرة. أنا بفضل الله لا أحرم أولادي شيئاً. ولباسي حسن. الناس يتشكون من قلة البيوت المعدة للأجرة. أي سيدي أنا مستأجر بيتاً سياحاً نياحاً، فيه ساحة سماوية وأحواض مزروعة أزهاراً: عسلية، ياسمين، نفنوفة... البيت إيجار قديم مئة وخمس وعشرون ليرة. قد تقول لي مئة وخمس وعشرون عبء على ميزانية موظف معيل معاشه مائتان وخمسون. هنا تلعب الشطارة والحرقة دورهما:

نعم أننا بيتي بمائة وخمس وعشرين ولكني لا أسكن إلا الغرفتين اللتين تحت ومنتفعاتهما. وأما غرفتا فوق وضعت في كل واحدة تختا وشقفة منضدة وخزانة اشتريتها بالبلاش من سوق الأورام وأجرّت كل واحدة لطالبة جامعة، أحزر بقدي؟ الله الوكيل بخمس وسبعين للواحدة. يعني أني ساكن مجاناً، أكثر من ذلك أني أقبض «إكرامية» خمسا وعشرين!.. الحياة صعبة، وتحتاج إلى قليل من الحيلة. وإلا وجب عليك أن تحمل كشكولك وتستعطي أكف المحسنين ها، ها ها والعياذ يا لله!.

أعود بك إلى سوق الهال: أنا كل مساء أحمل سكّي وأذهب إلى هناك. أنت تعلم، عند المساء يكون البياعون متساهلين. إنهم يخافون أن تكسد بضاعتهم إذا تقدم الليل، ولذلك فهم يبيعون بالهلك. في هذه اللحظات ذاتها أنصب لهم كمائني وأصطادهم. أملأ السك وأرجع إلى البيت محملاً مزملاً بمونة الخضرة لأسبوع أحسن باذنجان الله يلعن الكاذب، أفخر بندورة. أطيب فواكه. أنا لا أحرم أسرتي شيئاً، ولكن الحياة تحتاج إلى شطارة..

وأما حضرته فيشتري من عند سمان الحارة. إنه يجهل أن سمانة الحارات فخاخ تنصب للموظفين. سمان الحارة يا أخ حرامي برخصة من البلدية.. أكثر من أربعين بالمائة تفرق معك إذا حذوت حذوي مالك علي يمين.

ما عساي أن أصنع بجلساته وراء زجاج الخمارات؟ كأنني فاضٍ لها أنا! قعد مرة يحكي لنا أنه كان يجلس في ركن من خمارة خلف الباب مباشرة. أمامه كان الجام وفيه قناني وسكي. كان المقبلون على رصيف الشارع في الخارج، ترتسم أشباحهم في صفرة الويسكي، ويبدون كأنهم يتحركون وهم في القناني، فإذا تختفي، ولكنها تظل في القنينة. قال أن المنظر أذهله، وأعلن عن استعداده لدعوتنا إلى تأمله لأنه «ليس راء كمن سمعا»، والمنظر مذهل قال أيضاً أن في ذلك رمزاً عميقاً.

يا للروعة! إن حضرته يسمّي هذا استنفاداً للمنظر حتى الإيلام، حتى النشوة، حتى الخمار: الناس يضطربون في قنينة! يا فرحتي! ما عساي أن

أصنع بأناس يتحركون في قنينة إذا كان عليّ أن أدفع للخمار، استنفاداً للمنظر حتى النشوة، أربع خمس ليرات؟ لماذا لا أرد هذا المبلغ على عيالي؟ وأما أنا فالمنظر الذي يوصلني إلى النشوة هو أن أوفق بكيلو ليمون أرخص بفرنكين من الشليف!

ذلك اليوم، وهو يروي لنا حكاية الأشخاص الذين يسعون في قنينة، كانت عيناه كأنه عاشق وقال كأنه يهمس همساً مغنّياً:

- فإذا أطلقت عيني في الأفق أمامي ظهرت لي قطعة من السماء ضربت فيها السحائب بضع ريش ملونة. هذه القطعة من السماء كانت مؤطرة بأغصان الأوكاليبتوس، أشعة الشمس الغاربة تذهبّ حواشيها. هناك اللانهاية الملونة وهنا الاضطراب في قنينة... كدت أجن!

كاد يجن قال!

هراء! هذيان سكير!

مثلاً هو يتشدق بأنه طلق زوجه لأنها تكذب. قال أنه صب لها مؤخرها صبة واحدة، خمسة آلاف ليرة كانت جاءته من حصة بيت ورثه عن أمه.

لماذا يمسك حضرته الأمور على الأصعب؟ أنا ذات مرة، وكنا أنا وزوجي عروسين ما نزال، وكنت فصلت لها ثوباً كلف حوالي أربعين ليرة. وأدخل المطبخ فجأة وإذا أنا أرى زوجي بالثوب الجديد ترتب بعض الأواني. طار عقلي من رأسي: قلت لها:

- يا مرة، يا مرة، أتعلمين أن ثوبك هذا قص المقص، وأنه كلف أربعين ليرة... ومع ذلك تدخلين به المطبخ! ماذا لو كببت عليه زيتاً، ماذا لو تسخم من دخان الوجاق؟!..

يظهر أن زوجي غضبت، ولكنها كتمتها. ذلك أنها لم تلبسه بعد ذلك قط... وأما أنا فلما رأيتها لا تلبسه نططت على المناسبة وبعته فلفلاً وقرنفلاً لصديق حاله ضعيف وامرأته تحب الأثواب الجميلة..

مرة أخرى كانت زوجي حبلى بابنتي ومررنا ببائع عوجه في بواكير ها فسألتني أن أشتري لها ربع كيلو. قمت قبضت على معصمها بقوة وهمست في أذنها:

- تعالي أقول لك كلمة.

سحبتها بعيداً، لما ابتعدنا من البائع قلت لها:

- أتعلمين أن الأوقية بليرة! اصطبري أسبوعاً أو أسبوعين تصبح الأوقية بأربعة فرنكات...

أنت سيد العارفين. النساء مثل الأطفال. يكذبن، يحتلن، يحببن العوجة يمططن لك بوزاً طوله شبران حتى تشتري لهن ثوباً بأربعين ليرة، فإذا اشتريته لهن دخلن به المطبخ لاهيات... لو أنهن يشقين تسعة أيام أو عشرة حتى يربحن الأربعين، لو أنهن يحملن سكّن وينزلن إلى سوق الهال وتعرق جباههن في فصل الخيار والكوسا والبندورة والبقدونس لكنّ أكثر شعوراً بالمسؤولية. قال طلق امرأته لأنها تكذب! لتكذب ما شاء لها خيالها أن تكذب. ما ضر! ما دامت أعنة البيت مقبوضاً عليها بيدين من فولاذ، يدي رب بيت يعرف من أين تؤكل الكتف، من أين تؤكل بسعر الكلفة! ها، ها، ها...

* * *

الحضور في أكثر من مكان

العتالون

الوزارة تقع في حيّ تجاري. مكتب صباح المطلُّ على سوق الحيّ ذو نافذة عريضة تتصاعد إليها مختلف الأصوات: سماسرة السيارات: «راكب واحد لحلب»، «على حمص، على حمص»، «بيروت، بيروت، بيروت»... باعة اليانصيب: «بكره قبض الملاحف يا إخوان. بكره السحب بكره»... وتتسرب من النافذة كذلك ألوان من الروائح: فلافل تقلى، معلاق مشوي، مازوت... من النافذة العريضة تظهر أيضاً أعالي البنايات ومداخن المطاعم من التوتياء ثخينة، تتعمشق عدة طوابق وتنتهي في السطوح بما يشبه قبعات زرّاع الرز الفيتناميين. وقد تظهر على سطح بعيد امرأة سمينة، صدرها راب وهي تنشر غسيلاً، في حين يكون على سطح آخر غسيل منشور.

صباح، رئيس المكتب، وحده، ينظر من النافذة ولكنه لا يرى شمس آذار تسطع بكل عذوبتها وضيائها. ليس في الأفق غمام ولكن صباح عيناه حزينتان وشعره أشعث يتحدّر على جبهته، لحيته لم تحلق منذ الأمس وأن يكن في وجهه شيء أنيس. حزين ولكنه أنيس.

بعد أن أطال النظر من النافذة حوّل عينيه إلى ورقة برقية كانت أمامه، وقال لنفسه بصوت عالٍ لا موجودة فيه. الأخرى أنه صوت سخرية ناعمة لا تكاد تظهر:

«لو أنها في الأقل وضعت صبياً. يقولون أن الزواج هو النهاية المظفرة لبحث الإنسان عن نصفه الثاني، نصفه المكمل. بم تَكملني امرأتي؟- سليمان يسمي امرأته «هدى ال عندي» - بمَ نكملني هدى ال عندي؟ هي لا تنظم الشعر. لا تحسن خياطة القمصان. لا تجيد الطبخ. ليست جميلة ولا ذكية. أهلي لم يحبوها. هي لم تحبهم. لم تحب أحداً قط. لو أنها تحسن السماع في القليل.. في ليالي الوحشة، حينما أكون في حاجة إلى إنسان يسمع شكاتي،

تكون هي نائمة! بعد عشرة عام مديد، ما لون العاطفة التي أحملها لها؟ أنها شفقة مثلومة بين عواصف من غيظ. تمضي أيام ولا أنظر إلى وجهها.. ثم تضع، آخر الأمر، بنتاً! هذا ما كان يسميه العرب ثالثة الأثافي. إنها تطلب إليّ كذلك أن أبرق لها بالاسم الذي أقترحه. (يعود إلى النظر في البرقية) سأبرق لها (يضحك في خفوت) سأبرق لها أن تسميها «ثالثة الأثافي»... قدر الصبي في هذه البلاد أهون من قدر البنت أمي تقول إن البنت بجنح مكسور. ومع ذلك من يدري! قد تكون البنت أرغد، أقلّ ثقلاً! سليمان كان يطمئني أمس. قال إنه رأى في المنام أن امرأتي وضعت صبياً مثل البدر إذا أبدر».

وتضاحك في خفوت، ثم كبس زر الجرس عن يمين فلم يلبس أن دخل سليمان وهو رجل في حوالي الخامسة والأربعين نحيف، معروق، شاحب، صغير العينين، إحدى أسنانه الأمامية ساقطة. وهو ظاهر الوداعة، أميل إلى الابتسام الغافر، رقيق، في إيماءاته تحرر وانسراح عفوي يبعدانه من أن يكون آذناً محترفاً: حتى لباسه عادي، مما يلبس الموظفون إلاّ بعض الرثاثة والقدم. قال باسماً:

- فيه شيء؟ قال صباح:

- سلامتك. أين كنت؟ أنا سألت عنك قبل قليل:

- كنت أعاون المدير في ضبّ أغراضه. تقرر الانتقال إلى البناء الجديد اليوم، أما علمت؟

- آخر همومي أن أعلم، قالها وهو يبتسم ناظراً في عيني سليمان. قال هذا:

- مسكين مديرنا! تعب جداً. رايح جائي إلى غرفة معاون الوزير. لا تقول إلاّ مكوك حايك. يتعب نفسه كثيراً، ويصدر من الأوامر ما يكفي أبرع مديريات فوق مديريتنا. «المديرية» ما نفعته كثيراً. أتعبته. يعني، قل لي بالله يا أستاذ صباح، زادوا له معاشه بعد المديرية؟

- لا..

- إذن لأيش متلبّك، بعضه مشربك في بعض، حرير على شوك؟

- أنت تفهم: مدير! الأستاذ محمود الشيخ مدير الشؤون الإدارية... هذه ليست قليلة!

- ما فهمت عليك. علمي أنك وإياه من مرتبة واحدة، والمعاش واحد.

لم يكن سليمان يطرح أسئلة. الاثنان كلاهما يتحاوران لأنهما يغبطهما أن يتحاورا.

وقال صباح بعد فترة صمت:

- سليمان، كنت أفكر الآن في المنام الذي رأيته أمس.

ونظر سليمان إلي ورقة البرقية في يد صباح وقال مهتماً:

- خير إن شاء الله! فيه أخبار من الجماعة؟

- أي نعم، فيه.

- بشّر، حنطة أم شعير؟

- بنت!

سليمان الآن محرج، يرف بعينيه. يمدّ يده إلى المكتب فيرتب بعض الأوراق من غير أن يرتب شيئاً ويتدفق كأنه يسمّع درساً:

أي، خير إن شاء الله. ويعلم ما في الأرحام! لا نحزن، ما عليه شيء! البنت أيضاً خلقة الله. أنا ال عندي سحبت أربع بنات سحبة واحدة، الواحدة على كتف أختها.. حتى وفّقها الله، آخر الأمر، بمحمدنا الصغير! مرتين خطر في بالي أن أطقّها بضرة، ولكني ما فعلت. عندنا في حوران الحال غير هنا، أنت تعلم. الفرح لا يحب البنات. يأكل حقّها ولا يحبها. يقولون عندنا: بيت من رجال ولا بيت من مال. لا تزعل، كلّه خلقة الله!

- وكيف صحة محمد الآن؟

- مثلما تعلم: يوم مليح وعشرة منعنس. الله، سبحانه وتعالى يقويك ويطعمك عشرة صبيان. لولا صاحبك الدكتور صبري كنا بعنا ما فوقنا وما

تحتنا، الفرشة واللحاف وعفش البيت ويمكن هدي ال عندي أيضاً... وصرفتا حقهن على الحكم... فيه واحد من ضيعتنا يسمي الحكم عطارين والجراحين قصابين. البنت آمنت بالله مثل الشدة والقدَّة. البنات عندي إذا قلت لي الواحدة منهن تمرض، يوجعها رأسها، تسخن؟ لا والله! هذا ربما لأننا لا تدللهن مثل الصبي. تلقى الواحدة منهنَّ مثل الفرس في البريّة أيام الربيع: لا حاجة ولا رسن. في البرد، في المطر، في الزمهرير... شغل الله يا أستاذ. لا تعترض. لا تزعل: الله لا يبعث البنات إلا لحكمة.

قال صباح باسماً:

- وما هي هذه الحكمة؟

قال سليمان وهو يبسط يديه الدقيقتين في تسليم:

- وما يدريني! سبحانه وتعالى، لا يطلع على سره إلا الأولياء وأصحاب الكرامات. يقولون: سرّه في أضعف خلقه. ولذلك شفت لك المرأة أقوى من الرجل، أي رجل يستطيع مقاومة أية امرأة، قل لي؟ هذا أمر الله...

أنت تغريني بالعودة إلى الصلاة!

- لا، ما هو ضروري. أنت بصلاة ويغير صلاة رجل طيب! لا تزعل. روّق بالك: أنت لازم لك فنجان قهوة معدّل حتى يروق فكرك. أي نعم، أنت رجل طيب!

واتجه نحو الباب ولكنّه استدرك وعاد. قال:

- أي سيدي، البارح قلت لي إنك تنظم قصائد. أي هدي نعمة من نعم الله، نعمة كبيرة. سلَّ نفسك يقول تنفرج همومك. أنا أعرف من نفسي: عندنا في الضيعة واحد شاعر اسمه محمد الحسين. كنا أنا وأنا، بقول قصائد في صغرنا. وأهل الضيعة كانوا يسموننا «المضيعين جحشه خالهما»... لعلك مع فنجان القهوة...

قال صباح في ملامة باسمة:

- ولكن الدنيا رمضان...

قال سليمان مُطَمْئناً:

- ما عليه شي. امسحها في ذقني. الخطيئة عليَّ أنا! أنت رجل جاءتك بنت، والله سبحانه وتعالى لا يؤاخذك

- هذه فتوى؟

وضحكا ضحكاً عريضاً خلياً. وبينما كان سليمان يتجه نحو الباب دخل محمود. لقد سمع آخر رنات الضحكة فرفع نظره إلى سليمان مستنكراً. ولكنه استنكار لا يخلو من التهذيب. وأما سليمان فلم يلتفت إليه. مضى من غير حتى أن يهتم له. ومحمود قصير، معوج الساقين، عريض الوجه والفك، أقنى الأنف، علة عجل من أمره دائماً، حديثاً وحركات. لا شك أنه دمث. وحتى عندما يغضب يظل كذلك. فيه شيء لا يسمى من الانكسار، ولكنك تحتاج، لأمر ما، إلى أن تكون على حذر منه. ولهوج الكلام قائلاً:

- أستاذ صباح، اتفقنا أنا والمحاسب. سندفع نحن للعتال يسدد لنا هو فيما بعد، بناء على وصل. وصل يكفي...

قال صباح:

- أنا ما معي ادفع.

قال محمود:

- عفواً هاك خمساً وعشرين ليرة. ولكن لا تنس الوصل.

- وصل ممن؟

- من العتل.

- أي عتال؟ أين هو؟

- أستاذ صباح نسيت؟ أنا رجوتك أن ترسل الآذن يفتّش لنا عن عتال.

وانحنى على زرّ الجرس الذي عن يمين صباح فكبسه. دخل سليمان وهو يرفع حاجبيه إلى أعلى مستفهماً. قال محمود:

- سليمان، فتش لنا أرجوك عن عتال بكراجة ينقل لنا الطاولة الكبيرة التي في الممر.

وخرج سليمان من غير كلام.

في هذه اللحظة دخل أجير القهواتي الصغير وهو يحمل صينية عليها فنجان قهوة يتصاعد منه اللهب، فوضعه على مكتب صباح وخرج. هو أيضاً لم يقل شيئاً.

وبدا محمود مضطرباً. أخذ يتأتي، يتلعثم:

- أ، أ، أستاذ صباح. أود... أنت تعلم، الدنيا رمضان.. والــــــ... والمراجعون...

قال صباح وهو يشعل سيجارة:

- وكيف يدفع لك المحاسب فيما بعد؟

- بناء على وصل، وصل من الحمّال. المبالغ التي لا تزيد على خمس وعشرين ليرة تسدد على هذا الشكل. ولكن، أرجوك أن تفصل الحمال. لا أظن أنه يطاب أكثر من خمس وعشرين كراء نقل طاولة من هنا إلى الحريقة.

- ولكنها كبيرة.

- دبّرها بمعرفتك...

قال هذا وخرج مسرعاً كما دخل. وبقي صباح وحده. جعل ينظر إلى الباب الذي أوصده محمود وراءه ويخاطب نفسه:

«يا مسكين! ترى، وأنت تغازل السيدة امرأتك، ألا يقع لك أن تتوهم أنها اضبارة، فتحيلها إلى أحد موظفيك لـــ... ـــدراستها؟! أعوذ بالله! لو أحالها إليّ لقدمت استقالتي فوراً ولو شحذت! يقولون أن طول العشرة بين الرجل والمرأة تجعل بينهما تشابهاً، حتى جسمانياً.. إذا لم يكن هذا صحيحاً دائماً، فهو صحيح في حال محمود والسيدة زوجته... آمنت بالله، كما يقول

سليمان، نخالهما توأمين.. وساقاها معوجتان هي أيضاً! ومستعجلة مثله! عفواً يا سيادة المدير، هدي ال عندي ما هي أحسن. ولكن حظي خير من حظك في واحدة فقط: أنا لا أشبهها في شيء. أحم! آمنت بالله! لا اعتراض على مشيئتك يا رب! لماذا اخترت لنا هذا الاختراع الجهنمي: الزواج!...

«هذه تسمى امرأة لأنها من أمريء أخذت. ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً. وكانا كلاهما عُريانين، آدم وامرأته، وهما لا يخجلان!»... وتضاحك ثم عاد يقول لنفسه: «وقال للمرأة لأكثرنّ مشقّات حملك. بالألم تلدين البنين... البنين!؟ وإلى بعلك تنقاد أشواقك وهو يسود عليك. وقال لآدم:

ملعونة هي الأرض بسببك. بمشقة تأكل منها طوال أيام حياتك وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الصحراء. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب، وإلى التراب تعود!».

وقطع مناجاته نقر على الباب ثم فتح هذا ودخل سليمان يدفع أمامه رجلاً هزيلاً جداً، يرتدي أسمالاً وهلاهيل عليها من الرقع ما محا أصلها، ويسحب في قدميه بسطاراً ثقيلاً وهو أيضاً مرقع، وفي يده حبل. لم ينظر بادئ الأمر إلى صباح بل راح يتلفت مثل العصفور متأملاً المكان. كان ظاهراً أنه يدهشه. قال له سليمان:

- هذا هو الأستاذ. تقاول أنت وإياه. أنا رايح. المدير يريدني.

ورفع العتال يده إلى رأسه:

- السلام عليكم.

كان صباح في هذه الأثناء يتأمله. قال حفياً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضل!

وبدا العتال متحيّراً حتى يخيّل إليك أن هذه كانت المرة الأولى التي يدخل فيها وزارة ويرى هذا المخلوق المسمى موظفاً. قال:

- الله يزيد فضلك، سيدي.

قال له صباح:

- أمراً؟

- سيدي، أنا العتال.

- أي أهلاً وسهلاً يا أخي. ولكن، أين رفيقك؟

- سيدي أنا مالي رفيق. أنا وحدي.

- رأيت الطاولة؟

- رأيتها سيدي.

- ثقيلة جداً يا أخي. كيف تحملها وحدك؟

- يعين الله سيدي. أنا أحملها وأخليك تشوف بعينك.

- ولكنها ثقيلة.

- يهونها الله، أنا حملت أكبر منها بكثير سيدي.

وبدا أن التحيّر انتقلت عدواه إلى صباح. امتلأت نفسه كآبة وقال في نفسه: «والله يا ابني ثقيلة. يا أخي، والله أخاف أن تتقصّف تحتها مثل العود اليابس. يا قلبي، لماذا لا تصحب رفيقاً يعاونك؟».

قال للعتل شارداً:

- ثقيلة جداً.

- سيدي، بلا معلميه على جنابك، هذي شغلتنا. نحن طول النهار نحمل، نحمل.

قال صباح في شبه همس:

- صحيح!

وأضاف يسأله:

- وكم تريد؟

- خمس عشرة ورقة سيدي.

قال صباح في نفسه: «يا قلبي! خمس عشرة ورقة فقط! يا عمري! خمس عشرة ورقة. كراء نقل طاولة قدّ الغرفة من هنا إلى الحريقة!

يا أخي، أطلب أكثر، أطلب أرجوك. لو أنك صحبت رفيقاً وطلبتما خمساً وعشرين. المحاسب فوضّ المدير!»

ويظهر أن صمت صباح أقلق العتال. قال:

- والله سيدي ما هو كثير!

فطنت، سأعطيك الخمس والعشرين كلَّها. أنت حتماً أبو أولاد صغار. أسرة لا تقل عن خمسة أشخاص أو ربما عشرة. وأمك عجوز مريضة. والدنيا رمضان. مبلغ خمس وعشرين ليرة ضخم عندك يا أخي، يا مكسور الجناح أنت، ثرة! كم من الأشياء الصغيرة تستطيع أن تشتري بها لأسرتك الكبيرة! اشتر لهم شيئاً من الكعك المعروك، وبضعة أقراص برازق. اليوم من كلّ بد. لا تنس. أنا أراهن على أنهم لم يذوقوا الحلو منذ أكثر من شهر. لولا «المقام» لقمت حملت معك بذقني، تفوه! موظف! طفيلي، يعيش على الأكل الممضوغ.

ولكن قولاً واحداً سأعطيك الخمس والعشرين كلّها. لماذا لم تطلب خمساً وعشرين أنت نفسك منذ البداية؟ لو فعلت لأعطيك إياها حالاً.

أنا متأكد من أنك تتوقع مني أن أساومك كما يفعل التجار...

وقال العتال:

- سيدي، لأجل خاطرك..

فأسرع صباح يقاطعه بقوة:

- هل توقع؟

- أوقع؟

- يعني تمضي، امض.

- سيدي، أنا لا أقرأ ولا أكتب!

مفهوم. حتماً. إنك فتى. قد لا يزيد عمرك على أربع وعشرين. خمس وعشرين. ومع ذلك فأنت، قولاً واحداً، تجاهد في سبيل الرغيف منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.

وقال:

- إذن تضع لي بصمتك على وصل.

- أي سيدي.

وأخذ ورقة وبدأ يحرر وصلا. كتب المبلغ خمساً وعشرين ليرة. أنت مشدوه دهشة من هذه القصة كلّها أليس كذلك يا أخي؟ عوّدك التجار أن يزهقوا روحك بالمساومة! سمعت أن لهم دفاتر خصوصية يسمونها دفاتر «الحرفة»، يحصون فيها ما استطاعوا أن يعرّقوه طوال العام من أمثالك، فيجتمع معهم مبلغ كبير... أنت ظننتني واحداً منهم، أليس كذلك؟

وقال للعتال:

- اسمك؟

- صطوف الخلف سيدي.

وتابع الكتابة متمهلاً. من حوران حتماً. وما تزال تدهشك هذه المدينة اللصة الغريبة. ولكن لماذا لم تطلب خمساً وعشرين؟ أنت ستضطرني إلى الكذب. ومع ذلك سأعطيك الخمس والعشرين كلَّها.

ودخل المدير مندفعاً إلى الغرفة عجلان، وشمل العتال بلمحة:

- جاء الحمّال؟ عال، انحلت المشكلة. والكراسي اتفقت عليها مع سيادة معاون الوزير. سيكون في وسعنا أن تجتمع اليوم مساءاً...

أشرفتا الآن على نقل مكتب سيادة الوزير أيضاً...

ومطّ شخص، يمكن أن يكون أحد المراجعين، رأسه، فلمحه محمود في إحدى حركاته الحرذَوْنية. قال له:

- أنت معاملتك صارت في الدراسات. رح راجعهم هناك. أستاذ صباح تلفن إليهم، اعمل معروفاً. (للمراجع) راجعهم. قل لهم: مدير الشؤون الإدارية بعثني، لا تنسَ: مدير الشؤون الإدارية..

وانسحب المراجع. عاد محمود يقول لصباح وهو يفتش في الأوراق على المكتب:

- أستاذ صباح، تذكَّرت: هل مرّ بك إذن سفري، قال لي سيادة معاون الوزير إنه حوَّله اليوم. للعتال) أي يا ابني قديش بدك؟..

- خمس عشرة ليرة سيدي.

قال محمود وبريق فرح ظاهر في عينيه:

- كثير يا ابني كثير. كلّها شقفة طاولة طفل يحملها.. كثير.. ولكن ما عليه شي. أنت رجل على باب الله، مثلنا (لصباح) أي أستاذ صباح، حرّر له الوصل (للعتل) ما بدنا نقول لك عشر ليرات إحدى عشرة. وقعت الوصل؟

قال صباح جافاً:

- لا يقرأ ولا يكتب.

- على بركات الله، أي إذن خذ بصمة إبهامه. أستاذ صباح، خذ هذي خمس عشرة ليرة فراطة. رجع لي الخمس والعشرين (للعتال) ابصم له الوصل يا ابني. نحن ما قلنا لك عشر ليرات مثلما يفعل غيرنا، تكرم ذقنك. غيرنا كان قال لك عشر ليرات، إحدى عشرة في الكثير، لأن المشوار قريب.

قال العتال من غير أن يفهم شيئاً:

- نعم سيدي.

قال محمود لصباح:

- اقرأه عليه، أرجوك، حتى يعرف على ايش يبصم.

قال هذا وخرج مثل الزوبعة.

وبدأ صباح يقرأ. كان يتصرف كالمصاب بمرض النوم:

- أنا الموقع...

كان عليَّ أن أكتب «أنا الباصم». لماذا لم تطلب الخمس والعشرين؟ آه يا ربي!.. وعاد إلى القراءة ذاهلة:

- أنا الموقع أدناه، صطوف الخلف، أقرّ وأعترف أنني قبضت من مدير الشؤون الإدارية بالوكالة أجرة نقل طاولة ثقيلة، ثقيلة جداً..

وماذا بهمك أنت من كلّ هذا العلك المصدي!

- خذ يا أخي خذ. هات إصبعك.

مدّ العتال يديه الاثنين مفتوحتى الأصابع. أخذ صباح إبهام اليسر ودهنه بحبر الستنبة: يا حبيبي، يده شائكة مثل المبرد.

وعاد محمود مسرعاً:

- انحلّت المشكلة؟ سمّعني صيغة الوصل.

مدّ صباح يده بالوصل في حركة وانية. أخذ محمود يُمرّ عينيه على الأسطر وهو يقول:

- يجب عليه أن يعلم على إيش يضع بصمته: اقرأه عليه من فضلك. اقرأه عليه بصوت عال.

قال صباح جافاً دائماً:

- سمعه؟

قال محمود وعيناه في الوصل ما تزالان:

- أستاذ صباح، أستاذ صباح!

كان في صوته ملامة. وتصنّع صباح الجهل:

- فيه شي؟

- أستاذ صباح، أستاذ صباح!

قال صباح ماكراً:

- فيه خطا قانوني؟

- لا، ولكن هذه الـــ... مدير الشؤون الإدارة بالوكالة... أستاذ، أستاذ!

- ما بها؟

- مدير بالوكالة؟

- غلط؟

- لا، ولكن، يعني، قصدي...

- ألنا جلبتها من بيت أبي؟

- لا، ولكن القصة...

قاطعه صباح بقوة:

- أنت أستاذ محمود أول من علمنا التقيد بالبلاغات الإدارية، وبلاغ انتدابك...

- تسميني إذاً سمحت...

وأضاف قاتماً:

- على كل حال شكراً!

- لست على حق في غضبك.

قال محمود محزوناً:

- أنا لست غاضباً... أغضب من إيش؟

ساد صمت محرج بعض الشيء. العتال لا يفهم كلمة واحدة. عيناه تنتقلان بين صباح ومحمود. لعله خاف أن تكون المناقشة إنما تستهدف الصفقة كلّها. أتراهما غيّرا فكرهما؟ وظهر عليه التردد، ثم قال:

- أروح أنا سيدي؟

قال محمود منتشلاً نفسه من أفكاره:

- أي رح أنت يا ابني، رح. لا، وقّف شوي، لحظة.

وانحنى على زر الجرس. دخل سليمان. قال محمود:

- يا سليمان رح مع الأخ. دلّه على البناء الجديد.

قال سليمان:

- أتصور كيف يحمل هذا هذي الطاولة الثقيلة وحده. أنا لما جلبته خطر لي أنه سيساعده رفيق له.

قال العتال:

- أنا مالي رفيق. أنا وحدي.

قال سليمان:

- ولكنها ثقيلة!

قال محمود في حدة قليلة:

- وأنت ما دخلك؟ رح معه دلّه قلت لك.

خرج العتال وسليمان. عاد محمود لينا، مكسوراً. قال:

- ألا تبدِّل لي هذه الصيغة؟

- مثلما تريد. أنا أبدّلها. ما يهمني؟ ولكن، في هذه الحال، تكتب أنت الوصل بخطك. أنا لا أتحمل مسؤولية. معاون الوزير يغضب، ربما!

تكوّم جبين محمود من تفكير، وجلس على حافة كرسيّ قرب المكتب:

- كان قصدي... يا الله سيدي.. ولكن المسألة داخلية من أساسها. بيننا وبين المحاسب فقط. كان قصدي أن لا نطمعهم فينا. صغار موظفي المالية. وبعد كل واحدة، أمس كنت عند سيادة معاون الوزير في البيت...

قال صباح في إهمال:

- في بيتك؟

- لا، في بيته. كنّا في زيارته... نحن نزوره. بيننا زيارات.

- ويزورك هو؟

- أعوذ بالله! تتصور؟ معاون وزير! هذا سعره سعر وزير!

- أي نعم. نحن أصحاب من الروح للروح. والسيدة زوجته تحبّ امرأتي كثيراً. تتعاونان في شغل الصوف، وفي أشغال البيت أيضاً. تقول عن امرأتي أنها سيدة اجتماعية.

قال صباح:

- أنا امرأتي وضعت بنتاً.

- صحيح؟ (مع أفكاره) أمس اشتريت لسيادته قطعة جوخ انكليزية كوبونه، لقطة، بسعر لا يخطر على البال. خبطت سوق الحميدية والحريقة عشر مرّات أستغفر الله العظيم حتى عثرت على شي يعجب (متضاحكاً) سيادته لا يفهم شيئاً في البيع والشراء. يعتمد عليّ كثيراً.

- ودفعت ثمنها أنت؟

- لا، أنا اشتريتها له فقط.

- وبعد؟

- إيش كنت أقول؟ هاه أكّد لي سيادته أنه لن يمرّ شهر واحد إلاّ وأكون مدير الشؤون الإدارية أصالة!

قال صباح، وهو يهز رأسه ويعقد ما بين حاجبيه من جدّ:

- قاوموك من أجل هذه المديرية كثيراً. يا سيدي قاوموك!

قال محمود متعباً:

- وأية مقاومة! أنت أستاذ صباح مثل أخي وأعز. والله أحياناً لو كانت وزارة... أحسّ أني انتهيت!

- وأنت، الشهادة لله، تستحقها، فظاعة! هذه الوزارة! يا الله ما أكثر الدس! أنت تعلم أني كنت في صفك دائماً. اللهم نعم قاوموك، وأنت رجل تستحق.

ونهض محمود وخطا خطوة نحو النافذة. إنه لا ينظر إلى صباح، يتكلم كأنه يُسرّ أسراراً:

- وأية مقاومة يا رب! من أصغر آذن إلى أكبر مدير، مفتش! كأني مغلّي عليهم الخبز أو آكل على سفُرهم!.. افرضها منصب وزارة، ألم أستحقها؟ كنت أطوف حول الوزارة في الأمسيات اللطيفة التي تغري بالنزهة... يكون الناس في السينمات، في الملاهي والنزهات... وأما أنا فأطوف حول الوزارة، وما إن أبصر غرفة معاون الوزير مضاءة حتى أنط

الدرج أربعاً أربعاً استعداداً لتلبية جرسه... وفي الليل أرى أحلاماً مزعجة: رأيت مرة أن قراراً جمهورياً بتسميتي مديراً، ولكن مخلوقاً بثماني أذرع وأربعة وجوه مدّ يده إلى نسخة القرار قبل وصوله إلى الجريدة الرسمية... كانت له مخالب مزّق بها القرار... وثبت من السرير صاحاً: «حرام، حرام!»... كان للمخلوق سحنة أحد المدراء. أنا لا أريد أن أسمي... وأفاقت امرأتي مذعورة...

وصمت لحظة مديدة ثم عاد يقول:

- في ليال أخرى أحلم أن معاون الوزير غاضب عليّ، فأظلّ حتى الصباح أسترضيه. وأستيقظ مكسّراً كأني ضربت بالعصيّ على جسمي كلّه... ويقول آخر الأمر قائلهم: «هه، محمود الشيخ مدير!» يقولها مستنكراً، مستفظعاً. (يعود إلى صباح) أي نعم، لقد أكّد لي سيادته...

قال صباح:

- في هذه الحال أحذف كلمة «بالوكالة» (يحذفها)، ولكن هذا وصل، يعني وثيقة رسمية لا يجوز فيها الحك والمسح (يضحك) المرحوم أبي كان يقول «حك وسولونتي»... مسألة فيها مسؤولية كبيرة، لست أدري ما يسمونها في قانون العقوبات، ولكني أعلم أنها فظيعة، بالطيف، فظيعة جداً!

قال محمود مروّعاً:

- اكتبه مرّة أخرى، أرجوك. اكتبه. اكتبه مرة أخرى. نحن لا ينقصنا وجع رأس (يمزق الوصل) الإنسان له صديق وله مئة عدو (يتذكر) ولكنه سيعود إلى هنا لقبض الخمس عشرة ليرة، أليس كذلك؟

- لا، أنا دفعت له.

- دفعت له؟ عجول، أنت عجول يا أستاذ صباح، لا تؤاخذني.

قال هذا وانحنى على زرّ الجرس باليسرى وأخذ باليمنى قلماً عن المكتب وراح يخطّ وصلاً على عجل وهو يتكلم:

- ما فيه آذن. سألحقه أنا نفسي. كيف تدفع له سلفاً؟ ألا تفكر في أنه قد يرمي الطاولة في منتصف الطريق ويشمّع الخيط؟

وأخذ الوصل واندفع خارجاً مثل السهم. صباح وحده: هذا أيضاً عتال مسكين، ولكنه أقل منزلة في سلّم العتالة من صطوف الخلف... كلنا عتالون ولكن المناضد الثقيلة والخزائن الحديدية تظل أخف الأحمال! أنا مثلاً عتال تفاهة وأحزان صغيرة وخيبات، أحزمها وأضعها في أبيات من... الشعر!

وعاد إلى التحديق في النافذة:

محمود عتالته أثقل، البائس. منذ متى وهو مكوك الحايك، كما يقول سليمان، على أبواب الكبراء حتى ظفر بهذه الوكالة الهشة؟

«المديرية»! أليست خمس عشرة صطوف أنظف؟... صطوف يتخلص من حمله منذ أن يوصله إلي البناء الجديد في الحريقة. يعود بعده حراَ.. وأما هذا فأثقاله جاثمة أبداً على صدره، حتى في المنام، مثل الكابوس الثقيل. يخيّل إليّ أحياناً أني أسمع طقطقة العظام... أجل، كلنا عتالون نحمل الماضي والأخطاء والأمنيات الميتة والأحلام الشحاذة، ونلهث، من المهد حتى اللحد، لهاثاً كسيحاً، عاجزاً لا طائل تحته... في هذه المدينة أكثر من مليون مخلوق. كم منتجاً فيهم؟ كم عتل خير ورغادة للناس؟ فكرة قصيدة! (ضحكة خافتة) أنا شاعر لأني لا أحسن عملاً آخر. حتى الخمس والعشرون ليرة لم أستطيع إعطاءها لصطوف الخلف... يا قلبي! الشاعر الحقيقي إنسان يحيا قبل كل شيء، ينظم حياة قبل أن يصوع أبياتاً...

أريد أن أروي لكم حكاية
كان يا مكان
حكاية فيها لكلّ آية
حكاية الإنسان...

سخافة. أنا أعلم ماذا تودّ أن تقول. فكرك القاصر، المكبل لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من هذا. أنت تريد أن تروي أن الآلهة، في جنة ما، أحنقها أن ترى الإنسان - بعد أن تورطت هي في خلقه- لا ينفك يدسّ أنفه في كلّ

ورشة من ورشات السماء، فأصدرت حكمها بجعله عتالاً أبدياً يبدد حياته في حمل أكياس مربوطة، مغلقة، لا يدري ما فيها. صورة قديمة، ما فيها جديد، سعدنة لأسطورة سيزيف، متهرئة مثل منضدتك هذه وأوراقك و... نسيج فكرك!

وعاد إلى التحديق في النافذة. دخل سليمان. كان يبدو عليه أنه منهوك. ورفع صباح نظرة إليه:

- هذا أنت؟ مشي الحال؟

قال سليمان باسماً وهو يجلس على كرسي:

- وأيّ! حملتها أنا إلا شوي! المسكين! لم يستطع زحزحتها. أما رأيت نحافته؟ وفي درّج الوزارة الجديدة انجبرنا على الاستعانة باثنين آخرين.

قال صباح باسماً:

- إذن صار لك حق في سبع ليرات ونصف.

- صحيح، قوله القائل (يعبس) المسكين! أعوذ بالله إن شاء الله يخرجها بالصحة والعافية. مسكين! يظهر أنه ما اشتغل طول النهار بقرش. ولا أدري لماذا يبدو كأنه خائف. في منتصف الطريق سمعنا لك صوت ركض وراءنا. التفتنا، وإذا المدير! سرقت لك نظرة إلى وجه العتل. آمنت بالله، يظهر أنه خاف أن نكون قَلَبَنا!

- وبعد؟

- عادت روح العتل إلى مطرحها لما عرف أن الحكاية حكاية بصمة جديدة. انقضّ المدير على إصبعه ومرّشها بالحبر، وأخذ بصمته. على إيش؟ لا أدري! لا تقول إلا باشق انقض على عصفور!

وصمت لحظة ثم:

- أتعلم أنه من ضيعة قريبة من البلد؟

- بالله؟

- أي والله. هو أيضاً طرده القحط، مثلنا. أما رأيت هيئته؟ ما هي هيئة عتال رسمي. ظاهر أنه غشيم. عتال قد ما أنا آذن! نحن جماعة فلاحين نفهم في البذر، في الفلاحة، في رعي الغنم... ونفرح إذا نزل المطر. ألا ترى أني لا أرضي أحداً هنا غيرك أنت؟ أنا أيضاً غشيم!

قال صباح في شبه همس:

- أنت تعلم أكثر من هذا كله.

سليمان لا يفهم. يستفهم:

- نعم؟

- أنت تعلم أكثر من البذارة والفلاحة والرعي..

قال سليمان ضاحكاً:

- أعرف أيش؟

عاد صباح إلى الهمس:

- تعرف السبيل إلى القراءة من قلبي البائس المسكين!

* * *

الإغراء!

المكان، إحدى مدن الخليج، حيث تُجْتّذبَ زهرة شباب شعبنا فيغرقون في دوّامة البحث عن المال حتى ينسوا كل شيء غيره. هنالك كنت أعمل مراقباً عاماً لبرامج الإذاعة. أتصدَّق أن واحداً مثلي، لا يصلح حتى لمراقبة نفسه يحمل مثل هذا اللقب الفخم؟ أي سيدي طوّل بالك عليّ! ما هي إلا أسماء سَمّوْها، والحقيقة غير ذلك على طول الخط، لأني لم أكن أصنع مذكوراً، إلاّ إثبات وجودي في مبنى الإذاعة، وكتابة زاوية صباحية من ثلاث دقائق، وبعض الأعمال الاستشارية في ما لا ينفع ولا يضر!

ذلك اليوم، جاءني الرجل الكهل الذي كان وجهه مشغولاً دائماً. الأرقام المالية التي يحكي فيها فلكية إذا هي قورنت بأرقامنا نحن التي لا تعدو معارف تلميذ في الصف الرابع الابتدائي في الحساب. هذا الرجل، ولنسمِّه أبا أنيس، كان صاحب الفندق الذي أنزل فيه، وصاحب بضعة فنادق غيره، وموزِّد الأغنام الوحيد في المنطقة من استراليا والصومال، والدجاج من هولندا والدانمارك. جاءني يقول لي:

- هل تسدي إليّ خدمة يا أبو محمد؟
- ولَوْ يا أبو أنيس، قول وطول.
- تعرِّفني بابن بلدك سليم.

سليم هذا كان وكيل عبد الحميد معاريف، الملياردير المشهور، وصاحب بناية في المدينة على وشك أن تنتهي، تقدر أجرتها (في حسابات العام ١٩٧٤) ببضعة ملايين من الليرات السورية. والطريف أن ليس في المدينة الخليجية تلك قانون للإيجار يحمي المستأجر، وللمالك -أي مالك- أن يرفع أجرة عقاره ما يشاء ما دام الملك لله تعالى وله هو.

قلت:

- تكرم ذقنك. تعال نتلفن له.

كان الوقت صباحاً فوجدناه في البيت.

- ألو سليم.

- أهلاً أبو محمد.

- هل تسقينا فنجان قهوة عندك، سكّر على الريحة؟

- طبيعي أسقيك، ولكن ممن أين جلبت لي هذه الـــ «نا»؟

- أبو أنيس معي، أنت تعرفه.

- كيف لا أعرفه! يا مرحبا بك وبه. أنا في الانتظار وسأضع الركوة على الغاز.

كانت المسافة بين الفندق ومكتب سليم لا تتجاوز المئتي متر، ومع ذلك عرض عليّ أبو أنيس أن يصاحبني بسيارته المطهمة الفارعة التي تلمع كأنها العروس وهي تجلى، وفيها جهاز هاتف أيضاً، وقيل إن لجامها وحده يعادل حقّه راتبي خلال حقبة من الزمن طويلة.

وقبل آخر الأمر، بالجهد، أن يسايرني فيذهب مشياً على الأقدام. يا للتضحية!

في بيت سليم قدّمت أحدهما للآخر. هجما بعضهما على بعض هجوم العجل على ضرع أمه عند عودتها من الحقل. وانهال واحدهما على الآخر بالمدائح العصماء والعتب المهذب.

- أي هكذا يا ابن الحلال، أولاد بلد، وفي مغترب واحد ولا يرى واحدنا الآخر، نحتاج إلى وساطة!

- شفت! هذا كل الحق على أبو محمد.

- وكيل الشيخ عبد الحميد (عبد الحميد ليس شيخاً!) ولا تشرفني بالزيارة، الله يسامحك!

- والله ما لنا غنى، العين لا تعلو على الحاجب!

وجاءت القهوة تحملها خلود ابنة صاحب البيت – المكتب، وهي بنيّة صغيرة حلوة أنا وهي أصدقاء وكثيراً ما نلعب الورق معاً. قلت وأنا آخذ الصينية منها:

- عمر يا عروس. هذه أنت عملتها عين العم؟

- نعم عم أبو محمد.

- أي الله يسلّم. حضرّي حالك، أنا آت اليوم مساء، سأغلبك غلباً تتحدث به الإذاعات.

البنيّة تضحك. أنا أوزع القهوة، ثم أعبّ فنجاني على عجل وأثب إلى الباب معتذراً. كان عليّ أن ألحق مقر عملي الناقل!

بعد يومين، ثلاثة، بينا أنا أتسلّم بريدي من مستخدم الاستقبال الهندي في الفندق، فوجئت به يسلمّني مغلفاً غريب الزي، لم أر له مثيلاً من قبل طوال عمري: مغلف فيه مستطيل شفاف تحته ورقة تحمل اسمي وعنواني وحتى رقم غرفتي. فتحته في مثل لمح البرق، وإذا أنا، كمن ضربته الصاعقة، بشيك لأمري بمبلغ مرقوم أعلاه وقدره... أحرز كم؟ عشرة آلاف ليرة تدفع في المصرف العربي الإفريقي!

في زماني، كنت أعمل موظفاً في البريد، وبعد أن خدمت سنين طوالاً، اكتشفوا أني عنصر غير مرغوب فيه، يُخشى على بنيان الدولة مني أن أقرضه مثل تلك الفأرة التي اتّهمت بالتسبب في تصديع سدّ مأرب. وهكذا سرّحوني. أعطوني ورقة تتضمن هذا الحكم، وحكماً آخر يقضي بأن لا أستخدم من بعد في أية مصلحة تمت إلى الدولة من بعيد أو قريب، وحكماً ثالثاً بأن تصفّى حقوقي. بعد جمع وطرح وضرب وقسمة تبين أني أستحق مبلغ أربعة آلاف ليرة وليرة عن الخدمة الفعلية (لأن خدمتي ككل فيها كثير من الثغرات!) التي بلغت اثنتي عشرة سنة وكسوراً. لم أكد أصل إلى البيت حتى استقرض رفاقي نصف المبلغ، ووفيت ديوني بربعه، ووضعت الباقي –

ألف ليرة – في المصرف. ولكني لم ألبث أن سحبته وبعزقته لأني ظللت ستة أشهر بطالاً... ذلك كان أول تعامل لي مع المصارف.

في تلك المدينة، في الخليج، نصحوني أول ما وصلت أن أضع راتبي في المصرف العربي، وأن أسحب منه كلما لزمني شيء خوفاً من النشّالين. وأودعت، عملاً بالنصيحة، أول راتب قبضته إلاّ قليلاً، في هذا المصرف حيث أنشأت صداقات مع موظفيه. كان جلّهم من الفلسطينيين الذين كانوا يحبون أحاديثي في الإذاعة بما كان أكثرها يعبّر عن دهشتي المقيمة من أن يكون في الوطن العربي مناطق ترى الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان.

هذه كانت صلتي الثانية بهذه المعابد المخيفة للمال، أعني المصارف. وهاأنذا أراني أمام مواجهة جديدة، مصرف جديد!

عشرة آلاف؟! الحق أقول لكم أنني ظننتها مزحة من صديق عابث زهراوي (سبق لسليم ذاته أن عمل معي مقلباً لما وضعت أول راتب لي في المصرف العربي!) وإن كان قلبي قد غدا يخفق مثل جناحي عصفور دوري، لمجرد اقتران اسمي، ولو مزاحاً، بمثل هذا المبلغ الخارق، المستحيل. آه يا مهراجا يا أبو محمد، آه!

ومع ذلك قلت في نفسي، أنا الشرقي الذي رضع احتمال المعجز مع لبن أمه وقوّاه واقعه: «ما عساك أن تخسر يا ولد؟ رح إلى مصرفك واسألهم. من يدري!»

هناك قالوا لي أن الشيك صحيح ولكن تحويله من العربي الإفريقي إلى العربي، مصرفي، سيكلفني ليرتين ونصف الليرة!... بالله عليكم؟!! أي خذوا ألفين ونصف الألف، خذوا النصف! أم تظنونني ضارب في المبلغ قزمة ومجرفة! وضحكوا. قالوا:

- أتقبضه عملة بيدك أم تضيفه إلى حسابك عندنا؟

- لا يا سادتي، لا. أقبضه بيدي هذه.

- طيب، تنتظر إلى بعد غد...

- أنا أريد أن أقبض الآن...

- حلمك علينا. أنت بلا صغره لا تفهم كثيراً في المعاملات المصرفية. يجب علينا قبل كل شيء أن نبرق إلى العربي الإفريقي ليثبت لنا أن الشيك لم يسحب بغير رصيد. في حال كون كل شيء أصولياً تتفضل إلى هنا فنزودك بورقة إلى الصندوق، عند صاحب أمين الصندوق أبو علي الذي يقبّضك بيدك هذه عشرة آلاف عداً ونقداً.

بعد غد..

ها أنذا أمام الكوة تغزوني الشكوك من كل جانب. أبو علي المربوب الضاحك ذو الشعر الخفيف يعدّ وأنا أدوخ. كلّها قطع من أمات المائة: مئة، مائتين، خمس عشرة، سبعين ثمانين، مئة.

- تفضل أبو محمد. إن شاء الله تصرفها بالصحة والعافية.

وهكذا، عمر السامعين يطول، سلمني – سلمكم الله – مئة مئة. لم يكن يخطر لي، قبل هذه الواقعة، أن مئة مئة تعمل عشرة آلاف. وعلّم الإنسان ما لم يعلم!

كانت الكدسة مربوطة بحلقة رفيعة من المطاط، حلقة تافهة لا تليق بجلال المبلغ. حملتها وأنا أتلفت يمنة ويسرة. خيّل إلي أن على عينيّ عُصابة تخفي معالم وجهي كما لو كنت من لصوص المصارف، وأن محفظتي، التي كانت تضم رواية الدكتور جيفاغو لباسترناكو دفتراً للكتابة، إنما هي مسدس برابلو طاحون أو رشاش مع عدد من أمشاط الفشك. ولم أسمع ما قاله لي أبو علي، أمين الصندوق، المتهلل الوجه، الذي لم يكن يترك كلمة مما كنت أذيع أو أكتب في الصحف إلا قرأها.. وعوضاً عن أن أذهب إلى مقر عملي، أخذت طريقي ويممت وجهي بخطى ذئب شطر فندقي القريب.

صعدت إلى غرفتي في الطابق الثاني. استرحت لحظة على السرير وأنا أحتضن المحفظة، ثم مددت يدي إلى الجرس فكبسته. أوصيت على غداء. خيّل إلي أن في عيني خادم الطابق وصبي المطعم ما ينبئ بأنهما على

علم. كانا حفيّيْن أكثر مما ينبغي. أكلت لقمتين من رؤوس شفتي. رننت الجرس مرة أخرى.

- ارفع لي هذه الصحون يا عباس.

عباس فارسي ، فتى، متزوج منذ بضعة أشهر في شيراز، ومع ذلك ها هو ذا هارب من الازدهار الاقتصادي في ظل ملك الملوك. قال:

- ما أكلتم شيئاً يا أستاذ. ألم تعجبكم الصالومي.

- ارفع يا شاهنشاه ارفع. نحن عدنا لا يعجبنا إلا المئة مضروبة بمئة. ارفع!

قال وهو يحمل الصينية:

- أرى لكم سهنة (سحنة) غريبة اليوم يا عم!

يلفظها «أم».

- مافيه شيء يا أم، ما فيه شيء.

وما أن أغلق الباب وراءه حتى قمت ألعّب المفتاح في القفل لا طقّة واحدة وإنما طقّتين وعدت إلى كدستي، إلى كنزي:

- واحد، اثنين، ثلاثة وعشرين، ثلاثين، سبعة وخمسين، سبعين، مئة، مئة وواحد، مئة واثنين، مئة وثلاثة، مئة وأربعة.. العمى! لابد أن أبو علي غلط معي، أو أني أنا خربطت. أعد العدّ يا ولد: تسعة، تسعة وثمانين تسعة وتسعين! إه، هذه ناقصة! أعد العدّ يا ابني أعد..

وهكذا حتى انضبط المبلغ مئة مئة!

هنا بدأت الهواجس: ماذا لو تآمر لصوص مع مصلحة الاطفائية، وجاءوا بسلم الحريق شية البلدية وتسلقوه ثم تسللوا من نافذة الحمام ، وذبحوني من الوريد إلى الوريد ونهبوا لي مصرياتي، كنزي؟ قمت أتفقد طاقة الحمام. كانت ضيقة، لا يمكن أن ينفذ منها واحد في مثل صحتي. ولكن أهل هذه المدينة نحاف كلّهم كأنهم محاريك تنانير. أهل المدينة العرب

أناس ذوو أنفة وترفع وخنزوانة. لا يسرقون أبداً. ولكن في البلد أحياء لا تسمع فيها كلمة عربية. الأكثرية الساحقة أغراب، وفيهم من كلّ الملل والنحل والمشارب. أفّاقون، مغامرون، لصوص، شحاذون يسرقون الكحل من العين!.

مرة أخرى لعبّت المفتاح، في قفل الحمام هذه المرة.

ولكن مشكلة أخرى برزت لي، على الرغم من أني صرت رهين قفلي باب الغرفة وباب الحمام.

«ماذا لو بقَرَ جار الشمال الجدار الفاصل بيني وبينه بيطقان، بسكين مطبخ؟ الجدار هش كأنه من الورق المقوّى، وأنت تسمع طوال الليل تقلبه على السرير المتهافت؟ لندرس جار الشمال هذا. إنه من جنسية عُرف أهلها بالشحّ المفرط منذ حادثة ذلك المروزي مع صديقه البغدادي التي رواها أبو عثمان الجاحظ في بخلائه، حتى سمُّوا هنا «يهود الخليج» . ولكنهم خائفون. خائفون منذ أن كانوا في بلادهم. ولايزالون ، حتى بعد أن هجروها، تظهر عليهم سمات الملاحق، الخائف من كا شيء، من العصا ومن لياذ اللقمة بالهرب على صهوة بساط الريح»!.

وقال قائل فيّ: «وجار اليمين؟».

جار اليمين جديد، عابر سبيل. قد لايبيت غير هذه الليلة. أضف إلى ذلك أنه ميسور. أنا رأيته وهو يتسلّم مفتاح غرفته من موظف الاستقبال. لا بد أنه ياباني، رجل أعمال. أنيق جداً، على عينيه نظارتان مذهبتان، وفي يده محفظة من اللواتي تفتح بالأرقام. صحيح أني قرأت في الجرايد مؤخراً أنّ اليابان أيضاً فيها جرائم سطو وسرقة وخطف كدسات من الأوراق النقدية مربوطة بحلقات من المطاط، ولكن للطارق الجديد عادة غفلة لا بد منها قبل أن يعرف أين هو.

إذن يمكن إسقاطه من الحساب. على كل حال، تعال نعيد العدّ. مضبوط هذه المرة جداً. مئة مئة أعد الحلقة المطاطية وتعال نلعب.

بنكشة واحدة من اصبعي الكدسة على قفاها وإذا الطغراء نقش والنقش طغراء. آه يا مقصوفة الرقبة. هذه لعبة كرة الطاولة السرير إذا شئت. تعال الآن لعب بالكدسة كرة القدم. كيف؟ نضعها على أرضية الغرفة، ونسدِّد على باب الحمام. طق، غول! هل تذكرت؟ أحياناً، في المدرسة، كان اللاعبون من اللِّذات يحتاجون إلى حارس مرمى فيضعونك، للشكل. ما كان أشدَّ فشلك! كنت تسهم مراراً مع الخصوم في «هزّ شباك» نفسك! وأما الآن، وأنت كهل فقد أمسيت حاذقاً. هذا هو فعل المال يا عين عمك. الخير يخيِّر والشر يغيِّر! إذا أنت ثابرت على هذه المهنة الجديدة، السمسرة، تعريف الناس بعضهم ببعض وقبض عشرة آلاف عن كل تقديم، بتّ في غنى عن السرنوقة التي تسيل وشلاً من شق قلمك هذا، وأدرج اسمك في رأس قائمة مليونيرية المنطقة. المهم أن تكون قدّ وقتك ولا سيما أنك لست قصير حربة!.

في هذه الأثناء، كان باسترناك ينظر إليّ شزراً.

باسترناك، المسكين، المخيّب! طق. مُتْ. لن أقرأك! الناس يا غشيم يقرؤون عندما يكونون طفرانين، ما معهم اللُّل ابن عم الماش. وأما اذا كانوا يجثمون مثل البعير على مئة مئة. فما عسى أن تنفعهم الكتب، ما عسى أن يهمهم، أن يبكِّت ضمائرهم القسم الذي قطعوه على أنفسهم أن لا ينسوا قضيتهم الأولى، قضية أولئك الذين أخرجوا من ديارهم وذويهم وصاحبتهم التي تؤويهم وحبة أعينهم؟ القضية؟ ها، ها، ها! إنها تنفع ما دامت تدرّ شيئاً له أسورة من المطاط، وعدد مئة مئة. وأما إذا كانت شيئاً لا يضر ولاينفع. لا هو حارّ ولا بارد، لا حامض ولا حلو.. القضية يجب أن تكون قطّاً من خشب يصطاد ولا يأكل، وإلا فهي ليست قضية «مئة في مئة»! مئة في مئة، هذه هي القضية التي تستحق أن توهب العمر. أليس فلان وعلان وعليتان وبطيخان مبسمران يربحون منها ذهباً أصفر وأحمر وبنفسجياً؟ فعلام تروح سيادتك تحمل السلم بالعرض؟ ألم يبق غيور في الوطن غيرك؟ وبعد، فالإنسان – منذ أن كان في الكهوف- لم يطق البقاء لحظة واحدة بغير معبود.

وهأنتذا ترى كل من حولك من «أصحاب القضايا» قد نبذوا آلهتهم جميعها، على لمّ الفراش، وخرّوا سجّداً لإله واحد هو هذا الكربوج المخنفر في اسورته قربك في التخت، فلماذا، تظلّ وحدك نيقة عن الخليقة!

....

ما هذاّ ها هي ذي نافذة الحمام يضرب لونها إلى الشحوب، ثم إلى الحمرة. وي! إنه الصباح! طلع النهار إذن وأنت هنا، مطوق من أربع جهاتك، مرعوب آمن، معتكر صاف، مبسوط مدعوك، مشعث قرير العين، رخص منفاخ، ناس ذاكر، طيب شرير، أفور هامداً، أغلي بارداً..

حتى إذا رأيت الساعة تدنو من الثامنة إلا ربعاً رصصت كنزي تحت إبطي بقوة. كنت لابساً مثلما دخلت الغرفة، ففتحت الباب ورحت أتعومد مثل عمود صرمداً قدام المصرف العربي الذي كان مغلقاً ما يزال. وقفت صابراً، محتقن العينين هابط الوجه كأني أستعطي أن يفتح المصرف ويأتي أبو علي ويخلصني من النشالين وسلالم الحريق والجيران ونفسي المأووفة.

لا، لن يدوم إيداع هذه الكومة المشؤومة الوسخة من الأوراق. لن أدع لها أن تؤرق ليلي مرّة أخرى وتتركني جائعاً، عبداً. سأبعزقها في أقرب وقت وأعود فأنام ملء جفوني كما كنت دائماً!.

*   *   *

ذات ليلة

ما خطر له على بال قطّ، طوال تلك السنوات الطويلة التي انقضت عليه وهو في هذه المصلحة، أنه سيعاني ذات يوم مثل هذه المحنة يشيب لها الرضيع ابن يومين: هل خطر لك لحظة واحدة أنك ستمارى في الهواء الذي تشهق وتزفر، والرصيف الذي تمشي على بلاطه، والنظرة إلى النِّسب والاستدارات الباهرة في قوام صبية بنت ست عشرة تتقافز على طريق الصالحية؟ هل تشكّ ثانية في أنك سيجاذبك وطنك أحد؟ لا؟! ولكن هذا حدث له: طوال عمره المهنيّ حسب أن هذا الركن، عن يمين الداخل إلى جامع السنجقدار، ركنُه، له، بيته. حتى عندما يتعارج، بعد ظهر كل يوم، رائحاً إلى البيت للغداء والقيلولة، كان يحس إحساس الموظف ترك مكتبه ساعة أو بعض الساعة ولن يلبث أن يعود.. هنا، في هذا الركن، بدأ تدريباته الأولى على الصنعة: لصق ساقه بفخذه وربطها فبقي كم الشروال سائباً. حمل عكازين. تعامى بأن «نوّص» عينيه كما يفعل أنصاف العميان. فرش أمامه كيساً من الجنفيص. أصدر صوتاً أجش شنيعاً كأنه سينبعث من قبر عميق مهجور، وأطلق أولى كلمات السؤال:

«الله يعمي عنكم أولاد الحرام. الله لايحطكم من حيلكم ولاعينكم. يا إخوان، والله كأس العمى صعب. حنّوا على العاجز!».

لم يكن ينظر إلا خُلسا في كيس القنب المبسوط أمامه، لأن المفروض فيه استناداً إلى النظرات التائهة تنثرها عيناه «الزائغتان المنطفئتان» أنه لايرى. ولكن هذه النظرات التحتية المسروقة، مثلها مثل رنين القطع البرونزية والنكلية، كانت أخلى على قلبه من الديمة المسكوب في عيني فلاح عانى من سبع عجاف وأذنيه.

مع الأيام، أخذ عالم الأذن يستغني على حساب عالم العين. أمس يعلم من نقلة هذه السكربينة، التي تكون في البعيد رتيبة، وإذا هي حينما تدنو، يخالط رتابتها تأنٌّ وحير، هذا يعني أن القلب قد ابتل بالمرحمة، واليد قد امتدت إلى محفظة اليد بحثاً عن صغار القطع النقدية. طق، طق، طق! الوقع يتوقف: رنّ! قطعة نكلية لا ريب فيها تسقط، لا بد أنها نصف ليرة. الملعونة! سقوطها على زميلاتها في الكيس له طنّة ورنّة. إنها ليست مثل أنصاف الفرنكات والفرنكات التي تنفقئ في وهن كأنها فقاعات الصابون!.

وينطلق الصوت الأجش السيء الذي يذكِّر – مع كل ما في الدنيا من نيات حسنة- بالنهيق:

«الله يستر عليك. الله يوفقك. الله..».

في أحيان أخرى، يفاجأ بوابل من الكلمات الفارسية أو التركية أو الأوردو، من غير أن تسبقها إرهاصات من وقع أقدام . ومع انهمار الكلام الغريب تتساقط قطع نقدية ليس لها رنين وطني. ماضرّ! هؤلاء أيضاً عباد الله!.

مرة، وجد كلّ عناء الدنيا في كبح قهقهة كادت تفقع من حلقه: امرأة أنيقة، معجعجة، كاملة الأوصاف، محبوكة في فستان على قدّ جسدها مثل الصور. دنت منه. قرفصت. انشمر الفستان قليلاً. بسطت يدها بليرة سورية ورقية. كان هو يلاحق حركاتها بنظرات تحتية خاطفة، ولكنه دقيقة (لأن التطابق عنده كان قد انسجم مع هذا النوع من النظر!) وضعت الليرة بين القطع النقدية التي على الكيس، وأخذت منها ثلاثة أرباع الليرة!.. يومها، قال يخاطب نفسه: «هأنتذا يا رجل كففت عن أن تكون شحاذاً – صرافاً.. سبحان من يغيِّر ولايتغير!».

مرة أخرى ، ولد صغير، يلبس حذاء أكبر من قدميه، أشعث الكشة، قميصه مرقع وخارج في مواضع من فوق سرواله المهبّر، المخايل، كم أعلى من كم.. دنا هذا الولد من الكيس بخطوات هرّ وهو يكاد يمشي على أربع،

ومدّ يده وهو ينظر إلى أعلى متوجِّساً. فما كان من صاحب المكان إلا أن نهق به:

«امش في طريقك يا ابني الله يوفقك!»

وبهت الولد. تسمّر في مجثمه لحظة. لعله ظنّ أن الشحاذ قد أوتي علم الغيب! ثم بدأ ينسحب مثلما دلف، على أربع.. حتى إذا أمسى على بضع خطوات، شمّع الخيط هارباً بكل ما أعطاه اللّه من قوة في ساقيه!

.. هذه الذكريات العذاب، التي تدفع دموع التحنّن إلى الموقين، صارت تنتمي الآن إلى الماضي السحيق. عادت جمرة كاوية، محرقة منذ أن جاء هذا الفتى، الكفيف من حق وحقيق، ذو الصوت الشجيّ، والوجه المؤنس المشرق، والإيماءات اللطيفة.. واحتلّ الطرف الآخر من باب الجامع.

هذا الكفيف كان أميل إلى الطول، مقبول الهندام، نظيفاً، نحيفاً لا نحافة تثير الشفقة أو توحي بأن صاحبها مريض، ولكنها نحافة الإنسان المرهف، المصفّى، الشفاف. وهو لم يفرش كيساً عتيقاً من القنب ناصلاً، بل كان يحمل صينية لامعة من المعدن في يده اليمنى، يركزها بين حي وآخر على مقبض عصاه التي في اليسرى. العصا أيضاً كانت أنيقة، من الخيزران، رفيعة، لها كعب مطاطي وعقد مثل سرَّة الطفل الرضيع. وهو لا يسأل. لا يردد هاتين الكلمتين البليدتين اليتيمتين: «والله كاس العمى صعب، يا إخوان!» إنه يرتّل ترتيلاً رحيباً، ندياً، أنيساً تُحسُّه في سويداء قلبك: لابد أنه ملم بالأنغام والمقامات، متمكن من القراءات. الخلاصة، شيء لا يوجد له مثيل إلا في الإذاعات.

أين كانت مخبأة له هذه الأيام السود؟ أربعة أيام بدت له أطول من أربعة عصور. أربعة أيام لم يلتفت إليه أحد. هو ذاته عاد لا يلتفت إلى نفسه. لم ينهق مرة واحدة. أخجله أن يفعل. إن أحداً لا يحن عليه بفرنك واحد منذ أربعة أيام. وتصور لو أنه أطلق واحدة من «والله كاس العمى صعب» خاصة، لشحطه المارّون على وجهه ولحشوه تحت أول سيارة ليست مصلية على النبي!.

ما العمل؟ فكّر في أن يسمه. أي نعم، يطلب من امرأته أن تطبخ له حرّاق أصبعه مثلاً، ويتظاهر بأنه كسب القضا بالرضا، وأحبَّ جيرته.. ويدعوه إلى العشاء!.

لا، قد تكون ضربة سكين أجدى: متى ما تخفَّ الرجل يأته من خلفه، بعد أن يكون قد أخذ أهبته ففك ساقه المربوطة سلفاً! ما ألذّ أن يتمتع، ولو لحظة خاطفة بمنظر الدم ومن بعد يشهد العدو وقد أكبَّ على طوله، وجهه أولاً ثم بقية جسده. أم أن مسدساً أخرس أوفى بالحاجة؟ ولكن من أين له مسدس يحوي كاتم صوت؟ يخرب بيته. من أين انشقت عنه الأرض؟ ولك أجدادنا ما تركوا شيئاً إلا قالوه. قالوا: قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق.. ولكن.. القتل.. أهو كلمة في الفم؟ الشرطة!- والله يا سيدي أنا لا آذنت ولا وكلت. ما لي علاقة، والله العظيم. أنا رجل ضرير، عاجز، في حالي، في ذاتي . ما أنا من جماعة قتل أو ضرب والعياذ بالله؟ - إذن أنت تصر على الانكار، أليس كذلك؟ - والله يا سيدي.. أي اذن ابطحوه وحطوا لي هذه الفلقة في رجله الصاغ. يا سيادة الملازم تعال تفرج لك فرجة: رجلاه الاثنتان مثلنا ومثلك.. وتأتي بعد ذلك الحبوس، المشانق.. وفي آخر عمرك؟!.

أربعة أيام وأربع ليالي أخرى تقضت في هذه الزوبعة، الإعصار. الصوت الملائكي ، العمى الحقيقي، كيس القنب الرث الفارغ، صينية الآخر تلمع كالمرأة وتطفح كل ربع ساعة فتنتقل محتوياتها إلى الجيب الداخلي في حذر وخفة، كأنما على استحياء، ثم تعود إلى اليد اليمنى مرة أخرى. الطمأنينة هناك، والحزن يُسيِّع القلب ويغشى الفكر والعينين هنا. الذكريات ذاتها باتت تضحك من هذه الكتلة التي لا يلتفت إليها أحد، بعد أن كانت لا ينازعها في المنطقة منازع.

لم يبق إلا حل واحد: الساعة تدنو من التاسعة، والقدم تنقطع من الشارع أو تكاد. الفتى الكفيف يسلت آخر القطع النقدية من صينيته ويدحشها في جيبه بحركات متأنية متمهلة تخبئ مأملاً بعابر سبيل.. السائل القديم

يزحف، يزحف في اتجاهه، يزحف على أربع، يحاول أن لا يصدر صوتاً إذ يتحامل على ساقه غير المربوطة ويديه. عيناه اللتان يستر الليل معاناتهما وحزنهما العميق ترتفعان إلى الخصم في ضراعة. يمس قدمي الخصم في رقة. هذا ينقز ويبتعد خطوة. ولكن القديم يلحقه، وينبعث صوته الأجش في هدأة الشارع، صوت يحاول جهده أن يجعله متوسلاً، ذليلاً:

- لاتخف. أنا جارك السائل، هنا!

الفتى يكف عن الابتعاد. الآخر يصل إلى قدميه فيعانقهما ويبكي وهو يضرع ما يزال، يشحذ:

- كرمى لله! أبوس رجليك. الله لايحطك من حيلك. أنت في حلقك اسورة من ذهب. بيتي خرب والكلب عزاني. أبوس رجليك ارحمني!..

*   *   *

ما عساي أن

هكذا إذن! لم يبق بيننا حتى السؤال العابر عما فعل الله بنا! كم يعُد العهد بتلك الأيام إذ نحن لا نفترق! فإذا اضطر أحدنا إلى ترك البيت والغياب ساعة أو بعض الساعة أصبح الآخر مثل طفل ضيَّع أمه في زحمة سوق. الحماقات ذاتها لم تكن مقلقة. كنا نثق أن فرحتنا واحدة بالعثور على الآخر بعد حين يسير ستبددها مثلما يفعل الربيع ببقايا الأوراق الميتة والأغصان اليابسة من الشتاء الراحل.. وأما الآن! ما يجري؟ تصرُّفك منذ أشهر يدلُّ على أنك استبدلت عينين أخريين بعينيك أوان لقاءاتنا المسكرة الأولى! وأما أنا، فلو كنت استبدلت لما رأيتني أكتب إليك الآن. أن لا تصنعين شيئاً، منذ أشهر إلا أن تؤذيني، ولا أصنع إلا أن أحبك مثلما كنت في الزمان الأول وأكثر.

أنا أعلم أن ما بيننا قد انتهى ولن يعاد. ولكن، ما عساي أن أقول للذكريات العذاب التي نسجنا؟ كيف أنسى تلك الليالي نسهرها كلّ يوم حتى الخامسة صباحاً». حتى صارت «ليالي الخامسة صباحاً» صفة لها، يأتي ذكرها على لساننا فتتألق أساريرنا من حنين وتشوق وصبوة؟ ربما كان تذكُّر ليالينا تلك هو الذي يجعلني أبداً أحوِّم حولك، لعلنا أن نعيدها فنعيد لبانات لم أحيَ عمري مثلها، وتناغماً مع الوجود لم يتسنَّ لي إلا في أوقات قليلة قبلك.

ولكني لن أقول – كما يحلو لبعض ذوي الجمل والأفكار الجاهزة، والطواويس، أن يقولوا – إني كنت أنا مفجِّر فرح تلك اللحظات. لقد كان لك أنت النصيب الأوفى. نصيب، إذا أنت أردت قرارة المكاشفة، أقرب إلى الوجود في حال الكمون منه إلا الوجود فعلاً. وأقول في نفسي أن جريرة ذلك لا تقع كلها عليك، فقد غرَّزت مثلي في تجارب حاولت شدَّك من رجليك إلى

قعر الوادي وهوّة «ما عسى أن يقول الناس» وعدم «الوقت هكذا يتطلب»! هذا، على أية حال، ما سأناقشه بعد قليل.

إذن لماذا أكتب؟ لا تظني في الأخص أني أفعل لأتصبّاك، أو لأني سآتيك لأجثو على ركبتي أمامك متوسلاً أن تعودي إليَّ. أنا أكتب هكذا، لأني اعتدت أن أكتب لك وأُزلّق لك تحت ردفة الباب ما أكتب، ولأني، عندما يثقُل قلب حتى يتعلق بشعرة واهنة، أتعزّى بالكتابة، خلاصي الوحيد وكرسي اعترافي. وأخيراً، أنا أكتب لأني استوى عندي الماء والخشب: لن تُسيئي إليّ اكثر مما أسأت. لن تكوني شريرة أكثر مما كنت. لن تقطعيني وأنا في أشد الحاجة إليك أكثر مما قطعت. فممّ أخاف؟

أنت يا سيدتي لا تستحقين حبي. أنت لست بخيلة بالمال وحسب، كما اعترفت لي وكما أنت حقاً وعلى نحو مرضي، ولكنك بخيلة في العاطفة أيضاً. أنت لا تحبين. قد تميلين، تستظرفين، تهيمين حباً ولكنك، مثل الكثير من أترابك، هنا بخاصة، ملقّحة ضد الحب. إنكن تخفن الحب لأنه دخول من الباب الضيِّق، وأنتن اعتدتن، طوال عصور، الدخول من أوسع الأبواب، من الأبواب السهلة التي يكفل الرجل السهر على يسر الوصول إلى ما وراءها في اتجاهي الداخل والخارج! ربما خيِّل إليك، وقت زواجك الأول، أنك أحببت. وتزعمين أنك تركته لأنه سوقي، عاميّ، يدوخ، وفيه شذوذ مصلحة لا شذوذ مرض. الدليل؟ أنه لمّا وصل كفّ عن أن يكون شاذاً. ومع ذلك. بقيت تعايشينه- حتى بعد اكتشافاتك المخزية- سنوات مديدة.. متى وقع الشقاق الذي أدى إلى الفُرقة النهائية؟ لمّا أبى أن يفتح لك بيتاً مستقلاً، واستراح إلى أنكما تسكنان عند خالتك الأرملة مؤقتاً. أدركه البحران، الذي هو شيمة كل من يدوخ، فعاد لا يفتش عن بيت، وبدت السكنى المؤقتة دائمة.

هذه هي روايتك أنتِ. وأنا، ههنا، مثل مؤرخي بني اسرائيل الذين لا يجدون مصادر لكتابة تاريخ هؤلاء إلا أسفارهم ذاتها.. ولكن، في حادثة أخرى رويتها أيضاً، ما يحمل على إعادة النظر في اليقين الذي به قصصت

قصته الأولى: ذات ليلة، كنت وزوجك الأول، وحدكما في البيت. لم يزركما زائر، فطفقتما تسمران، تتمازحان، تتضاحكان، تتحابّان. وبين التسليات التي تفتَّق عنها ذهن عريسك، أن توقِّعي على أوراق بيضاء. قال لك أنه يريد أن يدرس توقيعك. قال إنه تعلَّم، من شخص هندي، قراءة نفوس الناس من توقيعاته. ووقّعت أنت على عدد كبير من الأوراق. ركبتك حمّى التوقيع. الجوّ البهج كان السبب. خطر لك شارلي شابلن في «الأزمنة الحديثة». ليلتها، لم تفطني إلى أن الأوراق قد اختفت. كنت متأكدة من أنك لم ترميها في سطل القمامة. هذا التفصيل تذكرته فيما بعد، لمّا أبرز زوجك في المحكمة الشرعية ورقة، تحمل توقيعك، تتضمّن تنازلك عن مؤجل مهرك، وقدره خمسة وعشرون ألفاً. قال لك القاضي: «هذا توقيعك يا بنتي؟» قلت: «نعم توقيعي، ولكن الخط ليس خطي». وحلف هو اليمين، ورحت أنت بالبلاش من غير أن تهتمي، لأنه «إذا راح الغالي فلا أسف على الرخيص».

السؤال الآن هو التالي: إذا صحّت هذه الرواية، فأين البحران والدّوخ عند انسان يبيِّت، منذ ليالي العسل الأولى، تخطيطاً محكماً دقيقاً لم تعرفه الدول الحديثة إلا في الحقب الأخيرة من هذا العصر لمّا اكتشفت التخطيط والإحصاء؟ ألا أنه، في الأقل من أجل هذا السَّبق، من أجل هذه الفهلوية، يستحق أن تُبقي حتى الآن، وعلى المنضدة الصغيرة قرب تختك، صورتك معه التي تبدين فيها كأنك راكعة بين يديه وعيناك العاشقتان تسموان إليه في تبتل. أرأيت، مرة أخرى، إلى الحب الذي لا يكلف صاحبه الدخول من الباب الضيِّق؟!.

زوجك الثاني كان أصرح. هذا اتَّبع خطّة وقائية: كتب لك متأخراً خمسة وعشرين ألفاً (أنتِ ، سبحان الله، تحبين هذا الرقم- الضمانة كما تسمين المهر المؤجل، ولكنه لم يكن قط فأل خير!) بعد ان فرغت له، في المصالح العقارية، بكراج البيت، ويقدَّر ثمنه يومئذ بين العشرين والخمسة والعشرين ألفاً. وهكذا، لما انفصلتما مخالعة (لأن الثاني سوقي، بازاري،

كذاب، مقامر، بخيل يدوخ، شاذٌ شواذ علّة لا مصلحة!). توافيتما مادياً، يعني – مرة أخرى- رحتِ بالبلاش، لأن «مال الدنيا يبقى في الدنيا» ولأن «المال وسخ الدنيا!».

أنا لا أنكر أنك قاتلت السوقية، كما أكدت لي، على جبهتي الأول والثاني. ولكن –وأسفاه- مثلما يجري في كلّ صراع، فكرياً كان أو مادياً – جسدياً، خرجت وأنت الغالبة مبللة يخلق الخصم ذاته، المغلوب. بهذا نستطيع أن نفسّر فصل البكاء ثم الخضوع فالاستسلام الذي جرى، الشهر الماضي، في مكتب رئيسك لمّا تحدتك زميلتك س.. التي لا تصلح أن تعقد لك شريط حذائك كما تقولين، وسفحت على معاملاتك، أثناء غيابك في البوفيه، لشرب فنجان شاي، نصف دواة من الحبر. ثُرت. كدت تذهبين إلى بيتك. تطلّقين العمل نهائياً.. ولكنك أذعنت لأمر رئيسك، وقمت – انت الأكبر سناً وقدراً- فعانقتهما ، بينما هي لم تتحرك من مقعدها، ولم تتنزل ساقاً عن ساق. قلت لي وعيناك محتقنتان: «أحسست بكل قهر المقهورين في الدنيا يحاصرني، ولذلك تفجّرت دموعي!» قلت لي كذلك إن رئيسك يضعف أمام س.. لأنها خفيفة، تشرب وتعربد ولا يبعد أن تدوخ، وسبق لها أن حملت من واحد كان يساكنها دون عقد قران، وأجهضت بعد أن دفع الحبيب النفقات.. في حين يتحامل – رئيسك- عليك لأنك منيعة، صددته عدة مرات، والمنيعة هي التي «تأكل حدّ السكين دائماً»!.. ولكن، ما كان أغناك عن ذلك السقوط إلى درك ذرف عبرات القهر؟ أنحن في بلد يستطيع رئيس دائرة أن يقول ثلثا الثلاثة كم لأحد من موظفيه إذا كان يقوم بواجبه، بل بربع واجبه؟ أنا لا أود أن أمتدح البلد، ولكن فيه، على أية حال، قانوناً؟ هل رئيسك قادر على طردك من وظيفتك، وأنت على قانون الموظفين الأساسي، الذي لا يبيح التسريح إلا بمرسوم وفقاً لأحكام المادة الخامسة والثمانين؟ أسمعت أن موظفاً طرد من وظيفته تعسفاً منذ أكثر من حقبتين من الزمن؟.. إذن كان سبب «قهرك ذاك» هي الرغبة في مرضاة رئيسك وحدها! لعله أن.. مع ما أنت عليه من كفاءات متواضعة!

يا له ثمناً بخساً، ابتسامات معدودة من رئيس لا يستطيع الإضرار بمرؤوسه هي في الأصل غير محتاجة!.

أم أن علينا أن نبحث عن جذور المشكلة في ما هو أبعد، في زواجك الأول، الأهم، في مسيرة حياتك لأن الثاني كان فقاعة لم تدم أكثر من أيام ونوعاً من النكاية بالأول؟

أنت أخذت الرجل غصباً عن أهلك، ولا سيما المرحومة أمك التي كنت تعبدينها بعد الله: لم يكن من أمثالكم على أي صعيد. ليس له كرم محتدك ولا مواهبك. ولكن، ما دمت تورّطت فقد رفض اعتدادك بنفسك، كبرياؤك، الاذعان لواقع دونيته. اندفعت تحاولين أن ترفعيه، أن تعلميه كيف يلبس، كيف يشرب القهوة من غير أن يطلع صوت، كيف يأكل بالشوكة والسكينة، كيف يدير حديثاً إذا كنتما في مجلس، بعد أن كان صماً بكماً. انقضضت على المهمة صباً طريحاً. ضحيت ورحت – وهذا من حقك- تطالبين بالنتائج، وإذا هي مخيّبة للآمال: فالرجل متوحّل، ساقاه مغرّزتان حتى الركب في رمال موّارة تشده كل يوم إلى حضيض أعمق. ولا أدل على ذلك أنه لم يمض على طلاقكما شهر واحد حتى تزوج تلك المرأة الأفعى. العجوز القهرمانة، التي بكرها في عمر زوجك المخطوف، ولها به علاقة حميمة حتى وأنت تحته، ناهيك بقطار بضاعة طويل من العلاقات آخرها مع صديقه الذي كان يساكنها، ويضربها كل يوم، ثم يدوخ الثلاثة معاً! التعيس قد تورّط، اجتذبته إلى ذلك المغطس صحبة الدوخ المشتركة وامرأة محترفة ولها تعرفة بصقها صديقه بعد أن شبع منها حتى التقزز. وهو – الأول- يعلم هذا كلّه، ويسليه هذا كلَّه على جمر من الكمد ويبليه حتى أصبح لا يطيق الدنوّ منها لأجل.. قبل أن يكرع قنينة أو قنينتين من أقوى أنواع الشراب تطفئانه تماماً! من هنا، ولاسيما بعد الفشل الثاني، كان نموّ اللّوبان المسعور فيك على رجل، أي رجل: رئيسك، أنا، الخُطّاب الذين يُعدون بالعشرات ورويت لي قصص «عدم التوفيق» معهم على طريقتك الخاصة.. وأخيراً مع هذا الفتى الذي في

دائرتكم، والحبل على الجرّار. لقد سكنك هوس أن ترددي تحدي الأول، أن تفهميه أنك مشتهاة، ما تزالين، موهوبة، فاتنة، كنز!.

ولعل ما جرى لك مع الفتى، الموظف الجديد في دائرتكم، أن يغني بحثنا، ولاسيما بعد سفرتك وإياه يوم العيد إلى بلده من غير أن تكون بينكما – على قولك- معرفة وطيدة أو صداقة قديمة. أضيفي إلى ذلك أنه يصغرك بأعوام لا تقلّ عن خمسة عشر (هذا يؤكد ما ذهب إليه قبل قليل!).. قلت إن في أعماقك فنانة بوهيمية طلعة، لا تحجم عن إلقاء نفسها إلى التهلكة شرها للمعرفة! صحيح أنك قضيت تلك الليلة، في بلده، مع أمه وأختيه العزباوتين الاثنتين، وأنكما لمّا رجعتما كنتما أشدّ واحدكما من الآخر مما كنتما قبل السفرة (لأنك لم تريه إلا حين تسلمتك أمه وأختاه، وحين العودة). ولكن، ماذا كانت النتيجة؟ أضحى الشاب مغرماً، يليّط كل مساء عندك، على كره منك طبعاً. يأتي بعد الظهر أحياناً. ينام على الكنبة التي في الصوفة نوماً بريئاً. ولكنه لم يقف عند هذه الحدود المسالمة، لأن مجرد السفر معه في الليل، ورضاءك أن يدفع عنك أجرة السفر مضاعفة كما هي الحال أيام الأعياد، أعطياه الحق في أن يخونه الصبر، فيدفعك حتى يلصقك بالجدار ويصلب ذراعيك بيديه القويتين، ويهوي بفمه على شفتيك وعنقك وقذالك وذقنك فيعضها بجنون، حتى اضطرت – وأنت تبسمين من استطراف- أن تلبسي كنزات بقبّات عالية، أكثر من شهر، ستراً للّطعات التي تركتها أسنانه الحادة! صحيح أيضاً أنك بذكائك استطعت أن تحيِّديه، أن تهدّئيه وتعيديه إلى الصواب، ولكن المسكين قد تلف، مرض، أخذوه اسعافاً إلى المستشفى، لأنك كدت توقفين قلبه الضعيف. وما كان منه أخيراً إلا أن أصر على النكث بوعده إياك أن يتزوجك في العشرين من الشهر الماضي. أكثر من هذا، رجع إلى بلده وتزوّج واحدة منه!.

التفسير ذاته ينطبق على تقبُّلك الأزهار من الآخر، ذلك الذي ظننته – وأنت ذاهبة عند الطبيب – سائق التكسي، وإذا هو معجب قديم كان

يراقب حركاتك وسكناتك منذ أمد طويل. إذا لم تكن هذه القصة الجديدة من نظمك وتلحينك، القصد منها – قصد غبي إلى آخر درجة، طبيعي- حثّي على الانتهاء من ترددي في اصطحابك إلى المحكمة الشرعية.. فقد ذهبت معه، في الليلة ذاتها، إلى بلودان، على الرغم من البرد، وجعلته أكثر اعجاباً. لقد أدهشك بعفته، وبكونه أعلن صراحة، رأساً، دون لف أو دوران ، أنه طالب حلال، لا طالب تقطيع وقت.. لمّا رويت لي هذه أيضاً قلت لك في ملامة:

- كيف تتقبّلين هدايا من رجل ثبت لك لمّا سألت عنه في الكافتيريا، التي شهدت لقاءكما الثاني بعد بلودان، أنه متزوج؟

أجبتني، على طريقك العدوانية في دفاع كل سؤال دقيق وتبريره:

- أنا لا أحب أن أبيت واحدة. أهديت إليه ربطة عنق غالية جداً!

هذه، اسمحي لي أن أشكَّ فيها. أذكِّرك بأنك نسيت عندي مرة قبّعة من القش، مكسورة، فلما قلت لك، بعد سنة، أني نزعت شريطها البناتي ولبستها، استرجعتها مشقرقة جذلى، كأنك استوفيت دينة ميتة!.

وانا أتساءل الآن: أكان انقضاضك لأني وضعت هذه الوقائع أمام عينيك مثل السيف، أني بحت بالسر، سر الرصد، هذا الذي تقول الحكايات إن من يفتح فمه به يموت؟ هذه الوقائع أنت رفضتها دائماً. ولكن، دائماً، كانت لهجة ردودك ينقصها اليقين بما تقولين.

اسمحي لي أن أقول لك إذن أنك لا تقولين الصدق دائماً كما يبدو للوهلة الأولى لمن يسمعك تمزّقين الحجب غير هيّابة، توردين حوادث معاشة خطيرة، مما يخبأ، في بساطة ويسر يبعدان كل شبهة. أنا لا أفكر في الكذبة التي أفلتها لمّا استدعيت خطيب ابنة أختك وجاء يزورك. كنت أنا حاضراً. كان يُعترس في «كتب الكتاب» فقلت له أن بنت أختك تخطب، وأبوها على وشك أن «يعطي بها قولاً».. لا أنكر أن نيّتك كانت حسنة. كنت تريدين أن تروح البنت في حال سبيلها، ولاسيما أنها قبيحة على نحو محزن وتميل على

ساقها اليسرى، وانها تحب الفتى والفتى يحبها كما صرح أمامنا. ولكنني لا أدري لماذا أحس أن من يكذب في الصغيرة، قادر على أن يكذب في الكبيرة، حتى ولو كانت الصغيرة بيضاء من غير سوء.

وهكذا، مع الأيام، صار يخالجني منك ما كان يخالجني مع م.. التي حدثتك حديثها. كنت كثيراً ما أصدق م.. لأني يقعد بي التعب منها والكسل عن اللحاق بكل كلمة تقولها، والتحقيق من أنها كانت صادقة أولاً، لأن بذرة الشك في كل ما تقول كانت باضت فيَّ وفرّخت.. وانتهى بي الأمر إلى راحة: عدت لا أفكر في تصديق أي شيء مما تقوله حتى ولو كان «اللبن أبيض»! أنت تذكرين أني قلت لك: تمَّ ذلك بعد بضع كذبات منها انكشفن على نحو لا يدع مجالاً لأي شك.

معك أيضاً بدأت، في المرة الأخيرة، أعاني الإحساس نفسه، وأتخذ القرار نفسه.. لا أظنك نسيت تلك الأمسية، حين جئتك وأنا أتوهج حباً وشوقاً، ودعوتك إلى عشاء خارج المدينة، وإذا أنا أصطدم بعبوسك. انكمشت. سألت:

- ما بك يا حبيبتي؟

- لاشيء.

- بالله عليك قولي.

في هذه الأثناء نطّت قطتك المدلَّلة إلى الكنبة قربك وأخذت تقوم بألعابها الأثيرة، تلعب بضفيرتك وتعضعض أصابعك، فضربتها بقوة حتى سقطت على الأرض فعدت تبعدينها بضربة من قدمك الحافية. وقلت ووجهك لا يفسّر.

- بنت أختي.

- ما بها، مريضة؟

- أنا أضع هنا، في هذا الركن عند الباب الذي لا يلفت النظر، محفظة قديمة كأنها ملحوشة، أخبِّي فيها الساعة الذهبية التي أهديتها لي، والأسورة

الألماس وخاتمي الألماس من الأول والثاني، والمصحف الذهب، و.. وخنقتك العبرات:

- إنها لصة، لصة حقيقية. سرقت كل شيء إطلاقاً كل شيء.. أنا زعلانة أكثر كل شيء على ساعتك.. لا يظهر عليها أيّ اضطراب، حيوانة..

استهولت أنا الأمر. استمعت إلى انذارك إياها بأخبار الشرطة. لم تخف. زلَّقت لها – متّبعة طريقة تربوية هذه المرة – أنك لا تشكين فيها، والدليل أنك لم تستردي منها مفتاح البيت. انتظرت يومين. لم تَرُدَّ المسروقات، مع أنها الوحيدة التي تحتفظ بمفتاح ثان.

وتمضي بضعة أشهر. أنا من جهتي لم آسف على الألماس أو الساعة النادرة. أسفت وحسب على المصحف الذهبي. كانت له في عنقك وسوسة لذيذة، تستحضر إلى ذهني صور مراع فساح، وشبابة راعن وشاة ترعى في طمأنينة..

فجأة، سمعته ذات ليلة يوسوس في عنقك. فرحت. نسيت أنه كان «مسروقاً». أنت التي انتبهت إلى أنك قلت لي، فلفت نظري:

- تصور، عثرت على هذا واحده!

ما دمت لم تشتكي إلى الشرطة، ما دامت هي لم تخف، ما دامت كل أرض شربت ماءها، والوسوسة عادت تسبيني!

لا بأس هنا من وقفة: ارتشاقك، تبعثرك، تبددك في كل هذه النوافل، اطلاقك الأعنّة لخيالك، على نحو مَرَضي، لتمثل ما ليس بكائن (أذكِّرك بشكوكك التي حامت حول الضيف اللبناني الذي توهمت أنه ترك الغاز مفتوحاً لكي يقتلك! وخوفك من أن تدسّ لك أختي السمّ في الأكل حتى لا يتم زواجنا!).. كل أولئك، ألا نستطيع أن نردها إلى أنك لم تنجبي؟ أنت تقولين إنك آثرت الإجهاض لماذا حملت المرة الأولى من الأول، ولا سيما بعد أن لاحت لك نُذُر استحالة استمرار حياتكما المشتركة. ولكنك، كما أكَّدت، حملت مرَّة أخرى بعد أن صحا الجو بينكما بعض الصحو، ووضعت ولداً ذكراً

ولكنه مات نتيجة إهمال الطبيب المولد! عدنان القاضي، الذي كان صديقكما، وشاهد زواج أوّلك على تلك العجوز يؤكد لي أنك ما حملت قط وما ولدت! المهم أن حرمانك من الولد لعب دوراً حاسماً، ولا سيما في بحثك الدائب البديل في القطط التي تستأثر باهتمامك شطراً طويلاً من اليوم.

مرة أخرى ، جئتك أقول لك:

- يا حبيبة عمري، هل تسمحين لي ، أنا المحب ولا كأحد، أن أنبّهك إلى أمر؟ حذار أن تظني أني آت لألقي عليك درساً، لا، أنت معلمتي.

- ما هو هذا الأمر؟

- أنت تصرخين على كل السطوح أن لا هم لزوجك وضرتك إلا التآمر عليك..

قلت في حدَّة:

- إن شاء الله يخالطك أنت أيضاً أدنى شك في هذا!

وهممت أن تكرّي علي بالتفاصيل للمرة لست أدري كم ولكني تجرأت على الاستمرار:

- أنت كذلك لا تترددين، في كل مجلس ومجاناً، في أن تصفي الهوّة التي تفصل بين نبالتك وغثاثة أولك بخاصة. حاولت أكثر من خطرة أن أصرفك عن تكرار هذه الأحاديث. لم تنصرفي. في الأقل لاتعيدي تلك القصة عن ضبطك إياه ذلك اليوم بما رأيته عليه واستفظعته. الثغرة التي في هذه الحادثة هي أنك لم تهجريه على أثرها برغم فداحتها. أنت عشت مع ذلك الرجل عمراً. الزواج لم ينجح. انفصلتما. أنا لا أعظك، ولا أدافع عن زوجك. هو، أصلاً، آخر همومي. ولكني (بات صوتي هنا خفيضاً، يحشرج على استحياء)، أخاف أن يقول الناس أنك ما تزالين تحبينه.

صحّت مخاوفي، لأنك وثبت في ضراوة:

- من قال لك هذا؟

قلت بين لحمي وثيابي:

- ع.. الموسيقى.

ضحكت ضحكاً أصفر: - موسيقيك هذا، الذي تضعه وتصغي إليه مثل أبو عقل وعقلين، معروف أمره: يكون قاعداً في كافتريا «الفلك» إلى النافذة المطلة على شارعين، فتمر واحدة من أقصى الشارع فيقول الشارع ملء فمه: «هذه أنا أعرفها. البارحة كانت عندي ونمت معها! وتمر أخرى وإذا هي أيضاً نامت معه وحاولت الانتحار لأنه هجرها!

وأتضاحك أنا، ولكني أزداد خضوعاً:

- حبيبتي ، قد يكون الرجل مدعياً، ولكن من أين جاء بالتفاصيل الدقيقة ذاتها التي سبق أن رويتها لي وحلَّفتني أن لا أفتحها لأحد، وأنك لم ترويها لغيري وأول مرة!

وتحردين:

- أنت تصدق كل أحد إلا إياي!

وأضطر إلى استرضائك في خشوع. أحاول أن ألثم يديك، أن أضمك إلى صدري.

ما عساي أن أفعل غير ذلك، وقد جئتني بهذه الحجة التي لا تدفع، أنا محبُّك الأبدي!

* * *

خلف الظاهرين!

-١-

رنَّت رفيقتي مها جرس الباب بإلحاح فعل من «هو آخذ وش» على أهل البيت. بعد دقائق طويلة فتح الباب كهل أشعث، غزا الشيب سالفيه وتسرّب إلى بقية رأسه بخطى ذئب. كان واضحاً أن الجرس اقتلعه من سرير نومه بعد الظهر. وبادر مها قائلاً كأنه ينتهرها:

- أهذه أنت؟ تضربي ما أغلظك!

ضحكت ضحكتها العريضة، وقالت:

- تقبرني يا عمو قديش مهضوم!

نظرة إلى عينيه تنبيك بأنه حسير النظر، ومع ذلك اعتذر في رقة لمّا رآني، وتلملم وقال لي:

- عفواً يا آنسة.

كانت بيجامته من أعجب ما رأت عيني، تلبق لعريس: جانب ساحل وجانب صاعد، قصيرة تصله إلي ما فوق سرتّه، كمّا سترتها يكادان يبلغان كوعيه، عرى الأزرار غير محبوكة، منتوشة كأن قطّاً هبّرها ذات بنطال مشمور، ضيق الكمَّين. قالت مها وهي تدخل الدهليز:

- ادخلي ريم، ادخلي. هذا بيت أحلى عمّو في الدنيا.

وأدخلنا غرفة فيها خزانتا كتب، وديوانة، ومدفأة حلبية، ومكتب قائم قاعد، وبضعة كراسي خيرزان ومنقل فحم نحاسي قديم. قالت تشرح لي وهي تقبّله قبلات صارخة:

- يسلم لقلبي، أكبر كاتب في العالم. وكفّاه مثقوبتان أبلى أنا. القرش عنده والألف. أما ترين بيته؟ لا تقولين إلا بيت حارس ليلي بس حوينته، لا يجوز لي. أنت تفهمين ، عمّو!

قال في تهكم حفيف ومراح لا يخلو من بقية مزاح شيء:

- من نكون نحن أمام مواهبك، هذه !

قالها وهو يضربها على عجيزتها المكوّرة الرابية. وتناول نظارتيه عن المكتب فوضعها وأضاف:

- إيش لونه اليوم؟

- زهر، من باريس . هو والسوتيان لون واحد. انظر.

قالت وهي تفتح بلوزتها الحمراء فيظهر صدرها العامر لا يستر السوتيان إلا أعالي نهدين. قال:

- أريني الآخر. بنطالك مفكوك سحابة . اذن أريني.

قالت وهي تجرُّ سحاب البنطال إلى أعلى ضاحكة:

- يوه، على قامتي، كيف كنت ماشية هكذا في الشارع!

أمسك يدها:

- قبل أن تجرِّيه، فرجيني يدي في زنّارك.

أغلقته تماماً:

- فرجاك ضريب. يبعت لك حمى. ألست ابنتك؟

قال في عذوبة:

- لا تؤاخذيني يا آنسة. أنا آخذ حريّتي معها. هذه حبيبة صغيرة معبودة قديمة. هذه قطتي الأفرنجية!

والتفت إلى مها وقال لها وهو يقطِّب جبينه زاجراً في غضب تمثيلي:

- ولك زعرا، أما قلت لك مئة مرة أن لا تتضربي وتأتي في مثل هذا الوقت. احمدي ربك يا قردة أنك رحت في شفاعة الآنسة، الآنسة..

كان قد راق تماماً. وأكملت له مها:

- ريم، ريم! ألم أقل لك منذ قليل إن اسمها ريم. يظهر أنك خرفت يا بابا.

وعادت تعانقه، وهو يشمُّها من عنقها:

- هذا العطر، اش اسمه ولك عفريته؟

- أنفيني يلا فلاح!

قال كأنه يزفُّ إلينا بشارة:

- هل تشربان نبيذاً بلغارياً معتقاً من أيام توت عنخ آمون أو ربما خوفو؟

- نشرب. أوه كم نشرب!

- اذن انتظراني لحظة لأحضر لكما قنينتين ألذّ من الشمبانيا ذاتها. دقيقة واحدة وأكون لابساً ثيابي.

قالت مها:

- لا والله لن تلبس. أنا أروح. بس دلني على المحل.

لم يكن صعباً. قال:

- هنا، في الشارع المواجه. قولي لصاحبة الدكان: لعمو فريد. ولكن وقفي. خذي مصريات.

- تضرب، وأنت ومصرياتك!

قالتها وهي تندفع إلى الدهليز فالباب الخارجي.

لم تكد تردُّ الباب (لم تغلقه تماماً) حتى بادرني مهاجماً:

- هل لديك هاتف في البيت؟

أعطيته الرقم. كتبه في مفكرة صغيرة في عناية. قال:

- سأتلفن لك الليلة. ولكن تعالي غداً تغدي عندي وحدك ستأتين، أليس كذلك؟

ضحكت. كان حقاً قريباً من القلب. قلت:

- مافيه عندي مانع.

- نحن نتغدى الساعة الثانية. ولكن تعالي قبل. تعالي الظهر.

-٢-

تعرفت بريم أمس. عرفتني بها مها. ريم صبية ذات جبهة عريضة، أميل إلى النحافة، حسنة النسب. عيناها واسعتان، شهلاوان، وطفاوان على نحو يلفت النظر. كانت تلبس بنطالاً ضيقاً جداً لا يخفي أية من استدارات جسدها الصبيّ الممشوق. اقترحت عليها أن نشرب نبيذاً فأصرت مها على أن تجلبه هي من عند أم فؤاد. شربنا وأكلنا محمرة وجبناً وزيتوناً. مها لو كان في محفظتها ألف ليرة لأنفقتها في جلسة واحدة. كانت تريد أن تدعونا، الليلة ذاتها، إلى مطعم فخم. قالت إن معها أموالاً لا تأكلها النيران. أقنعتها بالبقاء ما دامت أختي الكبرى زائرة عند أختها المتزوجة وابني في حلب عند عمته الأخرى. في أثناء غياب مها تواعدنا، ريم وأنا، على لقاء في الغد. وافقت. إن كل ما فيها يوحي بأنها أجنبية. الأجنبيات وحدهن يقترن التفكر عندهن بالفعل.

من حديثهما، فهمت أن شخصاً، تقول ريم أنه زوجها وأما مها فقد همست في أذني ونحن في المطبخ بأنه صاحبها. مدين لها بخمسين ألفاً، وأنه الآن في الخليج، وقد حرر لها ورقة بالمبلغ. كانت مها تتعمد إفهامي أن ريم تمشي مشيتها، ومن خلال نثار كلمات عابرة كانت تنزلق تراءى لي أن بينهما نقاراً خفياً.

اليوم جاءت تلبس فستاناً يخلب اللب أناقة، له أزرار من الأمام، يمكن خلعه كلّه في طرفة عين فور حلّ العرى. أصلاً، الزران التحتانيان محلولان، والفستان كذلك مفتوح عند الفخذين، حتى أنها كلما غيّرت من وضع ساقيها ولفّ أحدهما على الأخرى كادت تظهر ملابسها الداخلية.

بعد الغداء ، جالستنا أختي طويلاً، وهات يا كرّ، من عامق ومن عميق، من الشرق إلى الغرب. تحدَّثنا في كلّ شيء يخطر على البال، وأنا أدعو في سري: «يا رب اجعل أختي تشتاق إلى جلسة عند جارتنا أم حسام، يا كريم!».. ولكن، بدا أنها استرطبت ونسيت أم حسام التي تؤثرها بمودتها ولا تفوّت زيارتها يوماً. نسيتها تماماً. وجاءت سيرة مها. قالت ريم أنها تعرفها منذ بضع سنوات، وإن مها تعرَّفت بواحد من الخليج، أو من مكان آخر عدت لا أذكر، فلم تمكنّه من نفسها بادئ الأمر، ومع ذلك أخذها إلى كازينو المعاملتين في لبنان، وأعطاها خمسة آلاف ليرة لتلعب بها. فسألتها ريم عما إذا كانت خبأت منها شيئاً، قالت أنها خبّأت في صدرها ألفين. ولكن الرجل أصرّ عليها أن تستمر في اللعب وعاد فدفع إليها بخمسة آلاف أخرى خسرت منها ألفين وخبّأت ثلاثة.. بعد الكازينو سألها:

- بقي معك شيء؟

قالت له:

- ولا ليرة!

ضحك وراء مقود سيارته الفخمة التي اضطر إلى خفض السرعة لأن دموعه نزلت من البهجى. وأوقف السيارة نهائياً ومدّ يده إلى جيبه وأخرج رزمة قدَّرت أنها خمسة آلاف. ولكنه، بعد أن فكّر لحظة، قال لها في حدّة:

- لا، هاتيها.

صعب عليها أن تدخل خمسة آلاف محفظتها ولا تستقر فيها غير دقائق، ومع ذلك لم تناقش. أعادتها إليه. وإذا هو يسحب من محفظة نقود كانت في جيب آخر كدسة دولارات. تصور: عشرة آلاف دولار!.

كنت كمن يصغي إلى حكاية من حكايات الجان. وتابعت تقول:

- هل تعلم أن «مها» ما هو اسمها الحقيقي. أنا شفت هويتها. اسمها فيها نبيهة.

وضحكت:

- «مها»، هذا اسمها الفني، اسم الشغل إذا شئت.

سألتها:

- هل تشتغلين؟

تجاهلت سؤالي، واستمرت تتكلم:

- أنا الحقيقة لا أعلم عنها شيئاً على الرغم من أني أعرفها من خمس سنوات. تقول إنها متزوجة من شخص عراقي كان سفيراً. ولكني لا أصدِّق. أنا بنت تحب الصراحة. ليش الكذب؟ أنا ما عندي شيء مخبأ. وأخبيء لأيش؟

- هل أنت من هنا؟

- لا، أنا من مدينة.. أهلي، لما كنت في الثالثة عشرة، زوجوني من واحد أكبر مني. لم أحبه. الزواج كان كلّه لهوجة، وغصباً عني. دخلت عليَّ الحكاية من أولها إلى آخرها مثل عبر بخنص، قمت حملت حالي وهربت إلى عند أخي، الموظف في حمص. هناك حاوطني رفاق أخي، والغانم يطلبني للزواج. وأخي يلح. الزواج مرة أخرى لا وألف نبي. الموت أهون. هربت مرة ثانية إلى هنا. لم أكن أعرف أحداً، وما كان في جيبي غير عشر ليرات لما نزلت من السيارة صادفني رجل مقدّر، متقدم في السن، لطيف كأنه أب. عرض عليَّ أن يشغلني..

- سألت:

- إيش؟

- قال قطاعة أوراق في السينما. عشت معه سنتين. في يوم من الأيام طلبته ما لقيته. قالوا أنه سافر في تجارة. أين؟ لم أعلم قط. ومن يومها، وأنا هكذا.

هكذا ماذا؟ صحيح أن هندامها بعض التبرج الصارخ، وكثيراً من الجخّ، وفي حديثها بعض الرخص، ولكنها بسيطة مثل بنيّة في الصف الثالث الابتدائي، صافية، صوتها عذب، وعنياها، هاتان الواسعتان والحوراوان الوطفاوان المذهلتان! مؤكد أن الكهل عاملها كبنت قلبه. ولعل هذه الـ «هكذا» أن تعني زواجها من هذا الذي لها في ذمته خمسون ألفاً. الدليل أن الأوراق الطبية، التحاليل، التي أرتني إياها، تحمل كلمة: «السيدة ريم.. عقيلة..» هذا يبدد أية ظنة. لو أنها «منهن» لكانت وضعت شيئاً على خديها أو عينيها أو شفتيها. شيئاً أكثر صراخاً من هذا الذي تضعه. بُنيات الإعدادي أنفسهن يضعن أكثر منها. وسألتها:

- أين تسكنين؟

- في عين الكرش. غرفة مفروشة.

- أجرة؟

- أجرة.

- كم؟

- ستمئة ليرة.

- في السنة؟

ضحكت:

- في الشهر!

كانت راتبي، أنا وطولي وعرضي وشعراتي الشائبة، لا يتجاوز هذا المبلغ.

فجأة، يرن جرس الهاتف. كانت أختي الأخرى، المتزوجة، هي المتكلمة أنها تطلب من أختها، هذه التي معنا، أن تذهب حالاً لمساعدتها في عمل البرك!

-٣-

هذا الذي أسمته مها «عمو» يفقّع الخواصر من الضحك. ذهبت اليوم أتغدى عنده مثلما اتفقنا. كانت أخته العزباء الكبيرة حاضرة. جماعة ظراف. حكينا كثيراً. أشكال ألوان. حكيه حلو، ويحب الأسئلة ويفتح أذنيه وفمه عندما يصغي مثل الأطفال وقت يصغون إلى حكاية من ستّهم. بعد نصف ساعة من الغداء، يمكن ساعة، لبست أخته ثيابها، واعتذرت مني وراحت. لما سمع هو الباب الخارجي يسكّر، أمسك يدي كأنه ابن مدرسة وقال لي:

تسلمي لقلبي. في حياتي ما شفت أحلى منك.

ولم يترك يدي. شدّ عليها برفق، وقال كأنه يوشوشني:

- قومي أفرجك على غرفتي.

كانت غرفته غارقة في ظلمة خفيفة لأن الأباجورات مغلقة. تخت واسع نجارته جميلة، وخزانة أواعي من الطراز ذاته، ومكتبة غير المكتبتين اللتين في غرفة الضيوف . لا بدَّ أن هذه الكتب السميكة الثقيلة هي التي عملت في عينيه هكذا!.

ورفع نظارتيه وركزهما بتؤده وحرض على كومودينا عليها مصباح أبجوره سماوي، وكتب، كتب أيضاً.. وأشعل المصباح، وعاد يأخذ يديَّ الواحدة بعد الأخرى يحدِّق فيهما عن قرب:

- ما أحلى يديك!

وراح يقبلهما من راحتيها وقفاهما، ثم قبَّلني في عنقي وشمني. مع كلّ قبلة طويلة كان يتنشقني كما يفعل الرياضيون بعد التمارين. وفك زرين من فستاني وأخذ يتأمل مشدوهاً.. أكملت أنا الباقي. خلعت ثيابي قطعة قطعة، وهو يحملق، واندسست تحت الغطاء، ولكني لم أتغط تماماً. قبل أن أنقل قدميَّ من السجادة إلى السرير، قبَّل قدميّ وركبتي..

كان أخرق، يرتجف أحياناً، مدهوشاً، يفعل كلّ شيء كأنه يسر في نومه، ويهمس:

- أنا حتماً أحلم!

عاد، حتى بعد أن زفر زفرة طويلة، يحدّق فيَّ بنهم أشدَّ من قبل وهو يزقزق:

- يا طفلتي، يا بنيتي ! أنا حتماً أحلم!

وضعت يدها الناعمة ذات الأصابع الطويلة المرهفة حيث كنت أحدّق وقالت في غنج:

- أليس جميلاً؟

يا حبيبتي! طفلة، طفلة نقية. حتى ولو .. تظلّ كأنها طفلة تلعب. قلت:

- أنا لا أصدق أنك عملت ثلاث عمليات اجهاض . من ينظر يخيَّل إليه أنك ما تزالين عذراء.

- كلُّهم يقولون لي هكذا. أنا أعتني كثيراً. قل لي. مها خبَّرتني أنك كنت في فرنسا. هل أشبه الأوروبيات؟

- أحلى. الأوروبيات يجب أن يكن وصائف عندك.

- صحيح؟

- جداً يا حبيبتي، يا عكازة شيخوختي. يا رب ما أشبع منك، يا رب ألهمها أن لا تتركني!

- عندك سيارة؟

- ولا بسكليت.

- ضحكت ضحكة لا أصفى ولا أبرأ.

- هل لك قضية معترسة في دائرة من دوائر الدولة؟

أدهشني السؤال.

- لماذا؟

قالت في بساطة:

- حتى أحل لك إياها. أنا يدي طايلة.

- لا، أنا مالي دعوى في أية دائرة وأتدبر أموري حتى لايكون لي أبداً. أنا أكره دوائر الحكومة مثلما أكره عزرائيل.

أخرجت من محفظتها قصاصات ورق، ووريقات منتزعة من تقاويم مكاتب. أمسكت بقصاصة:

- هذه فيها خمسة آلاف.

- خمسة آلاف إيش؟

- ليرة.

ونظرت في وريقة تقويم:

- هذه فيه من وراها عشرة في القليل، هذه معقدة أكثر.

لا بد أنها تمزح. قلت لها على استحياء:

- ألا تتفضلين فتأتي غداً؟

- إذا لم أكن مشغولة. أنا في كثير من الأيام لا أفضى أحك رأسي.

وبعد لحظة:

- فيه شي بينك وبين مها؟

- مثل؟

- تنام معها؟

- لا.

- ولكنّ جسمها كويس، الضرسانة. كيف؟

-٥-

كانت تلك هي المرة الأولى لا أقبض فيها أي شيء غير الضحك. ومع ذلك ما أنا نادمة. هذا الكهل، الطيب، الساذج، المسكين! أراد أن يعبّر لي عن عشقه فعرض عليّ أن يهدي إليّ طقم ألبسة داخلية طليانية، قال إنه رآها في

إحدى الفيترينات وأعجبته، وتصور أنها تليق لجسمي «الذي يجنّن» لم أشأ أن أكسر خاطره. قلت له ممازحة:

- أخاف أن لا يعجبني ذوقك.

لم أشأ أن أقول له أني قادرة على جعله يقرفص، هو وكرشه وطوله وعرضه، وأطمره بما عندي من صنف الشلحات وحده حتى يختفي تماماً. وأضفت:

- نذهب شي مرة أنا وأنت فأنتقي أنا ما تريد أن تهده لي. قد أطلب طقم «بارفان» أيضاً.

قال في حرارة:

- أنت لا تطلبين، أنت تأمرين.

سألته:

- متى يعود ابنك من حلب؟

- بعد أسبوع، حين تنتهي العطلة الصيفية.

- كم عمره؟

- ستة عشر.

- حلو؟

- جداً، ولكنت شفتيه سميكتان، ثرثار، يتقن كل ما لايحتاج إليه في المدرسة. تنبق له دملة في لسانه إذا قال الصدق مرة. مهمل، مدلل نفسه..

- أخته الكبيرة أحبتني أيضاً. إنهم يسلُّون. سأمر بهم كلما كنت فاضية.

-٦-

اضطررت إلى السفر. ابنة أختي تلفنت لي من القامشلي تخبرني بأن زوجها مريض. هما غريبان هناك. موظفان حديثاً. سافرت وقلبي عند ريم. اليمامة البيضاء، الفلّة الممطورة بندى الربيع، زر البنفسج ، تمرُّ كلّ يوم

تقريباً ولكن لم تتح لنا أية فرصة: أختي أحبتها جداً، وابني رجع من حلب. أحياناً أغافلهما، أغتنم فرصة غيبتهما لحظة فأقبّل يديها، أو أشمها، أو أربت لها خدّها، أو أشبك أصابعي في شعرها.. ما ضرّ! يكفيني أنها تأتي، تضيء ظلمتي، تشغل في شتائي وجّة ورد.. هذه الصبية، قولاً واحداً، كنز. لا تقرأ، لا تهتم لأي فن، ولكنها نقية مثل ماء المُزن. ما أحوجني إلى نقاهة صدق طويلة بعد أن أمرضتني الكذابات من النساء أكثر عمري!.

-٧-

في حياتي لم أر أكذب من ابنه. ظريف، حكّاء، حلو، طويل مثل الحورة، خدوم، يعزف دقة دقيقتين على الغيتار، يحكي في كلّ شيء، ما يعلمه وما لا يعلمه، ولكنه كذاب. جئت أمس. أبوه ما يزال مسافراً. استأذنتني عمته لعمل فنجان قهوة لي، قام هجم على الفرصة بيديه ورجليه: قعد جنبي وقرّب فمه، لا من أذني، وإنما من خدي حتى شعرت بسخونة أنفاسه. كان ملتهباً. قال لي وصوته يرتعش أن أباه اضطر إلى السفر بسرعة بعد أن جاءه هاتف من بنت أخته ولم يترك قرشاً في البيت، وإن أمه -هكذا يسمي عمته- في حاجة إلى دواء.. لم أتركه يكمل. أعطيته خمساً وثلاثين ورقة هي كلّ ما معي. لم أبق إلا بضع قطع صغيرة أجرة باص (أنا أركب الباص، أليست عجيبة!) وأخذ هو المبلغ وانطلق فوراً إلى الشارع.

قلت لعمته لما عادت بفنجان القهوة:

- لماذا لم تقولي لي إنكم في حاجة إلى مصريات؟

قالت متعجبة:

- نحن؟

- أي، الولد قال لي.

قالت وهي تمسك رأسها بين يديها:

- يخرب ذوقه! وحياة القرآن أبوه ترك لنا مئتي ليرة مع أنه لن يغيب إلا يومين!.

-٨-

فرغ البيت اليوم بعد الظهر. وثبت على جهاز الهاتف. تلفنت. لم يردَّ أحد. انتظرت ساعة، تلفنت مرة أخرى. القطة الصغيرة، هلال نيسان، لها وحشة! ردّت على امرأة صوتها خشن، كأنه شعير يجرش على رحى، له بحّة هرمة. سألتني بلهجة زاجرة من أنا. قلت لها. قالت إنها مسافرة.

لا بد أن نفسها، ذلك اليوم اليتيم، كانت مفتوحة للصدقة.

*　　*　　*

التابوت

قلت لمعلمتي وأنا أدافع الفزع:

- معلمي، يا معلمي! تعال انظر لك نظرة. إنه لايدخل: أُفوّت الرجلين يقوم الرأسِ ينطّ خارج التابوت. أدخل الرأس فتنطّ الرجلان مسألة تزحّل العقل!

كان معلمي منهمكاً في مسح التابوت، فنظر نظرة لم تلبث أن غدت حملقة دهشة. صحيح، كان رأس الميت بارز كأنه يسند عنقه على حافة التابوت المخصصة للرأس، مثلما يفعل رجل يقرأ على كنبة أقصر منه.. حاول المعلّم، بدوره، أن يدخل الرأس فنبقت القدمان.

وفكّر معلمي طويلاً وهو يحك رأسه الأشعث الذي يحمل نشارة الخشب، على الرغم من انه نظر إلى وجهه في مرآة المحل المغبشّة قبل أن نتوجّه بتابوتنا الجاهز إلى هنا، إلى بيت الميت. وهمس أخيراً همس متواطئ:

- لن تروح تقول إن علينا أن نطرق المشوار إلى المحل مرّة أخرى حتى نعثر على تابوت من قياس المرحوم. نحن حتماً لن نجد بين الجاهز ما يناسب نمرة هذا الزبون الدّكر. يخرب بيته الله يرحمه، لا تقول إلا بعير! وأما أن نعمل له تابوت تفصيل فغير وارد. الجماعة، على ما يظهر، مستعجلون عليه!.

كبحت ضحكة أن تنفجر فنفتضح. وخفض معلمي صوته أكثر، وعاد يقول:

- عاونّي أقول لك، عاون. هذا أصلاً روسي أبيض ما له أحد. رجل مقطوع من شجرة، الله لا يقطعنا ، لا وراه ولا قدامه.

وأشار إليّ برأسه إشارة تعني: «هلم»، وأكبّ يضغط –على قد ما أعطاه الله من قوة- على صدر الميت من جهة الكتف اليسرى، ويهب بي، بالإشارة دائماً، أن أفعل مثله على الكتف اليمنى.. وتناغمت حركتانا وقويتا حتى سمعنا عظم رقبة المرحوم يطق، فتميل هذه، وما كانت تحمله من رأس، على صدره كأنهما خرقة، ويدخل الجسم كلّه من بعد في التابوت بأمان الله وحفظه!

لمّا تمّ كل شيء، أخذنا أهبتنا لوضع الغطاء، وإذا نحن نسمع وقع أقدام نسائية في الصوفة مقبلة نحونا. انسحبنا، كأننا على اتفاق مسبق، ووقفنا، كلّ واحد من جهة، بعيدين من التابوت، وأيدينا متصالبة على بطنينا، في وضع من الحزن طالما مرّنّا أنفسنا على أن نجيد اتخاذه في مثل هذه المناسبة.

ودخلت علينا الغرفة عجوز، نحيفة، باسقة القامة، تلبس تيوراً أسود وتعتم بقبّعة سوداء، حتى ريشها أسود. لم يكن فيها أبيض إلا ما تمرّد من شعرها على القبة، وبشرتها.

تقدَّمت من التابوت بخطى وئيدة، مهيبة. كان ظاهراً أنها تهيئ وجهها لسحبة بكاء حارة، وتقول بما حدسنا أنه اللسان الروسي شيئاً لم نفهمه، ولكن علق في ذهني كلمة تشبه «كوي برات»(١). فلما وصلت إلى الميت، وألقت عليه نظرة، رأيناها تشب كالحنش المهاجم وتتوجّه إلينا واحداً بعد الثاني وهي تنفث السم:

- من هذا؟

قال معلمي مروَّعاً، متأتئاً:

- هذان هذا، هذا هو الميت.

- أي ميت؟

- الميت.

وعادت تحدّق من الميت إلينا:

---

(١) يا أخي بالروسية.

- هذا ليس أخي.

كان الاستجواب يجري كما في التنويم المغناطيسي. قال معلمي:

- إذن من هو؟ أنحن جئنا به من بيت أبينا، نحن؟

وزأرت:

- أخي أنا كان مثل الحورة. رقبته كانت جالسة مثل الرمح. وأما هذا.. أنا أريد أخي ساشا، أريد ساشاي (صوتها يكاد يبلغ حدّ الولولة) أريد أخي..

- واستمرت، لا بالروسية التي لايفهمها أحدٌ في الجيرة، ولكن بالعربي المشرمحي:

- آه يا قتلة، آه يا حرامية، أنتم قتلتم لي أخي الوحيد. أنتم جماعة مجرمين. والله لن انام، لن يهدأ لي بال قبل أن أرى قنطار حديد في يديك أنت يا حاخام (هذه لمعلمي) وانت يا أجير النحس، يا فصعون، يا مقصوف الرقبة (هذه لي أنا) آه يا أرذال. حوينتك يا أخي، يا ذلّي من بعدك يا ساشا. قتلوك يا حبيبي وأنا على الحياة؟ ميلي موي، موي برات، موي صين، موي خَرُوشي[1].

وهات يا عياط، وهات يا شهيق، وعات يال دموع.. فجأة سدّدت إلينا نظرات حادّة، تنطوي على دهشة وغضب وخوفتنا.

- ولكْ، أما تزالان هنا أنتما يا أوباش، نا خالي، خوليعاني[2] انقلع من وجهي أنت وهو يا..

لم نبق لنسمع البقية، لأننا كنا قد أخذنا سيقاننا على رقبتنا وقلنا «يا من سترت لا تفضح»، ونحن لا نكاد نصدق!.

* * *

---

(١) هذه تعني بالروسية على الوالي: يا حبيبي، يا أخي، يا بني، يا طيبي.

(٢) أي اوباش وزعران أو شيء من هذا القبيل.

سمر صباحي

الصباح. «هو» قرب النافذة التي تشرف على شارعين. المدفأة تنشر دفئاً لذيذاً. بنات المدارس، على الرغم من المعاطف، يسررن العين والقلب. «هي» أمامه، ما تنفكّ تتكلم وتتشق وتسعل وتلفظ السين حرفاً مزيجاً من الصاد والصفير والشين، على نحو يضرب على العصب إذ تصبح «النفس» شيئاً يشبه أن يكون «النفش ص شيس» قالت «هي»:

- أم فيروز مجنونة خالصة. طول النهار تشوح وتنوح، لأن ابنها لا يريد بنت عمته.

ويقول «هو» لاهياً:

- وما دخلها فيه؟

- مجنونة. وأخوها أيضاً. قال لي زوجها: نحن لا نجرؤ على الكلام. أخوها (هذا الذي ترجّاك من أجل مسألته في المطبعة) يأتي إلى البيت صباحاً، ولا ينصرف إلا ليلاً. لا كلمة ولا سيرة ولا حكاية غير بخّ السيكارات وشرب القهوة. الحق كلّه على فيروز امرأتي لا هم لها إلا أهلها.

صمت. «هي» تستأنف:

- بكرة عيد رأس السنة عندهم. قال لي زوجها: مجانين. لماذا لا يعيّد كل الناس معاً؟

فكّر «هو»: إن شاء الله أنت تفكّرين أننا عقلاء!» ولكنه لم يقل شيئاً خوفاً من هجمة جديدة. كان يتجنب النظر إليها، ولكنه كلّه إلى أقل حركة في الشارع المواجه، يرصد مرور تلك التي تلبس ثياباً ملونة تغلب عليها الزرقة، وعلى ظهرها يتحدّر شلال أشقر يفرش على عرض معطفها السماوي. كل

البنات حلوات، ولكنهن لا يُحسن إذا لم تمرّ هذه. فراشة في قلب الشتاء يرمقها بعجر باشق شيخ مهيض الجناح، وإن لم كن في قلبه سورة الربيع الذي يبرعم في تلك الفراشة.. وعادت «هي» تقول:

- الله يسامحه على هذه المدفأة التي بلانا بها. مدفأة عتيقة، صدئة، مطعوجة، ربما مستعملة، ولقف حقّها مئة وثلاثين ما عدا البواري. الجيران بعد ما اشتروها شعلوها. رح شفها الآن. تبدو كان عمرها عشر سنين. وجاءت شرشرة القهوة، والخبز الملزّق، والجبنة السايخة، والمربى.. حبيبي! منظر!.

قال، لكي يقول شيئاً:

- هل اشتروها منّا وعليها بقايا قهوة فائرة؟

- لان ولكنها هي عتيقة. باعنا إياها عتيقة، المنظوم. المسألة واضحة مثل عين الشمس، الله يسامحه، كانه يستمننا!

- كانت طابتها تشرّ، فماذا فعلوا؟

- - صلحوها. لحمها الزوج.

- لماذا لم يصلحوها لمّا كانت عندنا حتى دفعنا حق هذه الحلبية ثلاثمئة ليرة، وليست مثل تلك من حيث مصروف المازوت. هذه بالوعة؟

- أأنا أدري! كل الناس يطمعون بنا، يظنوننا قاعدين على كنز يا حسرتي!

- حتى يشتروها بالهلك، أليس كذلك؟

صمت «هي»:

- غشاش، مثل أمه وأبيه، عيلة أقول لك، والعياذ بالله فمها وغايرة في الدنيا (صمت) وهذا رفيقه الأبو بريص؟ يبعث لي الحمى إذا كان انطلى لي على قلب (صمت) مليح، خلصنا منهم بهذه المئة والثلاثين.

قال في إثارة خفيفة من تهكّم قاتم:

- ما عدا البواري!

- قولتك.

صمت مديد. «هي»:

- ذاق زيتوناتنا قام سألني: «بكم الكيلو؟» قلت له: «بست ليرات». قال: ما قصرتم. هذا هو الزيتون الذي يؤكل. نحن اشترينا زيتوناً بثلاث ليرات، لا يصلح إلا للكلاب»... يجب على الواحد أن يعترف. غرض أم زكي ما عليه كلام. والغالي هو الرخيص. قالوا: يا مسترخص اللحم عند المرقة تندم!.

لم يسألها من هو هذا الذي امتدح «زيتوناتنا». إنه متأكد من أنه شخص جديد، لا علاقة له بأي من هؤلاء الذين ذكرتهم! وبعد صمت جديد قالت هازلة:

- تلفنت البارحة «خطيبتك»!.

- فار غضبه، غضب مباغت قفز إلى حنجرته كاد يخنقه:

- من الآن وصاعداً قولي لها: أنا لست هنا، حتى ولو كنت. تضرب ما أغلظها! من تحسبني هذه الشمبازية؟ وترمي نكات أيضاً، زيادة في النكاية. وأنت الثانية! لم تتركي شيئاً إلا اطعمتها إياه لما جاءت «تقلِّبني» ذلك اليوم! سليماني إن شاء الله! ما بقي عليّ إلا الكركمّات القالعات أسنانهن يتحرشن بي. تنمحق في فمها المطعم على فم ضفدعة.. العمى، كأني جبّانة!

واستمر يهمر بعض الوقت مثل كلب مستثار. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة. أمرّت الفراشة ذات الشلال الأشقر على أزرق، أم لم تمر؟ أهي مريضة؟ هل ضيّع من يده تلك الثواني القصيرة ما بين اطلالتها من رأس الشارع واختفائها، بينما كان يعلك في المدافئ والزيجات والزيتون؟ لابد أنها مرّت! وإلا، فلماذا اندفق هذا الهدير الغاضب بغتة؟!..

* * *

إلى الأبد!

بعد فاصل موسيقي انبعث صوت المذيعة:

«هنا إذاعة.. (أسمت إحدى محطات الاذاعة العربية). بعد هذا الفاصل الموسيقي نقدم إليكم برنامج «نحن والتاريخ» يعدُّه ويقدمه لكم الاستاذ محمد كامل».

وبعد موسيقى قصيرة، هي شارة البرنامج المميزة ينداح صوت هادئ، فيه بعض الحزن وبُحّةٌ. محببة، وأثارةٌ من سخرية:

«أيها السيادات والسادة، بين يديّ الآن نسخة من التوراة فرنسية ترجمها عن العبرية واليونانية لوي سوغون، وهو دكتور في اللاهوت يتقن لغات عدة غيرهما. في الصفحة الخامسة والعشرين وما بعدها، تروي التوراة حكاية اللعبة التي لعبتها رفقة، زوج اسحق، حتى تحرم بكرها عيسو من البكورية وتخص بها ابنها الأصغر يعقوب. وسأترجم لكم في ما بعد حكايات أخرى غيرها، أوردها من غير تعليق لأنها في غنى.

«تقول الحكاية إن اسحق لما وهن العظم منه، واشتعل الرأس شيبا، وكفَّ بصره، نده عيسو، بكره، وقال له : «أي بني» قال عيسو: هأنذا» قال اسحق: «اسمع، أنا شيخ كبير بلغت من الكبر عتيا، ولا أدري متى يكون يوم وفاتي إذن فاذهب الآن، أرجوك، وخذ أسلحتك، قوسك ونشابك، واجلب لي صيداً فأصلحه كما أحب، واجعله طعاماً لي حتى تباركك روحي قبل أن أموت». وسمعت رفقةُ ما قاله اسحق لعيسو ابنه. ومضى عيسو إلى الحقول ليصطاد صيداً يحضره. وقالت رفقةُ ليعقوب ابنها: «انتبه. سمعت أباك يقول لعيسو أخاك: أحضر لي صيداً تصنع منه طعاماً آكله فأباركك أمام الأبدي قبل موتي. والآن أصغِ يا بني إلى صوتي فيما أوصيتك به: رح خذ لي من القطيع جديين فأصلحهما لأبيك طعاماً كما يحب ويشتهي واحملهما إلى

أبيك ليأكلهما ويباركك قبل موته» أجاب يعقوب أمه قائلاً: «شوفي يا ام، أخي رجل أشعر وأنا لا شعر لي. وقد يتلمسني أبي فأكون في عينيه كذابا، وأجلب على نفسي لعنته لا بركته». قالت له أمه: «لتنزل هذه اللعنة عليَّ يا بني، أصغ إلى صوتي ورح أحضرهما لي». ومضى يعقوب فأحضرهما إلى أمه التي صنعت منهما طعاماً كما يحب أبوه. ثم إن رفقة أخذت أجمل ثياب عيسو، بكرها، الموجودة في البيت وألبستها يعقوب، ابنها الأصغر، وغطت يديه بجلد الجديين وعنقه التي كانت بغير شعر، ووضعت في يدي يعقوب، ابنها، الطعام والخبز اللذين هيأت.

«وجاء أباه وقال: «يا أبي» قال اسحق: «هأنذا. من أنت يا بني؟» أجاب يعقوب: «أنا عيسو، وقد صنعت ما قلته لي، فقم، أرجوك، اجلس وكل من صيدي حتى تباركني روحك». قال اسحق: «ما هذا ما أسرع ما وفقت إلى صيد». قال يعقوب: «إن الربَّ إلهك جعل الصيد يأتي إليّ». قال اسحق: «ادن مني ادن فأتلمسك حتى أعلم ما اذا كنت حقاً ابني عيسو أو أنك لست إياه». فدنا يعقوب من اسحق أبيه فتلمسه وقال: «الصوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو». لم ينتبه لأن يديه كانتا مشعرتين مثل يدي عيسو أخيه. وباركه، وقال: «هل أنت ابني عيسو؟» أجاب يعقوب: «أنا هو». قال اسحق: «قدم لي من صيدك يا بني حتى تباركك روحي». فقدم يعقوب الطعام إليه فأكل، وأحضر له خمراً فشرب.

«حينئذ قال اسحق أبوه: «ادن مني وقبلني يا بني». فدنا يعقوب وقبله، فشم رائحة ثيابه ثم باركه قائلاً: «اسمع، إن رائحة ابني مثل رائحة الحقل الذي باركه الأبدي..».

أيها السيدالت والسادة، هل يحتاج هذا النص الذي سمعتم إلى تعليق؟ ومع ذلك، فقد كان، هو ونصوص لا تقل عنه ادهاشاً، الأساس «الفكري» في إخراج عشرات الألوف من ديارهم وأموالهم وأحبائهم. ويعقوب هذا هو الذي اصطفاه «الرب» وسماه «اسرائيل» أي عبد إيل، أي عبد الله. ليست مكافأة سخية أكثر من اللازم على احتيال من رفقة وكذب صراح من إسرائيل؟!.

إذاعة.. الاثنين.. ١٩٧٥

«.. وقال الأبدي لموسى: سأنزل جائحة أخى بفرعون ومصر، وبعد ذلك يتركِكم ترحلون من هنا. وهو لايدعكم تذهبون وحسب ولكنه يطردكم طرداً من هنا. فكلمّ الشعب وقل له أن يسأل كلُّ واحد من رجاله جاره وكلُّ واحدة من نساءه جارتها أواني من فضة وأواني من ذهب. وسيجعل الأبدي حظوة للشعب في أعين المصريين. موسى، هو أيضاً، كان جليل الاعتبار في بلاد مصر وفي أعين خدم فرعون وفي عيون الشعب.

«وقال موسى: هكذا يقول الأبدي: نحو منتصف الليل أمرٌّ عبر مصر، وكل رضيع في بلاد مصر يموت، من ابن فرعون الوليد، فرعون الجالس على عرشه، حتى رضيع الخادم التي خلف الرَّحى، حتى جميع أبكار البهائم. سيكون في بلاد مصر صراخٌ عظيم لم يكن كمثله صراخ قط ولن يكون أبداً. وأما بين أولاد اسرائيل كافة، سواء من الناس أو البهائم، فلن يحرّك كلب لسانه حتى تعلموا أيَّ تمييز يجعل الأبدي بين مصر واسرائيل..».

الاصحاح الحادي عشر من سفر الخروج

ترجمة لوي سوغون، الصفحة ٦٣.

«ما الحكاية؟ عدت لا أسمع أحداً يتكلم على عذاب الشهادة الذي يتجرع المطران كبوشي في سجون اسرائيل. عدت لا أسمع أصداء ما قاله المرحوم، سلف كبوشي، المطران أبي سعدى من أن السيد المسيح إنما هو نفيٌ للعهد القديم، في حين أن اسرائيل –التي تبحث عن مبررات لوجودها في هذا الكتاب وغيره- تريد أن تثبت هذا العهد القديم. إن خطاب المرحوم جبرائيل أبي سعدى، الذي ألقاه قبيل وفاته، يجب أن يدرس في المدارس. ما أعظم المطران أبي سعدى وما أعظم المطران كبوشي! وددت لو يخصص لي ركن في هذه الإذاعة لا أصنع فيه غير أن أترجم هذا الكتاب الذي يتبناه هؤلاء الذين يبقرون بطون الحوامل، ويذبحون الأطفال، ويهدمون البيوت على ساكنيها ويقول قائلهم: «أنا أقتل إذن أنا موجود!»

إذا أردت أن تعود إلى المصادر الهمجية التي يستقون منها «مدينتهم» الحاضرة منذ نحو من ثلاث حقب حتى الآن فاسمع هذا المقطع من «العهد» القديم، من ترجمة لوي سوغون التي حدثتك حديثها من قبل، الصفحة مئة وسبعا وتسعين:

«عندما تدنو (الكلام من يهوه إلى موسى الذي في توراتهم) من بلدة بقصد مهاجمتها فإنك تعرض على أهلها السلم. فإذا قبلت السلم، وفتحت لك أبوابها فاجعل سكانها الموجودين فيها كافة ملكاً لك وخدماً. أما إذا لم تقبل أن تقيم سلاماً معك واختارت حربك فحاصرها. وبعد أن يجعلها الأبدي، ربُّك، بين يديك، فإنك تمرُّ كلَّ ذَكَر فيها على حد السيف ولكنك تأخذ لنفسك النساء والأطفال والماشية وكل ما في المدينة: كلُّ ما في المدينة يصبح غنيمة لك، وتأكل من جثث أعداءك الذي أسلمهم الأبدي، ربك، إليك. هذا ما تفعله بالمدن البعيدة من الأرض التي وعد الله بها آباءك. وأما المدن التي وهبها الله آباءك إبراهيم وإسحق ويعقوب، فإنك متى ما تفتح مدينة فلا تدع فيها حيّاً يتنفس!».

* * *

بعد دقائق من إذاعة النص السابق، رنَّ جرس الهاتف في بيت محمد كامل. رفع السماعة.

- ألو نعم؟

- ألو، عفواً هل أقدر أحكي مع الاستاذ محمد؟

- هذا أنا.

- حضرتك الأستاذ محمد؟

كان صوت المتكلمة على الطرف الآخر من الخط عذباً كتغريد بلبل في صباح ربيعي: سحبة نغم تطفح صبوة وصبا، فيها إثارة من تهدج كأنها تنساب من لهاة لم يبل لها ظمأ.

- صحيح؟ حظي كبير.

- أشكر لك. فيه أمر؟

- أرجو عفوك. سمعت زاويتك الأخيرة في الاذاعة الآن. ومن قبل سمعت زوايا غيرها تطرق الموضوع ذاته. أردت، من المرة الأولى، أن أتصل بك لأهنيك، ولكني خجلت. وأما الآن فلم أستطع الامتناع. اسمح لي أن أهنيك من كل قلبي. شيء لا أحلى ولا أروع..

- أشكر لك مرة أخرى.

- خيل إليّ، مع صوتك الهادئ المواسي، أنك لا تتوجه إلا إ..إ.. إليّ!

- حضرتك تعطينني فوق ما أستحق. أنت تخجلينني.

- هل يزعجك إذا أنا تلفنت لك بين حين وآخر؟

- لا، على العكس، أنتِ تسعدينني.

- أنا عادة لا أعنى بغير الشؤون السياسية والفكرية والاقتصادية. عندي مكتبة فيها أكثر من ألفي كتاب، تسعون بالمئة منها يتعلق بهذه الأبحاث...

- وأما أنا (يضحك) فعلى النقيض مكتبتي كلها روايات وقصص ومسرحيات وأدب قديم. فإذا عثرت على بعض الكتب السياسية فلا بد أن تكون إعارة أو... أمانة!

- سأهتم منذ اليوم للأدب، على الرغم (في تواضع) من أنهم يقولون أني أديبة خِلقْة!

قد أكون إنما أخذت من وقتك الثمين أكثر من اللازم. لا تواخذني أرجوك و... إلى الغد.

- إلى الغد.

الكاتب محمد يضع السماعة في بطء ويظل ينظر إلى جهاز الهاتف مبهوتاً. ما هذا الصوت؟ لماذا، لماذا لم يُطل الحوار؟ كم عمرها لا بدّ أنها لما تتجاوز العشرين. في الكثير الخامسة والعشرين. ولكنها قطعاً تحت الثلاثين.

هذا الصوت بنية أو مغنية. عمره هو فوق الخمسين. ولكن، ها هو ذا يتذكر أن الأشياء التي اجتذبته عمره كله حتى الهيمان ما تزال هي ذاتها: الاستدارات الفاية في الجسد النسوي، التكور (يدعي أن الكون مكوَّر!)، الوطف، الشفتان كرزتان، الحديث العذب الرقيق المهموس، الطيوب التي كان يجسدها فور تضوعها وملامستها أنفه حتى ليتصورها أشخاصاً متميزة، كائنات حية. الفرق، أغلب الظن، يتراوح بين العشرين والثلاثين سنة، ماذا يهمّ! إن إمرأة لها مثل هذا الصوت المنساب مثل دمعة صامتة، صوت له عبق مثل رائحة صبية خرجت لتوّها من الحمام... والحديث غير العادي، والمكتبة الحافلة حتى ولو كانت القصة والروايات والأشعار فيها قليلة... لا بدّ أن تكون فتاة مختلفة في العمق وفي السطح عن آلاف النساء اللواتي يخلبن لبه من حيث هن صبا وجمال واستدارات تامة، فإذا حككت القشرة السابية التي هي هذا الحسن المحيرّ، لم تقع، ربما، على غير المرأة - الحرمة مثل ستّ ستّها، إمرأة لها مدار مسكين ضيّق لا ينتبذ بها أبعد من تشهّي زوج مرفق يؤمن لها غرفة نوم جخ، وبيت مُلك من أربع وصوفة وغرفة ضيوف ستيل، وسيارة على الباب، ولفاية تمرّ في الأسبوع مرتين ثلاثاً فتعمل البيت، ومن بعدها يستولدها أولاداً حلوين أصحاء يطلعون لأمهم الظريفة، وأبيهم الميسور...

وأما هذه؟! إمرأة تهتمّ للثقافة وتصغي إلى الراديو فتتنخل الكتاب المجددين مثله. عندها مكتبة حافلة. كلامها هو التهذيب والكياسة، حضارة مصوغة في كلمات ألذ على الأذن والقلب من رائحة زهر البرتقال والخبز الطازج... إمرأة كهذه تظل خارج التصنيف في سلّم نساء بلدنا. إنها إمرأة إما أن تكون بين العشرين والثلاثين ولعلها أن تكون في الخامسة والثلاثين، وهذا أحسن. وإما أنها لوليتا من اللوليتات تضرم الحياة في برودة هذه العظام الخمسينية، وتفجّر فيها، مقلما في أشجار اللوز، خياماً من ثلج دافئ معطر. وفي كلا الاحتمالين مؤكد أنها أوروبية الثقافة، يعني أنها عندما يدب الطلق بالمحبة في قلبها تمد لسانها لفروق السن حتى ولو كانت فضائية!

وبعد كلّ واحدة، لماذا يفكر في فروق السن؟ إنه، وقد تجاوز الخمسين، ما يزال يعطي. في الأقل لا يشكو شيئاً، ويذهب بخطى يافعة كلّ صباح إلى العمل ماشياً، أشمّ الأنف، أقب الصدر كأنه يزاول رياضة كمال الأجسام. وهو فعلاً، مارس الرياضة: حمْلّ الأثقال، الملاكمة، الجمباز... لم يبرز في أية منها،، هذا صحيح، ولكنه ما نوى قط أن يبرز، لأن قواه كلهّا، مذ هو في سني المراهقة، انضفرت حول قضيتي الكتابة فالنساء فالأشياء الأخرى. الدليل أنه ادّعى مرة (في أثناء درس رياضة في تجهز حلب)، أمام المرحوم الأستاذ محمود البحرة، أنه قادر على القيام بحركة التوازن على المتوازيين. فلما حاول كاد - لولا يقظة الاستاذ - يقع على خندق رقبته. وقال له الأستاذ يومئذ - على حلمه ودماثته وصبرة: «الله لا يعطيك العافية بعد تعبك!» من يومه كف عن أن يحلم بأية بطولة في أي نوع من أنواع الرياضة البدنية.

قل هذه مسألة أخرى. مسألة أخرى أيضاً أن يفسر لماذا الكتابة فالنساء فالأشياء الأخرى ما دامت الكتابة هي مسيرة حياته، وهي أصل النهر أو النهر - الأصل وما تبقى روافد تغنيها وتهبها قدرة على التجدد الذي لا ينضب... المهم أن الدنيا حلت في عينيه حتى أصحبت مثل الفلّة المكبسة. ابنه الذي كان يُعفرت ويشوي الحارة غدا في نظره حملاً صغيراً وضعته أمه طازجاً مدهوش القوائم. أخته المهووسة بالنظافة زالترتيب، وما استطاعت في عمرها أن تمتنع عن عادة تلعيب يديها في مكتبه ومكتبته حتى يعود لا يدري أين وضع مخطط أقصوصة كان فكره قد أخذ الطلق بها، أو كتاباً اشتراه وتصفحه فرأى أنه حسَن، فركزه على مكتبه في انتظار افتراسه لدى أول فرصة، أخته هذه صار جرمها جنحة أو مخالفة أو حتى براءة كاملة!

لما كان فجر اليوم التالي، وثب من سريره في خفة ابن الأربعة عشر، فأخذ زينته. نزل في لحيته قشراً وبشراً ونتفاً، ولم يضع من كولونيا كلّ يوم، بل من حُقَّ عطر ثمين كان يخبئه تحت القفل. وفتل شاربيه بعد أن قصقص من حواشيهما بضع شعرات رمادية و... وراح يتدقمق قرب الهاتف وهو يطفح بشراً.

الساعة الثامنة وخمساً وعشرين: جرس الهاتف يرن رنّة واحدة لم يثنها. هتف حتى قبل أن تصل السماعة إلى أذنه:

- ألو نعم؟

على الطرف الآخر ضحكة كزقزقة كمنجة ولكنها مختصرة من استحياء.

- صباح الخير.

- صباح النور.

- كنت تنتظرني؟

- جداً.

الضحكة هنيّة، فيها كلّ جذل طفل فوجئ بهدية، لعبة جديدة.

لا تواخذني، ولكن... يظهر أني بدأت أدمنك.

هذا يسعدني، لا تستطيعين أن تتصوري كم. آمل أن لا تكوني أخطأت فأنا (ضحكة) معتّق!

وتقول لي، أنت الكاتب الكبير، أن هاتفي... يسعدك، تصور! صحيح أني أنا أيضاً كاتبة بعض الشيء، نشرت لي قصص كثيرة، وكل من قرأني قال إني كاتبة ناجحة... ولكن هذا لم يفتل رأسي. أنا أعلم أن الدرب أمامي طويلة ما نزال حتى يكون لي مثل معلمية إنسان أحبه...

كان واضحاً أنها مهيأة لحديث طويل. وهذا ما سرَّه وهيأه على الرغم من أنه لا يحب الثرثرة الطويلة على الهاتف. قال:

- أتغضبين إذا سألتك ما اسمك؟

قال الصوت الذي على الطرف الآخر في غنج:

- اسمي الأصلي أنا لا أحبه. بلدي بعض الشيء. ولكن سمّني رشا.

- صفي لي نفسك ولكن (يضحك) من غير تحيَّز.

- أنا موضوعية جداً.

- طيب صفي لي نفسك بموضوعية. أنا أصغي.

- أرملة...

قال في نفسه فرحاً: «يا سعادتي!». استمرت تقول:

- ... منذ عشر سنوات. تزوجت وأنا بنت ثلاث عشرة وصرت أماً في الرابعة عشرة. أنا ما عشت معه أكثر من عشر سنوات.

جمع كاتبنا الكهل، ممشط لحيته الدائم على الحب، طرح، ضرب، قسم: عمرها إذن في حيطان الخامسة والثلاثين. وفكر منتصراً: «هذا ما حزرته منذ البداية!».

- أكملي من فضلك.

- أنا لا أعتبر جميلة ولكن كلّ من أعراف من رجال أو نساء يقولونها لي (تضحك) وعندما أذهعب إلى السوق مع ابنتي يظوننا أختين. ماذا أقول؟ أنا فوق الوسط. شقراء مخطوفة الخصر، مكلثمة، مشيتي فيها كبرياء (ضحكة) حتى أن الكثير من رفيقاتي يسمينني: الملكة! لا بد أنهن يبالغن. أنت تعلم، عين الرضى. (صمت قصير) عفواً، أراني جعلت الحديث وقفاً على نفسي. والآن الدور لك.

- في أيش؟

- يوه، في الحديث عن نفسك!

- أنا، أنا ما لي نفس إلاّ بك.

قالها ثم ندم فوراً: نكتة بازارية مثل هذه مع من كان لها هذا الصوت وهذه الثقافة. ولكن ما أدهشه أن ضحكة طويلة رنت على الطرف الآخر من الخط.

- لا، احك لي عن وضعك العائلي مثلاً.

- أنا مطلّق منذ عشرات سنوات.

منذ الآن عاد الصوت الذي على الطرف الآخر من الخط لا يهدل، لا يغرد. صار يزغرد.

- متى تكون فاضياً؟

- دائماً. منذ أمس لم يسبق لي شغل غيرك.

- هل تستقبلني غداً في مثل الساعة؟

- أتسألينني أنا هذا السؤال؟

- ضحك مقتصد.

- إذن إلى الغد.

- إلى الغد وشكراً لك.

- على ماذا؟

- على كل شيء.

لما أصبح صباح الغد كان صاحبنا آنق، أكثر تنعيماً لذقنه، قلبه أشد جذلاً وحبوراً. أيقظ ابنه وضاحكه. أخته كانت مستيقظة.. ساعدها في إعداد الشاي والفطور للولد. ساعدها، هو المهمل الشرن، وكان خادماً للجميع. وفكرّ في نفسه: «المرة الأولى لا ينبغي لي أن أرعبها. يجب أن أستقبلها «عائلياً». وأما شوقي للملمتها وتغييبها في صدري فسيكون له يوم آخر».

الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين، جرس الهاتف:

- ألو نعم.

- أنا رشا.

- عرفت. أهلين وسهلين.

- كيف أصبحت؟

كان صوتها وانياً هذه المرة، مدنفاً، عذباً مثله دائماً ولكنه كسير. أضافت:

- فتحت عليك لأعتذر.

- عن ماذا؟

- لن أستطيع المجيء الآن.

- لماذا؟

انتقل إليه وناؤها وهو يطرح «لماذا» هذه. قالت:

- لم يُغمض لي البارحة جفن.

- خير إن شاء الله، مريضة لا سمح الله

مثلك لا يحتاج إلى شيء. لم أنم بسبب... على كل حال سأحاول أن أنام قليلاً الآن وآتي الساعة الرابعة والنصف اليوم بعد الظهر.

مخيب الرجاء ولكنه في الآن ذاته يُحبُّ لهذا القلق اللذيذ أن يطول بعض الشيء:

- كما تشائين، ولكن الرابعة والنصف يعني الرابعة والنصف على الثانية. أنا الانتظار يُمرضني.

قالت بصوتها المغرد ولكنه كان مكسوراً، يكاد يكون محموماً:

- أنا لم أقل لك من قبل إني عشت في أمريكا زمناً، ولذلك أعلم ماذا يعني الوعد. ما أجمل تلك البلاد! ما أجمل الغرب! إن أحداً هناك لا يخطر له على بال أن يهتم لشيء اسمه «ايش سيقول الناس». نصور، كنت أقرأ إعلانات في الصحف من نساء في الستين يعربن عن رغبتهن في زواج شيوخ في مثل سنهن. الغرب، الغرب معلم الدنيا.

(صمت).

- طيب سأكون في انتظارك اليوم، الرابعة والنصف.

خربط شعره. خلع البدلة الجديدة. رجع إلى التخت وسحب اللحاف إلى ما فوق رأسه. حاول النوم ففشل. عاد فأخرج رأسه من تحت اللحاف. ومدّ يده إلى الكومودينا التي عن يسار السرير وأخذ كتاباً مما يحب. من عادته، مهما تكن المشكلة التي تتزوبع في رأسه أنه ما أن يلقي نظرة إلى الأسطر الأولى من كتاب يلذه - حتى ولو كان يعيد قراءته - أن يقتلع من شواغله،

من شروشها، ويغرق في غمار الآخر، الممد حروفاً وكلمات ومقاطع على الورق. في الفترة الأخيرة، بعد أن انهزم في تجربتين، كاد يصل إلى قعر اليأس. صارت الدموع تطفر إلى عينيه، ويختنق صوته كلما قرأ حواراً بين إمرأة ورجل تختلج فيه أشواق، وتتراءى تباريح متبادلة مستجابة. يقول في نفسه: «لم يبق غير أن أبكي لسعادة الآخرين». وكان، مذ يلوح له بصيص يشخص بصره نحوه ويندفع إليه كأنه مسحور. وأما الآن، فقد انقطع إلى هذه التنف الصغيرة يلقيها في الإذاعة مما يلملمه من تسكعه الدائم في الطرق والأزقة والقهاوي والناس والكتب. وقد يكتب عملاً تمثيلياً أو أقصوصة، ولكنت على شرط أن لا يطولا. من هو ذلك الكاتب الذي قال إننا نكتب عندما لا نحيا. وحياة بغير إمرأة تطلعنا كلٌّ لقيا على سر جديد من أسرار جسدها أو روحها، ما هي إلاّ حياة كسيح، نصف حياة. ولا سيما هنا، في هذا البلد الذي يغوص في بحر لا يدري له سبباً. كلٌّ الناس مشغولون بغير شغل، مستعجلون لست تدري لماذا، محزونون لا لأنهم مهزمون ولكن لأنهم لا يعلمون - أو لا يجرؤون - أن يعلموا ما أومَنْ الذي هزمهم: بسبب من خارج ذواتهم أم من داخلها؟ وهكذا تتراكم الدقائق فتصنع ساعات فأياماً فأسابيع. كل لحظة تشبه كلّ لحظة كما تتشابه قطرتا ماء أو كما يتشابه قدحان أخرجا من مصنع ممكنن. الفارق بسيط: قد يفيق أحد هؤلاء الأغنام ذات صباح، ويدلف إلى المرآة ليحلق لحيته، أو لتسرح شعرها وإذا هو، هي، يفاجأ، تفاجأ بشعرة بيضاءتظهر في مفرقة (مفرقها) فيقتلعها، أو يتركها وهو يقول: «طز!» ثم يمضي إلى مداره مثل بغل الطاحون، مستسلماً، مهزوماً، كئيباً، رقما بين الأرقام!

قال في نفسه وهو ينهض ويفتح الراديو على محطة تبث موسيقى مهدئة: «لنشتغل لنا شغلة» وسمع المذيع يقول: «تشايكوفسكي» بلغة لا يعرفها. ماذا لتشايكوفسكي؟ لا يهم، لأنه يعلم أنه لن يفرغ كله للإصغاء. كان من عادته أن يقول: «أنا أسمع لكي يصغي عالمي الداخلي وحسب، وأشتغل من بعد بأشياء أخرى!» التقطت أذناه قبل أن يختفي تشايكوفسكي عن سمعه الظاهر نبرة مجروحة من كمنجة. شَعرَ بأسى: «لماذا انضاف إلى تعاساتي

المديدة أني كنت في صغري أفقر من أن أستطيع شراء كمنجة وتعلم العزف؟ طبق ورق وقلم رصاص كانا أرخص ألف مرة من كمنجة وكتاب سولفيج ومعلّم موسيقى. ولذلك ألجئت إلى خيار يتيم: «حزن الكلمة عوضاً عن حزن النبرة الموسيقية الأرق الأشجى، الأكثر إيصالاً!».

وقال في نفسه: «ما يزال أمامي انتظار سبع ساعات ونصف!».

وتساءل: ترى هل هي ساكنة في بيت مستقل، وحدها، فتفرد لي في إحدى الغرف مجلساً أستطيع أن أقرأ فيه وأكتب وأنسى كل شقاء يومي وعجيجه وتفاهاته. أكلكها إذا أردت وأقرأها وأعريها... وأحبها هذاك الحب الأكبر، الأخير، الذي ما يزال ينتظر مُصابراً في ركن من أركان قلبي، ظمآن لما يعرف الري قط. وأما الكلام فبهمس. وأما الأعين فلا تحيد عن الأعين. آخ، أخيراً استراح الشقيّ المتعب المتشرد؟

*   *   *

غرفة الضيوف، حيث ينوي استقبالها، لها نافذة عريضة تطلّ على الشارع الممتد أمام بيته، وعلى الشارع المواجه، الجانبي. خضرة تغمر كل حدائق البيوت مدى النظر. في البعيد، في الشارع المواجه، حورة تعلة الملحق بمقدار طابق ونصف، تتثنى لأقل نسمة.

للبيت ثلاثة أبواب: باب غرفة الضيوف: موصد. باب الصوفة حيث غرفة القعود التي في صدرها، كان ابنه، الساعة الثالثة إلا ثلثاً من اليوم نفسه، يكتب وظيفة حساب: موصد بمدفأتين مجلّلتين بقماش أبيض نظيف جداً. الدخول إذن منحصر بالباب الثالث الذي يفضي إلى الدهليز. يعني أن الداخل إلى غرفة الضيوف يجب أن يمر من الصوفة.

الساعة الثالثة إلا ربعاً، قش لحيته بماكنة الكهرباء. كان ذلك هو اليوم الوحيد في حياته يحلق مرتين. الصباح لم يكن في عروة سترته اللازوردية شيء. وأما الآن فقد شكل وردة صفراء قطفها من حديقة البيت التي تطل عليها نافذة غرفة الضيوف. تعطَّر مرتين. كل هذا تم قبل الرابعة. الساعة

الآن الرابعة. بعد أن ألقى نظرة على مجمل هندامه في مرآة الصوفة، جاء يجلس إلى النافذة يرقب الشارعين. مرت فتاتان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، شعرهما ينتهي بثنية رجراجة كالنوابض. صبا. جَمال بِكْر يخفق له القلب. قال في نفسه: «حبيبتي أحلى!» أنا متأكد من أن هاتين لا تستحقان أن تكونا وصيفتين في بلاط مليكتي!» هذا صبا قاهر، أنا لا أنكر. ولكنه يشبه أن يكون قرعوناً إذا أنت قارنته ينضج حبيبتي، مشمش حارم الذي يقطر منه العسل، فواكه أيلول. خمس وثلاثون! هذه هي السن التي تصبح المرأة فيها رمانة من رمان كفرلاته، كل حبة ياقوتة حمراء...

ولكن، أسرع من بارقة الخاطر، مرقت بضع من علاقاته السابقة في ذهنه كأنه يحياها الآن. أكان ذنبه إذا كانت البدايات كلها افتتاناً، شعراً، انقطاعاً عن التفكير في غير الحب الجديد؟ فتاة مثل «تاء» تتلفن له ليوافيها إلى كافتيريا في أبو رمانة. يذهب. كانت... كانت عيناها حزينتين، ولهما ثنيتان تحت الجفنين السفلين تزيدانها حلاوة. وقد حملت له معها مصنفاً فيه أوراق بنفسجية قالت إنها أشعارها. موظفة في المالية ولكن هواها إلى الفن والأدب، وتعرف الفرنسية، درستها عند الراهبات. وهي ما استدعته إلاّ لأنها وحيدة؟، تشاجرت مع أهلها في مدينة «س» فطلبت نقلها إلى دمشق. وهي تود لو يساعدها على الانتقال إلى وزارة أخرى تتناسب وشواغلها الفنية... ما بهره هو أنها قالت له أنها ليست عذراء، ولا تدري كيف. وأن لها صاحباً في «س» قامت وإياه برحلة إلى أوروبا، وحملت منه وأجهضت في إحدى الدول الأوروبية لأنه متزوج. وهي لا تحبه ولكنه استطاع أن يعلقها به في اللحظات الحرجة إذ علاقاتها بأهلها قد أوصلتها إلى منتهى اليأس والقهر والضجر، هي التي تحب شقيقاتها السبع وتنفر من بلادة أمها التي لا تحب غير ابنها الوحيد الذي جاء بالعسر بعد ثماني بنات. في حين أنها - الأم - وضعتها هي في الدهليز! وحكت له كيف حاولت الانتحار ذات مرة لما ابتلعت عشر حبات أسبيرين دفعة واحدة، وأخذت تتلوى بما خيل إليها أنه أعراض التسمم،

فجاءت إحدى رفيقاتها وسألتها عما بها، فلما أخبرتها تضاحكت الرفيقة وقالت لها: «أي قومي تضربي، هذا الجسم الضخم وهذه العجيزة المطهمة يحتاجان إلى عشر علب لا إلى عشر حبات!».

الأشعار كلها كانت صف كلام وثرثرة ليس وراءها أية موهبة أو بارقة من أمل. وحتى تبرهن على أنها متبحرة بالعربية كانت تكثر من تردد: «كم بالحري» وكلمة «معرض» تلفظها على حبتها بكسر الراء. وإن ظلت الأشعار شيئاً مقيتاً جداً... ومع ذلك فقد افتتن بها. أعادته إلى ذلك الجو اللذيذ الذي اقتلع منه في أوروبا حيث لا أسرار، ولا وجهان ولسانان لكل فرد، وحيث «ما عسى أن يقول الناس» تعبير مختف من أحاديث.

ولكنه، بعد أن تعمقت العلاقة وصارت حميمية، وكشف العري عن كل ما هو مخبأ، ظهر له الطحل، الذي يظهر دائماً، وهو آفته، وإذا هذه «الشاعرة» المتأوربة التي خيّل إليها أنها كسرت الطوق الشرقي إنما هي حرير على شوك: حبيس كونها ولدت في دهليز، حبيس أنها عبقرية مضيعة، وأن بضع علاقات خائبة أسهمت في جعلها مثل أنثى العنكبوت، وأنها نجحت في أكثر المواد في الجامعة لا بتفوقها وإنما بكونها لا تستعصي على ذكر مع أنها لا تجد لذتها مع أي ذكر. لقد بلغ من لوثتها أن قالت عن حملها أنه كان رائعاً يلفت نظر كل من ينظر إلى بطنها فيلتفت وقد أذهله الإعجاب، ويا خسارة أنها أسقطت! وهي تخاف القطط، وانتهى أمر إلى عشق أناس لا علاقة لهم بالشعر أو الفن، لأنها على الفكرة القائلة (من أي عابر سبيل بات معها ليلة تعلمتها؟) إن النفس البشرية لا تتعلم تعلماً لأنها كانت في عربة الإله جيوبتر منذ الأزل محيطة بكل شيء علماً، وما التعلم إلا تذكر! وأمسى يقول في نفسه مخاطباً إياها وهو يسمعها تلك مثل هذه العبارات الجاهزة: «تتذكرين ماذا حصنتك بألهكم التكاثر. وإذا كنت لم تسمعي بلوركا الذي يعجز حتى جيوبتر عن نظم شعر كشعره فكيف تتذكرينه يا خاسرة؟!».

ولكن أفظع من هذا كله أنها تحب مغنياً بكاء غثاً رثاً حتى الغثيان. وقال في نفسه ذات مرة: «لعلي أن أشفيها من لوثتها هذه إذا أسمعتها شيئاً

شامخاً مثل الكورال الذي في السمفونية التاسعة لبتهوفن...» وهذا ما كان. استمعت طويلاً أو خيل إليه أنها استمعت، وقال آخر الأور: «حلو ولكن فلاناً (ذكرت اسم المطرب البكاء) لا يقل عنه عظمة!» وعاد يقول في نفسه: «ما فيه فايدة! خلقت معتراً وستموت معتراً. وهذه «الشاعرة» نموذج لعشرات كلّهن انتهين إلى هذا «الكشف» المثبط للهم، الماحق. أنت إنسان قرأ عن نساء عظيمات فآمن بأن واحدة منهن لا بد آتية مع بزوغ شمس ما. وهأنتذا في الخريف وما تزال تحلم بالخارق. «الخارق»؟! أية خرافة... ولكن هذا الصوت، الحياة في أمريكا، الكلام الذي مثل الشهد... هل يمكن أن تكون على واحدة مثل اللواتي عرفت؟ حتى سونيا ستيفانيسكو من بخارست، التي عشقتها في أواخر الخمسينات وكدت تتزوجها لولا حظك الضاوي، حتى سونيا التي يضوع من كل مسام فيها عبق الأنوثة الذي لا يوصف... قد لا تكون أحلى من هذه! أنت يا بني عاشق، عاشق حتى لبّ العظام، عاشق أبدي. وإذا كان لحبيبتك أولاد، صبايا وشباب، فسأكون لهم الأخ الكبير والأب الثاني والصديق الكريم!».

وعاد الآخر يقول: «طز! أنت لا ينفع فيك طبّ. ألا تذكر قصتك مع الروسية الحمراء القصيرة، ذات الوجه اللئيم والبخل الأسطوري التي استوطأت حائطك وظلت مليطة عندك عندك حتى حبلت فأحضرت أمها الحيزبون القهرمانة وبقيتا عليك حتى لزمتاك إياها فالتزمت على «شرط» (طز، مرة أخرى!) أن تظل حراً، وأن تذهب إلى بيت أهلها كلما طلبت منها ذلك... حتى إذا كان يوم غابت فيه الحمراء عند أهلها - بناء على طلبك وتنفيذاً للشرط... فلما عادت فتحت عليك بوقاً كسيب العرم لأنها رأت شعرة سوداء طويلة على مخدتك... كأنها سجلتك على اسمها في السجل العقاري الخاسرة!».

الساعة الرابعة والنصف برزت من أقصى الشارع المواجه امرأة هي أقرب الأشياء إلى الشامبانزي. وبدأت ملامحها تزداد «تجلياً» كلما خطت

خطوة في اتجاه بيته. قال في نفسه: «عليّ الجيرة هي. العمى، وجهنا من كثرة الحلاقة والكشط، صار على اللحم الحيّ. ونكافأ بعد صبرنا هذا كلّه واهتراء وجهنا بهذا النسناس!».

كان شعرها، لكثرة ما صبغ، قد أمسى مثل أسلاك الزجاج، متقصفاً، على خشونة شعر صبغ هرمة. وترتدي معطفاً سميكاً رمادياً سابغاً، بقية عريضة تتسدل حتى منتصف ظهرها، فبدا كأنه بردعة حمار مدلل. أكثر من هذا، كانت تنتعل جزمة مما كنا نعرف قبل خمسين سنة، ذات ساقين طويلتين وأزرار على شكل كلاليب صغيرة تتعلق بها الشرائط.

وقال المتفائل الأبدي الذي فيه: «ما هو معقول! مستحيل! هذه؟!».

ولكن ما قطع الشك بالبقين أنها - مثلما دلها على الهاتف - كانت تتقدم ثابتة الخطوة تمشي ملكاً زاحفاً مدججاً ببسطاره إلى بيته. قال في نفسه، وهو ينهض: «مبروك عليك هذا العشق المغرد. عل كل حال خلك مهذباً وأحسن استقبالها ما دمت يا براقش لا ينفع تقويم في منعك من الجناية المكرورة على نفسك!» وتذكر قول المثل الشعبي: يصوم يصوم ويفطر على زقوم!.

ووثب إلى الباب وثبة المهذب، واستقبلها باشاً، حفياً، وأشار إليها أن تتكرم فتقدمه إلى غرفة الضيوف. وطبيعي، إذا كانت ما تزال تتذكر جغرافية. البيت، أنهما سيمران من الصوفة حيث يكتب العفريت ابنه وظيفة الحساب.

وكان ابنه أوطف، صافي العينين، فرفع رموش عينيه ورأى هذه التي قش أبوه لحيته من أجلها مرتين، ونظر في وجه في وجه نفسه بالمرآة سبعين مرة فبدا كأنه عريس ليلة الدخلة بعد التلبيسة... ونقل الولد عينيه إلى أبيه وإذا فيهما - عيني الولد - ما يشبه أن يعني ابتسامة ساخرة على الرأس والعين. ولكن هذا المسواق!... وبلعها الأب «الولهان». وساق «الحبيبة» الولهى إلى غرفة الضيوف. وجاءت أخته، وهي أيضاً مهذبة. وقد ازدادت تهذيباً لأن إمرأة كهذه الوافدة لا يمكن أن تكون خصماً في أية حال... فأهلت وسهلت وهي تحاول أن تخفي بحلقة عينيها!

لاحظ معنى جديداً في وجهها، الحبيبة، يختلف عن ذلك الذي كان له وهي في الشارع هنا، أخذت تكلثم من فمها الواسع وتخفي من أسنانها الخربة، المندفعة إلى الأمام. ولكن ما هاله حتى الإغماء أنها - تعطي الستين مع المراعاة! - تطرق برأسها خفراً كلما نظر إليها، أو تزلق له نظرات تحتية وعيناها إلى الأرض. مرة أو مرتين رفعت إحدى أصابعها إلى فمها كأنها تريد أن تعض عليها من استحياء. وكانت تتكلم بصوت لا يكاد يسمع. وقد تلفظ بعض الأحرف لفظاً محيّراً بين لثغة الأطفال وسلامة نطق الكبار، كأن تجعل الراء بين اللام والغين...

أحد الكتّاب سئل عن فلسفته في جميع ما كتب فقال إنه استعرض شخصيات رواياته ومسرحياته وقصصه فوجد أنها إنما تنتظمها التعادلية. وأوضح تلك الأطروحة بمثال قبسه من الحياة، إذ لاحظ أن المرأة التي يحرمها الله من الجمال يعوض عليها بالذكاء، برجاحة العقل، بكونها ست بيت، أو محدثة لبقة، أو فنانة!

فلما انتقل الحديث إلى السياسة التي تحتكر مجلداتها مكتبتها إلا قليلاً ظهر أنها تحب هتلر، وتعجب حتى ببوكاسا! وطبيعي أنه وجد كل العسر في العثور على التعادل هنا، هو الذي كان يغمي عليه إذا ذكر شيء من هذا القبيل كأنما تستعاد على مسمعه مذابح كأريحا ودير ياسين وكفر قاسم وبغداد القرن الثالث عشر وأناس - ذئاب مثل يوشع بن نون ومنحيم بيغن وبن غوريون وهولاكو.

ثم أنها تتعاطى؟ هي أيضاً، الأدب. وتكتب القصة. قال صاحبنا في نفسه: «واحزني! ونحن الذين مضى علينا ثلث قرن نتعاطى القصة وما نزال نخاف بعد الانتهاء من كل قصة!».

ولم تنسَ أن تشيد بجمالها، في خجل دائم. هذا ما يؤكده لها كلّ من يراها، وتشير إلى أن زيارتها أمريكا وأوروبا نفعتها كثيراً إذا استطاعت، والفضل للمطبخ الأوروبي، أن تستبدل هذه النحافة الجميلة التي هي عليها الآن ببعض سمنة كانت عليها من قبل.

وتساءل: «تراها خارجة، قبل الأوان، من مصح للأمراض العقلية؟» وتذكرّ أن إحدى مؤسسات المساعدة الفنية الأمريكية منحت بضع منح لمرشدين ريفيين لم يسبق لأحدهم أن غادر قريته. فلما هبطت الطائرة بهم في مانهاتن جن نصفهم وتخلخع نصف عقل الباقين!

واستمرت الجلسة ساعة وبعض ساعة حسبها ابتدأت منذ العصر الحجري وسوف تدوم إلى الأبد. وعزى نفسه بأنه منذ الدقائق الأولى انفضح سخف «التعادلية» ولا مسؤوليتها. وأخذ يتلو في سره سورة «الزلزلة». هذه السورة - كانت تقول جدته - واحدة لواحدة لطرد الضيف الثقيل. وهي مجربة، ما أن تبلغ في تلاوتها قوله تعالى: «...ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» وتنفخ في وجه الضيف حتى يكون هذا قد أراك عرض كتفيه. وكان عند جدته رقية أخرى لا تخيب هي أيضاً: أن تضع في حذاء الضيف الغليظ ذرة من الملح. ولكن، أنى له هذه مع هذا البسطار المكروب على ساقيها مثل عدل القطن!

ولم تكد تخرج مودعة «بمثل ما استقبلت من حفارة» حتى فقع العفريت الصغير ضحكة شامتة تُغْضِب أعظم كاظم غيظ في الدنيا.

قال الرجل مقطباً:

- أنت مبسوط يا سعدان، أليس كذلك؟

قال الولد وهو يضحك أكثر:

- لا والله يا بابا، ولكن ابنة عمك الجديدة هذه مهضومة جداً.

وضحكت الأخت كذلك، فأنبها وهو يزداد تقطيباً وقال بين لحمه وثيابه:

- وأيش فيها أنت وهي؟ إمرأة مثقفة جداً!

فاختنق الضحك، وأن كان يهدد بأن ينفجر أشدَّ مما كان، فلم يبق أمامه إلا أن يلوذ بمكتبه ويوصد الباب وراءه.

اليوم التالي، الثامنة والثلث صباحاً. جرس الهاتف يرنّ في الحاح. الهاتف مرة أخرى، العمى! الحر قلبه دليله: كانت هي. وبدأ التظرف

والتنهدات والمجاملات التي تطلع الروح من الصدر. كان صوتها يفيض غبطة ويطفح رضى قالت في غنج ولكن في ثقة:

كيف شفتني؟

هل فوجئ بالسؤال؟ هل كان يتوقعه؟ المهم أنه رأى نفسه يندفق من غير أن يأخذ نفساً، في سحبة واحدة:

- أ.. أأنا، أنا.. أنت تعلمين، أنا عرفت من الوهلة الأولى أنك تحبين الصراحة. أنا، صراحة، أنت تقولين أن مكتبتك لا تحوي إلاّ كتباً قليلة جداً تتكلم في غير السياسة، وتثنين، مع ذلك، على ضروب الدكتاتورية والأليغارشية والثيوقراطية والأوتوقراطية والتوتاليتارية، إن الإنسانية يا سيدتي دفعت ثمناً قاصماً للظهور قبل أن تهتدي إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان. تذكري البراعم المبشرة، والأزهار الواعدة التي حصدتها المقصلة أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر...

ومضى ينبح بغير توقف حتى هلك وانقطع نفسه ولهث. وظن أنها هي أيضاً، على الطرف الآخر من الخط، قد انقطع نفس أذنيها وقعد بها العزم عن تشهي مزيد من الخطب يسلخها بها. لم يكن يهمه هتلر أو ستالين أو موسوليني أو بيغن حتى ولابوساكا. كان يهمه فقط أن يحيد بمقتل من مقاتلة عن ضربة صاعقة يتوقعها فتطرحه أرضاً، كما طرحته الفيلة «الشاعرة»، والحمراء الروسية... ولكن الصوت «العذب» (صار نعيباً لما اقترن بالوجه والحدبة وعمق النظر السياسي!)

تقول في تدلع أكثر:

- لا، أنا أقصد كيف شفتني من الناحية الجسمانية!

الله يخزيك يا شيطان. إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقعت الواقعة. قال:

- أنا، صراحة (الصراحة دائماً!) لا أحب السمينات.

كان يكذب كذباً صارخاً. كان يموت في السمينات. ولكن، ما عساه أن يصنع؟ إنه في موقف الدفاع المشروع عن النفس. وزغرد الصوت الآخر:

هذا ما يقوله لي كل من رآني بعد عودتي من أوروبا. كنت على يقين من أني سأعجبك.. متى نلتقي مرة أخرى؟

- مرة أخرى! مرة أخرى! لم يدر لماذا سألها:

- وأنت، ما رأيك فيّ؟

- أعظم، أروع، أجمل من كلّ ما توقعت. متى نلتقي مرة أخرى؟

لم يحدث له الثناء أيّ أثر مستحب على الرغم من أنه غاص على قرارته منقبّا في اخلاص عن هذا الأثر الطبيعية ولادته في مثل هذا الحال. قالت:

- أتعلم؟ لم أنم البارحة.؟

- أنا أتلقن لك في بحر هذا الأسبوع.

كذبة ضخمة أخرى. قالت:

- أسبوع!

- أنت تعلمين عندي بعض الأشغال المستعجلة. وقد أسافر غداً إلى حلب.

- ولكن اجعل هاتفك صباحاً، بعد الثامنة والربع، أو ليلاً بعد منتصف الليل.

- لماذا هذا؟

- يكون الأولاد قد خرجوا.

وأضافت ضاحكة في دلال:

- أخاف تنتكش غزلاتي!

لم تتلقن خلال يومين أو ثلاثة (ما دام في حلب!)... بعدها شرعت تفعلها عدة مرات في اليوم. وصادف، الأسبوع التالي، أن قدّمت له من محطة

الإذاعة سباعية يروي فيها قصته مع الناقة ذات العينين الحزينتين... الحلقة الأولى استهلت بقطعة شعرية أذيعت بصوته، يقول فيها:

أشرقت ربيعاً بحياتي
يا ورق الورد
يا ماضي عمري والآتي
يا نجم السعد
أنا لولاك
روح ضِليِّلْ
شبح باك
في كلّ سبيلْ
ما دمتُ هدُيت إلى ظلَّ
وأويتُ إليه
هل أرجع عنه إلى غِلٍّ
قد ثرتُ عليه.

وهكذا في كل الحلقات طوال سبعة الأيام التي استمرت خلالها المسلسلة كان الهاتف لا ينقطع، والصوت الذي على الطرف الآخر من الخط يزداد هيماناً ودلالاً وخفراً. مرة، انزلقت منها كلمة لم يفهمها بادئ الأمر:

- نيالها هذه التي تقول لها هذا الشعر. إنه يغلّ حتى أعماق القلب.

كان الوقت صباحاً.

وبعد وقفة قصيرة خيّل إليه في أثنائها أنه يسمع تنهداً يشبه تنهدات القبَل البكر، أضافت:

لا بد أنها فهمت شكاتك. مؤكد أنها تحبك أكثر.

وقفة أخرى، ثم، في ثقة:

متى نلتقي؟ هل آتي الآن؟ لماذا تتعذب؟ أنا أريد أن آتي مرة واحدة وإلى الأبد!

لما ثاب إليه بعض فهمه وجد نفسه مبهوتاً مبغوتاً مما سمع. وخطر له أن يجيب على طريقة المعترين والسقائين ونادلي القهاوي في بلدته. ولكنه قال في نفسه يهدئها: «احلم، احلم يا ولد!» وقال لها:

أرجو عفوك، جرس الباب. سأتلفن إليك الآن.

قبل أن يضع السماعة تناهى إليه صوتها هامساً يقول شيئاً في منتهى الرقة والصبوة والوله. ولكنه لم ينبينه - سواء لأن الصوت كان خفيضاً، إسراراً أو لأنه يكلم نفسه: «السكينة! السكينة! لماذا تفور كل هذا الفوران؟ أهي زوجتك؟»... ولجأ إلى المهديء الذي لا يخرم: الكتابة، فإن أعجزته فالقراءة في أحد الكتب الثلاثة المقلوبة على قفاها مفتوحة (حتى لا تضيع الصفحة).

وغرق حتى نسي كل شيء عن جلود الضباع الهرمة، والجزمات الصفراء، والبساطير ذات المسامير. كان وحيداً في البيت والصمت يلفّ الحي الأولاد في المدارس وربّات البيوت في المطابخ. بين حين وأخر. في فترات متباعدة كان يأتيه نداء: «مكانس، مكانس حلبية»، أو بوق بياع المازرت، أو «الله الدايم، الله الدايم!» هذا بياع الخس، وكان يعمل في مخطط لقصة طويلة يروي فيها بديات وعيه الدنيا في مدينته الصغيرة تلك التي في الشمال. منذ أن قرأ قصص تولستوي الأولى عن طفولته قبل سنوات تأثّر ببساطة هذا الكاتب العظيم وصراحته مع نفسه، وقرر أن يصنع شيئاً مماثلاً ولكنه مغرق في محليته.

كان العمل يتقدم بنجاح، وهو مشرق يُحس، مع عودته إلى أيام الطفولة الهنية، أنه عصفور دوري صغير ينط من غصن إلى غصن. ربما يكون ذلك يكون ذلك قد دام ساعة ونصف الساعة أو الساعتين. فجأة رن جرس الباب رنة واحدة مختصرة. خفق قلبه. هذه رنة زينب. أكيد رنتها. هذه أيضاً تحب

الزواج ولكن علاقتهما كانت في بدايتها، أي لما تصل بعد إلى مرحلة نكسير الأرجل والأيدي والرؤوس إذا تأخر الذهاب عند المختار شهراً أو شهرين لملء الاستمارة الخاصة بالحلال: «أنت تعلمين. يجب أن يدرس بعضنا بعضنا الآخر!»... واستعد لما كان يأخذ نفسيه به عندما يلقاها حتى وهما في الدهليز، وبعد إغلاق الباب مباشرة: أن يحيط خصرها بذراعيه ويرفعها إلى شفتيه...

لا، الطارق كانت العاشقة العجوز! لم تنم منذ ليال وقد كتبت إليه رسالة طويلة تصف «لواعج» قلبها و «نوازعه» و «تباريحه». كانت الرسالة تبدأ بهذا الاستقلال: «ظنّت أنها يئست من أن تجد منُية نفسها...» العمى، «منية النفس» هذه عجوز كالدهر. ربما المنفلوطي ذاته بطلها... وبعد ذلك يأتي وصف، بلغة هفتانة، مكسرة، ملعون أبوها، للقائهما وإعجابها به وإعجابه بها... إلى الأبد!

لم يقرأ «إذا زلزلت الأرض زلزالها» انصرف ابتهاله كلّه إلى الله أن تعود أخته من عند الجيران، أو يصرف المدير ابنه من المدرسة لأن المدرسين. في انتظار أحد الفرّجين هتف بها:

- أعمل لكِ قهوة بيدي هاتين. دون سكر أليس كذلك؟

قالت في عتب:

- أأنا هنا من أجل القهوة! سامحك الله. أنت لم تكمل قراءة الرسالة. اقرأ في الأقل مقطعها الأخير.

- قولي لي إياه قولاً.

- أنا هنا إلى الأبد!

لبّ عقله: أيضاً إلى الأبد؟ حلو جداً، حلوة جداً أن تسترطب أخته عند الجيران ولا تعود الآن، حالاً، أو يذهب ابنه إلى السينما بعد المدرسة (كان معه ليرتان. وسبق أن عملها!) ولكن!... يا للفرحة: ها هو ذا يسمع المفتاح يلعب في قفل الباب....

قالت على الطرف الآخر من الخط:

- أريد لقيا، أريد لقيا، لقيا طويلة ياظالم.

عاد الغيظ يكاد يخنقه. قال في نفاذ صبر وحدة لم يعتدها:

- نلتقي كيف؟

قالت في نتر ابنة الأربعة عشر ودلعنتها:

- مثلما يلتقي الأزواج.

- ومن قال لك أن في نيتي الزواج.

فترة صمت طويل. الصوت على الطرف الآخر يجف حتى يصبح كالبلطة. أخيراً.

إذن هذه الأشياء التي تقولها لي في الإذاعة!

همّ بطبش السماعة ولكنه قال:

- ولكن هذه قصة أيتها السيدة.

- أيتها السيدة، أيتها السيدة، هذه قصة، هذه قصة. أنت يا ظالم لا تفهم حتى نفسك. هذه قصتي أنا. هذه مفاتحة لي غير مباشرة. والأشعار لي وحدي، هل تسمع؟

يا سيدة أؤكد لك أنها...

قالت باترة:

ما كنت أظن أن يبلغ بك الاستهتار هذا الحد، أن تلعب بعواطف الفتيات حتى يتعلقن بك، ثم درن! وإذاً أنت تريدهن لمتعتك الجسدية دونما رابطة شرعية.

وتطبش السماعة على الطرف الآخر من الخط. وصاحبنا يقول وهو فاغر الفم هامساً: «إلى الأبد... آمل!».

* * *

جنــز

سلَك الرصيف الأيسر لأنه ظليل كما زعم لنفسه. كذب: على هذا الرصيف الممتد من ناصية الشارع الذاهب إلى الزبلطاني حتى برج الروس، تقوم سوق مكتظة نشيطة للخضار والفواكه وألبسة البالة والبيض وأشرطة الموسيقى، تزدحم بربات البيوت يلبسن ثياباً خفيفة، وقد يصطحبن بناتهن الصبيّات يلبسن هن أيضاً فساتين فضفاضة من غير أكمام، وينحنين على تلال الباذنجان والكوسا وسلال التين والعنب وأهرامات الكزبرة والثوم والفجل والبصل، فيبدو إبط أزغب هنا وإبط هناك. وقد تجلس إحداهما القرفصاء لتنتقي البندورة، فإذا عرفتَ كيف توقِّت مرورك فربما امزلقت عيناك من فتحة قميصها فتراءت لك أصول النهدين فتزداد نشاطاً ويبتسم لك الصباح ابتسامات ذات حرقات وحسرات لذيذة!

قبل أن يجتاز الساحة إلى كشك الصحف والمجلات الذي يقوم عليه مكفوفون ويبتاع صحفه ومجلاته منه، تقدّمته فتاتان ببنطالين من الجنز الأبيض وبلوزتين حمراوين. وقفتا تنتظران أن يسمح لهما المرور بالعبور إلى العدوة الأخرى. كان الجنزان محبوكين عليهما حبكاً شديداً لا يدع تفصيلاً إلا أظهره كأنهما عاريتان، وشلالان - الكلمة قديمة ولكنه لا يجد خيراً منها الآن - من الشعر الكستنائي الناعم يفرشان على ظهريهما جمعياً. أقدامهما صغيرة، لا تظهر، ولكن الحذائين بالكعبين العاليين هما اللذان يظهران وحدهما. تذكّر نسوة الصين. هؤلاء كان القيد يشوّه أقدامهن وأما هاتان فأقدامهما صغيرة على نحو لافتٍ للنظر من غير حديد.

اجتاز الساحة وراءهما. اشترى جريدة ومجلة واتجه يسرة نحو بائع الحمّص الحبّ. هذا كان يجاوز قهوة شعبية هدمت لتقوم محلّها بناية من

خمسة طوابق. وكان يحتلّ دكاناً صغيرة. وأما الآن فقد أخذ المحلين اللذين يجاورانها، وجعل القديمة للبيع والحسابات والاثنتين المجاورتين لفرز الحبوب من حمّص وعدس وقمبز للطيور وفاصولياء ولوبيا. أما هاتين كانت مفروشة أكياس من الجنفيص على الأرض، وبنات قرويات يشتغلن بالفرز.

قال للمعلم:

- كيلو حمّص، من فضلك.

- فيه بأربع ليرات، نخب أول، وفيه بثلاثمئة وخمسٍ وسبعين. من أيهما تريد؟

- أبو الأربع.

ودفع له أربع ليرات.

وشغل عنه البائع بحسابات لا تنتهي مع أشخاص لا حصر لهم. كان يمد يده إلى الزبون فيقبض، ويمدها مرة أخرى إلى جيب بنطاله ويخرجها وقد حُشيت بكدسات من الأوراق المالية من مختلف الأصناف. قال صاحبنا:

كيلو الحمص.

صاح البائع ببنيّة ذات شملة:

هات كيلو حمص يا بنت.

مدّت البنيّة يدها إلى أحد الأكياس قدام الدكان المجاورة. فانتهرها البائع:

من الجبلي، من الجبلي.

هؤلاء القرويات، أكثرهن، لا يلفتن نظر أبناء المدن. خطرت له هذه الملاحظة فقرر النظر إلى البنيّة التي كانت في تلك اللحظة تملأ علبة سمنة فارغة من كيس عارم. حين استدارت نحوه وهي متجهة إلى الدكان الصغيرة، حيث الميزان، ففغر فاه مدهوشاً. ما هذا العمر، بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة، الوجه، أو ما يظهر منه، آسر ببراءته وطفولته وجدّيته وانشغاله حتى عن فتنته بالتوجه بعلبة السمنة إلى الميزان. العينان واسعتان

شهلاوان، شديدتا الوطف. الفم، لا يكاد يتسع لملعقة شاي مما يوضع في فم رضيع ابن أشهر. وعاد المعلم يزجرها:

- عجلي.

وزانت الحمص. زاد قليلاً. أفرغت من الكيس الورق أكثر من اللازم. شالت الكفّة. أخيراً ضبط. صرّت الكيس ووضعته قرب الميزان، على برميل شاهق فيه فاصولياء بيضاء، وانصرفت إلى عمل آخر من غير أن تعنى بالبحث عن صاحب الكيس. هو أيضاً عاد غير مستحيل. بعد لحظة مديدة هرَّة البائع:

- نعم؟

أشار إلى كيس الحمص.

- الكيس.

- أي كيس؟

- كيس الحمص هذا.

وحال بينهما الداخلون والخارجون.. وغابت العروس الصغيرة في الدكان الأخرى، فلم يبق له إلاّ أن يندسَّ بنفسه فيتناول كيسه وينصرف في اتجاه باب توما. خلق كثير. أربع ليرات كيلو الحمص لأن اليوم وقفة عيد ربما. ألقى نظرة على عربة بياع اللّيف وأكياس الحمّام بين أعمدة البناية التي قامت على أنقاض القهوة الشعبية. هذا لا يكشّ ولا يهش. عنده كرسيٌّ عال يجلس عليه ويشرف على الساحة والناس صموتاً عابساً. أحياناً يبدو وكأنه ينظر ولكنه لا يرى يقيناً. فإذا توقفت امرأة وأمسكت ليفة وسألته: «بقديش؟» أجاب من غير أن يلتفت إليها: «أربع ليرات». ما يشغل باله؟ أهي هموم خاصة أن له تأمُّلات في الما وراء والوجود والعدم والولادة والموت؟

بعد البناية ذات الأعمدة ومخازنها: أحذية، محمصة، ألبسة ولادية، تصل إلى دكان الحلواني. هذا في الشتاء يبيع العوامة والمشبك إلى جانب

الغاتو. الدكان قديمة قدم القهوة الشعبية البائدة، ولعلّ هذا هو السبب في أن صاحبنا المتسكع قد خيّل إليه دائماً أن غاتو هذا البائع متوسخ قليلاً.

الحلواني يجاوز لحّاماً يعرض في واجهة دكانه نخاعات وكلاوي وبيض غنم في صينية من المعدن الأبيض. مرة شاهد في الصينية لسانات ضخمة جداً لم يرفي مثل ضخامتها من قبل. وفكّر: «هذه ألسنة بقر حتماً». وأضاف جذلاً: «لا بد أن ألسنة العماليق مثل أوج بن عناق كانت مثل هذه. لسان إنسان النياندرتال أصغر قليلاً، هذه مسألة مفروغ منها». أمام دكان اللحّام عربة متخلعّة عتيقة قُطرت إلى حمار. العربة والحمار واقفان. يعلم الله أين صاحبهما. فجأة مطّ الحمار عنقه وفتح فمه وشمر شفته العُليا كما هي عادة الحمير عندما يتذكرون شيئاً مسراً وقع لهم مع إحدى أترابهم الحمارات. هذه الحركة العاطفية كشفت عن أسنان الحمار. أسنان طويلة، صفراء فيها آثار تبن. في هذه اللحظة انطلق من الرصيف، قدام صاحبنا، صوت ناعم كانت صاحبته طفلة صغيرة تمسك بيد أمها وتحدق في الحمار مذهولة:

- يا ماما الحمار ما هو مفرشي أسنانه!

وصل إلى القهوة. لم يكن فيها زبائن كثيرون، لأن العيد غداً والمقامرين لّما يفقيوا من سهرة الأمس. أوصى على نَفَس أركيلة، واتخذ مجلسه عند المجلس، في موضع يقع بين بابي القهوة يسميه هو «برج المراقبة»، لأنه يستطيع منه أن يرقب حركة الشارع كلّها. يعني أن برهة الرؤية متسعة. فإذا فاتته رؤية إمرأة وهي مقلبة، نظر في زجاج أحد البابين المفتوحين فرآها في الزجاج وهي مدبرة. صحيح أن الصورة في هذه الحال تكون ضبابية، فاهية، ولكن في الخيال البركة!

الصباح لطيف، ونَفَس الأركيلة عامر، وهو في حال شراهة للرؤية. عبرت الشارع بنتان في هذه السنّ المحيَّرة بين البنت والمرأة. ولكن كلّ البشائر ههنا تفصح عن المرأتين الناضجتين اللتين ستكونان. أنهما تلبسان بنطالين من الجنز، الجنز أيضاً، سماويين محبوكين بشدة، مثلما فتاتا الساحة، حتى أن ثيابهما الداخلية قد ظهرت بكلّ تنتناتها وتخاريمها.

من مكتب شركة التقطير والتخمير المواجه، خرج عتّال ببدلة خاكي رقيقة، ناسلة ومخايلة، بايخة مكرورة أكمام سترتها وبنطالها، وشحاطة من المطاط القاسي. أعجف بنظارتين سميكتين تكبِّران حجم عينيه. أحدهما مأووفة. كان يحمل أربعة صناديق تبرز من أعلاها سدادات تنبئ أن البضاعة بطحات عرق. اجتاز الشارع بصعوبة كبيرة. صعد درجة الرصيف بمشقَّة، فلما وصل إلى درجة القهوة العالية مدّ إحدى رجليه، ولكنَّه ما لبث أن أعادها إلى قرب رفيقتها. صاح:

- يا صيَّاح!

لم يردَ عليه أحد، حاول الصعود مرة أخرى. كان أضعف من أن يستطيع.

فتاتان أخريان بجنزين محبوكين وبلوزتين بيضاوين. هذا يحدث كلّ ثانية. فتيات وفتيان بالجنز. ما هذا الجنز؟ في الشمال بين إدلب ومعر تمصرين ضيعة تسمى «الفوعة»، اشتهرت بين ما اشتهرت به من المنتجات الزراعية المعرفة في المنطقة بصناعة يتوارثها الأبناء عن الآباء عن أجداد الأجداد، هي صناعة الخام. إذا قلت: خام فوعي عنيت قماشاً أضرب فيه السكين ترجع عنه. لماذا لا يفصّلون البناطيل من هذا الخام الرائع، ويصنعون منه جنزاً لا يبلى، والقطن من عندنا واليد العاملة المختصة من عندنا؟

تمر فتيات أخريات بفساتين من مختلف الأزياء ومنها جنز أيضاً لها فتحات من الأمام، أو عن الجانبين تظهر منتصف الفخذ، ولا سيما إذا كانت الفتاة في الشارع وأرادت صعود الرصيف: في لحظة لا تتجاوز عشر الثانية يبدو منظر أخّاذ يضرم النار في دمك حتى الغليان.

العتَّال ذو النظارتين ينتظر وهو يحدق في داخل القهوة. لا أحد. يبيِّت أمره أخيراً: يدير ظهره إلى القهوة ويركز حمله على العتبة في حذر شديد، ثم يصعد الدرجة ويبدأ يحمل الصناديق إلى الداخل.

فتاتان شقراوان خدودهما زهراء. جنز أيضاً.

توقفت إمرأة أمام ورقة نعي على الجدار الفاصل بين القهوة والخمَّارة المجاورة. المرأة محجبّة، منديلها صفيق لا يتخايل من خلالها شيء من وجهها ولكن معها طفلة شعرها ذنب فرس بشريطة حمراء، عارية الظّهر ألاّ من بروتيل صغير يمسك بثوبها الصغير الأحمر. لو صرفت النظر عن الأم لقلت سويدية. التنافر كبير بين حجاب الأم الصارم وحداثة ثوب البنيَّة على صغرها. العام ٢٠٠٠، تبلغ هذه الطفلة الرابعة والعشرين من العمر. وأزاحت المرأة نقابها قليلاً ورفعت عينيها إلى ورقة النعّي. انصرفت. أقل رجل ووقف يقرأ ورقة النعَّي الطازجة. لماذا يحبّ الناس أن يقرؤا أوراق النعّي؟

خرج صاحب الخمَّارة المجاورة. كهل، حسن الهندام، في عنقه ثنيات ولحم متأرجح هرم وغبغب. قرأ النَّعي بعينين محايدتين ثم حدّق في القهوة. عرف اثنين كانا يجلسان عند المدخل فحياهما تحية محايدة هي أيضاً.

مر جل يحمل كيساً من النيلون عليه بالأجنبة كلمة من ثلاثة أحرف س. و. ب. ولكنها كتبت كذلك بالعربية فأصبحت «سب». ضحك صاحبنا: محل اسمه «شتم»، تصور! هذا الخمّار لا يشرب. لا، إنه يشرب مع الأكل قزازة بيرة كلّ عشرة أيام، يجرع من القزازة جرعتين أو ثلاثاً ثم يسكّرها ويضعها في البراد من تحت. وأما زبائنه فلا يقومون عن كراسيهم حتى يدوخوا ويلتوق حنكهم. حتى المراهق بينهم قزازة البيرة لا تكفيه مضمضمة.

فتى بجنز وقميص بجيبين لكل جيب زرّان. يتبعه فتى آخر في مثل سنّة يلبس مثله ولكن زرّ الجيب الأيمن مفكوك أو مقطوع.

بيَّاع يانصيب شبه مشلول، أعشى، شعره أحمر يأتي ليستريح على عتبة القهوة، أقصى الزاوية. بنت بالجنز. إمرأة سمينة جداً بفستان، ولكن أكثر ما يلفت النظر عجيزتها القباء المندفعة إلى وراء كأن لها رفاً. العجيزة ترجّ بحركة يخيل إليك أنها مستقلة عن بقية الجسد، كأنها ليست لها. تصورّها عارية. منظر فريد. لم يذكر أنه رأى إلاّ مرة واحدة. كانت إمرأة لمّا تبلغ الثلاثين ولكنها ناقة. خاطر لذيذ ومؤلم مثل حك جرح يتندَّب.

بائع اليانصيب ينهض. يترنح على ساقيه الهشّتين. يدخل القهوة. الآن اتَّضحت مشيته. إنه يغربل فيها غربلة. بنطاله مفتوق من القفا فتقاً طويلاً. طاف بالحاضرين حتى أقصى القهوة، طوافاً عابراً. لم يكن ينوقف أو يلح. لم يندهه أحد. عاد أدراجه. مر بصاحبنا في برج مراقبته. ندهه هذا:

- يا أخ.

- نعم يا سيدي.

- أعطني نصف ورقة.

- نعم؟

- رفع صوته:

- نصف ورقة.

بسط البائع أوراقه:

- تفضل نق ال تعجبك.

- هاك حقها.

أعطاه إحدى عشرة ليرة. قرَّبها البائع من عينيه جداً. قال:

- ولكن هذه إحدى عشرة.

- أي نعم، عشر حق نصف الورقة، ونصف ليرة لك، ونصف تشتري لي قلم حبر ناشف.

- أترك الأوراق عندك.

- لا، خذها معك.

ابتعد البائع. نزل درجة القهوة بحذر. كان يتقرَّى طريقه بقدميه اللتين تنتعلان خُفّاً من المطاط والقماش ممزقاً.

البنت السمينة لا يليق لها الجنز. ها هي ذي بنت سمينة بجنز مبهبط تتوقف لتقرأ ورقة النَّعي. قال في نفسه: « الخبر يجتذب الناس، ربما لأن فيه

ما يحلمون أن يحدث تجديداً ما في حياتهم المكرورة مثل بغل الطاحون. ولكن أختي لا تهتم للأخبار أبداً».

توقفت سيارة لوحتها كويتية، جديدة، ألمانية. نزل منها رجل مدعبل، بيضوي، بنظارتين ودشداشة من الحرير. هذا شاميٌّ، تعرَّفة على الرغم من تخفيّه. قرأ ورقة النعي، ودخل القهوة. بعد دقائق معدودة التفت صاحبنا يبحث عنه بعينيه. رآه قرب البوفيه، في الداخل، غارقاً في لعبة ورق. لا بد أن اللاعبين فرحوا بمقدمه. إنه آت طازجاً من الكويت بسيارة طالعة لتوّها من الوكالة.

سيارة تكسي تتهادى في الشارع أمام القهوة. أحد الزبائن يشبّ عن كرسيه ويصفر لها صفرة خاصة. السائق يصفّ قرب الرصيف المواجهة. الزبون ينطُّ بين السيارات ويركب قرب السائق. السيارة تسير.

مرَّ زوجان، المرأة فمها ملووق على نحو يجعل نصف وجهها شائل والنصف الآخر هابط. الرجل لا بأس به، سليم وليس متقدماً في السن. المرأة تتشبث بذراعه في قوة. وجه المرأة غير غريب عنه. لفت نظره دائماً. تجاوزتهما امرأة صبية بفستان من الموسلين البيج، عريض الكميّن جداً. لما صارت أمامه تماماً توقفت لتردّ خصلة متمردة من شعرها المتذرذر على وجهها وكفيها. ظهر إبطها حتى الصدر في شبه ظلّ مُرْبك، صاعق! المرأ الصبية استأنفت السير وغيّبها جدار القهوة. الزوجان توقفا. استوقفتهما إمرأة قصيرة انهمرت عليها بالتهاني على ما يظهر. لا بدّ أنهما متزوجان حديثاً. هذا ظاهر من موديل خاتمي الزواج في يديهما. كيف تزوجت هذه المرأة ذات الوجه الهابط شقه الأيمن؟ تصور صاحبنا قصة كاملة: مات لها قريب مقطوع، غنى، هي وريثته الوحيدة بعد تحصيل ضريبة التركات التي لم تؤثر في ثروته الضخمة. أضف إلى ذلك أنها ربحت ورقة يا نصيب، الجائزة الكبرى. اشترت بيتاً من أربع وصوفة فرشته أفخم فرش. الرجل مقامر، بطال، مفلس ما معه عشاء ليلة. وعند المساء تتساوى النساء كما قال

الأولون! لم يكادا يودعان المرأة القصيرة ويخطوان خطوتين حتى توقفا مرة أخرى. مهنئة أخرى. هذه كأنما كان في حرارة تهنئتها طيف ابتسامة ساخرة أو حاسدة أو مذهولة أو كلّ هؤلاء معاً... من يدري!

عاد بائع اليانصيب يغزل في مشيته. سلّم على البويجي:

- مرحباً.

البويجي لا يرد.

دخل البائع القهوة وأعطى صاحبنا قلم حبر ناشف.

- تفضل.

- شكراً. من أين أنت؟

- من جبل العرب. هل تعرف السويداء؟

- أعرفها.

- آني من قرية قريبة اسمها القنوات.

- أعرفها أيضاً.

- بالله!

- الله يعطيك العافية ويرزقك.

- والقايل يا غالي. خاطرك. الله يربحك.

أين يبيت هذا الإنسان؟ هل له أهل هنا؟ كم يربح في اليوم؟ ماذا يأكل؟ إذا مرض من يعنى به؟ هل قرأ هاملت؟

مرّت إمرأة حبلى. توقفت تقرأ النعي وهي تبتسم. لماذا تمشي الحبالى في تثاقل مصطنع، وهنَّ في أعماقهم يحسسن بمعظم المنّة التي خصتّهن بها الطبيعة فميزتّهن من بقية النساء؟

إمرأة بالبروتيل، ظهرها نصف عار، ناصحة بعض الشيء، ساقاها جميلتان جداً: انسياب باهر ونسب تكاد تكون تامة. إنه لا يحبّ السيقان التي

تنتهي بأقدام كعوبها بارزة إلى الوراء. هذه تنبئ عن تسطُّح في القدمين. ربما كان الجنز مرغوباً فيه لأنه يخفي كلّ عيوب السيقان.

ثلاثة فتيان في الربيع. صبا ريان، كاسر، مثل شجرة زيتون عمرها عشرون تؤتي ثمارها الأولى. ماذا لو انضفر هؤلاء وأترابهم في مقرعة واحدة؟ أكانوا يدعون فلسطينياً واحداً مشرّداً عن دياره؟

مرَّ يهودي. يعرفه. هذا صاحب مخزن للألبسة قريب، ولكنه اليوم بطّال لأن اليوم سبت. البارح كان مخزنه يغصُّ بالزبائن المسيحيين والمسلمين. هذه البلاد لم تشهد، قبل غرز إسرائيل في قلبها، أي تعصُّب. وهي حتى الآن لا نعرف التعصُّب. ألا يعلم هذا اليهودي أنه لو كان في إسرائيل لما ارتفع عن رتبة السفرديم، الذي لا يعلو بدوره على رتبة العربي كثيراً؟ وأما هنا فهو لورد، في يده سلسلة ذهبية محفورة عليها اسمه، وغلّته البارح، لمناسبة الأعياد، تقدر بالألوف إذا لم تكن بعشرات الألوف! جماعته يقتلون الأمن والسلام وكلّ حيّ يتنفس في لبنان وفلسطين، ويُسممون العالم، وهو هنا مواطن مثله أي مواطن آخر...

خَلَص النَّفَسَ

* * *

بيّـاع الثّـلج

أظنه تجاوز الستين. ناصح، يلبس سترة «ثلاثة أرباع» من المخمل البيج المقلَّم باخ صدرها وتهرأّ، لها ثلاثة أزرار لا يَعقِدُ غير اثنين منها. يعتمر بسُلُك صيفاً شتاء، ويلبس شروالاً مفتوحاً كمُّه الأيمنَ من الناحية الإنسية. الشروال أدخل كماه، المفتوق وأخوه في جزمة من المطاط.

عربته، التي تشبه تابوتاً كبيراً، يوقفها قدام القهوة. يخرج عدلاً فيه ورق خسّ أو أذناب فجل أو بصل، أو عُضوض سلق، ويضعه أمام فم كديشه اللطيف ذي اللون الأعفر. الحيوان يبدأ الرعي. وأما هو فيفتح التابوت الضخمن، ويحمل كلّ لوح ثلج على حدة، يكسره بسيخ من الحديد إلى شطرين يضعهما تحت إبطه الأيسر. يتوقل علوة الرصيف السوداء. يمدّ يده اليمنى فيدسُّها بين درفتي الباب. يشدّ مستعيناً بهذه اليد على صعود درجة القهوة العالية. يفتح. يدخل. يختفي في الداخل. يعود فيخرج من الصندوق لوحاً آخر. الكديش تذوق ورق الخس. أعجبه. ها هو ذا يأكل بشهية ويمرّغ أنفه وشفتيه في الأوراق الخضراء. أحياناً، يثني قائمته اليسرى مثل طفل رضيع، يريحها متلذذاً ويقضم، يمضغ يبلغ... إن شاء الله صحتين!

تمرّ بنت صبية تلبس بنطال جنز شعرها يفرش على ظهرها وينسدل حتى كفلها المفوَّض الرابي. كستنائي هذا الشعر، ضارب إلى شقرة مثل البلح على أمه، مثل الحلم، مثل سجوف أفق قطبي. شعر يتحدّى، لا يعير انتباهاً لأحد لأنّ اعتداءه منه وفيه. هو لا يفكر في الموت، لأنّ الموت أسطورة مع هذا الأران والزهو. لا يعير التفاتاً لأحد إلاّ إلى تسلُّله السابي. الحصان، الذي قدام الصندوق المتكبش العتيق، لا يراه لأنّ عينيه مغلقتان من الجانبين بكمامتين. ولعلّه أن لا يأبه حتى ولو كانت عيناه حرتين طليقتين. الخس يشبه الشعر الأشقر المنسدل على الوركين ألذ.

التقلة الثانية من نصفي لوح. بيّاع يخرج ومعه عروسة باللبن المصفى والزيت ورشة نعنع. بيّاع الثلج يقضم على قدر ما تسعفه أسنانه العجائز. يمضغ، يبلع، يتمطَّق، يتلذذ. تمرّ فتاة أخرى استداراتها أكثر بروزاً، أكثر تكورُّاً من الكستنا، الشقراء البلحية. هذه بيضاء جداً على حلّة سوداء. بائع الثلج لا يلتفت إليها على الرغم من أن كل عضو فيه يرجّ، يخفق، ينبض. اللبن المصفى أكثر بياضاً ونبضاً... إن شاء الله صحتين!

في صدر القهوة لم يكن ينقذ الدق إلاّ دوشيش. اللاعب يرمي الزهر: إيكي بير. يسبّ... بيّاع الثلح يقضم، يمضغ،، يبلع. وجهه المغلق المحايد يتفلَّق مثل سماء غائمة في آذار أزاحت لثامها عن جزء من عينيها...

الحصان يكاد يجهز على عدل الخس.

فتاتان، فتوة، وقفتا عند بيّاع العقابية المرتَّب الذي رشّ تلّة فواكه الظريفة بالماء. إحداهما جَرَضَت بريقها.

في حديقة أحد المنازل برعم الجانرك. وأما في الحديقة المجاورة فما يزال زهر الكرز في ثوب العرس. أحلى ثوب عرس تتشهّاه، تتشهى عُشْرَهُ ملكة على عرشها. أنا لم يكن لي عرس. في المستشفى، بعد تسع ساعات، جُدِّد قلب. في ساحة المدفع توقف قلب عمره عشرون مثل هذا الربيع. أنت تدري: ملَّ. إنه يعمل منذ عشرين سنة! آن له أن يرتاح! يا كسلان، يا أنت! أنت لن ترتاح لأن الدنيا ربيع، أنت عيب عليك!

* * *

فهرس الجزء الأول

الصفحة

الصفحة

رحلة جدارية

حكايـة بسيطة

الصفحة

الحضور في أكثر من مكان

الطبعة الثانية / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الفهرس

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م
سعر النسخة ٤١٠ ل.س أو ما يعادلها